المركز القومى للترجمة



أندرو هويتكروفت

الكفــار

تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام

2072

ترجمة: قاسم عبده قاسم

المركز القومي للترجمة

أندرو هويتكروفت

الكفار

تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام

2072

ترجمة: قاسم عبده قاسم

هذا الكتاب يناقش قضية مهمة تتعلق بموضوع الساعة فى الثقافة الغربية عموما، وتتصل بمشكلة علاقة العالم المسلم بالغرب الأوربى والأمريكى بصفة عامة. ويكشف الكتاب عن سعة علم المؤلف بالموضوعات الكثيرة التى ناقشها الكتاب عبر مسافة زمنية هائلة تمتد من العصور الوسطى حتى الوقت الراهن. ومن ناحية أخرى، جمع المؤلف بين القراءة فى النصوص، والرحلة، والمشاهدة، ولذلك تنوعت مصادره واكتسبت حيوية أضفت على صفحات الكتاب جاذبية لا تقاوم، كما أن لغته تتميز بالرقة الأدبية والقدرة «التصويرية».

الكتاب يتناول فى فصوله الأربعة عشر، مسائل الفتوح الإسلامية المبكرة، ثم ما جرى فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية الوجود السياسى للمسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا، مصورا فظاعة التعصب الكاثوليكى، وبشاعة رجال الدين ومحاكم التفتيش، وكيفية رسم صورة «للآخر» تبرر هذه البشاعة وتناسبها .

هذا الكتاب يغطى مساحة شاسعة، فى الزمان والمكان على السواء، فهو يبدأ فى القرن السابع الميلادي، ويمتد إلى القرن الحادي والعشرين. وحدوده جنوب الجزائر، وفيينا فى الشمال والمحيط الأطلنطي غربا، وبحر العرب والمحيط الهندي فى الشرق. ويخرج أحيانا عن تلك الحدود، ولكن مركزه عالم البحر المتوسط.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2072
- الكفار: تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام
- أندرو هويتكروفت
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:
Infidels
A History of the conflict between Christendom and Islam
By: ANDREW WHEATCROFT

First Published in Great Britain in the English Language
by Penguin Books Ltd

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

الكفار

تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام

تأليف : أندرو هويتكروفت
ترجمة : قاسم عبده قاسم



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هوتيكروفت، أندرو.
الكفار: تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام.
تأليف: أندرو هوتيكروفت، ترجمة قاسم عبده قاسم
ط١، القاهرة - المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٦٣٦ ص، ٢٤ سم
١ - الاسلام والمسيحية
(أ) قاسم ، قاسم عبده (مترجم)
(ب) العنوان ٢١٤،٢٧

رقم الإيداع ١١٧٦٥ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى 8-163-216-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

هذا الكتاب يناقش قضية مهمة تتعلق بموضوع الساعة فى الثقافة الغربية عموما، وتتصل بمشكلة علاقة العالم المسلم بالغرب الأوربى والأمريكى بصفة عامة. ويكشف الكتاب عن سعة علم المؤلف بالموضوعات الكثيرة التى ناقشها الكتاب عبر مسافة زمنية هائلة تمتد من العصور الوسطى حتى الوقت الراهن. ومن ناحية أخرى، جمع المؤلف بين القراءة فى النصوص، والرحلة، والمشاهدة، ولذلك تنوعت مصادره واكتسبت حيوية أضفت على صفحات الكتاب جاذبية لا تقاوم، كما أن لغته تتميز بالرقة الأدبية والقدرة «التصويرية» .

لقد ناقش الكتاب مشكلة «الآخر» من خلال أربعة عشر فصلاً. وبدأ من معركة انتصر فيها أسطول الغرب مجتمعًا على الأسطول العثمانى فى ليبانتو سنة ١٥١٧م وهو ما يكشف عن أمرين غاية فى الأهمية بالنسبة للمنهج الذى اتبعه المؤلف فى هذا الكتاب الذى يتناول تاريخ الصراع بين عالم الإسلام وعالم المسيحية:

أولهما: أن المؤلف لم يحبس نفسه فى إطار التتابع الزمنى الكرونولوچى، وإنما اختار أن يتناول موضوعات متنوعة، وإن كانت غير متفرقة. داخل الإطار العام لموضوعه.

وثانيهما: أنه اختار نقاط مناقشة موضوعه على أسس تاريخية وجغرافية فى آن معًا. فبعد مقدمته الحافلة والممتدة ناقش العلاقات العثمانية الأوربية فى لحظة تاريخية فارقة؛ محاولاً أن يبين من خلالها كيف كانت تبدو صورة «الآخر الكافر» فى عيون المسلمين وفى عيون المسيحيين فى القرن السادس عشر من خلال لقطات تصوير ودرامية رسمها قلمه ببراعة. وإن كانت ثقافته الغربية قد جعلته. بالضرورة. واقفًا على الشاطئ الغربى فى معظم الأحيان.

الكتاب يتناول فى فصوله الأربعة عشرة مسائل الفتوح الإسلامية الباكرة، ثم ما جرى فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية الوجود السياسى للمسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا، مصورا فظاعة التعصب الكاثوليكى، وبشاعة رجال الدين ومحاكم التفتيش، وكيفية رسم صورة «للآخر» تبرر هذه البشاعة وتناسبها .

وهو يخصص الجزء الثالث من الكتاب لمناقشة قضية الحروب الصليبية من منظور غير مألوف فى الدراسات التاريخية التقليدية التى تناولت الحركة الصليبية؛ لكنه هنا أيضا يكتب «من بعيد». ربما بسبب عدم التخصص. وربما بسبب اتساع مدى الكتاب واهتمامه المركز بمسألة «صورة الآخر». وقد أولى الفن اهتماما خاصًا فى كل أجزاء هذا الكتاب المدهش.

ويناقش فى الجزء الرابع مشكلات البلقان، منذ الاحتلال العثمانى، حتى مذابح التطهير العرقى التى شهدتها المنطقة بعد انهيار يوجوسلافيا فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين. وأشهد له فى هذا الجزء بنقل صورة حيوية لما جرى ومحاولة البقاء بعيدًا عن منزلقات الانحياز والعمى السياسى؛ فضلاً عن بيان حقيقة أن نصارى البلقان يعلقون كل أخطائهم وخطاياهم، وجوانب القصور فى حياتهم، على مشجب الاحتلال العثمانى. ويواصل مناقشة تأثيرات مشكلات البلقان على منظور كل من المسيحيين والمسلمين فى هذه المنطقة من العالم إلى الآخر، وكيف غرست الكراهية فى نفوس كل من الجانبين تجاه الآخر، والمذابح البشعة التى جرت...

ينتقل الكتاب بشكل مدهش إلى تناول تأثير المطبعة، بما تنتجه من نصوص وصور على العلاقة بين الجانبين من ناحية. وعلى مدى نشر الصورة التى يتصورها أحد الطرفين للآخر...

ولست أقصد هنا أن أقدم تلخيصًا لمحتوى الكتاب (فربما يكفى الاطلاع على فهرس المحتويات لهذا الكتاب). ولكننى أردت أن أبين مدى التنوع الذى يتميز به هذا الكتاب. ومدى سعة اطلاع مؤلفه، وكيف أنه بذل جهدًا فائقًا استغرق وقتًا كبيرًا؛ فالكتاب حافل

بالتفاصيل الفرعية، والمعلومات المفيدة التى تبدو خارج السياق أحيانا. كما أنه ينتقل من مسرح جغرافى إلى مسرح آخر، ومن فترة تاريخية إلى فترة تاريخية أخرى سعيا وراء صورة «الآخر الكافر». كما رسمها المسلمون للأوربيين فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة؛ وكما رسمها الغرب للعالم المسلم منذ العصور الوسطى وتطورها حتى الآن.

والكتاب الذى ينتقل بنا من العصور الوسطى إلى اللحظة الراهنة، ومن حركة الفتوح الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع الميلادى، ومن أقوال القساوسة والرهبان الذين كتبوا عن المسلمين الأوائل حتى ما قاله چورج بوش والكتاب والصحفيون الغربيون عن الإسلام والمسلمين حاليًا. هذا الكتاب يأخذنا أيضا من شبه الجزيرة العربية حتى بلاد الشام ومصر والمغرب العربى عبر مضيق جبل طارق فى إسبانيا ويسافر بنا إلى البلقان. لينهى رحلته فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن الطبيعى ألا أكون متفقا مع المؤلف فى كل ما جاء بكتابه؛ ففى موضوعات بعينها لم أكن على اتفاق معه، وقد بينت موقفى باستمرار فى هوامش تحت النص. ولم يعجبنى بعض ما قاله هنا أو هناك ورأيت أن أسجل اعتراضاتى هنا أو هناك أيضا. وفى بعض الأحيان كنت أحاول تفسير إشاراته إلى موضوعات يعرفها القارئ صاحب الثقافة الأوربية أو الأمريكية. ولكن الكتاب. على الرغم من هذا. كتاب مدهش ومفيد تمامًا.

وقد كان المؤلف سخيًا للغاية فى الهوامش التى ذيل بها فصول كتابه. وجاءت الكثير من هذه الهوامش لتخاطب القارئ الغربى ضمن الإطار العام للثقافة الغربية. وقد ناقش فيها قضايا مألوفة في الثقافة الغربية فى الدول الأوربية والأمريكية. ولا تهم قراء العربية فى أى جزء من العالم العربى. ولهذا السبب فإننى رأيت أن بعض هذه الهوامش يجب أن تبقى فى لغتها الأصلية نظرًا لأن القارئ العربى قد لايهتم بها، على حين قمت بترجمة البعض الآخر منها. وهناك مجموعة أخرى من الهوامش تتضمن إحالات إلى المصادر والمراجع الأجنبية التى اعتمد عليها المؤلف فى بحثه وليست هناك فائدة فى إعادة كتابتها .

وفى رأيى، العلمى والشخصى، أن كثرة الهوامش ربما تكون عبئًا على الكتاب فى طبعته العربية التى تخاطب بيئة ثقافية تختلف بصورة جوهرية عن البيئة الثقافية التى استهدفها المؤلف والكتاب. ومن ناحية أخرى، فإن كثيرًا من الهوامش التى ضمها الكتاب تتناول مناقشات جرت فى مراكز الدراسات والجامعات الأوربية والأمريكية. وقد تغاضيت عن مثل هذه الهوامش، وترجمت الهوامش الأخرى التى رأيت أنها مفيدة للنص العربى، وللقارئ العربى على السواء.

أما عن الترجمة، فقد حاولت قدر الإمكان أن تكون فى لغة عربية سليمة بسيطة مع الحفاظ على ما جاء فى النص الإنجليزى قدر الإمكان. مع توضيح فى الهامش لبعض المصطلحات والأسماء التى أشار إليها المؤلف فى ثنايا الكتاب. وقد التزمت بإيراد النصوص الأصلية من الكتاب المقدس حيثما أشار إليها المؤلف فى متن الكتاب. وأرجو أن تكون هذه الترجمة مفيدة للقارئ العربى فى كل مكان من المنطقة العربية.

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

٦ أكتوبر. سبتمبر ٢٠١١م

إهــداء

إلى إيريك أوسكار هوبتكروفت

حبا وعرفانا

«التاريخ أخطر نتاج نتج عن كيمياء الذكاء منذ الأزل. إنه يتسبب فى الأحلام، ويجعل الأمم تسكر بالنشوة. وتثقل كاهلها بالذكريات الزائفة... ويبقى جراحها مفتوحة. ويعذبها عندما يجافيها الاستقرار، ويبث فيها جنون العظمة وريبة الاضطهاد»

– بول فاليرى

تأملات فى عالم اليوم

شـكـر وعـرفـان

هذه الصفحات تسجل شكري لبعض أولئك الذين ساعدوني في فهم لغز. «الكفار». منهم كثيرون لا أعرف أسماءهم من أمثال: حسن ومحمود اللذين يظهران في مقدمة الكتاب .كذلك لعبت الصدفة دورا عظيما. وغالبا ما كانت محادثة غير متوقعة مع أناس لا أعرفهم في عمان أو في تكساس هي التي دفعت بي إلى اتجاه جديد (ومفيد. . بيد أني ممتن بشكل خاص لبعض الذين يمكنني تسميتهم. أولا. أولئك الذين اضطلعوا بالمهمة التي لا يوافيها الشكر حقها، أي قراءة أجزاء من النص. أو كله. بالشكل الذي وضعني على طريق الصواب. فقد كان ديجان جوفيتشي كريما بحيث قرأ الفصول التي كتبتها عن البلقان. واقترح الكثير من التغييرات والتحسينات. ولم يهزأ من اندفـاعي. وجهلي. لاقتحام مجال لا أمتلك فيه سوى هذا القدر الضحل من المعرفة. وقد بزغ جزء من ولعي الذي اكتشفته حديثا بجنوب شرق أوربا من المؤتمر الممتاز الذي انعقد في جامعة مينوسوتا. مينابوليس. تحت عنوان. خلق الآخر Creating the Other» الذي نظمه مركز الدراسات النمساوية في شهر مايو سنة ١٩٩٩م. أي في وقت كانت فيه الكثير من التوترات البلقانية تغلي تحت السطح. بيد أننا تكلمنا عن حوادث مأساوية بالقدر الذي نستطيعه من التجرد من العاطفة. وعلى نفس المنوال. فإنني في هذا الكتاب عندما حاولت فصل مشاعري الخاصة عن مادة الموضوع الذي أكتب عنه. وجدت أن الأمر لم يكن سهلا على الدوام .

وثمة منطقة أخرى دخلتها مسلحا بالنزر اليسير من المعرفة المسبقة وهي منطقة الدور الذي تلعبه اللغة. وقد قام لانس بتلر Lance Butler بقراءة كل كلمة. ولم يكتف بقراءة المادة الخاصة باللغة فقط. وكانت نصائحه ومساندته لا تقدر بثمن. كذلك

كانت مساعدة سوزان بيترز Susanne Peters ونصائحها. فقد قرأت أيضا كل فصل. وفي بعض الأحيان قرأت الفصول في صياغات مختلفة. وقد أمدتني بفيض من الكتب والمقالات التي كان من الواجب قراءتها. ووجدت الكثير من المصادر غير عادية وغير متوقعة. كما كانت تشجعني باستمرار. وقد شرحت لي جودى ديلين Judy De-lin الأفكار المعقدة في اللغويات بوضوح يسر لى فهمها، إضافة إلى طريقتها المباشرة في إخباري متي لا يجب على استخدامها. أما ميشيل رايس Michael Rice فقد أمدني بالنصائح الجيدة باستمرار حول النص الذى أرسلته له. وذلك بفضل معرفته العميقة بالكثير من مناطق الشرق الأوسط. وأخيرا. والدى. . أوسكار هويتكروفت. الذي قرأ النص بكامله بدافع من الحب مراعيا ألا تكون هذه هي نقطة الضعف في رؤيته. بيد أن ما يدعو إلى حمد الله أن حسه النقدى لا يزال غاية فى النشاط. وهو ما أنقذنى من أخطاء كثيرة كنت سأقع فيها مثل بحار جاهل يبحر فى الاتجاه المعاكس. ولا يوجد أحد غيرى مسئول عن أى من الشوائب الباقية بالكتاب.

كما أنني جعلت من نفسي أيضا مصدر ضيق لكثير غيرهم عندما كنت أطرح الأسئلة الساذجة التي أجابوا عنها بلطف ورقة بالغين. ولابد أن جون دركاليس. ونيل كيبل. وروبرت ميليس. ودافيد بيبنجتون. ومارك نيكسون. وأورون جوفي. بصفة خاصة. كانوا يرتعدون من ظهورى في ستيرلنج. وهذا أول كتاب أكملته بفضل كل ما يتيحه الإنترنت والبريد الإلكتروني. وبينما كان لدى زملائي من الأسباب ما يجعلهم يجيبون عن أسئلتي. لم يكن هناك سبب يجعل أولئك الذين تبعدهم عنى مئات الأميال يفعلون ذلك. وإنى لشاكر على المساعدة والمشورة التى لقيتها من كارنر فوجن فندلى. وجوناثان بلوم، ودان جوفيمان. وروبرت ميخائيليس. ولارى وولف. ودافيد نيرنبرج، وإيفا لفين. وهناك آخرون مثل ستيفن جرينبلات. وروجر شارتييه. وتوماس إيمرت. وهيو أجنيو. ومارجريت ميسيرف. ونانسى وينجفيلد. ومايكن أومباش. كان من سوء حظهم أننى كنت أزنقهم فى استراحة لتناول القهوة فى أحد المؤتمرات. أو أن أستجوبهم فى وقت الغذاء. وفهمت من جون كيجان. على مدى سنوات كثيرة للغاية. أن أحاول رؤية الأمور بوضوح بغض النظر عن ضباب

المعركة». وكان جون هو الذى اقترح كتابى الأول. ومن ثم فإن امتنانى له يرجع إلى فترة طويلة للغاية فى رحاب الماضى. وتعلمت من كولين وشارلوت فرانكلين أهمية الشعور بالكتب وملامستها. فى خضم ثراء «شونة الكتب» الخاصة بهما فى كولهام. وتعلمت جيدا. وقد ساعدني اثنان من الناس في البحث من أجل هذا الكتاب. عندما لم أكن أمتلك الوقت ولا أمتلك ناصية اللغة. وقد ساعدتنى ليفا باروش. التى اقترحتها آفى شاليم بلماحيتها) مساعدة هائلة فى تقييم المادة العبرية. إذ قرأت النص وقدمت لى النصح فيما يتعلق به. وهى صاحبة عين مدهشة تلتقط الأمور التى لا تصلح مثلما ترى الاقتراح الملهم والموحى بشىء قد ينفع. كما أن أنيستى هويتكروفت لم تشك أبدا من طلباتى بالنبش فى الأماكن الأكثر عتمة وجفافا فى المكتبات ودور الوثائق من أجلى. وهى تتمتع أيضا بالإحساس الممتاز بالمادة بعيدة الاحتمال ولكنها لا تقدر بثمن. وإني لأدين بالشكر الجزيل والعرفان لكل منهما .

وفى عنقى دين بالشكر لكل أولئك الذين ساعدونى بإبراز الأخطاء المطبعية فى الطباعة الأولى لهذا الكتاب. فى مايو ٢٠٠٢م. لقد كان كل من رنا قبانى. وجوناثان فاللا. وجوناثان بنتال. وجون آدامسون جميعا على قدر من الطيبة بقدر ما تمتعوا به من المهنية فضلا عن أنهم كانوا يقترحون التفسير الأفضل من التفسير الذى كنت أطرحه. وكان من دواعى سعادتى البالغة أن أخذت بمقترحاتهم. وإنى لمدين لهم بالشكر جزاء مجاملاتهم كلها وقراءتهم النص قراءة مدققة. إذ كانت كارول تمضى الساعات فى صبر لتفك غموض الموضوعات المعقدة فى الفصل الأخير من الكتاب. وكانت رؤاها وبصيرتها شيئا لا يقدر بثمن. وأريد أيضا أن أشكر جون توربى. الذى كان كريما وهو يجيب عن جميع أسئلتى ويرد على كافة هواجسى المتعلقة بالفصل نفسه الذى خضع لمراجعات وتعديلات بلا نهاية .

إن تأليف مثل هذا الكتاب. الذى شغل هذه الكثرة من الساحات المتباعدة والقضايا المتنوعة. يمثل عبئا حقيقيا على أصدقاء المرء. فقد تحملت روز مارى مورجان العبء الأكبر فى جميع المراحل. ويسرت لى سبيل الوصول إلى ييل Yale. وكانت مضيافة

كريمة إلى أبعد الحدود. كما كان قلمها نقديا لاذعا. ولولا المساعدة التى قدمتها لكان تأليف هذا الكتاب أشد صعوبة. وكان جون بريور. وستيلا تليبارد من أفضل ما يمكن للمرء أن ينعم به من الأصدقاء. فى فلورنسا وفى أوكسفورد. فقد أسهما بالكثير فى هذا الكتاب. بما كتباه. أو من خلال الحوار معهما، فضلا عن الفرصة التى وفراها لى. وكذلك فعل فؤاد قشير فى عمان حيث خضت معه غمار مسائل عميقة تخص العالم العربى واللغة العربية. وممدوح أنيس. وكريستيان كوش فى أبى ظبى. وقد تعلمت منهما كيف أجعل الكتاب يحتفظ بمساره. وفى إنجلترا. أدين بالامتنان لدافيد باتسون. بسبب معرفته بالكنيسة الباكرة. وريتشارد ستونمان. لخبرته ومعرفته باليونان وتركيا؛ وجيوبست لصداقته على مدى العديد من السنين. وروى دوجلاس الذى ساعدنى على فك طلاسم الصور. ومن بين العديد الذين «كانوا هناك» مستعدين بالنصيحة. أو المساعدة، أو الصحبة عندما كنت بحاجة إليها. أود أن أذكر بشكل خاص محمد شيركى وجعفر الحاج. اللذين عرفانى بالأدب الجديد فى الجزائر. وأنجليكا هاميلتون التى كان لحماستها وحيويتها المتدفقة الدءوبة الفضل فى تبديد شكوكى فى المشروع برمته. وكذلك نجدى مدبولى. الذى كنت أختبر معه المعانى العربية. وأندرو سوبيش . وأليك ستاكوفيتش الذى كان حديثى معه عن البلقان لا ينقطع. وأخيرا فردريك ميرلى. وتشارلى سيدون. الرفيقان الطيبان .

وفى غرناطة. منذ سنوات كثيرة انقضت. سمح لى دون جيسوس برموديربريجا. وسرتا أنجلينا مورينا أن أنبش فى وثائق قصر الحمراء. كما دلانى على دور وثائق أخرى فى المدينة. ومن خلالهما أيضا وجدت طريقى داخل الجبال. إلى البوخاراس. معقل الموريسكيين. تلك التجارب قد تركت تأثيرها على حياتى وعلىَّ منذ ذلك الحين .

كان هناك متحفان لا يقدران بثمن بالنسبة لذلك الجزء من الكتاب الذى يتناول الكلمة المطبوعة. المتحف الأول هو **Musee de l'Imprimarie de Lyon** الذى تم تأسيسه بتوجيه من هنرى. جان مارتان . والمتحف الآخر متحف جوتنبرج. فى مدينة ماينز. ومن المحزن أن زيارتى لمتحف بلانتين مورينتوس **Plantin-Morentus** فى

أنتويرب قد ألغيت. هذه المتاحف كانت عونا بالغا لى ووفرت لى فرصة فريدة لأن أحس إحساسا واضحا بعالم الطباعة. ويصدق هذا بصفة خاصة على القرون الثلاثة الأولى (بعد اختراع الكتابة. التى شهدت جميع عمليات صناعة الكتاب التى جرت فى ذلك الحين.

وأود أن أعبر عن امتنانى المستمر لوصولى إلى الكتب القديمة من خلال مكتبة الكونجرس ومكتبة فولجار بوشنطن العاصمة. ومكتبات ستيرلنج. وبينيكى. وسيلى ج. مود فى ييل. ومكتبة ويلسون فى جامعة مينوسوتا .وكذلك مكتبة جامعة تكساس التقنية حيث عملا بسعادة على مدى عدة سنين. وبالقرب من موطنى أنجزت قدرا كبيرا من العمل فى المكتبات البريطانية، مع مجموعة الكتب فى متحف فيكتوريا وألبرت. وفى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن. وفى المكتبة الوطنية فى أدنبره بأسكتلنده. وفى مكتبة ترينتى بدبلن. ومكتبة جامعة ليدز. وكانت مكتبة جامعة كمبردج. ومكتبة معهد واربورج والمجموعة الخاصة بمكتبة إدينبرج من المصادر التى لا تقدر بثمن بالنسبة للمادة البحثية.

فى فيينا برهنت المكتبة الوطنية على أنها كنز مدفون لصور الكفار القديمة. وقد أفدت أيضا من مصادر **ENSSIB** فى ليون. وفى زيارات أخرى أفدت من **IRCICA** فى إستنبول. ومن دارة الفنون فى عمان بالأردن. ولكننى أدين بدينين خصوصيين يجب الاعتراف بهما. أولهما للدكتور جمال السويدى الذى دعانى للعمل فى مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية فى عدة مناسبات على مدى أربع سنوات. وقد جنيت الكثير من الفوائد لا من حيث استخدام مكتبتهم الممتازة فحسب. ولكن أيضا من نصائح جمال السويدى واهتمامه بعملى. والدين الثانى الذى أدين به أقرب إلى موطنى فى إستيرلنج. إذ إن الجامعة لم تكتف بمنحى منحة بحثية كريمة فقط، ولكن عمل طاقم المكتبة فى إستيرلنج تعدى نداء الواجب بقدر كبير. وأظن أننى أخذت سجل الاستعارة فى الجامعة لحسابى. وكان معنى هذا أنه بالنسبة لموضوع يغطى مثل هذه المجالات المختلفة واللغات المتنوعة. كان بمقدورى أن أمضى وقتا فى القراءة والكتابة

يعادل الوقت الذى أنفقته فى السفر والترحال من قبل. ولا يمكن مقارنة هذه المكتبة من حيث حجم مقتنياتها مع مؤسسات أكبر منها. بيد أن رصيدها من الكتب كان محل اختيار دقيق. وكانت هناك مفاجآت عديدة فى انتظارى فى هذه المكتبة. فبينما لم تكن المكتبات الأكبر منها كثيرا تضم الكثير من مجلدات قصص القرن التاسع عشر المعروفة باسم Punch(*) التى كنت بحاجة إليها. وجدتها قابعة على الرفوف فى إستيرلنج .

وإنى لممتن بشكل خاص للمحررة إليو جوردون Elio Gordon . لسببين خاصين أولهما أنها قبلت فكرة أننى أعمل بكل جهدى حقا فى هذا الكتاب عندما كنت أتأخر فى تسليم النصوص. وثانيا. وكما حدث فى كتابى السابقين لدار الفايكنج. أن كل اقتراح للناشر اقترحته هى كان من الدقة والصواب بحيث يسهل قبوله. وفى جميع الأحوال كان حكمها صائبا ونافذا تماما. كما أننى أدين بالشكر والعرفان لما تحملته إليزابيث ميريمان Elisabeth Merriman من المشقة والصبر فى تحرير النص. فقد كانت مقترحاتها فى إعادة الصياغة أو التوضيح أو الإضافات. من عوامل تحسين النص بشكل مستمر تقريبا. وقد تقبلتها بلا تردد شاكرا.

وهناك جميل آخر ينبغى الاعتراف به. فقد عرفت السيد لورنس ستون Lawrence Stone على مدى فترة تزيد عن عشرين سنة. وفى بعض هذا الوقت قمت بعمل المحرر الملتزم له.

وأن تكون محررا لما يكتبه لورنس عملية ذات اتجاه واحد. فقد كان يكتب وكان على محرره أن ينظم الكتاب استعدادا لنشره وحسب. ولم يكن السبب فى هذا أنه لن يأخذ بالمشورة. وهو ما كان يفعله. ولكنه نادرا ما كان يحتاج إلى النصيحة. وفى العملية المعاكسة. وأنا أسعى للحصول على النصيحة فى عملى. كانت المسألة مختلفة

(*) مسرحيات شعبية إنجليزية تؤدى بالدمى والعرائس. (المترجم)

للغاية. فقد أسهم لورنس بقدر كبير. وكنا نتقابل سويا، سواء فى أوكسفورد أو برينستون. وكان يقدم مقترحاته ويقدم الأشخاص الذين أتواصل معهم. كما كان ناقدا صارما لأفكارى. ولكنه شجعني دائما على الاستمرار. لقد كان لورنس صديقا مساندا ومعضدا بطريقة مدهشة. ولو كنت قد كتبت بمعدل أسرع قليلا واتبعت عددا أقل من النقاط الثانوية التى وافق عليها لورنس بصورة فعالة. فربما كان هذا الكتاب قد ظهر قبل موت لورنس المفاجئ.

آخر شكرى وأعظمه قدرا أسديه لزوجتى. جانيت هويتكروفت. فقد عانت على مدى أكثر من عشر سنوات من انشغالى المزعج بهذا الموضوع المرهق. وقرأت المسودات التى تفوق الحصر، وأبعدتنى برفق عن أسوأ حالات التطرف. ولكنها قاست أيضا كتاباتى على تجربتها الخاصة عندما عاشت حياة تشبه حياة العصور الوسطى فى جوهرها. وعزلتها فى رحاب ثقافة أخرى. دونما طرق. أو كهرباء. أو تليفون. وكانت تفتقر إلى لغة مشتركة. لقد عاشت بفطنتها ورقتها المحببة بالنسبة لأولئك الذين كانوا حولها. لم يكونوا يفهمون لماذا كانت هناك ولكنهم تقبلوها بينهم. كان ذلك فى نيبال. وهى ليست ثقافة إسلامية. بيد أن ذلك لم يحدث سوى فروق قليلة. لقد كانت مراقبا صامتا. وهى ترى عائلة شيربا وتشاهد حياة القرية وربطت ذلك بتجربتها الخاصة. وما استطعت أن أشعر به فقط عن الماضى وعن التشابه والاختلاف. استطاعت هى أن تسبر غوره على أرضية مما شاهدته وأحست به. وبغير الفائدة المكتسبة من بصيرتها التى كسبتها على مدى تلك الشهور العديدة. قضتها فى وحدة مؤلمة لكل منا. لما استطعت أبدا أن أكمل هذا الكتاب.

ملاحظة تحريرية

إن مشكلات المصطلح من الأمور الملازمة فى كتاب مثل هذا الكتاب. ذلك أن مصطلحات. «الغرب». و «الشرق». «أوربا». و «الإسلام فى عالم البحر المتوسط». وكافة المصطلحات التى استخدمتها بانتظام. أعترف بأنها سوف تثير حفيظة التطهريين. وبالمثل. كنت حريصا للغاية فى استخدام مصطلحات شائعة الآن مثقلة بشحنتها مثل. «الآخر». و «الاستشراق»، أو «الأصولية». وعلى العموم فإننى تجنبت هذه المصطلحات الثلاثة جميعا .

ودائما ما تشكل أسماء الأعلام وأسماء الأماكن مشكلة. خاصة فى هذا الكتاب حيث يمكن للأسماء نفسها أن تتسبب فى نزاع شديد. وكانت القاعدة العامة التى سرت عليها أن أستخدم الشكل الذى يعرفه قارئ اللغة الإنجليزية أكثر من أى شكل آخر. بيد أن تلك القاعدة لم تتبع بصورة كاملة ومتسقة. فالشكل الإنجليزى لكلمة. القرآن» هو Koran ولكنى كتبتها Qur'an بشكل اعتيادي. وهناك أمثلة مشابهة أخرى.

كذلك واجهت معضلة أخرى. فهناك صور كثيرة ورد ذكرها فى هذا النص. أكثر بكثير مما بينته بالفعل. وعندما لم أظهر صورة مرئية مهمة لبيان وجهة النظر فى الجدل. وصفت محتوياتها بالتفصيل. بيد أن إحدى مشكلات استخدام الصور تتمثل فى أن الحصول عليها الآن يكلف ثمنا غاليا. ومن الناحية المثالية كنت أود لو أنى استخدمت المزيد من الصور .ولكن بالنسبة للقراء من أمثال «توماس الشكاك» ممن يحبون أن يروا بأنفسهم. فإن غاية ما يمكن أن أرد به أن هذا قدر جهدى .

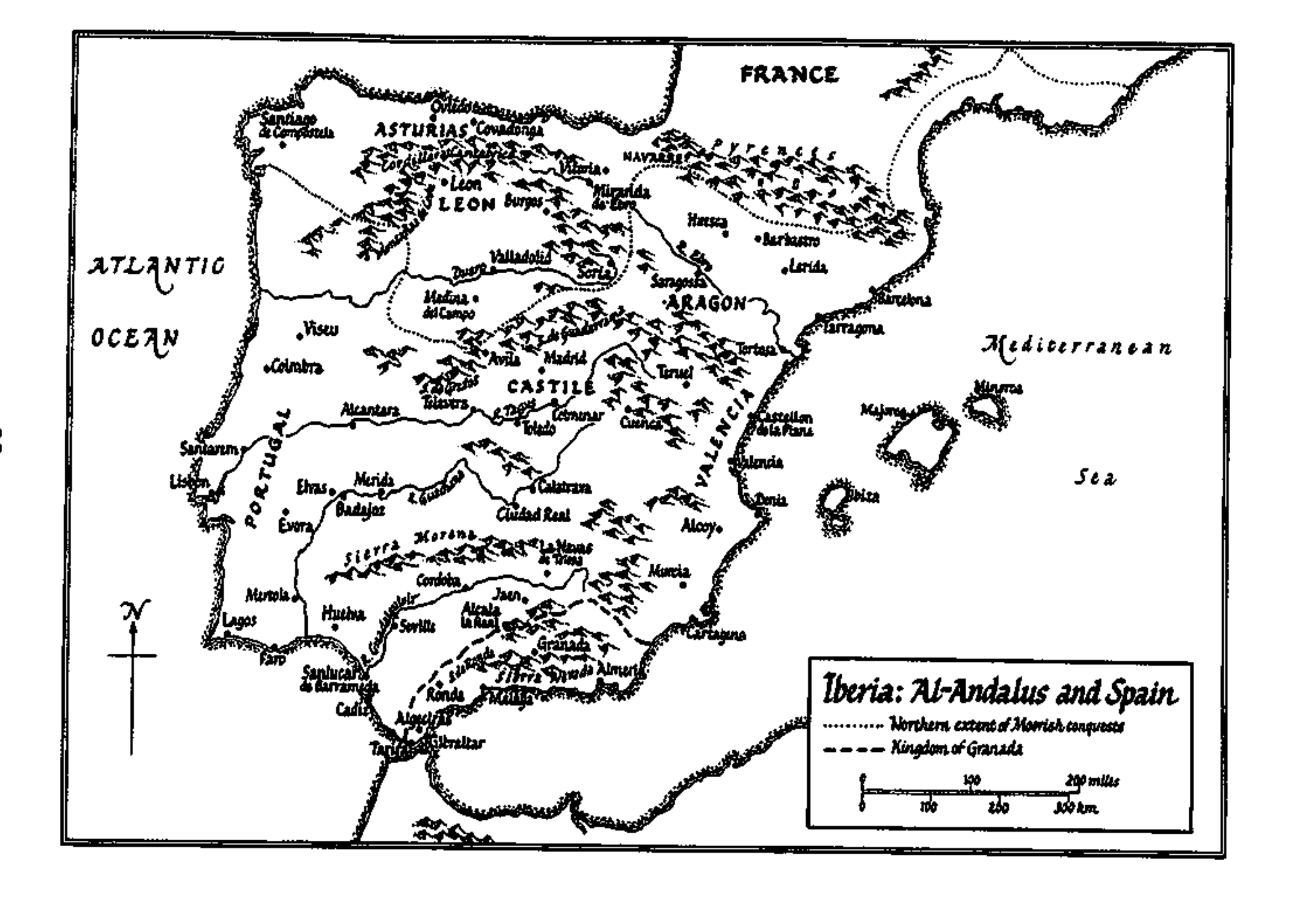
ولست أعتذر عن استخدام كلمة «كافر» بأى حال. ومن أجل المواءمة أخذت الكلمة الأوربية اللاتينية infidle بسبب الطريقة التى كان المسيحيون الأوربيون يشيرون

بها إلى المسلمين. وباعتبارها المعادل للكلمة العربية «كافر» التى تعبر عن الكيفية التى كان العالم الإسلامى ينظر بها إلى المسيحيين فى أوربا. لقد كانت هناك كلمات أخرى مستخدمة. ولكن هذا التصنيف- أى الذين حرموا من نعمة الدين الحق. أى المسلمون بالنسبة للعالم المسيحي والمسيحيون. بالنسبة للعام الإسلامى- كان متسقا على نحو ما. هذا الاقتراح بصورة تعكسها المرآة. ونتائجها. يعزز ما تحمله صفحات هذا الكتاب .

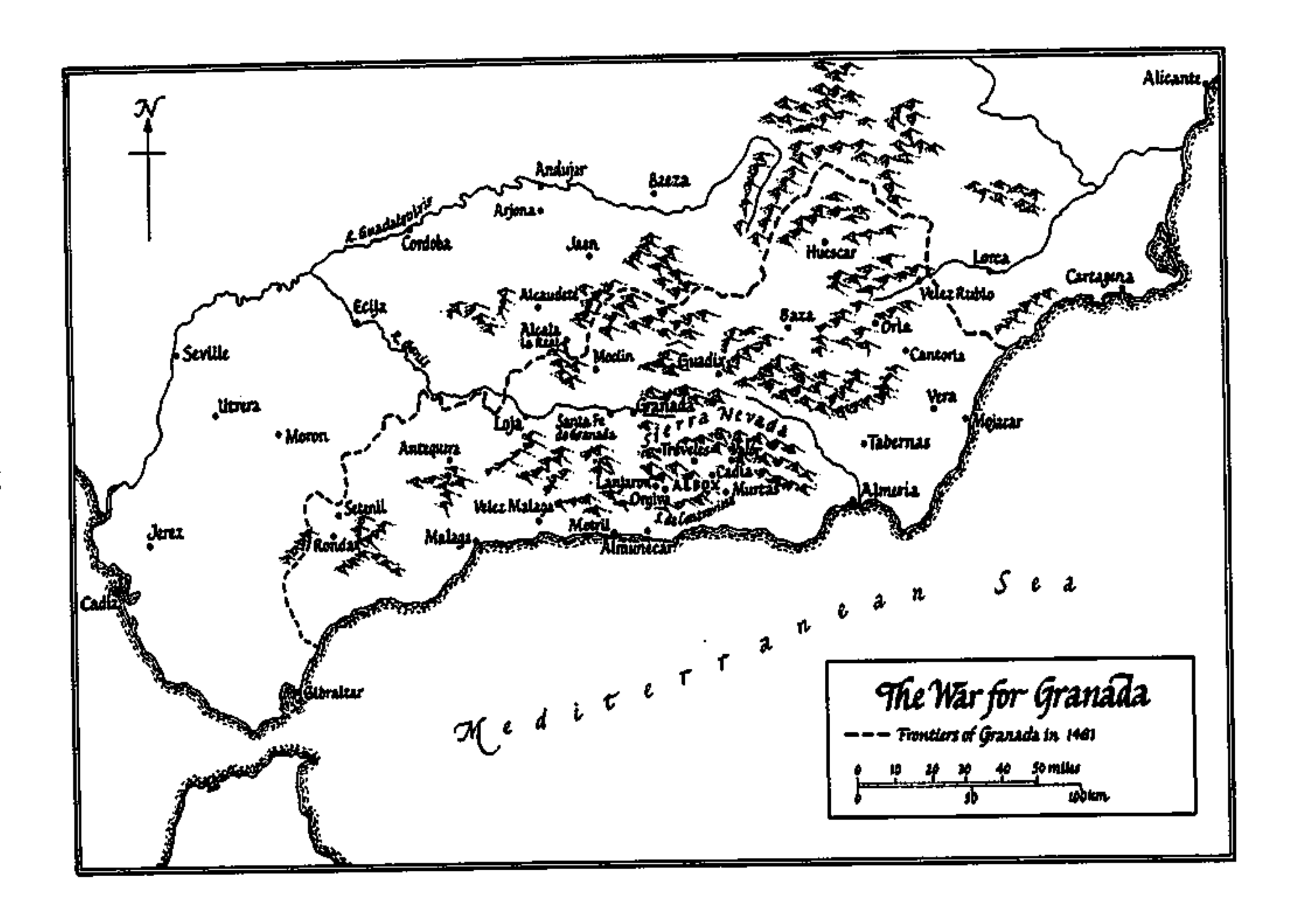
الخرائط

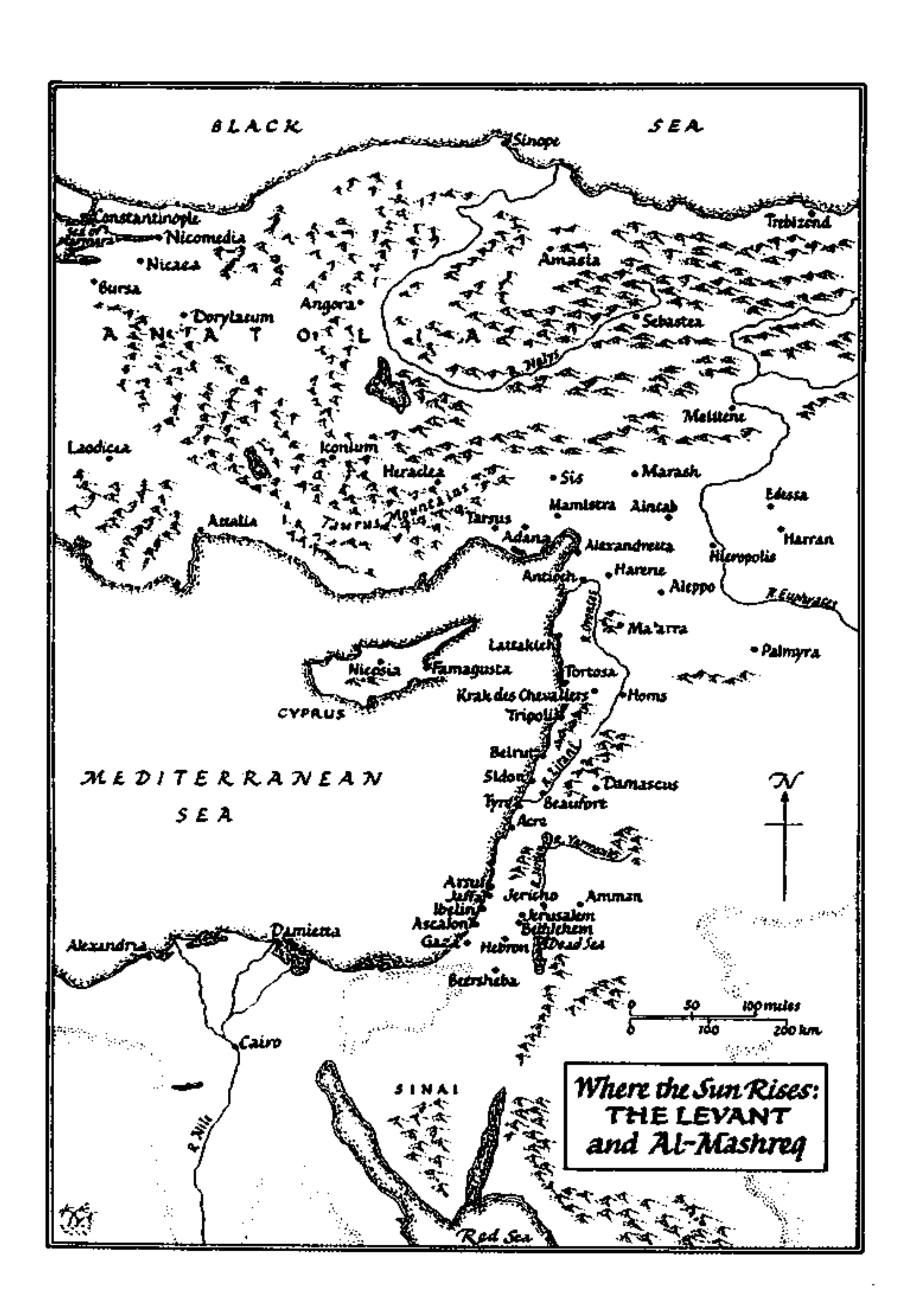

Zones of Conflict
0
100
200 miles
0
100
200
300 km.
N
AND
HUNGARY
ROMANIA
Bucharest
Jassy
Akkerman
Bender
Kilia
R. Dniester
R. Don
R. Volga
R. Danube
CASPIAN SEA
BLACK SEA
Nicopolis
Nis
BULGARIA
Sofia
Plovdiv
(Philippopolis)
Skopje
Thessaloniki
(Salonica)
Edirne
(Adrianople)
Istanbul
(Constantinople)
Sinope
Trebizond
Nicaea
Ankara
Sivas
Bursa
(Brusa)
Dorylaeum
Kayseri
Malatya
Diyarbakir
Edessa
Mosul
GREECE
Aegean
Sea
Chios
Izmir
Konya
Adana
Aleppo
Lepanto
Athens
Tripolitsa
CRETE
Rhodes
IRAQ
Baghdad
R. Euphrates
R. Tigris
Antakya
(Antioch)
SYRIA
Palmyra
Nicosia
Famagusta
CYPRUS
Beirut
Sidon
Tyre
Acre
Damascus
Amman
(Philadelphia)
Jaffa
Ramleh
Jerusalem
Bethlehem
LEVANT
Alexandria
Cairo
Sinai
Desert
EGYPT
R. Nile
Red
Sea
HEJAZ
ARABIA


IRELAND
ENGLAND
North Sea
ATLANTIC
OCEAN
Cologne
GERMANY
Paris
Tours
FRANCE
Clermont
Lyons
Toulouse
Avignon
Narbonne
AUSTRIA
Vienna
SLOVENIA
CROATIA
BOSNIA
Venice
Genoa
CORSICA
ITALY
Naples
Palermo
Messina
Malta
SPAIN
PORTUGAL
Lisbon
Madrid
Toledo
Avila
Seville
Cordoba
Granada
Barcelona
Valencia
BALEARIC ISLANDS
Saragossa
Gibraltar
Tangier
M E D I T E R R A
Constantine
Tunis
TUNISIA
ALGERIA
Oran
Fez
MOROCCO
High Atlas
Tripoli
Benghazi
SAHARA DESERT



Iberia: Al-Andalus and Spain
Northern extent of Moorish conquests
Kingdom of Granada
0
100
200 miles
0
100
200
300 km.
FRANCE
Pyrenees
NAVARRE
ASTURIAS
Covadonga
Oviedo
Santiago de Compostela
LEON
Leon
Burgos
Vitoria
Miranda de Ebro
Huesca
Barbastro
Lerida
Saragossa
ARAGON
Barcelona
Tarragona
Tortosa
Teruel
Valladolid
Duero
Soria
Medina del Campo
Avila
Madrid
CASTILE
Talavera
Toledo
Colmenar
Cuenca
VALENCIA
Castellon de la Plana
Valencia
Denia
Alcoy
Murcia
Cartagena
Calatrava
Ciudad Real
La Navas de Tolosa
Sierra Morena
Cordoba
Jaen
Alcala la Real
Granada
Sierra Nevada
Almeria
Malaga
Ronda
Algeciras
Gibraltar
Tarifa
Cadiz
Sanlucar de Barrameda
Sevilla
Huelva
Mertola
Lagos
Faro
Evora
Badajoz
Merida
Elvas
Alcantara
PORTUGAL
Santarem
Lisbon
Coimbra
Viseu
ATLANTIC
OCEAN
Mediterranean
Sea
Majorca
Minorca
Ibiza
N


N
Alicante
Andujar
Baeza
Arjona
R. Guadalquivir
Cordoba
Jaen
Huescar
Lorca
Cartagena
Velez Rublo
Alcaudete
Ecija
Baza
Orla
Alcala la Real
R. Genil
Moclin
Guadix
Cantoria
Seville
Vera
Granada
Mojacar
Utrera
Moron
Loja
Santa Fe de Granada
Sierra Nevada
Antequera
Tabernas
Cadiar
Lanjaron
Murtas
Orgiva
Almeria
Setenil
Velez Malaga
Jerez
Motril
Ronda
Malaga
Almuñecar
Cadiz
Mediterranean Sea
Gibraltar
The War for Granada
Frontiers of Granada in 1481
0 10 20 30 40 50 miles
0 50 100km


BLACK SEA
Sinope
Trebizond
Constantinople
Nicomedia
Nicaea
Bursa
Amasia
Angora
Dorylaeum
ANATOLIA
Sebastea
R. Halys
Melitene
Laodicea
Iconium
Heraclea
Sis
Marash
Taurus Mountains
Tarsus
Mamistra
Aintab
Edessa
Attalia
Adana
Alexandretta
Harran
Hieropolis
Antioch
Harenc
Aleppo
R. Euphrates
R. Orontes
Ma'arra
Lattakieh
Palmyra
Nicosia
Famagusta
Tortosa
Krak des Chevaliers
Homs
CYPRUS
Tripoli
Beirut
MEDITERRANEAN SEA
Sidon
Damascus
Tyre
Beaufort
Acre
R. Yarmuk
Arsuf
Jaffa
Jericho
Amman
Ibelin
Jerusalem
Ascalon
Bethlehem
Alexandria
Damietta
Gaza
Hebron
Dead Sea
Beersheba
0 50 100 miles
0 100 200 km
Cairo
SINAI
R. Nile
Red Sea
Where the Sun Rises: THE LEVANT and Al-Mashreq


The Balkans
N
RUSSIA
Czernowitz
R. Dniester
Carpathian Mountains
Debreczin
Jassy
THE HABSBURG EMPIRE
MOLDAVIA
Akkerman
Szegedin
Kronstadt
Galati
VOJVODINA
WALLACHIA
BOSNIA
Travnik
Belgrade
Craiova
Bucharest
Constanta
Sarajevo
SERBIA
R. Danube
Plevna
Varna
Black Sea
Mostar
Novipazar
Nis
BULGARIA
Burgas
Stara Planina
Sofia
Pristina
KOSOVO
Philippopolis
Ragusa
Adriatic Sea
Scutari
Skopje
Adrianople
Constantinople
Durazzo
ALBANIA
Ochrida
Bitola
MACEDONIA
Salonica
Thasos
Gallipoli
Lemnos
Aegean Sea
Janina
Larisa
Mitilini
Corfu
IONIAN ISLANDS
Chios
Smyrna
Missolonghi
Lepanto
GREECE
Athens
Ionian Sea
Corinth
Tripolitsa
MOREA / PELOPONNESE
Cyclades
Navarino
RHODES
Cerigo
CRETE
0 50 100 miles
0 100 200 km

مقدمة

أتذكر وأنا جالس بجوار طريق فى المغرب. وحيدا يملؤنى الخوف. أن توقف رجلان فى سيارة نقل قديمة صغيرة وسألانى باللغة العربية أولا ثم بالفرنسية عن وجهتى. وأخبرتهما أننى متوجه إلى الشمال إلى طنجة. ومنها إلى إسبانيا. وبينما تسير بنا السيارة فى بطء شديد. كنا نتبادل الحديث بصورة متقطعة. ولكننا بقينا صامتين طوال الشطر الأكبر من الرحلة. ولكنهما أصرا عندما وصلنا المدينة أن أبقى معهما .

وأخذنى هذان الأخوان معهما إلى منزلهما. حيث مكثت عدة أيام. وقد جعلانى أرى الحياة الفقيرة فى المدينة الواسعة. ويبدو أننا أمضينا ساعات عديدة فى السوق ونحن نحتسى الشاى المغربى بالنعناع. الذى لم يفارقنى مذاقه على الإطلاق. وفى الليل كانت الكهرباء تنقطع باستمرار بحيث يغوص وسط مدينة طنجة فى الظلام. وعندها يتوقف الصخب برهة. ثم تضاء المصابيح والشموع. وينتقل الناس بلا جهد من أسلوب حياة حديث إلى أسلوب حياة تقليدى. وفى النهاية. وبقدر من التردد. قلت إننى مضطر إلى اللحاق بمركب فى ملقا. ثم أقطع مسافة طويلة إلى غرناطة. وأخذنى صديقاى الجديدان حسان ومحمود إلى الميناء حيث رحلت. ولم أرهما ثانية قط. ولكن هنا كانت بداية الكتاب .

هذا نوع من التجربة التى مر بها كثير من الرحالة رجالا ونساء. وفيما بعد سمعت عن أناس تعرضوا للسرقة على الطريق، أو تم احتجازهم فى المغرب. ومن هذه القصص أمكننى أن أقول إنه من الواضح أن بعض الحكايات كانت حقيقية على حين كان البعض الآخر نتاجا للشك الغريزى والتفسير الخاطئ لسلوك الفئات الودودة

التى يمكن أن تظهر بين «الشرق» و«الغرب». وفى الوقت نفسه ،التزمت الصمت وأنا أفكر كم كنت متهورا ومندفعا. بيد أننى بعد ذلك لم أفهم فقط كرم الضيافة الذى اتسم به الصديقان اللذان قابلتهما بالصدفة. ولكننى أدركت أيضا مدى المخاطرة التى قاما بها عندما استضافا شخصا كان يمكن أن يزعم أنهما سرقاه، أو يتهمهما بما هو أسوأ من ذلك. ولكن ذلك لم يردعهما. ذلك أن "حسان ومحمود" لم يريا سوى شخص منهك يعانى العطش .

لقد كان الخوف حقيقيا. وكذلك كانت الصداقة. وعلى مدى السنوات التالية التى قضيتها دارسا وباحثا فى إسبانيا والشرق الأوسط. قرأت المزيد والمزيد عن التنافر العميق بين العالم الإسلامى والعالم الغربى. وعن كم العنف والكراهية التى تولدت عنه. ولكن بينما كان حجم المادة العلمية يتزايد، كانت هذه الصورة تتوارى فى ضبابيات الشك. وهذا أيضا ما حدث فى الربط بين السبب والأثر الناتج عنه. وإذا وقعت حادثة ما. مثل مذبحة أو غيرها من أعمال العنف. فغالبا ما تكون جذورها ضاربة فى أحداث بعينها. بيد أن الرابطة بينهما تتوه فى أغلب الأحوال. والأساس المنطقى موجود فى نقطة ما فى الماضى الذى لم تتم دراسته. لقد كان من المسلم به أن كلمتى. «الشرق». «الغرب»، أو بشكل أدق «الشمال». «الجنوب». أو «العالم المسيحى». «العالم الإسلامى». كلمتان متعارضتان. كانت هناك روابط لم يعد لها وجود. مثل العلاقة بين عالم المسيحية وعالم اليهودية. وهى علاقة غالبا ما تولدت عنها الفظائع والأعمال الوحشية. بيد أن الحال لم يكن هو الحال نفسه. إذ كان يبدو أن هناك شيئا محددا تماما فى اللقاء بين عالم الإسلام وعالم المسيحية يتولد عنه العنف. وبدا أن السبب كامن تحت التفسيرات العادية ،وهو ما ترتكز عليه المنافسات السياسية والاقتصادية. والطموحات والتفاهات الشخصية. والفرصة والصدمة .

وقد اعتدت فى طفولتى على أن ألعب لعبة اسمها. الهمسات الصينية Chinese Whispers». فهناك قصة من أيام الحرب العالمية الأولى عن رسالة كان يتم الهمس بها فى أحد الخنادق تقول. «أرسل تعزيزات. إننا سوف نتقدم». ثم تظهر هذه الرسالة

بعد تناقلها عبر خط طويل من الجنود فى صيغة تقول، «أرسل ثلاثة أو أربعة بنسات. نحن ذاهبون إلى حفل رقص». يمكن أن يكون هذا بحسب نظرية الإيصال مثالا على التداخل والشوشرة والنشاز، وفى لعبتنا كان يقال، كرر ما سمعته. ولا تغيره أبدا عن قصد، مهما كان عابثا) قبل أن تهمس به إلى زميلك، ولم يحدث أبدا أن قلنا للتالى فى الصف إن الرسالة تبدو بلا معنى أو عبيطة، وربما كنا نرفع حواجبنا على الأكثر، ولكننا كنا نكرر ما نظن أننا سمعناه، ولكن أحدا لم يكن مسئولا عن التشويش عن عمد .

هذه المتوالية أو المغامرة غير المقصودة تتجلى واضحة فى أى فعل من أفعال الاتصال، فعندما وقف البابا أوربان الثانى خارج كاتدرائية كليرمون سنة ١٠٩٥م يدعو المسيحيين لإنقاذ القدس، لم تكن الحملات الصليبية في ذهنه، لقد أطلق الفكرة فى الريح، وهو على ثقة من نعمة الرب، ولكن لم تكن لأوربان سيطرة على التأثيرات الناجمة عن كلماته، فقد ترددت أصداؤها على مر القرون وبعد موته بزمن طويل [١] . وهذا هو تاريخ اللاأفكار، الهمسات الصينية». بيد أن العواقب والنتائج فى لغة المصطلحات البشرية والتى نجمت عن هذه الرسائل الملبدة كانت مخيفة.. ويحاول هذا الكتاب أن يقتفى أثر قليل من الطرق التى تفوق الحصر التى رد بها الغرب المسيحى على الشرق الإسلامى، ولكن حتى الكلام عن المهمة والواجب كلام حافل بالتعقيد، إذ إن كلمات مثل «الغرب» و«الشرق» و«العالم المسيحي» و«أوربا» و«الإسلام» كلمات متعارضة بقوة لدرجة يصعب النفاذ وراءها، وعندما كنت أكتب أيا من هذه الكلمات لم أكن أشعر بالراحة، فقط لأننى كنت مدركا أكثر من اللازم أنها يمكن أن تفسر بطريقة خاطئة، ولا بد أن تفسر كذلك). ومنذ نزع إدوارد سعيد أحشاء الاستشراق» لا يستطيع أحد أن يكتب عن هذه الموضوعات بلا مبالاة، وهذه حاليا أمور لا يمكن أن نتحدث عنها بقدر من الثقة [٢]. وبالنسبة لى، كان الطريق للخروج من هذا يتمثل فى التركيز على، كيف» كان الاتصال بالكراهية، بدلا من متابعة «لماذا» كانت الإساءة والكراهية .

هذا الكتاب يغطى مساحة شاسعة، فى الزمان والمكان على السواء، فهو يبدأ فى القرن السابع الميلادى، ويمتد إلى القرن الحادى والعشرين، وحدوده جنوب

الجزائر. وفيينا في الشمال والمحيط الأطلنطي غربا. وبحر العرب والمحيط الهندى في الشرق. ويخرج أحيانا عن تلك الحدود، ولكن مركزه عالم البحر المتوسط. أي من حيث أبدأ. إذ يبدأ الجزء الأول بمعركة ليبانتو البحرية **Lepanto** أمام شواطئ اليونان سنة ١٥٧١م. ففي ذلك الوقت ظن كثيرون أنها لحظة تحول في صراع كانت قد مرت عليه عصور بالفعل. ولم يكن كذلك. وأعود إلى النقطة الأولى في الصراع. بفلسطين قبل تسعة قرون. أما الأجزاء الثاني والثالث والرابع. فيتناول كل منها على التوالى ثلاث مناطق. إسبانيا، وشرق المتوسط، والبلقان. حيث وجدت المسيحية والإسلام جنبا إلى جنب على امتداد فترة طويلة من الزمان. وتأخذ إسبانيا الأسبقية ولها فخر المكان. وربما يكون السبب أنني أفهم هذه البلاد أحسن من فهمي لشرق المتوسط أو جنوب شرق أوربا. ولكن بينما قصة الحروب الصليبية قصة ذائعة. وبينما ألقت الأحداث المأساوية ضوءا ساطعا على البلقان. يبقى تاريخ المسلمين في إسبانيا قابعا في الظلال. ومع هذا. فإن الكثير مما جرى في إسبانيا ترك أصداءه وله صلة بأماكن أخرى على امتداد سواحل البحر المتوسط .

وأنا واع تماما أن مجلدًا بهذ الحجم، أو أكبر، يمكن أن يكتب عن كل هذه المناطق. بيد أنه لن يروى القصة كاملة على الرغم من هذا. ويتبع هذا الكتاب خيطا واحدا. يتعلق بالخصومة واللدد بين العالم المسيحى الغربي والعالم الإسلامي شرق المتوسط. وحتى في هذه الحال فإن المساحة التى بمتناولي لا تسمح سوى بتأمل جانب واحد من جوانب القصة . وفي جزء أحاول تبيين كيف انتشرت الخصومة. وكيف استمرت حتى الوقت الحاضر .

وثمة مخاوف قوية أخرى كان بوسعي الكتابة عنها. أعني مخاوف أهل الغرب من ذوي البشرة الداكنة أو الانحيازات المسيئة ضد نصف الجنس البشري. أي النساء. وقد كانا سويا مصدر إغواء لي. هذه المخاوف أيضا. مثل الخوف من الإسلام. تغيرت على مر العصور ولكن حركة التنوير لم تستأصلها. وفضلا عن ذلك فإن الخوف هنا يبدو وكأنه ينسج ثوبه من الخصومة الطويلة ضد الإسلام. بيد أنه مع الإسلام كانت هناك نقطة بداية على الأقل. وتتابعت القصة على مر الزمان. مما يمنحها شكلا ما.

ذلك أن أحداثا، مثل اجتياح القدس سنة ١٠٩٩م، والاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، واستسلام غرناطة سنة ١٤٩٢م، ومعركة ليبانتو سنة١٥٧١م، وتفجير البرجين التوأم سنة ٢٠٠١م، كلها كانت لها عواقب ملموسة واضحة. يمكن أن نقرأها لنرى كيف أثرت على الخيال البشرى .

ويكمن جزء من «كيف» فى بنية اللغة نفسها وآلياتها. ذلك أن الجزء الأكبرمن اللغة عبارة عن تواصل واتصال بالصوت البشرى. أما الجزء الآخر فيكمن فى الخصائص المادية للنصوص، سواء كانت مكتوبة بخط اليد أو مطبوعة. كما أن الصور المطبوعة على الصفحة أو المعروضة على الشاشة تمثل شكلا آخر من أشكال اللغة، تختلف قواعدها تمام الاختلاف عن قواعد الكلمة المنطوقة أو المكتوبة. وفى الماضى كان انتقال سوء الفهم ينطوى على خليط من الثلاثة جميعا. والآن وفى ظل وجود الأفلام، والتليفزيون، والإنترنت، توجد تركيبة من الصوت والصورة والكلام والنص فى بعض الأحيان. بيد أن الأمر ما يزال غامضا بالنسبة لنا. لقد أخذت هذا المنظور من تاريخ أطول زمنا. وبدأت قصتى مع قوة الكلمة المنطوقة والنص المكتوب بخط اليد فى القرن السابع بقصد إنهاء هذه القصة فى عالم الكلمة المطبوعة والصورة المطبوعة فى نهاية القرن العشرين. بيد أنه منذ اللحظة التى نادتنى فيها زوجتى لمشاهدة البرجين المحترقين فى التليفزيون يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، شعرت أن هذا لم يعد ممكنا. ففى الأيام التى أعقبت هذا العمل الكارثى من أعمال القتل الجماعى، تمت إعادة إحياء هذا النمط من الاتصال العام الذى كان قد مات منذ زمن طويل. فقبل ذلك اليوم، كنا نتحدث عن مجموعة واحدة من الفروض ونكتب فى إطارها. وبعد ذلك اليوم، أخذنا نفعل الأشياء بشكل مختلف. وليس هذا حكم قيمة، وإنما هى ببساطة حقيقة يمكن ملاحظتها. لقد تحولنا باتجاه نوع جديد من التسجيل .

وكلمة «تسجيل»، كلمة تصف نوعية الكلام أو الكتابة المناسبة لمواقف بعينها [٣] .ذلك أن الكلمات التى تتقافز حول غرفة خزانة تختلف عن تلك الكلمات التى يمكن أن تسمعها فى لقاء اجتماعى بالكنيسة. ولن يكون أى من شكل الكلمات المستخدمة فى

أحد الموقفين مناسبا للموقف الآخر. فالبشر يتوافقون بشكل غير عادى لاستخدام التسجيل الصحيح الذى يناسب مختلف الظروف. ومن ثم فالسؤال الآن هو. ماذا كان التسجيل الذى استخدمه الناس عندما ووجهوا بموقف غير مسبوق فى ١١سبتمبر ٢٠٠١م. فبالنسبة لموقف كارثى يشبه نهاية العالم. اختار رئيس الولايات المتحدة ومستشاروه تسجيلا كارثيا. كانت تلك نهاية العالم الذى عرفوه؛ فقد أقبل عليهم عصر جديد أشد ظلمة. وعلى أية حال. لم تكن لهذا التحول الغريزى فى الحوار النتائج التى كانت مستهدفة بالضبط. كما لم تنجح تماما أية محاولة لاحقة لاستخدام أدلة التسجيل الجديد. وكانت إحدى النتائج لهذه الحادثة أنها ارتبطت مباشرة بالذكريات الكامنة منذ زمن طويل. وهى الذكريات التى تشكل موضوع هذا الكتاب .

ما إن فرغت من الكتلة الرئيسية لهذا الكتاب وتعرفت على نقاط أخرى. حتى تم استثارة مفهوم نبوءة «نهاية العالم»، سواء عن عمد أو بالصدفة. لقد فكرت في جلادستون سنة ١٨٧٦م وهو يردد مثل أنبياء العهد القديم فى الكتاب المقدس صارخا بأن التركى همجي. وفكرت أيضا فى أوربان الثانى وهو يخاطب ذلك الجمع الغفير فى كليرمون. وللكلمات أجنحة على حد تعبير هوميروس فى الإلياذة [4]، ومع الإنترنت، والبريد الإلكترونى. والتليفزيون والراديو والأفلام، يمكن للكلمات أن تطير إلى مدى أبعد مما كانت تصل إليه أيام أن كانت المطبعة وحدها. وتزيد وسائل الإعلام هذه بوقود من خطاب نبوءة نهاية العالم القديمة يمكن أن تكون له عواقب لا يمكن التنبؤ بها. وقد أخبرنا الروائى دوجلاس آدامز **Douglas Adams** فى روايته **Hitchhinker's Guide to the Galaxy** :

«إن من المعروف جيدا بطبيعة الحال أن الكلام الذى يلقى على عواهنه يكلف البعض حياتهم، ولكن لا يتم تقدير الحجم الكلى للمشكلة دائما .

«فعلى سبيل المثال. فى اللحظة نفسها التى قال آرثر: «يبدو أن لدى صعوبة هائلة فى أسلوب حياتى» انفتح ثقب غريب فى نسيج استمرارية المكان. الزمان وحمل كلماته القهقرى بعيدا فى الزمان عبر مسافات لانهائية من الفضاء لتصل إلى مجرة

نائية بها كائنات غريبة محاربة تعقد اجتماعا فى مؤتمر على شفا معركة مخيفة بين النجوم .

.... فى اللحظة نفسها كانت عبارة «يبدو أن لدى صعوبة هائلة فى أسلوب حياتى» تسرى عبر طاولة الاجتماع .

ومن سوء الحظ أن هذه العبارة فى لغة الكائنات الغريبة كانت تحمل معنى أقصى إهانة مرعبة يمكن تخيلها، ولم يكن هناك من رد يوازيها سوى شن الحرب الرهيبة التى استمرت على مدى القرون ...»[٥] .

ومن منظور سنة ٢٠٠٣م يبدو أن مثل هذه الحرب الطويلة الممتدة المملة (ضد البشر) ربما تكون قد بدأت تدور رحاها. ليس فى الفضاء الروائى الرحب وإنما على الأرض .

وإذا كانت ثمة عبرة أخلاقية فى الأحداث التى وصفتها فى هذا التاريخ الطويل. فهى أن الكلمات والصور أسلحة. ولسنا نعرف أين ومن سوف تقتله هذه الأسلحة أو تجرحه حين نطلقها. تذكر القصة القديمة، لامعنى للقلق بشأن الرصاصة التى تحمل اسمك. وإنما يجب أن تقلق للغاية بشأن الرصاصة المكتوب عليها. لمن يهمه الأمر».

أندرو هويت كروفت

٢٠٠٢م-٢٠٠٣م

الجــزء الأول

(١)

" نحمدك أيها الرب"
- ليبانتو ١٥٧١م

في يوم ١٤أغسطس ١٥٧١م مرت راية سفينة عملاقة من الحرير عبر شوارع مدينة نابولي المكتظة[1].كانت تلك الراية قد طرزت بناء على أوامر من البابا لكي تكون راية عالم المسيحية الغربية. ولكي ترفرف على أعلى صاري سفينة في أسطول العصبة المقدسة الذي كان يستعد للإبحار متوجها إلى ساحة المعركة. كانت الراية البابوية. وبها شكل ذهبي ضخم للمسيح مثبتة بالمسامير في الصليب الذي كان ينوء به كاهل الجنود الإسبان ذوي الأجسام الممتلئة وهم يحملونه في موكب استعراضي انطلق من عتبات كنيسة سانتا كلارا. وبينما كانت الراية البابوية الزرقاء تتحرك بين جموع الناس في المدينة. أمسكت حالة غير عادية من سكون الهواء بخناق جميع الذين كانوا يتفرجون عليها. وقبل ساعة من ذلك كان النبلاء داخل الكنيسة. ومعهم الرهبان والقساوسة. قد وقفوا صامتين بلا حركة وقد شخصت أبصارهم جميعا صوب قائد أسطول العصبة المقدسة دون جون حاكم النمسا. وانحنى الأدميرال الشاب. الذي كان متأنقا في زي مهندم من الذهب والساتان القرمزي والمخمل الأبيض. أمام مذبح الكنيسة ليسلمه ممثل البابا. الكاردينال جرانفيل. العكاز الذي يرمز إلى مهمته وأشار إلى الراية الكبيرة من خلفه. وقال الكردينال وهو يحثه. «خذ هذه الشعائر التي ترمز للرب الذي تحول جسدا. هذه الرموز التي تشير إلى الديانة الحقيقية. ولسوف تمنحك النصر المجيد على عدونا الكافر وبيدك سوف تحط من كبريائه».

وتحت صليب المسيح كانت شعارات ملك إسبانيا والأب المقدس البابا بيوس الخامس، مع شارة جمهورية البندقية. وقد ربطت فيما بينها سلسلة ذهبية كبيرة، رمزا لقوة الإيمان الذى يربطهم سويا. ومن تلك السلسلة، كانت تتدلى حلية عرف الديك التى كانت الشعار الخاص بدون جون، بحجم أصغر نسبيا[٢]. لقد كانت تلك الشعارات علامة موجزة على لحظة اتحاد نادرة. فللمرة الأولى على مدى ما يزيد على قرن من الزمان اتحد العالم المسيحى[٣] بشكل قوى ليخوض معركة ضد العالم الإسلامى[٤]. لقد أضفيت القداسة على الحرب ليتم شنها تحت رعاية صورة المسيح الذهبية. وكان البابا قد أعلن أن أولئك الذين يحاربون فى هذه الحرب سوف ينالون الغفران، شأنهم شأن الصليبيين الأوائل الذين حاربوا من أجل الضريح المقدس. وسوف يعفى جميع من يموتون تحت راية هذه المعركة من أشد ضروب التطهر قسوة[٥].

وعلى مسافة ثمانمائة ميل شرقا، كان هناك احتفال مشابه، وإن كان أقل عمومية، قد انتهت مراسمه. فمن خزانة القصر السلطانى فى إستنبول أخرجت حزمة ضخمة ملفوفة فى الحرير مرسلة من السلطان سليم الثانى إلى على باشا قائد الأسطول العثمانى. وكانت تحتوى أيضا على راية، ولكنها كانت راية ذات لون أخضر حيوى بدلا من اللون الأزرق المسيحي. كان ذلك العلم أكبر من علم البابا بيوس الخامس وعهد به إلى قائده. وكان هذا واحدا من أقوى الشعارات والرموز فى العالم الإسلامي. فعلى سطحه كانت أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون قد طرزت بخيوط من ذهب. وكان مشهورا أنها تكررت أكثر من ٢٨٩٠٠ مرة. وكانت الحروف العملاقة بالخط الكوفى تحيط ببعضها البعض وتتداخل وهى تكرر هذه الأسماء نفسها بشك لانهائي، وبخط أصغر، وبحيث يبدو السطح الكلى للراية من بعد وكأنه شبكة لامعة من المصوغات الذهبية[٦].

كان القائدان نقيضين فى الرتبة والمكانة وتجربة الحياة. فقد كان دون جون الأخ الطبيعى المعترف به لملك إسبانيا، فيليب الثانى، والابن غير الشرعى من علاقة أشهر قليلة أمضاها الإمبراطور شارل الخامس مع أرملة شابة اسمها بربارا بلومبرج Barbara Blomberg فى المدينة الإمبراطورية ريجينسبرج. وكان دون جون قد جاء

إلى نابولى بعد أن خاض حربا وحشية فى جبال إسبانيا الجنوبية. لكى يقود أكبر أسطول جمعته أوربا المسيحية على الإطلاق. ولم يكن قد خاض من قبل أبدا حربا فى البحر. وعلى النقيض منه. كان القبودان. القبطان)على باشا. قائد الأسطول العثمانى. جنديا محنكا فى حروب البحر. وكان مرهوبا إلى أقصى حد فى غرب البحر المتوسط وفى بحر إيجه على السواء. كانت أصوله متواضعة. فقد كان ابن مؤذن[٧] ولكن القائدين. مع كل الاختلافات فيما بينهما. كانا يشتركان فى نواح عديدة. فقد كانا مثل توأم من الأمراء الموالين فى ملحمة شعرية. يتوقان للقتال. تزينهما خصال الفروسية والشرف. وقد اختار القدر لكل منهما مصيرا مختلفا عن مصير الآخر. فكان لأحدهما أن يموت من قنيفة بندقية فى الجمجمة. ثم قطعت رأسه ورشقت فوق سن رمح. وكان للآخر أن يعود منتصرا. لينال التكريم والحفاوة. وتحتفل بانتصاره التصاوير. وأعمال الحفر. والشعر. والعملات. والميداليات، والمقالات والبحوث المطولة. على مدى أكثر من أربعة قرون .

وقصص المواجهة بينهما وفيرة. بعضها يقترب من الحقيقة بدرجة كبيرة. ويتجمل البعض الآخر ليحكى حكاية أفضل. وما يزال من غير المؤكد أين ينتهى التاريخ وأين تبدأ الأسطورة. إذ إن المعركة التى خاضاها فى خليج ليبانتو ذات طبيعة مزدوجة. الحدث نفسه. ثم نموه وتطوره فيما بعد. هذه المرحلة اللاحقة. أى ليبانتو الأسطورية. قيض لها أن تكون الصورة البلاغية المعبرة عن الصراع بين العالمين الإسلامى والمسيحي. وربما نجد فى حل لغز ليبانتو. نقطة الدخول إلى تلك الأسرار العميقة. فقد كانت للصراع الأكبر جذور عميقة. فعلى مدى ألف سنة كان العالم المسيحى يشعر أنه تحت وطأة التهديد من جراء القوة الماثلة فى الشرق. وفى بعض الأحيان، مع الحروب الصليبية فى شرق المتوسط. مثلا. وفى صقلية وإسبانيا. كانت أوربا هى التى بدأت بشن الحرب على العدو. وعلى مر القرون. كان هناك إحساس يحتضن فكرة التهديد الإسلامى قد استولى على عقل العالم المسيحى وقلبه. وبحلول القرن السادس عشر تم تقبل الصراع باعتباره العلاقة الطبيعية والحتمية بين الشرق والغرب. ومثل إدراك طفل. كان هناك وهم بأن صعود الشرق يستدعى سقوط الغرب والعكس صحيح. وفى سنة ١٥٧١م كان هناك توازن بين الخصمين.

لقد فرض الباحثون من جديد الاعتقاد الشائع بوجود الخطر والشر النابع من الإسلام. ذلك أن المسلمين، كما يقول بيديه المبجل[*]، الذى كتب فى القرن الثامن الميلادى كانوا أبناء هاجر من النبى إبراهيم. ويعتقد كثير من المسلمين أنها هى وابنها إسماعيل مدفونان تحت الكعبة قبلة المسلمين فى صلواتهم. وعلى أية حال، فإن المسيحيين أيضا من نسل إبراهيم عن طريق إسحق. وما هو أسوأ من وصمة عدم شرعية بنوة إسماعيل، حسبما يزعم بيديه، أن هناك لعنة أشد إظلاما لحقت بشعوب الشرق، فقد استنتج المسيحيون أنه بينما ينحدر الناس جميعا من نسل آدم وحواء، فإن المسلمين جاءوا من نسل قابيل الذى طرد من حضرة الرب لأنه اغتال أخاه هابيل. وبسبب جريمة قابيل نالته الحسرة لأنه سيكون هاربا وهائما على وجهه فى الأرض ..... وكل من سيجدنى سوف يذبحنى»[٨][*] وقد أجبروا على السكن «شرق عدن».. ولم يكن ممكنا أن يكون هناك بين أبناء قابيل وغيرهم من بنى آدم، سوى الذبح والانتقام بسبب الجريمة الأولى التى قتل فيها الأخ أخاه. وهكذا نما الصراع من تراث ممتد فى رحاب الزمان من الحقد والكراهية بأثر رجعى بين أهل الغرب وأهل الشرق[٩].

كان معنى هذا على المستوى العملى أمرًا يصعب قبوله. فقد كان من الطبيعى، عادة، أن يهين المسيحيون أعداءهم فى المعركة ويسبونهم بأنهم أبناء قابيل وأنهم «أبناء سفاح»، أو أبناء، «المسيح الدجال». أما المسلمون فكانوا يسبون أعداءهم بقدر مساو من الذم والإهانة. وبدا وكأن الصراع بين الشرق والغرب دائم وحتمى ومقدر سلفا فى عيون المسلمين والمسيحيين[١٠]. بيد أنه لم يدمر نسيج المصالح الاقتصادية والسياسية المتبادلة التى حكمت عالم البحر المتوسط والبلقان، وهى المناطق التى

(*) بيديه المبجل Bede The Venerable (٦٧٣-٧٣٥م) باحث إنجليزى من العصور الوسطى عاش فى أحد الأديرة، وكتب عدة مؤلفات أهمها كتاباته التاريخية، وقد كان الرجل من طراز أقل من المتوسط على الرغم من المبالغة الغربية المعتادة فى حجمه وتأثيره .(المترجم)

(*) تكوين، ٤. ١٤(المترجم)

تشكل الحدود والتخوم بين العالمين الإسلامى والمسيحى. فقد كانت المصالح التجارية تلعب دورها على الدوام. ولاسيما فى حالة البندقية وغيرها من الدول فى البحر الأدرياتى. والتى كانت تفضل التفاوض مع القوى الإسلامية بدلا من محاربتها .

كان لدى القوى المسيحية فى حوض البحر المتوسط الكثير مما تخشاه من الإمبراطورية العثمانية وأهدافها التوسعية [١١]. وتعدت الرغبة فى النصر حدود الحسابات السياسية. ولم يكن هذا وقفا على البابا مهندس التحالف الكبير. فبعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. بات كثير من المسيحيين على قناعة بأن الزحف الظافر للإسلام لا يمكن إلا أن يكون جزءا من خطة الرب. فقد كانت ويلات المسلمين وسيلة لكى تطهر الجنس البشرى وتجعله أفضل فى إحساسه بأخطائه وخطاياه [١٢]. فهل كان المسيحيون ينالون العقاب بسبب خطايا الإيمان الضعيف والانشقاق بينهم فى الأيام الأخيرة. لقد كانت أوربا المسيحية قد قاومت الهجوم الإسلامي على مدى قرن من الزمان. ولكنها لم تحرز سوى القليل من الانتصارات الحاسمة. فهل هناك علامة أفضل من ذلك على أن العناية الإلهية سوف تتجدد من خلال نصر عظيم مؤزر على قوات الظلام ؟

كذلك كان النصر يستحوذ بالقدر نفسه على عقول سليم الثانى ومستشاريه فى إستنبول[١٣]. فعلى الرغم من أن جيوش «الإسلام. كانت تواصل الزحف ضد الكفار. فإن سرعة التقدم كانت قد تباطأت. ذلك أن جد سليم وسميه. سليم الأول. كان قد فتح أراضٍ شاسعة فى مصر وشبه الجزيرة العربية وشرق المتوسط ووضعها تحت السيادة العثمانية، أما والده السلطان سليمان القانونى، فكان قد استولى على جزيرة رودس وقلعتها وبلجراد وبودابست. واستولى على السهل المجرى حتى وصل إلى أسوار فيينا. وكان سليمان قد دمر مملكة المجر فى معركة موهاكس Mo-hacs سنة ١٥٢٦م. بيد أنه كانت لسليمان نكساته أيضا. فقد أخفق مرتين فى الاستيلاء على فيينا. سنة ١٥٢٩م وسنة ١٥٦٦م. وكانت جزيرة مالطة قد صمدت فى وجه كل المحاولات التركية لحصارها واجتياحها. وفى البحر المتوسط. كانت المعركة البحرية

الكبيرة عند بريفيسا Prevesa سنة ١٥٣٨م، قد جرت أمام الأراضى اليونانية شمال خليج ليبانتو دون أن تسفر عن نتيجة حاسمة .

كانت الدولة العثمانية قائمة على أساس التوسع اللامحدود وشن الحرب سنويا لمد حدودها. فبغير الغزو سوف تضمحل. وفضلا عن ذلك، كان جميع المسلمين ملتزمين حقا بواجب الجهاد لمد حدود دار الإسلام. وكان هذا العبء أثقل ما يكون على السلطان سليم الثانى الذى كان قد ألزم نفسه بأن يمد حدود دار الإسلام بالاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت تحت حكم البندقية. وقد استغل ذريعة أن القراصنة الذين كانوا يبحرون من الجزيرة كانوا يعيقون تحميل سفنه ويزعجون المدن الساحلية فى الأناضول. ومع أواخر سنة ١٥٧٠م، بدا من المحتمل أن الجزيرة سوف تسقط فى أيدى جنوده. وحتى مع ذلك، فإنه كان يرغب فيما هو أكثر من الاستيلاء على جزيرة. فقد كان السلطان يطلب من قادة جيوشه تحقيق نصر مدو مثل ذلك النصر الذى تحقق فى موهاكس. وهكذا، كان قائد أسطوله على باشا يعرف أنه ينبغى أن يدمر الأسطول المسيحى تدميرا كاملا ويعود محملا بالغنائم والأسرى .

وحشد الخصمان قواتهما من مناطق نائية فى عالم البحر المتوسط. وطوال صيف سنة ١٥٧١م تحركت مجموعات صغيرة من السفن تجاه نقاط التجمع المحددة. وهى ميناء مسينا بالنسبة للمسيحيين الذين يقودهم دون جون، وبحر إيجة بالنسبة للأسطول الحربى السلطانى تحت قيادة على باشا. وكانت تلك سفنا حربية من النوع الذى بنى ليناسب الظروف الخاصة بالبحر المتوسط. ولسفن القتال فى البحر المتوسط عالمها الخاص الذى يختلف تماما عن عالم المعارك التى كانت تجرى بين السفن المبحرة فوق صفحة المحيط الأطلنطي، فهى سفن طويلة ترسو منخفضة على المياه كما أنها نحيلة بالمقارنة مع نظيرتها من السفن الشمالية الصلبة. وتبدو سفن القتال المسطحة قادرة على الحركة بغض النظر عن قوة الريح أو اتجاهها. وعلى الرغم من أن هذه السفن الرشيقة كانت مجهزة بشراعين أو ثلاثة أشرعة مثلثة، فإن قوتها المحركة الرئيسية كانت تتمثل فى صفوف من المجاذيف التى كانت تمتد إلى

الخارج مسافة أربعين قدما أو يزيد على كل من جانبى السفينة لتضرب بشكل يبدو وكأنه انقباضات إيقاعية. وهي بحد ذاتها. لو كان البحر هادئا والريح مواتية. تشبه سواقٍ مائية عملاقة تنزلق على سيقانها الطويلة فوق سطح الماء. وعلى الرغم من أن السفن المسطحة كانت أسرع إذا استخدمت الشراع منها إذا اعتمدت على المجاذيف فقط. فإن قوتها في المناورة كانت تعتمد على قوة المجذفين. وكان معنى هذا أن السفينة لا تخاطر إطلاقا بأن تتلقى ضربة تقذف بها على الشاطئ الصخرى. وهو ما كان يمثل خطرا دائما على السفن التجارية ذات الأشرعة والجوف العميق ثقيلة الحركة. فقد كان بوسع السفينة المسطحة أن تتحرك إلى الخلف بنفس سرعتها إلى الأمام بغاطسها الضحل. ويمكنها أن تتخطى الأماكن الضحلة التى تعيق السفن من الأنواع الأخرى .

وعلى مدى القرون تطورت أشكال عديدة من السفن المسطحة. وكان بعضها لحمل البضائع. ولكن مع منتصف القرن السادس عشر كانت قد تطورت بحيث تصلح لغرض واحد فقط. الحرب. وكانت سفينة الحرب العاملة في البحر المتوسط قد تم تعديلها على مدى عدة أجيال. من السفينة الإغريقية ثلاثية المجاذيف التى دمرت الأسطول الفارسى فى معركة سلاميس قبل ألفى سنة تقريبا [١٤]. وبعد سنة ١٥٠٠م. كانت لبعض السفن بنية متفوقة في مقدمة السفينة ومؤخرتها. بحيث تؤوى المدافع والرجال المحاربين. بيد أن جوهر السفينة المسطحة بقى كما هو. وكما كان الحال فى بعض العصور الكلاسيكية. كانت السفن المسطحة مجرد منصات عائمة يمكن للرجال على متنها أن يصعدوا على ظهر السفينة الأخرى ويتغلبوا على طاقمها. باعتبارها درقة أساسية لحمل المجذفين والمقاتلين. وفى الأصل. كما كان الحال فى قوارب التجذيف الصغيرة. التى كانت موجودة فى جميع موانئ البحر المتوسط. كان كل رجل يأخذ مجذافه ولكن هذا بات خيارا مكلفا لأن المجاذيف صارت تصنع من أخشاب غالية الثمن يستورد معظمها من شمال أوربا. ومنذ منتصف القرن السادس عشر ظهر طراز جديد من التجذيف قلل من عدد المجذفين. فقد كان المجذفون ثلاثة أو أربعة. وقد يصل العدد أحيانا إلى خمسة رجال. يجلسون جنبا إلى جنب على مقاعد

طويلة. وكلهم يشدون المجاذيف مرة واحدة شدة جماعية طويلة. وكان من السهل بعد ذلك إضافة المزيد من الرجال لزيادة قوة المجاذيف .

كانت قوة سفينة الحرب المسطحة تكمن فى الأفراد العاملين عليها [١٥]. فعلى متن كل سفينة كان يجب أن يتواجد عدد من المقاتلين المحترفين المجهزين جيدا. هم طاقم القتال [١٦]. أما على السفن الإسلامية وسفن البندقية. فكان كثير من المجذفين مسلحين وينضمون إلى المقاتلين. وكان من بين المجذفين البنادقة. الذين كانوا من المتطوعين. أولئك الذين يجلسون على طرف كل أريكة من أرائك المجذفين ومع كل منهم سيف ورمح قصير فى متناول أيديهم. على حين كان الرجل التالى يحمل قوسا وجعبة من السهام. وعندما كانت السفن تقترب من بعضها البعض كانوا يتركون مجاذيفهم للرجل الثالث فى الصف ويتجمعون وهم على استعداد للاحتشاد والقفز على سطح السفن الى تقع فريسة لهم. ولم تكن هناك سفينة تجارية محملة بالبضائع تأمل فى أن تنجو من مخالب سفينة مسطحة تبحر بكامل سرعتها. وكانت معظم السفن التجارية تحاول الفرار لأن البديل كان فظيعا. فقد كان هجوم السفن الحربية المسطحة يشبه انقضاض الصقر على فريسته. إذ كانت مقدمة السفينة الحادة تقترب من السفينة التى تحاول الفرار أكثر فأكثر، وتقترب منها لدرجة أن طاقم السفينة التى تتعرض للهجوم كان يمكنه أن يرى المهاجمين وهم يتأهبون لاعتلاء متن سفينتهم. وعند تلك اللحظة كانت كثير من السفن تستسلم. وأية سفينة كانت تستمر فى محاولة الهرب كانت تتعرض لوابل من طلقات السهام أو طلقات البنادق ويتم قتل طاقمها. ولم يكن يتم استخدام المدافع الضخمة فى السفينة المهاجمة إلا نادرا لأسباب اقتصادية

كانت السفن المسطحة مثل الطيور الجارحة. تعيش على السفن الأضعف والأقل تسليحا :

« مثل الديناصور آكل اللحوم كانت سفينة الحرب المسطحة تتسيد بيئتها. ولكنها كانت مثل الديناصور تكبر فى حجمها باستمرار وتزداد قوة لكى تنافس أبناء جنسها حتى صارت. مثل الديناصور. غير قادرة على الحركة. لقد كانت القوة التكتيكية لسفينة الحرب المسطحة فى البحر المتوسط. بقوتها التى تشبه أسنان الديناصور التيرانوسوروس ركس وفكيه. تعتمد على المدد الدائم من اللحم والدماء» [١٧] .

وما لم تكن سفينة الحرب المسطحة تحمل ما يكفى من المجذفين فإنها لم تكن تستطيع البقاء. لقد كان الكثير من الإغارات والافتراس الذى لا يتوقف يهدف إلى الإمساك بالقوة البشرية وليس الاستيلاء على حمولات السفن. فعندما كانت إحدى سفن المسلمين تستولى على سفينة مسيحية. كان يتم استرقاق كل من على متنها من غير المسلمين. وغالبا ما كان الطاقم وأى مسافر يعتبرون الغنيمة ذات القيمة الأعلى. فقد كان يمكن الحصول على فدية البعض. ويتم بيع البعض الآخر بثمن جيد فى أسواق شمال أفريقيا أو إستنبول.

وإذا ما اعترضت سفينة مسيحية سفينة للمسلمين. كان من الضرورى أن يحدث الشىء نفسه بالضبط. إذ يقع جميع من هم غير مسيحيين فى الأسر ويتم استخدامهم فى العمل مجذفين. ولكن السفن الإسبانية والفرنسية والبندقية كثيرا ما كانت تنقض على سفن مملوكة لأمم مسيحية أخرى بالقدر نفسه. وكانت هناك أعذار كثيرة تتيح لسفينة حرب أن تستولى على إحدى السفن التجارية. وربما كانت تبحث عن سفينة مسيحية تقوم. بتهريب المنوعات». زعما بأن الطاقم كان يتاجر مع العدو. فقد كان فرسان القديس يوحنا. الإسبتارية. الذين يبحرون من قلعتهم فى مالطا محل خشية الجميع من المسلمين والمسيحيين على السواء. وإذا أوقفوا سفينة مسيحية فى المياه الشرقية. كان لابد لهم من تفتيشها بدقة بحثا عن أى شىء فى حمولتها يمكن وصفه بأنه غير قانونى. وعندما لا يجدون شيئا واضحا كان من عادتهم البحث عن. قماش يهودى» فى أثناء التفتيش. ويشيرون إلى أن السفينة كانت تتاجر مع السكان اليهود فى الموانئ الإسلامية(*). وكان هذا مبررا كافيا للاستيلاء على الحمولة بكاملها. واسترقاق طاقم السفينة.

(*) من الأمور اللافتة للنظر بشدة فى هذا الكتاب. وغيره من الكتب الغربية. أنه يتم حشر اليهود واختلاق الفرصة للحديث عنهم دونما مسوغ علمى أو منهجى. ففى هذا الكتاب الذى يتناول العلاقة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية لا نجد مبررا لإقحام اليهود فى الموضوع خاصة وأنهم لم يكونوا كيانا سياسيا. أو حضاريا مستقلا. مثل الحضارة الإسلامية أو الحضارة الأوربية الكاثوليكية فى العصور الوسطى. فضلا عن أن اليهود أتباع دين. شأنهم شأن أتباع الديانات الأخرى- وليسوا أمة ولا أصحاب حضارة مستقلة . ولكنها أكاذيب الصهيونية التى تتسرب عبر المحررين فى دور النشر فى الغرب بشكل عام (المترجم)

في غضون القرن السادس عشر، صارت سفن الحرب المسطحة أكبر حجما، على حين نمت التجارة على امتداد السواحل، وازدهرت القرصنة. وفي غالب الأحوال كانت هذه السفن على شاطئ شمال أفريقيا، أو من فيومي Fiumi المسيحية على رأس البحر الأدرياتي، منشغلة بالإغارة والنهب فقط . من موانئ مثل الجزائر الإسلامية، التي كانت أعظم ميناء على ساحل شمال أفريقيا. وبصورة متزايدة أخذ اقتصاد السفن يعتمد على العبيد أكثر من الاعتماد على الرجال الأحرار في تكوين طواقم السفن. وبحلول منتصف القرن، كان المجذفون في كل أسطول تقريبا، باستثناء أسطول مدينة البندقية، التي استمرت في تجنيد الرجال الأحرار وحدهم، من العبيد أو من أسرى الحرب، أو من أرباب الجرائم. وعلى متن كل سفينة كان يوجد أكثر من مائة رجل، وكلهم مقيدون بالسلاسل في أماكن التجذيف الخاصة بهم. وكانت تفك قيود عدد قليل من المجذفين أحيانا ليتحركوا داخل نطاق جسم السفينة الضيق. فقد كان معظمهم يعيشون في نطاق مساحة قدمين مخصصة لكل منهم، إذ كانوا ينامون، ويأكلون، ويتبرزون، وينزفون، ويتقيحون، وغالبا ما يموتون على الأريكة نفسها. وكانت الفئران والصراصير تمرح في فضلات الطعام العفنة المختلطة بالروائح الكريهة والبول الذي تجمع تحت أقدامهم. وكان قائد السفينة الحكيم الذي يعرف كيف يمكن للمرض الوبائي أن ينتشر في مثل هذه الظروف، يأمر بغسل ما تحت أقدام المجذفين بانتظام في سفينته [١٨]. وعندما كانت الفئران والقمل تتكاثر بطريقة لا يمكن السيطرة عليها، كان الحل النهائي وضع الطاقم على الشاطئ تحت الحراسة، وطي الأشرعة، ثم تملأ السفينة بالأحجار، ويتم تغطيسها في المياه الضحلة بحيث تغمر المياه سطح السفينة وجسمها العلوي تماما، وتغرق الهوام والحشرات الضارة التي لا تستطيع ولا تريد أن تهجر السفينة الغاطسة.

في بهيم الليل، وفي الضباب، أو في شفق الفجر، كان وجود السفينة المسطحة ينكشف قبل رؤيتها بوقت طويل، إذ إن الرائحة المنبعثة من مقاعد المجذفين كان يمكن تمييزها على بعد مسافة قد تصل إلى ميلين. وكان يقال إنك يمكن أن تتعرف على عبد سابق على سفينة مسطحة أو جندي بحري سابق، بسبب الرائحة النفاذة المنبعثة

منه. كما لو كانت هناك وصمة لذاكرة الشم تنبئ عن الأيام الشريرة السابقة. فعلى متن السفينة المسطحة التى نادرا ما كان يبلغ طولها أكثر من ١٥٠ قدما. كانت كل الدرجات الاجتماعية وفروقها تتوارى بفعل الأبخرة النتنة المتصاعدة من القذارة والوسخ. فلم يكن الجنود الذين يرتدون أنصاف الدروع. ورجال البنادق والمدفعجية، بل والضباط والقادة. منعزلين إطلاقا عن البشر الوضعاء الذين يسحبون السفينة بالمجاذيف صوب مقصدها .

على أية حال. كانت الخدمة فى مقاعد المجذفين بالنسبة للرجال المربوطين بالسلاسل. سواء كانوا عبيدا على السفن السلطانية العثمانية. أو القراصنة فى شمال أفريقيا. أو كانوا مساجين من أرباب الجرائم على السفن المسطحة لملك إسبانيا الكاثوليكي. أو ملك فرنسا المسيحي. نوعا من الموت الحى. وكان يمكن أن تأتى نهايتهم بطرق عديدة. لم يكن ممكنا أن يموتوا جوعا، لأنه لم يكن من صالح أى قبطان سفينة أن يخسر هؤلاء المجذفين المهرة دونما داع. فقد كان الفول والذرة والقليل من اللحم مع النبيذ على السفن المسيحية. القوت الرئيسي. على حين كان الماء العذب متاحا على الدوام عند كل أريكة لرى ظمأ المجذفين. وكان لكل رجل أن يشرب لترين يوميا فى عز موسم الإبحار الصيفى [١٩]. وما إن يتعود المجذف على هذه الحياة. ويبقى حيا فى غضون الأشهر القليلة الأولى. ويتواءم جسمه مع إيقاع المجانيف. فإنه كان يعيش ثلاثين سنة أو أكثر. وكان المرض هو الاحتمال الأكبر فى هذه المعاناة. لأن الجروح وتقطيع الجلد كانت حتمية فى مثل هذه الظروف. أما الضعيف والمريض المشرف على الموت. فقد كان يتم فك قيوده ليلقى ببساطة من فوق ظهر السفينة. وكانت الضربات فقط التى تؤدى إلى أداء أفضل. ذلك أن السوط فى يد قبطان السفينة كان يحدد السرعة التى تسير بها السفينة .

وفى أوقات الحرب بصفة خاصة لم يكن الطلب على المجذفين يتوقف. ولم يكن هناك أبدا من الرجال ما يكفى لملء مقاعد المجذفين. وكان كثير من عبيد السفن يروحون ضحايا الغارات التى لا تعد ولا تحصى على طول سواحل البحر. حيث كان البشر هم الجائزة الكبرى فقد كان يمكن لأحد الأساطيل العثمانية أن يقف قبالة الشاطئ

متواريا عن الأنظار ويأمر القبطان جواسيسه باستكشاف المستوطنات المحلية. وفى الليل ترسل مجموعة إلى الشاطئ، لحرق القرى، وقتل المسنين، وجلب الشباب، وحشد أكبر عدد ممكن من القادرين بدنيا يمكن أن يجدوهم .. ومع أول ضوء تنطلق السفينة. أو أحيانا كان ينزل أسطول صغير فى منطقة ما ليبقى فترات أطول، لينشر السلب والتخريب فى دائرة قطرها عدة أميال .

كان الرجال الذين يملأون مقاعد المجذفين على معظم السفن الحربية المسيحية إما من القرويين المسلمين أو من أسرى الحرب. ولكن كان من بينهم أيضا كثير من المسيحيين الذين صاروا من الحثالة بسبب آلية القانون. ففى إسبانيا كانت الديون وأعمال الفتنة والشغب، وحتى الجرائم التافهة، يمكن أن تؤدى إلى حكم بالعمل على مقاعد المجذفين فى السفن. وعندما تصاعد الطلب على المجذفين، كان فيض المجرمين الذين أدانتهم المحاكم وحكمت عليهم بالعمل فى سفن المجاذيف يزداد عددا [٢٠]. وغالبا ما كان يستمر احتجاز أولئك الذين أمضوا مدة عقوبتهم على سفن المجاذيف ووجب إطلاق سراحهم [٢١]. كان هؤلاء الرجال المقهورون **forzados** أحرارا من الناحية القانونية، ولكنهم فى جميع النواحى الأخرى كانوا يلقون المعاملة القاسية نفسها التى كانت تنالهم من قبل [٢٢]. وفى فرنسا كانت السلطات الكاثوليكية ترسل فيضا ثابتا من البروتستانت للخدمة على متن السفن الحربية ذات المجاذيف، على حين كانت السجون البابوية تفرغ بشكل منتظم لكى تملأ مقاعد المجذفين. بيد أن البعض الآخر كانوا يختارون حياة المجذفين برغبتهم. إذ إن قراصنة سواحل شمال أفريقيا كانوا فى الواقع بمثابة حملة الأسهم فى أحد مشروعات الأعمال التجارية. وكانوا يقدمون القوة العضلية ويخاطرون بحياتهم لقاء نصيب من الأرباح التى قد يجنونها فى إغاراتهم. لقد كان سلاف دالماشيا أحرارا يعملون تحت حماية الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكانوا يمتهنون مهنة قديمة لأن أعمال العصابات فى البحر كانت جزءا من الحياة فى عالم البحر المتوسط على امتداد ألف سنة [٢٣]. وهكذا ربما كانت الأريكة نفسها تجمع بين الملاح الحر، وأسير الحرب، والعبد، والمجرم الذى يمضى فترة عقوبته سنوات من الأشغال الشاقة فى التجذيف .

كان قباطنة البحارة يعتبرون أن طواقمهم مثل الحيوانات المدربة. يعرفون قدراتهم الفردية وجوانب القصور لديهم. وكان لابد من التوازن في كل أريكة من أرائك التجذيف؛ لأن المهارة الأساسية لسفن التجذيف الحربية كانت تتمثل في خلط الدماء الجديدة بالمجذفين المجربين. وكان يتم اختيار الرجال وفقا لأحجامهم وأوزانهم. وقوة كل منهم لكي ينتجوا القدر الأكبر من القوة، ومع هذا الهدف. على الرغم من أن ظروف الحياة كانت صعبة ومهينة. فإن عددا قليلا من القباطنة كانوا يتعمدون إساءة معاملة طواقمهم. وكان المدفع في الأسطول في القرن السادس عشر مميتا في مرمى مائتي ياردة تقريبا. ولكن سفينة المجاذيف التي تسير بأقصى سرعة كان يمكنها قطع المسافة في نصف دقيقة. وهو وقت أقل كثيرا من وقت إعادة شحن المدفع [٢٤]. ولم يكن بوسع طاقم أية سفينة تجذيف أن يحتفظ بالسرعة القصوى لأكثر من عشرين دقيقة وكان المجذفون المحبطون والمرهقون يصمدون وقتا أقل. وكان من المعروف جيدا بين القباطنة أن سفن البندقية وشمال أفريقيا كانت أسرع كثيرا وأكبر كثيرا وأكثر رشاقة من سفن إسبانيا وفرنسا. وكان السبب في هذا يرجع في جزء منه إلى التصميم والوزن الميت [الذى لا فائدة منه]لأعداد الأطقم الكبيرة التي كانت السفن الإسبانية والفرنسية تحملها. ولكن هناك عامل الروح المعنوية الذى كان له تأثيره أيضا. ففي السفن الإسبانية. التي كان الأسرى وأرباب الجرائم فقط يقومون بالتجذيف فيها. كانت هذه السفن تستهلك الرجال بلا رحمة مثل مناجم الفضة في بوتوسي **Potosi** التي كانت توفر الأموال اللازمة لبناء هذه الكثرة من السفن. ولم تكن السفن ولا المناجم مصممة باعتبارها شكلا من أشكال العقاب أو السيطرة الاجتماعية. بيد أن هذا كان هو الحال الذى آلت إليه. أما في البندقية والأراضي الإسلامية. فكان يمكن للمجذف الحر أن يصير رجلا غنيا بفضل أموال المكافآت أوالغنائم. وفي الجزائر أو إستنبول. كان يمكن للعبد المسيحي الذي يعمل في سفينة تجذيف لو «صار تركيا». أي اعتنق الإسلام. أن ينتهي به الحال لأن يصير قبطانا. بل كان يمكن له أن يصبح قائد الأسطول السلطاني [٢٥].

كانت كل سفينة سلطانية عثمانية تحمل عددا إضافيا من مشاة الإنكشارية ذوى التدريب الراقى. بعضهم مسلح بالسيوف. أو السيوف التركية. وبعضهم مسلح بالقوس التركى الشهير الذى كان يمكنه أن يخترق كل الدروع تقريبا على مسافة مائة ياردة. وكان بوسع رامى السهام الماهر أن يطلق ستة أسهم فى الدقيقة الواحدة. وبدقة شديدة. كان التدريب على ثنى القوس واستخدامه يستغرق عدة سنوات. ثم بدأ الإنكشارية يستخدمون البنادق التى كان أعداؤهم يستخدمونها. ولم يكن الإنكشارية عادة يتوقعون أن يقاتلوا على سفن الأعداء. فقد كانت السفن المسطحة تستخدم عادة بوصفها وسيلة لنقلهم ليتم إنزالهم على الشاطئ لخوض معركة برية أو لفرض الحصار على قلعة ما. كان بعضهم يلبسون الزرديات. أى الدروع الواقية للجسم المصنوعة من السلاسل الصلب. ، ولكنهم كانوا يحتقرون الدروع المعدنية والخوذات الصلب التى كان الجنود الإسبان يرتدونها. ففى أى رسم يصور معارك تلك الفترة يمكن تمييز القوات المسيحية عن قوات المسلمين بقدر كبير من اليقين. إذ كانت الخوذات الصلب والدروع التى تحمى الصدور فى جانب. على حين كانت العمامة والثوب الفضفاض فى الجانب الآخر. وقد تطورت هذه الفروق بفعل المتطلبات التكتيكية والاستراتيجية. كما تطورت بفعل المواقف المختلفة من الحرب .

لقد كان المسيحيون يمتلكون سلاحا مذهلا له قوة النار الإغريقية التى عرفتها القرون السابقة[٢٦]. وفى الأسطول الذى كان يتجمع ببطء فى مسينا كانت هناك ست سفن لا تشبه أى سفن فى الأسطول العثماني. فمن خلال خبرة البندقية الطويلة فى البحر المتوسط كانت قد طورت من خلال التحسينات السلاح الذى قيض له أن يبرهن أنه السلاح الحاسم. فقد كانت هناك ست سفن طويلة ثقيلة يعلون فوق جميع السفن الأخرى الراسية فى الميناء. وهى مختلفة تماما عن السفن الحربية الملساء التى كانت تحيط بها. كانت هذه سفنا حربية ضخمة مصنوعة من ألواح عريضة تسير بالشراع وبالمجاذيف الضخمة التى يشد كلا منها سبعة رجال أو أكثر. كانت السفن الحربية الضخمة هجينا من السفن الحربية فى البحر المتوسط والسفن الشراعية فى المحيط الأطلنطى[٢٧]. وفوق السطح المخصص للمجذفين. على امتداد الجانبين كان يوجد

صف من المدافع الثقيلة التى يمكنها أن تهشم بقذيفة جانبية سفينة مسطحة أخف فى بنائها. لقد كانت هذه قلاعا عائمة. وكانت سلاحا تنفرد به البندقية .

ولم تكن السفن الحربية الضخمة قد جربت بعد فى ساحة المعركة. بيد أن السفينة الواحدة من هذا النوع كانت تعادل فى قوة نيرانها خمس سفن مسطحة عادية. وكان دون جون مقتنعا بأن السفن الست فى أسطوله ستوفر له التفوق على العثمانيين. إذا ما سارت الأمور على ما يرام [٢٨] وعندما أبحر الأسطول الكبير أخيرا من مسينا. أصدر أوامره بأن تسير السفن كلها بالسرعة البطيئة التى تسير بها السفن الضخمة حتى لا يدخل المعركة دون أن يستفيد من ميزة هذا السلاح السري. أما السبب فى أن البنادقة وحدهم قد طوروا سفينة يمكنها أن تدمر أقوى سفينة عائمة فسيبقى مجهولا إلى الأبد. وربما كان السبب ببساطة أن المواد التى صنعت منها كانت فى متناولهم. كانت فى الترسانة عشر سفن تجارية كبيرة. لم تعد تستخدم فى التجارة مع الشرق. كذلك كان لدى البنادقة وفرة من المدافع البرونزية. وبمزيج من السفن والمدافع صنعوا السفن الحربية الضخمة .

ومن غير المحتمل أن يكون العثمانيون قد طوروا سفنا حربية ضخمة لأنفسهم. على الرغم من أنهم لم يلبثوا أن بنوها عندما شاهدوا قوتها فى ميدان المعركة. ولم يكن السبب راجعا إلى نقص المهارة والمعرفة. فقد كان رماة المدافع ومدفعية الحصار التركية من نوعية راقية. وإنما كان السبب أنهم كانوا يعرفون أن طريقتهم فى الحرب كانت الأكثر تفوقا. إذ كانت مرتبطة بقوانين الشرف التى لا توازيها. بشكل فضفاض سوى مفاهيم الفروسية الأوربية. ففى الغرب كان الشرف مفهوما يرتبط فقط بالطبقة المتربعة على قمة المجتمع. إذ كان معظم الناس خارج نطاق قوانين سلوك الفروسية. وكان يعد من قبيل العبث لأى واحد لا يرتبط بالأصول العريقة النبيلة أن يدعى لنفسه المزايا والخصال التى كانت للفرسان وحظوتهم. ولذلك كان لابد لميجيل سرفانتس **Migel de Servantes** . والذى كان من بين الآلاف الذين كانوا فى انتظار دون جون فى مسينا. وكان من سوء حظه أن فقد ذراعه فى معركة ليبانتو البحرية. أن يجعل

بطله دون كيخوته Don Quixote رجلا مجنونا فى عيون جيرانه[٢٩] وتمثل جنونه فى أنه عاش وفق القوانين القديمة للفروسية التى لم تكن لتنطبق عليه. ولكن فى أسطول على باشا. كان حتى أكثر المحاربين المسلمين تواضعا يعتبر رجلا منكرا لذاته. لقد وقع دون كيخوته فى فخاخ شبكة الشرف العنكبوتية. الولاء للعائلة. والعشيرة. والرب. وهى الشبكة التى كانت تكبح جماح كل حركة يقوم بها. لقد كان الأسطول المسيحى المتجمع فى مسينا قد أسبغ عليه صفة مقاتلى الحرب المقدسة بمقتضى المرسوم البابوى فقط. وهو حدث جدير بالملاحظة لأنه كان أمرا نادر الحدوث للغاية. ففى الغالب الأعم لم تكن الحرب. حتى لو كانت قد شنت لأسباب جيدة. تحظى بهذا الوزن الذى تكفله الموافقة المقدسة[٣٠]. بيد أن كل جندى وبحار مسلم. كان مكلفا مدى حياته بالجهاد فى سبيل الله. كما أن المسألة لم تكن مسألة غايات وإنما كانت مسألة وسائل أيضا. فالقرآن الكريم الذى كان كثير من المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب يخبرهم صراحة. « إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ[٣١] «سورة الصف. آية٤». وكان أدنى جندى من جنود المشاة يحظى بالتكريم وتخليد ذكراه. بوصفه شهيدا. بسبب كيفية خوضه الحرب وليس فقط لأنه انتصر[٣٢].

لقد كان مقدرا للمعركة التى جرت فى ليبانتو أن تكون علامة على نقطة فاصلة فى النضال بين عالم المسيحية الغربية وعالم الإسلام. فعلى الجانب المسيحى. كانت الحرب تتحول إلى مسألة علمانية بشكل متسارع. فحيثما كان البابا قد أصدر مرسوما (بلا فاعلية. لمنع استخدام القوس الذى يشبه الصليب فى القتال فيما بين المسيحيين. كانت كافة القيود على آلات الحرب. مهما كانت مخيفة قد رفعت[٣٣]. كانت السفن الحربية الضخمة تستلفت النظر لا بسبب التكنولوجيا المستخدمة فى بنائها فقط. وإنما بسبب السهولة التى بنيت بها. ثم أخذها واستخدامها فى المعركة فى التو. وعلى النقيض كان الأمر فى صفوف المسلمين. إذ كان كل ابتكار يمكن أن يكون محل جدل دينى شديد بل يتعرض للمقاومة. فقد كانت الحرب النبيلة ما زالت تشن بالأسلحة المعروفة التى ورد ذكرها فى القرآن. كالسيوف. والرماح. والحراب والأقواس والأسهم. وكان الجندى المسلم الصالح هو الذى يقفز داخل الفجوة أو على

سطح سفينة العدو دون درع على جسده ولا يحميه سوى قوة سلاحه وذراعيه. كانت البنادق والمدفعية ضرورية، بيد أنها لم تكن من دلائل الشجاعة. وربما لهذا السبب لم يظهر سوى القليل من التطور والابتكار وتكنولوجيا المدافع فى العالم الإسلامى [٢٤]. لقد كانت هناك عقيدة كامنة ضمنيا وإن لم تكن معلنة بصورة علنية مؤداها أن من الأفضل أن تقاتل بطريقة نبيلة وتخسر المعركة بدلا من أن تحارب بغير شرف. وربما كان الأوربيون يكثرون من الحديث عن التقاليد والطهارة والشرف. ولكنهم كانوا يسقطونها تماما فى الواقع. فقد تناولت أساطيرهم مناسبات كان الضباط فيها يدعون عدوهم يطلق النار أولا. على سبيل المجاملة. وهى أمور كانت نادرة تماما [٢٥]. وعلى النقيض من ذلك. ربما كانت جيوش الإسلام تستخدم أسلحة جديدة ولكنها كانت مقيدة بأخلاقها القديمة بشكل متزايد .

* * *

استغرق الأمر ما يزيد على ثلاثة أسابيع حتى يتمكن دون جون من أن يجعل أسطوله الضخم الصعب يمضى فى طريقه. فقد عبر من نابولى إلى ميناء مسينا يوم ٢٥ أغسطس ١٥٧١م. وكان وصوله ذريعة لإقامة احتفالات وطقوس كبرى استمرت وتواصلت. وكانت صقلية قد عقدت العزم على ألا تتفوق عليها مدن الداخل فى إيطاليا . وثمة بناء ضخم من الرخام المزخرف تزينه صور رمزية موحية بالنصر والنعمة الربانية تم تشييده على وجه السرعة ليشغل معظم مساحة الأرض الفضاء أمام المرسى. وكان مربوطا تحت عقود هذا البناء وأقواسه حصان حرب مجهز بالسرج والركاب المطلى بالفضة. واعتلى هذه الهدية الفاخرة المقدمة من المدينة «دون جون» وشق مسينا عبر الجماهير المحتشدة لتحيته بالهتافات حتى وصل كاتدرائية لانونزياتيلا La Nnunziatella . تتبعه حاشيته على مسافة منه. وبين مسافة وأخرى. على امتداد الشوارع، كانت ترتفع أقواس النصر. كما كانت الزهور المتساقطة من الشرفات تمطر موكبه بغزارة. مما جعل الأرض تختفى تحت طبقة لزجة جميلة

الرائحة. ثم انتهت الاحتفالات. وانتظر دون جون بقدر متزايد من الإحباط وصول آخر قادة السفن العاملين تحت قيادته .وكان قد بذل جهده لإعداد الأسطول للحرب. واكتشف دون جون أن لا أحد يعرف المكان الذى كان الأسطول العثماني قد تجمع فيه. ولهذا جرد فيلقا من السفن تحت قيادة قبطان إسبانى موثوق به لكى يكتشف مكمنه. وكان الظن أن العدو قد تجمع فى مكان ما قبالة الساحل الشرقى الطويل للبحر الأدرياتى والبحر الأيوني. بيد أنه لم يكن هناك أحد واثق تماما من مكان الأسطول العثماني. أو عدد السفن التى ستواجه أسطول العصبة المقدسة .

وبينما كان القائد الشاب يحاول توحيد السفن الإسبانية مع الفرقة البابوية تحت قيادة مارك أنطونيو كولونا Marc Antonio Colona. ومع سفن البندقية التى يقودها المقاتل المحنك سباستيانو فنييرو Sebastiano Veniero . سرعان ما أدرك أن التحالف الهش قد لا يتحمل عبء الانتظار الزائد عن حده .فقد كانت هناك مشاجرات يومية تدور فى الشوارع بين المقاتلين الوافدين من مدن مختلفة أو ينتمون لأمم متنوعة. وعلاوة على ذلك. فمع وجود حوالى ثمانين ألف مقاتل داخل نطاق المدينة والميناء. كان يوجد باستمرار خطر الأمراض الوبائية التى قد تنهش الصفوف. ومع هذا. فإنه لم يجرؤ على الرحيل حتى اكتملت قوة أسطوله. فقد كانت السفن الجديدة تأتى يوميا. إذ دخل الفيلق البندقى القادم من كريت إلى ميناء مسينا. وكذلك جاء المزيد من السفن الإسبانية التى كانت تحمل القوات التى تم تجنيدها من ألمانيا. ومن بين آخر الواصلين كانت اثنتان وعشرون سفينة مسطحة تعمل بالمجانيف التى استأجرها ملك إسبانيا من مدينة جنوا تحت قيادة. جيان أندريا دوريا Gian Andrea Doria» والسفن الثلاث الكبيرة المملوكة لفرسان مالطا .

وفى الأسابيع التى انقضت فى مسينا. اكتشف دون جون أن البنادقة لم يكونوا يريدون الجنوية ولا يثقون فى الإسبان. ومستائين من فرسان مالطا. فقد كان كل تعيين يقوم به يتسبب فى الحال فى إثارة مشاعر الاستخفاف والغضب فيما بين أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار وتثور همهمات بأنه يحابى الإسبان حتما. وأنه يؤجل

التقدم. بحيث يتيح للعثمانيين الفرصة لنهب ممتلكات البنادقة. وكان كل يوم إضافى للتأجيل سبب ترسيخ مشاعر التحزب والفرقة بمزيد من القوة. وكان من دواعى الراحة أنه صدرت أوامر يوم ١٦ سبتمبر بالإبحار عندما عادت سفن الاستطلاع وكان الطقس جميلا. وكتب دون جون إلى مستشاره ومعلمه. الجندى المحنك «دون جارثيا الطلطلى Don Garcia de Toledo» يقول إن العدو :

« أقوى منا فى عدد السفن. ولكنه ليس كذلك على ما أظن فى نوعية الرجال أو نوعية السفن. ولهذا سوف أبحر بمشيئة الرب إلى كورفو الليلة. ومن هناك سوف أقرر حسبما يتناهى إلى سمعى من أخبار. ومعى ثمانى سفن مائتان . وعدد القوات ستة وعشرون ألفا. وست سفن حربية ضخمة وأربع وعشرون سفينة حربية ضخمة وأربع وعشرون سفينة إمداد. إننى واثق أن ربنا سوف يمنحنا النصر عندما نواجه العدو».

كان البابا قد أرسل الأسقف «أودتسكالتشى Odescalchi» إلى مسينا لكى يطلب من الرب التوفيق لسفنه. وقد جلب الأسقف معه تحصينات روحية للمقاتلين فى (الحرب المقدسة. عبارة عن حلوى مصنوعة على صورة حمل يرمز للمسيح Agnos Dei وهى حلوى أو بسكويت مخلوطا بدهن البلسان والزيت المركز «ذات حجم كبير وجمال عظيم». ولم يكن البابا يبارك سوى عدد محدود من قطع الحلوى هذه وفى السنة الأولى من بابويته فقط. ثم كل سبع سنوات بعد ذلك. وكانت مختومة بصورة حمل. متكئا على كتاب ويحمل راية عليها علامة الصليب ويحيط بها إطار من كلمات تقول. يا حمل الرب يا من تمحو خطايا العالم. اشملنا بنعمتك»[٣٦]. كانت هذه فى ظنهم تعويذة مسيحية قوية تمنح من يحوزها الحماية من العواصف فى البحر. والزلازل. والبرق. والطاعون. والمرض. والموت المفاجئ والشياطين. كما حمل القاصد الرسولى (سفير البابا) وثائق تتضمن نبوءات متفائلة مختلفة كتبها إيسيدور الإشبيلى الذى عاش فى القرن السابع. تقول إن العصبة المقدسة يجب أن تتشكل تحت قيادة قائد إسبانى سوف يهزم أعداء إسبانيا والمسيح ويفرقهم شذرا. وجلب معه أيضا تأكيدا

وضمانا من البابا بأن القائد الشاب سوف يربح مملكته الخاصة بلا شك مكافأة له على النصر. ولكن على الرغم من هذه التأكيدات بالمساندة المقدسة والحماية الربانية. كانت هناك بعض الشكوك التى تراود دون جون حول إمكانيات أسطوله .

فعند وصول كل فرقة كان يقوم بالتفتيش عليها. وعلى الرغم من تأكيداته لدون جارثيا التطيلى. فقد اكتشف أن هذه السفن لم تكن كلها من النوعية الأفضل. ولا كانت الطواقم المقاتلة كلها على الدرجة نفسها من القوة التى كانت توحى بها أعدادهم. كانت أفضل سفنه الحربية هى السفن الحربية الإسبانية. التى كانت أكبر قليلا. وأثقل وزنا. ومبنية من الخشب الجيد مما أكسبها قدرا من الصلابة الذى جعلها تتفوق على السفن البندقية والبابوية. فقد كانت أسطحها تزدحم بالمشاة الإسبان والألمان ذوى التدريب الراقى والتسليح الثقيل. أما السفن البندقية فكانت تبدو رائعة. بخطوطها الانسيابية. وبسرعتها التى تسبق بها حتى أسرع السفن العثمانية. بيد أن شهرة البندقية لم تكن فى محلها تماما. فقد كان بوسع ترسانة البندقية بناء هيكل السفينة فى يوم واحد. ولكن ملكة البحر نادرا ما تمتلك ما يكفى من مخزون الصوارى والمجاذيف وقماش الأشرعة الذى يجعلها تعمل بكامل قوتها. وكانت سفن البندقية غالبا ما تبنى على وجه السرعة من أخشاب الدرجة الثانية ويتم إنهاؤها بشكل غير مناسب. كان نقص عدد المتطوعين فى المعركة مصدر الخطر الأكبر، وهو ما جعل من الصعب على مدينة البندقية. التى لم تكن تستخدم الأسرى المسلمين على متن سفنها. أن تشكل طواقم السفن أو أن تقدم فرقة كاملة من الجنود. ومن حسن حظ دون جون أنه كان قد استأجر قوات إسبانية تزيد عن حاجته وأقنع فنييرو أن يأخذهم على متن سفنه. وفى الأيام السابقة على معركة ليبانتو. كان قبول طاقم معركة إسبانى يعتبر اعترافا مخزيا بالضعف بالنسبة لأى قائد بندقي. ولذلك لم يقبل فنييرو سوى بعد كثير من التردد .

وأخيرا. فى الصباح الباكر من يوم ١٦ سبتمبر ١٥٧١م. بدأ الأسطول يتحرك خارجا من من مسينا. وبينما كانت سفن العصبة المقدسة تخرج من الميناء. وقد رفرت

عليها رايات الحرب، والأعلام والرايات المثلثة. وحيت طواقمها القاصد الرسولى والمجموعة القليلة من القساوسة الذين كانوا يقفون على حافة سور الميناء. وعندما كانت كل سفينة تمر. كان كبار رجال الكنيسة يرسمون علامة الصليب. ويباركون المشروع. وكانت الجماهير ترد على هذا بالهتافات. ومثل النحل المنطلق من الخلية. بدا أن طابور السفن بلا نهاية حتى توقف على مسافة قريبة من الميناء، ليشكل أعظم أسطول تجمع على الإطلاق باسم العالم المسيحى لكى ينطلق فى رحلته إلى الشرق أخيرا. وبينما اتجه الأسطول جنوبا لكى يدور حول رأس بورتو سالفيو **Cape of Salvio** الصغير، لكى يلقى مراسيه فى الليلة الثانية قبالة رأس سبارتيفنتو **Cape of Spartivento**. تلقى الأسطول أول أخبار محددة عن الأتراك.

وثمة سفينة صغيرة. كانت تبحر من قرية جاليبولى **Gallipoli** فى شبه جزيرة برنديزى الضيقة عند الكعب الإيطالى. جاءت إلى جوار سفينة القيادة التى كان دون جون على متنها وأخبرته أن أربعا وعشرين سفينة إسلامية كانت قد احتلت ميناء سانتا ماريا على ساحل البحر الأدرياتى، جنوب أوترانتو **Otranto** على الجانب الإيطالى. على حين كانت فرقة أكبر حجما قد أغارت على كورفو. ولكن موقع القوة الرئيسية للسفن العثمانية كان مايزال سرا. فهل كان الأسطول العثمانى قد تراجع إلى مينائه الرئيسى فى بريسيفا إلى الجنوب مباشرة من المضايق على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتي. أم أنه انفصل فى عدة فرق للإغارة على موانئ البلقان أو كريت أو الجزر والشواطئ الإسبانية. التى كانت كلها بلا حماية آنذاك ونهبها. وتحرك الأسطول المسيحى مسافة أبعد صوب الشرق. وفى الأذهان أنه قد يتعرض للهجوم فى أية لحظة من جانب بعض السفن الإسلامية أوكلها. وفى يوم ٢١ سبتمبر. توقف الأسطول عند رأس كولون **Cape of Colonne**. فقد كانت السفن متقدمة بسرعة خمسين ميلا بحريا تقريبا فى اليوم وكان يعوقها الحاجة للحفاظ على سفن الإمداد الأبطأ سرعة مع السفن الحربية الضخمة العاملة ضمن القوة الرئيسية للأسطول. وهناك علم القباطنة أن القوة الرئيسية للأسطول العثمانى كانت ما زالت راسية فى بريسيفا. انتظارا لتعليمات السلطان لتحديد مكان الهجوم .

ومع وجود العدو على مسيرة أيام قليلة فقط. أراد دون جون أن يستحث السفن على الإبحار إلى الأمام بأقصى سرعة ممكنة عبر البحر الأدرياتى إلى كورفو. بيد أن أحوال الطقس ساءت وباءت جميع محاولات السفن لاجتياز مضيق أوترانتو بالفشل. واصطدمت بعض السفن بالصخور التى أحدثت بها بعض الثقوب. وفقد بعضها الآخر صواريها وأشرعتها. وعلى الرغم من أن السفن استطاعت آنذاك أن تسير بالمجانيف عكس الريح. فإن هذا أنهك قوة المجذفين وكان آخر ما يريده قبطان أى سفينة أن يصل إلى مسرح المعركة بمجذفين أرهقهم العمل ونال من معنوياتهم. ولم يحدث أن عبر الأسطول المسيحى الممر البحرى الضيق حتى يوم ٢٧ سبتمبر ليلقى مراسيه فى النهاية فى القناة التى كانت تفصل بين كورفو والأراضى الداخلية. واكتشف الأسطول أن المدينة قد صارت خرابا.

كانت هناك فرقة بحرية تركية تشن الإغارات فى البحر الأدرياتى وصولا إلى جزر البندقية الخارجية وخربت كورفو فى أثناء عودتها نحو الجنوب. وقد نهبت المدينة الرئيسية فى الجزيرة، ودمرت الكنائس. وكسرت رءوس التماثيل. ولكن الأتراك لم يؤثروا فى القلعة التى كان البنادقة قد بنوها على مدى قرنين من الزمان. وبعد عدة هجمات بلا طائل. وفقدان ثلاث سفن. واصلوا إبحارهم. وعلى أية حال. عرف أهالى الجزيرة فى الوقت الذى كان يجرى تدمير منازلهم أن الأسطول التركى كله لم يكن فى ميناء بريسيفا. وإنما كان على بعد مسافة نحو الجنوب فى المياه المفتوحة بخليج ليبانتو. وأرسل «دون جون» القبطان جيل دى أندراد **Gil de Andrad** فى الحال مع سفنه الاستكشافية للتأكد مما إذا كان الأسطول العثمانى ما زال راسيا هناك. ولمعرفة حجمه. ثم استدعى مجلس حرب للاجتماع على متن سفينة القيادة ريال **Real** . وكان يميل إلى الاندفاع قدما والمخاطرة بكل شىء فى معركة سريعة ضد الأسطول العثمانى. ولكن مجلس الحرب كان منقسما على نفسه. إذ كان بعض أعضائه لا يرحبون بالمخاطرة بكل شىء فى مغامرة المعركة، وكانوا يفضلون فرض الحصار على بعض القلاع والحصون التركية الكبرى. واقترح آخرون أن يحاولوا سحب أسطول العدو من الميناء الذى يحتمى به فى خليج ليبانتو إلى المياه المفتوحة. وبينما كان المجلس

ما يزال مجتمعا جاءت الأخبار من أندراد بأن الأسطول التركى قد ضربه الوباء ولم يكن فى كامل قوته. وطلب دون جون التصويت فوافق الجميع على أن يشن الأسطول المسيحى كله هجومه فى الحال ويدمر العدو فى خليج ليبانتو.

فى ظل التشابهات الغامضة التى أحاطت بأحداث سنة ١٥٧١م. كان القبطان العثمانى على باشا يعقد فى اللحظة نفسها أيضا مجلس حرب مع قباطنة سفنه. وكانت آراؤهم منقسمة بالطريقة نفسها تقريبا. وتحدث حسن باشا الذى كان باى الجزائر نيابة عن الغالبية الساحقة. واعترف بأن رجال الاستطلاع أخبروهم أن هذا كان أكبر أسطول شاهدوه على الإطلاق. ولكنه تذكر الكيفية التى تبعثر بها أسطول الكفار فى بريفيسا. سنة ١٥٣٨م. وفى جزيرة جربة قبالة طرابلس(*) (فى سنة ١٥٦٠) تحت وطأة الهجوم التركى. كان يعتقد أنهم جبناء. لاعزيمة لهم وأنهم سوف يفرون هنا كما فروا من قبل فى الماضى القريب. وطرح الرأى المعاكس حامد بك الذى اقترح أنه سيكون من الخطأ التقليل من شأن قوة المسيحيين أو الاتحاد فيما بينهم. كما أن «دون جون». على الرغم من كونه شابا غير محنك. قد أثبت جدارته ضد الموريسكيين فى سلسلة جبال البوخاراس Alpujarras جنوب إسبانيا. وكان من رأيه أنه يمكن للأسطول التركى العثمانى أن يكسب كل شىء بلعبة الانتظار. تحت حماية مدافع قلعة ليبانتو.

أما على باشا نفسه فكان يفضل الهجوم فى الحال. وكان عزمه قد توطد بسبب الأوامر التى طال انتظارها من السلطان. فقد أمر سليم أسطوله بالاستيلاء على السفن المسيحية وجلبها فى الحال غنائم حرب لتصطف فوق صفحة مياه القرن الذهبى. تحت قصر الحريم الجديد الذى كان قد بناه فى إستنبول. ولم يكن النظام يسمح بأى انشقاق وتم إسكات كل من كانت قد راودتهم الشكوك. وتوصل المجلس إلى نهاية مندفعة غير متروية. وعاد القباطنة إلى سفنهم لكى يستعدوا للمعركة. وبسرعة أمدت

(*) جزيرة جربة تجاه السواحل التونسية وهى ضمن الأراضى التونسية (المترجم).

القيادة العثمانية التي تميزت بالكفاءة مئات السفن بالطعام والماء. وبكميات كبيرة من البارود والذخيرة. على حين استدعى على باشا المزيد من القوات من الحاميات المجاورة. وعلى وجه السرعة أضاف عشرة آلاف رجل من الإنكشارية وأربعة آلاف من القوات الأخرى إلى طواقمه المقاتلة .

في الوقت نفسه، تحرك أسطول العصبة المقدسة باتجاه الجنوب. وبحلول يوم. أكتوبر كان قد وصل قبالة بريفيسا، بيد أن أمواج البحر العالية والرياح المعاكسة التي هبت من الجنوب أعاقت تقدمه. ومضى يوم. وأكتوبر في حال من الجمود، ومحاولة الصمود في العاصفة. وبينما كان الأسطول راسيا جاءت سفينة صغيرة كانت تبحر شمالا من جزيرة كريت صوب البندقية تحمل أخبارا مرعبة غير متوقعة .

كان كل بندقي يعرف أن العثمانيين يحاصرون ميناء فاماجوستا في قبرص. أما عاصمة الجزيرة نيقوسيا. فكانت قد سقطت قبل عدة أشهر بعد غزو سنة ١٥٧٠م. وكان قد تم ذبح عشرين ألفا من السكان عندما اقتحمت القوات التركية المدينة. واستسلم بقية سكان الجزيرة لكي يجنبوا أنفسهم هذا المصير التعس. وكانت مدينة فاماجوستا وحدها التي رفضت الاستسلام وصمدت على أمل أن تجيئها النجدة من البحر. وفي غضون ساعات فقط من سقوط نيقوسيا كان الخيالة الأتراك يمتطون خيولهم حول أسوار فاماجوستا ساخرين مستهزئين من السكان ويلوحون برءوس أعيان مواطني نيقوسيا التي رشقوها على أسنة حرابهم. وعلى أية حال. كان مارك أنطونيو براجادينو **Marcantonio Bragadino** قد جهز قيادته للصمود في مواجهة حصار طويل الأمد وكان واضحا أن المدينة سوف تقاوم. على الرغم من المصير المرعب الذي حاق بنيقوسيا. ومع أوائل ربيع سنة ١٥٧١م كان أكثر من عشرة آلاف تركي قد احتشدوا حول فاماجوستا [٣٧]. وبدا أنها لن تستطيع الصمود وقتا طويلا. ولكن على مدى أربعة أشهر. صد المدافعون الذين كان عددهم أربعة آلاف جميع الهجمات حتى تمكن الهجوم الذي حدث في يوليو سنة ١٥٧١م من إحداث ثغرات في ستة مواقع بالأسوار، ولم يكن قد تبقى لدى قوات القبارصة سوى آخر برميل بارود [٣٨]. وعندما

عرف براجادينو مصيره المؤكد. سعى إلى الحصول على استسلام مشرف. وكانت الشروط التي تم الاتفاق عليها مع القائد العثماني «لالا مصطفى» مواتية بدرجة غير عادية. فقد ضمن البنادقة الحماية لمن بقى من المواطنين على أن يتم إعادة إجلاء الحامية إلى جزيرة كريت التي كانت من أملاك البندقية .

كان الأتراك قد فقدوا أكثر من خمسين ألف رجل للاستيلاء على نيقوسيا وفاماجوستا. وكانت الشروط التي منحت للمدافعين لافتة للنظر. لاسيما بعد المذابح التي جرت على أهل نيقوسيا، وفي يوم أغسطس استدعى «لالا مصطفى» براجادينو وقيادات جيشه إلى معسكره. وكان القائد البندقي يرتدي الثوب الأرجواني الدال على رتبته السناتورية. وركب خارجا من فاماجوستا تحت مظلة مطرزة. لحمايته من حرارة الشمس. على رأس ضباطه ومعه أربعون من الحراس الشخصيين من حملة البنادق. وتقول السجلات إنه كان هادئا .... ولم يكن خائفا أو متكبرا». وفي اللقاء اتهمه القائد العثماني بخرق الاتفاقية المتعلقة باستسلام المدينة وطلب الرهائن. ورد براجادينو بأن هذا لم يكن ضمن الشروط. ثم اندفع الإنكشارية. عند إشارة متفق عليها. إلى داخل الخيمة وتغلبوا على البنادقة. وفي الخارج كان قد تم تجريد حراس السناتور من سلاحهم .

كانت الأحداث التالية قد جرت لصالح الجيش العثماني الذي احتشد بأعداد غفيرة حول معسكر «لالا مصطفى». ولا يبدو من المحتمل أن براجانديتو كان يتوقع النجاة بسبب استسلامه أو يأمل في احترام الاتفاقية. فقد كان من عادة العثمانيين أن يردوا على المقاومة بالموت. ولذلك كان سماحهم للمدافعين بالتراجع وأسلحتهم في أيديهم وراياتهم خفاقة أمرا لم يسبق له مثيل[٣٩]. ففي مناسبات سابقة كان العثمانيون يذبحون العدد الأكبر من أسراهم أو يستعبدونهم، ولايبقون منهم سوى عدد قليل طلبا للفدية. أو لكي ينقلوا الأخبار السيئة إلى أعدائهم [٤٠]. فبعد معركة موهاكس. كان السلطان سليمان قد جلس على عرش ذهبي على حين كان جنوده يطيحون برءوس آلاف الأسرى. لقد لعب البنادقة دورا كئيبا ولكنه مفهوم تماما في

دراما دموية تقليدية. لقد كان «لالا مصطفى» مصمما على أن يكون العرض أمثولة وعبرة للجميع. وأن يرضى السلطان في إستنبول بأن الحصار الطويل لم يكن عبثا. وضربت أعناق ضباط براجادينو وأركان حربه أمام ناظريه. لدرجة أن الدماء فاضت على شكل جدول عبر الأرض الجافة ليصل إلى قدميه. وتم تشويهه وقطع أنفه وأذنيه مثل أي مجرم عادي .

قام الجراحون بتضميد الجراح لوقف نزيف الدم وتأكدوا أن الجروح لم تتقيح. ووضع براجادينو تحت العناية والرعاية على مدى أسبوعين حتى استعاد قوته [41]. وفي الوقت نفسه. كانت قواته التي لم تكن قد عرفت بما جرى على زعيمهم. قد خرجت من فاماجوستا إلى السفن استعدادا للرحيل إلى كريت بحسب الاتفاقية. وعند الميناء وقعوا أسرى. ليوضعوا والأغلال في أيديهم وأرجلهم على مقاعد المجذفين في السفن العثمانية. وكان القصد من هذا التصرف الأخير السخرية من البنادقة وتجريد قائدهم من جميع مزايا الشرف. وبعد صلاة الجمعة يوم ١٧ أغسطس جمع الجيش العثماني معدات الحصار التي كانت تحيط بالمدينة. وأحضر براجادينو أمامها. وهو ما يزال مرتديا ثوبه السيناتوري الأرجواني. وأجبر على الوقوف على أربع. على يديه وقدميه. ووضع سرج بغل على ظهره. وركب له لجام ووضعت شكيمة اللجام في فمه. وتم تحميل سلتين ثقيلتين مملوءتين بالتراب على ظهره فوق السرج. بحيث كان ينوء تحت ثقلهما. وقد حملهما لإصلاح الثغرات التي حدثت في السواتر العثمانية من جراء نيران مدافعه. وطوال الصباح كان يتم تحميله جيئة وذهابا أمام قواته. خارج الخيام وداخلها. وهو ينال الإساءة من جمهور الجنود. وفي كل مرة كان يمر أمام خيمة القائد العثماني. كان يتم إجباره على أن يطرح نفسه أرضا ويأكل ملء فمه من الأرض المتربة .

في وقت لاحق من ذلك اليوم انتقل المشهد إلى الميناء. وتم تقييد السيناتور في أعلى الصاري بإحدى السفن أمام جميع جنوده السابقين الذين صاروا عبيدا في السفينة في ذلك الحين وكان معلقا في السلاسل بغير أنف وأذنين. متأرجحا في

أعلى الصارى تحت الشمس الحارقة ثم أنزل إلى الأرض واقتيد إلى السوق وربط فى مكان الضرب بالسياط بحيث يمكن لكل أهل فاماجوستا رؤية إهانته. وعندما مالت الشمس للمغيب. وبعد أن كان معلقا من كعبيه مثل الشاة. بدأ جزار تركى سلخه حيا وأزال جلده» [٤٢]. وتحكى الحولية التاريخية أن براجادينو مات عندما وصلت سكين الجزار. أعلى سرة بطنه». وتمت المهمة المريعة ولكن الجزار كشط الجلد لتنظيفه من الشحم. وكان «لالا مصطفى» وجنوده يشاهدون العملية كلها فى صمت. وفى اليوم التالى تم حشو جلد براجادينو بالقش وخيط بدقة مثل دمية ضخمة. ووضع فوق حصانه ليعرض فى الشوارع تحت مظلته السيناتورية. وركبت الدمية المحاكية لبراجادينو فى محاكاة ساخرة لرحيله من المدينة يوم. أغسطس. وبعد ذلك علق جلده متدليا من عارضة سفينة «لالا مصطفى» وظل عالقا هناك مثل الراية. وعندما عاد فاتح قبرص المنتصر إلى مياه القرن الذهبى، كان الجلد قد تمت دباغته بفضل الطقس. وكانت محطته النهائية سجن العبيد فى إستنبول حيث تم تعليقه ليكون بمثابة تحذير صامت لكل من تسول له نفسه أن يقاوم أو يتمرد .

كان مسرح القسوة هذا فى جزء منه. «تشجيعا للآخرين» على حد تعبير المفكر الفرنسى فولتير «pour encourager les autres» . ومن الناحية الطقوسية لم يكن العثمانيون قد حطوا من قدر جسد براجادينو وحده وإنما أهانوا مقام البندقية نفسها [٤٣]. ذلك أنهم بإظهار قوتهم وسلطانهم عليه وسحبه من مركز السلطة إنما يكونون قد أهانوا عدوهم. وكان الجميع يعرفون أنه لا يمكن محو هذا العار سوى بفعل مساو لهذا الفعل. فعندما حدث قبل ست سنوات من هذا الحادث. فى حصار مالطا. أن انتزع الأتراك الملابس عن جثث الفرسان وعوموا الجثث العارية باتجاه القلعة فوق طوافات. رد قائد المالطيين لافاليت La Vallette ردا من النوع نفسه. فقد جلب عشرات من الأسرى الأتراك إلى شرفات القلعة. وأمر بقطع رءوسهم على مرأى من زملائهم. وقذفت من مدفع لافاليت داخل صفوف الأتراك. لقد كانت هذه إهانة فى مقابل إهانة. ولكن بعد فاماجوستا لم يكن هناك رد مناسب بعد .

كان هذا هو الخبر الذى جيء به إلى أسطول العصبة المقدسة المنتظر تحت ستار الضباب بين جزر كيفالونيا Cephalonia وإيثاكا Ithaca. وقد أخمد الشكوك الباقية حول ضرورة المعركة التى كان يمكن آنذاك أن تنتقم لموت براجادينو وترد الإهانة أضعافا مضاعفة. وما إن ارتفع الضباب بالقدر الكافى لتحرك الأسطول بأمان. فى الساعات الباكرة من يوم. أكتوبر. حتى تحرك الأسطول كله ليدخل البحر المفتوح. فى مدخل خليج باتراس Patras . وعلى مسافة نحو أربعين ميلا من مدخل ميناء ليبانتو جيد الحماية. وعندما رأى دون جون ساحل الأرض الرئيسية أرسل سفينتين سريعتين إلى الخليج لكشف ما إذا كان الأسطول العثمانى ما زال راسيا. فإن كان الأمر كذلك. فإنه لن يتسلل من بين السفن المسيحية الكثيرة التى كانت تبحر لتضييق الخناق على الخليج صوب المضايق قبل ليبانتو .

وإلى الشمال. حيث كانت السفن المسيحية تندفع فى غمرة موجة من الرياح الشديدة. كانت جبال أكارنيا Acarnia المرتفعة تقع إلى الشمال. وأرض المورة المنخفضة تقع إلى الجنوب. وجاءت الريح من الجانب وقد غيرت اتجاهها من خلف ومن قدام. ومن ثم لم يكن ممكنا استخدام أشرعة السفن الضخمة. وتباطأ الأسطول حتى يتماشى مع سرعة تلك السفن البطيئة. وبعد الفجر بوقت قصير توقف الأسطول ليتحرك فى تشكيل المعركة الذى وضع خطته دون جون .وقد أعطى أوامره أيضا بقطع كل الكباش أو المهاميز المركبة على مقدمات السفن الحربية. والتى كانت عبارة عن تركيبات خشبية صلدة صممت لكى تضرب أجناب السفن المعادية. وتوفر منصة يمكن التقدم من فوقها. بيد أن المهماز كان يجعل من الصعب المناورة بالمدافع التى كانت وحدها كفيلة بشل حركة أى سفينة معادية. فقد كانت استراتيجية دون جون قائمة على تدمير الأسطول العثمانى وليس الاستيلاء عليه. وكان قصده أن يستخدم المدافع الثقيلة لسحق الهياكل العليا فى السفن العثمانية. والصعود على متنها عند الضرورة. على أن يعمل فى البداية على إرسال أكبر عدد ممكن من السفن وطواقمها إلى قاع البحر. ولكن رجاله فهموا من هذه الأوامر رسالة أعمق مغزى. إذ كان قطع المهاميز يساوى التخلص من أغماد السيوف. وهو ما يعنى أنها لن تعود إلى أغمادها ثانية دون أن ترتوى بالدماء .

لم يكن هناك أحد له تجربة سابقة فى قيادة مثل هذا الأسطول الكبير فى المعركة. علاوة على أن السفن الحربية الست الضخمة كانت سلاحا جديدا لم تتم تجربتها بشكل كلى. وكان مقيضا للصراع المرتقب ألا يكون شبيها بأى صراع آخر فى البحر. ولكن دون جون خطط لكى يحارب في مياه خليج باتراس المفتوحة تماما كما لو كان يخوض معركة بالفرسان على الأرض. وعلى أية حال كان القياس شاسعا. فقد امتد الأسطول في طابور طوله أربعة أميال تقريبا. وقسم دون جون مئات السفن إلى أربعة أقسام. المركز الذى أشرف عليه هو شخصيا، وجناحين، والاحتياطى وراء هذا الصف الذى تولى قيادته إسباني موثوق به. وكان القصد منه سد أية ثغرة يفتحها العدو. وكانت تكتيكات المعركة بسيطة. ففى المقدمة ستكون السفن الست الثقيلة. وسوف تسير سفن العصبة المقدسة بسرعة تتزايد بثبات من خلفها. وما إن يبدأ القتال بالأسلحة النارية، حتى يرفع معدل التجذيف لتغطى مئات السفن المسافة الأخيرة فى أقل من نصف دقيقة لكى تسحق خطوط العدو وتتقدم أيضا بكل سرعتها. ثم تختفى كل مظاهر الاستراتيجية فى خضم القتال يدا بيد. وكان الخوف من أن السفن العثمانية السريعة القادرة على المناورة قد تقتحم الصف وتدور حول السفن المسيحية من كل جانب بالطريقة نفسها التى يتبعها الفرسان الأتراك على الأرض بحيث يهزمون الفرسان المسيحيين المدرعين بفضل أعدادهم الكبيرة .

وعلى الرغم من أن دون جون لم يسبق له أن حارب فى البحر أبدا. فإنه كان يعرف عدوه. فقد حارب فى البوخاراس من بيت إلى بيت. ومن قرية إلى قرية. وقد علمته تجربته أنه حتى الفلاحين المسلمين يفضلون الموت على الاستسلام أو التقهقر[44]. وكان الدرس المستخلص من المعارك البحرية التى لا تعد ولا تحصى أنه ما إن يستحوذ المقاتلون المسلمون الأشداء على موطئ قدم فوق متن سفن الأعداء. فإن فرص النجاة ستتضاءل حينئذ. وكان تصرفه الأخير قبل المعركة أن أعطى أوامره بتجهيز كل سفينة بشباك تحول دون الصعود على السفن. ولتكون بمثابة السور على امتداد الجوانب فوق أماكن المجذفين. ولم تكن الشباك لتمنع تسلق السفينة. ولكنها كانت لا بد وأن تبطئ من حركتهم. مما يوفر الفرصة لطاقم المدافعين لكى

يحتشد. وكانت الحماية الفعالة الوحيدة ضد اندفاعة الإنكشارية هى نيران البنادق. وعلى سطح السفينة ريال كانت هناك مدربة قوامها ثلاثمائة رجل. مسلحين ببنادق إسبانية ثقيلة. وقد تم تدريبهم على إطلاق النار بغزارة إذا ما نجح العدو فى اعتلاء سطح السفينة .ولكن فى النهاية لم يستطع دون جون التحكم فى مسار القتال على متن سفنه. وكان لابد للنجاح أن يعتمد على الروح المعنوية لرجاله. وفى ضوء الصباح الباكر. كان ينتقل فى فرقاطة صغيرة سريعة بين السفن المتمركزة فى الصف جيئة وذهابا ويصيح مشجعا الطواقم والجنود. ويقول لهم إن الرب معهم. ويذكرهم بمصير براجادينو الذى يجب أن ينتقموا له على أجساد عدوهم. وكانت الهتافات تتعالى عند مروره بكل سفينة .وكان قد أمر بتحرير كل مجرم مسيحى مدان من المجذفين بحيث يمكنهم الانضمام إلى الحملة الصليبية. على أن تضاعف السلاسل التى يقيد بها المجذفون من الأسرى المسلمين، فى أيديهم وأرجلهم على السواء .

ولم يكن هناك من يبارى العثمانيين سوى أفضل جنوده. وكانت الميزة لعلى باشا بقواته الجديدة المرتاحة، والتى نعمت بطعام جيد. وكانت تتوق إلى خوض المعركة. لقد كان انتصار دون جون فى ليبانتو بفضل تفوق المدافع[**]. إذ كان قد وضع السفن الضخمة الست فى مقدمة صفوفه على مسافات محددة. واثقا من أن قوة نيرانها سوف تخلخل خط المعركة العثماني. ومثلما حشدها بالمدافع الثقيلة. حشدها أيضا برماة البنادق. وتبين الصور التى رسمت للمعركة فيما بعد السفن مدججة ببراميل البارود التى ظهرت مثل الشوك على ظهر القنفذ. ولابد للنجاح أن يعتمد على مدى استعداد العثمانيين للدخول فى منطقة القتل بين القلاع العائمة. ولكن إذا تقهقر العثمانيون ليستدرجوا سفن دون جون داخل الخليج باتجاه مدافع قلعة ليبانتو. فلابد للحركة أن تتغير. وكانت هناك بالفعل ريح شديدة وكان البحر ضد السفن المسيحية. وكلما أرهق المجذفون أنفسهم. زادت فرصة تحول الموقف لصالح الأتراك. وكما هو الحال فى كل المعارك. كانت الفرصة والعناية تتمثل فى القيادة .

ومنذ انبلاج ضوء النهار. على أية حال. تجلت دلائل النعمة الربانية. فقد كان اليوم يوم أحد، عيد سانت جوستينا St. Justina . وكان على كل سفينة راهب أو قسيس

ليقدم الدعم الروحى. إذ كان دون جون قد أمر منذ وقت طويل أن يقام القداس قبل الدخول فى أية معركة. وعلى متن كل سفينة وقف الرجال بدروعهم ومعهم أسلحتهم. ثم ركعوا لصلاة القداس. وتصاعدت روائح البخور من جميع السفن. لتعطر الجو قبل أن تحملها الريح بعيدا. وعندما بدأ القداس ظهرت السفن العثمانية فى الأفق للأسطول المسيحى الكبير. وعندما لاحظ العثمانيون هدوء السفن الراسية فى المياه وسكونها. ظنوا أن الرعب قد أمسك بتلابيب الأسطول الغربى. وفوق متن سفن على باشا. التى امتدت فى صف طويل مثل السفن المسيحية المعادية. بدأت الطبول تدق وبدأ آلاف الجنود المنتظرين يهتفون بصوت واحد «الله أكبر». ودقوا بأرجلهم. وضربوا بسيوفهم على دروعهم. وعلى متن السفن التى كان بها موسيقيون. انضمت أصوات الصنوج والطبول والأبواق لتزيد من صخب الصوت .

وتقارن كتب التاريخ الغربية التى كتبت عن هذه الدقائق بين الصمت الدينى المحترم من جانب الأسطول المسيحى. «الصخب» الأجش الصادر عن السفن العثمانية. بيد أن الحقيقة أن الأحداث كانت متشابهة تماما على الجانبين. فعلى متن السفن الغربية كانت أصوات القساوسة الفردية تقود الصلوات. وقد أحاطت بهم الجموع فى صمت. وعلى السفن العثمانية. كانت جماعة المؤمنين يصنعون «موسيقاهم الخشنة». وعلى أية حال. كان كل من الاحتفالين يعزز عقيدة واحدة. فقد كان من المعتقد لدى كل من الجانبين أن مآل من سيموت فى القتال الوشيك سيكون الجنة. فالمسيحيون. حسبما ذكرّهم قساوستهم. قد حصلوا على شهادة من البابا أنهم سوف يعفون من آلام المطهر. أما المسلمون. فكانوا واثقين بفضل آيات القرآن الكريم التى ترن أصداؤها فى آذانهم. من أن الجنة فى انتظارهم. ولكن بالنسبة للمسيحيين المستغرقين فى صلواتهم كانت الضجة المنبعثة من السفن التى لا تبعد سوى ميل أو نحو ذلك عبر المياه تبدو بربرية ووحشية. تلك الكتب التاريخية نفسها التى حكت عن بربرية الأتراك هى التى أوردت أيضا قصة تصرف تنم عن الشرف والفروسية من جانب على باشا. فبينما كان دون جون قد أمر بربط المجذفين من الأسرى المسلمين على السفن فى مجاذيفهم بالسلاسل. حتى يعيشوا أو يموتوا مع

سفنهم. نزل القائد العثمانى إلى السطح الذى كان فيه المجذفون فوق سفينة القيادة الخاصة به «السلطانة». ليقف بين المجذفين من الأسرى المسيحيين على متن السفينة. وتحدث معهم بالإسبانية قائلا. «أيها الإخوة إننى أتوقع منكم اليوم أن تقوموا بواجبكم نحوى لقاء المعاملة الطيبة التى عاملتكم بها. وأعدكم إذا ما كتب لى النصر أن أمنحكم الحرية. وإذا لم أنتصر فإن الله سوف يهبكم إياها»[٤٦] .

حتى فى هذه اللحظات الأخيرة وقبل أن يصدر على باشا أوامره بالتقدم. جادل بعض قادته. مثل ضباط دون جون عندما سمعوا روايات عن قوة الأسطول وحجمه. أنهم يجب أن يتجنبوا المعركة. وقال الضباط العثمانيون إن من الحكمة أن يتراجعوا تحت حماية مدافع ليبانتو وأن يستدرجوا المسيحيين للقتال داخل مياه الخليج الضيق. ولكن على باشا كان قد عقد العزم على الإبحار خارج الخليج والاشتباك مع العدو فضلا عن أنه جعل ذلك قتالا مباشرًا مع دون جون. ولما كانت الريح خلفه. قبل الظهر مباشرة. أمر السفن بأن تجذف إلى الأمام بسرعة صوب صفوف العدو وكانت سفينته تتجه مباشرة نحو السفينة «ريال» التى كانت ترفع علم العصبة المقدسة آنذاك .وعندما اقتربت السفن العثمانية من مرمى نيران السفن الضخمة بدأت المدافع فى قصفها. وتغير اتجاه الريح. وفى ذلك الحين كانت الطواقم العثمانية تجذف بهمة فى بحر ثقيل عكس الريح، على حين كانت السفن المسيحية محمولة إلى الأمام. بأنفاس السماء» [٤٧]. وغاصت السفن التركية تحت قصف السفن الضخمة. فى بداية الأمر من مدافع المقدمة فى هذه السفن. ثم من مدافعها الجانبية. ولما رأى على باشا حجم الدمار. أمر سفنه بالابتعاد بيد أن هذا أدى إلى تفكك التشكيل العثمانى. عندما دخلت السفن بين الثغرات بين السفن الضخمة [٤٨]. وبدلا من طابور سفنه الذى كان يقتحم السفن المسيحية دفعة واحدة. تبددت القوة الدافعة .

وعلى امتداد ميل تقريبا فى وسط المعركة كانت السفن تتقارب وتتصارع .وفى بعض الأحيان كانت مقدمات السفن العثمانية المزودة بالكباش الحديدية تصطدم بسفن العدو. وفى أحيان أخرى كانت الصوارى والأشرعة تتشابك. وكان الجنود يصبون

النار على خصومهم. وكانت كثير من السفن المسيحية مرصعة بالسهام التركية. على حين كانت أسطح السفن العثمانية قد ثقبت بفعل طلقات البنادق. كما كانت شباك عرقلة الصعود التى كان دون جون قد أمر بتركيبها قد برهنت على جدواها وامتلأت بالقتلى العثمانيين وبالذين يعانون الموت بعد أن وقعوا فى فتحات الشباك. فقد قفز الإنكشارية فوق الشباك. لكى تصيبهم الحراب والطلقات وهم يقطعون الحبال المدهونة بالقار بالسيوف القصيرة أو بالسكاكين. وكان المزيد منهم يقعون فى براثن الموت الأكيد. واستمروا فى تمزيق الشباك حتى صارت خرقة بالية فى نهاية الأمر. ووجد المسيحيون الذين صعدوا على السفن العثمانية أنه لم تكن هناك شباك لدى العدو ولكنه كان قد فرش ممرات السفن بزيت الزيتون أو العسل. كان الأتراك يحاربون وهم حفاة مما جعلهم ثابتين على سطح السفينة بشكل أفضل من المشاة الإسبان أو الألمان الذين كانوا يرتدون الدروع والأحذية المتينة. وكانت السهام المنطلقة من الأقواس التركية التى تعد بالآلاف مميتة من المسافات القصيرة مثل نيران البنادق. وكـان أى مسيحى ينزلق ويسقط يتم الإجهاز عليه بخنجر أحد البحارة العثمانيين أو الجنود غير النظاميين وسط المعمعة .

كان على باشا قد أخفق فى الضغط بميزته الأولية وتبددت لدغة الهجوم العثمانى. ففى الحروب البحرية عادة ما كان الانطباع الأول والهجوم الأول على درجة كبيرة من الأهمية. وفى ذلك الحين كانت سفينتا القائدين قد اشتبكتا إحداهما مع الأخرى. فقد كانت «سلطانة» راسخة قبالة السفينة «ريال». ولكن على الرغم من أن على باشا كان قد تردد فى اللحظة الأولى. فقد كانت لديه خطة للتغلب على قوة النيران الأكبر لدى غريمه. فخلف سفينة القيادة التركية كان هناك أسطول صغير من السفن والسفن الشراعية الصغيرة التى غصت أسطحها بالإنكشارية. وتم ربطها سويا بالحبال وألواح الخشب. وكان ذلك يوفر التعزيزات داخل ساحة القتل على متن السفينة «سلطانة». ومهما كان عدد الرجال الذين كان يمكن لرماة البنادق صرعهم. كان يصعد على السفينة المزيد والمزيد من الأتراك. كان كل من القائدين يظن أن حصاد المعركة النهائى سوف يتوقف على المواجهة الشخصية بينهما .إذ كان على باشا.

ومثله دون جون. قد اختار قوة من الرجال المسلحين ليكونوا بمثابة قوة الصدمة لديه. على حين كان هو نفسه واقفا على السطح المرتفع فى مؤخرة السفينة. ومعه قوس كبير منحنٍ يقذف به ببرود على السفينة «ريال». وكان يشاهد دون جون. فى درعه الأسود المطلى بالفضة. يهبط إلى سطح سفينة قيادة أسطول العصبة لكى يقود رجاله من حملة البنادق وحملة السيوف. وقذفوا ألواح الخشب للعبور من الفجوة الضيقة إلى السفينة «سلطانة». بعد إخلاء السطح من الجنود العثمانيين بموجات متتابعة من طلقات البنادق. ثم تسلقوا السفينة .

ولكن حدث عندئذ أن جاءت جمهرة كبيرة جديدة من الإنكشارية. واندفعت إلى الأمام وأجبرتهم على العودة إلى سفينتهم. وتجمع المسيحيون مرة أخرى وشنوا هجومهم. وبينما كان الإنكشارية فى اضطرابهم. نزل على باشا إلى سطح المركب لكى يشد من أزر رجاله. وفى غمرة الاضطراب نالته ضربة سطحية من طلقة بندقية وسقط. واندفع المسيحيون مرة أخرى إلى الأمام، وقطع رأس القائد العثمانى واحد منهم. تعرف عليه من ملابسه الفاخرة. وأخذها إلى دون جون الذى كان محصورا فى وسط القتال بالنيران فى كل مكان آخر فوق سطح السفينة. وفى ثوان كانت رأس على باشا المهشمة قد وضعت على رمح. ورفعت عاليا لكى يراها الجميع. على حين كان المحاربون الإسبان المحنكون يشقون طريقهم للأمام ضد الأتراك الذين تدهورت معنوياتهم فى تلك اللحظة. كانت المنطقة المحيطة بالصارى آمنة. وتمزق علم المسلمين ذو اللون الأخضر وأنزل من مكانه. وأحضرت راية مثلثة ضخمة عليها علامة الصليب من السفينة «ريال» وربطت فى قمة الصارى فى السفينة سلطانة .

وبينما كان قلب الأسطول العثمانى قد خرج من القتال فى الوسط. كان القتال ما زال دائرا بوحشية متزايدة على الجناحين. ودارت معارك يائسة على أسطح السفن عندما تشابكت فى بعضها البعض. وراح آلاف الرجال حصادا للموت. واصطبغت مياه الخليج بحمرة الدم. ولاذت بعض السفن العثمانية بالفرار من البنادقة الذين كان من الواضح أنهم لن يظهروا أية رحمة باتجاه الشاطئ. وطاردهم البنادقة على

الشاطئ وقتلوا جميع الهاربين. وهناك رجل لم يجد ما يقتل به خصمه على الأرض سوى عصا غرسها فى حلقه حتى سكن تماما. وفى أغلب الأحيان كانت السفن تقف وتغرق أعداءها بإطلاق النار. وهم يتفرجون على حين يغرق كل الذين على متن سفن الأعداء. وفى حرارة مابعد الظهر. بدأت الجثث الطافية فوق المياه تنتفخ بفعل الغازات وتتقافز مثل الفلين .

وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر كانت المعركة قد انتهت. ولقى أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة مسيحى مصرعهم. ولكن خسائر العثمانيين تعدت العشرين ألفا. وتم تحرير أكثر من خمسة عشر ألف أسير مسيحى من المجذفين على سطح السفن العثمانية. ولم يتبق من معظم السفن التى كانوا يجذفون عليها سوى هياكلها [٤٩]. وهربت عدة سفن قليلة من الجناح الأيمن العثمانى تحت قيادة عليش باشا. الذى كان مسيحيا قبل أن يعتنق الإسلام. ولكن مصير بقية الأسطول الضخم كان الغرق. أو التدمير أو الأسر كان هناك كثير من الأسرى وكمية هائلة من الغنائم والأسلاب. وفى الحال بدأ المسيحيون يتذكرون علامات المؤازرة الإلهية. فقد كانت راية العصبة المقدسة. التى رفرفت على سفينة القيادة التى قادها دون جون بلا خدش، ولم تمسها طلقة أو يصبْها سهم. على الرغم من أن الصارى ومحيطه من القوائم الخشبية قد نالته الثقوب. وعلى النقيض من ذلك. كان العلم الأخضر الكبير فى سفينة على باشا «سلطانة» قد تمزق إلى قطع صغيرة تقريبا. لدرجة أن معظم الكتابة الكوفية صارت مستعصية على القراءة. ولم يكن هناك بين القتلى أو الجرحى على السفن الإسبانية قسيس واحد ولا راهب. على الرغم من أنهم كانوا فى حومة القتال. وتذكر الجميع كيف أن الريح التى كانت قد هبت فى وجوههم سكنت فجأة ثم عكست اتجاهها لتحملهم إلى الأمام فى اللحظة الحاسمة، ولم يلحق أذى بأى من علامات الصليب العديدة على السفن على الرغم من أن طلقة بندقية انطلقت بالقرب من إحدى هذه العلامات. وتذكر آخرون ما كان دون جون قد قاله لهم فى الساعة السابقة على المعركة. «يا أبنائى. نحن هنا لننتصر أو نموت حسبما تقرر السماء. لا تدعوا عدونا الكافر يسألنا. أين ربكم. » قاتلوا باسمه المقدس سواء واجهتم الموت أو فزتم بالنصر فإنكم للخلود رابحون»[٥٠]

هكذا. منذ اللحظة التى انتهت فيها المعركة بدأت صناعة الأساطير. وبينما كان الأسطول المسيحى يسحب غنائمه. مبحرا ببطء عائدا صوب مدخل الخليج ليلقى مراسيه فى بتالا Petala كان قد خلف وراءه مشهدا من مشاهد الدمار والخراب .

«على امتداد أميال حول الأسطول الظافر كانت الأمواج على نحو ما أكد شهود العيان. قد اكتست اللون الأحمر بسبب الدماء، وكانت محملة بألواح الخشب المكسورة والصوارى والقوائم والمجانيف. وأجساد الرجال وأطرافهم. والدروع والأسلحة، والعمائم، والصديريات، والبراميل، وأثاث الكبائن. وكوفيات الفرسان الغالية. وثياب الباشا الغالية. وزينة الإنكشارية الزاهية. والأسمال الرثة للعبيد. وكافة أصناف غنائم الحرب. وكانت القوارب تتحرك هنا وهناك بين البقايا الطافية. لإنقاذ كل ما يبدو أن له قيمة باستثناء حياة الهالكين»[٥١] .

ومن الأسطول الراسى. أرسل دون جون سفينة سريعة لتنقل الأخبار إلى الملك فيليب. ومعها العلم الأخضر الممزق الذى كانت ترفعه السفينة «سلطانة». وبعد ذلك تم إرسال علم السلطان الشخصى إلى البابا وأرسل إلى البندقية والإمبراطور فى فيينا تقريرًا مفصلا عن النصر الكبير، بيد أن الملك فيليب لم يكن أول من تلقى الخبر حسبما كان دون جون قد خطط. ففى يوم ١٧أكتوبر. دخلت سفينة ميناء البندقية. وهى تطلق مدافعها. وتسحب الأعلام فى الماء. ثم ألقت مراسيها قبالة ميدان سان مارك. وكان بوسع المشاهدين الذين تطلعوا فى فضول أن يروا الأتراك يسيرون فوق سطحها. وساد الذعر برهة. لأن الناس ظنوا أن الأتراك عادوا إلى مهاجمة المدينة. ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة. فقد كانوا من البنادقة الذين لبسوا الثياب التركية التى حصلوا عليها من غنائم النصر. وفى الحال سرت الأخبار فى جميع أرجاء المدينة. وبدأت الاحتفالات التى استمرت على مدى أربعة أيام. ودقت أجراس الكنائس بشكل متواصل آناء الليل وأطراف النهار وأوقدت نيران كبيرة فى الشوارع. مع تقديم الطعام والنبيذ للناس.

وأعلن العيد السنوى لليبانتو. وهو عيد سانت جوستينا. يوم عطلة بصفة دائمة. وبسرعة كتبت مئات القصائد وألفت القطع الموسيقية وألقيت الخطب. وكانت تلك أول القطر فى سيل جارف من الأشعار والذكريات فى العديد من اللغات الأوربية. ومنذ تلك اللحظة صارت المعركة قصة رمزية أخلاقية. حيث اكتسبت كل تفاصيل الصراع مغزى إضافيا. وفى هذه العروض سمع الجمهور كيف دمر دون جون ونبلاء البندقية الذئب الكاسر. والعجل الهائج. والتنين المخيف. وهيدرا الشرق. لقد قتلوا الوحش. وعندما انتشرت أخبار المعركة. تذكر الناس حوادث إعجازية جديدة(*). ففى الساعة الرابعة بعد الظهر. فى اللحظة نفسها التى شهدت نهاية المعركة. كان البابا. فى روما. قد توقف عن عمله فجأة. ومشى نحو النافذة وفتحها وأنصت باهتمام. ثم قال لأمين خزانته وهو يغلق النافذة. «ليكن الرب معك. ليس هذا وقت العمل. ولكنه وقت شكر الرب. لأن أسطولنا انتصر فى هذه اللحظة» [٥٢]

وقيل إن الملك فيليب الثانى كانت لديه منذ البداية أخبار عن المعركة وصلته بواسطة مبعوث من البندقية يوم ٢٩ أكتوبر. عندما كان يراقب صلوات المساء من القاعة المغطاة بالستائر والمطلة على كنيسة القصر. وبمرور الزمن تم تجميل هذه اللحظة لكى تعطى وزنا للمعنى الأعمق الذى كان قد ارتبط بالمعركة. وفى سنة ١٦٠٥م. أى بعد ست سنوات من موت الملك. نشرت حكاية تحكى كيف كان الملك فيليب فى صلاة المساء فى كنيسة سانت لورنزو الكتدرائية.

«دخل دون بدرو مانويل. الذى كان رجلا راقيا. من غرفة النوم وهو مشوش فى نظرته وتصرفاته. مما دل على أن أمرا جللا قد وقع. وقال بصوت عال لجلالته. «سيدى. إن جندى المراسلة الخاص بدون جون النمساوى موجود هنا. ومعه أخبار عن نصر عظيم». لكن الأمير العظيم لم يغير وقفته ولم يظهر أية انفعالات. فقد

(*) لا يتدخل المؤلف هنا فى عرض الأساطير التى نمت حول معركة ليبانتو على الرغم من أنه لا يتبناها أو يصدقها. المترجم

كانت إحدى مميزات البيت الملكى النمساوى، من بين مزايا أخرى. ألا يفقد الواحد منهم أبدا. ومهما حدث. صفاء محياه وجاذبية سلوكه الإمبراطورى. وعندما انتهت صلوات المساء. نادى رئيس الرهبان وأمره بإقامة صلاة الشكر وإنشاد «نشكرك أيها الرب Te Deum Laudamus». مع الصلوات الكنسية المناسبة»[٤٣].

وقد أقحمت تفاصيل هذه الظروف. وأسماء الرجال المحترمين فى الغرفة الملكية. والموقع داخل كنيسة سان لورنزو المشيدة على الطراز الباروكى. أقحمت كلها فى القصة إقحاما. ويشير المرشدون السياحيون فى القصر إلى الكرسى الذى كان الملك يشغله فى اللحظة التى وصلت إليه الأخبار. بيد أن الكنيسة لم تكن قد تكرست فعلا حتى سنة ١٥٨٦م. أى بعد ست عشرة سنة من معركة ليبانتو .

وعندما تلقى الملك فى النهاية تقرير دون جون مساء يوم ٢٢ نوفمبر فى الأسكوريال. كانت حوله عائلته وحاشيته. وكان الرسول دون لوب دى فيجويروا Don Lope de Figueroa. قد سافر على مهل. لأنه كان قد أصيب بجرح خطير. كما أنه كان محل حفاوة فى كل مدينة مرّ بها[٤٤]. ولم يكن الفرح الشعبى بليبانتو قاصرا على الأمم التى شاركت فى المعركة بشكل مباشر. بل إنه حتى فى فرنسا حيث كان الملك المتدين يحتفظ بعلاقات طيبة مع العثمانيين لأسباب سياسية. كانت هناك مواكب وصلوات فى الكنائس بأصغر المدن والقرى. وفى إنجلترا البروتستانتية كانت هناك أيام من الاحتفالات الصاخبة فى لندن وخرجت المدن الألمانية عن وقارها من فرط السرور. وربما كانت تلك المرة الأخيرة التى كان فيها الإحساس بالمشاركة العالمية فى حرب مقدسة قد تجاوز الانشقاق بين الكاثوليك والبروتستانت وتخطاه[٤٥] .

* * *

فى غضون أيام بعد رواية القصة للمرة الأولى فى الأندلس. كانت حكاية «ليبانتو» تصاغ من جديد فى شكل مسرحى فى كهوف سكرومونتى Sacromonte

فى غرناطــة[٤٦]. وفى مثل هذه، الروايات» كانت الحقيقة الأخلاقية أهم من المحاكاة الفعلية للأحداث[٤٧]. فما حدث فى ليبانتو كان قد تم تكوينه من الحدث نفسه فى جزء منه، ومن الأساطير اللاحقة التى أدخلت عليه فى جزء آخر. فقد صارت التفاصيل الدقيقة للمعركة معروفة على نطاق واسع، بسبب المذكرات والكتيبات، أو من خلال القصص التى كان الرحالة والمسافرون يحكونها. وكانت بعض أعمال الحفر على الخشب والتى انتشرت فى كافة أنحاء أوربا تلتزم بالحقيقة الواقعية إلى درجة لافتة للنظر. وكان هناك كتاب متداول فى ألمانيا بعد شهور من المعركة على غلافه رسم لسفينة حربية فى بداية القتال، وكانت مدافعها الكبيرة تنفث الدخان من جانبيها. وكانت شباك منع الصعود والدروع المصنوعة من الجلود المغلية فى مواضعها. وتبدو السفن التركية مهشمة إلى قطع. والبحر ملىء بأشخاص معممين ودروع خشبية مرسوم عليها الهلال تطفو على سطح المياه [٤٨]. لقد كانت الاستجابة للمعركة والمعانى المستفادة منها، أى أصداؤها ممتدة وواسعة المدى، سواء من حيث المكان أو من حيث الزمان، وبالنسبة للسير ريتشارد لفلاس Richard Lovelace . الذى كتب بعد مرور قرن على معركة ليبانتو، كانت المعركة اسما دالا، أو اختزالا، يدل على النصر المسيحى، « عندما كان البحر المريض يغص بالعمائم .... كان هذا هو الإكليل، وهذا هو النصر».

كان إحياء ذكرى ليبانتو يتم بطرق متعددة، فقد احتفلت روما بعودة مارك أنطونيو كولونا بانتصار يليق بقيصر، إذ ركب إلى مبنى الكابيتول على صهوة حصان أبيض، تتبعه صفوف طويلة من الأسرى الأتراك، وقد قيدوا بالسلاسل اثنين اثنين وهم يجرون السلاسل الثقيلة، كل منهم يرتدى زيه الأحمر أو الأصفر [٤٩]. كما أن هناك كولونا أوروراتو Colona Ororato الذى تحتفل فيه المدينة التلية الصغيرة سيرمونيتا Sermonetta بذكرى بطولته فى المعركة سنويا، وقد حيَت مسينا الأسطول العائد بالمباريات والمنصات الجنائزية الضخمة لتكريم قتلى المعركة، كما نصبت تمثالا هائلا مطليا لدون جون صنعه المثال أندريا كالاماش Andrea Calamach . وما يزال تمثال الأدميرال قائما إلى اليوم، وقدمه اليمنى فوق رأس مقطوعة معممة لتركى ميت.

على حين يحكى قصة ليبانتو كلها يحكيها لوح برونزى يدور حول قاعدة التمثال. وقد عهدت حكومة البندقية إلى كل من تينتوريتو Tintoretto. وبييترو لونجو Pietro Longo وأندريا فنسنتينو Andrea Vincentino وأنطونيو فاسيلاتشى Antonio Vassilachi بعمل سلسلة من الرسومات للقاعة المسماة Sala dello Scrutinio فى قصر دوج البندقية. وفى كنائس المدينة. وترسانة. السفن. أحيت ذكرى العصبة المقدسة والنص الذى منحه الرب فى هياكل الكنائس. والرسوم واللوحات التذكارية الرخامية، وقد خضع تيتيان Titian الذى كان قد انحدر به الحال إلى درجة إنتاج لوحات تذكارية عن مدينة البندقية. للملك فيليب الثاني. وفى لوحة فخمة. القصة الرمزية لليبانتو. يبدو الملك فى مظهر الشخص المسيطر على اللوحة. وهو يقدم ابنه القاصر دون فرديناند (الذى ولد فى الشهر التالى لمعركة ليبانتو) إلى الرب فى السماء، على حين تضع يد ربة النصر المجنحة أكاليل الغار على المنتصر. وفى مقدمة اللوحة يظهر تركى مقيد بحزام. وقد ألقيت أسلحته وعمامته على الأرض بجواره. وفى الخلفية سفينة حربية تحترق إشارة إلى النصر العظيم .

ثم تعززت الذكرى الرسمية للمعركة. ففى شهر مارس سنة ١٥٧٢م أصدر البابا مرسوما بأن يتم الاحتفال بعيد التسابيح فى الذكرى السنوية لمعركة ليبانتو. وفى كتدرائية طليطلة كانت تعرض راية استولى عليها المسيحيون فى ليبانتو كل عام فى يوم المعركة. ثم تقام صلاة الشكر. وفى الكنائس بشتى أنحاء العالم المسيحى الغربى ظلت احتفالات إحياء ذكرى معركة ليبانتو تقام بعد أن طوى النسيان تفاصيل المعركة بزمن طويل. لقد كانت للمعركة جاذبية شديدة بوصفها «موضعا للذاكرة». فقد بينت الوحدة المسيحية الأوروبية(*). ومن ثم كانت نجدة فيينا من الحصار العثمانى سنة ١٦٨٣م هى التى أوضحت فقط أن استجابة العالم المسيحى جاءت. بصوت موحد

(*) يتحدث المؤلف باستمرار عن أوربا المسيحية بعبارة «العالم المسيحى» متجاهلا المسيحيين العرب وغيرهم فى العالم (المترجم).

مثلما حدث فى ليبانتو. وإذا كان البروتستانت لم يشاركوا فى ليبانتو. فإن قلة منهم فقط أدانوها باعتبارها نصرا للكنيسة الكاثوليكية. لقد كان لها بطل شخصى وعدو شيطانى. وربما كان هذا هو السبب فى أنها استمرت فى كراسات الدعاية وكتيباتها على مدى أكثر من قرن من الزمان بعد حدوثها .

وفى عمق زمنى أبعد. كتب الأديب الكاثوليكى شسترتون **G.K. Chesterton** ملحمة «ليبانتو» التى فيها. حرر دون جون قومه «لا ليصحح أخطاء زمانه فحسب. وإنما قدم أيضا رسالة للمستقبل :

يحفل الشمال بالأشياء والنصوص المتشابكة والعيون الموجوعة

وجميع الأبرياء أماتهم الغضب والمفاجأة

والمسيحى يقتل المسيحى فى غرفة ضيقة متربة

والمسيحى يفزع من المسيح الذى جاء بوجه جديد ليوم الدينونة والهلاك

والمسيحى يكره مريم التى قبلها الرب فى الجليل.

ولكن دون جون أمير النمسا على صهوة جواده يمضى صوب البحر

وينادى دون جون بالنفير وبكسوف الشمس

يصيح بالبوق. بوق شفتيه ممتدحا الرب المجيد

كان موضوع الاستمرارية هذا. أى استمرارية المعركة ضد عالم الإسلام. قد جاء فى سياقه المناسب سنة ١٩١١م .فقد نشرت ملحمة. ليبانتو» التى ألفها شستراتون فى الذكرى السنوية لمعركة ليبانتو. وبعدها بستة أيام هبط الجيش الإيطالى على أرض ليبيا للاستيلاء على ما تبقى من ممتلكات الدولة العثمانية فى شمال أفريقيا. وقبل ذلك بأيام قليلة. وهناك بعيدا فى البحر الأدرياتى. كان الأسطول الإيطالى قد هاجم سفينة مدفعية تركية فى بريفيسا وأغرقها. وهو موضع آخر للذكرى. لأن هذا كان

المكان الذى أرسى فيه دون جون فى الأيام التى سبقت معركة ليبانتو[١٠]. ومع اتفاقية أوتشى Ouchy. التى جرى توقيعها يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٢م. أعادت إيطاليا. الاسترداد» المسيحى إلى شمال أفريقيا. فقد بسطت الأمم الأوربية سيادتها على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط بأسره. من مصر حتى المغرب. كانت ليبانتو. فى نظر شستروتون على الأقل. حملة صليبية نشطة ومتواصلة. ولم تكن مجرد حادثة انتزعت من سياق ماض ميت بشكل عشوائى[*].

كذلك ارتبطت ليبانتو فى مرونة بالخيال الشعبي. فقد كانت المواكب التى تضم من يقومون بدور المسيحيين ومن يقومون بدور المسلمين تحتفل بالانتصار المسيحى على مدى القرون فى المدن والقرى على ساحل إسبانيا الشرقى وفى كورسيكا[١١]. إذ كان يتم إحياء الذكريات القديمة أو يعاد بناؤها مثلما حدث فى الاحتفال الضخم الذى أقيم تحت اسم موريسكا Moresca فى فيسكوفاتو Viscovato بكورسيكا سنة ١٧٨٦م تكريما للحاكم الجديد. كونت ماربيف Marbeuf. وفى هذا الاحتفال قام مائة وستون راقصًا وراقصة بتمثيل رواية ملحمية عن الانتصار المسيحى[١٢].

لم يكن هناك نظير فى العالم الإسلامى لدورة الاحتفالات وذكرى النصر. فقد ساد هناك الحزن على كارثة ليبانتو واعتبرت مشيئة إلهية. فقد كتبت حولية معاصرة عن المعركة بشكل مقتضب أن. الأسطول السلطانى واجه أسطول الكفار الملاعين. وشاءت إرادة الله أمرا آخر»[١٣]. وعندما سمع السلطان بما جرى استشاط غضبا وكاد يأمر بإعدام كافة المسيحيين فى مملكته. بيد أنه اقتنع فى سهولة بالرجوع عن هذا. لدرجة أننا قد نشك فى أنه كان يقصد هذا أساسا. ولم يكن من تقاليد العثمانيين أن يخلدوا نصرا ما الذكرى الدائمة. أو أن يعاقبوا أنفسهم بذكرى الهزيمة. كان النصر أو الهزيمة أمورا بيد الله. بل إن الوزير الأعظم للسلطان سليم الثانى. «محمد

(*) وضع المؤلف كلمة reconquista بين علامتى تنصيص لكى يبين أن هذا كان المفهوم الأوربى عن احتلال بلدان العالم الإسلامى. (المترجم)

سوقللو» ذكر للمبعوث البندقى الذى قابله بعد أيام قليلة من وصول أخبار المعركة إلى إستنبول، أن النصر المسيحى كان بلا معنى :

« لقد رأيت كيف أننا نتحمل سوء حظنا. ولكننى سوف أجعلك تعرف الفرق بين خسارتكم وخسارتنا. فعندما انتزعنا منكم قبرص حرمناكم ذراعا وعندما هزمتم أسطولنا حلقتم ذقننا فحسب. وعندما تقطع الذراع فإنها لا تنمو ثانية. ولكن الذقن الحليقة سوف تنمو بشكل أفضل من ذى قبل بفضل الموسى» (٦٤)

ومن بين جميع الانتصارات التى أحرزتها الجيوش العثمانية. كان الاستيلاء على القسطنطينية على يدى محمد الثانى الانتصار الوحيد الذى يجرى الاحتفال به ويتم إحياء ذكراه على طريقة احتفال الغرب بليبانتو. ولم يكن هناك فى احتفال العثمانيين ذلك التدفق فى الصور والنصوص التى تولدت عن النصر المسيحى فى ليبانتو. ونتيجة لهذا لم يحتل النصر العثمانى بفتح القسطنطينية مكانة راسخة فى مملكة التاريخ والذاكرة .

أما بالنسبة للمسيحيين فقد كانت حكايات ليبانتو تحتوى على رسالة مزدوجة عن الإسلام. فمن ناحية كان هناك «لالا مصطفى». القائد فى حملة قبرص. تجسيدا للعقاب القاسى والوحشى الذى نزل ببراجادينو. وكان ذلك مثالا على المفهوم المسيحى عن المسلمين ولكن من ناحية أخرى. كان على باشا القائد العثمانى فى ليبانتو. تجسيدا للعدو النبيل. فقد كان هناك تراث مسيحى طويل يرجع إلى زمن الحروب الصليبية والقصص المتواترة عن خصم ريتشارد الأول ملك إنجلترا الفارس الشهم صلاح الدين الأيوبي. يدعو إلى احترام العدو القوى. وكان السلاطين العثمانيون من أمثال سليمان القانونى يحظون بالتكريم أيضا بسبب فضائلهم المادية والحضارية. حتى لو كانت تلك الفضائل تقف على قدم المساواة مع القسوة. ولكن بخلاف صلاح الدين والسلطان سليمان. لم يكلل على باشا بالنجاح. فقد أخفق وكان نبله فى السلوك مسألة شخصية ولم يكن نتيجة دوره أو وظيفته. فعندما نزل بين العبيد المجذفين على متن سفينته ونطق بالكلمات التى بعثت الراحة فى نفوسهم. كان يتصرف وفقا لما كان

ينبغي على المسيحي أن يفعله. ومن الواضح أن هذا الافتراض غير المعلن كان كامنا في الحكايات الغربية التي سجلت سلوك على باشا .

وقد عامله دون جون باحترام. فأخذ ولدي على باشا الصبيين اللذين أسرا على متن سفينة القيادة «سلطانة» تحت حمايته الشخصية. وأرسل مربيهما الذي نجا هو الآخر إلى إستنبول ومعه خطاب إلى أمهما قائلا إنهما سالمان ويحظيان برعاية جيدة. وأخيرا بعد أن مات أحد الصبيين من جراء مرض عارض. أعاد دون جون الصبي الآخر إلى عائلته دون دفع الفدية الكبيرة التي كان دفعها أمرا تقليديا. ولم تكن هذه مجرد لياقة منتظرة من قائد تجاه قائد آخر. وليس بوسعي التفكير في أية حالة أخرى في القرن نفسه يمكن أن تشبه هذه الحالة. لقد كان دون جون. مثل على باشا. يتحرك متخطيا حدوده الشخصية وحدود العلاقات الموضوعة لكل من المسلمين والمسيحيين على السواء .

كان الأكثر امتنانا لهذه الملابسات من «دون جون». «على باشا» هو ميجيل دي سرفانتس، الذي كان محاربا قديما في لانافال **La Naval** (وهو الاسم الذي أطلق على المعركة في إسبانيا فيما بعد. فقد كانت ليبانتو مجرد بداية مواجهة سرفانتس للعالم المسلم. وفي سنة١٥٧٥. وقع في أسر قرصان جزائري على مرأى من الساحل الفرنسي تقريبا. وصارت تجربته في سجن العبيد بالجزائر على مدى خمس سنوات لب روايته الطويلة دون كيشوته **Don Quixote**". حكاية أسير. ولكن الأهم من الأحداث التي وصفتها الرواية هي طريقة سرفانتس في القضاء على الإحساس بالعلاقة قتالية الطابع بين أرض الإسلام والعالم المسيحي. فهو يقدم نفسه في هذه الرواية على أنه فقط الكاتب الثاني لرواية دون كيشوته. والقارئ الأول لها أيضا. وكشف النقاب عن الكاتب الأول وعن عثوره بمحض الصدفة على نص المسودة. عندما التقى في طليطلة مصادفة بغلام يبيع حزمة من الأوراق القديمة :

« وقتها كان يحركني الميل القوى لقراءة هذه القصاصات التي كانت تتطاير أحيانا عبر الشوارع. قادني هذا. أي فضولي الطبيعي. إلى أن أنحني لأرى بعض

الأوراق. فوجدتها مكتوبة بالعربية. التي لم أكن قادرا على قراءتها على الرغم من أنني أعرف الحروف. وبحثت عن واحد من مسلمي البرتغال يمكنه فهمها. والواقع أنه على الرغم من أن اللغة كانت أكثر طلاوة وقديمة. فإنني ربما وجدت من يفسرها لي».

وقرأ له المفسر العنوان بصوت عال. « تاريخ دون كيشوته تأليف السيد حامد بن ننجلي. مؤلف عربي .**Don Quixote de la Moncha. by Cid Hamet Bennengli . An Arabic auther**

ودفع له سربانتس لكي يترجم له النص. وهو ما استغرق ستة أسابيع. ودفع مقابله ربعين من الزبيب ومكيالين من القمح. ولم يكن السيد حامد الغامض الخفي هذا مجرد شفرة يتم استخدامها في موضعها. مثل تلك الشخصيات الغريبة من الأتراك والفرس التي كان يتم استخدامها للتعليق على العالم المسيحي من منظور خارجي منفصل إلى حد ما[٦٥]. ويعاود المؤلف العربي التجوال في داخل النص بين الحين والحين. وهو الذي يكتب مرثية دون كيشوته :

« من أجلي فقط ولد دون كيشوته كما أنني ولدت من أجله وحده. ولد هو لكي يفعل وأنا ولدت لكي أسجل. وبعبارة أخرى كان كل منا قدر الآخر ... فلترقد عظام دون كيشوته المتعبة والمتآكلة في قبره. أي لا تكتبوا المزيد لتكملة قصة حياته. .... وبعملي هذا سوف تتسقون مع عقيدتكم المسيحية حين تسدون الخير لأولئك الذين يفعلون الشر ضدكم. وسوف أستريح راضيا هانئا مسرورا برؤية نفسي المؤلف الأول. الذي استمتع للغاية بثمرة كتاباته. وبنجاح ما هدفت إليه. لأن قصدي لم يكن أكثر من أن تلهم روايتي البشر حتى يمقتوا القصص الزائفة غير المحتملة التي ترويها كتب الفروسية. التي اهتزت بالفعل من جراء مغامرات صاحبي دون كيشوته الحقيقية والأصلية والتي سوف تغوص في طي النسيان. وداعا».

هل كان هذا أكثر من مجرد حيلة أدبية جسورة. إن سرفانتس لم يشارك في الصورة النمطية التي كانت شائعة عن المسلم. ولنأخذ. على سبيل المثال. تقديمه لميولي

مالك فى المسرحية التى تحمل عنوان The Dungeons of Algiers. والتى كتبها سنة ١٥٩٠م تقريبا.

« إنه مسلم مشهور

وفى طائفته وقانونه الشرير

كان ضليعا متمكنًا ومخلصا للغاية :

يعرف لغة الترك

كما يتحدث الإسبانية والألمانية

وكذلك يعرف الإيطالية والفرنسية. وينام

فى سريره. ويأكل على المائدة

جالسا على الطريقة المسيحية :

وهو فوق هذا وذاك جندى عظيم

كريم. حكيم ورابط الجأش

تزينه من الفضائل ألف فضيلة [٦٦]

وكذلك لم يفعل وليم شكسبير. المعاصر لسرفانتس والذى شاركه تاريخ وفاته. عندما رسم شخصية أوثيللو Othello. مسلم البندقية .وربما كان «ميولى» النموذج الذى نسجت على منواله شخصية أوثيللو [٦٧]. لكنه بينما كان ميولى مغربيا خالصا. كان أوثيللو رجلا مزدوج الهوية. فلا شك فى أنه كان مغربيا مسلما. ولكنه كان أيضا يعمل فى خدمة البندقية المسيحية. ولكن عندما يكتب سرفانتس عن السيد حامد بن ننجيلى. وينسب إليه تأليف روايته. فإن هذا الأمر يبدو معقولا فقط عندما نفهم السياق التاريخى المحدد. إذ كان الجزء الأول من دون كيشوته قد نشر سنة ١٦٠٦م. ونشر

الجزء الثانى سنة ١٦١٥م. وفيما بين هاتين النشرتين. كانت إسبانيا قد تخلصت نهائيا من أحفاد المسلمين. الموريسكيين. فبعد طرد الموريسكيين من مملكة غرناطة بعد أن سحق دون جون تمردهم. تم تشتيتهم فى جميع أنحاء إسبانيا. وتحملوا عبء اللوم على كل ما حاق بإسبانيا من المصائب والنكبات. وفى عمل نهائى من أعمال التطهير العرقي. أرغموا على التوجه سيرا إلى الموانئ البحرية سنة ١٦٠٩م حيث حملتهم السفن إلى المغرب الإسلامى .

كان سرفانتس عندما أقدم على جعل المسلم السيد حامد. « مؤلف روايته الأول». قد قام بحركة خارقة للعادة وغاية فى الجسارة فى نظر أهل ذلك الزمان. فقد أدرك سرفانتس من خلال الأحداث التى مرت بها حياته، الحرب، والعبودية. والعوز والإملاق، والسجن والنجاح. ثم الاستعداد أخيرا للموت فى مسوح الرهبان. إن تقسيم العالم إلى مسيحيين أخيار ومسلمين شيطانيين. إنما هو تقسيم زائف تماما. ولم يكن يساوره شك فى الفجوة التى تفصل بينهما. أو فى أن كلا منهما كان يعتبر الآخر. كافرا». بيد أنه لقى فى فترة عبوديته فى الجزائر معاملة أفضل من تلك المعاملة التى لقيها فى وطنه إسبانيا. كما عومل أحيانا معاملة أسوأ من المعاملة التى عومل بها فى بلاده. لقد ضربت روايته بجذورها فى تربة تجربته الخاصة حقا. ولكن حتى أولئك الذين لم تطأ أقدامهم أرضا إسلامية قط كان عليهم أن يناضلوا إزاء موضوع الكافر الذى يتحلى بالفضائل :

« أولئك العرب يميلون كثيرا للسارق الناهب

ذى الوحشية الطبيعية. وصاحب السلوك الدنىء

ولكن الملك هالىلا [ملك المغرب. كريم ومعتدل وحكيم

وينافس أفضل الأبطال قبولا واستحسانا

فهو مجامل. وإنسانى النزعة. يسهل التعامل معه

هذا الملك ينجد بالمروءة عند المصائب

مع أن هذا الأمير العظيم يرفض عقيدتنا المقدسة

فإن فضائله الأخلاقية تتلألأ واضحة جلية

فهو مثل بعض من حملوا صولجان روما

ويبز معظم الملوك الذين يزين المسيح عقولهم[٦٨] .

لم تكن ليبانتو فى قلب اللغة من المعانى المتشابكة. فقد كانت نصرا مذهلا. لكنها كانت حسبما تنبأ الوزير التركى سوقوللى. نصرا ذا قيمة عسكرية وسياسية عابرة. فبعد سبعة أعوام من المعركة. قتل جيش مسلم تعززه الإنكشارية ،عند القصر الكبير فى المغرب. ملك البرتغال دوم سباستيان Dom Sebastian ابن أخى دون جون ومعه معظم النبلاء البرتغاليين[٦٩]. بيد أن معركة القصر الكبير تلاشت من الذاكرة الجماعية. على حين تم تجميل معركة ليبانتو وتعزيزها على مر السنين. لقد كان لقاء دون جون وعلى باشا. بحضور الآلاف من الجانبين. هو الذى قدم أكثر من أية مواجهة أخرى فى القرن السادس عشر. بين عالم الإسلام المسيحية الغربية الجمع بين الضدين والالتباسات التى لا تنتهى عن العلاقة بين هذين العالمين .

هوامش الفصل الأول

١- أربعة وعشرون قدما طولاً فى ثلاثة عشر قدمًا عرضًا .

2. Cited in Rodgers, *Naval Warfare*, p. 179.

٣- على الرغم من أن الفرنسيين لم يكونوا حاضرين ، فإن العواطف الشعبية فى فرنسا كانت فيما يبدو مع قوات العصبة المقدسة. وفى الدول البروتستانتية ، يبدو أن التعاطف كان أيضا مع جيوش أوربا الكاثوليكية.

٤- كل من مصطلح **Chistendom** ومصطلح **Islam** مصطلحان مركبان ، وربما يصفهما كثير من المنظرين بأنهما «خطابان» . ومن المؤكد أننى استخدمت «مصطلح العالم المسيحى **Christendom**» بهذه الطريقة ، وليس باعتباره مصطلحًا يعنى مجتمعًا مسيحيًا خالصًا، وهو ما لم يوجد أبدًا منذ الأيام الأولى للمسيحية، وإنما لوصف الثقافات المأخوذة من التاريخ الطويل للدين المسيحى. والإسلام ليس ما يمكن مقارنته بالضبط فى بنيته بالعالم المسيحى ، ولكن ليست لدينا كلمة مفردة فى الإنجليزية تحتوى على هذا الخطاب أيضا. وعبارة «دار الإسلام» قد ترجمت بأشكال مختلفة إلى الإنجليزية . والنقطة الأساسية هى أنه بالنسبة للمسلم الورع يوجد كل ما هو خير وضرورى فى دار الإسلام ، على حين أن كل ما هو خارجها نظام أدنى قدرًا. ولكن كل ما هو بالخارج يمكن جلبه إلى الداخل ويصير خيرًا . عن هذه الموضوعات انظر **Hentsch, Imagining** .

5. They escaped, by this papal decree, 200 years of Purgatory.
6. The banner, which was long kept as a trophy in Spain, was destroyed by fire in the nineteenth century.
7. Ali had formerly been second in command to Piali Pasha.
8. Genesis 4:14. The traditional explanation, that the Arabs descended from Ishmael, the elder son of Abraham, and his concubine Hagar, elided with the legend of Cain, also the elder son, and also cast out. For the instability and mutability of these legends of origin, see Freedman, *Images*, pp. 89–96.
9. The leader of the poor warriors of the First Crusade, the King of the Tafurs, called Muslims 'sons of whores and of the race of Cain'; see Cohn, *Pursuit*, p. 67. The people of the West, it was believed, were descended from Adam's third son Seth, via Noah and his lineage.
10. See, for example, Christian Augustus Pfaltz von Osteritz, *Abominatio desolationis Turicae*, Prague: Carl-Ferdinand Druckerei, 1672, pp. 81–3.
11. France adopted the alternative approach of seeking alliance with the Ottomans, and Spain also sought an accommodation after 1580.
12. The paradox and ambiguity between Islam as part of God's intended plan – to bring his people to self-awareness – and Islam as pure evil was never properly resolved. Many writers embody both attitudes.
13. Some, like the Grand Vizier Sokullu, preferred to use diplomatic means.
14. So-called from the three banks of oars on each side.
15. Increasingly, also in the artillery carried aboard. This proved to be a decisive advantage for the Christian ships in battle. But the guns could only sink or disable an enemy ship. Like infantry ashore, a galley battle usually depended on hand-to-hand fighting.
16. This numbered about sixty-five soldiers in the Spanish galleys of the 1530s, but this had risen markedly by the 1570s. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 227.
17. Ibid., p. 221.
18. This practice was especially common among the Maltese captains.
19. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 63.
20. See I. A. A. Thompson, 'A Map of Crime in Sixteenth-century Spain', *EHR* Second Series, XXI, No. 2 (August 1968), pp. 244–67.
21. Often false 'debts' were created to allow them to be kept at the oar.
22. See Ruth Pike, *Penal Servitude in Early Modern Spain*, Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1983.
23. See Bracewell, *Uskoks*.
24. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 99.
25. This was the case with Ulch Ali, or Kulic ('the Sword') Ali; a Calabrian, kidnapped from his village, he became the Kapudan Pasha after Lepanto.
26. This was a form of flammable liquid (like napalm) devised by the Byzantines that would burn even under water. Its exact formula remains unknown to this day.
27. The first forms were Venetian merchant galleys adapted to carry cannon. Later forms evolved towards becoming longer and broader in beam.
28. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 234.
29. Strictly speaking, he lost the use of his arm.

30. For example, the sixteenth-century French jurist and philosopher, Jean Bodin (now best remembered for his writings on political sovereignty), denied that it was a sufficient cause for a just war.
31. Qur'an, Surah 61:4.
32. See Renard, *Islam*, pp. 43–65.
33. The Patent Number 418 of 15 May 1718 for Puckle's machine gun, however, shows that it was designed to fire round bullets at Christians and square bullets at Muslims. This was perhaps the last effort at this kind of control on sectarian grounds. See W. H. B. Smith, *Small Arms of the World*, Harrisburg, PA: Stacpole Publishing Company, 1957, p. 92.
34. Artillery *was* used in innovative fashions, as, for example, Mehmed the Conqueror employing siege artillery to destroy the walls of Constantinople, but it was manufactured by renegade Hungarian Christians.
35. As, notably, at the battle of Dettingen in 1743.
36. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, p. 385, citing Don John to Don Garcia de Toledo, 16 September 1571.
37. Ibid., pp. 384–5.
38. The 100,000 men included new contingents that arrived in early spring. See Beeching, *Galleys*, p. 175.
39. Ibid., p. 176.

٤٠- على أية حال سمح السلطان سليمان القانوني لفرسان القديس يوحنا بإخلاء رودس بعد حصار دام خمسة أشهر كلف الأتراك ما بين خمسين ألف ومائة ألف قتيل. ولكن فى تلك المناسبة تم تبادل الرهائن بين الجانبين الذين نفذا شروط المعاهدة حرفيًا .

(p.363)

٤١- انظر : **Bohnsetdt, "The Infidel Scourage" , p. 19**

وصف كاتب ألمانى هو **Veit Dietrich** الأتراك على هذا النحو : "ليست لديهم رحمة ، ولا يضاهيهم أحد فى الاغتيال الوحشى طوال التاريخ ، ولا حتى الوثنيين باستثناء أفعال الإسكيثيين وغيرهم من البرابرة حين يتملكهم الغضب . ولكن التركى يفعل مثل هذه الأشياء فى كل وقت ، لا لسبب سوى أن الشيطان يسوقه ضد المسيحيين" .

(p. 364)

42. Some sources suggest that he was whipped every day. My account is based on Stirling-Maxwell, who in turn bases his reconstruction on Paolo Paruta, *Storia della guerra di Cipro*, part of his contemporary *Historia Venetiana*, published in 1605, and on Nestor Martinengo, taken prisoner at Famagusta, and whose *Relazione di tutto il suceso di Famagusta*, was published in Venice in 1572. All these sources reflect viewpoints acceptable to Venice, but there is no reason to doubt their accuracy. I have not been able to find an Ottoman source that covered these events in any detail. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, p. 370.

43. C. D. Cobham (ed.), *The Sieges of Nicosia and Famagusta: With a Sketch of the Earlier History of Cyprus*, edited from Midgley's translation of Bishop Graziani's *History of the War of Cyprus* (1624), London: St. Vincent's Press, 1899, p. 17; and *The Sieges of Nicosia and Famagusta in Cyprus Related by Uberto Foglietta*, trans. Claude Delaval Cobham, London: Waterlow and Sons, 1903.

٤٤ – كان ينظر إلى سلخ الجلد باعتباره إهانة بالغة ، جزئيًا بسبب قسوته ولكن أيضا بسبب نزع الهوية البطىء . وكان سلخ الجلد نادرًا بين العثمانيين، على حين كانت هناك عقوبات قاسية أخرى أكثر شيوعًا. ولم يكن هناك شك أنه رغبة فى إحداث تأثير الصدمة أمر لالا مصطفى بهذا الشكل المخيف من الموت . وثمة نقطة المرجعية هنا هى قصة أوفيد Metamorphoses عن أبوللو الذى أمر بسلخ جلد منافسه مارسياس. وقد رسم المشهد على يد تيتان حوالى سنة ١٥٧٥م . وكان الرعب الذى بثته عملية سلخ الجلد واضحًا فى ترجمة آرثر جولدنج سنة ١٥٦٧م.

Jonathan Sawday , the Body Emblazoned : Dissection and the Human Body in Renaissance Culture, London: Routledge ١٩٩٥, pp. ٧-١٨١ .

وكان من الملاحظ أن براجادينو لم يصرخ ولكنه غمغم بالكلمات حتى سقط صامتًا.

45. See the dispatch from Don John to Philip II, describing the taking of Galera, reprinted as Appendix I in Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. 2, pp. 364–71: 'In the place itself the defence was so obstinate that it was necessary to take it house by house and the taking of it lasted from nine in the morning, fighting going on the whole while in the houses, in the streets and on the roofs, the women fighting as well and bravely as their husbands.'

46. This was Stirling-Maxwell's conclusion about the battle: 'Although in numbers, both of men and vessels, the Sultan's fleet was superior to the fleet of the league, this superiority was more than counterbalanced by other important advantages possessed by the Christians. The artillery of the West was of greater power and far better served than the ordnance of the East.' See ibid., vol. I, p. 423.
47. My translation from M. Antonio Arroyo, *Relación del progresso della Armada de la Santa Liga* (Milan, 1576), cited in ibid., vol. I, p. 410. Maxwell translates *Hermanos* as 'Friends', but 'Brothers' makes better sense.
48. Putti blowing on to the Christian ships to fill the sails were shown in paintings of Lepanto.
49. Some of the commanders on the wings had already made the decision for themselves and gave the galleasses a wide berth.
50. Of the 170 Ottoman galleys captured most of them were so badly damaged as to be useless. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, pp. 430–31.
51. Ibid., p. 407, citing Girolomo Diedo, *Lettere di Principe*, vol. III, p. 266.
52. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, p. 427.
53. Ibid., pp. 445–6.
54. Fray Josef de Sigüenza, *Historia Del Orden de San Geronimo* (1605), cited in ibid., p. 448.

٥٥– حسبما كتب إلى دون چون بعد ستة أيام «فكرت فى أننى لا يجب أن أصل قط ولكن كنت قد دخلت إلى مكان الذخائر المقدسة فى إيطاليا وفرنسا بوصفى رجلا أرسله سموك» . وبرباطة جأش مدروسة لم يسأل الملك عن المعركة في البداية. «وعلى مدى نصف الساعة الأولى لم يفعل شيئا غير الأسئلة : «هل أخى بخير حقًا؟ » وكافة أنواع الأسئلة المخاتلة التى تطلبتها الحال. ثم أمرنى أن أحكى كل شىء حدث منذ البداية، دون حذف أية تفاصيل ، وبينما كنت أتحدث، أوقفنى ثلاث مرات ليسألنى عن المزيد من التفسيرات؛ وعندما انتهيت ، نادانى مرة أخرى كما يحدث غالبًا لكى يسأل عن تفسيرات أخرى؛ عن رعاية سموك للجرحى وكيف تخليت عن نصيبك من أموال الغنائم للجنود، وهو ما أثر فيه كثيرًا" انظر :

.Rosell, Historia , Appendix xiv, p. 208.

56. See Christopher Tyerman, *The Invention of the Crusades*, Basingstoke: Macmillan, 1998, pp. 101–6.
57. See Rosell, *Historia*, p. 208, for the report of Don Lope de Figueroa.
58. I owe this observation to John Brewer.
59. Reproduced in Göllner, *Turcica*, vol. 1, p. 234.
60. This was recalled in an etching of the Triumphal Entry made in the mid nineteenth century. Now in the Museo de Roma, Gabinetto Comunale delle Stampe.
61. It had been also, of course, the site of the inconclusive battle of Prevesa in 1538.
62. The traditional puppet theatre of Sicily also enacts these stories.
63. See Musée de la Corse, *Moresca*.
64. Cited in Lewis, *Discovery*, p. 43.
65. See Joseph von Hammer-Purgstall, *Histoire de l'Empire ottoman: depuis son origine jusqu'à nos jours*, trans. J.-J. Hellert, 18 vols, Paris: Bellizard, Barthès, Dufour, 1835–43, vol. 6, p. 434.
66. As in Montesquieu's *Lettres Persanes* (1721).
67. *The Dungeons of Algiers*, act 3.
68. Muley Malek was modelled on reality, from a Moroccan prince, Muley Maluco, living in Spain.
69. *Alfred, An Epick Poem*, 'In Twelve Books' by Sir Richard Blackmore, London, 1723, bk I, p. 24.
70. The last early modern Mediterranean 'crusade' was not Lepanto, but this Portuguese expedition that ended in disaster on 4 August 1578 not far from Tangier. See Braudel, *Mediterranean*, pp. 1178–9, and Hess, *Forgotten Frontier*, pp. 96–8.

(٢)

الاتصال الأول

هذا الكتاب يدور حول العداوة. كيف خلقت. وكيف بقيت. ومع أن المسلمين لم يكونوا أول أعداء العالم المسيحي الغربي ولا أعداءه الوحيدين. فإنهم سرعان ما صاروا بؤرة الخوف والكراهية الأولى بالنسبة للغرب. وفي النهاية صارت الكلمات المستخدمة لوصفهم نفسها هي رموز الإساءة الشائعة[١]. ففي زمن معركة ليبانتو كان المسيحيون يسيئون لبعضهم البعض باستخدام مصطلحات مهينة تنطبق على المسلمين. وفي بافاريا القرن السادس عشر كان البروتستانت يصفون أعداءهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية بأنهم. الجزويت والمماليك». وفي إنجلترا أبدى وليم تايندال William Tyndale أسفه لأن كثيرا من مواطنيه الكاثوليك قد صاروا هم. المسيح الدجال من مماليك روما». ومن الصفات التي كانت شائعة في أوربا القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين عبارات مثل. «التركي الفاجر». «عرب الشوارع». «الملا المجنون». ولكنها مصطلحات تعود بأصلها إلى الأفكار التي كانت منتشرة عن الشرق والتي تطورت بصورة ثابتة منذ القرن السابع عشر فصاعدا[٢] .

يفوق اهتمام المسيحيين بالإسلام وانشغالهم به. إذا ما حكمنا من خلال حجم النصوص المكتوبة والكتب وتفاسير الكتاب المقدس والأوصاف. والمجادلات. والقصائد والملاحم –اهتمام المسلمين بعالم المسيحية الغربية بدرجة كبيرة [٣]. ويجب أن نميز هنا بين الإسلام والمسيحية. الديانتين اللتين يؤمن بهما أتباعهما من المسلمين والمسيحيين. و «الإسلام» و«المسيحية» اللتين في تصور كل من الفريقين

لديانة عدوه. فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى، كان ينظر إلى «الإسلام» على أنه العدو الخارجي للعقيدة المسيحية الحقة. ولم يدانه في خطورته المميتة سوى العدو الداخلي، أى الهرطقة. وعلى مر الزمان صارت صورة الإسلام بوصفه عدوا، ومنافسا، وخصما رئيسيا، صورة أكثر تعقيدا وقوة. وتم تعديل الفجاجة الأولية التي اتسمت بها الصورة لتصير أكثر حذقا من خلال إضافة أبعاد جديدة حسب تغير الظروف، والتخلص من تلك الأبعاد التي لم تعد مناسبة في الصورة. وهكذا بدأت السخرية الفجة من النبي محمد تتلاشى على حين بدأت تتكاثر أوصاف أكثر تنميقا لخطورة الإسلام .

هذه القدرة على «بناء» الأعداء، وجعلهم شيطانيين فى قوتهم، شاملين فى خصومتهم، لا يبارون فى حقدهم، هى التى تغلغلت فى مجتمع أوربا الغربية، وقد امتدت هذه القدرة في الكثير من المناسبات، وبرهنت على فعاليتها ضد جميع أنماط الأجانب الغرباء عن المجتمع، وكافة أصناف الأعداء السياسيين والعرقيين والاجتماعيين[٤]. ومن ثم، فإنه ينبغى علينا ألا نأخذ ما قيل عن «الإسلام»، أو «الهرطقة»، أو «اليهودية»، كما هو أو بقيمته الظاهرية، وإنما علينا أن نحاول أن نرى، أولا وقبل كل شيء، كيف كانت المعانى تنمو وتتكاثر. فمنذ البداية فوجئ الغرب بسرعة تقدم الإسلام، فقد ولد النبى محمد سنة ٥٧٠م تقريبا، أى بعد خمس سنوات من موت الإمبراطور جستنيان الذى كان قد أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) وعاد بها إلى أقصى اتساع بلغته منذ القرن الثانى بعد الميلاد. بيد أنه فى غضون جيل واحد بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢م، كان محاربو الصحراء من جنود الإسلام يفرضون الحصار على القسطنطينية، عاصمة جستنيان. وحسبما لاحظ إدوارد جيبون، «لابد أن العرب الأوائل اندهشوا من سهولة انتصاراتهم وسرعتها عندما خرجوا من الصحراء» .

قبل ظهور الإسلام كان العرب يتفاخرون بحروبهم القبلية، وبطولاتهم البدوية، وكان الوصف اللاتينى الذى استخدم لوصفهم فيما بعد ferox يوحى بالاندفاع الوحشى العنيد. لقد كان اللاتين يعنون ضمنا القوة الحيوانية، ولكن العرب كانت لديهم

صورة إيجابية عن الذات إلى حد كبير، على حين كانت صورتهم بالنسبة للمسيحيين مرادفا للبربرية[٦]، ولم تكن جيوش الإسلام التى خرجت من المنطقة الخالية الواقعة وراء فيلادلفيا الرومانية (عمان الحديثة فى الأردن) والمدن الرومانية الأخرى الواقعة على حافة الصحراء، والمعروفة إجمالا باسم المدن العشرة **Decapolis**، تبدو جيوشا مختلفة عن أية جيوش قبلية أخرى، فلم تكن لديهم أية مهارات مكتسبة بالتدريب أو الأسلحة جيدة الصنع التى كانت بحوزة أفضل الجيوش البيزنطية أو الفرسان الفرس ثقيلى التسليح، ففى أفضل الأحوال كانوا محاربين قبليين اعتادوا الحياة الشاقة، ويمكنهم الازدهار فى البيئة الصحراوية حيث لا يمكن للفرسان ذوى التسليح الثقيل أو المشاة المتثاقلين أن يبقوا أكثر من أيام قليلة، ولم تهتم أى من الإمبراطوريتين، روما وفارس، كثيرا بالهامش الصحراوي، وكانتا تستأجران عربا آخرين لحماية مدنهما من المغيرين الصحراويين، وكانت تلك هى الوسيلة التي تبنتها الإمبراطورية الرومانية الغربية على مدى قرون عديدة قبل ذلك إزاء «البرابرة» عندها .

كانت هذه مشكلة عسكرية مختلفة بالنسبة لروما فى أوربا حيث كانت الحدود أو **limines** تجرى على امتداد الحدود الطبيعية، مثل الأنهار أو الجبال، ولكن على امتداد هامش الصحراء الشرقية كان التناقض بين الحضارة والبداوة أكثر حدة وتطرفا، فقد كانت الحضارة تعنى الزراعة المنظمة، والاستقرار في القرى والمدن، وكانت البرية تبدو خالية من الحياة، وكان بوسع عرب الصحراء أن يشنوا الحرب فى الأراضى الأكثر تحضرا، ولكن كان من الصعب منطقيا أن تقوم القوات النظامية للإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية بشن حملة بعيدا عن قواعدها، ونادرا ما شن عرب الصحراء أكثر من غارة واحدة عبر الحدود غير الثابتة، كانت القبائل قليلة العدد ولم يكن هناك من الأسباب ما يدعوها لمهاجمة عدو قوى، وحشدت العقيدة البازغة جيشا جديدا قويا كما وفرت له هدفا وقصدا للحرب، وفى خلال سنة بعد وفاة النبى محمد كانت جميع القبائل الكبرى قد توحدت تحت راية الإسلام، وتمت مطاردة المرتدين وقتالهم، وخضع أولئك الذين التزموا الحياد، وقد حرم الدين الجديد الحرب بين المسلمين الإخوة، وهكذا تحول اتجاه ثقافة الغزو نحو الخارج، فيما وراء شبه الجزيرة العربية .

وغالبا ما حققت المجتمعات القبلية، ولا سيما تلك التى ظهرت فى آسيا، مثل الهون والمغول، توازنا مثاليا وفر ما يكفي من التماسك الاجتماعي والسياسى دون أن يحد من طاقاتهم الحربية وقوتهم. ويبدو أن التحول والانتقال نفسه قد حدث في قلب جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادي، إذ وفر الإسلام من خلال تعاليمه التماسك والاتجاه على السواء، كما وفر القدرة على تعبئة المجموعات القبلية التى كانت محصورة قبل سنوات قليلة في الحروب التى كانت تنشب فيما بينها. ومن بعدها أظهروا كل القوة وسرعة الحركة والطاقة البدائية التى لاحظها المؤرخون والباحثون بعد ذلك فى جيوش الشرق الأقصى، وعلى أية حال، كان هناك اختلاف واحد، فقد كانت الجيوش الآسيوية تتمركز حول الحصان، على حين كان العرب ما يزالون فى الغالب جنودا مشاة، وكان لديهم، بطبيعة الحال بعض الخيالة، وكانوا يستخدمون الإبل فى تحركاتهم .ولكن، على خلاف التصورات اللاحقة، لم يكن هذا جيشا يمتطى الخيول العربية الفاخرة، أو جيشا من الفرسان الذين يقاتلون فوق ظهور الخيل، فقد كان العرب قوما فقراء وكانوا مسلحين بالحراب، وكانوا يسيرون بلا تعب ويستخدمون من المياه ويستهلكون من الطعام قدرا أقل مما يستهلكه أى حيوان، وكانوا يحاربون قبل ذلك الحين فى مجموعات صغيرة وحيدة، ولكنهم كانوا آنذاك يسيرون تحت قيادة القادة المسلمين بأعداد تعد بالآلاف(*).

(*) هذه الصورة التى يرسمها قلم المؤلف للجيوش الإسلامية تتناقض بشكل واضح مع الصورة التى ترسمها المصادر التاريخية والدراسات الحديثة عن الفتوح الإسلامية، فلم يكن العرب كلهم من بدو الصحراء، فقد كان القادة كلهم تقريبا من أبناء قريش ومكة التي كانت مدينة، دولة لها مؤسساتها وتقوم بدور مهم فى التجارة العالمية بين عالم المحيط الهندى وآسيا من ناحية، والمنطقة العربية وأوربا من ناحية أخرى، كما أن معظم جيوش الفتح كانوا من أبناء اليمن صاحب الحضارة العريقة، فضلا عن أن العرب يعتزون كثيرا بالحصان فى تراثهم، كما أن مؤرخا مثل هيو كينيدى الذى كتب الدراسات العديدة عن الفتوح العربية لا يذهب إلى ما ذهب إليه مؤلفنا الذى يبدو أن معلوماته التاريخية فى هذا الموضوع بحاجة إلى مراجعة. (المترجم)

وقد تجاهل البيزنطيون، وأعداؤهم الفرس، أو لم تكن لديهم معلومات كافية، عن الهبّات التي شهدتها الصحراء، وعن سنوات المعارك والمناوشات التي جرت بين المسلمين والقبائل القوية التي كانت تحيط بهم، ولكن في منتصف صيف سنة ٦٣٣، ظهر جيش صحراوى كبير فجأة أمام مدينة الحيرة الفارسية المسورة على الحدود الصحراوية جنوب نهر الفرات، وفي الوقت نفسه الذي شهد التقدم الإسلامي، كانت فارس تعانى الضعف، أولا بسبب سنوات الصراع ضد البيزنطيين، وثانيا بسبب الحرب الأهلية التى نشبت فيما بين أفراد الأسرة الحاكمة، وفي غضون عدة أشهر كانت الطوابير العسكرية الإسلامية سريعة الحركة قد تقدمت صوب الشمال لتدمر الحاميات الفارسية المنعزلة، وتقتل أولئك الذين قاوموها، إما بالصلب أو بالسيف[٦]، وقضوا على أعدائهم كما جندوا الذين اعتنقوا الإسلام من بين المزارعين وواصلوا تقدمهم، كانوا يأخذون الضرائب ولا يستقرون في البلاد التي فتحوها[٧](*).

وهكذا بسط العرب سيادتهم على المناطق الحدودية، شأنهم شأن رجال حرب العصابات الريفية على مر التاريخ، فقد كانت الصحراء التي تدين لهم بالخضوع مثل البحر الذى تضرب مياهه شواطئ مناطق الاستقرار في بلاد الشام وفلسطين وعلى امتداد السهل الخصيب الواقع فيما بين نهرى دجلة والفرات، وكانوا يتحركون بالسرعة التي تربك أعداءهم من الفرس والبيزنطيين، إذ كان الجيش الإسلامي الذى يحارب شرق نهرى العراق الكبيرين يغير وجهته فجأة ليزحف إلى الجنوب الغربى

(*) يبدو أن المؤلف في حاجة لمراجعة معلوماته التاريخية عن حركة الفتوح الإسلامية، فالمصادر التاريخية لا يمكن أن تسانده فيما ذهب إليه، ومن يتأمل كتب الفتوح، مثل البلاذرى والطبرى وابن عبد الحكم وغيرهم، سوف يجد تناقضا صارخا بين ما ذهب إليه وما ورد فى هذه المصادر التاريخية، بل إن المصادر التاريخية البيزنطية المعاصرة، وهى معادية للإسلام والمسلمين بطبيعتها، لم تخترع مثل هذه الأحداث، وما ذكره يوحنا النقيوسي، مثلا، وهو أسقف قبطي معاصر لفتح مصر ومعاد تماما للمسلمين، يكشف عن تهافت كلام المؤلف، فقد كان العرب المسلمون فى كثير من الأحيان يأخذون المدن المفتوحة صلحا، مثلما حدث فى فتح بيت المقدس وفتح مصر، ولم تكن جيوشهم فى غالب الأحوال تزيد أعدادها عن عشرين ألف مقاتل. (المترجم)

حول بادية الشام، ثم يتجه شمالا نحو بالميرا. وفى إحدى المراحل، كان على جيش المسلمين أن يعبر خلال منطقة قاحلة تماما تخلو من الواحات أو منابع المياه. وهنا لعب تراث الصحراء عند رجال القبائل دوره عندما بحثوا عن النباتات الصحراوية التى تشير إلى وجود المياه تحت السطح مباشرة. وكانوا أيضا قد جعلوا الإبل تشرب حتى امتلأ جوفها بالماء فى آخر واحة مروا بها، ثم كانوا يذبحون فى كل يوم أربعا من الإبل، ويشقون جوفها المليء بالمياه لتشرب خيولهم القليلة الثمينة[٨] .

وفى الوقت نفسه، كانت هناك قوة عربية أخرى، قوامها ثلاثة آلاف فرد على الأقل، وربما كانوا تسعة آلاف، وهو رقم ضخم بمقاييس حملات الصحراء، تشق طريقها صوب شمال غرب شبه الجزيرة العربية باتجاه ساحل البحر المتوسط، وكان الإمبراطور البيزنطى هرقل، وهو محارب قديم محنك عركته المعارك ضد الفرس على مدى عشرات السنين، مدركا للخطر الذى يشكله عرب الصحراء فى ذلك الحين، وجرد جيشا ميدانيا من حمص فى بلاد الشام لكى يحول دون تقدم المسلمين المتجهين شمالا من بئر سبع، وكان جيش المسلمين قد ذاق حلاوة النصر بالفعل، وأخذ يزيح جانبا القوات المحلية التى كان يقودها حاكم غزة، وثمة حولية سورية كتبت بعد الأحداث بفترة من الزمان وصفت حصاد المواجهة كما يلى، « هرب البيزنطيون وتخلوا عن القائد... وذبحه العرب، وقتل حوالى أربعة آلاف من القرويين المساكين من المسيحيين واليهود والسامرة، ودمر العرب القصر تماما»[٩]، وكان هرقل قد أرسل جمهرة جيشه جنوبا على امتداد الشريط الساحلى المنبسط، ومرَّ الطابور الرومانى ببلدة الرملة، متجها صوب الجيش العربى، وجاءته الأخبار بأنهم ما زالوا قرب غزة، وقد تحركت قوة بهذا الحجم ببطء، وحافظت على قربها من البحر لضمان وصول الإمدادات إليها من الأسطول البيزنطى قبالة الساحل، ولم يكن هؤلاء مجرد جنود محليين ذوى تدريب متواضع، وإنما ضموا نواة من المشاة المدرعة الثقيلة، والخيالة رماة السهام، والفرسان المدرعة الثقيلة .

وعند نقطة ما جنوب الرملة وقع البيزنطيون فى كمين أعده العرب، فقد كان جيش المسلمين قد تقدم مسافة شمالا أبعد مما كان هرقل أو قادة جيشه قد توقعوه،

ومن غير المعروف على وجه الدقة الموقع الذى جرت فيه هذه المعركة التى عرفت باسم معركة أجنادين. بيد أن نتيجة هذه المعركة التى نشبت يوم ٣١ يوليو سنة ٦٣٤، كانت نصرا حاسما للمسلمين. كانت القوات البيزنطية تسير جنوبا بحيث تتحاشى جبل نابلس. وكانت الأرض مسطحة منبسطة. ولم تكن هى الأرض الوعرة أو الوهاد أو الوديان العميقة التى يفضلها المحاربون غير النظاميين. وكانت الميزة الوحيدة لدى المسلمين تتمثل فى سرعتهم فى المناورة وحماستهم المندفعة. وطوال اليوم كان الفرسان العرب القلائل يهاجمون العدو. ويحاولون إغراءه بمهاجمتهم. ويستنفدون رخات السهام من رماتهم. وكان على قائدهم خالد بن الوليد أن يذكِّر رجاله بأن يدخروا جهدهم حتى المساء[١٠]. ولكنهم ما إن كسروا صفوف العدو فى وقت متأخر بعد الظهر. حتى فقد الجيش البيزنطى ميزته المتمثلة فى العدد الكبير والتسليح الأفضل . فقد تمكن المسلمون من طعن خيول أعدائهم بسكاكينهم ورماحهم. وتمكنوا من مداهمة المشاة الثقيلة المدرعة. وفى الوقت نفسه تلاشى ضوء النهار ليجعل الأهداف غير واضحة أمام رماة السهام البيزنطيين .

وبينما كان العرب يهاجمون ويطعنون. ويقطعون رءوس أعدائهم وأطرافهم بسيوفهم. وحناجرهم تدوى بصيحات الحرب. تمزق تماسك أعدائهم وتبعثروا. وتوقفت القوات البيزنطية عن إطاعة الأوامر. وأخذوا يطحنون بعضهم بعضا وهم يحاولون صد هجوم أعدائهم الذين ركبوا أقفيتهم. وما إن انكسرت القوة الدافعة للبيزنطيين حتى حول العرب هذه المحاولة إلى هزيمة نكراء بمناورة قاموا بها. وهربت القوات البيزنطية باتجاه الشمال وطاردهم العرب فترة من الوقت. ثم عادوا لكى يجردوا جثث الجنود القتلى من أسلحتهم ومعداتهم. وفى ذلك الحين تسلح رجال القبائل الذين لم يكونوا يحملون سوى الحربة والسيف ومعهم خيولهم. وأدى النصر إلى ارتفاع معنويات العرب المسلمين فزحفوا ضد المدن والبلدات. وأغلقت القدس أبوابها. ولكن خارج البوابات. حسب رواية صفرونيوس بطريرك بيت المقدس.

كان رجال القبائل «... ينهبون المدن. ويتلفون الحقول. ويحرقون القرى. ويخربون الأديرة المقدسة ...»(*). والحقيقة أن المسلمين كانوا أكثر اهتماما بتوطيد سلطانهم. ولأنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تخريب الأرض بشكل همجي. فقد أصدروا الأوامر بأن يدفع السكان جزية سنوية قدرها دينار واحد سنويا ويسلمون نسبة مئوية من محاصيلهم [11]

كانت كارثة أجنادين غير متوقعة بالمرة وأطاحت بكافة خطط الإمبراطور وألقت بها في خضم فوضى عارمة. لقد كان قد هزم كثيرين من الأعداء الأقوياء بحيث كان من غير المصدق أن يحط حفنة من رجال القبائل العربية من قدره على هذا النحو في ذلك الحين. وعلى أية حال. فقد أظهرت التقارير التى تلقاها أن هؤلاء الغزاة الصحراويين. بملابسهم الخشنة. أشباه العراة أحيانا، والمسلحين بسكين طويل ورمح. كانوا في خطورة الجنود الفرس المهرة الذين كان قد حاربهم طوال نصف عمره. وانسحب من حمص بسرعة. لأن الغزاة العرب كانوا مصدر تهديد محتمل لها، وسار باتجاه الشمال نحو أنطاكية الآمنة. لكى يعاود بناء جيشه. وقد دفع للقبائل العربية المسيحية التى كانت تتولى من قبل حماية الحدود الأموال لكى يحاربوا معه مرة أخرى. واستدعى الأرمن الأشداء من جبال الأناضول. وفى الوقت نفسه. ركز المسلمون قواتهم في موقع جديد بالقرب من مدينة درعا السورية على نهر اليرموك.

(*) كان صفرونيوس من أكثر الكتاب المسيحيين إساءة للمسلمين وللإسلام. ولا غرابة فى ذلك فهو من رجال الدين المسيحى الذين كانوا وما يزالون من أشد الفئات تعصبا ضد الإسلام الذى أفقدهم مكانتهم فى البلاد التي خضعت للحكم الإسلامي. ومن ناحية أخرى. فإننا لا نملك مصادر محايدة تؤكد مزاعم هذا الأسقف المتعصب الذى يكذب نفسه بنفسه عندما يمتدح الخليفة عمر بن الخطاب الذى جاء من المدينة المنورة على راحلته. فى رحلة شاقة لكي يتسلم المدينة المقدسة من صفرونيوس الذى حصل هو وأهل المدينة على عهد الأمان من الخليفة العظيم الذى رفض أن يصلى فى كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مسجداً من بعده. والحقيقة أنه ليس مطلوبا من المؤلف أن يتبنى وجهة النظر الإسلامية فى هذا الشأن على الرغم من أنه كثيرا ما يحاول رصد الحقيقة التاريخية. (المترجم).

واستطاعت الجيوش البيزنطية القادمة من الشمال أن تقترب منهم من الجهة الأمامية فقط. فقد كانت الأرض على يسارهم مليئة بالوهاد والوديان العميقة الضيقة. على حين كانت هناك على اليمين مساحة من اللافا البركانية التى تخلفت عن بركان قديم.

وكانت المجموعات الصغيرة فقط من المحاربين هى التى تستطيع أن تشق طريقها عبر هذه الأراضى الوعرة. ولكن لا يوجد جيش نظامى يمكن أن يختار القتال فى مثل هذه الظروف. وأقام البيزنطيون معسكرا جيد التحصين إلى الشمال مباشرة من الموقع العربى. وقد حال هذا بين العرب وبين التقدم داخل بلاد الشام . وكان القادة البيزنطيون على ثقة من أن أعداءهم المتوحشين سوف يموتون بالآلاف أمام التحصينات جيدة البناء إذا اختاروا الهجوم .

وعلى أية حال، لجأ المسلمون إلى المناورة التقليدية فى حرب الصحراء، هجوم بالحشود من جميع الجوانب. وقامت مجموعات صغيرة بالزحف عبر الوديان الضيقة فى اليرموك. واختبأوا خلف الموقع البيزنطى. وعبرت مجموعات أخرى على ظهور الخيل والجمال منطقة صخور اللافا الرمادية. وأخذوا يشنون هجماتهم على خطوط المواصلات البيزنطية تجاه بلاد الشام. ووقف الجيشان فى مواجهة أحدهما الآخر على مدى أربعة أشهر ونفدت المؤن والأقوات من البيزنطيين. كان خط الحياة بالنسبة لهم هو الطريق الذى يؤدى إلى مينائى صور وصيدا. بيد أنه كان لابد من عبور جميع الإمدادات فوق جسر قائم على نهر اليرموك الذى لم يكن يبعد سوى أميال قليلة عن المعسكر الكبير. وفى منتصف شهر أغسطس ظهر المسلمون المختبئون فى الوديان العميقة واستولوا على الجسر الذى كانت عليه حراسة خفيفة. وقد أدى هذا إلى عزل البيزنطيين عن الساحل. ولم يبق لهم سوى التقهقر عن طريق الصحراء صوب دمشق. وفى الصباح الباكر يوم ٢٠ أغسطس بدأت الريح تهب من الصحراء. محملة بالرمال والأتربة بحيث تحولت السماء إلى اللون البرونزى الكئيب. ومع مرور النهار ازداد الظلام. وثقل الهواء المحمل بالأتربة للدرجة التى جعلت التنفس صعبا. واستحالت الرؤية على بعد ياردات قليلة. وبينما كان البيزنطيون يكافحون ضد

هذه العوامل. إذا بهم يفاجأون بهجوم عربى شامل. كان الوقت متأخرا بعد الظهر، ولم يلبث الليل أن أرخى سدوله قرب الساعة السادسة. وكان المسلمون قد اخترقوا الصفوف فى عدة نقاط. وفشلت كافة محاولات تنسيق الدفاع. وفى أثناء الليل ذبحت القوات البيزنطية فى أماكنها. ومع انبلاج نور الفجر. كان قتلاهم مكدسين فى أكوام ضخمة على الأرض. والعرب يجردونهم من كل ما يمكن استخدامه. ثم هجروا أرض المعركة وتركوها للغربان وغيرها من آكلات الجيف .

ولم ينجح فى الهروب سوى آلاف قليلة من القوات البيزنطية فى مجموعات صغيرة حملت معها الأخبار بالهزيمة المروعة إلى الإمبراطور فى أنطاكية. وبعد أن كانت مدن الإقليم قد سقطت الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المسلمين استنتج الإمبراطور فى النهاية أنه لا يمكن الاحتفاظ بشرق المتوسط كله. من مصر حتى جبال طوروس عند حافة الأناضول. وانسحبت قواته الباقية عبر الممر الضيق الذى يسمى «بوابات قليقية». بعد تدمير جميع المدن والقرى فى دائرة قطرها عدة أميال[١٢]. ومنذ ذلك الحين فصاعدا. كانت حدود الإمبراطورية البيزنطية تقع فوق هضبة الأناضول المرتفعة وليس فى الأراضى الخصيبة فى شرق المتوسط .وتخلى الإمبراطور البيزنطى عن القدس مثلما فعل النصارى العرب الذين كانوا من مصادر دعمه فى المنطقة. وعلى أية حال. فإن صورة الهزيمة مثقلة بالمبالغة. فقد كانت الحروب من أجل شرق المتوسط قد نشبت بين البيزنطيين والفرس منذ أيام الإمبراطور جستنيان. وكان الإمبراطور هرقل والبيزنطيون قد استعادوا السيطرة الكاملة على الأرض المقدسة من الفرس قبل عشر سنوات فقط من قدوم المسلمين. وفضلا عن ذلك. كان كثير من المسيحيين يعتبرون من المنشقين والهراطقة فى نظر السلطات الأرثوذكسية فى القسطنطينية التى كانت تضطهدهم بلا هوادة ولا رحمة. وهذا أحد أسباب تضارب الروايات المسيحية حول الفتح الإسلامى. فقد كان الأرثوذكس البيزنطيون هم الذين لعنوا المسلمين وسبوهم بوحشية أكثر من غيرهم. إذ لم تكن كافة الجماعات المسيحية الأخرى ترى فى المسلمين أعداء ألداء .

فى السنة التالية لمعركة أجنادين. اندفع المحاربون العرب إلى مسافة أبعد شمالا حتى وصلوا قبالة أسوار دمشق، وأطاحوا بالجيوش البيزنطية التى أرسلت ضدهم. وعلى مسافة أميال قليلة من المدينة هزموا القائد البيزنطى بانيس Baanes. وكان هذا القائد قد جرد المدينة من حاميتها. واثقا من أن جيشا صحراويا هزيلا فى إمكانياته لا أمل له فى الاستيلاء على مدينة كبيرة مثل دمشق. بيد أن أحد الأساقفة المونوفيزيتيين. أتباع مذهب الطبيعة الواحدة. من السوريان. كان البيزنطيون قد عاملوه باعتباره مهرطقا. أخبر القائد المسلم خالد بن الوليد أن البوابة الشرقية ضعيفة التحصين ودفاعاتها واهنة. بل إنه أمد المسلمين بالسلالم اللازمة لتسلق الأسوار. وما إن علم البيزنطيون بالاختراق حتى سارعوا بالاتفاق مع القائد المسلم أبى عبيدة بن الجراح الذى كان يعسكر على الجانب الآخر من المدينة. وتقابلت القوتان المسلمتان فى وسط المدينة. وأصر أبو عبيدة على أنه يجب احترام المدينة وعدم وضع السيف فى أهلها. فقد كان جزء من المدينة قد فتح صلحًا واستسلم وتم فتح الجزء الآخر عنوة. ولبعض الوقت. كان نصف كاتدرائية يوحنا فى دمشق قد صار مسجدا والجزء الآخر يستخدم للعبادة المسيحية. وفصل بين الديانتين حائط رقيق أقيم على وجه السرعة .

وقد نسب ابن خلدون. الذى كتب فى القرن الرابع عشر. نجاح قبائل الصحراء إلى روحهم الوحشية. بيد أنهم أثبتوا قدرتهم المدهشة على التوافق والمواءمة. فقد امتلك المشاة الفقراء الخيول وتقلدوا السيوف ولبسوا الدروع البيزنطية. وفى سنة ٦٣٦. أنشأ المسلمون المدن العسكرية التى باتت العنصر الرئيسى فى تقدمهم بعد ذلك. وكانت القبائل تعسكر فى هذه المدن ويجتمعون لصلاة الجمعة .وكان ممكنا تثبيت النظام والضبط الاجتماعى عند المسلمين. بيد أنهم كانوا بحاجة أيضا إلى الإشباع. على أسس منظمة. من خلال المزيد من الفتوحات. فقد كانت حروب الجهاد واجبا دينيا ولكنها كانت أيضا وسيلة من وسائل الحراك الاجتماعى. الذى يأخذ أبناء القبائل من فقر الصحراء إلى الحياة المستقرة. ويبدو من المتناقضات أن الجنود العرب. الذين قامت أخلاقياتهم على أساس القوة والبسالة الفردية، قد استطاعوا أن يتصرفوا بمثل هذا التماسك والتلاحم. وعلى أية حال. فقد برزت أخلاقيات الإسلام

على حساب قيم المجتمع القبلي. وهنا بقى توتر عميق بين الولاءات القبلية والعمل فى سبيل الله. ولكن على الرغم من هذا التناقض الظاهرى، كان النظام الإسلامى ناجحا .

وفى شرق المتوسط اعتنق الكثير من السكان العرب المسيحيين الإسلام [١٣]. فقد كانت لهذا الدين الجديد جاذبيته :

«كان عنصر الجذب الرئيسى فى الإسلام أنه دين عملى. لم يطلب جهودا تفوق قدرة البشر ... كان الشرق العربى عشية الفتح الإسلامى قد نسى أو تناسى قصورُ الطبيعة البشرية وحدودها؛ إذ كان كثير من أعضاء الكنيسة يرغبون فى تقليد الملائكة. ومنذ ذلك الحين اتجهت الجماهير نحو حياة الرهبان والراهبات التى تخلو من الجنس. وخرج كثيرون من القرى والمدن إلى الصحراء. ومن هنا جاءت المآثر التى تتحدث عن إماتة الجسد التى بينت مدى قدرة الناس على إخضاع أجسادهم لإملاءات الروح. وكان بعض هؤلاء الرهبان الشرقيون ينامون فى وضع الوقوف فقط. كما حبس نساك آخرون أنفسهم فى قلايا وصوامع مظلمة أو عاشوا فوق الأعمدة. أو كانوا يأكلون العشب فقط. وحتى هذا العشب كانوا يأكلونه مرة واحدة فى الأسبوع .

«لقد أوقف الإسلام كل هذه الممارسات المتطرفة. وأزاح الخوف المبالغ فيه من الجنس بعيدا كما نبذ الرهبنة تماما. وقضى على الخوف من الجحيم عند الذين أخفقوا فى تحقيق الكمال. كما أخمد جذوة الجدل اللاهوتى ... كان الإسلام مثل رمال الصحراء ... فقد خلق إحساسا بالتضامن والأخوة وهو الإحساس الذى كان قد ضاع بين المسيحيين المتخاصمين» [١٤] .

ولا غرابة فى أنه منذ اليوم الأول لحركة الفتوح الإسلامية. رأى الجهاز الكنسى التراتبى الأرثوذكسي، الذى كان بمثابة الذراع الروحى للسلطة السياسية البيزنطية. أن المسلمين يشكلون خطرا فريدا في بابه. ذلك أن رجال الدين الأرثوذكس لم يكونوا قد ردوا بقسوة شديدة، مثلما فعلوا مع المسلمين. على الاحتلال الفارسى لفلسطين والاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤، على الرغم من أن المحتلين الفرس كانوا قد حملوا معهم صليب الصلبوت الذى كان أعظم الذخائر المقدسة الموجودة ببيت

المقدس[١٥]. وذات يوم فى ربيع سنة ٦٣٨، وصل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، متدثرا بثوبه البالى الرث، لكى يتسلم القدس ويأخذها تحت حمايته. وراقبه صفرونيوس بطريرك بيت المقدس الأرثونكسى وهو يمشى متمهلا فى أرجاء كنيسة الضريح المقدس، وعلق البطريرك على هذا وهو يهمس باللغة اليونانية لواحد من شمامسة الكنيسة فى هدوء، «من المؤكد أن هذه فظاعة الخراب التى قال عنها النبى دانيال قائمة فى المكان المقدس»[١٦]. ولابد أن جميع الذين سمعوه لم يفهموه على أنه مجرد تلميح إلى النبى دانيال، وإنما فهموه أيضا على أنه إشارة إلى كلمات المسيح على جبل الزيتون عندما طلب منه حواريوه أن يتنبأ بالمستقبل :

« فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس... لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون ... حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا»[١٧]. إنجيل متى، إصحاح ٢٤: ١٥، ٢٤]

لقد رأى البطريرك، الذى عاش فى أثناء الاحتلال الفارسى، فى هذا الرجل الأشهب خاصية أشد خطورة مما رآه فى جميع الحكام الفرس الكبار الذين سبقوه .

ومن نقطة الاتصال الأولى هذه، نبع خوف عميق وتوجس بين النصارى الأرثونكس تجاه الإسلام، وقد تكاثرت هذه المواقف فى المناظرات والمجادلات التى كتبها الباحثون البيزنطيون، ومنذ تلك الأيام الباكرة بدأت تظهر الموضوعات والاستعارات المجازية التى عاودت الظهور مرة أخرى فى الهجائيات اللاحقة ضد الإسلام[١٨]. فقد ظهر العرب فى هذه الكتابات برابرة قبل ظهور الإسلام، وعلى حد تعبير أحد المعاصرين، وهو مكسيموس المعترف Maximus Confessor، « إنهم مثل الوحوش آكلة الفرائس على الرغم من أنهم يتخذون شكل البشر»[١٩]. وفى الروايات التالية تم تحويل الرعايا المسلمين لأحد الملوك الأرمن إلى صورة رجال لهم رءوس الكلاب Cynocephali[٢٠]. وفى غضون قرنين من دخول عمر بن الخطاب بيت المقدس

طوَر الكتاب المسيحيون هجوما شاملا ضد الإسلام. كان أحد المهاجمين الأشداء هو يوحنا الدمشقي، الذى خدم موظفا فى بلاط الخليفة الأموى قبل أن يهجر الحياة العامة سنة ٧١٦. ليدخل سلك الرهبنة[٢١]. فقد لخص القضية ضد الإسلام فى جملة واحدة. « إن من لا يؤمن بعقيدة الكنيسة العالمية كافر»[٢٢](*) كما أنه وصف النبى محمد بأنه. المسيح الدجال». بيد أن يوحنا. الذى كان يجيد العربية ويعرف القرآن الكريم. كان يعتبر معتدلا إلى درجة كبيرة فى عيون أقرانه من القساوسة. وقد أدانه مجمع دينى مسيحى مسكونى عقد سنة ٧٥٤. بتهمة أنه. صاحب عقلية مسلمة»، وبأنه متعاطف مع الإسلام أكثر مما ينبغى[٢٣]. وكان نيكيتاس البيزنطى **Nicetas Byzantios** أشد عداوة للإسلام. ففوق كل شيء اعتبر الإسلام خطوة للوراء. ورجعية. وخرابا» وأنه. ديانة سيئة ضارة». وفى رأيه أن النبى محمدًا نفسه كان «كاذبا» واستنتج نيكيتاس فى نشوة أوهامه بانتصارمنطقه ما عبر عنه بقوله. « وهكذا. فإننى لا أتردد فى أن أنطلق فى حكمى على محمد. أنه المسيح الدجال نفسه»[٢٤].

* * *

فى النظام البيزنطى. كانت الكنيسة الأرثوذكسية تخدم الرب من خلال خدمة الدولة وعلى مرِ القرون ومنذ اعتناق قسطنطين المسيحية سنة ٣١٢. كانت مدينته الجديدة. القسطنطينية قد صارت معقل الديانة. وتم تجميع المزيد والمزيد من

(*) هذا ليس موقفا ضد الإسلام وحده. وإنما هو موقف متعصب ضد جميع الديانات الأخرى كشفه هذا الرجل الذى كان يعتقد أن الديانة الأرثوذكسية هى الديانة الحقة الوحيدة. وأن ماعداها كفر. وعلى أية حال. فإن الملاحظ بشكل عام أن المفكرين المسيحيين وزعماء الكنيسة. سواء الأرثوذكسية أو الكاثوليكية. قد اتخذوا هذه المواقف المتشددة من أصحاب الديانات الأخرى. بل ومن أتباع المذاهب المسيحية المخالفة ولم يتورعوا عن وصف المخالفين لهم فى المذهب من المسيحيين بأنهم. هراطقة. أي خارجون عن صحيح الدين. لدرجة أنهم جردوا ضدهم «حملات صليبية» . (المترجم)

الذخائر المقدسة في كنائس المدينة. وعند تدشين المدينة سنة ٣٣٠، وضع تمثال كبير للإمبراطور على قمة عمود هائل من الحجر السماقي يرتفع أكثر من مائة قدم. يشع بضوء أحمر خافت في ضوء شمس الغروب. وقد حُملت الذخائر المقدسة في موكب لكي توضع في غرفة خفية. ووضعت هناك كسرات من الخبز الذي كان المسيح قد أطعم به خمسة آلاف شخص في البرية ؛والصليبان اللذان صلب عليهما اللصان على جانبي المسيح ابن الناصرة في الجلجثة. وصندوق الألبستر الذي كان يحتوي على المرهم الذي كانت مريم المجدلية قد دهنت به قدمي المسيح. والقادوم الذي كان نوح قد بني به تابوت العهد. والصخرة التي كان موسى قد لمسها بعصاه فاندفع منها الماء في البرية. وثوب مريم العذراء. ومعدن البلاديوم الذي كان أينياس قد حمله من طروادة إلى روما. وألقيت في التمثال نفسه شظية من صليب الصلبوت[٢٦] .

وملئت كنيسة الحكمة المقدسة. أيا صوفيا. الكبيرة بالذخائر المقدسة. وأهمها صليب الصلبوت نفسه، الذي كان الإمبراطور هرقل قد استرده من الفرس قبل فتح المسلمين القدس بوقت قصير. وكان في ذلك الحين عبارة عن شظايا محفوظة في صندوق كبير فوق هيكل ذهبي. وكانت هناك أيضا ذخائر مقدسة أخرى تتعلق بمعاناة المسيح. تاج الشوك. والإسفنجة وقطع من المقبرة. وكان من المفترض أن الإمبراطور أليكسيوس كومنين قد كتب إلى روبرت دوق الفلاندرز **Robert of the Flanders**. في سنة ١٠٩٥. عن الكنز الروحي في المدينة. « سوف تجد في القسطنطينية كنزها الروحي الأكبر مما هو موجود في العالم كله. لأن كنوز قصورها وحدها تكفي لتأثيث جميع كنائس العالم المسيحي التي لا يمكن لجميع كنوزها أن ترقى إلى مستوى كنوز كنيسة أياصوفيا. التي لم تعادل كنوزها أبدا أية كنوز حتى كنوز معبد سليمان»[٢٧] .

هذه جميعا كانت معايير الديانة الحقة (بالنسبة لهم). وعلى مرِ القرون كانت القسطنطينية قد صارت صندوقا هائلا لحفظ الذخائر المقدسة. فقد كانت الأرض المقدسة والمواقع المسيحية قد خضعت للبحث والتنقيب طلبا للذكريات المقدسة. وصارت القسطنطينية توصف بأنها. المدينة المقدسة» التي تنبأ بها يوحنا في رؤياه.

« وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم»[٢٧]. والواقع أن أورشليم الجديدة، بوصفها مدينة كانت تتهيأ لهذا الغرض المقدس، كانت أفضل من أورشليم القديمة التي كانت قد امتلأت بظلال خيانة المسيح وتعانى فى الوقت نفسه مع النور المقدس، لقد جمعت معاناة المسيح الألم والتسامى سويا. بيد أن أورشليم لم تكن مدينة تناسب المسيح المرفوع الطاهر مثلما كان يمكن للقسطنطينية أن تكون، لقد جعلت ثروة القسطنطينية الكبيرة، بكنائسها التى تفوق الحصر، ومواكب الذخائر المقدسة التى تسير فيها يوميا، أو احتفالاتها بأعياد القديسين، بناء مدينة جديرة بالغرض الذى بنيت من أجله أمرا ممكنا، إذ كانت أورشليم القديمة هى الماضى، وكانت أورشليم الجديدة، القسطنطينية، هى المستقبل .

كان ما أدى إلى تطور الهجائيات البيزنطية ضد الإسلام هى تلك الهجمات التى تعرضت لها مدينة أم الرب، أى القسطنطينية أو أورشليم الجديدة. ففى ربيع سنة ٦٧٠، أمسكت المفاجأة بتلابيب أهل القسطنطينية وتملكهم الرعب عندما ظهر أسطول ضخم من السفن الصغيرة المكتظة بالمسلمين المسلحين فى مضيق الدردنيل، وأبحرت السفن قاصدة البسفور وألقت مراسيها على الشاطئ الشمالى على مسافة سبعة أميال من المدينة، بالقرب من القصر البحرى المهجور فى الهيبيدروم، ثم أنزلت حمولتها البشرية وانسحبت عائدة إلى بحر مرمرة، وتقدم طابور المشاة الطويل على شكل قوس ضخم قبالة الأسوار البرية الثلاثية التى كانت قد بنيت فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius فى القرن الرابع الميلادى، والتى كانت تحمى قلب المدينة ضد الهجمات القادمة من الشمال، وعندما استفاقت القوات البيزنطية من صدمتها، حققت النصر فى البداية، فقد سارت من المدينة وأوشكت على اجتياح الجيش العربى خارجها، أما فى البحر، فقد هاجموا الأسطول العربى ودمروا كثيرا من سفنه، وثمة سلاح جديد، النار الإغريقية»، التى لا يمكن إطفاؤها فى الماء، برهن على أنه سلاح مدمر ضد العرب، فى البحر وعلى البر على السواء[٢٨]. بيد أن العرب

عوضوا خسائرهم بسرعة. فقد وصل أسطول جديد وجيش جديد من الجنوب. وكان البيزنطيون قد فقدوا السيطرة في البحر حول المدينة ولم يعد بوسعهم التحرك فيما وراء الأسوار. لأنهم كانوا أقل عددا من العرب كما أنهم كانوا منهكين أكثر من العرب الذين كانوا على استعداد للبقاء طوال الفترة اللازمة للاستيلاء على القسطنطينية .

وكان العرب يشنون هجوما جديدا في كل ربيع منذ سنة ٦٧١. حتى ٦٧٦، من معسكرهم الحصين قرب المدينة. كانت الخسائر البشرية مهولة؛ ففي واحدة من الهجمات قتل ثلاثون ألف شخص. وبالتدريج اتبع المدافعون البيزنطيون التكتيكات التى تعلموا استخدامها ضد طوابير الجنود المسلمين على الأرض. بحيث يدفعونهم مهرولين إلى البحر بلا رحمة. وعند سيلايوم Syllaeum فى آسيا الصغرى. استولت فرقة بيزنطية على سفن إمداد عربية كانت متجهة شمالا ودمرتها. وإذ حرم العرب من التعزيزات فى السنة السابعة من الغزو. انسحبوا فى نهاية الأمر وعادوا إلى شرق المتوسط وقد تخلوا عن فكرة الغزو. فقد أدركوا أن عدد الرجال لديهم قليل. وأنهم لا يملكون ما يكفى من آلات الحصار الكبيرة الضرورية لنقب أسوار ثيودوسيوس الثلاثية التى تحمى المدينة. وعلاوة على ذلك تسبب اعتمادهم على الطريق البحرى وحده لإمداداتهم وتعزيزاتهم فى فشل المغامرة برمتها.

وعلى مدى جيل لم يشن العرب أية هجمات جديدة على المدينة. ولكن فى بواكير سنة ٧١٦م عاد السفير البيزنطى إلى دمشق يحمل أنباء إلى القسطنطينية بأن العرب يجهزون جيشا وأسطولا أكبر من أى جيش رأته الأعين من قبل. وأصدر الإمبراطور أوامره بملء جميع شون الغلال وخزانات المياه عن آخرها. وإصلاح الأسوار والزيادة فى طولها. ووضع السفن كلها فى حالة الحرب. فقد كان يتوقع أن تطول الحرب ثلاث سنوات .

وفى أواخر فصل الربيع سنة ٧١٧. تقدم جيش عربى قوامه ثمانين ألف رجل من ناحية الجنوب. وكان المسلمون، قبل خمس سنوات. قد أطاحوا بالقوات البيزنطية الميدانية عند أبواب قليقية ثم احتلوا الأرض الواقعة بين جبال طوروس وساحل

البحر المتوسط. وفى ذلك الحين استولى المسلمون فى أثناء تقدمهم شمالا على كل مدينة جيدة فى طريقهم كان يحتلها البيزنطيون دونما صعوبة كبيرة. وأظهروا أن مهارتهم فى فنون الحصار قد تحسنت بشكل لافت للنظر منذ هجماتهم السابقة على القسطنطينية. ووصلوا إلى شاطئ البحر المتوسط عند برجامون وتابعوا سيرهم شمالا إلى شاطئ الدردنيل فى أوائل شهر يونيو. وعند أبيدوس قابلوا أسطولا من السفن الصغيرة قادما من بلاد الشام يحمل القوات وخيولهم وجمالهم عبر مسافة الميل التى تنقلهم إلى الشاطئ الآخر. كانت تلك لحظة تاريخية. لأنه فى ذلك المكان كان ملك الملوك كسرى، قبل أكثر من ألف سنة، قد صنع جسرا من القوارب حتى تتمكن جيوشه من العبور إلى أوربا .

وبنهاية شهر يوليو سنة ٧١٧، كان القائد المسلم «مسلمة» وجنوده يعسكرون قبالة أسوار ثيودوسيوس. وكان يرسل فى كل يوم مجموعات لاستطلاع أحوال المدافعين، ليكشفوا الأماكن التى يقل فيها عدد الرجال على الأسوار، قبل شن الهجوم الشامل فى منتصف شهر أغسطس. وقد عمل الإمبراطور الذى كان قد ركز أفضل قواته فى كتائب متحركة خلف استحكامات المدينة، على صد هجمات العرب. وكان السلاح ذو الفعالية الأكبر فى هزيمة الهجوم العربى على الأسوار تركيبة محسنة حديثة من النار الإغريقية. إذ كان لاجئ يونانى هارب من بلاد الشام قد طور تركيبة جديدة من الكبريت والجير الحى عرفت باسم «نار البحر». وكان الجير الحى إذا اختلط بالماء يبدأ فى الاحتراق بحرارة مكثفة تؤدى إلى إشعال المزيج. وكانت كثير من السفن الحربية فى الأسطول البيزنطى مجهزة بقاذفات خاصة بالنار الإغريقية. ولكن الإمبراطور ليو جرد بعض هذه السفن القاذفة ووضعها على مسافات متقاربة بطول الأسوار. كما كانت هناك فرق خاصة مجهزة بأنواع متحركة من قاذفات اللهب هذه. وما إن كان السائل يلتهب فإنه يستحيل إطفاؤه، وببساطة كانت الطوابير العربية المتقدمة تحترق تماما. ومع الغروب كانت سحب الدخان الرمادى الكثيف معلقة تحوم فوق سماء المدينة وتملؤها برائحة اللحم البشرى المحترق الخانقة .

وفي الشهر التالي. تحول ميزان المزايا لصالح المسلمين مرة أخرى. فقد أبحر أسطول من حوالى ألف وثمانمائة مركب صغير محملة بالجنود ومعها عشرون سفينة حربية كبيرة من مصر ودخلت بحر مرمرة. وكان قائدهم «سليمان بن عبد الملك» قد أنزل معظم قواته لتعزيز جيش المسلمين الذى يفرض الحصار على القسطنطينية. ولكن الأسطول كله أبحر بعد ذلك باتجاه البسفور لمهاجمة المدينة من ناحية البحر. وعلى أية حال. أبحرت السفن الحربية البيزنطية الراسية فى مياه القرن الذهبى لتمطر السفن العربية بـ «نار االبحر». ودفعت السفن المشتعلة بالنيران فى اتجاهها. وسرعان ما تحولت الفجوة الضيقة بين الشاطئ الآسيوى والشاطئ الأوربى إلى «غابة متحركة» تموج بالسفن المحترقة. وكل منها تشعل النار فى شراع السفينة المجاورة لها أو فى حبالها. ونجح سليمان فى حشد عدد قليل من سفنه التى لم ينلها الدمار وأبحر عائدا إلى بحر مرمرة. وعلى امتداد الشتاء التالى الذى كان قارص البرد. ماتت أعداد كبيرة من العرب وغيرهم من الشرقيين بسبب البرد. وأرسل القادة العرب طلبات ملحة عاجلة إلى دمشق يطلبون إمدادت غذائية[٢٩] .

وفى الربيع التالى ازدادت وطأة الحصار. فقد وصلت المزيد من السفن من الإسكندرية. وموانئ أفريقيا. وفى الوقت نفسه كان قد تم انتشال الكثير من السفن المدمرة فى الخريف وتم إصلاحها. وذات ليلة. وتحت جنح الظلام. تسلل أسطول المسلمين خلسة وتسلل بين المراقبين البيزنطيين لينزل آلافا من الجنود على الجبهة الشرقية. ولكن فى ذلك الحين تعرض المهاجمون أنفسهم للهجوم من الجانبين. فقد دفع البيزنطيون القبائل البلغارية فى البلقان لمهاجمة العرب فقام جيش من أبناء القبائل البلغارية بالتجمع حول معسكر المسلمين. ودارت معركة وحشية تغلب فيها البلغار على العرب ورقد على أرض المعركة حوالى عشرين ألفا من المسلمين ما بين قتيل وجريح على مرأى من أسوار القسطنطينية الكبيرة. كما مات عدد كبير آخر بفعل المرض. وفى يوم ١٥ أغسطس سنة ٧١٨. هدم المسلمون معسكرهم وساروا عائدين فى اتجاه الدردنيل.

* * *

لقد أرسى الحصاران اللذان فرضهما العرب سنة ٦٦٨. ٦٧٥. ، وسنة ٧١٧. ٧١٨. ، واستيلاء الجيوش العربية فى الوقت نفسه على ما تبقى من الممتلكات البيزنطية بشمال أفريقيا. صورة. «السراكنة» أو. «الهاجريين» أو «الإسماعيليين» بوصفهم العدو الأكثر عزما وشيطانية من بين الأعداء الذين واجههم البيزنطيون على الإطلاق. فقد بدأ الكتَاب البيزنطيون يتحدثون عن. روح العدو المتغطرسة. أبناء «إسماعيل» وأنهم. جنس أنجبته «أم جارية». وافترضوا أن فشل محاولات الحصار كان نتيجة لتصميم الرب على إنقاذ شعبه من «العرب الشرهين الموغلين فى الشر»[٣٠]. وعلى أية حال. تأخر الكتَّاب البيزنطيون كثيرا فى شن الهجوم الشامل على المسلمين لأنهم انشغلوا فى أعقاب الهجوم الثانى على الفور فى الحرب الأهلية التى نشبت داخل العالم المسيحى الأرثوذكسى. إذ إن أولئك الذين كانوا يبجلون الصور المقدسة. الأيقونات. (الأيقونيون. وأولئك الذين اعتقدوا أنها نوع من عبادة الأصنام. اللاأيقونيون) اضطهد كل منهما الآخر وقتلوا أفراد الفريق الآخر فى أزمة استمرت على مدى ما يزيد على قرن من الزمان. بعد أن حرم الأيقونات فى سنة ٧٢٥. الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث Leo III. المعروف باسم ليو الأيسوري. الذى تولى الدفاع عن القسطنطينية. وعلى مدى تلك الفترة كان اللاأيقونيون يمسكون بزمام السلطة. ولقيت الحركة اللاأيقونية مساندة قوية من الجيش. وجاءت نهاية الحركة اللاأيقونية الفعلية وتجدد الصراع ضد المسلمين على نحو أو آخر. ففى مارس سنة ٨٤٣، وتحت قيادة الإمبراطورة ثيودورا Theodora التى كانت وصية على ابنها الذى كان عمره عامين، وتم سحب كل المراسيم المضادة للأيقونات. ووقع قرار الحرمان الكنسى على اللاأيقونيين الذين كانوا قد ماتوا منذ فترة طويلة بعد موتهم .

ولا غرابة فى أنه كان ثمة نظرة تربط بين الفكرة السائدة عن الإسلام والنظرة إلى اللاأيقونيين الذين رفضوا تصوير الرب فى شكل الإنسان والذين باتوا مهزومين فى ذلك الحين. وحسبما يقول نيكولاس زيرنوف Nicolas Zernov. «كانت اللاأيقونية حركة الاحتجاج الشرقى الأخير من داخل المسيحية ضد الهللينية التى تداخلت فى نسيج واحد مع تقاليد الكنيسة البيزنطية. لقد كانت جزءا من تلك

الحركة صوب التوحيد والفقه البسيط الذى كان الإسلام نفسه أقوى تعبير عنه». وقد أشار أيضا إلى أن الجيش ساند زعماء هذه الحركة فى حملتهم ضد الأيقونات، وأن معظم الجنود كانوا، من بين الأرمن وأبناء ماردين والأيسوريين وغيرهم من الشعوب الآسيوية»[٣٢]. لقد كان المسلمون هم العدو الخارجى والعدو الداخلى فى آن معا، بعقيدتهم التى كانت تتحدى ما كان قد صار المبدأ الجوهرى للإيمان الأرثوذكسي، فبالنسبة لبعض الكتاب الأرثوذكس كان المسلمون مجرد هراطقة، أى يقفون على قدم المساواة مع اليعاقبة، والنساطرة والأقباط وغيرهم من المنشقين. وبالنسبة للبعض الآخر، كانوا هم الوحش الذى تنبأ به سفر الرؤيا، عصا الرب وأداة الجحيم للانتقام الإلهى من المسيحية الخاطئة. وفى بعض الأحيان كانوا يساوون بينهم وبين غيرهم من أعداء بيزنطة القدامى، فكانوا يسمونهم «الفرس» ويسمون حاكمهم «خسرو» (كسرى). وفى أحيان أخرى كانوا يطلقون عليهم اسم، «الإسماعيليين»، لكى يفرقوا بين سلالتهم وسلالة إبراهيم الشرعيين، أو يسمونهم، الهاجريين» نسبة إلى هاجر أم إسماعيل التى كانت محظية لإبراهيم أبى الأنبياء. وليست هناك إجابة واضحة عن السبب فى أنهم حملوا اسم، «السراكنة» Saracens أى أبناء سارة زوجة إبراهيم، بيد أن الكلمة كانت مستخدمة لوصف سكان صحراء شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ثم امتدت لتشمل المسلمين بعد ذلك[٣٣]. وهناك نظرية نشرها إيسيدور الإشبيلى Saint Isidore مؤداها أن هؤلاء كانوا من السورينجاى Syriangae وأن كلمة سراكنة جاءت تحريفا لها. وهناك نظرية أخرى تقول إن الكلمة كانت تطلق فى البداية على واحدة من القبائل البدوية العربية، هم بنو سارة، ثم صارت تطلق على جميع عرب الصحراء فى وقت لاحق .

وأيا كان الاشتقاق الذى جاءت منه الكلمة، فإن هناك بعض العناصر المشتركة التى لم تلبث أن ربطت نفسها بالسراكنة بعد الفتوح العربية التى بدأت سنة ٦٢٤، فى منطقة شرق المتوسط. وتؤكد المصادر المسيحية الباكرة على الخاصية المرتبطة بنهاية العالم فى هذه الفتوح، بمعنى أنها كانت الانتقام الإلهى الذى أوقعه الرب على شعبه الواقع فى الخطيئة فى وقت كانت هناك ثقة فى المجيء الثانى للمسيح. فقد قال

الأسقف الأرمني سيبيوس Sebeos. في كتابه الموسوم «تاريخ هرقل». الذى يمثل الرواية الوحيدة المعاصرة عن الفتوح من مصدر مسيحي[*] إنه يخشى أن يحكى عن الرعب الكامل الناتج عن الغزو الذى قام به الإسماعيليون. ووصف هذا الغزو بأنه ريح مسمومة حارة. السموم). تحرق وتهلك. تهب علينا. تشعل النيران فى الأشجار الباسقة الجميلة فى الحديقة. وفى النباتات الصغيرة ذات الأوراق الغزيرة»[٣٤]. وقد كتب أيضا عن مظاهر الرعب الأخرى التى تم ارتكابها. وألمح إلى أن هذا لا يمكن إلا أن يكون الوحش الرابع فى سفر الرؤيا. مثل «نسر طائر»، وهو على خلاف الوحوش الأخرى. لم يسترح أبدا ليلا أو نهارا قائلا. « يا أيها الرب المقدس. الذى كان. ويكون وسيكون»[٣٥].

وقد توسع سيبيوس فى وصفه للوحش فقال إنه كان. « رهيبا. عجيبا. له أسنان من حديد، ومخالبه من نحاس. يلتهم ويسحق ويدهس ... لقد جاء من صحراء كبرى لا حدود لها حيث عاش موسى وبنو إسرائيل فى الماضى. بحسب كلام النبى دانيال. أى من صحراء شاسعة رهيبة، حيث ثارت عاصفة الأمم وملأت الأرض. وغزت الأرض ودهستها. وهكذا تم إنجازها. سيكون الوحش الرابع هو المملكة الرابعة على وجه الأرض والتى ستكون أكثر كارثية من جميع الممالك. والتى ستحول الأرض كلها إلى صحراء»[٣٦].

على أية حال. كان الوحش الرابع يقوم بعمل الرب على الرغم من أنه نفسه كان أداة الشر. ففى رؤيا يوحنا كان الوحش الرابع هو الموت. «... فنظرت وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه وأعطيا سلطانا على ربع الأرض

(*) كان يوحنا أسقف نقيوس فى مصر شاهد عيان أيضا على أحداث الفتح العربى. وقد كان هذا الرجل أحد كبار الكنيسة المصرية وكان معاديا تماما للبيزنطيين. وعلى الرغم من أن كتابه لم يصلنا سوى فى اللغة الحبشية مع تحريفات وإضافات من جانب المترجم الحبشى فإن قيمته كبيرة بالنسبة للمؤرخين. (المترجم)

أن يقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض» لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف»[٣٧] وقد شهدت عدة مصادر بالقتل والدمار الحتمي الذي صب الغزو. وفي الرواية المكتوبة أنجزوا رؤية تنبؤية للمسيحية. لقد تجسدت أداة في سلالة إبراهيم غير الشرعيين :يحميهم الرب ومع هذا تفصلهم عن المسيح مسافة لا نهائية. وقد دخلت المفردات المجازية عن العنف والرعب التي خلقتها تلك الاتصالات الأولية في ثنايا كثير من الروايات. ولكن المصطلحات لم تكن ثابتة مثلما هو الحال في أكثر النبوءات. لقد كان سيبيوس يترجم الأحداث في مصطلحات كان من الضروري صياغتها لتحقيق كلمة الرب ومشيئته. لقد كان المسلمون شرا ضروريا[٣٨] .

* * *

لقد قدم الكتَاب البيزنطيون الإسلام منذ القرن السابع فصاعدا على أنه خطر مميت يواجه المسيحيين. أخطر مما كانت تمثله فارس على الإطلاق. وقد صنف سيبيوس. في نهاية كتابه، بعد أن حكى عن الهجوم الأول على القسطنطينية. الخطر الذي كان الإسلام يمثله بقوله. «... ومثلما ينطلق السهم من قوس شديد التقوس يمسك به رجل تجاه الهدف، فكذلك هم العرب الذين يأتون من صحراء سيناء لكي يدمروا العالم بأسره بالجوع. والسيف. والإرهاب العظيم»[٣٩].

لقد تم تصوير المسلمين بالمصطلحات السلبية نفسها الواردة في الهجائيات الكاثوليكية الغربية التي استخدمت في تصوير الشرق[٤٠] فقد كانت هناك أيضا مصطلحات مثل. خلاصة الشر. بل المسيح الدجال. كما وصفوا أيضا بأنهم الأداة اللازمة للحنق الإلهي وحكمه على شعب الرب الواقع في الخطيئة. وبمرور الزمن تكاثرت أشكال جديدة من أوصاف الإدانة واللعنة. ولكنها كلها وضعت في إطار تم توسيعه في مدى عقود قليلة بعد الاتصال الأولي. ومنذ هذا الوقت تم فهم «الإسلام» من خلال أمثلة موجودة في العهد القديم وفي العهد الجديد من الكتاب المقدس عن الشر والدمار. كانت هذه الأوصاف المنسوبة للبشر والموجودة منذ الأزل هي التي

تكررت فيما بعد فى خطاب الكتاب. وبقيت دون نقد أو مواجهة على مدى عدة قرون. وتسربت هذه الأوصاف خارج أوساط المتعلمين لتصل إلى عقول عامة الناس أو أفواههم. ومن بعدها اكتسبت الكلمات التى استخدمها الكتاب معانى جديدة. ولكن هذه العملية واجهت المقاومة. فقد كتب ألكوين **Alcuin** . الذى كان أشهر عالم أنجلو سكونى فى القرن الثامن الميلادى ومؤسس مدرسة القصر فى قصر الإمبراطور شارلمان بآخن. «لا ينبغى لأولئك الناس أن يستمعوا لمن يقول إن صوت النبى هو صوت الرب. لأن الصخب الصادر عن العامة المشاغبين دائما ما يقترب من الجنون»[٤١]. وما يزال الجدل محتدما حول كيفية زرع الأفكار التى تجسدت فى عدد قليل من المؤلفات وبثها بين الجماهير الأكبر عددا والذين تنتشر بينهم الأمية .

ويعتمد فهم الأفكار التى تتناول المسلم بوصفه كافرا على طريقة عمل اللغة[٤٢]. فهناك العديد من النظريات التى تعمل بها اللغة. ولكن فى خمسينيات القرن العشرين قدم المحلل النفسى الفرنسى «جاك لاكان **Jacques Lacan**» تفسيرا مفيدا عن كيفية عمل اللغة وآثار استخدامها. وقد أخذ النموذج الذى كان أول من أوضحه هو أبو علم اللغة. فرديناند دى سوسير **Ferdinand de Saussure**». وهذبه لكى يناسب ما رأى أنه حقيقة العلاقات الإنسانية. وكان سوسير قد عرف الاتصال بأنه نظام خالص وشامل من العلامات. وتتكون كل كلمة فيه من عنصرين[٤٣] .والعنصر الأول هو الوصف أو «المدلول» المشتق من الكلمة الفرنسية **signifie** . والعنصر الثانى هو الدال. أى الوسيلة التى توصل بها معناها. سواء كانت هذه الوسيلة الصوت المنطوق أو العلامات المرئية. مثل الكتابة .

وسيكون الاتصال مستحيلا إذا لم يكن هناك فهم مشترك لكيفية الربط بين الدال والمدلول. إذ يجب تسمية الشىء نفسه بالطريقة نفسها. ولكن «لاكان». باعتباره عالم نفس. رأى أنه لا يوجد بين مرضاه فى الواقع العملى علاقة ندية بين العنصرين. فقد كانا بالفعل جزءا فى سلسلة من الروابط العقلية. يحملان فى داخلهما ما بقى من تلك الروابط. وإذا طبقنا نظرية «لاكان» عن الممارسة اللغوية على السباب واللعنات. لكان معنى هذا أنه يجب إخضاع أية إهانة للسياق. لأنها تحمل فى طياتها آثارا واهية

تركتها إهانات مماثلة حدثت من قبل. وفى حالة المسيحية والإسلام يجب أن يحيط هذا السياق بتاريخ يعود القهقرى إلى عدة قرون مضت. فإذا قبلنا هذا المفهوم فلن يكون هناك سوى عدد قليل للغاية من العبارات داخل ذلك التاريخ يمكن أخذها بقيمتها السطحية. إذ إن معناها مستمد بصورة جزئية من تجمع الخوف والكراهية الممتدة. وتنقصنا فى السجلات الباكرة تلك المعلومات التى تساعدنا على رؤية المدلولات الكاملة لهذه الفكرة ولكننا إذا ما خرجنا من التتابع الزمنى برهة لوجدنا مثالا. يرجع إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يوضح كيف يمكن للعداوة أن تصطنع نسيج المعنى على هذا النحو وتزيفه وتحافظ عليه.

* * *

هذا المثال يظهر فى السجلات القنصلية البريطانية التى يرجع تاريخها إلى يونيو ١٨٦٠ م، فى زمن كانت هناك هجمات وحشية ضد المسيحيين فى الشرق الأوسط. وهو ما سوف نعود إليه فى هذا الكتاب مرة أخرى. فقد طلبت الحكومة البريطانية من قناصلها فى الدولة العثمانية كتابة تقرير موجز وشامل عن انطباعاتهم عن كيفية حياة المسيحيين فى ظل حكومة مسلمة. وقد فسر الموظفون المختلفون التعليمات الصريحة الصادرة إليهم بطرق مختلفة. إذ لاحظ القنصل بلنت **Blunt** فى بريشتينا بالبلقان أن المسيحيين كانوا «بالتأكيد» أحسن حالا منهم قبل عشر سنوات. ففى تلك الأيام كان. يمكن للمرء أن يحكم بمقاييس التسامح التركى المعمول بها فى تلك الأيام بإرغامهم على الزحف تحت أبواب لا تكاد تصل إلى ارتفاع أربعة أقدام»[٤٤]. لقد كان الاستدلال هنا واضحا بلا لبس. إذ كان معناه أن الأتراك يجبرون النصارى على صناعة أبواب كنائسهم منخفضة بالقدر الذى يجبر من يرتادها على الانحناء للدخول. ومن ثم يهينون أنفسهم. ولكن بحسب قراءتى أنا لهذا راودنى الشك فى أن يكون هذا الموظف القنصلى المحنك قد فسر الموقف تفسيرا صحيحا. فقد كان هناك تفسير آخر لوجود هذه الأبواب المنخفضة التقطته من مكان آخر. هذا التفسير يشير إلى أن

المسيحيين أنفسهم هم الذين كانوا يتعمدون جعل أبواب كنائسهم منخفضة. بحيث يتم منع المسلمين من الدخول إلى كنائسهم على ظهور بغالهم مما يتسبب في تلويث الأرضية. ومن المؤكد أن كلا من الروايتين توضح أنه كان هناك اضطهاد. ولكن كل رواية تسلك طريقا مختلفا عن طريق الأخرى .

وعلى أية حال. فقد ساورني الشك أيضا في مدى إمكانية الاعتماد على أي من التفسيرين دليلا على وجود الاضطهاد العام. فقد عاشت «ماري إليزا روجرز» في فلسطين في أثناء فترة الخمسينيات من القرن التاسع عشر. ووصفت كثيرا من الكنائس بقدر كبير من التفصيل. ولكنها لم تشر أبدا إلى هذه الرموز المعمارية الدالة على الاضطهاد. كما أنها لم تشر مرة واحدة إلى أن المسيحيين كانوا ينحنون لكي يدخلوا إلى أماكن العبادة الخاصة بهم. فهل كانت هناك تفسيرات أخرى لا تعني أنه كان هناك اضطهاد. ففي أوربا المسيحية تتخذ أبواب الكنائس كافة الأشكال والأحجام. والأبواب الكبيرة الثقيلة تحتوي غالبا على مدخل صغير يستخدم يوميا [ما يعرف باسم الخوخة وهو موجود في الأبواب القديمة في مصر أيضا . ، على حين تفتح الأبواب الكبيرة في الأعياد والاحتفالات .. كما أن الكثير من الكنائس الأوربية لها مداخل ثانوية صغيرة وضيقة. أي التفسيرات صحيح إذن؟ هل كان ذلك طغيانا رسميا وضع لإهانة المسيحيين؟ هل كان ردا مسيحيا على مشكلة كريهة. أم ربما لم تكن سوى وسيلة بلاغية. ومجرد مجاز طرح في صورة الحقيقة. أم كان تصويرا قصد به التعبير عن خاصية. التسامح التركي». ليس بوسعنا أن نعرف. وربما كان القنصل يريد فقط أن يستخدم رمزا مناسبا للدلالة على اضطهاد «الأيام السيئة الماضية حقيقة» في أربعينيات القرن التاسع عشر .

على أية حال. هناك باب واحد بعينه ربما كان يمثل النمط السائد في هذه الحكايات. إذ إن كنيسة الميلاد في بيت لحم. التي بناها الإمبراطور جستنيان سنة ٥٢٩ ، كان لها في الأصل ثلاث بوابات في واجهتها الغربية. ولكن تاريخ المبنى يكشف كيف أنها تغيرت على مرِ القرون:

«المدخل الرئيسى إلى البازيليكا عن طريق الباب الصغير جدا. باب الخضوع (٧٨سم عرضا و ١٣٠سـم ارتفاعا. ويجب أن يدخل الزوار منحنين كما لو كانوا يدخلون كهفا حقيقيا. وفى الأصل كان للكنيسة ثلاثة مداخل. اثنان منها سدا بالطوب الآجر. ثم أخفيا بدعامة بنيت فيما بعد (بعد القرن السادس عشر) وبالمبانى الأرمنية. أما المدخل المركزى والأعلى فى كنيسة جستنيان فقد أعاد الصليبيون تشكيله. ونتج عن هذه العملية قوس مدبب ما يزال ماثلا للعيان إلى اليوم مع الكورنيش الذى وضعه جستنيان فى المبنى الذى بناه. وقد عمل المدخل الصغير الحالى فى أثناء العصر العثمانى لمنع الفرسان الراكبين من دخول البازيليكا. الكنيسة)»[٤٥].

جميع الحكايات الحديثة تكرر هذه القصة. زاعمين أن العثمانيين كانوا يجعلون أرض الكنيسة إصطبلا لخيولهم[٤٦]. ولكن الآثار الباقية هناك تتلاشى. وليس هناك اتفاق على الوقت الذى حدث فيه هذا التدنيس بالضبط. وعلاوة على ذلك. ليس هناك ما يشير إلى أن مواقع أخرى مساوية فى الأهمية. مثل كنيسة القيامة. قد لقيت المعاملة نفسها. إذن. أى القصص كانت صحيحة. الخيول أم الإهانة والذل. أم أن الباب فى كنيسة بيت لحم تم تخفيض ارتفاعه لأسباب معمارية. أخذت فى الاعتبار فى التغييرات التى أجريت أيام الصليبيين. ومن المؤكد أن المدخل المنخفض لم يترك أى انطباع رمزى لدى. مارى روجز. التى قالت. « لقد مررنا تحت طريق منخفض من الأقواس». كانت هذه هى الطريقة الصحيحة التى وصفت بها دخولها من باب الخضوع [٤٧].

هذه الحكايات. وحكايات أخرى مثلها. يجب دائما. فى تقديرى. توخى الحذر فى نشرها. ولا شك فى أنه قد تولدت على مرِ القرون من الربط بين «الحكم الإسلامى» وصورة مدخل الكنيسة الضيق. أفكارعن الذل الذى لقيه المسيحيون. وكان متوقعا أن يستنتج المسيحيون من هذا الكيفية التى كان المسلمون يتصرفون بها دائما تجاه المسيحيين. ولكن تغيير السياق يؤدى إلى تغيير المعنى. إذ إن الباب الضيق نفسه. فى أيد مسيحية. سيكون له مدلول مختلف تماما. وعندها يمكن أن يصبح هذا الباب كناية

عن طريق الخلاص مع تذكر كلمات المسيح فى إنجيل متى: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه»[٤٨].

هذا التناقض أعاد إلى ذاكرتى نموذج «لاكان» التصويرى عن كيفية خلق المعنى، وتوصيله، وفهمه. ففى البداية رسم بابين جنبا إلى جنب، ولم يكن لأى منهما مدلول خاص. وعندما كتب فوق أحدهما كلمة «رجال، وفوق الآخر كلمة. نساء» فهم القارئ، كان كل باب حينئذ يوحى بما خلفه، ليطلق شلالا من الروابط والصلات. وكانت النقطة التى أراد «لاكان» توضيحها أنه ليس هناك شىء فى كلمتى «رجال»، «نساء» بحد ذاتهما، ولا فى صورة البابين بحد ذاتها، ولكن تواجدهما بجوار بعضهما وعليهما الكلمتان المكتوبتان، سرعان ما صنع رابطة ثقافية بين الجنسين، ومع عملية التبول والتغوط[٤٩]. وهكذا يشير إلى أن المدلول الخاص لهذين البابين إنما حسمه السياق. لقد كانت الكثير من الحكايات الأوربية عن. «العالم الإسلامى» قد بنيت بهذه الطريقة، مثل تفسير القنصل البريطانى بلنت للمدخل الواطئ فى كنيسة بريشتينا. إذ إن نموذج التفسير الغربى للإسلام، الاضطهاد والوحشية والتهديد، هو الذى حسم كيفية فهم الحوادث والتراكيب والصور وحددها[٥٠].

هوامش الفصل الثانى

(66-p.65)

١- فى سنة ١٥٧٥م فى إهدائه إلى هوارد إيفينجهام لنسخته من

Curio's Notable Historie of the Saracens

أعلن توماس نيوتن أن "النبوخذ نصر البابلى والفرعون التركى أقرب تمامًا إلى أنوفنا ... بل إنهم الآن على أبوابنا مستعدين لدخول بيوتنا ... هذا الوحش المدمر والطاغية الدموى ، واللص العام للعالم . انظر:

Coelius Augustinus Curio, A Notable Historie of the Saracens, Trans . Thomas Newton, London: n.p. Amesterdam Walter J. Johnson Inc. 1977 .

2. The first 'Mad Mullah' was the Somali leader Mohammed bin Abdullah Hassan, against whom the British fought from 1899. 'Mad Mullah' has now become a common insult.

٣- أعد الكاتب الذى عاش فى القرن العاشر حمزة الأصفهانى قائمة بخمس أمم كبرى فقط من الصين فى الشرق حتى البربر فى الغرب، نقلا عن Khalidi، Arabic Historian Thought، صفحات ١١٧-١١٨ . كان هناك هجاء إسلامى ضد المسيحية وضد المسيحيين الغربيين بوجه خاص ، ولكن قبل أواخر القرن الثامن عشر لم يكن مصحوبًا بأى فضول قوى تجاه أولئك الذين هاجمهم . ويلاحظ جاك واردنبرج أيضا أنه بينما كان لدى المسلمين "فضول مؤرق عن المسلمين خارج دار الإسلام، كان هناك ما يشبه الغياب الكامل عن أهل الذمة فى الأراضى الإسلامية" انظر :

4. This was the 'persecuting society', first identified by R. I. Moore, subsequently challenged and modified, but still solid in all its essentials. See Moore, *Formation*, and Laursen and Nederman, *Beyond*.

٥- هذه الخاصية نفسها كانت مدانة من جانب الإسلام : إذ إن مصطلح «جاهلية» يصف العصور المظلمة قبل الإسلام الذى جلب النظام والنور إلى العالم. ولكن الشعر العربى كان ما زال يستخدم الصفات الحربية فى القبيلة لرسم صورة النبالة . ويلاحظ روبرت هويلاند أن «الإسلام ظهر بين سكان المدن وبدأ بنظرة حضرية نمطية إلى البدو... وفى الأدب الإسلامى الباكر كان البدو يصورون غالبًا على أنهم أجلاف . وكان لابد لكل هذا أن يتغير بسرعة ، ويتم تصويرهم على أنهم جذور العرب ودعم للإسلام» انظر:

Arabia and the Arabs: From the Brone Age to the Coming of Islam , London , Rautledge, 2001, pp. 2437- .

وكتاب هويلاند الأسبق زمنًا «Seeing Islam» يحتوى على نطاق ممتد للغاية من البيانات السلبية عن الإسلام الباكر، ولكنه يؤسس أيضا أنه لم يكن هناك استجابة موحدة تمامًا وعلى أية حال فإنه يلاحظ (pp.٢٤-٥) أنه فى الكتابات اليونانية لم يكن المسلمون سوى أعداء الرب ... والصورة التى كانت لدى البيزنطى العادى عن العرب كانت محكومة بأكثر من ألف سنة من الانحياز ... وأن أسلافهم فى الكتاب المقدس ، من نسل الجارية هاجر قد وصمتهم دينيا بأنهم «أحقر شعوب الأرض» (هذه الإدانة والازدراء موجودة فى الحولية السورية سنة ١٢٣٤م على أساس مصدر من القرن الثامن.

6. For example, at Duma in 634. See Glubb, *Conquests*, p. 132.
7. Mark Whittrow has pointed to multiple problems with the sources for the first Islamic conquests. See Whittrow, *Making*, pp. 82–9.
8. Cited in Gil, *History*, p. 41.
9. Ibid., pp. 38–9.
10. See Gibbon, *Decline and Fall*, vol. 5, p. 422. Gibbon uses the often fanciful chronicle of Al Wakidi, and Ockley's *History of the Saracens*. But although the details are embellished the essence of the battle seems plausible.

11. See Gil, *History*, pp. 42–4.
12. This was the pass that Alexander the Great and his armies had traversed.
13. Gil, *History*, p. 170, asserts the contrary: 'One should not assume that the Moslems were in a majority during this period.' However, his Muslims are Peninsular Arabs, 'tribes who derived their income from taxes from the subdued population', and so converts do not figure.
14. See Zernov, *Eastern Christendom*, p. 84.
15. This had been miraculously rediscovered by the Emperor Constantine's mother, Saint Helena.
16. Cited in Glubb, *Conquests*, p. 183.
17. Matthew 24: 15–24.
18. See Constantelos, 'Moslem Conquests', p. 325.
19. Cited in Christades, 'Arabs', p. 316.
20. These monstrous creatures were first described by Pliny the Elder in his *Historia Naturalis*, completed in AD 77. See Moser, *Ancestral Images*, pp. 36–7. See also C. Meredith Jones, 'The Conventional Saracen of the Songs of Geste', *Speculum* 17 (1942), pp. 201–25.
21. See Sahas, *John of Damascus*.
22. *De Fide Orthodoxa*, IV, 11; cited in Khoury, *Polémique*, p. 11. John's father had been among those who formally surrendered Damascus to the Muslims.
23. See Jane I. Smith, 'Islam and Christendom: Historical, Cultural and Religious Interaction from the Seventh to the Fifteenth Centuries' in *The Oxford History of Islam*, ed. John L. Esposito, Oxford: Oxford University Press, 1999, p. 322. She observes: 'Scholastic writings coming out of the eastern part of the empire in the ninth and tenth centuries, especially from Byzantium, tended to be contemptuous and even abusive of the Prophet. In general this polemic was apocalyptic (prophesying the end of the Arabs) and highly uncharitable. The work produced in Spain . . . provided the first attempt at a comprehensive view of the religion of the Saracens, despite its predilection to see Islam as a preparation for the final appearance of the Antichrist.'
24. See Khoury, *Polémique*, pp. 360–61.
25. See Sherrard, *Constantinople*, pp. 8–9.
26. Cited in W. R. Lethaby and Harold Swainson, *Sancta Sophia Constantinople: A Study of Byzantine Building*, London: Macmillan & Co., 1894.
27. Revelation, 21: 2–3.
28. However, it was difficult to use effectively, except in limited defensive situations. For a balanced view, see Whittrow, *Making*, pp. 124–5.

29. See Gibbon, *Decline and Fall*, vol. 6, p. 8: 'The winter proved uncommonly rigorous. Above an hundred days the ground was covered with deep snow, and the natives of the sultry climes of Egypt and Arabia lay torpid and almost lifeless in their frozen camp.'
30. Theodosius Grammatikos, in Spyridonos Lambros, 'Le deuxième siège de Constantinople par les Arabes et Théodosius Grammatikos', Athens: *Historika Meletemata*, 1884, pp. 129–32, cited in Ducellier, *Chrétiens*, p. 133.
31. See Brubaker, *Vision*, pp. 19–58.
32. Zernov, *Eastern Christendom*, p. 86.
33. See Rotter, *Abendland und Sarazenen*, pp. 68–9, and Tolan, *Saracens*, *passim*.
34. See *History of Heraclius*, cited in Ducellier, *Chrétiens*, p. 28. The best translation is *The 'Armenian History' Attributed to Sebeos*, trans. Robert Thomson, 2 vols, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2000.
35. Revelation, 4: 7–8.
36. Ducellier, *Chrétiens*, p. 28.
37. Revelation 6: 1–17.

٣٨- الحقيقة أن موقف سيبيوس ، على الرغم من أنه موقف معاد، قد تغير في تسجيله بين السرد التاريخي وبين عمل رابطة أخروية. وهكذا فإنه في الفصل الثلاثين من تاريخه يبدأ بالقول " إنني سوف أناقش خط ذرية إبراهيم ، ليست الذرية المولودة من امرأة حرة ، ولكن الذرية التي ولدت من جارية خادمة والتي عنها تحقق الاقتباس المأخوذ عن الكتاب المقدس بأن يده ستكون على الكل، وسوف تكون يد الجميع عليه" سفر التكوين ١٦ : ١٢].

39. Ibid., Chapter 38.
40. See Michael McCormick, 'Diplomacy and the Carolingian Encounter with Byzantium down to the Accession of Charles the Bald' in B. McGinn and W. Otten (eds), *Eriugena: East and West*, Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1994. However, the outcome of these connections can be seen in the cluster of chronicles concerning the seventh century of Spain: the *Chronicle* of 754, the *Continuatio Byzantia Arabica* or *Chronicle* of 741, and a lost *Historia Arabica*. The historiographical connections between them and their relative importance is contested, but it is clear that Christians in Spain were fully aware of events in the eastern Mediterranean during the conquest after 634, and related these to the conquest of Spain. For a good discussion of these issues see Collins, *Arab Conquest*, pp. 52–65. Dubler, 'Sobre la crónica' is suggestive of a wider range of connections.

41. Alcuin, *Opera*, in J. P. Migne, *Patrologiae Series Latina*, Paris: Migne, 1863, vol. 100, letter 164.

٤٢- هذا يصبح كيف أن لاكان في**Ecrits** وصف الطريقة التي يمكن بها اعتناق المفاهيم والأفكار. وقد لاحظ چاك دريدا أيضا تعقيد هذه الملاحق والارتباطات والطريقة التي بها تنمو الإضافات الخارجية للفكرة (وتفسيراتها) على مر الزمان "إن تفكيك القماش المنسوج [للنص] يمكن في أية حالة أن يستغرق قرونا لإبطال الشبكة: الشبكة التي تحتوي على شبكة، فك الشبكة على مدى قرون، وإعادة تشكيلها أيضا باعتبارها كائنًا عضويًا ، تتكاثر بلا نهاية وتولد نسيجها الخاص وراء الأثر القاطع ، وهو القرار المتعلق بكل قراءة".

Jacques Derrida, Dissemination , trans Barbara Johnson , London : The Athlone Press, 1981/ 1993, p. 63 .

انظر أيضا **Jacques lacan , Ecrits, trans . Alan Sheridan , New York, NY: Norton, 1977 .**

وقد وجدت لاكان صعبًا على الفهم بشكل خارق للعادة حتى في الترجمة على الرغم من أن الطبعة الفرنسية الأصلية.

(**Edition du Seuil**، ١٩٦٦) كانت نقطة مهمة في الإشارات المرجعية . وعلى أية حال، فإن بعض الأوراق في كتابه برهنت على أنها مصدر مساعدة ، انظر :

Mark Bracher and Ellie Ragland - Sullivan (eds.), Lacan and the Subject of Language, London, Routledge, 1990.

(p.369)

43. On Saussure and Lacan, see Martin Francis Murray, 'Saussure, Lacan and the Limits of Language', University of Sussex PhD dissertation, 1995. On Lacan's approach, see Nancy and Lacoue-Labarthe, *The Title*.

44. Cited in Bat Ye'or, *Decline*, p. 419, Blunt to Bulwer, 14 July 1860.
45. See Qustandi Shomali, 'Church of the Nativity: History and Structure', www.unesco.org/archi2000/pdf/shomali.pdf
46. There is also a Muslim story of desecration, with the Crusaders stabling their horses in the Al-Aqsa mosque after the capture of Jerusalem in 1099. Are the two stories connected or reciprocal?
47. Mary Eliza Rogers, *Domestic Life in Palestine* (1862), London: Kegan Paul International, 1989, pp. 41–2.
48. Matthew 7:14. Gate and door are synonymous. See, also, Luke 13: 23–4: 'Then said one unto him, "Lord, are there few that be saved?" And he said unto them, "Strive to enter in at the strait gate: for many, I say unto you, will seek to enter in and will not be able."'

٤٩– قال لاكان «إن ازدواج الاسم من خلال مجرد التجاور بين مصطلحين ... ينتج مفاجأة بواسطة ترسيب غير متوقع لمعنى غير متوقع : صورة البابين التى ترمز، بحدود الفردية المقدمة للرجل الغربى من أجل إشباع حاجاته الطبيعية بعيدا عن الوطن، اللازمة الضرورية التى يبدو أنه يشارك فيها الغالبية العظمى من المجتمعات البدائية والتى بواسطتها تخضع حياته العامة لقوانين العزل عند التبول . انظر:

Jacques Lacan : «The Agency of the Letter in the Unconcious or Reason since Freud «, Ecrits , trans . Alan Sheridan, New York , NY: Narton, 1977, p.151.

(p.369)

٥٠– يشير الدكتور دانى كوزيك **Dane Kusic** إلى اختلاف جوهرى بين المثل الأساسية فى كل من العالم المسيحى وعالم الإسلام: "بدلاً من أن تعمل بطريقة التقسيم الغربية والتعريف الصارم للقطبين الذى يقصى كل منهما الآخر، فإن المصطلحات الدينية الإسلامية وغيرها غالبا ما تعمل بأسلوب متزامن حيث يمكن استبدال **Pars Pro toto** بـ **totom Pro Parte** (أى الأجزاء من أجل الكل تستبدل بالكل من أجل الجزء والعكس بالعكس) . وقد طور كوزيك نموذجه جزئيًا من تحديد بيير بورديه للاستخدامات المتعددة والمتطابقة لبيت **Kabyle** فى كتابه:

Outline of Theory of Practice (Combridge Studies in Social Authropology 16) trans. Richard Nice, Cambridge : CUP, 1977 , pp. 96 sqq.

انظر :

Namazi-s, in Istanbul : An Invitation to Reflexsive Ethnomusicology", Chapter 7 , Unpublished ph D. University of Maryland 1996 .

الجـزء الثانى

(٣)

الأنـدلـس

كان الدخول إلى إسبانيا سهلاً من شاطئ المغرب. ممر مائى ضيق. ثم شواطئ مفتوحة تفسح الطريق للرمال والشجيرات القصيرة الكثيفة. ثم إلى تلال منخفضة. وإلى الغرب نهر الوادى الكبير Guadalquivir الراكد الذى يفيض فى البحر عند ميناء سانلوكار دى باراميدا. حيث سيجمع كريستوفر كولومبس سفنه سنة ١٤٩٢م. وفى أعلى مجراه ترقد أشبيلية وقرطبة. أكبر مدن الجنوب، حيث الإسبان ما يزالون يسمون المكان وعاء الطهى الإسبانى، من الهضبة الباردة العالية فى وسط إسبانيا. وفى الشرق فقط. على الطريق إلى غرناطة وجبال سييرا نيڤادا Sierra Nevada. توجد جبال يمكن مقارنتها بسلاسل جبال الأطلس فى شمال أفريقيا. وحتى فى غرناطة، ترتفع القمم العالية لجبال سييرا نيڤادا خلف الحقول المستوية فى فيجا Vega، التى كانت مثل سجادة خضراء قد بُسطت أمام المدينة. وكان للرحالة الرائد فى القرن التاسع عشر ريتشارد فورد Richard Ford. أن يدرك خصوصيتها. فقد وصف «الاستحكامات الخالدة لڤيجا الجميلة... أو اللؤلؤة الصافيه التى يقطع حدها الخارجى السماء الزرقاء»[١].

وبالنسبة لأبناء شمال أفريقيا، المعتادين على المغرب والجزائر، والصحراء التى وراءهما، كانت هذه أرضا سهلة. أعطها الماء وسوف تزدهر بوفرة. وعلى النقيض من موطن الوفرة هذا يكون الاقتراب من إسبانيا من الشمال عبر جبال البرينيس. فقد كانت هناك ممرات قليلة عبر الجبال ولم يكن أى منها سهلاً، سوى حيث تتلاشى

القمم العليا تجاه المحيط الأطلنطى. وكانت إسبانيا فيما وراء حاجز جبال البرينيس أرضا وعرة وجبلية. وكانت الأنهار الكبرى التى تعبر الأرض من الشرق إلى الغرب. تشكل مجموعة أخرى من العوائق. وقد لاحظ الرحالة الإنجليزى الذى عاش فى القرن السادس عشر جيمس هويل **James Howell** أنه «حوالى ثلث قارة إسبانيا مكون من تلال ضخمة وعرة وجبال، يمكن للمرء فيها أن يحس بالفرق بين الحرارة والبرودة فى الهواء ببعض الأماكن أكثر من الإحساس به فيما بين الشتاء والصيف فى مناخ آخر»[٢].

ومن منظور شمال أوربى، كانت إسبانيا ببساطة بلادًا جنوبية نائية، تفصلها عن بقية أوربا كتلة جبال البرينيس. وبالنسبة للإسبان كانت الجبال تقليديا ملاذهم وخلاصهم. وثمة أسطورة شعبية غير معروفة الأصل تقول إنه عندما زعم الشيطان أنه له السياده على الأرض كلها أمام يسوع المسيح، نسى إسبانيا، فقد حجبتها عن نظره الشرير القمم الجبلية العظمى. ولإسبانيا أربعة حدود. الحدود الأرضية مع أوربا، وساحل يطل على المحيط الأطلنطى، وخط ساحلى طويل على البحر المتوسط، وعبر مضيق مائى ضيق. أفريقيا. وربما كان الفتح الإسلامى لأفريقيا قد بات حتميًا منذ ذلك اليوم فى سنة ٦٨١م، الذى وقف فيه القائد العربى عقبة بن نافع على شواطئ الأطلنطى، بالقرب من مدينة أجادير الحالية. وتحكى القصة التراثية عن هذه الحملة أن القائد المسلم خاض فى الماء بحصانه حتى كاهله، وهو يلوح بسيفه تجاه المحيط الخاوى. وهو يصيح الله أكبر. لولا أن هذا البحر قد أوقف مسيرتى، لمضيت فيه حتى أصل إلى مملكة الغرب المجهولة، لأدعو إلى وحدانية الله، وأضع السيف فى الكفار الذين يعبدون سواه[٣]. وبينما وضع المحيط الغربى مانعًا فى وجه التقدم الإسلامى، كان المضيق بين أفريقيا وأوربا غير مانع. ذلك أن السفن كانت تعبره باستمرار فيما بين موانئ شمال أفريقيا وموانئ جنوب إسبانيا. فقد كانت الثروة والوفرة التى نعمت بها أسبانيا ذات بريق لا يقاوم[٤]. وهكذا فإنه فى العقد نفسه. ٧١٠-٧٢٠م الذى كانت فيه الجيوش الإسلامية تعسكر أمام القسطنطينية للمرة الثانية ونالتها الهزيمة. كان أبناء دينهم يحرزون فى الغرب انتصارا يتعدى أقصى ما وصل إليه

خيالهم. ونحن نعرف النتيجة. أي الاستيلاء على كل الأراضي تقريبا من الشاطئ الإسباني الجنوبي حتى جبال البرينيس (وما وراءها). ولكن عملية الفتح تبقى محجوبة وراء ستائر الغموض. وكما كان الحال في الشرق، لم يجتذب اللقاء الأول بين المسلمين والمسيحيين أي مؤرخ سوى بعد عقود من الحادثة(*).

وهناك بعض حقائق لا نزاع ولا جدال بشأنها. ففي سنة ٧١٠م. تم نقل قوات الطليعة من البربر في أربع سفن صغيرة عبر الأميال العشرة من مياه المضيق إلى جزيرة تسمى لاس بالوماس **Las Palomas**. في مواجهة الساحل الإسباني مباشرة. بالقرب من جزيرة طريف **Tarifa** الحديثة[١]. وكان مع القائد طريف بن مالك أربعمائة من المشاة ومائة فارس فقط. وكانوا مسلحين تسليحًا خفيفًا. ولا يحملون سوى الحد الأدنى من الطعام والماء، ولم يكن معهم أية معدات ثقيلة. ومع هذا، فإنهم عندما لم يقابلوا أية مقاومة حقيقية. سرعان ما ملأوا سفنهم بكمية ضخمة من الغنائم والأسلاب. وقد أشار خروج طريف إلى أن إغارة كاملة القوة على الأرض الإسبانية الرئيسية لابد وأن تجلب غنائم ثمينة. وفي السنة التالية، جهز قائده الأعلى في طنجة طارق بن زياد حملة أكبر حجمًا. وأبحر من الساحل الأفريقي في أوائل شهر أبريل. ونزل برجاله السبعمائة تحت جنح الظلام خلف الجبل (الذي يسمى الآن جبل طارق). وفي الصباح، ساروا على الشريط الرملي الذي يفصل القمة الصخرية عن الأرض الرئيسية واحتلوا دائرة واسعة من الأرض فيما وراء المدينة الصغيرة التي تسمى الآن الجزيرة **Algeciras**.

كان هذا هو الفرق الصغير بين هذه الحملة وأي من الحملات الأخرى التي تدعو للتفكير والتي كانت من خصائص حركة الفتوح العربية. ففي بواكير القرن الثامن الميلادي، كانت إسبانيا تحت حكم سلالة من القيزيقوط **Visigoths**. وعلى الرغم من ندرة المصادر فإننا نعرف أن ملك إسبانيا، رودريك **Roderick**. جاء مسرعًا إلى الجنوب بجيش كبير لصد الغزاة. ولقي حتفه في المعركة التي جرت غير بعيد من النقطة التي كان المسلمون قد أرسوا عليها، بالقرب من مدينة **Asida Caesarina**

الرومانية القديمة. وتفرق الجيش الفيزيقوطى شذرا. وبعد المعركة لم تكن هناك تقريبًا أية مقاومة منظمة. وأرسل طارق الذى كان يقود ما يزيد قليلاً على سبعة آلاف رجل تجريدة صغيرة تحت قيادة أحد رجال القبائل الموثوق بهم واسمه مغيث الرومى لكى يستولى على قرطبة. وعندما وصلت المجموعة إلى ضفة النهر الكبير قبالة المدينة، عرفوا من أحد الرعاة أن الفيزيقوط قد هربوا من قرطبة. ولم يبق سوى مئات قليلة من الرجال. واكتشف مغيث الرومى أيضا أن هناك ثغرة فى الدفاعات. وبحلول الليل تسلل مع حفنة من الرجال، وفتح البوابة المؤدية إلى الجسر الرومانى القديم. وفى الصباح الباكر استولى رجاله القلائل على المدينة.

وفى الوقت نفسه شق طارق طريقه شمالاً بأقصى سرعة تجاه طليطلة عاصمة الفيزيقوط. ولحق به قائده موسى بن نصير، ومعه التعزيزات التى كان فى أمس الحاجة إليها. وعندما وصلوا أسوار المدينة، وجدوا البوابات مفتوحة والمدينة خاوية بالفعل. ولم يواجه احتلال إسبانيا شمال طليطلة الذى حدث فى السنوات التالية سوى قدر قليل من المقاومة لم يزد إلا قليلا عن هذا الزحف الأول. وقاومت مدينة أو مدينتان وتم نهبها. ولكن مثلما حدث فى شرق المتوسط. بدا أن الفتح الإسلامى لا يمكن مقاومته على الإطلاق. وعلى أية حال. ففى ذلك الوقت بدا أن ضياع إسبانيا أقل قبولا للتفسير من ضياع الشرق. ذلك أن أول رواية عن سقوط إسبانيا، والتى كتبت حوالى سنة ٧٥٤م، وضعت ضياع إسبانيا فى إطار الكتاب المقدس، بشكل يشبه كثيرا ما كان قد فعله بطريرك بيت المقدس (صفرونيوس) قبل قرن من الزمان[٧]. وقال المؤرخ المسيحى أيضا إن قائد طارق بن زياد الأعلى. موسى بن نصير، كان «مجردًا من الرحمة» لأنه أحرق المدن الجميلة، وأعدم النبلاء والأعيان فى ذلك الوقت وعذبهم. وأمر بضرب الأطفال والأمهات المرضعات حتى الموت؛. ولكنه ما إن ملأ نفوس الجميع بمثل هذا الرعب، سارعت بعض المدن التى بقيت إلى الصلح، وبالمداهنة والخداع والسخرية، منح هذه المدن ما ترغب فيه». وقد تم تنفيذ هذه الاتفاقيات فى معظمها. وبسرعة وسهولة حلت السلطة الإسلامية محل السيادة المسيحية.

وبمرور الوقت صارت الروايات المسيحية والإسلامية عن هذا الحدث حكايات متخمة بالتعبيرات التنبؤية. وقد حملت نكهة حريفة بفعل افتراضات وجود الشهوة والخيانة. وقدمت الأساطير تفسيرًا لكيفية استطاعة طارق بن زياد. وليس معه سوى عدة آلاف قليلة من الرجال. أن يهزم «جميع المحاربين المسيحيين فى إسبانيا»، والذين قدرهم البعض بعدد مائة ألف رجل. لماذا انقلب الرب ضد شعبه[8]؟ لقد تم العثور على الإجابة في الانحطاط الخلقى الذى جلب النقمة الربانية. لقد فسر الكتاب المسيحيون النصر السهل الذى أحرزه البربر وقادتهم العرب جزئيًا بأنه قدر خبيث. ولكن الرب كان قد تخلى عن شعبه لأن حكام الفيزيقوط بإخفاقاتهم الأخلاقية قد حطوا من شأنهم. وقد تخلل موضوع الشهوة المؤدى إلى الخيانة نسيج الرواية. «فى البلاط الملكى فى أشبيلية. بدأوا يتحدثون. بين أمور أخرى، عن جمال النساء. وتدخل أحد أولئك الحاضرين ليقول إنه ليست هناك امرأة فى الدنيا بأسرها تفوق فى جمالها ابنة الكونت چوليان (وهو شخصية ضبابية. يفترض أنه كان قائد سبتة، التى كانت مقاطعة بيزنطة فى شمال أفريقيا). وعند سماع هذا طلب الملك من مستشاره الرئيسى البحث عن الوسيلة التى يمكنه بها أن يرسل سرًا فى طلبها حتى يمكنه رؤيتها. وكانت نصيحة ذلك الرجل أن يرسل إلى چوليان لكى يحضر إلى هناك ليقضى بضعة أيام معه فى الأكل والشرب. وبينما كان چوليان يستمتع بالضيافة. كتب الملك خطابا باسم الكونت چوليان مصحوبا بالخاتم الشخصى للكونت، يأمر الكونتيسة بالحضور إلى البلاط مع ابنتها أوليفا Oliva وعندما وصلتا أغوى الملك أوليفا «وضاجع الفتاة بشكل غير شرعى عدة أيام»[9].

كانت قصة الملك الفيزيقوطى تردد صدى القصة الواردة فى الكتاب المقدس عن الملك داود الذى هام بامرأة تسمى بتشبع(*) وانحط شأنه بسبب ذلك [10]. لقد كان سقوط داود كما يحكيه سفر صمويل الثانى بنبوءة تقول. «والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة»(**) إن

(*) القصة كاملة عن بتشبع التى هام بها داود وضاجعها فى غياب زوجها فى الميدان ثم دبر مؤامرة للتخلص منه (سفر صمويل الثانى :١١. المترجم)

(**) صمويل الثانى :١٢–١٠ (المترجم)

شهوة الملك العبرى جلبت عليه العقاب هو وشعبه. وفى إسبانيا، كان جميع المشاركين فى هذه الكارثة غارقين فى مستنقع الرذيلة بقدر متساو. بيد أن خطايا المسيحيين كانت قد سمحت بحدوث شر أعظم، الغزو الإسلامى، وسمحت بانتصاره. وبات الفتح أسطورة مسهبة موسعة.

«إسبانيا ... نسيت أغانيها وتغيرت لغتها إلى كلمات أجنبية وغريبة. ارتدى المسلمون الحرير والثياب الملونة التى غنموها، وكانت أعنة خيولهم مثل النار وكانت وجوههم سوداء قاتمة. وكان أكثرهم وسامة فى سواد قدر الطهو، وعيونهم تشع مثل النار؛ وخيولهم سريعة مثل الفهود، وكان فرسانهم قساة مؤذين أكثر من الذئب الذى يأتى ليلاً لالتهام الغنم»[١١].

ويصير التهديد والوعيد الذى يسوقه المؤرخ أكثر كثافة ودرامية وهو يمهد لعمله. فقد أعلن أن هذا الطمس المادى والأخلاقى والثقافى لأمة بأسرها، جاء من الشر الكامن فى الإسلام. لقد كان المؤرخ محددًا. ليس هناك انحلال أخلاقى يفوق ما يتسم به أعداء المسيح هؤلاء [١٢].

لقد كان هذا أيضا تاريخًا تمت صياغته لكى يقدم أصلاً لملوك إسبانيا المسيحيين فى المستقبل[١٣]. ففى داخل هذه السرديات تم إسقاط الانحطاط الأخلاقى للمسلمين على إخفاقات القيزيقوط، وصاروا جميعا كلاً واحدًا. إذ لم يعد الملك رودريك مسيحيًا حقًا، ولكنه صار مثل مسلم فى شهوانيته التى لا يمكنه السيطرة عليها [١٤]. وكان النذل الأكبر الأسقف أوبا Oppa من الخط الملكى الملوث. فقد كان أوبا قد تحالف مع الكفار، وسعى إلى إقناع بطل مسيحى يقود مجموعة صغيرة من الوطنيين- هو الملك بيلايو King Pelayo، بالخضوع للجيش الإسلامى. وفى مؤرخة ألفونسو الثالث ملك أشتورياس، التى كتبت فى أواخر القرن التاسع الميلادى، جاء أوبا إلى بلايو فى كهف تحف به الثلوج عند كوڤادونجا Covadonga، فى أعالى الجبال الشمالية الغربية، وحاول الأسقف أن يقنعه بالاستسلام، ورد بلايو على هذا باحتقار:

«ألم تقرأ فى الكتاب المقدس أن كنيسة الرب يمكن ان تصير صغيرة مثل حبة خردل ويمكن حينئذ أن تكون. برحمة الرب، صالحة لأن تنمو مرة أخرى لتكبر؟ وأجاب الأسقف «هكذا هو المكتوب» وقال بيلايو. «المسيح هو أملنا إنه بهذا التل الضئيل الذى تراه، يمكن إنقاذ إسبانيا وإعادة جيش الشعب القوطى. ومن ثم فإننى أثق فى أن وعد الرب سوف يتحقق فينا كما كان قد أعلن من خلال داود ... فى المعركة التى هددتنا بها معنا ربنا يسوع المسيح ليدافع عنا أمام الإله الأب، وهو قوى بما يكفى لأن ينقذنا نحن القلة منهم» [١٥].

لقد أدى احتقار بلايو للعرض. ومقاومته النبيلة. وانتصاره النهائى. بشكل مباشر إلى تأسيس مملكة آشتورياس Asturias ومن ثم البيت الملكي في قشتالة. وفى عالم الأحلام هذا الذى يوجد فيه الخير والشر، كانت قشتالة تجسيدًا للتراث الحقيقى للفيزيقوط «الأخيار». لقد كان رودريك وأوبا يشتركان في الدم نفسه، ولكنهما كانا قد فقدا فضيلتهما وشرفهما الموروثين بسبب خستهما. لقد صارا مسلمين فى السر. لقد كان ملوك قشتالة هم الذين حملوا التراث المشرف للڤيزيقوط فى عروقهم وكان العرب أو المسلمون بلا خلاف هم وكلاء الشر. لقد كان هناك مسلمون فى كتب التاريخ هذه تصرفوا على نحو مشرف. بيد أن هذه الاستثناءات كانت تستغل لكى تخفف من وطأة الأذى المسيحى.

وغالبا ما تكون هذه الروابط بين الماضى الأسطورى ومجال التاريخ مجرد تخمين. ولكن فى حالة الأسقف أوبا هذه نعرف أن الأسطورة ذاعت على نطاق شعبى. فبعد قرون من الفتح، وفى سنة ١٤٦٥م، وفى أثناء حرب أهلية جرت فى قشتالة، كان الملك إنريك الرابع King Enrique IV قد خلع رمزيا فى أڤيلا Avila على يد مجموعة من النبلاء المنشقين. وتم إجلاس تمثال للملك على كرسى. وقد تم تنفيذ فعل الخلع على يد كبير الأساقفة كاريللو Carrillo، الذى أخذ التاج عن رأس تمثال الملك. وأخذ نبيل آخر السيف من يده؛ وقام ثالث بضرب تمثال الملك بعيدا عن العرش المزعوم[١٦]. وانتشرت أخبار هذا الحدث بسرعة في جميع أنحاء قشتالة. وبعد شهور قليلة

كان جنود إنريك يحاصرون قلعة سيمانكاس **Simancas** وأقاموا احتفالاً وموكبًا للسخرية من الأحداث التي جرت في آڤيلا. بيد أنهم لم يعطوا كاريللو اسمه أو لقبه الحقيقي. وإنما سموه أوبا لكي يربطوا بينه وبين الخائن الأكبر لبيلايو قبل ما يزيد على سبعة قرون من الزمان[١٧]. وقد بينوا على هذا النحو مدى عمق خيانه كاريللو .

وخيط الشر الذي يجري في هذه السرديات. على السطح أحيانا وتحت السطح في غالب الأحيان. كانوا هم المسلمين. فقد كانوا بمثابة الابتلاء والامتحان الذي أرسله الرب إلى شعبه، ولن يدمرهم سوى ملك مسيحي مؤمن بالرب يتحلى بالفضيلة. أي بيلايو جديد[١٨]. ومثل اليهود الذين كان ينظر إليهم على أنهم البديل أو التابع لهم في أغلب الأحيان، وعلى النحو الذي جاءوا به في روايات سقوط القديس، كان المسلمون تجسيدًا للشر. لقد استخدم الرب المسلمين مثل عصا غليظة ليضرب بها شعبه ويعيدهم إلى الفضيلة.

* * *

ونحن بحاجة إلى ترسيخ حقيقة إسبانيا المسيحية في مواجهة الدعاية القشتالية المخترعة بدهاء. فعلى مدى ما يقرب من خمسمائة سنة. ٧٢٠ إلى ١٢٠٠ تقريبا. كان المسلمون سادة على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية. وقد أسموها «الأندلس» أي أرض الوندال **Vandal**. وتعززت أعدادهم على فترات بموجات جديدة من الفاتحين من شمال أفريقيا. بيد أن أعداد الفاتحين المسلمين كانت قليلة. لم يكن عددهم يزيد على عشرين ألفا في الموجات الأولى– وفيما بعد لم يكونوا أكثر من قشرة رفيعة. أشبه ما يكونون بالطبقة الحاكمة من الفيزيقوط، على قمة عدد كبير من السكان المسيحيين الكاثوليك. ولكن هذه الشريحة من المسلمين كانت منقسمة بحد ذاتها ما بين البربر والعرب. فقد كان البربر هم السكان الأصليين في الأقاليم الجبلية بشمال أفريقيا. الذين أعاقت مقاومتهم العنيدة الجيوش العربية المتقدمة من الشرق. وكان اعتناق البربر الإسلام حديثا للغاية، وكانت الكثير من عوائدهم قبل الإسلام تلازمهم في عقيدتهم الجديدة.

أما العرب الذين كانوا يرجعون بروابطهم إلى القبائل القديمة فى شبه الجزيرة العربية، فكانوا ينظرون باستعلاء إلى البربر. ولم يكن من قبيل المصادفة أن أفضل الأراضى وأغنى المدن في إسبانيا كانت من نصيب العرب، على حين كانت المناطق الجبلية والمناطق الأشد فقرًا هى التى سكنت بها العشائر البربرية. هذا التقسيم. على الرغم من أنه كان محجوبا وراء نجاح المؤسسات الإسلامية فى إسبانيا. كان بمثابة القوة الدافعة إلى عدم الاستقرار في داخل الثقافة الإسلامية بإسبانيا .

كانت إسبانيا الإسلامية تبدو قوة صلبة وموحدة. ولكن هذا لم يكن حقيقيًا سوى فى جزء منه. فقد كانت هناك الكثير من الشروخ داخل البناء. وكانت بعض هذه الشروخ قبلية، لأن العرب كانوا دائمى الشجار فيما بينهم. كما أن البربر كانوا متململين وغالبا ما كانوا يتمردون على المزاعم العربية. وبمجرد أن تلاشت السلطة المركزية. تشرذمت الوحدات السياسية. وهكذا كان هناك على مدى هذه القرون الخمسة ثلاث فترات فقط من الوحدة الإجبارية ولم تدم كل منها سوى وقت قصير نسبيًا. كانت الفترة الأولى تحت حكم الإمارة. التى صارت خلافة قرطبة فى القرن العاشر الميلادى. وكانت الثانية والثالثة تحت سيادة المرابطين والموحدين السلالتين الحاكمتين المغربيتين فى أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر[١٩]. ولكن هذه الفترات كانت محاطة بسنوات طويلة من الفرقة والحرب الأهلية. وفى هذا الصدد تشابهت الدولة المسلمة مع الممالك المسيحية القائمة فى الشمال، والتى كانت ميالة إلى التقاتل فيما بينها مثلما كانت تحارب ضد عدوها المشترك المزعوم.

وعلى الرغم من أن الدول الإسلامية كانت تسمى شبه الجزيرة كلها «الأندلس»، فإن نهرى الإبرو Ebro والديورو Duero فى الشمال كانا يشكلان خط التقسيم الفعلى بين الحكم الإسلامى والحكم المسيحى. وإذ واجهت دويلة بيلايو المسيحية المستقلة التقدم الإسلامى المندفع. وجدت لنفسها النجاة فى رحاب الجبال العالية شمال غرب إسبانيا. واقتفت الأساطير تراثا متصلاً من الحكم المسيحى من جبال أشتورياس هذه حيث «كانت ما تزال هناك شرارة حيوية. فقد فضل بعض الهاربين ذوو العزم حياة الفقر والحرية فى وديان أشتورياس. الجبال الوعرة التى صدت عبيد الخليفة»[٢٠]

على حد تعبير إدوارد چيبون Edward Gibbo. والحقيقة أن الطوابير العربية كانت أكثر اهتمامًا بالاندفاع إلى الأمام عبر جبال البرينيس إلى داخل فرنسا منهم بالقتال فى الجبال. وبحلول سنة ٧١٧م، كان العرب، قد وطدوا أنفسهم حول مدينة ناربون Narbonne التى استولوا عليها سنة ٧١٩م، ومن قاعدتهم الجنوبية شنوا إغارات واسعة النطاق فى العمق الفرنسى حتى معركة تور سنة ٧٣٢م عندما تمت الإطاحة بجيش من الغزاة المسلمين من إسبانيا على يد الفرنجة بقيادة شارل مارتل Charles Martel [٢١]. وفى تاريخ فرنسا تبدو هذه معركة كبيرة. «وقف رجال الشمال صامدين بلا حراك مثل السور: كانوا مثل حزام جليدى وقد تجمدوا سويًا. ولا يمكن تفريقهم. عندما ذبحوا العرب بسيوفهم»[٢٢] وقد صار الانتصار على المسلمين عند تور[*] فى عيون الغرب نصرًا نمطيًا. تم إحرازه مثل معركة «لاس ناڤاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa» سنة ١٢١٢م. أو معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م، وله معنى رمزى كبير. ولكن الحقيقة. وعلى الرغم من أن هذه الإغارات الشمالية استمرت على مدى بعض السنين بعد الفتح، فقد قنع المسلمون بترسيخ حكمهم فى الجنوب. إذْ كانت معظم الأراضى شمال الخط النهرى أرضا قاحلة جدباء. وسرعان ما صارت أرضا بلا صاحب تتناثر فيها المدن والقلاع. كان بعضها يدين بالولاء الاسمى لملك مسيحى، والبعض الآخر يدين بالولاء لأمير قرطبة أو خليفتها.

فى هذه الأراضى الإسبانية الشمالية، توسعت النواة الصغيرة فى جبال أشتورياس صوب الشرق لتصير مملكة ليون Leon، وعاصمتها أوفيدو Oviedo وكانت الحدود بين ليون والجنوب المسلم معروفة باسم. «أرض القلاع». قشتالة Castile– لأنها كانت منطقة تعج بالأبراج والحصون. وسرعان ما صارت قشتالة أكبر وأقوى من أمها ليون. وإلى الشرق من قشتالة كانت مملكة أرجون Aragon. التى بدأ وجودها عند سفوح جبال البرينيس وتوسعت فى بطء نحو الجنوب وشرقًا

(*) تعرف فى المصادر العربية بمعركة بلاط الشهداء. وكان قائدها عبد الرحمن الغافقى. (المترجم)

باتجاه البحر المتوسط. وهناك جابهت بلاد برشلونة الفرنجية وحدود مملكة ڤالنسيا الإسلامية. وبمرور الزمن اندمجت هذه فى أراضى أرجون. وبمنتصف القرن الرابع عشر، كانت إسبانيا المسيحية تتكون من خمس ممالك: البرتغال فى الغرب؛ ليون، قشتالة تتمددان بالوسط؛ مملكة ناڤارا Navarra الضئيلة (جزء منها شمال جبال البرينيس وجزء جنوبها)، أرجون، بما فيها قطالونيا، وڤالنسيا التى كانت مملكة إسلامية قبل ذلك (التى فتحها الملك چيمس الأول ملك أرجون فى سنة ١٢٣٨م) التى احتلت معظم المنطقة الساحلية المطلة على البحر المتوسط.

كانت المدن ومعظم الأرض المنتجة فى الجنوب بيد المسلمين: قرطبة ثم إشبيلية فيما بعد فى الأرض الخصبة المسطحة حول النهر الكبير، وقرطبة ومعها فيجا Vega التى كانت تنتج تقريبا كل أصناف الفاكهة، وجميع الكروم، والحدائق حول ڤالينسيا التى وصفها أحد الكتاب بأنها الفردوس [٢٢]. كذلك امتدح الكتاب المسيحيون أرضهم على أنها الفردوس، ولكن بمبررات أقل كثيرًا، لأنهم كانوا يمتلكون قليلاً من الوفرة الزائدة التى كانت بأيدى المسلمين فى الجنوب، وحيث تطلبت الطبيعة العون والمساعدة، ابتدع الجنوبيون نظامًا شاملاً للرى، يشبه إلى حد كبير نظم الرى الموجودة فى بلاد الشام ومصر. فقد جعلت الشمس المشرقة والمياه المتدفقة من الجنوب إحدى أفضل المناطق الزراعية فى العالم المعروف آنذاك. وكانت بؤرة هذه الثروة، هى العاصمة، قرطبة، على الرغم من أن المراكز الحضرية، من سرقسطة فى الشمال، مرورًا بطليطلة فى قلب شبه الجزيرة، إلى المدن فى الشرق والجنوب، كانت غاصة بالمبانى الجديدة والممتلكات الثمينة.

كان الكثير من هذه المبانى الإسلامية قد بناها المسيحيون الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامى والذين عرفوا باسم الموزاراب Mozarabes، أى «المستعربين». وفى القرن الأول بعد الفتح الإسلامى شكلوا أغلبية كبيرة فى المدن الإسلامية، وفى بعض أجزاء الريف. وهكذا، كان سكان الأندلس فى القرن التاسع الميلادى يتألفون من أربعة عناصر رئيسية: الفاتحون المسلمون، من العرب والبربر، والمسيحيون المستعربون

واليهود. وكان المستعربون من سكان إسبانيا الرومانية والغزاة الفيزيقوط الذين كانوا قد عبروا جبال البرينيس فى القرن الخامس الميلادى. ويكتنف الغموض تاريخ قدوم اليهود إلى إسبانيا للمرة الأولى. فقد زعم البعض أنهم وصلوا أول مرة زمن الأسر البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد، على حين يزعم البعض الآخر أنهم كانوا قد هاجروا صوب الغرب بعد أن دمر الرومان القدس سنة ٧٠ ميلادية. وأول دليل مادى على وجودهم مقبرة امرأة يهودية عند آدرا Adra من القرن الثالث الميلادى. وقد عانى السكان اليهود اضطهادات قاسية تحت حكم ملوك الفيزيقوط. وهكذا كان الفتح الإسلامى بمثابة تحرير لهم من ربقة الاضطهاد.

وفى الغالب الأعم، وبغض النظر عن الانفجار بين الحين والآخر للخصومة المتبادلة. فقد عمل الجميع على العيش جنبا إلى جنب. وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإسلامى اعتنق الكثير من المسيحيين الإسلام واكتسبت الثقافات سمات مشتركة، على حين ظلت تحتفظ بهوياتها المتمايزة والمنفصلة[٢٤]. وكما كان الحال فى شرق المتوسط، حيث بات من المتعذر التمييز بين المسيحيين العرب والجمهرة الأكبر من السكان المسلمين، تلاشت أيضا فى الأندلس الفروق السطحية بين الجماعات. فغالبا ما اتخذ اليهود والمستعربون اللغة العربية لسانًا. على حين تخلى البربر أيضا عن اللهجات المحلية لصالح العربية (ومن الواضح مع هذا أنهم احتفظوا باللهجة البربرية)[٢٥]. ومع هذا بقيت الجماعات متمايزة. فقد حافظت على عاداتها وتمسكت بقوانينها الخاصة[٢٦]. كان هذا التوافق الفريد والمتناقض التى أعطاه أميركو كاسترو Américo Castro فيما بعد اسم «التعايش Convivecia».

وكثير من العلاقات المتبادلة المتنوعة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية التى تجلت فيما بعد فى أماكن أخرى ظهرت فى إسبانيا أولا. ومع هذا. فإنه بسبب عزلة شبه الجزيرة فيما وراء جبال البرينيس وتحتها. فإن هذه التجربة لم تستلفت انتباه أحد إلى حد كبير. وعلى أية حال، فإننا إذا قرأنا تجربة إسبانيا فى ضوء تجربة البلقان وشرق المتوسط، فسوف تظهر على السطح العلاقات، والمشابهات. والمتوازيات.

وطوال تاريخ الأندلس الطويل كانت هناك خاصية مستمدة أسماها رون باركاى Ron Barkai. «العدو فى المرآة» [٢٧]. فعلي مدي ما يزيد على ثلاثمائة سنة عاش المسلمون الأندلسيون وعاش المسيحيون واليهود بينهم [٢٨]. ثم فى أثناء إعادة فتح إسبانيا على أيدى رجال القبائل تحت حكم المرابطين والموحدين المسلمين المتشددين. فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، تلاشى العنصر المسيحى والعنصر اليهودى فى إسبانيا بسرعة. فالمسيحيون الأندلسيون إما اعتنقوا الإسلام أو اضطروا للهجرة شمالاً إلى الأراضى المسيحية[٢٩]. وفى خلال تلك القرون الباكرة كان نموذج العيش سويا ناجحًا. باستثناء أولئك الذين كانوا يريدون إبراز الاختلافات الدينية. ولكن بحلول القرن الثالث عشر، اندفعت المملكة المسيحية الرئيسية. قشتالة، جنوبًا صوب قرطبة. لكى تغزو الجزء الأكبر من الدويلات التى كانت إسلامية ذات مرة، كان مبدأ «العيش سويا Convivencia» قد أشرف على الموت بالفعل، أو مات، وتوقف تمامًا، فى مناطق عديدة من الأندلس. فعندما عاد المسيحيون إلى الجنوب، وجاءوا حكامًا. باعتبارهم المجموعة السائدة وليسوا الجماعة الخاضعة. وصارت غرناطة فى الشرق المملكة الإسلامية الكاملة الوحيدة فى إسبانيا، وملاذًا لجميع المسلمين الذين لم يرغبوا فى أن يعيشوا تحت حكم حاكم مسيحى. وبسرعة تم القضاء على معظم آثار «العيش سويا». ولكن فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر فقط تحركت إسبانيا المسيحية المنتصرة فى ثبات صوب محو العناصر غير المسيحية ضمن سكانها[٣٠].

ومع هذا. بغض النظر عن السيادة الإسلامية أو المسيحية، كانت شبه الجزيرة فى العصور الوسطى تضم أكثر من ثقافة. وحقيقة أن ثلاث جماعات متعلمة متحضرة عاشت جنبًا إلى جنب داخل الدولة نفسها كانت صدفة ناتجة عن الفتح، وتسببت فى مشكلات بلا نهاية لكل من الباحثين المسلمين والباحثين المسيحيين، الذين حاولوا مثابرين إثبات أن هناك فجوة لا يمكن عبورها بين العالمين. وثمة عالم مسلم عاش فى أخريات القرن الخامس عشر من شمال أفريقيا، هو الونشريسى، وصف المخاطر التى واجهها أبناء دينه فى إسبانيا بالأراضى المسيحية بين الكفار:

إذ قال إن على المرء أن يحترس من التأثير الهدام لطريقة حياتهم، ولغتهم ولباسهم. وعاداتهم الكريهة، والتأثير على الناس الذين يعيشون معهم فترة طويلة من الزمن، مثلما حدث مع أهل أفيلا Avila وغيرها من الأماكن. فقد ضاعت منهم لغتهم العربية، وعندما تموت اللغة العربية، كذلك يموت الإخلاص لها. وهناك إهمال بالضرورة للعبادة التى يتم التعبير عنها بكلمات عربية بكل ما تتسم به من غنى وفضائل باهرة... إن العيش مع غير المؤمنين غير مسموح به. ولا لمدة ساعة أو يوم، بسبب كل القذارة والدنس الذى ينطوى عليه، والفساد الدينى والدنيوى على السواء، والذى يستمر طوال الوقت[٣١].

وقد عبر العلماء المسيحيون عن احتقار مشابه للمسلمين. وبما أن هذا القدر الكبير من الخصومة كان قد تم التعبير عنه في كل من الاتجاهين، فكيف وجد «العيش سويا» (وازدهر) على مدى هذه القرون كلها. وما الذى تسبب فى نهايته؟

فبالنسبة للمسلمين والمسيحيين على السواء كانت تجربة العيش بالقرب من غير المؤمنين تبعث على القلق. فقد كانت العادات الاجتماعية لكل جماعة تسعى إلى تقليل العلاقة مع أتباع الدين الآخر إلى الحد الأدنى. وغالبا ما تحدث كل منهما عن الآخر فى مصطلحات الخوف والاحتقار أحيانًا. فقد كانت الترتيبات فى أشبيلية القرن الثانى عشر بفعل تأثير المرابطين الزهاد من شمال أفريقيا تقرر أنه على النساء المسلمات :

«يجب منعهن من دخول كنائسهم البغيضة. لأن القسوس أشرار، زناة، لوطيون. ويجب منع النساء الفرنجيات من دخول الكنيسة سوى فى أيام الخدمات الدينية أو الاحتفالات لأن من عاداتهن أن يأكلن ويشربن ويضاجعن القساوسة، الذين ليس من بينهم واحد إلا وله امرأتان أو أكثر ينام معهن. لقد صارت هذه عادة فيما بينهم، لأنهم قد أباحوا الحرام وحرموا المباح»[٣٢].

وبينما كان يمكن أن ينعم المسيحيون واليهود بالتسامح فى الأراضى الإسلامية، فإنهم كانوا مع هذا يجب تحاشيهم. والترتيبات نفسها قررت بصراحة أنه لا يجب على مسلم أن يدلك يهوديا أو مسيحيًا أو يلقى مخلفاته أو ينظف مراحيضه. فاليهودى

والمسيحى هما الأنسب لمثل هذه الأعمال. لأن هذه أعمال أولئك الذين يتسمون بالدناءة». وعلاوة على ذلك، فإن الثوب المملوك لمريض يهودي، أو مسيحى لا يجب بيعه دون الإشارة إلى أصله، وكذلك الثوب الذى يملكه فاسد ماجن» [٣٣]. والسبب فى هذا التقييد، مثلما هو فى جميع القيود الأخرى، كان سببًا عمليا. إذ إن كل هذه الاتصالات كان يمكن أن تتسبب فى النجاسة، وكل هذه المواجهات المادية كان يمكن أن تعبر الحدود ما بين المباح والحرام.

كانت المخاوف نابعة من التجاور، ولكنها لم تكن نابعة بالضرورة من التجربة المباشرة فقد كان القساوسة الزناة (يصر ابن عبدون الذى كتب التعاليم الأشبيلية على أن كل القساوسة كانوا زناة) بمثابة تعبير مجازى عما سيحدث إذا ما تم انتهاك الحواجز الاجتماعية. فيصيرون تهديدًا للنساء المسلمات والمسيحيات على السواء. بل الأسوأ من ذلك، أن يصير القساوسة خطرًا على النظام الاجتماعي عامة، لأن الرجال المسلمين واليهود والمسيحيين، على حد سواء، كانوا يعتبرون النساء نقطة الضعف ومصدر الهلاك. وحسبما لاحظت عالمة الأنثروبولوچيا مارى دوجلاس Mary Douglas، التى كتبت عن المحرمات فى الثورات اليهودية:

«لم تكن النجاسة مسألة منفصلة على الإطلاق. فلم تكن لتحدث سوى من منظور فكرى تراتبى. ومن ثم فإن أى تفسير جزئى لقواعد النجاسة فى ثقافة أخرى مآله الفشل. إذ إن الطريقة الوحيدة التى تكتسى بها أفكار النجاسة معنى تتمثل فى الاحتكام إلى بناء كامل يضم الأساس والهوامش والخطوط الداخلية فى علاقة واحدة تجعله منفصلاً» [٣٤].

داخل هذا البناء شكلت الحدود التعريفات الدينية لكل من المسلم واليهودى والمسيحى. ذلك أنه دون الفصل الفعال بينهم تكمن مخاطرة لا يمكن التحكم بها تهدد الاستقرار الاجتماعى. ودون التحريم كانت المخاوف بين المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء من تجاوز حاجز النجاسة. وكما هو الحال فى كثير من المجتمعات، كان التعدى الجنسى هو الأشد شحنا من الناحية العاطفية كما أنه أشد الأخطار

المباشرة. فقد لاحظ الفقهاء المسلمون الضعف الذى يعترى الرجال عندما يواجهون النساء ولكنهم وجهوا اللوم إلى النساء بسبب الإغراء. لقد وجدت الرغبة فى الفصل داخل كل جماعة، لأنها رأت فى الآخرين خطرًا محتملاً. ومع هذا فإن الرغبة فى البقاء منفصلة لم تكن بالضرورة نشاطا ينم عن الخصومة أو عن موقف عدائى. فقد كانت الجماعات تنتمى إلى طوائف مميزة ومنفصله. وكلمة «طائفة» **Caste** ترتبط اليوم بالديانة الهندوسية الهندية. وقد أخذها البرتغاليون إلى الهند فى القرن السادس عشر، واستخدموها للتواصل- بشكل غير كامل- مع البناء الاجتماعى المركب الذى وجدوه هناك. ولكن فى اللغات الموجودة بشبه جزيرة إيبيريا تعنى الكلمة «قرابة الدم» أو «العشيرة». أى يشتركون فى رابطة عامة ولكنهم أيضا يظهرون اختلافات عميقة فيما بينهم. وقد وجد عالم فقه اللغة الإسبانى الرائد رامون ميناديز بيدال **Ramon Meneedez Pidal**. فى دراسته التى قام بها فى بواكير القرن العشرين عن تطور اللغة الإسبانية، أن المفهوم وفر تشابهًا مفيدًا فى وصف العناصر المختلفة المكونة لثقافة شبه جزيرة إيبيريا اللغوية. وغالبا ما لايكون هناك شيء يربط بينهما. بمصطلحات العرقية، ولكنه رأى هذه العناصر بوصفها «طوائف» منفصلة داخل إطارى ثقافى مشترك، مرتبطًا فى داخله ولكنه منفصل أيضا[٣٥]. ويتوافق هذا مع تعريفات أكثر حداثة «للطائفة»، هو نوع من التقسيم الاجتماعى الذى يقوم فقط على سلالة تجبر الشخص كليا على انتهاج أسلوب حياة معين[٣٦]. ولهذه الأسباب جميعًا تبنيت هنا هذا الاستخدام.

ولا يمكن أن نكون متأكدين تمامًا كيف كان المسلمون والمسيحيون واليهود ينظرون إلى بعضهم بعضا. ومن المؤكد أن عبارات العداء كانت هى السائدة. بيد أن هذه قد لا تمثل حقيقة الحياة اليومية[٣٧]. بيد أن جميع الأدلة المتاحة تشى بأنه عندما لم تكن هناك خصومة نشطة كانت الجماعات تريد أن تبقى منفصلة. وعلاوة على ذلك، فإن ما يسميه داڤيد نيزنبرج **David Nizenberg** «الخلفية الثابتة» للعنف «لم تتراجع أبدا عن الوعى العملى. فقد أثرت على الأفعال اليومية واستراتيجيات الأقلية والأغلبية على السواء: ما الملابس التى يجب ارتداؤها. ما الطريق التى ينبغى اتخاذها غى

الذهاب إلى العمل، كيف يمكن توجيه الاتهام إلى عدو بارتكاب جريمة- وتمتد القائمة إلى ما لا نهاية[٣٨]. وغالبا ما كانت الآراء السلبية التى احتفظت بها كل جماعة عن الجماعات الأخرى متبادلة. فقد كان المسلمون يعتقدون فى أعماقهم بأن هناك إباحية جنسية لدى الطوائف الأخرى[٣٩]. وكان المسيحيون يعتقدون الاعتقاد نفسه عن الحياة الجنسية لدى اليهود والمسلمين. وفى آخر مواد القانون القشتالى فى بواكير القرن الرابع عشر Siete Partidas يعتبر المشرعون قضية الرجال اليهود الذين يضاجعون امرأة مسيحية. «اليهود الذين يعيشون مع نساء مسيحيات مذنبون على قدر كبير من الصفاقة والجرأة. ولهذا السبب نقرر أن جميع اليهود الذين قد تتم إدانتهم. من الآن فصاعدًا. بارتكاب مثل هذا الأمر، يجب إعدامهم»[٤٠]. وكان المسلمون يخضعون للعقوبة نفسها. وفى جميع مجتمعات العصور الوسطى كان التعدى الجنسى يعتبر هداما للنظام الاجتماعى بأسره. وقد صدر مرسوم إنجليزى فى ١٤١٧م يعلن أن «الأعمال المحظورة قانونا التى يمارسونها بواسطة أجسادهم الفاجرة تستوجب سخط الرب وغضبه العظيم»[٤١]. ولكن بالنسبة للمسيحى واليهودى والمسلم على السواء، كانت الأفعال الجنسية عبر حدود الطوائف تشكل نظامًا أكبر من الأفعال الشريرة، تقترب من اللواط. وينقل بيتر داميان Peter Damian فى ذمه للأفعال اللواطية فى كتابه الموسوم Liber Comorrhianus (حوالى ١٢٥٠م) موقفا يمكن تطبيقه على كل الأفعال الحسية المحظورة. «إنها تلوث الجسد: إنها تخمد ضوء العقل ... إن هذه تنتهك الوقار. وتقتل التواضع. وتخنق الطهارة وتذبح العذرية التى لا يمكن إصلاحها بخنجر العدوى القذرة. إنها تدنس كل شيء، وتلطخ كل شيء. وتلوث كل شيء... إنها لا تسمح لشيء بالنقاء. ولا تبقى شيئًا نظيفًا، ولا تبقى على شيء سوى الجسد»[٤٢].

وهناك عدد لا حصر له من الشراك والعوائق كامنة فى قلب مبدأ «التعايش». إذ إن الإغراء الجنسى عبر حدود الطائفة كان هو الأخطر والأشد إفسادًا. وعلى أية حال، يجب علينا أن نقرأ مجموعات القوانين والممنوعات ليس باعتبارها تمثيلاً لما حدث بالفعل وإنما باعتبارها جهدًا لمنع المخاطر الناجمة عن التقارب الخارج عن السيطرة.

ولم يحرم الإسلام أبدا الزواج بين الرجال المسلمين والنساء من الطوائف الأخرى، على حين كانت المحظيات والجوارى تستخدم جنسيًا من جانب الرجال دونما اعتبار لدياناتهن. وبحكم الشريعة كان من المفروض أن أولاد الرجال المسلمين يتبعون دين أبيهم. ولكن حقائق الحياة الإنسانية. في الماضى كما في الحاضر. لم تكن دائمًا متماشية مع ما يقرره القانون. وكل تلك الأمثلة التى سقتها من فترة كان فيها مفهوم المجتمع المختلط نفسه يبدو خطيرًا إلى أقصى حد. وكانت هذه الجرائم، فيما أظن، نوعًا من المجاز الدال على المخاطر الكامنة في الاختلاط بغير المؤمنين باعتبار ذلك محاولة جادة لتحريم السلوك الفعلى[٤٣]. وفي عقول أصحاب الروح النقية الطاهرة فقط كان ثمة فصل مطلق أو عزل للمسيحى. أما اليهودى أو المسلم فكان بوسعهم إحراز ما كانوا يسعون إليه بواسطة النص المقدس أو التهديد بالعقاب.

* * *

كانت طبوجرافية المدينة أو البلدة أو القرية في الأندلس مقسمة بإزاء خطوط غير مرئية. فقد كانت لكل جماعة منطقتها الخاصة، التى كان الأغراب قد يخاطرون بالهلاك إذا دخلوها. وبالمثل، فمن خلال اتفاق اجتماعى هش كانت هناك مناطق أخرى بمثابة أرض مشتركة. وربما كانت هذه المناطق طريقًا، أو سوقًا، أو الأماكن التى كان يتم فيها سحب المياه أو غسيل الثياب[٤٤]. ففى إسبانيا الإسلامية كان العامل القبلى مضافًا إلى وجود الطوائف الأخرى، وكان ذلك أيضا يمكن أن يؤدى إلى العنف. لقد كانت هناك كلمة فى اللغة العربية هى كلمة «نفرة» التى تدل على تكدير السلم فى السوق [٤٥]. ولم يكن ممكنا للتعايش أن يستمر سوى بقدر ما تبقى الحواجز المادية أو الثقافية مصونة لا تنتهك[٤٦]. وكانت هناك آنذاك فترات يتصاعد فيها التوتر الدينى أو الاجتماعى، يبرز فيها شعور التقسيم بين المسيحيين واليهود والمسلمين. ولكن الممارسة اليومية فى الحياة كانت أقرب إلى ما وصفه أميركو كاسترو بأنه : التكامل» [٤٧]. وفى تعريف التكامل يعول كاسترو على الأنماط الثقافية الشائعة لكل

من المسيحيين والمسلمين[٤٨]. «إن المسلم يشعر بنفسه فى أشياء. والمسيحى الإسبانى يشعر بأشياء فى نفسه، فى شخصه». وبالنسبة لكاسترو، كان المسلمون شعراء وحالمين، وكان المسيحيون ناشطين. «يتحدث الإسبانى عن نفسه، عن جسده. عن متعه وعن مصائبه. وكل شىء مبرر ويكتسب قيمة فى اللحظة التى يُنسب فيها إلى شخصه»[٤٩] وقد وجد من الصعب أن يحدد كيف تفاعل هذان الضدان. وعند التطبيق على هاتين الجماعتين المشاركتين فى الأندلس، بالحدود والحواجز التى لا تنتهى فيما بينهما والتى كان يتم عبورها على كلا الجانبين لتتفاعل كل منهما مع الأخرى، تبدو فكرة التكامل معقولة. لقد كانت قرطبة أو أشبيلية. بما فيها من مئات النواحى والأحياء تبدو ثوبًا مرقعًا .

لقد كانت المناطق العربية والبربرية والمسيحية واليهودية متجاورة جنبا إلى جنب. وحدودها مفتوحة إلى حد ما كما أنها ليست مفتوحة بدرجة ما [٥٠]. من المؤكد أنه من الناحية اللغوية وإلى حد ما على المستوى الثقافى. كان الناس المتنوعون فى المدن متكاملين بالمعنى المحدود الذى حدده كاسترو، بيد أنهم أيضا ظلوا منفصلين ومنعزلين داخل جماعاتهم المنفصلة. ولم يكن الدين دائما هو عامل الحسم الوحيد. فالعرب والبربر وكلاهما مسلمون، بقوا متباعدين فى عشائرهم. وكثيرا ما حاربوا بعضهم بعضًا. وقبع المسيحيون واليهود داخل الحدود التى وضعت لهم فى الشريعة الإسلامية، ولكن حتى داخل جماعاتهم كانت هناك درجات متمايزة من الثروة والمكانة.

لقد اعتمد نجاح التعايش **Convivencia** على هذا التقسيم، على بناء اجتماعى مستقر كان يسمح بالتعددية. وعلى أية حال، لم تبرز «نظرية كبرى» فعالة من ثنايا التاريخ الطويل للأندلس بعد سنة ٧١١م، والحديث عن التعايش بوصفه كيانًا ثابتًا مستقرا. مثلما فعل كاسترو، خطأ. لقد كان بناء من التساهل كان يفتقر إلى التوازن الفعال فى القوة بين الأغلبية والأقليات. وعندما تغير توازن القوى، اختفت الأسس السابقة التى قام عليها التعايش. والحقيقة. أن الظروف كانت فى حال من التبدل المستمر بحيث أثرت على المعادلة بين أقلية السكان وغالبيتهم.

ولكنها أيضا حقيقة أن الدول الإسلامية الأولى، ثم المسيحية. بالمواصفات التى أشرت إليها بالفعل، قد نجحت فى توفيق أوضاع الأقليات فى شبه الجزيرة. وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى تعايش المسيحيون مع المسلمين فى الأندلس، وعلى مدى القرون الثلاثة التالية توصلت الدول المسيحية فى الشمال إلى ترتيبات براجماتية مع الأقليات المسلمة فيها. وعلى أية حال، كانت هناك فترتان من الضغط الشديد تم فيهما نسخ التوافق عمدًا. إحدى الفترتين كان فيها المسيحيون تحت وطأة التحدى بوصفهم أقلية داخل دولة إسلامية، والفترة الأخرى ترتبط بجماعة مسلمة تستعد للقتال داخل دولة مسيحية. وقد حدثت الأولى فى القرن التاسع فى قرطبة المسلمة حيث سعى المسيحيون عمدًا إلى الاستشهاد للتكفير عن فشلهم الباكر فى مقاومة المسلمين. وكانت الثانية فى إسبانيا المسيحية فى أثناء القرن السادس عشر، وكانت مملكة غرناطة القديمة مركزها الأول. وهناك أصدر المسيحيون المنتصرون مراسيم باتباع سياسة جذرية لدفع الجماهير إلى اعتناق المسيحية. وقد انتهت بعملية تطهير عرقى للتخلص من جميع نسل المسلمين. وسوف أناقش الآن الحكاية الأولى- شهداء قرطبة. وما صار يعرف باسم مشكلة الموريسكيين Morisco يظهر فى الفصول التالية. ولكنى أعتقد أن كلتيهما تكشف عن عواقب تهافت الفروض الكامنة التى كانت قد سمحت بنجاح التعايش. وهنا تبدو الدروس التى يمكن أن تفيد منها البلقان وشرق المتوسط واضحة للغاية.

لقد زاد السكان المسلمون فى الأندلس بسرعة كبيرة فى أثناء القرنين الأولين بعد الفتح. ففى القرن الثامن، كان المسلمون حامية صغيرة ومنعزلة. ولما تزاوجوا مع السكان المحليين زادت أعداد المسلمين بالمواليد بشكل ثابت. ولكن الشطر الأكبر من نمو المجتمع المسلم لم يكن بسبب المهاجرين من شمال أفريقيا أو أبنائهم، وإنما كان بسبب المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام. كانت هناك حالات إسلام فردية وحالات تحولت فيها مدن بأسرها وأحياء بكاملها إلى الإسلام، بيد أنه لم يكن هناك من اعتنق الإسلام كُرهًا. فقد كان مسموحًا لليهود والمسيحيين بممارسة شعائر دينهم ولكنهم كانوا مهمشين. خارج الجسد الرئيسى للمجتمع من الناحية الاقتصادية

والاجتماعية. وكانت المطالب التى يفرضها الإسلام على من يعتنقه لا تزيد عما تطلبه المسيحية من أتباعها. وكان اعتناق الإسلام خيارًا جذابًا، لأن غير المسلمين كانوا مواطنين من الدرجة الثانية داخل المجتمع الإسلامى. وكما رأينا. ففى الممارسة لم تكن هناك قيود شديدة الوطأة تفرض على اليهود والمسيحيين. ولكن الشعور بالدونية سواء كان مفروضًا بالقانون أم لا، لم يختف.

وفى منتصف القرن، على أية حال، كانت هناك محاولة بين المسيحيين الأكثر غيرة لأن يمنعوا تناقص أعدادهم وأن يشددوا على الفصل بين المسيحيين والمسلمين. فقد شكل شهداء قرطبة المسيحيون بسرعة ما سوف يطلق عليه النقاد الأدبيون مصطلح Topos، أى نقطة يسهل التعرف عليها تتمدد عندها حادثة تاريخية ما لكى تكتسب أبعادًا أسطورية أو خرافية. وقد صارت هذه الحوادث بالنسبة للمسيحيين رمزًا للعداوة الحتمية بين الثقافتين. فقد ضخموا من المتناقضات فيما بينهما لكى يضفوا نوعًا من الدرامية ويمتدحوا الهوية الثقافية لواحد من المجتمعين. ولكى يدينوا الآخر ويصموه بالشيطانية. وبمرور الزمن، وبالتراكم. تحولت هذه الحكايات من حقيقة تاريخية إلى شعور كامن لا إرادى بقوة غريبة، خطيرة، ومخيفة- صورة مركبة بنيت على أساس نبوءة فى الكتاب المقدس، وعلى الشخصية الغامضة للمسيح الدجال. وعلى تجربة يومية للوجود المسلم الذى بدا أنه يجسد هذه العناصر جميعًا. وفى هذا الاختلاق الأسطورى. تكون الأحداث- الفتح الإسلامى وحوادث الاستشهاد- مضافة مثل اللحم الجديد الذى يضاف إلى قدر طهو اللحوم[٥١]. إذ إنها تقوى الخليط وتمزجه لتخرج فى النهاية مطهوة على نار هادئة. وفى النظرية المسيحية كان هذا، بالفعل، التأثير الذى يعيد إحياء دماء الشهداء. عندما ينتشر ويبعث الجماعة المسيحية من مرقدها. لقد كانت حكايات الشهداء. بعد زمن طويل من تضحياتهم. أحد العناصر الأكثر قوة فى مستودع أسلحة المؤمنين الحقيقيين.

لقد كان كل فرد يفهم القصص بطريقته الخاصة. وربما يمكن تفسير العملية على أنها «نشر» بالطريقة التى قصد بها الفيلسوف الفرنسى چاك دريدا وضع هذا

المصطلح. ففي رأيه، أن الطريقة التي تستخدم بها اللغة تعني أن كل استخدام- نشر dissememindl. يعطل أي إمكانية لوجود معان ثابتة أو راسخة. ففي كل مرة تستخدم فيها كلمة ما تولد تراكما مختلفا وجديدا. وهكذا فإن استخدام اللغة يؤدي إلى عدم الثبات بشكل لا نهائي. «إن قوة تحطيمها وشكلها تفجر أفق المعاني». فليس هناك حد أو نهاية لعملية التحول هذه، وليس ثمة، من يخبرنا بما قد يكون معناها. ويسميها دريدا «تكاثر لا يمكن الحد منه وتعدد ذو قوة تكاثرية»[٤٢].

لقد وفرت حركة شهداء قرطبة في سياقها التاريخي (مثل أساطير الملك- البطل بيلايو) «تعددية ذات قوة تكاثرية». وكما سنرى. كانت إحدى حالات الاستشهاد تستفز حالة أخرى، ليس من خلال أية آلية واضحة ولكنها كانت تظهر تلقائيا ومع هذا كانت التلقائية محكومة بالطريقة التي كانت بها بذرة الاستشهاد تضرب بجذورها. وبالطريقة التي كانت تنتشر بها الأسطورة التي تتطور بسرعة. والمهم هنا ليس التفاصيل الدقيقة للحوادث التي جرت في قرطبة وإنما إمكانية اختلاق الأسطورة فيها. لقد كانت الأفعال الرمزية طنانة وفعالة في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد وقت طويل من السياق التاريخي الدقيق الذي ظهرت فيه ثم اختفت. وعند هذه النقطة صارت «نوعا أدبيا» يمكن تطبيقه في ظروف متعددة. وربما تكون الأفعال الرمزية، في الأسطورة والخرافة، أكثر قوة في بعض الثقافات منها في ثقافات أخرى. وتبدو إيبيريا (مثل البلقان وشرق المتوسط). على مرِّ القرون. خاضعة بدرجة كبيرة لهذه التأثيرات. حيث يدخل الماضي الميت في الحاضر الحي. وتبدو هذه العملية واضحة في قصص سقوط مملكة القيزيقوط والتي انتشرت وشكلت الأساس الذي قامت عليه أسطورة إسبانيا المسيحية.

إن سهولة الفتح والسرعة التي تحول بها كثير من المسيحيين المحليين إلى الإسلام أدت إلى نمو الأدب العربي المزدهر وإلى اضمحلال المجتمع المسيحي. وفي عيون المسيحيين الغيورين، كانت التضحية بالنفس وحدها التي يمكنها محو الذنوب المسيحية في المقام الأول. ولجعل تضحية الشهيد بحياته أمرًا أكثر إقناعا. كان لابد

من إبراز النتائج المرعبة للسقوط. ولم يكن هذا بالأمر السهل. فالأندلس. مع بعض الاستثناءات. كانت تلتزم بالأوامر القرآنية تجاه أقلياتها من غير المسلمين. فقد كان اليهود والمسيحيون يدفعون الجزية وكان مسموحًا لهم بممارسة شعائر دينهم. وكانت حركة الشهداء المسيحية في منتصف القرن التاسع احتجاجًا ضد الاستيعاب المتزايد، ورفضًا للتدهور البطيء لثقافتهم وديانتهم. وبين المسيحيين في مدن الأندلس الكبرى حلت اللغة العربية محل اللاتينية باعتبارها اللغة الراقية للثقافة. على حين كانت هناك لغة عربية دارجة، ولهجة رومانسية وبربرية قد صارت لغة الوطن والشارع[٥٣]. وصار قرطبي شاب. هو ألفاروس **Alvarus**. كاتب سيرة إيولوجيوس **Eulogius**. الذي كان هو نفسه الملاك الذي سجل أعمال الشهداء المسيحيين بقرطبة. لقد حملت كتابات ألفاروس إحساسًا عميقا بالخسارة في الثقافة المسيحية :

«يبتهج إخواني المسيحيون بالأشعار والحكايات العربية؛ وهم يدرسون أعمال الفقهاء المسلمين لا بغرض تفنيدها. ولكن لكي يحرزوا لأنفسهم أسلوبا عربيا رشيقا. أين يمكن اليوم أن نجد رجلا عاديًا يقرأ الشروح اللاتينية للكتاب المقدس. من الذي يدرس الأناجيل والنبوءات وأعمال الرسل. يا للأسف. إن الشباب المسيحيين الذين يلفتون النظر بمواهبهم لا يعرفون شيئًا عن أي أدب أو لغة أخرى غير الأدب العربي واللغة العربية ... يا له من أمر مثير للأسى. لقد نسي المسيحيون لغتهم الخاصة، ولا يكاد يكون هناك واحد بين الألف يمكنه أن يكتب لصديقه بلغة لاتينية سليمة»[٥٤].

وقد لاحظ ألفاروس موقفين تجاه الإسلام بين معاصريه المستعربين. ولم يكن يتحدث عن أولئك الذين خسروا الروح. «المولدين». أي المسيحيين الذين كانوا قد تحولوا إلى الإسلام. وقد اعترفت غالبية المسيحيين بقوة الثقافة الإسلامية، وسعوا إلى الإفادة منها. وكانت هناك أقلية تهدف إلى خلق حائط لا يمكن اختراقه حول الجماعة المسيحية. وبطريقة الجماعات المنشقة والثورية طوال التاريخ، كان أعضاء هذه الأقلية قد اختلقوا عدوا شيطانيًا ليكون أسطورة تساند مقاومتهم. وقد فعلوا هذا من خلال السلاح التقليدي لدى الضعفاء: أي الفعل الرمزي، أو الدعاية بالفعل.

وكان الفعل هو الاستشهاد. الذى كان مقدرًا له أن يخدم فى بناء أسطورة سوداء عن إسلام يقتل الشهداء. وفى هذه الصورة عن الإسلام. ساد عنصران: كان العنصر الأول الشهوانية والعنصر الآخر القسوة. وكان الإيحاء بأن القسوة الإسلامية لها شرورها المعتادة. فاغتصاب العذارى، وتدمير مذابح الكنائس والكتب المقدسة، والذبح الوحشى. كانت كلها جرائم متساوية. فما أن ترتكب إحداها حتى تستدعى حدوث الجرائم الأخرى. ويمكن تحديد التفاصيل الحقيقية لحركة الشهداء ببساطة. فعلى مدى تسعة أعوام. جاء ثمانية وأربعون من المسيحيين إلى عاصمة الأندلس. قرطبة. وتعمدوا أن يجلبوا على أنفسهم الموت العلنى بإهانة النبى محمد والزعم بأنه نبى مزيف. وبالمثل. كان التجديف وإعلان الكفر فى أى بلد غربى مسيحى، على نحو ما فعل الكثير من الهراطقة والوثنيين. يجلب بالضرورة أيضا عقوبة الإعدام. وكان أول من مات مختلفا إلى حد ما عن الآخرين، وتوضح قصته طبيعة العلاقة بين الجماعات الدينية فى المدينة قبل بداية حركة الاستشهاد. فقد كان قسيسًا مسيحيًا يسمى بيرفيكتوس **Perfectus**، وهو ما يعنى الكامل فى اللغة العربية. ولأنه كان مفوهًا فى اللغة العربية. فإنه غالبًا ما كان يتحدث مع المسلمين فى السوق. ويبدو واضحًا أن مسائل الاعتقاد والدين كانت محل مناقشات كثيرة. وذات يوم سأله جماعة من المسلمين عن رأيه فى نبيهم. وفى البداية لجأ إلى المراوغة لأنه كان يعرف الخطر، قائلا إنهم يريدون الإيقاع به لكى يدفعوا به إلى الموت. فأنكروا هذا، وضمنوا له ألا يدينوه. وعندها أخبرهم أن المسيحيين يعتبرون نبى المسلمين «خادم الشيطان».

لقد تخطى بيرفيكتوس الحدود بين ما كان مسموحًا به وما لم يكن كذلك. وليس هناك فى رواية ألفاروس ما يشير إلى سبب اتخاذه هذه الخطوة القاتلة. ففى البداية ترك أولئك الذين كان قد جادلهم الأمر يمر، ولكنهم بفعلتهم هذه صاروا متورطين فى تجديفه ومجاهرته بالكفر. وفيما بعد صاحوا فى السوق بأنه جاهر بالتجديف فى حق النبى[**]. ثم أخذ بيرفيكتوس إلى القاضى. وعندما تم إثبات الذنب الذى جناه بحسب الشرع. حكم عليه بالعقوبة الوحيدة الممكنة؛ الموت. وبعد عدة شهور وفى ١٨ أبريل سنة ٨٥٠م. تم إخراجه أخيرا للإعدام أمام جمهور يحتفلون بنهاية شهر

رمضان. وعندما واجه سيف الجلاد صاح بصوت عال عدة مرات. «نعم لقد لعنت نبيكم. وألعنه الآن...» وقال عبارات بذيئة ضد النبى وضد الحاضرين(*). ولم يسكته سوى فصل السيف وصوت الإعلانات الخشن الأجش.

وقد أخذ مسيحيو المدينة جسده من ساحة الإعدام وأعادوا فتح المقبرة القديمة لسانت أسيسكلوس Saint Acisclus. وهو قديس استشهد فى أثناء حكم الإمبراطور دقلديانوس (والذى أعيد دفنه بعد قرون فيما كان قد صار كنيسة بيرفيكتوس). وهناك أقيم احتفال كبير بقيادة أسقف قرطبة، وتم دفن الجثة باعتبارها جثة شهيد جديد بين عظام القديس. وكان هذا عملاً رمزيًا عميق المغزى، فمن الناحية المادية انضم بيرفيكتوس إلى قديس شهيد سبقه زمنيا. وبعد ذلك. بوقت قصير. تم جلد مسيحى آخر اسمه چون بعد اتهامه باتخاذ اسم النبى عبثا (٤٦). وكونه لم يواجه عقوبة الإعدام. على الرغم من أن كثيرا من المسلمين أدانوا هذا. يشير إلى أن السلطات القضائية لم تكن تسعى إلى القيام بعملية تطهير وطرد للمسيحيين أو إلهاب الرأى العام المسيحى. وبدلاً من ذلك. يبدو أن العكس كان صحيحًا. فقد فسر القاضى هذه الحادثة الجديدة بقدر ما أمكنه من اللين والتسامح. وناله النقد من جراء هذا.

كان خوف القاضى مبررًا. فقد بات المسلمون مستنفرين ضد المسيحيين. لأنهم رأوا أن المسيحيين كانوا يتعمدون السخرية من النبى. وفى حالة چون كان هذا حقًا. ولكن بين أولئك الذين سعوا عمدا إلى الاستشهاد كانت إدانتهم للإسلام آنذاك حريصة ومتعمدة أن تصل إلى الحد الذى لا يمكن غفرانه. إذ كان المسيحيون الراغبون فى الاستشهاد فى ذلك الحين قد فعلوا ما يجلب عليهم الإعدام بالذم فى الإسلام وتحقيق الخلاص. وكان التالى راهبا. اسمه اسحق. من عائلة ثرية. وعالمًا فى اللغة العربية. كان قد تم تعيينه سكرتيرًا حكوميًا. وجاء إلى القاضى فى ساحة

(*) لم أر فائدة فى ترجمة بقية العبارات المنسوبة إلى هذا القسيس لأنها عبارة عن شتائم بذيئة. ومن المؤكد أنها صادمة لقراء العربية من المسلمين وغيرهم من ذوى الحساسية الأخلاقية الذين لا ترضيهم مثل هذه العبارات أيا كان المقصود بها. (المترجم)

محكمة مفتوحة وقال إنه يرغب فى النطق بالشهادتين واعتناق الإسلام. ولكن بينما كان القاضى يلقنه التعليمات، صاح إسحق فجأه «لقد مات نبيكم، لقد خدعكم؛ عليه اللعنة. إنه شرير جر معه أشرارًا كثيرين إلى الجحيم، لماذا لا تقوم أنت، وأنت رجل عاقل، بالارتداد عن هذه العقائد المهلكة». وتملك القاضى غضب شديد فلطمه على وجهه. ولكن مستشاريه أوقفوه وأخبروه بأنه حتى المجرم المدان لا يجب أن يتعرض للإهانة.

وعندما استعاد القاضى سيطرته على نفسه. قال لإسحق إنه إما مخمور أو مجنون. لأنه لا يمكن أن يكون جاهلاً بأن الموت هو العقوبة الوحيدة جزاء التجديف. وأجاب الراهب بهدوء: «أيها القاضى إننى بكامل قواى العقلية. ولم أذق الخمر فى حياتى. ولأن نار حب الحقيقة تحرقنى، واتتنى الجرأة على أن أتحدث علنا إليك وإلى الآخرين الحاضرين هنا. احكم على بالموت. ولأننى أبعد ما يكون عن الموت، فإننى أتحرق شوقًا. ألم يقل الرب طوبى للذين يضطهدون من أجل الحقيقة لأن لهم مملكة السماء»(*).

وحاول القاضى أن يتجنب توقيع العقوبة الحتمية، ولكنه لم يكن يملك خيارًا آخر بحكم الشريعة. وواجه إسحق نهايته المرجوة يوم. يونيو ٨٥١م. وبعدها ظل الجلاد مشغولاً. فبعد إسحق بيومين قام رجل اسمه سانشو بالسب والتجديف وفقد رأسه وحياته. وبعدها بيومين. جاء ستة رهبان. من بينهم عم إسحق، أمام القاضى وأعلنوا. «نحن أيضا نردد كلمات إخواننا المقدسين إسحق وسانشو» وتبعهم المزيد حتى مات أحد عشر شهيدًا فى أقل من شهرين. وقد عارض كثير من المسيحيين هذه التضحيات خوفًا من أنها قد تستفز غضب المسلمين ضد الأقلية المسيحية كلها .

(*) هذه الرواية التى كتبها قس كاثوليكى، وفيها الكثير من الخيال والأسطورة لا سيما فيما يتعلق بالحوار الذى لم يكن ممكنا تسجيله بأى حال من الأحوال. لقد وضع كاتب هذه الأسطورة الكلام الذى رآه مناسبًا على ألسنة أبطاله. لقد كتب ما ينبغى أن تكون عليه الحكاية. وليس ما جرى بالفعل. والمدهش أن المؤلف الذى يعرف هذا يورد النص كما هو. (المترجم)

كانت مصالح السلطات المسلمة والمجتمع المسيحى الكبير فى منع هذه المواجهات الانتحارية متطابقة. وقد تم اجتماع مجلس كنسى لمنع المزيد من حالات الاستشهاد. ولكن بدا فقط أنه أثار المسيحيين المتشددين وزاد من حماستهم النسكية. فقد دخل راهبان المسجد الكبير فى قرطبة فى صلاة الجمعة وصاحا «إن مملكة السماء متاحة للمؤمنين. ولكن بالنسبة لكم أيها الكفار. فإن الجحيم ينتظركم. وسينفتح بعد وقت قصير لكى يبتلعكم جميعا». وهربوا بصعوبة من أن يشنقهم المؤمنون الذين كانوا يؤدون الصلاة، وتمت محاكمتهما وطارت رأساهما بسرعة فى ساحة السوق.

وكان آخر ضحايا حماستهم الشخصية هما الأسقف إيولوجيوس وامرأة شابة اسمها ليوكريتيا Leocritia. وكان إيولوجيوس قد كتب تقريرا قويًا عن حركة الاستشهاد وأرسله إلى الشمال طلبا للسلامة بالحفاظ عليه خلف حدود المسلمين. وتم القبض عليه واتهامه بالسعي إلى تنصير ليوكريتيا التى كانت قد ولدت لوالدين مسلمين. وكان القاضى مترددا فى إدانة هذا المسيحى ذى المكانة الكبيرة. وأمر بأن يتم جلده عقابًا على جريمة أقل. وعندما سب إيولوجيوس النبى محمد بأقذع الألفاظ. بيد أن القاضى رفض رسميا إدانته وحوله إلى بلاط الوزير، كبير موظفى قرطبة. وجاء أحد أعضاء المحكمة إلى إيولوجيوس وقال له :

«إننى لست مندهشا يا إيولوجيوس. عندما يقوم المجانين والبلهاء بتقديم رءوسهم للإعدام دون سبب. ولكن كيف يمكن لرجل متعلم مثلك. ورجل يتمتع بتقدير العموم، أن يسير على نهجهم. أى جنون يدفعك إلى هذا. لماذا تآمرت على هذا النحو ضد حياتك أنت. إننى أصلى لكى تصغى إلى كلامى. انحن للضرورة. وانطق كلمة واحدة فقط تسحب ما قلته أمام القاضى، وفى تلك الحالة سوف أجيب عن زملائى وعن نفسى بأنه لن يكون هناك ما تخشاه» .

ولكن إيولوجيوس رفض الإنكار والتراجع عما قاله. وانطلق لكى يضمن موتا استشهاديًا لا ينسى. وأدين بشكل رسمى وأرسل لإعدامه. وقام خصى من العاملين فى المحكمة بالإساءة إليه وضربه على وجهه وهو فى الطريق إلى أرض الإعدام.

وبالتوافق مع المواعظ المسيحية. قدم إيولوجيوس الجانب الآخر من وجهه الذى لم يلطم وقال. «الطم الآخر أيضا». واعتذر الخصى. وبعد دقائق قليلة بعد الساعة التاسعة بقليل صباح اليوم ١١ مارس سنة ٨٥٩م. طارت رأس الأسقف. وألقى جسده مكشوفًا لكى تنهشه الكلاب الضالة والقطط والفئران، حتى حصل المسيحيون على الإذن باستعادته. وأعدمت ليوكريتيا بعد ذلك بأربعة أيام وألقيت جثتها فى النهر «لكى يأكلها السمك». وقد أدى موت شخصية كبيرة مثل إيولوجيوس إلى التأثير بقدر أكبر كثيرًا من موت جميع الشهداء الآخرين الأقل مكانة. وعندما عقد ملك ليون معاهدة مع السلطان محمد فى سنة ٨٨٣م، كان أحد شروط المعاهدة أن تسلم إليه عظام الشهيدين المقدسين إيولوجيوس وليوكريتيا[٥٧] .

* * *

ولم يتم شرح الدوافع التى حضت الشهداء على الاستشهاد شرحًا وافيًا على الإطلاق [٥٨]. فقد انحدر كثير منهم من عائلات مختلطة، ولهم معتقدات إسلامية ومسيحية فى خلفياتهم. وكثيرون جاءوا من الجماعات الرهبانية الصغيرة المتجمعة حول قرطبة. ويلفت النظر أنهم جاءوا من دير واحد فى تابانوس **Tabanos** الذى أخرج ما لا يقل عن عشرة شهداء(*). وتصاعد عدد حالات الاستشهاد. فقد ردت السلطات الإسلامية بالعقاب الجماعى. ومن الأمور ذات المغزى، أن القيود التقليدية على الأقليات قد طبقت للمرة الأولى بشكل جامد على الملابس التى حددها الفقهاء. كما أن الكنائس خضعت للفحص للكشف عما إذا كانت هناك كنائس جديدة قد بنيت ومن ثم يجب هدمها. بل إن الترميمات الصغيرة أو التحسينات كان يمكن أن تؤدى إلى الإزالة. وانقلب كثير من المسيحيين ضد المتحمسين. وقد سجل إيولوجيوس أن

(*) استخدم المؤلف كلمة «شهداء» فى هذا الجزء على الرغم من عدم دقة المصطلح فى وصف ما حدث. وقد التزمت بما استخدمه المؤلف من تعبيرات. (المترجم)

المسيحيين الأول ربما يكونون قد تأثروا بحالات الاستشهاد. ولكن. «عندما أشعلت النار السماوية جوانح الكثيرين وقادت الجماهير من المؤمنين إلى الذهاب للميدان وسب عدو الكنيسة معترفين بالعقيدة الطريقة نفسها التى فعلها إسحق، سرعان ما كان الجميع الذين خافوا من هياج الطاغية المتوحش. غيروا رأيهم وانقلبوا بشكل مذهل. فقد حطوا من شأن الشهداء ولعنوهم، وأعلنوا أن الشهداء ومؤيديهم على السواء يرتكبون جريمة عظيمة»[٥٩].

وفى النهاية، حوالى سنة ٨٥٤م. أدين الشهداء رسميًا باعتبارهم هراطقة أمام القاضى وأمام مجموعة من أعيان المسيحيين– أساقفة ورؤساء أديرة وقساوسة ونبلاء– فى محاولة لمنع المزيد من الضغط على المجتمع المسيحى .

لقد كانت دماء الشهداء قد أقامت الكنيسة الباكرة، وسرعان ما قوضت الحكم الوثنى. «كان النمط الشائع للقديس المسيحى هو الشهيد. وفى هذا المسار أخذ الرجال والنساء المقدسون الذين لم يموتوا من أجل المسيح مكانهم بجانب الشهداء. وبقى شخص الشهيد النموذج الأمثل للقديس. وعبادة القديسين ... لها أصولها الثابتة فى عبادة الشهداء»[٦٠]. فمع اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، لم تعد هناك حاجة إلى الشهداء. ولكن فى مواجهة قوة الإسلام (التى كان يبدو أنها لا تقهر). ثم استخدام هذا السلاح الأقوى فى ترسانة أسلحة الكنيسة مرة أخرى. وإذا كانت الأسباب الدقيقة لحركة الشهداء تكمن فى قلب كل من قرر أن يضحى بحياته. فإن هدفها كان واضحًا. وكل قصص الشهداء تحت حكم الطغيان تجلب بطريقة ما، لا يعرفها سوى الرب، النصر للكنيسة .

وثمة كاتب. هو الكوشانى، يناقض الحماسة المسيحية بالتعقل الإسلامى. وأعاد سرد حكاية المسيحى الذى جاء أمام القاضى بعد حوالى ستين سنة من حركة الشهداء، فى سنة ٩٢٠م. ليشرح الراوى أن المسيحيين يعتقدون فى هذا النوع من الانتحار باعتباره من أعمال التدين. على الرغم من أن المسيح لم يشجع أبدا أى شىء من هذا القبيل. وقد نهى القاضى الرجل المسيحى ووبخه لأنه حاول الانتحار. وأجاب

المسيحى أنه لن يكون هو القتيل. ولكن شبيهه. «بينما أذهب أنا إلى السماء». وأمر القاضى بجلده، ثم يسأل عمن سقطت ضربات السوط على ظهره. أجاب المسيحى. على ظهرى أنا». فقال القاضى. «تماما كما سيقع السيف على رقبتك»[٦١] وهكذا، وعلى الرغم من أنه كان ما يزال يمكن العثور على الذى ينتحر طلبًا للشهادة والتعصب. فإنه بحلول القرن العاشر كان بعض الاستقرار القديم قد عاد. وكان سفير الإمبراطور أوتو الأول. Otto. المسمى چون جورزى John of Gorze إلى بلاط عبد الرحمن الثالث فى قرطبة قد أُدخلت على حكايات شهداء قرطبة. فإنه توقع فى بهجة النهاية المجيدة نفسها. وبدلاً من ذلك وجد القساوسة المسيحيين الذين حذروه من الخصومة واللدد مع السلطات الإسلامية وكانوا صارمين فى إثنائه عن القيام بأى أعمال استفزازية. ورفض الخليفة الخطابات التى أرسلها الإمبراطور، لأنه وجد نغمتها مهينة ومذلة. وبدلاً من ذلك رد بإرسال موظف مدنى مسيحى اسمه ريسيموندوس Recemundus. يشغل منصب أسقف غرناطة، لكى يطلب من الإمبراطور سحب الخطابات، وهو ما قام به فعلاً. وتم إرضاء الكبرياء، وعاد چون جورتزى إلى وطنه بعد أن شهد عرضًا على شرفه.

كان ريسيموندوس مثالاً للعدد الأكبر بين المسيحيين الذين كانوا قد عقدوا العزم على أن يؤدوا دورهم بفاعلية داخل المجتمع الإسلامى. وقد جمع كتابًا ضخمًا باسم تقويم قرطبة، ربط بين التفاصيل الفلكية والزراعية وتفاصيل الاحتفالات المسيحية. وقدم نسخة إلى خليفة عبد الرحمن، الحكم الثانى. والحقيقة أنه أعد نسختين. كانت الأولى تحتوى على تفاصيل عن جميع الشهداء فى قرطبة وأعيادهم ويستخدمها المسيحيون. وفى النسخة التى قدمت إلى الخليفة، تم حذف هذه التفاصيل بصورة لبقة (وفطنة) وفى الجوهر:

«وكانت واقعية الحكم الإسلامى تُحبِّذ هذا النوع من الحلول الوسط ... وكانت الكنيسة الراديكالية تروق لبعض المسيحيين، بيد أن مثل هذه الكنيسة لم تكن تستطيع سوى أن تصبح بؤرة لمزيد من العنف. ولم يكن بإمكانها أن تحافظ على العلاقة

المستقرة بين الحكومة والرعايا الخاضعين لها والتى تتيح للمسيحيين أن يمارسوا حياتهم اليومية فى سلام»[١٢].

لقد استخدمت حركة الشهداء، فى محاولة لتقوية رد الفعل العنيف فيما بين المسلمين، المجادلات التى كانت قد تطورت بالفعل فى شرق المتوسط. كان أحد الشهداء قد جاء إلى إسبانيا من دير سورى حيث كان حنا الدمشقي قد كتب مقالته ضد الإسلام. وقد طرحت الكثير من الموضوعات نفسها فى الهجاء القرطبى ضد المسلمين. فقد اتهم النبى محمد بأنه مفرط فى الناحية الجنسية. وأنه واقع فى شرك الانشغال بالجسد. وقد عرّض بول ألفاروس، الذى كتب سيرة حياة إيولوجيوس المسيح الذى بشر بالسلام، بمحمد الذى علم الرجال القتال؛ على حين طور المسيح الطهارة، مارس محمد الشره فى كل أشكال المتعة، الزنا [١٣]. وتم طرح الكتالوج الكامل لكل الإهانات التى صارت الآن إهانات تقليدية[*].

«المسلمون منتفخون بالكبرياء. كسولون ينعمون بالأعمال الجسدية، يسرفون فى الأكل غاصبون طماعون فى حيازة الممتلكات ... لا شرف لهم. ولا حقيقة. غير معتادين على الرحمة والعاطفة ... وهم متقلبو الأطوار. لصوص. مكارون. والحقيقة أنهم غارقون تمامًا فى ثمالة كافة أنواع الدنس، يزدرون التواضع مثل الجنون. يرفضون الطهارة كما لو كانت رجسًا، يستخفون بالعذرية كما لو كانت قذارة العهر والدعارة. يضعون رذائل الجسد أمام فضائل الروح»[١٤].

وأدى هذا بشكل طبيعي إلى أن محمدًا كان (فى زعمهم) هو النذير بالمسيح الدجال. وفى الهجائيات اللاحقة صار هو المسيح الدجال نفسه.

(*) هذا شكل تقليدى من أشكال المذمة والسباب التى اعتاد رجال الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب الأوربى أن يوجهوها للإسلام، وللنبى عليه الصلاة والسلام. وقد وردت فى النص الأصلى بهذا الشكل الذى يكشف بوضوح عن وجه التعصب القبيح ضد الإسلام. (المترجم)

هذه البلاغة الوحشية رددت أصداء تلك الهجمات التى شنها المسيحيون على أباطرة روما الوثنيين. فقد ذكرت هذه أتباعهم بالشر الذى كانوا يناضلون ضده. والأهم من ذلك كثيرا، أنها كشفت عن ضعف فى حالة الشهداء. لأن الإسلام لم يزعم بأن المسيحيين يعبدون أصناما زائفة. كان كثير من العلماء المسلمين مترددين حتى فى قبول المتحولين من المسيحية إلى الإسلام، بحجة أنهم يلوثون الإسلام. وهناك عالم منهم، كتب «أنهم يقولون إن الإغراءات سوف تأتى مع أهل الكتاب وأنهم سيكونون مستحقين لها»[٦٥] وعلى الرغم من أن الزواج بين رجل مسلم وامرأة غير مسلمة لم يكن محرَّمًا. فقد كان ينظر إليه على أنه يحفل باحتمالات الخطر الروحى. فقد تكون الزوجة المسيحية أو اليهودية مصدرًا لعدم الاستقرار والفساد فى أى منزل مسلم لأنها حتما لابد أن تكون ميالة إلى قيادة أطفالها حسب دينها وتجنح بهم بعيدًا عن الصراط المستقيم للإسلام[٦٦]. وفى هذا كان بعض الفقهاء المسلمين والقاروس المسيحى على اتفاق. الفصل أفضل من أى شكل من أشكال الاتصال .

وعلى أية حال. تم نسيان الشهداء فى قرطبة بسرعة ويرد ذكر حكم خلافة قرطبة فى النصف الأخير من القرن العاشر باعتباره عصرًا ذهبيًا. وقد ردد مؤرخ إسبانيا الإسلامية الذى عاش فى القرن التاسع عشر رينارت دوزى **Reinhart Dozy** أصداء المديح الذى كاله للمدينة المؤرخون المعاصرون. والشعراء. والمبعوثون الأجانب على السواء :

«كانت حالة البلاد منسجمة مع ازدهار الخزانة العامة. فالزراعة والصناعة والتجارة. والفنون والعلوم ازدهرت جميعًا. وكانت عين الرحالة تسر فى كافة النواحى بالحقول المزروعة بشكل جديد، والمروية على أساس علمى. بحيث إن التربة التى كانت تبدو جدباء للغاية. صارت أرضا خصبة... وكانت قرطبة بسكانها الذين وصلوا إلى نصف مليون نسمة، ومساجدها وجوامعها التى كان عددها ثلاثة آلاف. وقصورها الفاخرة. وبيوتها التى وصلت إلى مائة وثلاثة عشر ألف منزل، والثلاثمائة حمام عام، وضواحيها الثمانى والعشرون، لا تفوقها فى الحجم والعظمة سوى بغداد ... لقد تسربت شهرة قرطبة حتى فى ألمانيا البعيدة. ذلك أن الراهبة السكسونية هرزويثا

Hroswitha اشتهرت فى النصف الأخير من القرن العاشر بسبب أشعارها اللاتينية والأعمال المسرحية التى أطلقت فيها اسم «جوهرة الدنيا» على قرطبة[٦٧].

وفى بلاطات أوربا المسيحية. كانت منتجات قرطبة. من أشغال العاج والحرير والأوانى البرونزية التى صنعت بشكل أخاذ على أشكال الطواويس. والظباء، والوحوش الخيالية. وصناديق الدنانير الذهبية- صارت كلها رموزا لعالم من الحضارة والرفاهية التى لا نظير لها. وربما كانت الأندلس المسلمة عدوة للمسيح. ومع هذا فإنها كانت ذات جاذبية وإغواء [٦٨].

هوامش الفصل الثالث

1. In his *Handbook for Travellers in Spain* (1845), reprinted in Richard Ford, *Granada: Escritos con dibujos inéditos del autor*, Granada: Patronato de la Alhambra, 1955.
2. But he also recognized the essence of the unforgiving terrain: 'But where Spaine has water and Valleis there she is extraordinarily fruitfull': James Howell, *Instructions for Foreign Travell*, 1650.
3. Cited in Glubb, *Conquests*, p. 355.
4. See W. Montgomery Watt and Pierre Cachia, *A History of Islamic Spain*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1996, pp. 9–10, on the alternative possibilities of expansion.
5. The Christian *Mozarabic Chronicle* and the *Continuationes Byzantia-Arabica* date from a few decades after the conquest. The first Arabic sources are later. See Collins, *Arab Conquest*, pp. 710–97. Ron Barkai makes the valid point that *Byzantia-Arabica* is less negative towards the Muslims in its language, and many of the more positive passages do not appear or have been altered in the *Mozarabic Chronicle*. See Barkai, *Cristianos y musulmanes*, pp. 24–5.

٦- أعطى طريف اسمه لأول بلدة إسلامية فى إسبانيا ، وقد بنيت بالقرب من القلعة الرومانية السابقة **Julia Traduce**.

7. See the *Continuatio Isidoriana Hispania ad annum 754*, commonly called the *Mozarabic Chronicle*, translated by Colin Smith, in Smith, *Christians*, vol. 1, pp. 12–13. This chronicle is the first version of the story.
8. See the *Chronicle of Alfonso III of the Asturias*, written in 883: 'Because they had abandoned the Lord, and had not served him in righteousness and truth, they were abandoned by the Lord and were not allowed to dwell in the promised land [*terram desideratam*]'; in ibid., pp. 24–9.
9. See the *Historia pseudo-Isidoriana*: in ibid., pp. 14–16. This twelfth-century text introduced the trope of illicit sexuality into the foundation myth of Spain. In the *Mozarabic Chronicle* (754), the moral flaw of the king (Roderick) was that he 'violently usurped' the crown: ibid., pp. 10–11.

10. The two connected in a confused and uncertain fashion in what, since Julia Kristeva, we have called 'intertextuality'. My suggestion here is that Roderick's story is depicted, by a succession of clerical authors, in markedly Davidic terms.

١١- كتب كتاب Estoria de Espana في الربع الأخير من القرن الثالث عشر عندما وصل هذا الوصف الأسطورى للفتح إلى درجة غير عادية من الازدهار . وعلاوة على ذلك ، فإن هذا الوصف لم يكتب فى اللاتينية التى يستخدمها الدارسون وإنما فى الرومانسية (القشتالية). انظر : 2-Smith, Christians , vol 1. pp. 21 .

12. Ibid.

١٣- تعرف أميركو كاسترو على أهمية هذه القصص «لأن قشتالة على مدى القرون حملت عبء النضال ضد شعب حكموا عليه بأنه محب للملذات ، شعب كان يتحدث عن الحب والمجون فى أدبهم، وقد كانت تصورات اغتصاب العذراوات وتعدد الزوجات لدى القساوسة من عوامل الحسم فى الغزو الظافر الذى قام به المسلمون) انظر:

Castro , Strcture, p. 328.

١٤- صورة الشهوة الجنسية عند المسلم صارت صورة نمطية يصاغ على مثالها. وهكذا لاحظ خوان مانويل في Libro de los Estades أنه "بعد صلب المسيح بوقت طويل ظهر رجل مزيف اسمه محمد ... وكجزء من تعاليمه قدم لهم غفرانا كليًا للذنوب لكى يشبعوا نزواتهم الشهوانية إلى مدى غير معقول بالمرة" ورد فى :

Smith, Christians, vol .2 , pp. 9495- .

15. Cited in ibid., vol. 1, pp. 26–9.
16. See Angus MacKay, 'Ritual and Propaganda in Fifteenth-century Castile', *Past and Present* 107 (May 1985), pp. 3–43.
17. Ana Echevarria rightly observes that fifteenth-century Castilians showed a special identification with their ancestors, and evidently a knowledge of the epics that portrayed them. See Echevarria, *Fortress of Faith*, p. 121. The events at Simancas are outlined in W. D. Phillips, *Enrique IV and the Crisis of Fifteenth-century Castile*, Cambridge, MA: Medieval Academy of America, 1978.

18. See also the explanation for the instrumentality of the Muslims offered by Juan Manuel in the *Libro de los Estados*; Smith, *Christians*, vol. 2, pp. 94–5. This same theme emerged in the letter written by Alfonso VIII to Innocent III lamenting that so few Christians had died in the triumph over the Muslims at Las Navas de Tolosa in 1212: 'There is one cause for regret here: that so few in such a vast army went to Christ as martyrs'; ibid., p. 23.

١٩– فترات السلطة المركزية في الأندلس كانت على النحو التالى :

ولاة الأندلس : ٧١١–٧٥٥م

الإمارة الأموية : ٧٥٦–٩١٢م

الخلافة الأموية : ٩١٢–١٠٣١م

خلافة المرابطين : ١٠٨٦–١١٤٥م

خلافة الموحدين ١١٤٥–١٢٢٤م

(p.١٧٣)

20. Gibbon, *Decline and Fall*, vol. 5, p. 479.
21. It was also known as the battle of Poitiers.
22. Isidore of Beja, *Chronicle*, cited in William Stearns Davis (ed.), *Readings in Ancient History*, Boston, MA: Allyn and Bacon, 1912–13, vol. 2, pp. 362–4.
23. See Glick, *Islamic and Christian Spain*, citing Elías Téres, 'Textos poéticos arabes sobre Valencia', *Al-Andalus* 30 (1965), pp. 202–5.

٢٤– ما يزال عدد الذين أسلموا مسألة خلافية. وأفضل طريقة للحساب، قام بها ريتشارد بولييت كانت موضع تساؤل ، لكنها لم يتم تجاوزها . ولكن من الواضح أن المهاجرين من شمال أفريقيا، حتى مع السماح بنمو سكانى عالى المعدل، لم يشكلوا سوى أقلية من السكان المسلمين . انظر :

Glick, Islamic and Christian Spain.

٢٥– مسألة اللغة كانت محل جدال أكثر سخونة من مسألة اعتناق الإسلام. ولا يمكن حسم مسألة بقاء البربرية . وسواء كانت الرومانثية لغة يتحدث بها المستعربون أو لغة شائعة ، مسألة محل جدل أيضا. والممارسة الشعبية الشفاهية أصعب فى

ترسيخها من الممارسة النصية المكتوبة ، بيد أنه حتى اللغة المكتوبة مسألة صعبة. ولكن هناك بعض الأدلة سنة ١٠٨٥م، مثلا عندما استولى المسيحيون على طليطلة ، كان جمهرة السكان الكبيرة فى المدينة يتحدثون العربية. عن لغات التجارة واللغات المنتشرة مثل السابير انظر :

J.E. Wansbrough، lingua Franca in the Mediterranean، Rich mond: . ١٩٩٦ ،Curzon Press

(p. ٢٧٢)

26. See Chejne, *Muslim Spain*, pp. 110–20.
27. See Barkai, *Cristianos y musulmanes*.
28. See Ross Brann, *Power in the Portrayal: Representation of Jews and Muslims in Eleven- and Twelfth-century Islamic Spain*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002.
29. See Guichard, *Al-Andalus*, pp. 171–2.
30. The Jews were expelled in 1492 from Castile and Aragon, and from Portugal and Navarre in the sixteenth century. Muslims were converted by decree in 1499, and those who adhered to their faith were forced to leave. The Christianized descendants of former Muslims were deported between 1609 and 1614.
31. From al-Wansharishi, Abul Abbas Ahmad, *Kitab al-mi'yar al-mugrib*, Rabat: 1981, p. 141. Translated from the Arabic in Harvey, *Islamic Spain*, pp. 58–9.
32. See Ibn Abdun, *Hisba manual* [market codes], translated in Olivia Remie Constable, *Medieval Iberia: Readings from Christian, Muslim and Jewish Sources*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1997, p. 178.
33. Ibid., p. 179.
34. Douglas, *Purity and Danger*, p. 41.
35. First, in his *Manual de gramática histórica española elemental*, Madrid: Suarez, 1904, but the idea of a culture built up from many different intertwined sources suffuses Menéndez Pidal's later work, especially *Orígenes del español, estado lingüístico de la península ibérica hasta el siglo xi*, Madrid: Editorial Hernando, 1926. The extended concept of caste, *casticismo*, meaning purity of essence, has a powerful and somewhat malign meaning in Spanish history. This was in part the topic of Miguel de Unamuno's volume of essays *En Torno al Casticismo* (1895). Hence the use of the idea of caste in the Spanish context has a strong resonance. Américo Castro took Menéndez Pidal's notion and translated it into a theory of Spanish particularism; see Castro, *Structure*, pp. 607–15.

36. The definition is that of David Crystal in *The Cambridge Encyclopaedia of Language*, Cambridge: Cambridge University Press, 1997, p. 38.
37. The 'oppositional' statements predominated from the mid eleventh century, at a point when the confrontation between Islam and its Christian enemies became acute.
38. Nirenberg, *Communities*, p. 127.
39. See Geertz, *Meaning*, pp. 141–2.

٤٠– صور القانون أنه حتى بعد مثل هذا العقاب ، ربما لا تكون المرأة قادرة على مقاومة الإغواء مرة ثانية . "لأن الاعتداء الثانى، سوف يفقدها كل ممتلكاتها ... وسوف يتم إعدامها" .

(p.٢٧٢)

41. Jeffrey Richards, *Sex, Dissidence and Damnation: Minority Groups in the Middle Ages*, London: Routledge and Kegan Paul, 1991, p. 139.
42. Ibid., pp. 139–40. Peter Damian referred specifically to clerical acts of sodomy, but the tone is analogous to the general abhorrence of transgressive acts. The Seville market regulation of Ibn Abdun, for example, declared that catamites were 'debauchees accursed by God and man alike'; see Olivia Remie Constable, *Medieval Iberia: Readings from Christian, Muslim and Jewish Sources*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1997, p. 179.
43. The great Castilian law codes created by Alfonso X, the *Siete Partidas*, for example, were never promulgated at the time of their creation. They were not so much law codes as a representation of an ideal state.
44. Mark R. Cohen cites the study by A. L. Udovitch and Lucette Valensi on the modern Jewish community of Djerba (Jerbi) in Tunisia, to the effect that 'although the ethnic and religious boundaries separating Muslims and Jews are by no means absent or obliterated in the market place, it is here that the lines of demarcation are most fluid and permeable'. See Cohen, *Under Crescent and Cross*, p. 118.
45. Francisco Benet, 'Explosive Markets: The Berber Highlands', in Louise E. Sweet (ed.), *Peoples and Cultures of the Middle East*, Garden City, NJ: Prentice Hall, 1970, pp. 171–203. Benet is writing principally of modern Berber culture, but Islamic Spain was predominantly Berber in culture, and the parallels drawn seem appropriate.

٤٦– أشار داڤيد نيرنبرج إلى أنه فى إسبانيا كانت تعيش ثلاث طوائف جنبًا إلى جنب، فاللحم (الذى يجب أن يذبح حسب مستويات محددة لكل من اليهود والمسلمين)

صار بؤرة العنف والنزاع (Nirenberg ، Communities، pp. ٦٨-٧٢) . وفى بعض الأوقات بذلت محاولات لإنتاج تسهيلات شاملة للفصل الطائفى، بيد أن هذا لم ينجح إلا نادرًا على المدى الطويل ، ما لم يمكن للزمن أن يقسمهم ، كما فى حالة الدخول إلى الحمامات العامة فى قرطبة القرن التاسع ، على الأقل فى نظر يانينا سافران . انظر دراستها "

"Identity and Differentiation"

47. 'If I give the name integralism to certain features that are common to Spanish and Moorish existence . . . In spite of the similarities between Spaniards and Moslems, the two people were differently situated inside the vital whole wherein are integrated the activity of the mind and the awareness of the objective and subjective – the "dwelling places" of their lives were different.' See Castro, *Structure*, p. 239.
48. It is curious that he uses 'Spaniards', rather than 'Christians' as the parallel term to 'Muslims'.
49. Castro, *Structure*, pp. 248–50.
50. Spanish has retained a rich vocabulary of locality, which perhaps echoes this tradition of segmentation: *barrio* (neighbourhood), *rincon* (quarter), *querencia* (favourite place; now usually a bullfighting term).
51. See Dana Reynolds, 'The African Heritage and Ethnohistory of the Moors', in Van Sertima, *Golden Age*, pp. 93–150.
52. This is Derrida's *dissémination*. Typically, he denies its meaning: 'In the last analysis, dissemination means nothing, and cannot be reassembled into a definition.' But the word 'dissemination' is a Derridean pun, filled with multiple connotations. It embodies the sexual act of in-semination, and no one can tell as a consequence how heritable qualities will change or transmute down the generations. However, dissemination is itself the act of spreading, and not knowing where the seed will fall or where it will implant and grow. Thus there has to be a common framework of meaning if communication is to take place at all, but the consequences of dissemination mean that this transfer of meaning is always subject to distortion. See Jacques Derrida, *Positions*, trans. Alan Bass, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1981, pp. 44–5. I am grateful to Professor Nick Royle for drawing my attention to this relatively clear statement of a Derridean position.

٥٢- لاحظ أمريكو كاسترو أنه "لاشيء يكشف أكثر من اللغة" . ولكن بالمثل ، لا شيء أكثر إرباكا ولا يقينى أكثر من اللغة . كذلك يقدم أنور شيجن، الذى كتب تاريخا مفيدا باللغة الإنجليزية عن اللغة العربية، صورة للتقدم الخاص للغة العربية فى إسبانيا فى الصفحات من ١٨٢ إلى ١٩٥ . ولكن حتى شيجن فى تقديمه غير متأكد بشأن التواصل بين اللغات. إن الاختلاط اللغوى فى الأندلس تضمن تنويعة كبيرة من اللهجات المتطوقة - عربية ، وبربرية ورومانسية- ولغة عربية ولغة لاتينية مكتوبتين ، وكانت الأولى تتقدم والأخيرة تتراجع . وهناك دليل لاحق على أن كثيرا من أهل الشمال كانت لديهم بعض المعرفة بالعربية المنطوقة. وليس هناك فى إسبانيا ما يدعم إشارة دانييل فيما يتعلق بصقلية النورمانية من أن "الاستخدام المستمر لثلاث لغات" قد خلق مجتمعًا متعدد الثقافات أو متسامحًا . انظر :

Buxo، "Bilingualismo Y biculturalismo"، ; ١٤٦ .Daniel، The Arabs ، p . ٩٢-١٧٧ .pp

(٣٧٥.p)

54. Alvarus wrote profusely. His main works were his letters (*Epistula*), *Memoriale sanctorum*, *Vita Eulogii* and *Liber apologeticus martyrum*, all contemporary with the events he described. On the effect of martyrs in Cordoba, see Dozy, *Spanish Islam*, pp. 268–9.
55. Jessica Coope, in her excellent account of the martyrs movement and of Perfectus, draws rather different conclusions. She notes that the Church of St Acisclus was a centre of 'radical' Christianity, and that the Muslims sought deliberately to entrap Perfectus. However, rather than resisting their entrapment, he participated in it with fatal results. The same body of evidence (and that provided by partisans, Eulogius and Alvarus) is capable of a number of interpretations. But all the sources tend towards the volatility of the religious situation in Cordoba at the time. See Coope, *Martyrs*, pp. 18–19.
56. Ibid.
57. The material for this section is drawn from Dozy, *Spanish Islam*, pp. 268–307.
58. Wolf, *Christian Martyrs*, analyses the movement in depth. He makes the case that the movement was not masterminded by Eulogius but, rather, that he portrayed the events in a way that would make their message more powerful. In particular, he countered the arguments that they were not true martyrs because they performed no miracles, and that they brought their deaths upon themselves, as indeed the authorities in Cordoba, both Christian and Muslim, clearly believed.
59. Eulogius, *Epistula ad Alvarusum*, 1, cited and translated in Coope, *Martyrs*.
60. R. A. Markus, *The End of Ancient Christianity*, Cambridge: Cambridge University Press, 1990, p. 24.

61. Coope, *Martyrs*, p. 52.
62. Ibid., p. 69.
63. Alvarus, *Indiculus luminosus*, cited and translated in ibid., p. 49.
64. Ibid.
65. Cited in Safran, 'Identity and Differentiation', p. 583.
66. Ibid. Abu Abdullah, Malik bin Anas, was born in Medina in 715. He produced the *Kitab-al-Muwatta*, the earliest surviving book of Islamic law, and made an important collection of *hadith*, oral traditions of the Prophet. The Malikite legal tradition followed in Al-Andalus 'disliked marriage with *dhimmi* women but did not forbid it. He [Malik] disliked it because the *dhimmi* wife eats pork and drinks wine and the Muslim husband kisses her and has intercourse with her. When she has children, she nourishes them according to her religion; she feeds them food that is forbidden and gives them wine to drink. Malik disapproved of intermarriage out of concern for purity and also because he feared for the religion of the children.'
67. Dozy, *Spanish Islam*, pp. 445–6.
68. See *Las Andalucías de Damasco a Córdoba*, Paris: Editorial Hazan, 2000.

(٤)

"جوهرة الدنيا"

فى قلب قرطبة المدينة الشبيهة بالجوهرة كان الجامع الكبير. وقد بناها عبد الرحمن الأول من سنة ٧٨٥م إلى سنة ٧٨٧م، وجملها خلفاؤه وحسنوها. كانت أصولها المعمارية مركبة. مع اقتراحات بأشكال بيزنطية وكذلك أصداء قوية من بلاد الشام. فقد كان الخلفاء الأمويون كانوا قد حكموا فى دمشق من سنة ٦٤١ إلى سنة ٧٥٠م، وعندما أطاح بهم منافسوهم العباسيون، وتمت مطاردة جميع أفراد الأسرة الأموية وقتلهم فيما عدا واحدًا. وهرب الناجى- عبد الرحمن. غربًا إلى أبعد نقطة فى العالم الإسلامى بحوض البحر المتوسط. وفى إسبانيا وجد مؤيدين مخلصين. وتحت حكمه تم إعلان الأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية الجديدة فى بغداد. وخلق عبد الرحمن الأول دولة قوية عاصمتها قرطبة سرعان ما صارت الخلافة الأموية فى قرطبة سنة ٩٢٩م.

كان المسجد الكبير الذى بناه أول دليل على وضعية الحكم الذاتى. وفى البناء والوظيفة كان يماثل مساجد المشرق. ولكن غابة الأعمدة به والمتوجة بالعقود المزدوجة المزخرفة بعدة ألوان والتى تخرج أحجارها ذات الشكل الإسفينى على شكل شعاع من مركز العقد، لم تكن موجودة فى أى مبنى بالشرق. كانت هذه من خصائص البنايات الفيزيقوطية. وعدلها وطورها الصناع من المستعربين [١]. وفى كل مرحلة من مراحل توسعة الجامع. كان يكتسب المزيد[٢]. وكان هناك أيضا ارتباط مباشر مع الشرق المسيحى، لأنه فى سنة ٩٦٥م كتب الخليفة الحكم إلى القسطنطينية يطلب خدمات

صناع الفسيفساء المهرة في بناء الجامع. ولم يعد مبعوثو الخليفة بالحرفيين فقط، وإنما عادوا ومعهم ٣٢٠ قنطارًا من مربعات الفسيفساء (الموزايكو) التى أرسلها ملك الروم على سبيل الهدية[٣].

كان الطراز الثقافى الذى اكتسى الثوب الإسبانى– جزء عربى وجزء مستعرب– موجودا فى القصر بمدينة الزهراء التى بنيت خارج قرطبة على يد عبد الرحمن الثالث، الذى كان فى سنة ٩٢٩م قد أعلن نفسه خليفة. أمير المؤمنين والمدافع عن الدين. وكان القصر الجديد شهادة على مكانته المهيبة. فقد كانت عجائبه تبدو واضحة للعيان متمثلة فى خصائص الأعمدة والعقود الموجودة فى الجامع نفسه، ولكنها كانت أكثر ضخامة وأشد تأثيرًا. وزخرفة الحجارة مثل غابة من النباتات منتشرة على الحوائط والأعمدة. ونافورات مياه صغيرة تنبثق من مناقير الطيور البرونزية أو من أفواه الخيول العفية المصنوعة من البرونز؛ وصناديق العاج والألبستر المنحوت عليها بدقة مناظر البلاط. هذه كلها تكاد تكون كل ما تبقى من الحياة فى داخل هذا القصر. والذى كان ذات يوم ينافس القصر الكبير الذى بناه قسطنطين فى القسطنطينية[٤]. كانت لمدينة الزهراء بعض العناصر الموجودة فى القصور الأموية ببلاد الشام والأردن، ولكن عناصر أكثر منها كثيرا نبعت أصلا من الأندلس. وكان القصر يسمى، حسبما قيل، تكريمًا لزوجة عبد الرحمن الأثيرة. وسميت مدينة الزهراء. وبدأ البناء فى سنة ٩٣٦م، وعلى مدى خمسة وعشرين سنة كان يعمل فيه ما يصل إلى اثنى عشر ألفا متواجدون فى مكان المدينة. كان مقياسها شاسعًا. وسورها الخارجى يصل إلى أكثر من كيلو متر ونصف طولاً. على حين كانت فى القاعة الكبرى. بركة ضخمة من الزئبق تومض متلألئة وتعكس العقود والزخارف .

والأثر الذى تركه القصر والخليفة على الزوار الأجانب. المعتادين على الحياة الأكثر خشونة فى الشمال. تم تسجيله فى عدة مناسبات. وتحكى إحدى القصص كيف أنه كان يرغب فى أن يبهرهم بعظمته ولهذا ففى داخل القصر:

« أجلس الأعيان الذين ظنوا أنهم ملوك. لأنهم كانوا جالسين على كراسى فاخرة. وقد ارتدوا ثيابًا من القصب والحرير. وفى كل مرة كان السفراء يرون واحدًا من هؤلاء الأعيان ينبطحون أمامه متصورين أنه الخليفة، ويقال لهم عندئذ «ارفعوا رءوسكم ما هذا إلا عبد من عبيده».

وفى النهاية دخلوا فناء مفروشا بالرمال. وفى المنتصف كان الخليفة. كانت ثيابه خشنة وقصيرة. وما كان يرتديه لم يكن يساوى أكثر من أربعة دراهم. وكان يجلس على الأرض. وقد أحنى رأسه. وأمامه المصحف. وسيف نار. وقيل للسفراء انظروا ها هو الحاكم» .

هذا التواضع اللافت للنظر يردد أصداء دخول الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس سنة ٦٣٨م. بملابسه المتهرئة المزمعة وبغله المعطوب[٥](*) ومن ناحية أظهر خليفة قرطبة نفسه خادمًا متواضعًا لله، سوف يحمل كلمته المقدسة، بالنار والسيف ضد أعداء الإسلام(**). لأنه على الرغم من أن المدينة والقصر كانا دليلاً معماريا وبشريًا على الانصهار الثقافى. فإن السياق الذى قدم فيه الخليفة نفسه أيضًا أكد على غرض المعارضة لدى قرطبة. وعلى ثروتها وقوتها العسكرية. فقد كتب دوزى عن الحكم الثالث «فى تسامحه الواسع كان يدعو إلى مجالسه رجالاً من دين آخر... وهو نموذج لحاكم من العصور الحديثة، لا خليفة ينتمى للعصور الوسطى»[٦]. بيد أن هذه المزاعم تتجاوز الحقيقة. حقيقة أن كثيرا من الحكام الأوائل فى قرطبة كانوا

(*) هذه رواية فيها مبالغة. وتعتمد على خيال أكثر من اعتمادها على الحقيقة، وعلى أى حال. فإن البغال لم تكن من الدواب التى يركبها عرب شبه الجزيرة، والأرجح أن الخليفة العظيم جاء من الحجاز إلى فلسطين على راحلته (ناقته) الحمراء التى دخل بها بيت المقدس بعد أن سلمها له صفرونيوس. (المترجم)

(**) هذا تخريج عجيب من جانب المؤلف. لأن الدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون «بالحكمة والموعظة الحسنة» حسب تعاليم القرآن الكريم، وليس بالسيف والنار كما يزعم المؤلف. فى هذا التخريج. ويبدو أنه بحاجة إلى دراسة موقف الإسلام من نشر الدعوة بحسب نصوص القرآن وأحداث التاريخ. وليس بحسب الظنون والاستنتاجات. (المترجم)

أكثر انفتاحًا على تأثيرات غير إسلامية من خلفائهم من المرابطين أو من الموحدين القادمين من صحراوات شمال أفريقيا وجبالها. ولكن بسبب كل الإنجازات فى الفن وفى العلوم والتعليم، كانت قرطبة مبنية حول نظرية الحرب، إن لم تكن الممارسة الدائمة، ضد الشمال المسيحى. كانت أخلاق الخليفة القرطبى متجسدة فى لحظة رمزية أخرى. فقد مات عبد الرحمن الثالث فى سنة ٩٦١م. وفى سنة ٩٩٧م قاد رجل الأندلس العسكرى القوى، المنصور جيشه الظافر عائدًا بعد تدمير الضريح المسيحى الكبير لسانتياجو دى كومبوستلا Santiago de Compstela .

كان سانتياجو، حسبما جادل المسيحيون الإسبان أكثر المواضع قداسة فى أوربا. ويتفق معهم فى هذا كثير من سكان شمال جبال البرينيس. لأنه عند سانتياجو، حوالى سنة ٨١٨م، تم اكتشاف عظام القديس يوحنا بمعجزة[٧]. وعلاوة على ذلك، تحولت هذه العظام إلى رفات القديس يوحنا الرسول، حسبما شاع الاعتقاد فى البداية، ولكنها كانت رفات يوحنا آخر. وهكذا، على الأرض الإسبانية فى قلب مملكة أشتورياس، التى تتعرض باستمرار لاعتداءات المسلمين، كان يوجد جسد قديس ينتمى عن قرب إلى شخص المسيح نفسه. كانت هذه ذخائر مقدسة أكثر من أى شظية من الصليب الحقيقى أو أحد مساميره[٨]. وبالفعل فى سنة ٨٢٢م، فى معركة كلافيخو Clavijo تدخل القديس يوحنا عندما كان الملك راميرو ملك أشتورياس يخسر المعركة أمام المسلمين. فجأة، ظهر شخص يمتطى حصانًا أبيض، وحول المعركة لصالح المسيحيين. وأخبر الملك أن المسيح نفسه، أعطانى إسبانيا للعناية بها وحمايتها من أيدى أعداء الدين». كان هذا هو الظهور الأول للقديس يوحنا قاتل المسلمين Santiago matamoros ومن بعدها كان يعود المرة تلو المرة لكى ينقذ إسبانيا المسيحية من الكارثة .

وهكذا كان الاستيلاء على بقايا القديس بالنسبة للمسلمين عملاً ينطوى على جسارة عظيمة. وفى أغسطس سنة ٩٩٧م شق المنصور وجيش قرطبة طريقهم بالقتال صوب الشمال إلى مدينة كومبو ستلا، ولم تكن لدى المسيحيين القوة لمقاومتهم. وتم

هجران الضريح الذى لم يبق به سوى راهب واحد. وسأله المنصور لماذا بقى على حين هرب الآخرون جميعا. وقال الراهب. «إننى أصلى للقديس يوحنا» وأخبره القائد أن يصلى فى أمان وعين حراسه الخصوصيين حوله لحمايته. وفى اليوم التالى، أمر المنصور بإزالة المقبرة. بشكل فعال لدرجة أنه فى الغد لم يكن هناك أحد يفترض أنها كانت قد وجدت هناك بالمرة»[٩]. ومع هذا فإن عظام القديس تركت دون إزعاج. وفى الوقت المحدد دخل المنصور قرطبة ومعه كثرة من الأسرى المسيحيين. يحملون على أكتافهم بوابات ضريح سانتياجو وأجراس الكنيسة. ووضعت الأبواب على سقف الجامع الذى لم ينته بناؤه وعلقت الأجراس فى البناء نفسه لكى تستخدم فى الإضاءة كالمصابيح[١٠].

فلماذا ترك المنصور عظام القديس دون أن يمسها أحد. فى أحد المعانى كانت الأشياء التى حملها فى عودته بعد انتصاره رموز قوة سانتياجو. ذلك أن صوت أجراس الكنيسة، أعلى من صوت المؤذن. كان يؤذى المسلمين بشكل عميق. وفى المدن الإسلامية. كان من المعتاد منع المسيحيين من استخدام أجراس الكنائس[*]. وهكذا، فإنه بأخذ الأجراس كان قد أسكت صوت القديس وأجهض التجمعات عند ضريحه. وكانت الأبواب رمزًا لقدسية الكنيسة وقوتها. وبتعليقها فى الجامع فإنه ألغى قوة القديس[١١]. وفى جيل لاحق، قام أحد حكام قرطبة بالحط من مكانة أمير قشتالى من على قاعدته؛ فقد كان قد أمر بحشو جلد الأمير، الذى كان قد قتل فى المعركة، بالقش وعلقه أمام البوابة الكبيرة لقصره. قبل أن يرسله ليعلق بصورة دائمة فى أكبر مساجد المدينة. لكن المنصور لم يحاول إزعاج بقايا سانتياجو. وقال المسيحيون إن هذا كان بسبب قداسة يوحنا وقوة عظامه التى لم يجرؤ حتى المنصور على التدخل بشأنها. وقد أعلن أن فعالية القديس ورفاته صارت أكبر من ذى قبل. كان هذا أكثر ما يستلفت النظر إذا ما وضعنا فى اعتبارنا أنه على يد المنصور. بحسب ما ذكره مؤلف

(*) كان يمنع استخدام أجراس الكنائس فى أوقات صلوات المسلمين ورفع الأذان فقط ولم تكن الأجراس ممنوعة بشكل مطلق (المترجم)

مسيحى مجهول «تلاشت العبادة الإلهية فى إسبانيا. وتم تدمير كل مجد الشعب المسيحى، والكنوز التى تم تخزينها فى الكنائس تم نهبها». فالمنصور نفسه «وقع ... فى قبضة الشيطان الذى كان قد تملكه عندما كان حيًا، ودفن فى الجحيم»(١٢).

هل كان الاحترام أو الخرافة هى التى حركت «الملعون» المنصور عند سانتياجو دى كومبو ستلا؟ هناك حالة تجعلنا نفضل الاحترام. فعلى الرغم من المجادلات المسيحية، لم يكن المنصور متطرفًا. وعلى العموم كان المتعصبون فقط بين المسلمين والمسيحيين هم الذين يدنسون أضرحة الطائفة الأخرى (١٣). فالمسلمون يعترفون بالمسيح نبيا وبأمه مريم على أنها العذراء المقدسة. وفى بعض الحالات، كان المسلمون والمسيحيون يستخدمون ضريحًا يجتذب أتباع كل من الديانتين. ومن ثم كان عدم إزعاج عظام أخى النبى عيسى يتماشى تمامًا مع الممارسات الإسلامية على حين دمروا الضريح المبنى فوقها. والواقع، أنه فى أثناء كل من الإمارة والخلافة فى قرطبة، حسبما ناقشنا بالفعل، كانت ممارسة التعايش **Convivencia** بشكل طبيعى تعنى أن المسلمين، واليهود والمسيحيين يتخلون عن الإهانات المجانية التى يكيلونها للطوائف الأخرى، وحكاية شهداء قرطبة مثال مذهل على العكس.

* * *

بعد وفاة المنصور فى سنة ١٠٠٢م، كان لدى خليفة قرطبة أقل من ثلاثين سنة لحكمها، وأدى إخفاقها المتزايد إلى تمرد عسكرى وتوالى حكام حكموا فترات قصيرة وأحد الخلفاء لم يستمر أكثر من سبعة وأربعين يومًا. وتم نهب قصر الخليفة فى مدينة الزهراء وسرقه المتمردين من المرتزقة البربر، على حين أن مجمع القصور الأكبر الذى بناه المنصور لنفسه ولعائلته وسماه المدينة الزاهرة قد هُدم حجرًا حجرًا، بحيث لم يبق منها شىء، وبحلول سنة ١٠٣١م تم تخريب وادى النهر الكبير كله، فقد انتزعت الأشجار من جذورها وتركت الحقول بلا زراعة(١٤) ونصب الزعماء المحليون المسلمون أنفسهم ملوكًا وعرفوا باسم ملوك الطوائف. وبعض أكبر هذه الممالك كانت

ترتكز على مدن مثل أشبيلية، وغرناطة، بداخوز وسرقسطة. ولكن أخريات لم تكن تزيد على القلعة والأراضى المحيطة بها إلا قليلاً. وكثير من تلك الممالك التى كانت قريبة من الحدود مع الدول المسيحية فى الشمال بدأت تدفع إتاوة حماية Parias لحكام قشتالة وأراجون فى سبيل البقاء.

وعلى مدى فترة تزيد قليلا على خمسين سنة، لم يوجد حكم مركزى فى الأندلس فقد سعى العديد من الملوك الصغار إلى التمتع برغد العيش الذى كان موجودا من قبل فى قرطبة على الرغم من أن ذلك كان على نطاق محدد. كان عصر الطوائف عصرا من الازدهار الفنى والاستهلاك المتصاعد فى مواد الرفاهية. وكان كل بلاط صغير يحسد الآخرين. ولم يعمِّر كثير من الدويلات، إذ استولى جيرانها الأقوياء على أراضيها وقصورها وتم اغتيال حكامها فى هدوء. وكانت الدول المسيحية تأخذ أموالا طائلة نظير الحماية من الممالك الإسلامية. ولكن فى سنة ١٠٨٥م قام ملك قشتالة ألفونسو السادس، بدلاً من أخذ الرشاوى التى قدمها له حاكم طليطلة، بالاستيلاء على مدينته. ومع هذا استمر بأخذ الإتاوة ذهبًا من الملوك الأبعد مسافة، مثل ملك غرناطة. بيد أن قصد ألفونسو كان واضحًا. فقد كان مبعوثه إلى عبدالله حاكم غرناطه صريحا بلا غموض: «إن الأندلس ملك للمسيحيين منذ البداية حتى قام العرب بغزوهم. وعندما لا تبقى معكم أموال أو جنود، فإننا سوف نستولى على البلاد دون أدنى جهد»[١٥]. ولما كان الملوك المسلمون يخشون الهجوم من الشمال بعد الاستيلاء على طليطلة، فإنهم أرسلوا الرسل عبر مضيق جبل طارق إلى شمال أفريقيا يطلبون المساعدة من المحارب الصحراوى القديم، يوسف بن تاشفين، الحاكم الموحدى فى المغرب .

كان التدفق البشرى جيئة وذهابًا عبر المضيق لا يتوقف منذ الفتح الأول سنة ٧١١م. فقد كان التجار والمستوطنون والمرتزقة البربر دائما يعتبرون الأندلس أرض الميعاد. وعلى أية حال، كان المرابطون لا يشبهون التيار الأول من الذين وصلوا فى المرحلة الباكرة[١٦]. فقد برزوا بين قبائل الحافة الصحراوية، حيث كان العديد من الرجال مقنعين وكانت النساء مكشوفات الوجوه[١٧]. وكان أحد أسمائهم المشتركة «الطوارق»[١٨]. ومثل الحركات الإصلاحية الأخرى التى حركتها ظروف الصحراء

القاسية، كان المرابطون يرون العالم بمنظور زاهد متقشف. وكرسوا حياتهم أولا لتطهير أنفسهم. ومن ثم، تطهير الإسلام مما شابه. وكما هو الحال فى الجيوش القبائلية المسلمة التى خرجت فى حركة الفتوح العربية الأولى فى القرن السابع، برهنوا على أنهم قوة عسكرية متماسكة وشديدة ومرنة. وبحلول سنة ١٠٦١م كانت الجيوش التى قادها يوسف بن تاشفين قد فتحت الساحل من جبال كبيلة فى الجزائر الحالية حتى ساحل الأطلنطى. وفى سنة ١٠٦٢م أسس عاصمة جديدة فى مراكش. ووحد الأراضــى من الانحناءة الكبيرة لنهر النيجر جنوب تمبكتو حتى المحيط الأطلنطى فى الغرب والبحر المتوسط فى الشمال. كانت هذه إمبراطورية قوية. تتحكم فى طرق التجارة فى أفريقيا. ولها موارد هائلة من القوة البشرية. وتسيطر على موانئ ساحل شمال أفريقيا.

وفى سنة ١٠٨٥م، بينما كانت طليطلة تحت الحصار من جانب القشتاليين، طلب حاكم أشبيلية، المعتمد، من يوسف بن تاشفين الذى كان قد سمى نفسه آنذاك أمير المؤمنين:

«إن ألفونسو السادس حاكم قشتالة قد جاء إلينا طالبًا منا المنابر والمآذن والمحاريب والمساجد، لكى تقام بها الصلبان، وبحيث يمكن للرهبان أن يخربوها ... لقد أعطاك الله ملكا بسبب الجهاد والدفاع عن دينه الحق، وبسبب سعيك... ولديك الآن العديد من جند الله الذين ربما يفوزون بالجنة بسبب جهادهم فى حياتهم»[١٩].

وعلى الرغم من أن يوسف دخل إسبانيا بقواته فعلاً. وهزم جيش ألفونسو عند ساجراخاس **Sagrajas**، بالقرب من بداخوز **Badajoz**. ففى أكتوبر ١٠٨٦م. فإن رغبته كانت قليلة فى الزج بنفسه فى الشئون الأندلسية. وعاد عبر مضيق جبل طارق، ولم يحدث حتى سنة ١٠٩١م أن عاد بكامل قوته بعد استغاثات كثيرة من الحكام المسلمين، لمقاومة زحف القوى المسيحية. ومن بعدها حتى سنة ١١٤٥م كانت الأندلس تحكم من مراكش باعتبارها إحدى ولايات المرابطين.

كان الاستيلاء على طليطلة (بالإضافة إلى تقدم ألفونسو السادس على مناطق أخرى، وقيامه بشن إغارات وصلت إلى أسوار أشبيلية) ووصول الجيوش الحماسية للمرابطين قد ارتبطا سويًا. وبعد الهجوم على أشبيلية. كان ألفونسو السادس قد واصل ركوبه إلى طريف، حيث كان المسلمون الأوائل قد نزلوا. حيث خاض بفرسه في زبد الأمواج على الشاطئ معلنًا. «هذه حدود إسبانيا وقد وطأت قدمي أرضها». لقد أراد أن يحسن مزاعمه في أن يكون «إمبراطور جميع الأمم في إسبانيا. لقد كان «للحرب المقدسة» المسيحية التي بدأت بدعوة البابا أوربان الثاني للحملة الصليبية قد أرست سوابقها في إسبانيا. وعلى المنوال نفسه، كان الجهاد- بمعنى إصلاح النفس روحيا من الداخل وبمعنى الحروب الخارجية لنشر الدين- والذى كان القوة الدافعة للمرابطين، تتردد أصداؤه بتطورات موازية ومعاصرة داخل عالم المسيحية[٢٠]. كان سلف أوربان، البابا جريجورى السابع. قد شجع المسيحيين على القتال في إسبانيا لصالح البابوية، التي كانت تسعى إلى مد حقوقها على الأراضي التي كانت مسيحية ذات مرة ولكنها كانت تحت حكم المسلمين في ذلك الحين. وأهدر ألفونسو فرصة العمل بوصفه وكيلاً عن البابوية، ورفض المزاعم البابوية بالسلطة على إسبانيا. وبدأ يسمى نفسه (إمبراطور كل إسبانيا Imperotor Totius hispaniae). وكان استرداد طليطلة. عاصمة القيزيقوط، إعادة تقرير قوية لمزاعم ملك ليون وملك قشتالة. ورثة الفيزقوط، في حكم شبه الجزيرة كلها.

استسلمت طليطلة لألفونسو السادس يوم. مايو ١٠٨٥م. وسمح للمسلمين الذين بقوا في المدينة بالاحتفاظ بكل ممتلكاتهم وممارسة شعائر دينهم بحرية. ومثلما كان المسيحيون تحت حكم المسلمين في الأندلس، كانوا يدفعون الجزية. وكان هناك الكثير من القلق عندما أمر أسقف طليطلة الجديد والملكة. وكلاهما من أصل فرنسي، عندما كان الملك غائبا في حملة عسكرية، بتحويل مسجد طليطلة الرئيسي إلى كاتدرائية المدينة الجديدة. ولكن ذلك المسجد بدوره كان قد بني فوق الكنيسة القيزيقوطية القديمة، مثل جامع قرطبة. ومع هذا. ففي السنوات التي أعقبت استرداد المسيحيين طليطلة، كما حدث في القرون الأولى من تاريخ إسبانيا الإسلامية. أرسى المسلمون

الذين وقعوا تحت الحكم المسيحى شكلا من التعايش Convivencia[٢١]. وقد رأى كثير من الباحثين هذه الروح تعبر عن نفسها فى النتاج الفكرى الذى خرج من طليطلة. بنفس القدر الذى كانت به قرطبة في وقت سابق محل احتفاء بوصفها مركزًا للثقافة. فقد صارت طليطلة أيضا موطنا لكثير من المستعربين المسيحيين الهاربين من البيئة الأكثر قسوة في الأندلس تحت حكم المرابطين.

وثمة نقطة مضادة لصورة التسامح هذه تحت حكم ألفونسو السادس تكمن فى سيرة الحياة العملية لرودريجو دياز دى فيڤار Rodrigo Diaz de Vivar المعروف باسم السيد القنبيطور El Cid Campeador. أو بصيغته الأبسط السيد. كان رودريجو يقف في عالمين. فقد نما وترعرع فى أراضى الحدود الملتبسة والغامضة في ممالك طريف. وانتهى به المطاف فى حقبة الحروب الصليبية والجهاد. ومات فى يوليو سنة ١٠٩٩م، وفى غضون أسبوع من الهجوم الصليبى والاستيلاء على بيت المقدس، فى مدينة ڤالنسيا. التى كان قد فتحها. وحتى قبل موته، كانت أعماله الجسورة قد دونت فى كتاب تاريخ بعنوان Historia Roderici (تاريخ رودريجو). وتم تأليف ملحمة السيد فى بداية القرن الثالث عشر. وكلمة السيد منها كلمة «سيدى» العربية، عنوانا على الاحترام. ونال السيد التكريم من كل من المسلمين والمسيحيين على السواء. فقد قتل هو ورجاله «المسلمين» بتلذذ واستمتاع. وهم يدعون حاميهم وراعيهم القديس يوحنا قاتل المسلمين، فى أثناء قيامهم بذلك. بيد أن القتل كان مسألة عمل ولم يكن موضوع كراهية:

«أنـزل أتباع السيد ضربات بلا رحمة وفى وقت قصير قتلوا ثلاثمائة من المسلمين. وبينما كان المسلمون الذين وقعوا فى الفخ يطلقون صرخات مدوية. نطق السيد المحظوظ دائما بهذه الكلمات: الحمدلله فى السماء ولجميع قديسيه. والآن سوف يكون لدينا أماكن أفضل للخيول وسادتها ... اسمعوا لى، أنت يا ألڤار ڤاريز وجميع فرسانى. لقد ربحنا ثروة كبرى بالاستيلاء على هذه القلعة. هذه الكثرة من المسلمين الذين يرقدون موتى ولم يبق منهم أحياء سوى عدد قليل. لن نكون قادرين

على بيع أسرانا، سواء من الرجال أو النساء. لن نربح شيئا بقطع رءوسهم. فلنسمح لهم بالعودة إلى المدينة، لأننا سادة هنا. سوف نحتل بيوتهم ونجعلهم يخدمونا»[٢٢].

وعندما تراجع السيد أخيرا من قلعته (بعد أن باعها إلى المسلمين من المدن المجاورة مقابل ثلاثة آلاف قطعة ذهبية). وكان جميع المسلمين حزانى فقالوا وهم يرونه راحلاً. «هل أنت راحل أيها السيد. فتصحبك صلواتنا نحن راضون عن الطريقة التى عاملتنا بها»[٢٣].

لقد تم تصوير السيد على أنه شخصية متناقضة، حارب كونت برشلونه المسيحى. الذى كان فرنجيًا بالفرح الشديد نفسه الذى كان يقاتل به المسلمين. وفى الملحمة يوصف المسلمون بأنهم المغاربة (المور **moros**). دون إضافة أى صفات تحط من شأنهم. وفى المعركة هناك مساواة بين الخصوم. فالمسلمون يستنجدون بمحمد. والمسيحيون يستغيثون بالقديس يوحنا. وبعض المسلمين كانوا جبناء. ولكن كثيرا من المسيحيين كانوا كذلك أيضا. والجزء الأكبر من ملحمة السيد يتناول الخيانة والنكاية التى نالها السيد من جانب رفاقه المسيحيين فقد وصف السيد الحاكم المسلم لولينا **Molina** بأنه صديق كان يعيش معه فى سلام. وأعطى الحاكم رجال السيد «ترحيبًا يفيض بالفرح قائلا: «ها أنتم هنا، يا أتباع صديقى الطيب» [٢٤]. وبعد جيلين من كتابة ملحمة السيد، وفى مكان آخر فإن كتاب تاريخ إسبانيا **Estoria de Espana**. كما رأينا قدم العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى مصطلحات أنكرت أية إمكانية للصداقة والود.

كان السيد رجلاً يعيش فى مناطق الحدود، وعندما رفضه الملك. خدم غيره. سواء كان مسلما أو مسيحيًا. وفى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، كان هذا ما زال ممكنًا على امتداد الحدود، بيد أنه كان أصعب كثيرًا بالنسبة لرجل مثل رودريجو أراد أن يعيش فى كلا العالمين. وفى ملحمة السيد، تم تصوير رودريجو باعتباره فارسًا مسيحيًا أكثر من تقديمه باعتباره المرتزق الذى عاش بمنطقة الحدود الذى صوره التاريخ. وفيما بعد صار السيد عنوانًا على الرجولة الإسبانية، تجسيدًا بشريًا

لسانتياجو[٢٥]. وكما لاحظ إدواردو مانزانو مورينو Eduardo Manzano Moreno. كانت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين عبر الحدود مختلفة تمام الاختلاف عن نظريات الباحثين واللاهوتيين المسيحيين، وعن مفاهيم الفقهاء المسلمين. فلا ينبغي:

«إنكار وجود فرق. أو خصومة. أو مواجهة بين مملكتي الإسلام والمسيحية فى شبه الجزيرة الإيبيرية. فبشكل مستمر على نحو ما. وبقدر ما من الوضوح. كان الصراع موجودًا. واتخذ أشكالاً متنوعة طوال القرون الثمانية التى استمر فيها الحكم الإسلامى. ومن الواضح أن هذا الصراع قد أنتج الحدود، ولكن يبدو واضحًا أن هذه الحدود لا يمكن تقييمها بإسقاط مفاهيم الحاضر عن الحدود على العصور الوسطى»[٢٦].

وعلى أية حال، كانت حياة الحدود فى زمن الحروب الصليبية فى إسبانيا أو «حرب الاسترداد» كما أطلق عليها، مختلفة عما كانت عليه فى زمن السيد. وفى القرون التى سبقته .

لقد كان الاستيلاء على طليطلة البداية الفعلية لحرب الاسترداد. إذ إن سقوط سرقسطة فى أيدى الجيش الصليبى الذى قاده ألفونسو الأول ملك أراجون يوم ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨م كان يعنى أن الإسلام خسر موقع الطليعة الأمامى له فى الشمال. ولكن الاستيلاء على قرطبة يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦م كان لحظة رمزية حاسمة فى النموذج المتغير للتاريخ الإيبيرى. وقبل دخول فرديناند الثالث ملك أشبيلية داخل أسوار المدينة، أمر بأن كل من يرغب فى الرحيل حر فى الذهاب. ومعه كل ممتلكاته. أما أولئك الذين بقوا، فقد نص الاتفاق أيضا على حريتهم فى ممارسة شعائر دينهم، ولكن تحت حكم مسيحى وليس الحكم الإسلامى. وبالنسبة للمسلمين المخلصين كان هذا أمرًا فظيعًا. ولا شك فى أنهم كانوا يشكلون الجزء الأكبر من اللاجئين، وقد سافر بعضهم جنوبًا باتجاه الساحل ليأخذوا سفينة إلى شمال أفريقيا، والبعض الآخر باتجاه الجنوب الشرقى عبر النهر الكبير فى اتجاه غرناطة. وعندما دخل الملك

المدينة ذهب أولا إلى المسجد الكبير، حيث شاهد أجراس سانتياجو. وعلى حد تعبير القشتالى القائد الأول للتاج الملكى Primera Cronica Gene.

« فى عيد الحواريين بطرس وبولس، فإن مدينة قرطبة ... تم تطهيرها من الدنس واستسلمت للملك فرديناند. وعندها أمر الملك فرديناند بوضع صليب على البرج الرئيسى حيث كان اسم محمد من المعتاد أن ينادى وينال المديح، وعندئذ بدأ جميع المسيحيين يصيحون فى سعادة وفرح، «ليكن الرب في عوننا» ووجد الملك هناك أجراس كنيسة القديس يوحنا الحوارى فى جاليثيا، والتى كان قد جلبها إلى هناك المنصور ... ووضع فى مسجد قرطبة مما تسبب فى خزى المسيحيين، وهناك بقيت الأجراس حتى هذا الفتح الذى قام به الملك فرديناند لمدينة قرطبة ... ثم إن الملك فرديناند أمر بأن تؤخذ هذه الأجراس نفسها وتعاد إلى كنيسة سانتياجو بجاليثيا. وهكذا، زينت كنيسة سانتياجو، بسرور مرة أخرى»[٢٧].

وحمل الأسرى المسلمون الأجراس الكبيرة مرة أخرى إلى كومبوستلا، حيث الكنيسة التى أعيد بناؤها بعد هجوم المنصور والتى كانت قد تركت أماكن للأجراس. وما أن أعيد تعليقها حتى دق الصوت العميق للأجراس مرة أخرى ليعلن أن القديس يوحنا قد انتصر مرة أخرى على أعداء المسيح».

كانت تلك اللحظة علامة على بداية مرحلة جديدة فى تاريخ شبه الجزيرة. وكما رأينا، فعلى مدى معظم الفترة منذ سنة ٧١١م حتى أواخر القرن الحادى عشر، كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون سويا تحت الحكم الإسلامى. وفى ذلك الحين كان هناك مسلمون قلائل فى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا. ولكن مع بواكير القرن الثالث عشر، كانت غالبية المسلمين واليهود يعيشون فى الغالب الأعم تحت السيادة المسيحية؛ وقد استمر هذا الموقف حتى هذه الفترة الثانية من التعايش Convivencia انتهت بطرد اليهود فى سنة ١٤٩٢م، ثم المرسوم الذى صدر بتنصير المسلمين بعد ثمانى سنوات. ومفهوم العيش سويًا يميز كلا الفترتين. ولكنه كان ينطوى تحت شروط مختلفة وبمنتصف القرن الثالث عشر، كان فرديناند الثالث ملك قشتالة قد

احتل أشبيلية ووادى النهر الكبير كله. وكان جيمس الأول ملك أراجون قد استولى على جزر البليار وفالنسيا والممالك الصغيرة الواقعة على الجنوب. ولم تبق سوى مملكة غرناطة كتلة صلبة متماسكة من الأرض بأيدى المسلمين .

كانت غالبية المسلمين آنذاك يعيشون تحت الحكم المسيحى. وهو موقف لم تتصوره شرائع المسلمين وممارستهم على الإطلاق[٢٨]. لأن المسلمين الأخيار المتطهرين لا يمكنهم أداء واجباتهم تجاه الله سوى داخل مجتمع يحكمه المسلمون. بيد أنه من القرن الثالث عشر عاش المسلمون بشكل دائم فى الممالك الإسبانية المسيحية الخمس. وكل دولة كان لها أسلوبها الخاص تجاه رعاياها من المسلمين واليهود، وكل مملكة. وكل جماعة محلية داخل كل مملكة، كان لها إطارها الخاص من الترتيبات والعادات التى تحكم العلاقة. وكان الموقف النظرى الذى قدمه ألفونسو العاشر ملك قشتالة فى مجموعة قوانينه المثالية التى تحمل اسم **Siete Partidas**. وتضم الطبيعة المزدوجة للمواقف المسيحية تجاه المسلمين:

«المسلمون هم ذلك النوع من الناس الذين يؤمنون بأن محمدًا كان نبيًا أو رسول الله. ولأن الأفعال أو التصرفات التى قام بها لا تظهر أى قدسية عظيمة من جانبه، يمكن أن تبرر له مثل هذه المكانة المقدسة، فإن دينهم بمثابة إهانة للرب ... وهكذا نقول إن المسلمين يجب أن يعيشوا بين المسيحيين بالطريقة نفسها مثل ... اليهود، وأن يمارسوا شعائر دينهم ولا يتعدون على ديننا. ولكن فى المدن المسيحية يمنع المسلمون من أن يكون لهم مساجد. ولا أن يقدموا أضحيات علنية أمام الناس، والمساجد التى كانت لهم من قبل يجب أن تؤول إلى الملك. الذى قد يمنحها لأى شخص يريد. وحتى مع أن المسلمين لا يملكون شريعة جيدة، فمادامو يعيشون بين المسيحيين وتحت حمايتهم، فلا يجب أن يسمحوا بسرقة ممتلكاتهم منهم بالقوة[٢٩]».

وفى ظل الحكم الإسلامى كان اليهود والمسيحيون أيضا «تحت الحماية». باعتبارهم «أهل الكتاب». لأنهم يبجلون إبراهيم وجميع الأنبياء السابقين على النبى محمد. ومن الناحية العملية، فإن هذا لم يمنعهم من أن يقعوا تحت أقسى الضغوط

من جانب المرابطين والموحدين. وفى الممالك المسيحية. اكتسبت فكرة أن المسلمين شر ضرورى قوة وزخمًا. وقد عبر دون خوان مانويل من قشتالة فى كتابه (كتاب الهيئات) عن رؤية شائعة فى شتى أرجاء إسبانيا المسيحية:

«بعد صلب يسوع المسيح بزمن طويل، كان هناك رجل مزيف يسمى محمد. وكان يدعو فى بلاد العرب، ويقنع عددا معينًا من الناس الجهلاء أنه نبى أرسله الله. وكجزء من تعاليمه قدم لهم غفرانا كاملاً لكى يشبع نزواتهم بشبق مفرط وإلى مدى غير معقول ... وكانوا قد استولوا على الأراضى المملوكة للمسيحيين. وهذا هو السبب فى أن هناك حربًا بين المسيحيين والمسلمين وستكون هناك حرب حتى يستعيد المسيحيون الأراضى التى أخذها المسلمون منهم بالقوة؛ ولكن ليس هناك سبب آخر بسبب ديانتهم أو بسبب الطائفة التى ينتمون إليها يدعو إلى وجود الحرب بين الطرفين. فلم يأمر يسوع المسيح بقتل أحد أو بالضغط على أى واحد لكى يعتنق الديانة المسيحية. لأنه لا يرغب فى أى إيمان بقوة القهر»[٣٠].

ومنذ الوقت الذى حازت فيه الممالك المسيحية عددا كبيرا من السكان مع الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥م، حاول حكامهم الحفاظ على فصل واضح بين المسيحيين واليهود وأولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون آنذاك تحت الحكم المسيحى، والذين عرفوا باسم Mudejares أى «الذين بقوا بالخلف». وقد اختلفت كل ناحية أو إقليم فى الترتيبات المحددة. ولكن الأقليات تجمعت حول أحيائها أو مستوطناتها الخاصة. لأنهم كانوا يستطيعون هناك أن يتخذوا لهم مسجدًا أو معبدا، وهو ما لم يكن مسموحا به فى المناطق المسيحية. وكانت التشريعات المتكررة تصدر لتطالب الأقليات بارتداء قبعات. أو علامات. أو ملابس. أو فى حالة المسلمين «حلاقة شعر إسلامية»[٣١]. ولكن من الواضح أن هذه القيود لم تكن تنفذ غالبًا. وهناك مثال فاضح فاحش يخص عاهرة مسيحية اسمها أليساند دى تولبا فى شتاء سنة ١٣٠٤م. عندما كانت تبحث عن عمل فى مخيم للرعاة بعيدًا فى أراجون. وسألت الرعاة عما إذا كان هناك أحد آخر يحتاج إلى خدماتها. وقيل لها. «واحد مسلم فقط». ولكن أحد الرعاة

ذهب إلى، أيتولا «المسلم» وسأله إذا ما كان يريد أن ينام مع أليساند. وقال إن هذا غير ممكن لأنه مسلم، فضلا عن أنه لا يملك نقودًا. وقال الراعى لورينك إنه سوف يعطيه النقود. وبالنسبة للآخر فعليه أن يقول إن اسمه «يوهان» وأنه جاء من الميناء ومن المفترض أنه أجنبى. وسار كل شيء على ما يرام حتى صرخت فجأة عندما اكتشفت عند نقطة معينة أن زبونها مختن ومن ثم فإنه مسلم أو يهودى.

تخبرنا هذه الحكاية عدة أشياء. أن المسلمين والمسيحيين كانوا يعملون سويًا؛ وأنهم كان يمكنهم أن يقيموا العلاقة السهلة المازحة التى تتضمنها هذه الحكاية. وأنه لم يكن من السهل التفرقة بين المسلم والمسيحى من المظهر الخارجى. وأخيرًا. إذا ما كانت نكتة مثل هذه قد صارت معلومة لدى السلطات. فإن العواقب يمكن أن تكون وخيمة. وهرب المسلم آية الله Aytola بحكمة قبل أن يمسك به القانون لأن عقوبات تخطى الحواجز الجنسية بين المسلمين والمسيحيين يمكن أن تكون وحشية. حتى بسبب المضاجعة مع عاهرة محترفة[٣٢]. لقد كان فى أراجون. ولكن القانون فى قشتالة يقول «إذا قام مسلم بمعاشرة امرأة من العامة تبذل نفسها للجميع. للمرة الأولى، يجب أن يتم جلدهما سويًا فى أنحاء المدينة، وفى المرة الثانية، يجب إعدامهما»[٣٣].

وكلما عرفنا المزيد عن موقف الذين بقوا فى الخلف Mudejares فى أعقاب الاسترداد المسيحى فى القرن الثالث عشر. صار أقل إمكانية الحديث عن موقف المسلمين فى إسبانيا بأى منظور شامل أو عام[٣٤]. ويوضح جابرييل مارتينيز. جروس Gabriel martinez- gros أنه كانت هناك تنويعات كثيرة من التجارب الإسلامية تحت الحكم المسيحى، جزئيا لأن كل مملكة أو مكان كانت تعمل وفق خطوطها الخاصة. وكان المسلمون الباقون Mudejars المستقرون منذ مدة طويلة فى مجتمعات الشمال، مثل طليطلة. فى موقف مختلف عن المسلمين «المدجنين» الجدد فى الجنوب. ولكن حتى فى طليطلة. التى تقوم غالبًا باعتبارها نموذجا «للتعددية والتسامح» كانت هناك فئتان مختلفتان للغاية من المسلمين: الأحرار والعبيد[٣٥]. وكان العبيد هم أولئك

الذين أسروا فى الحرب بحق الغزو. ولكن أيضا كان من السهل على المسلمين الذين يقعون فى حبائل كثير من القوانين التى تحكم وضعيتهم الدونية أن يعبروا الحدود بين مكانة الحر ومكانة العبد (أى يفقد الأحرار منهم حريتهم ويتحولون إلى عبيد) .

هذه الاختلافات برزت بشدة فى اللغة التى وصف بها المسلمون المسيحيين، والعكس بالعكس. وقد تتبعت المستعربة الإسبانية إيڤا لابيدرا جوتييريز Eva Lapiedra Gutierrez المصطلحات الستة عشر المستخدمة فى وصف المسيحيين فى كتب التاريخ العربية عن إيبيريا والتى كتبت فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر. واستنتاجها يتشح بالغموض، وهو ما يعكس الحقيقة بلا ريب. كانت للعداوة درجاتها. فقد كانت هناك درجات وأنماط مختلفة من العداء يتم التعبير عنها فى الكلمات المستخدمة. فعلى سبيل المثال، فهى تصف «عدو الله»، وهو المصطلح الأكثر شيوعًا فى الاستخدام، بأنه عدوانى. ولكن المصطلح الذى يليه فى الشيوع «نصرانى» كان محايدا بالمقارنة مع المصطلح السابق. أما مصطلح «رومى» الذى كان يعنى من الناحية الفنية «بيزنطى»، فكان يستخدم عشوائيًا للدلالة على المسيحيين الإسبان، وكان يحتل مكانة ما بين المصطلحين. ولكنه لم يكن يستخدم غالبًا. كما أن مصطلح «كافر» كان يستخدم بدرجة أقل. وهكذا حتى فى سياق إسبانيا، وبها جبهة القتال الشمالية المتقدمة دائما، كان المسيحيون أحيانا يتم الحديث عنهم باعتبارهم أعداء مكروهين، ولكن فى مناسبات أخرى كانوا يوصفون بمصطلحات لا تنم عن شعور قوى بالعداء. وقد خلق المسلمون بالتدريج سجلاً ممتدا من المصطلحات لوصف المسيحيين، مثل إفرنج وفرنجى، والتى كانت تنطبق على المسيحيين فى إسبانيا وفى الأرض المقدسة. وفى الشرق، على أية حال، كان المسيحيون الغربيون فقط هم الذين يوصفون بهذا الاسم. أما المسيحيون المحليون من الأرثوذكس والسريان فكان وصف نصرانى ينطبق عليهم، ولا يوصفون أبدا بمصطلح فرنج[٣٦].

لقد اكتشفت جوتييريز وجود تركيبة صالحة للتطبيق ومتغيرة لاحتواء المسيحيين الذين صاروا أكثر تسلطًا. وكانت جميع المصطلحات تقليدية مشتقة من

القرآن الكريم ما عدا اثنين منها. ولكن المسلمين كانوا بحاجة إلى لغة جديدة لوصف تجربة وجود القوى المسيحية. وعندما أراد المسلمون أن يوسعوا من نطاق مخزونهم من مصطلحات الإهانة زاد ابتعادهم عن هذا المعجم اللغوى التقليدى. فقد تزايد وصف غير المسلمين بأوصاف تدل على أنهم غير متحضرين. وفى رأى جوتييريز أن هذه المصطلحات كانت الأكثر تعقيدا بين كافة المصطلحات المستخدمة فى كتب التاريخ العربية الإسلامية لتعريف المسيحيين» وهى مصطلحات تجمع بين صفة الفظاظة والهمجية، والوحشية والشبق الجنسى الذى يوصف به الحمار الوحشى[٣٨].

وباستخدام هذه المفردات، كان بوسع المسلمين أن يصوروا المسيحيين الغربيين على أنهم ناقصون أخلاقيًا بالضرورة. وملعونون بسبب بيئتهم والمؤثرات المفسدة في ثقافتهم. لقد كان سوء طالع الفرنج نابعًا من مناخ بلادهم الشمالية القارص. وقد أكد كاتب بعد آخر على أن هذا قد حدد معالم شخصيتهم: «فالبرودة المفرطة... قد دمرت سلوكياتهم، وجعلت قلوبهم قاسية ... كما أن لونهم أبيض بطبيعة الحال، وهم مثل الوحوش لا يأبهون سوى بالحرب، والقتال والصيد»[٣٩] حتى طريقتهم فى الكتابة كانت ضد الطبيعة، لأنهم يكتبون من الشمال إلى اليمين بحيث تكون «بعيدة عن القلب وليست فى اتجاهه». وكان المسيحيون الغربيون يوصفون بأنهم كلاب (التى يحتقرها المسلمون بشكل خاص). أو خنازير وهو الأسوأ بين الأوصاف الحيوانية. وهو الأمر الذى أدخل مصطلحات السب والإهانة من جديد فى مفاهيم الحلال والحرام التى حددها القرآن الكريم.

لقد كان الكفار أنجاسا، مثل السائل المنوى، والبول. ودم الحيض. والبراز التى كانت أشياء نجسة ملوثة[٤٠]. فإذا أراد المسلمون أن يجعلوا سبة الكفر أشد وطأة كان يربطونها عندئذ بأشياء قذرة نجسة بحسب تقاليدهم الطقوسية. ذلك أن مصطلحات مثل الحيوانات البرية كالكلب أو الخنزير كانت تشير إلى خصائص لا يمكن التغاضى عنها[٤١]. فقد كان الخنزير خنزيرًا على الدوام[٤٢]. وكان الحط من شأن أى كائن بشرى. بإعطائه سمت حيوان حقير. يحمل معنى مجازيًا كبيرًا. كما أن

خصاله الحيوانية، تؤكد من الناحية التبادلية، على إنسانية المتحدث، ونظافة المسلم. بيد أن اللعنة المرتبطة بالكفر سوف تنقشع وتختفي تماما في نفس اللحظة التي ينطق فيها الكافر بالشهادة ويبدأ في أن يعيش حياة إسلامية حقة.

كانت المفاهيم المسيحية اليومية عن المسلمين مخيفة بالتالي. فقد أضفت قصص الحدود الشعرية خصائص رومانسية على محاربي الحدود المسلمين مع غرناطة. بيد أنهم كانوا لا يزالون أشخاصًا تبث الخوف وتمثل الخطر. ونادرا ما كان المسيحيون يساوون بين المسلمين واليهود، بيد أن كراهية مجموعة ما كان يبدو أنه يفيض أيضا على الأخرى، وكان يتم الربط بين المسلمين واليهود في عقول الكثير من المسيحيين. وكان الحكام والرأي العام سويا يعتبرونهم أعداء، متواجدين فقط بفضل كرم المجتمع المسيحي. وقد عاني اليهود هجمات أكثر انتظاما وقسوة من الهجمات التي تعرض لها المسلمون. وثمة انفجار للغضب الشعبي والهياج أدى إلى مذبحة وحشية جرت على اليهود، بدأت في أشبيلية في يونيو سنة ١٣٩١م ولكنها سرعان ما انتشرت في كثير من أجزاء إسبانيا، وكانت نتاجا لأسباب مختلفة، وكان معظمها محليا خالصا، ولكن وقوعها وكزنها خيط مشترك يمر من خلال جميع عمليات القتل، في الأندلس، وفي بقية قشتالة، وفي أرجون، وخاصة في جزر البليار. كان إحساسًا بالرفض تجاه «جميع أولئك الذين لم يكونوا مسيحيين».

في سنة ١٣٧٨م، بدأ الأرشيدوق فيران مارتينيز Ferran Martinez حاكم إيثيخيا، قرب أشبيلية، في إلقاء سلسلة من المواعظ الشعبية الموجهة ضد اليهود. وكانت جميعها تحظى بحضور المستمعين. وفي سنة ١٣٩١م، شجع غوغاء أشبيلية على مهاجمة الحي اليهودي واستئصال «بيوت الشيطان» أي المعابد اليهودية. ومن الصعب أن تجد سببا مباشرًا للعداوة الجديدة ضد اليهود، ولكن رجل الدولة القشتالي بارز بيريز لوبيز دي ايالا Perez Lopez de Ayala عكس انحيازا عامًا حينما كتب عن اليهود بوصفهم «مستعدين لشرب دماء المضطهدين. اليهود يبثون الفرقة في الناس، الذين يموتون دون أن يدافع عنهم أحد»[٢٢]. وفي سنة ١٤١٢م، قام المبشر

الفالنثى الدومينيكانى فنسانت فيرير Vincent Ferrer. بتصنيف اليهود ولكنه أيضا أوضح علاقتهم بالمسلمين(*). كان لابد من عزل كل من المسلمين واليهود عن الاتصال بالمسيحيين. وحسب تعبيره «تماما مثلما يجب أن تعيش العاهرات وحدهن. كذلك يجب أن يعيش اليهود». وكان يجب على المسلمين أن يلزموا حدود أحيائهم moreriac حيث لا يمكنهم أن يلوثوا إسبانيا المسيحية[٤٤].

وقد دفعت الهجمات الشريرة المتزايدة الكثير من اليهود إلى اعتناق المسيحية. وباعتبارهم مسيحيين جددًا أو Conversos. لم يكن هناك شيء في القانون يمنع التزاوج بينهم وبين العائلات الأخرى من. المسيحيين القدامى» وفيما بين «المسيحيين القدامى» واليهود الذين بقوا على دينهم. ظهرت المخاوف القديمة من اختلاط النسب والاختلاط الجنسي عبر حدود الطبقات على السطح مرة أخرى. وهناك كاتب يهودى عاش في القرن السادس عشر كتب ينحى باللائمة على الاضطهادات لهذا السبب. «كانت هذه المعاناة مجرد عقاب من الغضب الإلهى. لأن كثيرين تزوجوا من نساء الأمميين، وولد الأطفال من هذه الزيجات الآثمة وفيما بعد أن قتلوا والديهم»[٤٥]. وعلى أية حال. فإن عملية التنصير الجماعى غيرت أيضا نموذج العلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود بأسره.

ففى أثناء القرن الخامس عشر. بدأت الدول المسيحية السائدة في إسبانيا تطور نظرية جديدة عن الكافر. وفى هذه النظرة تحمل اليهودية. والإسلام بالتالى، وصمة خلقية، ومن ثم فإن أى متنصر من المسلمين أو اليهود يمكن أن يكون مسيحيا نقيا، مثلما يمكن لأى شخص من أصل مسيحى «غير موصوم» أن يحملها.

ولا شك في أن هذه الآراء كانت قد توطدت في المجتمع المسيحى داخل شبه الجزيرة منذ زمن طويل، حيث كان يمكن للانحراف الجنسى أن يحمل سُبَّة على مدى

(*) هذا مثال واضح وفج على إقحام اليهود فى موضوع يتناول العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. ولكنها الدعاية الصهيونية الفجة. (المترجم)

جيل (أن عاهرة (hijo de puta) كانت سُبَّة قشتالية تقليدية وما تزال. ولكنها كانت سبة تلقى عقابًا قاسيا إذا ما قيلت علنًا). هذا الاتجاه الكامن داخل المجتمع الإسباني تم تكبيره في نظام قانوني منذ منتصف القرن الخامس عشر. ولكنه كان نابعًا من أسفل وليس نابعًا من مرسوم ملكي. وكان المثال الأول في سنة ١٤٤٩م عندما أصدر بيرو سارمينتو Pero Sarmiento. قائد حركة تمرد في طليطلة ضد الدعم الملكي لليهود المتنصرين. إعلانًا أنه لا أحد سوى المسيحيين القدامى ذوي الدماء غير الملوثة يحق له أن يتولى وظيفة عامة. وأمام جمع غفير في قاعة مدينة طليطلة. صنف سارمينتو كل الأعمال الشريرة التي قيل إن اليهود قد ارتكبوها. وأولها كان أن اليهود في طليطلة قد فتحوا بوابات المدينة أمام قوات المسلمين بقيادة طارق بن زياد في سنة ٧١١م، وبذلك حققوا قرونا من السيادة الإسلامية؛ كما أن نسلهم «المسيحيون الجد.». استمروا في تآمرهم ضد «المسيحيين الحقيقيين»[٤٦]. وفي الذاكرة الحية، كانوا قد تآمروا مع أعداء طليطلة لشن حرب قاسية بالقوة المسلحة، بالدم والنار، ومارسوا النهب والدمار. كما لو كانوا من المسلمين، أعداء العقيدة المسيحية[٤٧]. وحتى عندما تم إخماد التمرد في سنة ١٤٥١م استمر مرسوم سارمينتو ساريًا. وعلى مدى الأربعين سنة التالية، زاد عدد المؤسسات التي تبنت متطلبات أنه يجب أن يكون «نقاء الدم» (Limpieza de Sangre» من شروط عضوية أي نقابة أو أي هيئة مماثلة. والكلمة التي كانت مستخدمه .ات مغزى خاص؛ فقد كان «المسيحيون القدامى» يصفون أنفسهم بأنهم «الأطهار؛ (Limpios). كانوا «مسيحيين أنقياء». على افتراض أن المتنصرين كانوا غير أنقياء وفيهم خشونة وغلظة .

كان الهجوم الجديد ضد «المسيحيين الجدد» والذي بدأ في ستينيات القرن الخامس عشر قد زاد لهيبه بفعل المواعظ الكنسية، وبفعل النشرات الهجائية المؤثرة مثل «حصن الدين» (Fartalitium fidei Cnotra Christianos) التي كتبها ألونسو دي إسبينا Alonso de Espina. كما أن محاكم التفتيش التي تأسست في قشتالة سنة ١٤٧٨م، قادت الهجوم. ويشير ألبرت سيكروف الباحث البارز في التاريخ الباكر «لنقاء الدم» إلى أن المسلمين لم يكونوا الهدف الرئيسي أو موضوع هذه القيود[٤٨].

وعلى أية حال فإن اللغة المستخدمة كانت تشمل كلا من اليهود والمسلمين. كما كان الحال في طليطلة سنة ١٤٤٩م. وفي القرن الخامس عشر، كانت قوانين «نقاء الدم» قد وُضعت لكبح اليهود المتنصرين. ولكن بعد سنة ١٥٠٠م ولا سيما بعد الثورة في ألبوخاراس سنة ١٥٦٨م، زادت النظرة إلى المسلمين واليهود الذين تم إجبارهم على التنصر باعتبارهم الأعداء الأشد خطرا داخل الأراضي الإسبانية. كان ثمة غموض شديد في قوانين نقاء الدم. ففي العقيدة المسيحية، يمحو التعميد كل الخطايا. وكانت التوبة الخالصة تعني أنه لم يبق شيء من الحياة السابقة. ومع هذا. هل كان التعميد والتوبة قادرين على طمس المفهوم الشعبي عن الذنب اليهودي لموت يسوع المسيح. وبالنسبة للاهوتيين العارفين بمصادر الكتاب المقدس، كان التنصير يعني حقا مسح الماضي من خلال تضحية بدم حمل الرب، أي يسوع المسيح[٤٩]. بيد أن هذه كانت فكرة عويصة جدا بحيث لا تنتشر بين غير المتعلمين. وهكذا. فإن الرسائل المعقدة الذي كتبها إسبينا وأتباعه فهمت ببساطة على أنها دعوة لحماية المجتمع المسيحي ممن يهاجمونه، المسلمون واليهود.

كان عدد المسلمين المدجنين **Mudejares** يفوق عدد اليهود في إسبانيا المسيحية، بيد أنه من التناقض أن اليهود واليهود المتنصرين هم الذين كانوا طوال القرن الخامس عشر وما بعده، الهدف الأول لتشريعات نقاء الدماء، ومحاكم التفتيش بعد ذلك. ويفسر هذا الحقيقة القائلة بأن الجماعتين كانتا تختلفان للغاية في توزيعهما ووظيفتهما. كانت أكثرية المسلمين تعمل في الأرض، على حين كان اليهود متمركزين في المدن، حيث التوترات، خاصة في الأعمال والتجارة، يمكن أن تتحول إلى العنف بسهولة. كما أنهم كانوا يقومون بأدوار. مثل جباية الضرائب. كانت تثير العداوة ضدهم[٥٠].

وعلاوة على ذلك. فعلى الرغم من أن الإسلام كان العدو الخارجي الذي يحمل تهديدًا. فإن العلاقة بين اليهودية والمسيحية (التي ولدت من رحم اليهودية) كانت قد تحولت إلى خصومة طقوسية. وكان من الممكن تماما أن يتحول الطقس الديني

إلى حقيقة في أغلب الأحيان. ففى عدة أماكن. كانت احتفالات أسبوع الآلام (عند المسيحيين) تستدعى رسم اليهود وهم يقومون بعملية صلب المسيح. وكان هذا في كثير من الأحيان وقت هياج المشاعر الذى يمكن أن يتحول إلى هجمات رمزية على البيوت والمعابد اليهودية. وليس من الواضح ما إذا كانت أعمال الكراهية هذه تؤدى إلى العنف الحقيقى أم لا. ولكن كانت هناك هجمات عديدة، مصحوبة غالبًا بأفعال وحشية دونما مبرر، على اليهود في قشتالة. كانت الهجمات سنة ١٣٩١م أكثر الهجمات خطورة، ولكن هذه الهجمات عادت في مناسبات عديدة في أثناء القرن الخامس عشر. في طليطلة سنة ١٤٤٩م وسنة ١٤٦٧م. وفى ڤالادوليد **Valladolid** سنة ١٤٧٠م. وفي قرطبة سنة ١٤٧٣م. ولم تتم الموافقة رسميًا على أي من هذه الهجمات. ولكن منذ ثمانينيات القرن الخامس عشر. بدأت السياسة الرسمية تجاه غير النصارى من اليهود والمسلمين على السواء تصير أكثر شدة. فالمراسيم القديمة المتعلقة بالملابس. وقيود التجارة. والعيش بعيدًا عن المسيحيين. تم فرضها من جديد. وتم بناء مناطق معزولة (جيتو) خارج المدن أو بإغلاق الشوارع وسد الأبواب والنوافذ.

ولا عجب في أن معظم الباحثين قد ركزوا على أن المسيحيين قد تملكهم الشك في اليهود المتنصرين حديثًا. فقد قيل إن هذا التنصير الزائف كان غرضه القيام بمحاولات متواصلة دائمة لتقويض الممالك المسيحية. وتم إنتاج نصوص مزيفة بشكل فج. مثل ذلك التلفيق في سنة ١٤٩٢م لخطاب من يوسف رئيس اليهود في القسطنطينية. الذى يفترض أنه كان قد وضع خطة للتسلل والهدم في إسبانيا المسيحية. ويشير مضمون هذا الخطاب بقوة إلى العناصر التى كونت جنون الريبة المسيحية. فقد سأله يهود إسبانيا كيف يمكنهم مقاومة ملك إسبانيا الذى يجبرهم على التنصر أو حتى يقتلهم. ومن المفترض أن يوسف أجابهم:

«حيث إنكم تقولون إن ملك إسبانيا سوف ينصركم. فعليكم فعل هذا لأنه لا بديل أمامكم. وحيث إنكم تقولون إنهم يجردونكم من ممتلكاتكم. اجعلوا أبناءكم تجارًا بحيث يمكنكم رويدًا رويدا أن تأخذوا ممتلكاتهم. وحيث إنكم تقولون إنهم يسلبون

حياتكم. اجعلوا أبناءكم أطباء وصيدلانيين حتى يمكنكم إنهاء حياتهم. وحيث إنكم تقولون إنهم يدمرون معابدكم. اجعلوا أبناءكم قساوسة ولاهوتيين. حتى يمكنكم تدمير كنائسهم. وبقدر ما يخص متاعبكم الأخرى، اجعلوا أبناءكم أنصارًا وإداريين ومحامين ومستشارين. ودعوهم يشاركون فى شئون الدولة بحيث يمكنكم الفوز بالأرض...»[٥١].

وعلى أية حال. فإنه بينما يمكن فهم انشغال المؤرخين باضطهاد اليهود فى القرن الخامس عشر، فإنه يحجب القهر الذى تعرض له السكان المسلمون فى القرن التالى. لقد ترك المسلمون خارج الحسابات. ويبدو لعيون العصر الحديث أنه من غير المقنع أن تلصق بهم وصمة الدم. باعتبارهم قتلة المسيح. فجأة فى السنوات اللاحقة. فقد كان من المعلوم تمامًا أن الإسلام ظهر بعد موت المسيح بسنوات. ومع هذا فإنه بواسطة عملية من الجدل القياسى. حاز المسلمون أيضا مرحلة بعد أخرى، وصمة لا تمحى شأنهم شأن اليهود. ألم يجدوا المسيح الدجال محمد؟ حسبما اعتقد كثير من المسيحيين. أو لم ينهبوا الأرض المقدسة نفسها. ولهذا فإنه بينما فى غمار موجة نقاء الدم كان الضحايا الرئيسيون من اليهود ومن اعتنق منهم المسيحية. فعادة ما كان المسلمون يقعون تحت نير شكاوى الكراهية.

* * *

كان موقع غرناطة. آخر ملاذ غير مسيحى فى شبه الجزيرة بعد منتصف القرن الثالث عشر فى حال دائمة من التدفق. كان يمكن لغرناطة أن تصير حليفًا أو عدوا للممالك المسيحية بسرعة محيرة مربكة، وفقا لأن فريقا أو آخر من الفرقاء يمسك بزمام السيطرة فى الممالك المسيحية أو فى غرناطة نفسها. وفى غرناطة تحولت السلطة ذهابا وإيابا بين فريق من العائلة الملكية وفريق آخر. وقد اعتلى أحد الحكام. هو محمد التاسع «الأعسر» العرش ما لا يقل عن أربع مناسبات منفصلة. وعلى أية حال. فعلى الرغم من عدم الاستقرار فى شئون غرناطة السياسية. فإن القوة

العسكرية لآخر دولة إسلامية زادت ونمت في أثناء القرن الخامس عشر. وبينما كانت قشتالة، بصفة خاصة، قد بدأت في تطوير الأسلحة النارية وقطار حصار بالمدافع والبنادق. ركز الغرناطيون على بناء وفرة من المدن الصغيرة المحصنة والأبراج. وكان يمكن استخدام هذه أساسًا لنمط متحرك بكفاءة من الحرب الحدودية التي كانت تسود بشكل متزايد على امتداد الحدود.

وبدأ أسلوبان من الحملات في الظهور ابتداء من القرن الخامس عشر. وعادة ما كان بوسع القشتاليين، بفضل تفوقهم في السلاح والمال والقوة البشرية، أن يستولى على أقوى الحصون بعد حصار طويل. بيد أن هذا لم يكن يحدث دومًا. ففي سنة ١٤٠٧م، كانت المدافع الثلاثة الكبيرة لفرديناند الصبي **Infante Ferdinaud**، ابن ملك قشتالة چون الثاني، قد نجحت في إحداث ثغرة في أسوار مدينة الزهراء التابعة لغرناطة. وتحركت نحو ستنيل **Stenenil**. وهناك نصبت المدافع وقصفت المدينة ليلاً ونهارًا لدرجة أن القشتاليين كانوا قد استنفدوا مخزونهم من الحجارة. وكل فارس ورجل مسلح تحدد له من بعدها نصيب من الصخور عليه إحضارها لكي لا تبقى المدافع صامتة. ولكن، عندما مر الخريف، استمر صمود الأهالي، وهم يصلحون الدمار تحت جنح الليل. وبنهاية شهر أكتوبر، كان فرديناند ما زال بعيدا عن أن يجعل المدينة تستسلم ولم يكن يريد أن يقع في فخاخ الشتاء وهو في أرض العدو، حيث كان يمكن لخيالة غرناطة الخفيفة **Jinetes** أن يقطعوا عنه إمداداته. وهكذا انسحب المحاصرون المسيحيون في شيء من الاضطراب مما أدى إلى تهكم المدافعين من فوق الأسوار[٢٢].

كان أسلوب الغرناطيين في الحرب يعتمد على السرعة والتحرك، أي الإغارة على الحدود بالشكل التقليدي. وكان الخيالة الخفيفة قد عدلوا من أسلوب الركوب الحر المعروف في شمال أفريقيا (الذي سوف يرسمه فيما بعد الفنان چيريكولت **Gericault**، بقدر كبير من الحيوية لصالونات فرنسا في القرن التاسع عشر). فقد كان الخيالة يمتطون جيادًا صغيرة خفيفة التجهيز، وقد ربيت بحيث تثبت أقدامها

على أرض وعرة وصخرية. ولا يضعون سوى درع خفيف. عادة ما كان من سلاسل الزرد. وكانت أسلحتهم الهجومية عبارة عن حزمة من الرماح وسيف طويل. ولكن الكثيرين أيضا كانوا خبراء فى استخدام القوس المصلب الخفيف ولكنه قوى، الذى كان يمكنهم إطلاقه. وإعادة تجهيزه حتى فى أثناء الحركة. وكانوا قد أتقنوا أسلوبا يسمى «الكر والفر»، الذى كان يستخدم غالبًا فى المعارك القبلية فى المغرب. فكانوا يهاجمون ثم يتقهقرون، فى محاولة لسحب العدو وراءهم. وقد برهن هذا الأسلوب ضد الفرسان المسيحيين على فعاليته الشديدة، لأن هجمة الخيالة ثقيلة التسليح كانت تعتمد على الكتلة والتأثير فى نجاحها. وما إن ينفصل الفرسان المسيحيون عن «فيالقهم» حتى يصيروا أهدافا سهلة للفرسان الخفيفة Jinetes. والواقع. أنه لمواجهة التحدى، بدأ النبلاء القشتاليون الذين كانت أراضيهم تشترك فى حدودها مع غرناطة يستخدمون الفرسان الخفيفة هم أنفسهم.

وعلى العكس، عندما كان الغرناطيون يخوضون معركة وفق الأسلوب القشتالى الثابت. كانوا يخرجون بما هو أسوأ. كما حدث فى مواجهة بالقرب من لوركا فى سنة ١٤٥٢م. حينما كانت هناك فرقة من الغزاة عائدة إلى غرناطة بأربعين ألف رأس من الماشية ووقعت بين براثن الفرسان المسيحيين :

«عندما شاهدوا بعضهم بعضًا، نظم المسلمون أنفسهم فى صف وكذلك فعل المسيحيون. وتم خوض المعركة بحماسة شديدة لدرجة أن المسيحيين اضطروا إلى شن ثلاث هجمات. ولكن المسلمين هزموا فى نهاية الأمر. وقتل منهم أكثر من ثمانمائة، وخسر المسيحيون أربعين قتيلا ومائتى جريح».

وقام القائد المسيحى ألونسو فاخاردو Alonso Fajardo بالثأر لنفسه وشن إغارة على لوكرا Locra حيث ذبح السكان المسلمين. ثم توجه إلى قرية على قمة عالية. وقد سجل بصفاقة «أخذت موخاكار Mojacar حيث فعلت أمورًا عظيمة لدرجة أن الدم كان يسيل فى الشوارع»[٥٣]. وقد استمرت هذه الإغارات والمناوشات بغض النظر عن ما إذا كانت هناك حرب معلنة بين غرناطة وجاراتها، سواء فى الشتاء أو الصيف. فقد

كانت العصابات الغرناطية تمارس النهب حتى بوابات قرطاجنة Carlagena. حيث كان ميجيل لوكاس دى إيرانزو Miguel Lucas de Iranzo من خاين Jaen قد أحرق البلدات على مسافة أميال قليلة فقط من غرناطة نفسها ردًا على ذلك.

كانت النبوءة منتشرة دائما فى إسبانيا المسيحية وكانت تصفية الحساب النهائى مع غرناطة متوقعة منذ وقت طويل. وكان فى الذاكرة أن الملك بيلايو فى كهفه فى أشتورياس بكوفادونجا Covadonga قد تنبأ بأن الرب سوف يأتى فى النهاية لمساعدة شعبه. وقد أخذ هذا على محمل أن الرب شاء استرداد غرناطة بيد أن علامات التفاؤل التى ارتبطت بالأمير فرديناند والأميرة إيزابيلا وريثى عرش أراجون وقشتالة. تجاوزت نبوءات الماضى. فقد اعتقد كثير من القشتاليين أن إيزابيلا الكاثوليكية La Catolica كانت قد ولدت بمعجزة من أجل «استعادة المملكة المفقودة. وأطلق عليها آخرون اسم العذراء المقدسة مريم الثانية(*). كان الربط بين مولد وريث ذكر لفرديناند وإيزابيلا فى سنة ١٤٧٨م، واستقرار ولاية العرش فى قشتالة. وصعود فرديناند على عرش أراجون. باعثا على توالد المزيد من النبواءات. فلابد أن يتم إنجاز خلاص المملكة، وسوف يتم إعادة إسبانيا «أمة إسبانية واحدة»، قدرها الأول أن تكون مملكة عالمية. ثم بعد ذلك هيراركية سماوية» .

كان ينظر إلى فرديناند وإيزابيلا على أنهما مندوبا الخطة الإلهية. فانتصارهما على الشر، حسبما كان مأمولاً. سيكون له جانبان. كان الجانب الأول التطهير الداخلى. وتم عقد مجلس وطنى للكنيسة الإسبانية فى إشبيلية فى صيف ١٤٧٨م وأعلن برنامج للإصلاح. وفى الخريف، ضمن إيزابيلا وفرديناند موافقة البابا سكستوس Sixtus على تعيين أعضاء محاكم التفتيش للخدمة فى مملكة قشتالة. وبدأوا عملهم بشغف سنة ١٤٨٠م، وفيما بين ١٤٨١م و١٤٨٨م. تمت إعادة الآلاف من الهراطقة وغيرهم من أعداء الكنيسة الكاثوليكية إلى حظيرة الكنيسة أو تم تسليمهم للدولة لإحراقهم(**). وكان الوجه الآخر لهذا التطور الوطنى يستكمل بحرب الاسترداد المقدسة. وثمة شاعر شعبى، هو فراى إنيجودى مندوزا Fray Ingo de Mendoza. أعلن أن الملك

والملكة فى قشتالة سوف ينهيان قطاعة الحكم الإسلامى فى شبه الجزيرة[٤٦]. فقد تم إحياء الأفكار القديمة عن قشتالة «الإمبراطورية»، على حين ظهرت النبوءات فى أراجون بأن فرديناند سوف يطرد المسلمين تمامًا من أرض إسبانيا. بل من شمال أفريقيا[٤٧].

لم تكن فكرة استرداد شبه الجزيرة كلها من السيادة الإسلامية هى نفسها فكرة محو المسلمين من على وجه إسبانيا. فعلى مدى عدة قرون. عاش المجتمعان جنبا إلى جنب فى ظروف سياسية مختلفة. وبينما كان المسيحيون واليهود تحت حكم المسلمين «أهل ذمة» أى الأقليات المحمية ولكنها خاضعة داخل الدولة، صار المسلمون الآن فى إسبانيا المسيحية أقنانا إقطاعيين سواء للملك أو لأحد النبلاء، الذى صار من بعدها مسئولاً عنهم. ولم تكن غرناطة ممقوتة لأنها مليئة بالمسلمين. بقدر ما كانت ممقوتة لأنها كانت دولة مستقلة وحرة. كما كانت عدوانية وتحيك المؤامرات بلا نهاية مع شمال أفريقيا وتواصل مناوشات الحدود مع المسيحيين فى الشمال. وحتى عندما كانت توجد هدنة افتراضية مع الغرناطيين. بدأ فرديناند وإيزابيلا التخطيط للقيام بحملة ضد غرناطة، لأنهما، كما كتبا للبابا. كانا يتحركان «لا بدافع من أية رغبة فى توسيع ممالكنا... ولكن أملاً فقط فى أن العقيدة الكاثوليكية المقدسة سوف تنتشر وأن عالم المسيحية سوف يتخلص من مثل هذا الخطر الدائم الموجود هنا على أبوابنا. مادام لم يتم استئصال هؤلاء الكفار فى مملكة غرناطة من إسبانيا»[٤٨]. وهكذا، بينما كان هجوم غرناطى على الزهراء التى طال النزاع حولها يوم ٢٦ ديسمبر ١٤٨١م، سبب الحرب **Casus belli**. كانت خطة الاقتلاع النهائى للحكم الإسلامى فى إسبانيا قد وضعت .

وعلى أية حال، كانت مملكة غرناطة تتمتع بدفاعات جيدة، سواء بالطبيعة أو بالفن الحربى. فقد كانت كل بلدة ومدينة مسورة، فى المنطقة الحدودية مرصعة بكثرة من الأبراج الصغيرة التى، إذا ما تملكتها حامية شديدة العزم، لم يكن ممكنًا الاستيلاء عليها سوى إذا هدمتها المدفعية. وبعد عدة قرون، وصف الكاتب الأمريكى واشنجتون إيرفينج **Washington Irving** غرناطة كما رآها أول مرة:

«مملكة غرناطة القديمة، التى كنا على وشك التوغل فيها، واحدة من أكثر المناطق جبلية فى إسبانيا. فهناك سلاسل ممتدة شاسعة من الجبال التى لا شجر فيها ولا نبات، والتى رقشتها ألوان الرخام والجرانيت. التى تسطع قممها التى أحرقتها الشمس على خلفية من السماء صافية الزرقة... وفى عبور هذه السلاسل الجبلية الشاهقة غالبا ما يضطر المسافر إلى تخفيف مقود حصانه لأعلى وأسفل حسب المصاعد والمنازل المنحدرة والوعرة التى تشبه الدرجات المكسورة فى السلم. وفى بعض الأحيان يتلوى الطريق على طول الجرف الذى يصيب المرء بالدوار... أو يتلكأ خلال المنحدرات الوعرة التى تآكلت بفعل سيول الشتاء»[٥٩].

ولكن ما إن عبرنا الجبال حتى ظهرت غرناطة مختلفة. فهناك ترقد المدينة لتملأ الثغرة الواقعة فى أكثر الأودية خصوبة ونماء. حيث تتصارع الصحراء والحدائق من أجل السيادة، وكانت الصخرة نفسها مجبرة على أن تنبت التين والبرتقال والليمون، وأن تزدهر بالريحان والزهور[٦٠] وقيل إن العاصمة المسورة نفسها، كان بها ١٠٣٠ برجًا وسبع بوابات كبيرة؛ وفى داخلها كان عدد السكان يقدر فى بداية القرن الرابع عشر بحوالى مائتى ألف نسمة. وفوق المدينة على ربوة صخرية يقف قصر الحمراء الحصين. بقلعته المسماة القصبة. وخارج سورها الدائرى القصر الصيفى جنراليف Generalife. وقد تسببت عظمة المدينة فى إقبال الناس. فقد استطاع مواطن من أشبيلية أن يؤكد:

من لم ير أشبيلية لم ير عجبًا .

ويرد أحدهم عليه :

إن من لم يشاهد غرناطة لم ير شيئًا على الإطلاق

كانت مملكة غرناطة غنية ومنتجة. فقد كانت السفن القادمة من شرق المتوسط تزور موانئ مثل ملقا لشراء الحرائر وغيرها من الأقمشة والمنسوجات. والسكر والفاكهة[٦١]. كانت فلورنسا تشترى الجلود «القرطبية». ولا غرو، أن سفير إمبراطور

الإمبراطورية الرومانية المقدسة وهو فى طريقه إلى ليسبون يقارن لطائفة غرناطة ورشاقتها مع التسهيلات الأكثر بدائية فى الممالك المسيحية[٦٢]. كان الرمان Punica granata شعار غرناطة الذى يحمل اسمها. فبالنسبة للزهاد المسلمين كانت هذه الفاكهة الممتلئة بالبذور اللامعة الصغيرة تعنى جوهر الجنة السماوية، وتمثل الكثرة الهائلة لخلق الله[٦٣]. ولم يكن المسيحيون من أمثال الملك فرديناند يعرفون شيئا عن هذه الرمزية العميقة. فذات مرة وصف استراتيجيته لغزو غرناطة فى شكل نكتة لفظية. إذ قال إنه سوف يأكل بذور الرمان واحدة فواحدة. بيد أنه كان يغوى القدر. إذ يعرف الجميع أن الرمانة تحوى بذورا وفيرة. وقد ارتدت النكتة عليه، لأن آخر أعمال حرب الاسترداد استغرقت أكثر من عشر سنوات حتى تمت وكانت تكلفتها مدمرة .

لقد تم خوض معارك الاسترداد فى العصور الوسطى فى ظروف مواتية للجيوش المسيحية فى الشمال بدرجة كبيرة [٦٤]. وحتى حينما كانت تصيبهم مصيبة. مثل معركة الأرك سنة ١١٩٥م، فإنها عادة ما كانت نتيجة أخطاء تكتيكية أو استراتيجية. وليس بسبب قلة الأعداد أو الموارد. ولم تكن الحرب من أجل غرناطة شيئا مختلفًا. فقد كان النبلاء والبلدات والمدن فى قشتالة تستدعى كلها لتقديم فيالق الفرسان والجنود، مثلما كان يحدث فى أى جيش فى العصور الوسطى. أما المنظمات الرهبانية العسكرية مثل كالاترافا Calatrava، وسانتياجو Santiago والقنطرة Alcantora فقد شكلت فرق فرسان النخبة والمحترفين المعتادين على هجمات رأس الحربة. ولكن كان معهم عنصر جديد. عدد كبير من قطع المدفعية المصممة لتدمير الأسوار الحجرية، وقد اصطفت فى طابور من البارود والقاذفات المحمولة على عربات. وبعض قطع المدفعية هذه كانت ضخمة وأكبر من تلك التى استخدمت بنجاح فى وقت سابق من ذلك القرن. فقد كانت تلك المدفعية التى تم نشرها فى حصار بازا Baza اثنى عشر قدمًا طولاً وعيار أربع عشرة بوصة وتقذف كرة حجرية يزيد وزنها على ١٧٥ رطلاً. ولم تكن هذه المدافع الضخمة قادرة على أن تطلق سوى قذيفة واحدة فى الساعة، ولكن أسوارًا قليلة كانت تستطيع الصمود فى وجه القصف المتواصل. ومع هذا فإنها لم

تكن حاسمة بالضرورة. إذ إن المدافعين عن بازا لم يجبروا على الاستسلام بالقصف، ولكنهم ببساطة عانوا من نفاد الطعام والذخائر .

كذلك كان القشتاليون يفرطون فى الثقة بأنفسهم. فقد كان نجاحهم الأول فى الاستيلاء على بلدة Alhama. فى قلب مملكة غرناطة، بهجوم مفاجئ جسور. ولم يكن ممكنا أن تتكرر ضربة المعلم هذه. وكان هجومهم التالى على بلدة لوخا Loja فى يوليو ١٤٨٢م، حركة القصد منها تعزيز الهامات، كارثة محققة. ذلك أن الفرسان الخفيفة من غرناطة اجتاحوا المواقع المسيحية بسرعة، على حين كان رماة السهام الغرناطيون يلتقطون القشتاليين ذوى التسليح الثقيل المرتبكين. وكان قلائل من القوات المسيحية هم الذين حاربوا من قبل فى المناخ القائظ والظروف القاسية فى الجنوب. على حين كان الغرناطيون قد اكتسبوا الصلابة على مرّ الأجيال فى حرب الحدود. ووقع زحف قشتالى كبير على ملقا فى الربيع التالى فى كمين بالجبال الوعرة والأخاديد العميقة شمال المدينة. وإذ تم سحقه من كل جانب اضطر مقدم منظمة رهبان سانتياجو، التى كانت المنظمة الأولى فى الفرسان الإسبان. وتقول الرواية إنه صاح. «أيها الرب كم هو عظيم غضبك اليوم على خدمك. لقد حولت جبن هؤلاء الكفار إلى جسارة فائقة. وحولت الفلاحين والأقنان إلى رجال حرب وشجاعة»[٦٥].

كان قد بدأ يتضح أن الحرب من أجل غرناطة لا يمكن كسبها سوى بالضغط البطيء بلا رحمة أو شفقة[٦٦]. وإذ بقيت الجيوش المسيحية بعيدة عن المرتفعات قدر المستطاع، أخذت تتقدم على امتداد أودية الأنهار والسهول المسطحة التى تؤدى فى النهاية إلى عاصمة غرناطة. تحت جبال نيڤادا Sierra Nevada. بيد أن كل طرق الاقتراب كانت تحظى بدفاع كثيف وعند كل معقل أو بلدة حصينة كانت تجرى الدراما نفسها. فقد كانت ستنيل Setenil. شمال روندا Ronda، التى كان القشتاليون قد فشلوا فى الاستيلاء عليها سنة ١٤٠٧م. منحوتة فى التل وكان يحميها برج على التل من فوقها. وتمركزت المدفعية القشتالية وبدأت تقصف الأسوار ببطء. وما إن تمكنت القوات من الدخول حتى ذبحوا كل من وجدوه حيًا بين الأنقاض. وفى مواقع أخرى

مثل Benanquex في سنة ١٤٠٨م، استولى فرديناند على بلدة عنوة. ثم شنق أكثر من أعيان البلدة، وعلق أجسادهم في صف طويل مثل قلادة على الأسوار. واستعبد الباقي رجالاً ونساء وأطفالاً. ولكن البلدات استمرت في المقاومة بعناد وتباطأ معدل التقدم أكثر فأكثر. وقد أدى الاستيلاء على روندا في ٢٢ مايو ١٤٨٥م، وهي مدينة محصنة بنيت على جرف صخري فوق النهر الكبير. إلى تحويل الحرب لصالح المسيحيين. وكان من الممكن لروندا أن تصمد وقتًا أطول، ولكن عددًا من قادتها قرروا الاستسلام بشروط مواتية. وبعدها أعطى فرديناند أعداءه هذين الخيارين. الموت أو الاستعباد لمن يقاومون؛ كلمات معسولة وأفضال على أولئك الذين يسلمون مواقعهم. وقد أثبت الخيار الثاني جاذبيته مادام استمرت الحرب.

كانت الجيوش المسيحية تتقدم آنذاك تجاه غرناطة من الغرب والشمال على السواء. وتم صدهم عن موكلين Moclin جنوب المدينة الحدودية القشتالية Alcala la Real. كانت موكلين قلعة أخرى بنيت لتستفيد من امتداد الأرض وانبساطها. مما يجعلها حاجزًا منيعًا يحول دون أي تقدم على الطريق الرئيسي إلى غرناطة[٦٧]. وفشلوا في الاستيلاء عليها. ولكن الحدود الطويلة جعلت المسيحيين يهاجمون ثانية من نقطة أبعد نحو الشرق، وبنجاح أكبر كثيرا. فقد تحركت قوة كبيرة جنوبا من Jaen ولمهاجمة القلعتين التوأم في كامبيل Cambil والهابير Alhaber. اللتين كان قد تم بناؤهما لحماية الطريق السريع إلى غرناطة. ومرة أخرى ناور القشتاليون بمشقة بمدافعهم الثقيلة وأدخلوها إلى الموقع ودكوا الأسوار القديمة. ونجحوا. وعندما سقطت القلعتان التوأم. كان قد تم اختراق آخر خطوط الدفاع الخارجية لغرناطة. وبحلول صيف سنة ١٤٨٦م، بعد أربع سنوات من الحملات العسكرية. استقر خط جبهة فرديناند عند «تفاحة غرناطة» حصن اللورا Illora. وأمامه يوجد نهر Cubillas. الذي يعبره جسر ضيق عند قرية بينوس بوينتي Pinos Puente. وبعدها بالنسبة للمسافر العادي، كانت المسافة أقل من مسيرة نصف يوم لدخول غرناطة نفسها.

في ذلك الحين لم يكن الخطر الأكبر يكمن في المدينة التي أمامهم وإنما في الخلف. فبينما كان خط الساحل ما زال بأيدي المسلمين، لم يكن من الممكن تجاهل خطر الدعم المغربي أو حتى العثماني لإخوانهم المسلمين. فقد كانت حامية ملقا مكونة إلى حد كبير من المتطوعين البربر من شمال أفريقيا، والتواقين لتوجيه ضربة ضد الكفار. وفي الوقت نفسه أرسل حكام غرناطة عددًا من المبعوثين لطلب الدعم من أي دولة مسلمة يمكن أن تهب إلى نجدتهم. وعلى أية حال، لم يكن أي حاكم مسلم في المغرب أو مصر أو السلطان العثماني في إستنبول على استعداد أو قادرًا على مساعدتهم. ومع هذا فإن فرديناند قرر أن يضع استراتيجية تعزل غرناطة عن الموانئ على طول الجناح الجنوبي، ثم عزل العاصمة تمامًا. كانت أفضل أساليب غرناطة أن تهاجم كل قوة قشتالية بدورها. اعتمادًا على حقيقة أن خيالتها الذين امتازوا بالسرعة يمكنهم التحرك بقدر أكبر من السهولة من جبهة إلى أخرى. أما ما جعل دفاعهم ينهار في نهاية الأمر فكانت الفرقة والتشرذم. فقد انقسمت الأسرة الملكية في شراذم عديدة. وقد عزموا على محاربة بعضهم البعض بدلاً من محاربة العدو الخارجي. وفي بعض الأوقات كانت إحدى المجموعات قد استولت على مدينة غرناطة وحاصرت مجموعة أخرى في قلعة وقصر الحمراء في أعاليها. وفي أوقات أخرى كان بعض الأشخاص القياديين في غرناطة متحالفين مع المسيحيين على حين كان آخرون يناضلون ضدهم على أرض المعركة.

بينما كان الأرستقراطيون الغرناطيون غارقين في مشاجراتهم التافهة. كانت قافلة الحصار الإسبانية تزحف بكامل ثقلها ضد المدينة- الميناء ملقة في أواخر ربيع سنة ١٤٨٧م وسرعان ما كان أكثر من ستين ألف رجل يعسكرون حول ملقة. ومعهم فرق من ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا وأجزاء أخرى كثيرة من أوربا. وكل محاولة قام بها المحاصرون للتغلب على الدفاع باستخدام أبراج الحصار والهدم أحبطها المسلمون. وقد لاحظ مؤرخ حرب غرناطة فرناندو دي بولجار **Fernando de Pulgar** أن «ومن ذا الذي لا يتعجب من القلب الجسور لهؤلاء الكفار في المعركة، وطاعتهم التامة لرؤسائهم، وخفتهم في خدع الحرب، وصبرهم تحت الحرمان وبسالتهم في

الحفاظ على مقاصدهم»[٦٩]. وقد جعلت قوة مقاومتهم القشتاليين يحاربون من أجل كل ياردة من الأرض. وقال بولجار إنهم بدوا راغبين في قتل المسيحيين أكثر من رغبتهم في الحفاظ على حياتهم. وعلى الجانب المسيحى كانت وحشية القتال تعنى أن الرغبة فى الانتقام كانت تعلو فوق الرغبة فى المكسب المالى. ولم يحاول أحد أن يتخذ أسرى. كانوا يريدون فقط أن يقتلوا أو يصيبوا العدو بالعجز. ولكن عندما طال الحصار بدأ سكان المدينة يعانون الجوع. ووفقًا لأحد المصادر العربية، عندما نفد مخزون الطعام اضطروا إلى أن يأكلوا أى شىء يمكن أن يؤكل، الخيول، والبغال، والحمير، والكلاب والجلود وأوراق الشجر. وعند ذلك فقط بدأوا يسعون إلى شروط الاستسلام[٧٠].

ولكن فرديناند لم يكن ليعطيهم شيئا فى هذه الحال، وهكذا كان عليهم أن يواجهوا الموت أو العبودية. وعندما استسلمت المدينة وقلعتها فى نهاية الأمر بعد حصار ثلاثة أشهر، احتفل فرديناند وإيزابيلا ومعهم بلاطهما بأسره بصلاة القداس فى المسجد الرئيسى، الذى كرسوه بسرعة كنيسة سانت مارى للتجسد المقدس. وفى الوقت نفسه سيقت طوابير طويلة من أهل ملقة إلى العبودية. وعلى أية حال، قدر لمجموعتين أن تلقيا مصيرًا خاصا، اثنا عشر مسيحيا اعتنقوا الإسلام بعد أن كانوا قد هجروا المسيحية، وسيقوا إلى ساحة مفتوحة وجردوا من ملابسهم وربطوا فى أعمدة قائمة. وحكم عليهم بالقتل بقصبة مسنونة **acanavereado**. وكان الخيالة فى الجيش قد أعطوا حزمة من القصب المسنون التى قطعت بسن مدببة رفيعة ويسوقون للأمام والخلف، ليقذفوا رماحهم التى صنعوها على عجل على المرتدين المربوطين. وتحسنت دقتهم حتى صارت أجساد المدانين أشبه بنماذج شهيد سان سباستيان. وقد انغرست فيها الرماح. هذا الإعدام المطول والتنكيلى استمر معظم النهار تحت حرارة الشمس قبل أن يموت آخر هؤلاء التعساء. ولاستكمال ما كان كاتب المؤرخة الأب **Abarca** قد وصفه بأنه «الاحتفالات والإضاءات التى تستحق أعظم الشكر للتدين الكاثوليكى من جانب مليكينا»، ثم حرق عددًا من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ثم عادوا إلى دين آبائهم أحياء وهم مربوطون فى الأعمدة[٧١].

كانت ملقة الحارسة على الطرق الجنوبية المؤدية إلى غرناطة. وسيطر فرديناند بالفعل على الطريق إلى ضاحية غرناطة نفسها. والمنطقة الأخرى الوحيدة حيث بقى المسلمون يمسكون بزمام السيطرة كانت النصف الشرقى من المملكة، ومعهم المدينة الحصينة الكبيرة بازا Baza التى تتحكم فى الطريق من ڤالنسيا إلى مرسية. وفى ربيع سنة ١٤٨٩م انتشرت قافلة الحصار القشتالية مرة أخرى، ولكن بعد خمسة أشهر لم تبد بازا استعدادا للاستسلام كما كانت فى اليوم الأول للحصار. وحتى المساء بدا وكأنها ضد المسيحيين. لأن فيضانا عارمًا مفاجئا اكتسح الكثير من المعسكر القشتالى ودمر معظم الطرق البدائية. وأرسلت الملكة إيزابيلا ستة آلاف عامل لإصلاح الطرق، وجاءت بشخصها لكى ترفع من الروح المعنوية المنهارة لقواتها. وعلى حد تعبير العبارات المتزلفة المنافقة لبيتر مارتير دى أنغييرا Peter Martyr d ` Anghiera (الذى صار فيما بعد مؤرخا مرموقًا لإسبانيا وإمبراطوريتها فى أمريكا) بينما تكدس المسلمون فى شرفات السور للمراقبة وصلت الملكة «يحيط بها جوقة من الجميلات. كما لو كانت تحتفل بمراسيم زواج ابنها، وبدا حضورها فى الحال أنه أدخل المسرة علنيا وأعاد الحياة إلى روحنا المعنوية. التى كانت قد تهاوت تحت السهر الطويل، والأخطار والإرهاق»[٧٢]. وكان لها الأثر المضاد على المدافعين الذين أرسلوا مفاوضين إلى فرديناند. كانت شروطه كريمة بقدر ما كانت تلك الشروط التى قدمها إلى أهل ملقة قاسية. وتم الاتفاق على الاستسلام بسرعة، وفى يوم. ديسمبر سنة ١٤٨٩م، ركب فرديناند وإيزابيلا إلى داخل بازا. على حين تم رفع علم عليه صليب. وبسقوط المدينة، كانت آخر مدينة حصينة غير غرناطة قد وقعت فى الأيدى المسيحية.

بيد أن تكلفة الحرب كانت تتزايد يوميًا. فقد كان لدى الملك والملكة ثمانين ألف رجل فى الميدان وكان مفهومًا أن فرض حصار على غرناطة نفسها مشروع أكبر بكثير من ملقة أو بازا. كان العمل أشبه بالهجوم العثمانى على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م منه بأى شىء كانت الجيوش الإسبانية قد حاولت القيام به. وقال بيتر مارتير إن التجار الجنوية. الذين يسافرون إلى كل مكان. أعلنوا أن هذه أكبر مدينة محصنة فى العالم»[٧٣]. ولكن بخلاف القسطنطينية، بحاميتها الضئيلة التى لم تكن

كافية بالمرة للدفاع عن أسوارها الطويلة، كانت غرناطة مكدسة بعشرين ألف رجل مسلح. بما فيهم من بقى من حامية بازا وجواديكس Guadix. والذين عقدوا العزم على الدفاع عن آخر قطعة أرض إسلامية فى الأندلس. كانت المرتفعات فوق المدينة مسورة وتحظى بدفاع كثيف وتشرف على السهل أسفلها. وكانت المدينة نفسها محاطة ولا يمكن الهجوم عليها سوى من الأمام. وقد ربط وليم هيكلينج برسكوت William Hickling Prescott. فى كتابه الذى يحمل عنوان History of the Reign of Ferdinand and Isabella بين غرناطة وبين شجرة بلوط راسخة «هى آخر ما بقى من أشجار الغابة تتحدى العاصفة التى كانت قد اقتلعت جميع أخواتها»[٧٤].

وهكذا جلس القشتاليون قبالة المدينة وانتظروا استسلامها. ومن ربيع سنة ١٤٩٠م إلى شتاء ١٤٩١م انتظروا. وكان التأخير تقطعه هجمات مفاجئة من العدو تخرج من بوابات غرناطة. واشتباكات فردية. ومواكب وخدمات كنسية وسط المدينة التى أقيمت من الخيام. وفى بواكير سنة ١٤٩١م. تم بناء معسكر دائم أطلق عليه اسم «العقيدة المقدسة» Santa Fe. وهو الاسم الذى أطلقته على المعسكر إيزابيلا نفسها، وقد أقيم على شكل الصليب. وفى النهاية. بدأت عصبة صغيرة من أعيان المدينة يتفاوضون سرا للاستسلام فى أكتوبر ١٤٩١م. ومرة أخرى أدى التشرذم والخلاف والانقسام إلى تقويض القضية الغرناطية. ولتحاشى هجوم أطول، أو المخاطرة بالتعرض لهجوم. كان من المعقول بالنسبة للمسيحيين أن يقدموا شروطا مقبولة. ووافق مفاوضو فرديناند على كل ما طلب منهم. وكان من الشروط أن يسمح لمسلمى غرناطة أن يبقوا فى مواطنهم أو يهاجروا إلى شمال أفريقيا حسب رغبتهم. أما حقوقهم فى العبادة، وشرائعهم الخاصة، والحماية من الضرائب الظالمة. فقد تم ضمانها جميعًا. وحدهم. كان يهود غرناطة هم التعساء. وربما تحسبًا للمصير الأفدح الذى كانوا سيلاقونه. فإن أولئك الذين لم يتحولوا إلى المسيحية «كان عليهم العبور إلى شمال أفريقيا فى غضون ثلاثة أعوام»[٧٥].

وتم عقد الاتفاق سرًا بشكل رسمي، بيد أن بعض سكان غرناطة شموا رائحته، ثمة مسلم... بدأ الصيحة داخل المدينة، قائلا بأنهم كانوا سينتصرون إذا ما خلعوا محمدًا وإذا ما تحدوا الاتفاق. وأخذ يجوب أنحاء المدينة صائحًا وثار معه عشرون ألفًا من المسلمين. وتقرر تقديم يوم الاستسلام الرسمي من. يناير إلى. يناير. وفي يوم أول يناير، قام واحد من ضباط فرديناند، هو جوتيير دى كاردنياس Gutierre de Cardenas بقوة من المحاربين المجربين باستلام مفاتيح القلعة واحتل جميع النقاط الرئيسية بالقلعة. وعندما تلقى فرديناند المفاتيح في اليوم التالى من الأمير محمد الثانى عشر الذى تعرفه المصادر الإسبانية باسم Boabdil (أبو عبدالله، الذى قبَّل يده، كان ذلك حدثًا فذا بالنسبة للشعراء والمؤرخين. لقد حدث انتقال السلطة بالفعل: لقد استسلمت الأندلس للغازية، إسبانيا الخالدة.

وقد احتفى معظم المؤرخين. والشعراء والفنانين القشتاليين بتحقيق وعد الرب لشعبه. وعلاوة على ذلك كانت نهاية الأندلس مجرد مرحلة في تقدم صليب المسيح الذى كان له أن يقود إلى استرداد الأرض المقدسة نفسها. ففى سنة ١٥٠٦م كان من المفروض أن فرديناند. مع قريبيه إيمانويل ملك البرتغال وهنرى الثامن ملك إنجلترا «سوف يزحفون عبر شمال أفريقيا إلى بيت المقدس»[٧٦]. كانت العواقب المعنوية لإنهاء الحكم الإسلامى فى إسبانيا هائلة. كان منح لقب الملكين الكاثوليين Los Reyes Catolicos إلى فرديناند وإيزابيلا فى سنة ١٤٩٤م من قبل البابا ألكسندر السادس فى أساسه مكافأة على غزو غرناطة وطرد اليهود من إسبانيا[*]. لقد ركز الوهم التخيلى للحروب الصليبية، أو «الاسترداد» على استمرارية الماضى الفيزيقوط- المسيحى الوهمى. لأن اللقب نفسه له صدى تاريخى. فقد كان الملك ألفونسو الأول ملك أشتورياس هو الآخر ملكًا «كاثوليكيا». كما كان بطرس الأول ملك أراجون فى القرن

(*) مرة أخرى تبدو فجاجة الدعاية الصهيونية فى إقحام اليهود- دون سبب علمى- فى سياق الحديث عن حوادث تاريخية تتعلق بالصراع الإسلامى / المسيحى. ويبدو أن المؤلف كان بحاجة دائمة لمن يذكره بأن اليهود خارج موضوع بحثه. لقد صار هذا عبثا لا مبرر له (المترجم)

الثالث عشر. لقد أدى التفخيم المكثف للعقيدة الكاثوليكية إلى إعادة كتابة الماضى وأخرست أصوات الثقافات التى جرى تدميرها فى سياق هذه العملية إلى حد كبير.

وتسجل الأسطورة (والتاريخ) «تنهيدة المسلمين الأخيرة». عندما تنهد آخر الأمراء أبو عبدالله Boabdil حزنا على ضياع غرناطة. بيد أن هذا ليس سوى رثاء للخضوع إنه لا يحمل معنى المقاومة. التصميم على الموت بدلاً من الخضوع. ولكنه يحدد خصائص الحرب الطويلة من أجل غرناطة على نحو أفضل. وسجل المؤرخ القشتالى، فرناندو دى بولجار حادثة صغيرة يمكن الوثوق بها أكثر من شخصية الأندلس، وكانت تنبؤية بالآلام النهائية التى سيعانيها المسلمون فى إسبانيا. فقد حكى قصة نساج مسلم بسيط فى لوخا Loja ١٤٨٥م. وعندما استعدت زوجته وجيرانه للهروب من القشتاليين استمر يعمل على نوله. وعندما توسلوا إليه أن يلحق بهم، رفض توسلاتهم. «أين تريدنا أن نذهب. أين يجب علينا أن نسعى للحفاظ على أنفسنا. من الجوع. من السلاح الأبيض؟ أم من الاضطهاد. يا زوجتى إننى أقول لك إنه ما دمنا لا نجد لنا صديقًا تأخذه بنا شفقة على تعاستنا ويخلصنا منها، فإننى أفضل الانتظار لعدو يطمع فيما نملك وسوف يقتلنى. إننى أفضل الموت هنا بالسلاح الأبيض بدلاً من الموت لاحقا بالأصفاد والقيود. لأن لوخا، التى تحدت المسيحيين ذات مرة ودافعت عن المسلمين، قد صارت مقبرة المدافعين عنها ووطنا لأعدائها»[٧٧].

وإذا رفض أن يغير رأيه بقى الرجل فى منزله حتى اقتحمه المسيحيون وقتلوه.

هوامش الفصل الرابع

1. See Dodds, *Architecture*, pp. 94–6.
2. In much the same way that the Ottoman Turks centuries later adapted the architectural traditions of the Byzantines in building their state mosques. See Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture*, London: Thames and Hudson, 1971.
3. From a Spanish translation of Ibn Idhari, *Al Bayan al Mughrib*.

٤- امتدت الحفريات الآن حوالى عشرة هكتارات ، أى أقل من عشرة بالمائة من المائة واثنى عشر هكتارًا التى كانت تضم القصر كله . كان القصر مبنيًا على أرض مرتفعة تطل على النهر الكبير، وكان سكن الخليفة الخاص مثل شرفة تطل على الريف. انظر :

،Las Andalucias de Damasco a Cirdoba، Paris ، Editorial Hazan

٢٠٠٠، pp. ٦٤-٥.

5. For Abd al-Rahman's palace reception and its impact, see Dozy, *Spanish Islam*, pp. 446–7. The entry of Caliph Omar into Jerusalem and, specifically, whether he was riding upon an ass, a horse or a camel has its own hotly disputed symbolism; see http://answering-islam.org/Responses/Al-Kadhi/r06.14.html. The significance of his riding an ass is that it would have echoed the prophecy of Zechariah 9:9 – 'Behold, thy King cometh unto thee; he is just, and having salvation; lowly, and riding upon an ass, and upon a colt the foal of an ass.' It was widely known that Christ had entered the city on an ass, in fulfilment of that prediction. Another echo was that of al-Buraq, a magical beast that had carried the Prophet Mohammed to Jerusalem on his night journey, and which was often depicted as part winged ass and part mule. These complex resonances also have a more modern context. In 1918 General Allenby, followed by his staff, had deliberately dismounted from his horse so as to enter Jerusalem respectfully on foot, unlike the German Kaiser Wilhelm II who on his visit ten years before had been driven through the Jaffa Gate in great state. Allenby's

Christian humility was ordered by the Foreign Office to contrast with the emperor's apparent Teutonic arrogance.

6. Ibid., p. 447.
7. See R. A. Fletcher, *Saint James's Catapult: The Life and Times of Diego Gelmírez of Santiago de Compostela*, Oxford: Oxford University Press, 1984, pp. 56–8.
8. Castro, *Structure*, pp. 130–45.
9. See Dozy, *Spanish Islam*, p. 519.
10. Ibid., p. 520. Castro, *Structure*, says that the bells were *melted down* to make lamps for the mosque.

١١– يضفي بروس لينكولن بعض المعنى فيما يتعلق بالمقصود بالهجوم على الجوانب الرمزية للضريح عندما يصف الهجوم على شعائر الكنيسة عند بداية الحرب الأهلية الإسبانية فى سنة ١٩٣٦م "إن قصد أعداء الكنيسة أن يبينوا بوضوح قاطع وعلنى أن الصور لا قوة لها ومن ثم يوقعوا إهانة مزدوجة على أبطالها ، أولا بعرض إفلاس رموزهم وثانيًا عدم قدرتهم فى مواجهة الهجوم" . انظر:

Bruce Lincoln Discource and the Construction of Social Boundaries,

Oxford University Press ، Oxford ١٩٨٩، pp. ١٢٠–١٢١ .

12. *Historia Silense*, written in Leon in about 1115.
13. In the case of the Wahabis in the nineteenth and twentieth centuries in Arabia, they desecrated even Muslim sites, proclaiming them idolatrous.
14. This was against the law and practice of Islam.
15. E. Lévi-Provençal, 'Les Mémoires de Abd Allah', *Al-Andalus* 4 (1936), pp. 35–6.

١٦– اسمهم صورة إسبانية من كلمة «المرابطين» ، التى تعنى أولئك الذين جاءوا من الرباط. وهى معسكرات كان يمكن للمحاربين المسلمين المختارين أن يعيشوا فيها حياة النسك والزهد. وقد كانت المدن العسكرية الأولى للجيوش العربية، مثل الكوفة أو القيروان تقوم بالوظيفة نفسها، شأنها شأن المستوطنات الوهابية فى شبه الجزيرة العربية فى العصور الحديثة.

١٧– مثل ذريتهم فى العصر الحديث ، أى الطوارق .

17. Like their modern descendants, the Tuareg.
18. See Chejne, *Muslim Spain*, pp. 69–72.
19. Ibn Idhari, *Al Bayan al Mughrib*, cited in Chejne, *Muslim Spain*, p. 72.

٢٠- قليل من المصطلحات أكثر إرباكا أو أسيء استخدامهاواعتبرتها الدوائر الإسلامية جهادًا، ولم يكن المصطلح لينطبق على الحرب وحدها ، لأن "النضال" يمكن أن يكون داخليًا وأخلاقيًا مثلما يكون عسكريًا . كذلك فإن الصراع المسيحى فى "الحملة الصليبية" كان ملتبسًا بالغموض ، فقد كانت هناك حملات صليبية ضد الأعداء العلمانيين للبابوية أو الهيراركية الكنسية ، وضد الهراطقة ، مثلما كانت ضد المسلمين . ولكن مفهوم الجهاد يمكن إثارته من جانب أحد الحكام ، وما إن يحدث هذا حتى كانت طبيعة الصراع تتغير . هناك قدر كبير من الأدبيات حول هذا الموضوع ، ولكن من أجل منظور واسع، انظر:

.Johnson and Kelsay، Just War

(p. ٢٧٧)

21. María Jesús Rubiera Mata has pointed out that the 'tolerance' of Toledo is a misnomer, being much more an accommodation between Muslims and Christians. Against that should be set regular attacks on the Jews of the city. See 'Les premiers Mores convertis ou les prémices de la tolérance', in Cardaillac, *Tolède*, pp. 102–11.
22. *The Poem of the Cid* (anonymous), translated by Rita Hamilton and Janet Perry, Harmondsworth: Penguin, 1975, p. 55.
23. Ibid., p. 71. (Corneille produced his own version of the heroic deeds of Rodrigo in his play *Le Cid* of 1637.)
24. Ibid., p. 98.

٢٥- عن هذا الانتقال انظر : Fletcher، Quest، pp .١٩٣-٢٠٥

ومن الواضح أنه عند هذه المسافة الزمنية، أن الحدود بين التاريخ والأسطورة ، قد تشوشت وخضعت للتفسير . ولكن الرغبة فى بناء نمط مثالى من الإسبانية، سواء من خلال السيد أو حتى دون كيخوته ، الذى كان أيضا قد اصطنع لكى يخدم غرضا نمطيا مشابهًا ، تمثل سمة مستمرة فى الماضى الإسبانى.

26. See Eduardo Manzano Moreno, 'The Creation of a Mediaeval Frontier: Islam and Christianity in the Iberian Peninsula, Eighth to Eleventh Centuries', in Power and Standen, *Frontiers*, p. 52.

27. Cited in O'Callaghan, *History*, pp. 344–5.
28. Many Muslims had lived in Old and New Castile and the Kingdom of Aragon for several generations, and though in a minority were a settled part of the population. They were very different from the newly conquered communities in the south. See Harvey, *Islamic Spain*, pp. 51–2.
29. Cited in ibid., p. 66.
30. See Smith, *Christians and Moors*, vol. 2, p. 94, (my translation).
31. In 1408, Queen Catalina, regent for the young Juan II, ordered that Moors should wear a blue moon on their clothes and, four years later, that no one should address a Moor with the courtesy title *Don*. She even decreed that all Moors and Jews should live within their own communities and should not work for Christians. But the decrees were not effective and, in 1418, the status quo ante was restored; see Hillgarth, *Spanish Kingdoms*, vol. 2, p. 129.
32. This story is told in Nirenberg, *Communities*, pp. 146–8.
33. From the *Siete Partidas*. The Muslim and Jewish communities were even more anxious to preserve the separation of the communities.
34. This is the point that Gabriel Martinez-Gros raises against Pierre Guichard's *Structures sociales orientales et occidentales dans l'Espagne musulmane*, Paris: Ecole des hautes études en sciences sociales, 1977. Martinez-Gros regards an 'Andalusian identity' as a form of Orientalism: 'About the first hundred pages of Pierre Guichard's book are devoted to defining the characteristics of "Occident" and "Orient" as a benchmark from which we can judge the society of Al-Andalus . . . The "Occident" is derived from the Carolingian epoch, where we return to the first centuries of the history of Al-Andalus. The "Orient", by contrast, finds its essential framework and definitions in the studies of modern anthropologists, well versed in understanding the mountains of the maghrib, the marshes of Southern Iraq, or the deserts of Arabia, as if a sort of Eternal East existed, eternally preserved for good or ill within history.' He suggests that the evidence used by Guichard will not sustain the elaborate superstructure built upon it; see Martinez-Gros, *Identité Andalouse*, p. 117.
35. See Mikel de Epalza, 'Pluralisme et tolérance, un modèle tolédan?' and Jean-Pierre Molénat, 'Mudéjars, captifs et affranchis', in Cardaillac, *Tolède*.
36. See Lapiedra Gutiérrez, *Como*, pp. 67 sqq. Logically, Jews should also have been called *kafir*. No doubt they were, but more often it seems were referred to as *yahudun* or *hudun*; see Rubin and Wasserstein, *Dhimmis*.
37. See Lapiedra Gutiérrez, *Como*, pp. 189–247.

٣٨– هذا الاستخدام الذى يشير إلى بشر قد حدد ، من منظور سلبى ، الكراهية "للآخر" على أنها بدافع من مرض كراهية الأجانب ، موجهة تجاه كائن بربرى غير متحضر ؛ وهو استخدام له مضامين مهنية واضحة. وعلى النقيض من ذلك ، كان المتحدثون من العرب المسلمين يتمتعون، ضمنا بالمزايا المناقضة، ضمنا، أى أنهم كانوا متحضرين ، مثقفين؛ وهم لم يتخلوا عن أنفسهم تاركيها لعواطفهم الجامحة ؛ فقد حكمتهم كوابح التعليم والثقافة التى علمتهم أن يسيطروا على غرائزهم البدائية.

. ١٩٣ .Ibid، p

(p. ٣٧٨)

39. Abdullah Thabit, 'Arab Views of Northern Europeans in Medieval History and Geography', citing Shams al Din al-Ansari, *Kitab Nukhbat al-Dahr fi 'Aja'ib al-Barr wa al-Bahr*, in Blanks, *Images*, pp. 74–8.
40. A modern view is: 'As regards the people of the Book [i.e. the Jews and the Christians] who do not accept the Prophethood of Prophet Muhammad bin Abdullah (Peace be upon him and his progeny), they are commonly considered najis, but it is not improbable that they are Pak. However, it is better to avoid them.' See section on *kaffir* @ www.al-islam.org/laws/najisthings.html
41. 'Islamic tradition has long identified the baser human tendencies, referred to collectively as "nafs", with wild beasts such as the dragon or wolf'; see Renard, *Islam*, pp. 213–14.
42. For a remarkable and wide-ranging analysis of the 'meaning' of the pig, see Fabre-Vassas, *Singular Beast*. Despite its title, much of its content has a resonance for the reaction in Muslim societies to the pig. However a 'sea pig' is not *najis*. See clarification of *najis* @ www.al-islam.org/laws/najisthings.html
43. Cited Hillgarth, *Spanish Kingdoms*, vol. 2, pp. 138–9.
44. Ibid., pp. 142–3.
45. Cited ibid., p. 140.
46. See Sicroff, *Controverses*, pp. 32–6.
47. Ibid., p. 35, note 37, citing Alonso de Cartagena, *Defensorium Unitatis Christianae*.
48. Ibid., p. 26.
49. Pope Nicholas V condemned the Toledo decree as against the laws of God. I owe the recension of Christian attitudes to the Jews to Professor Robert Michael.

50. The range of occupations open to Jews was restricted.
51. Cited Sicroff, *Controverses*, pp. 116–17. He found various manuscript copies of similar letters from the Jews of Spain to those of Babylon. The original texts were attributed by some authorities to Juan Martínez Siliceo, Archbishop of Toledo.
52. This episode is described in Harvey, *Islamic Spain*, pp. 232–3.
53. Cited ibid., pp. 258–9.
54. See Hillgarth, *Spanish Kingdoms*, vol. 2, pp. 363–4.

٥٥– كان مصطلح **Judaizers** (المتهودون) يستخدم أولاً فى الكنيسة الباكرة للدلالة على مجموعة تسعى إلى ربط المسيحية بالشريعة الموسوية والتراث اليهودى. وفى أيدى محاكم التفتيش الإسبانية، منذ القرن الخامس عشر ، صار هذا المصطلح وسيلة للتحقيق مع المسيحيين الجدد من أصل يهودى والسيطرة عليهم. وقد جمع نتيناهو فى كتابه :

Benzion Netanyahu، The Origins of the Inquisition in Fifteenth Century Spain ، New York ، NY ; New York Review of Books، ٢٠٠١ ،(٢nd edn).

كمية كبيرة من الأدلة ويجادل بحرارة بأن أولئك الـ "**Judaizers**" كانوا إلى حد كبير وهما، تم بناؤه لكى يسيطروا على جماهير المتنصرين، ومنعهم من أن يأخذوا مكانهم فى المجتمع المسيحى. وقدمت محاكم التفتيش رؤية عن مؤامرة للتهويد، ولكن الأرجح كثيرا أن كثيرًا من المتنصرين كانوا يعرفون القليل عن العقيدة المسيحية وكانوا ما يزالون يعيشون داخل ثقافة تحمل صدى قويًا لأصولهم. عن هذه الرؤية انظر:

David Nirenberg ، "Mass Conversion and Genealogical Mentalities : Jews and Christians in Fifteenth – Century Spain"، Past and Present ١٧٤ (February ٢٠٠٠)، pp. ١–٤١ .

(p. ٣٨٠)

56. See the works of Dechado Iñigo de Mendoza. Madrid: Nueva Biblioteca de Autores Españoles. 1902–28. 19:72.
57. See Edwards, *Spain*, pp. 222–3.
58. Cited D. Nicolle, *Granada 1492: The Reconquest of Spain*, London: Osprey Publishing, 1998, p. 16.
59. Washington Irving, *Tales of the Alhambra*, Granada: Miguel Sanchez Editor, 1976, p. 19.
60. Ibid.
61. Edwards, *Spain*, p. 169.
62. Cited by Prescott, *History*, p. 191.
63. This was a Sufi image. For Shi'ites, each seed represented the tears shed for the murder of Hussain at Kerbala. See Malek Chebel, *Dictionnaire des symboles musulmans: Rites, mystique et civilisation*, Paris: Albin Michel, 1995, pp. 186–7.
64. See Ladero Quesada, *Granada*, pp. 171–4.
65. D. Nicolle, *Granada 1492: The Reconquest of Spain*, London: Osprey Publishing, 1998, p. 47.
66. But Ferdinand and Isabella were fortunate when Mohammed XII, known to the Spaniards as Boabdil, who was the son of Granada's emir, was captured in a skirmish. They signed an agreement with him and thereafter fostered his growing sense of rivalry with his father.
67. It eventually succumbed in 1486 when an incendiary projectile blew up the arsenal.
68. Prescott, *History*, p. 258.
69. Ibid., p. 264.
70. Nubdhat al-asyr', cited by Harvey, *Islamic Spain*, pp. 299–300.
71. Prescott, *History*, p. 269.
72. Ibid., p. 282.
73. Ibid., p. 292.
74. Ibid.
75. Cited Harvey, *Islamic Spain*, p. 321.
76. See Dupront, *Mythe*, vol. 2, p. 791.
77. Cited Harvey, *Islamic Spain*, p. 290.

(٥)

إسبانيا الخالدة

العام ١٤٩٢م، لحظة الانتصار في غرناطة عندما «استرد» المسيحيون في النهاية آخر الهكتارات في إسبانيا. يبدو عامًا مختلفًا لكل جيل. فقد وجد الكتاب والرسامون في القرن التاسع عشر أنه يحمل إغراء خاصًا. فبعد أربعة قرون من الحدث. أضفى كل من واشنجتون إيرفنج، ومعاصره القريب رسام التاريخ فرانسيسكو براديلا إي أوريتز، Francisco Pradilla. Ortiz. الرومانسية على الحدث. ففي وصف إيرفنج للاحتفالات كان فرديناند وإيزابيلا:

«أخيرا ... رأيا الصليب الفضي، والعلم الكبير لهذه الحملة الصليبية، المرفوع على Torre de la Vella. أو برج المراقبة الكبير، ويلمع في أشعة الشمس... وبجانبه كان مزروعًا راية الحوارى المجيد سان جيمس. وعلت صيحة عظيمة تقول «سانتياجو، سانتياجو» بين جنود الجيش كله. وأخيرًا جاءت الراية الملكية يحملها فارس مسلح. مع صيحة تقول. قشتالة. قشتالة للملك فرديناند والملكة إيزابيلا» وردد الجيش كله هذه الكلمات ... وعند رؤية هذه الإشارات بالامتلاك ركع الملكان. وتوجها بالشكر إلى الرب على هذا النصر العظيم. وبينما حذا الجمع الغفير المحتشد هناك حذوهما وانطلق أفراد الكورس التابعون للكنيسة الملكية إلى الأمام في ترنيمة رزينة نشكرك أيها الرب Te Deum laudamus»[١].

ثم تحرك الموكب كله إلى الأمام باتجاه القلعة، في الطريق لمقابلة آخر أمير يغادر المدينة للمرة الأخيرة. وكان هذا هو الحدث الذي خلده براديلا إي أورتيز. أبو عبدالله

ممسكا مفاتيح القلعة وفرديناند ينحنى انحناءة خفيفة إلى الأمام على فرسه، ويده ممدودة لتلقى المفاتيح. ولكن الملكة إيزابيلا، التى كانت تتألق فوق جواد صغير ناصع البياض، هى التى حكمت الصورة.

وعلى أية حال، كان هو الفنان الأول الذى رسم هذا المشهد والذى اقترب من المعنى المركزى للاسترداد ودور إيزابيلا فيها. أما الرسام البورجوندى فيليب دى فيجارنى **Philippe de Vigarny** فكان موظفا فى إسبانيا منذ ١٤٩٨م، وقد أبدع مع آخرين المذبح الفاخر المزخرف بالعديد من الألوان فى كتدرائية بورجوس **Burgos** وكان مشتركا فى الخطط الأولى لبناء الكنيسة الملكية فى غرناطة سنة ١٥٠٥م. وعندما أمر الإمبراطور شارل الخامس ببناء القبر الخاص بجديه على مقياس كبير، كان فيجارنى مسئولا إلى حد كبير عن النقش المعمول من الخشب المحفور والمدهون. وقد عرف الرسالة التى رغب فرديناند فى توصيلها ومن المعقول أن نفترض أن هذا الأثر الذى يمجد الرب قدم الإلهام بدقة إلى الملوك الكاثوليك. وكان الهيكل على شكل رواق الأعمدة فى كنيسة من عصر النهضة ومن خلال مجموعة من لوحات مطلية ومنحوتة بدقة تمثل حادثة الصلب، والقديسين، وشهداء الكنيسة، والملائكة الذين يصعدون جميعا فى صفوف إلى اليمامة المقدسة، والرب نفسه فى قمة الصور. وعند كل من الجانبين ركع فرديناند وإيزابيلا، بزاوية ليست فى اتجاه البؤرة المركزية للهيكل، وإنما يواجهان أحدهما الآخر. ومن هذا ربما كان مقصودا أن المشاهد سوف يستوعب الحب العظيم والمقدس الذى كان يكنه كل منهما للآخر[٢].

وتحتها، على قاعدة المذبح أو الهيكل، كانت لوحة أخرى من ألواح خشبية محفورة، وعليها استقر البناء الفوقى كله (مجازيا وحرفيا). وتحكى هذه اللوحة قصة الاستيلاء على غرناطة. وتحت التمثال الشخصى لفرديناند كانت حكاية الحرب والدخول الظافر إلى المدينة، والملكة فى المقدمة. وتحت إيزابيلا رسمان يصوران لحظة الذروة فى الغزو، رغبة الملكة الحماسية، التى تمثلت فى تحول المسلمين إلى المسيحية. كان هذا هو فعل «الإطاحة بالطائفة المحمدية» الذى نقش على مقبرتها، وميز الذروة الحقيقية لحركة الاسترداد **Reconaquista**.

وقد ثار جدل استمر طويلا حول ما إذا كان الشريك المسيطر هو فرديناند أم إيزابيلا. وتقترح الصور والتماثيل أنها كانت إيزابيلا. بيد أنه يمكن طرح السؤال بطريقة أخرى، والإجابة عليه تتعدى السؤال. هل كان النصر نصرا لقشتالة أم لآراجون. لقد قادت قشتالة وكانت إيزابيلا التجسيد لتراث طويل من الإيديولوچية السياسية القشتالية. وقد ورث فرديناند التقاليد نفسها: فقد كان جون الأول ملك قشتالة الجد الأكبر لكل منهما. والواقع أن العروة الوثقى التى جمعت نسبهما قد أوجدت مشكلة كبيرة. فعندما تزوجا فإنهما فعلا هذا دون الترخيص البابوى الجوهرى الذى يسمح بالزواج بين أبناء العم. وكانا قد اعتمدا على وثيقة كان قد جرى تزييفها. وهكذا لم تكن مسألة إيزابيلا التى تمثل قيم قشتالة وفرديناند الذى يمثل قيم أراجون. لقد كانا وريثين لميراث مشترك.

بيد أنه كان هناك تمييز بينهما. فقد كان فرديناند قد ولد فى أراجون على حين كانت إيزابيلا ابنة قشتالة. ولدت فى مادريجاس دى ألتاس توريس **Madrigas de las Altas Torres** بالقرب من مدينة دل كامبو **Medina del Campo**. وكانت أيضا ملكة قشتالة. والوريث المباشر لتراث ملكى طويل فى قشتالة وليون، والوريث لأشتورياس ومملكة القيزيقوط شبه الأسطورية. وعلاوة على ذلك. فإن فكرة الوطن ومكان الميلاد، فكرة الأرض التى يسميها الإسبان **Chica** (مفهومة حقا ولكنها أقرب ما تكون إلى أرض الوطن) كانت قلب «إسبانيا» التى حارب كل من الملكين الكاثوليكيين لاستعادتها. ومفهوم الاسترداد. أى الامتلاك الكامل للأرض التى سرقت من «الإسبان» ومن عالم المسيحية بواسطة المسلمين (وحلفائهم اليهود) كان موجودًا بغض النظر عن الحقائق السياسية فى شبه الجزيرة الإيبيرية.

والخطط التى بدأ فرديناند وإيزابيلا يضعانها موضع التنفيذ فى أثناء إقامتهما لأشهر قليلة فى قصر الحمراء سنة ١٤٩٢م كانت موجودة فى الأفكار والإلهامات التى فى التاريخ. ولكنها كانت أيضا ممزوجة بروح الفرصة الجديدة. ولم تعد هناك ضرورة للتطويعات والمراوغات القديمة للماضى. فقد توقعوا أن يعتنق المسلمون المسيحية بأعداد كبيرة، كما كان اليهود قد فعلوا فى أثناء الجزء الباكر من القرن. وكان

قسيس الاعتراف الخاص بإيزابيلا. هرناندو دي تالافيرا Harnando de Talavera. رئيسًا لأساقفة غرناطة. وبدأ في التو يطبق خططًا لشرح الحقيقة وحق المسيحية في قيادة المسلمين في المدينة. وكان التنصير يجب أن يكون حقيقيًا وليس إجباريًا إذا ما أريد له أن يكون صلبا ومخلصًا. وعلى أية حال. كانت المشكلات الناجمة عن هذه السياسة قد ظهرت بالفعل في حالة اليهود. فقد كان أولئك الذين تنصروا. بسبب محاكم التفتيش. ربما «يرتدون» إلى عاداتهم وتقاليدهم القديمة في الحياة. وكان وجود كل من اليهود والمسيحيين الجدد داخل إسبانيا يشي بوجود العراقيل في مسار التنصير الرباني. وكان الرد على ما يسمى «المتهودون «Judaizer»». الذين قوضوا الديانة المسيحية الجديدة للمتنصرين، تتمثل في إزاحة هؤلاء الذين يمارسون الإغواء من أرض إسبانيا .

وبدأت العملية في غرناطة يوم ٣١ مارس سنة ١٤٩٢م عندما أصدر فرديناند وإيزابيلا المنتصران مرسومًا يحدد طرد يهود إسبانيا. وكان النذير المسبق بموقف الملكين متضمنا في وثيقة الاستسلام التي وقعها المسلمون في غرناطة في نوفمبر ١٤٩١م. وقد كانت هذه الوثيقة قد صورت «نقل يهود غرناطة إلى شمال أفريقيا». وهناك قراران صدرا في الوقت نفسه في قشتالة وأراجون. بلا مواربة:

« واليهود المذكورون ... في مملكتينا عليهم أن يرحلوا ولا يعودوا أبدا إليهما ... اليهود مهما كانت أعمارهم ... ومعهم أولادهم وبناتهم. وخدمهم من الرجال وخادماتهم من النساء واليهود المألوفون. أولئك الذين من الكبار ومن هم أدنى، مهما كانت أعمارهم. عليهم ألاَّ يتجاسروا على العودة إلى هذه الأماكن. ولا يقيموا فيها ... وإلا تعرضوا لعقوبة الموت ومصادرة كل ممتلكاتهم».

وكانت الأسس التي قام عليها ذلك أن وجود اليهود المستمر لابد وأن يفسد شبه الجزيرة التي أعيد تنصيرها. وأخيرا صدر القرار في أبريل سنة ١٤٩٢م، ولم يطبق على المسيحيين من أصل يهودي: فقد بقي خيار التنصير مفتوحًا. وفي مايو أصدر فرديناند تعليماته لعضو محاكم التفتيش توماس دي تُوركويمادا Tomas de

Torquemada ألا يعيق أى يهودى عبَّر عن رغبته فى أن يصبح مسيحيًا ويعود إلى إسبانيا. وحتى بعد أن تم الطرد. أصدر فرديناند مرسومًا آخر من برشلونة بحيث يمكن لأى يهودى كان قد رحل أن يعود (على النقيض من المرسوم السابق) بشرط تقديم الدليل على أنهم قد تنصروا[٣].

ولكن ربما يكون قد تم طرد ما بين خمسين ألفا وثمانين ألفا من قشتالة وأراجون، بعضهم إلى شمال أفريقيا. وركب كثيرون منهم السفن إلى إيطاليا أو إستنبول. كانت الشروط شديدة الوطأة. فلم يكن مسموحًا للتجار الأثرياء أن يأخذوا أى ذهب أو فضة. على الرغم من أنه كان مسموحًا لهم ببيع ممتلكاتهم. وأى شىء يتركونه يكون من حق التاج. وفى الواقع. أنها كانت مصادر لكل شىء باستثناء ما خف حمله من ممتلكاتهم. وهذه الرواية المعاصرة عن وصولهم إلى جنوا فى طريقهم إلى الشرق تعبر عن مدى هذه المأساة الإنسانية. «لم يكن ممكنا لأحد أن يتأمل معاناة المنفيين اليهود دون أن يتحرك. فقد هلك عدد كبير جدا من الجوع، خصوصا صغار السن. فالأمهات اللاتى لا يقدرن على مساندة أنفسهن. كن يحملن أطفالهن الذين يتضورون جوعًا فى أذرعتهن ويموتون سويًا. وقد سقط كثيرون ضحايا البرد، وآخرون بسبب شدة الظمأ... ووصلوا جنوا جماعات. ولكنهم لم يعانوا البقاء هناك كثيرًا بسبب القانون القديم الذى يمنع المسافر اليهودى من البقاء أكثر من ثلاثة أيام. وعلى أية حال، سمح لهم أن يعيدوا تجهيز سفنهم وأن يستريحوا بضعة أيام من الإرهاق الذى نالهم فى رحلتهم. وربما يحسبهم المرء أطياف أشباح، فقد بلغوا حدا من الهزال. ومن الشحوب درجة جعلت عيونهم غائرة... وأغمى على كثيرين وقضوا نحبهم على حاجز الميناء»[٤].

ولكن بينما كان غرض الملكين الكاثوليكيين إيجاد إسبانيا مسيحية واحدة. مكونة من النصارى القدامى والنصارى الجدد، كان الاتجاه المضاد نحو إسبانيا منقسمة بأصلها يزداد قوة عن ذى قبل. ففى السنة الأخيرة من الحملة على غرناطة. كانت تبذل جهودًا كبيرة لاصطناع أدلة على أن اليهود والمتنصرين يمثلان خطرا وتهديدا

على إسبانيا. وفيما بين سنة ١٤٩٠م ونوفمبر سنة ١٤٩١م. لم تدخر محاكم التفتيش وسعًا (بما في ذلك نوبات التعذيب المتكررة) للبرهنة على أن عشرة رجال قد اختطفوا طفلاً من قرية لا جارِديا La Guardia بالقرب من طليطلة. وصلبوه. ثم نزعوا قلبه وشربوا دمه. وعلى الرغم من حقيقة أنهم لم يجدوا طفلاً مفقودا من القرية، فقد أُدين المتهمون في النهاية وأحرقوا أحياء. ونشرت تقارير عن المحاكمة وتم تداولها على نطاق واسع. وفي المحتوى اختلفت الادعاءات قليلا عن الدعاية والاتهامات المزيفة الموجهة ضد اليهود في أجزاء أخرى من أوروبا. وكانت القصة مماثلة بشكل مذهل لحالة سيمون الترنتي Simon of Trent. التي حدثت في شمال إيطاليا سنة ١٤٧٢م وهناك على خلاف قضية لاجوارديا، اختفى طفل صغير بالفعل وتم العثور على الجثة في النهر بعد أيام قليلة. وعلى أية حال. لم يكن هناك دليل على أية علاقة لليهود بهذا الموت. ولا يوجد أية إشارة بأن هناك أي بدائل معقولة وردت في الحسبان.

وعلى أية حال. فإن الحكايات المشوهة والاتهامات التي تطورت بسرعة حول سيمون الترنتي سرعان ما اتبعت النموذج الذي تم التعرف عليه في إسبانيا لاحقا[٥]. إذ إن العناصر نفسها، مثل الصلب. والختان والنزيف، ظهرت بشكل متكرر في القضايا التي رفعت ضد اليهود. وصار سيمون الترنتي موضوعًا شعبيًا للرسوم الدموية المرسومة على قطع الخشب، مثلما حدث في الموضوع الخيالي عن طفل لا جوارديا Infant of la Guardia الذي سمى فيما بعد Cristobal، أي «طفل مسيح»[٦]. وبعد أحداث لاجوارديا. صار الذعر الاجتماعي من المتنصرين Conversos عامًا، ولاحظ يوسف ييروشالمي Yosef Yerushalmi أن «عدم الثقة التقليدية في اليهود باعتبارهم أجانب تخلت عن مكانها الآن لخوف أكثر رعبًا من المتنصرين باعتبارهم من الداخل»[٧] فقد كان كثيرون في إسبانيا يعتقدون أن «وصمة» الميلاد اليهودي لا يمكن محوها أبدًا. وتشي قصص من هذا القبيل بقوة الحالة المزاجية الشعبية. وباطراد صار الاسم المستخدم آنذاك على نطاق واسع للدلالة على المتنصرين المارانو marrano. بمعنى الخنزير. ازدراء بالتلاعب بالتحريم اليهودي لأكل لحم الخنزير. أما الكلمة التي استخدمت للمرأة اليهودية التي تنصرت فكانت marrana، والتي باتت تعني عاهرة، أو امرأة قذرة[٨].

كانت النار التى التهمت اليهود والمتنصرين فى لاجوارديا تُعتبر بردًا وسلامًا أمام الشروط التى تمت الموافقة عليها لاستسلام غرناطة فى يناير ١٤٩٢م. وكان فى هذا المناخ الذى يلفه الخوف أن صدر بعد شهرين المرسومان الخاصان بالطرد. وعلى الرغم من أن اليهود والمسلمين قد تم ربطهما سويا فى المواقف المسيحية، فإنهم فى الفهم الشعبى لم يكونوا متطابقين. فالمكان الذى احتله اليهود فى العلاقة بالمسيحية كان شاذا لا مثيل له، لأن يسوع نفسه كان يهوديا «ولد فى بيت داود». ولكنه كان قد قتل أيضا بأيدى اليهود. وكان التهديد الذى ساد الظن بأنهم يشكلونه بالنسبة للمسيحيين تهديدًا يتسم بالدهاء والمخاتلة والخبث ولم يكن تهديدا حربيا. أما المسلمون، على النقيض، فكانوا العدو الخارجى. لا يجاريهم أحد فى قدرتهم على الحرب وقسوتهم الوحشية. ولكن، مثل أنواع من الحيوانات البرية، يمكن استئناسهم. كان هناك «المسلمون المسالمون». وهم المزارعون الكادحون المسالمون وأرباب الحرف والمهن فى كل من قشتالة وأراجون. ولا شك فى أن أهل غرناطة كانوا «مسلمين متوحشين». الذين كانوا قد خاضوا لتوهم حربا استمرت عشرة أعوام ضد أفضل الجنود الذين استطاعت إسبانيا المسيحية تجنيدهم. ولكن شاع اعتقاد واسع المدى فى سنة ١٤٩٢م أن التنصير يمكن أن ينجز التحول، وأنهم إذا ما تنصروا فسوف يتركون وراءهم أساليبهم وطرقهم القديمة. وهذه بطبيعة الحال، كانت أيضا النظرية التى طبقت على اليهود.

ومن المؤكد أن فرديناند وإيزابيلا اعتقدا أن المسلمين يمكن تنصيرهم ليكونوا مواطنين واعين ونافعين. وكان التوقع الواضح فى سنة ١٤٩٢م أن المسلمين سوف يكونون على استعداد لأن يصيروا مسيحيين. وكان الكرم غير المعتاد تجاه السكان المسلمين فى الاستسلام تمليه الرغبة فى إنهاء حرب طويلة. وقد سارت الشروط على نهج النموذج القديم فى العصور الوسطى فى الاتفاقيات التى عقدت بين حكام قشتالة ورعاياهم الجدد، بالإضافة إلى عدد من التنازلات اللافتة للنظر، مثل الحق فى الاحتفاظ بالأسلحة. ولكنها كتبت فى سياق جديد تمامًا. كانت هناك عبارتان تتعلقان بموضوع التنصير. كانت العبارة الأولى تختص بالمسيحيين الذين كانوا قد اعتنقوا

الإسلام. فلا يجب مساءلتهم عن دوافعهم. كما أن أية امرأة أسلمت وتزوجت مسلمًا لا يجب إرغامها على أن تصبح مسيحية ضد إرادتها. وينطبق الأمر نفسه على الأطفال من أم مسيحية وأب مسلم. أما العبارة الثانية فقد قررت أنه لا يجب إرغام أى مسلم. رجلاً أو امرأة، على أن يصبح مسيحيا ضد رغبته وإرادته. هاتان الفقرتان عبرتا عن خوف المسلمين من التنصير الإجبارى. بداية بالفئات الأكثر ضعفا والهامشية. وكان التوقع الواثق بين الإسبان أنه سيكون هناك كثيرون سوف يأتون طواعية ليرتموا بين ذراعى المسيح المرحبة بهم. ولم يكن من المتوقع أن يستمر الإسلام فى الوجود زمنًا طويلاً فى غرناطة. وكانت العبارة الأخيرة فى اتفاقية الاستسلام واضحة بلا غموض:

«إن سمو الأمراء وخلفاءهم لن يسمحوا بذلك أبدا. فللملك أبى عبدالله. وموظفيه وقادته العسكريين. وأخيار الرجال وعامة الشعب بأسره. الرفيع منهم والصغير، أن يعيشوا فى ديانتهم ولا يسمحوا بأخذ مساجدهم منهم، ولا مآذنهم ومؤذنيهم. ولا أن يتدخلوا فى المؤسسات الدينية أو الأوقاف التى أوقفوها لمثل هذه الأغراض. كما أنهم لن يزعجوا العادات والتقاليد التى يجرون عليها»[٩].

كان التوقع أن كثيرين من «المسلمين المحاربين» سوف يفضلون الهجرة إلى شمال أفريقيا تحت شروط مواتية وضعت فى الاستسلام أو أنهم سوف يتركون المدينة بأى حال. وكتب سكرتير فريناند «هرناندو دى زافرا Hernando de Zafra فى ديسمبر ١٤٩٢م أن «بنى سراج» Abencarajes (الذين يعتبرون عشيرة مقاتلة ذات صفات خاصة) قد أخذوا نساءهم فى الأعلى إلى البوخاراس. بعد أن باعوا جميع ممتلكاتهم. فقد كانوا يستعدون للرحيل مع نهاية شهر مارس. وبقدر ما أستطيع أن أرى فإن معظم الناس يحزمون متاعهم للرحيل فى الوقت نفسه». وتنبأ بأنه بحلول الصيف سيبقى فقط المزارعون وأرباب الحرف. ولم يغادروا بسبب أنهم عوملوا معاملة سيئة- كما قال «فإنه ليس هناك قوم قد عوملوا بطريقة أفضل منهم إطلاقا»[١٠]. وبعد جيل. فى سنة ١٥٢٦م، لاحظ أحد المطلقين أن كل «الناس النبلاء» فى المجتمع

المسلم كانوا قد رحلوا وكان أولئك الباقون «من العامة والطبقات الدنيا»[١١]. وفى غضون سنوات قليلة بعد الغزو لم تعد غرناطة مدينة أغلب سكانها من المسلمين[١٢]. وتم تقسيمها رسميًا. مثل كثير من مدن قشتالة إلى أحياء مسيحية وأحياء للمدجنين المسلمين Mudejar. وصارت المنطقة المسماة Albaicim حيًا مسلمًا خالصًا. على حين تم تخصيص الأجزاء السفلى من المدينة للمسيحيين، سواء المهاجرين من الشمال أو المسلمين المتنصرين. وتم مد نطاق الفصل بترتيبات صممت لكى تبقى المسيحيين والمسلمين داخل حدود جماعاتهم. وهو عمل ليس سهلا فى مدينة مثل غرناطة.

وبحلول سنة ١٤٩٩م كان ما يقرب من أربعين ألفًا من «المسيحيين القدامى» المستوطنين قد دخلوا مملكة غرناطة. وكثير منهم معهم عائلاتهم. وبحلول سنة ١٥٣٠ كان الرقم قد وصل إلى مائة ألف[١٣]. وكان المأمول أن هؤلاء الرواد سوف يقدمون للمسلمين مثالاً ونموذجًا مسيحيًا. ففى البداية سوف يتنصر المجتمع المسلم فى غرناطة. ثم جمهور الريف سوف يحذو حذوهم. كان المتوقع أن يكون التقدم سريعًا. وحددت سنوات ثلاث فى شروط الاستسلام إعفاء ضريبيا للمسلمين وبعدها يعود فرض الضرائب. وفرضت الضرائب الجديدة على المسلمين بمستوى أعلى كثيرا من المفروض على مواطنيهم المسيحيين بحيث يكون هناك حافز مالى قوى على التنصير. وكانت مدة السنوات الثلاث أيضا الوقت الذى كان يمكن للمسلمين فيه أن يرحلوا دون أن يدفعوا شيئًا. وكان زفرا يفترض أن أولئك الذين لايرغبون فى العيش تحت الحكم المسيحى سيكونون قد رحلوا قبل سنة ١٤٩٥م وأن أولئك الذين يبقون سيكونون على استعداد للتنصر.

كانت ثقة الملكين الكاثوليكيين فى مهمتهما بلا حدود. فقد تصورا أنه يمكن استرداد أراضى الفيزيقوط القديمة فى شمال أفريقيا واستعادة بيت المقدس. وقدم الجنوى كريستوفر كولومبس مهمته بالإبحار غربا لاكتشاف الهند باعتبارها جزءًا من مهمة مقدسة كان مقدرًا لكل من فرديناند وإيزابيلا أن يقوما بها وينجزاها. وقد رأى كولومبوس كيف أنهما قاما بغزو غرناطة أولا. ثم طردا اليهود. وأخيرا. حسبما

زعم كولومبوس. فإنه سوف يعود محملاً بثروات «وبكميات تكفي في غضون ثلاث سنوات لأن يقوم بالإعداد لغزو الأرض المقدسة. والقيام بذلك. وقد توسلت لجلالتكم بالفعل أن ترى أن كل المكاسب التى تتأتى من هذا. أى مشروعي، يجب أن تنفق على غزو القدس»[١٤].

وثمة مصدر يمكن أن يعول عليه في الربح بشكل أكبر كان يتمثل فى ذهب أفريقيا الذى يفيض من جزر الكنارى- فهذه الجزر، حسبما زعمت كتب التاريخ القشتالية، كانت من قبل ملكا للملك القيزيقوطى التعس رورديك. وفي سنة ١٤٥٨م كان الملوك القشتاليون قد اتخذوا لقب «ملك الكنارى الكبرى وجميع جزرها». وقد تم غزو الجزر على فترات في سنة ١٤٠٢م، ولكن في سنة ١٤٨٣م كان أسطول قشتالي كبير قد أبحر إلى الجزر واستكمل احتلال كناريا الكبرى لحساب التاج. وقد قاوم بعض السكان الأصليين **guanches** في الجزيرة الكبيرة الأخرى **Tenerife** ببسالة. ففى مايو سنة ١٤٩٤م شن الجوانشيز هجومًا وقتلوا ألفي جندى إسباني وهم يصعدون المنحدرات شديدة الانحدار في **Teide** البركان الذى يتحكم في الجزيرة. وأصابوا القائد الإسباني ألونسو فرنانديز دى لوجو **Alonso Fernandez de Lugo** بجروح بليغة. وهبط المزيد من الجنود الإسبان على الجزيرة وبدأوا بطريقة منظمة فى قتل السكان أو استعبادهم. وكان قد تم تنصير الكثير من الجوانشيز، وأرسل الملكان الكاثوليكيان موظفا في سنة ١٤٩٨م لرعاية مصالح جميع سكان جزر الكنارى، بغض النظر عن ديانتهم. فقد كان من المعترف به أن الناس البسطاء من سكان الكنارى كانوا جاهزين للتنصير. وصار الكثير منهم «مسيحيين طيبين». ومن ثم يجب أن يلقوا معاملة حسنة.

على أية حال. تم عبور أحد الحدود في سنة ١٤٩٤م. ففى عملية مقاومة ثم احتلال تنيرايف وقتلوا المسيحيين. أظهر الجوانشيز طبيعتهم الوحشية. وصاروا متمردين شديدى المراس، ومن ثم خضعوا لإجراءات وحشية. ولا يجب اعتبار غزو جزر الكنارى وتنصيرها وغزو غرناطة معزولين عن كل منهما الآخر. فلم يكن اليهود

يعتبرون متوحشين أبدا. ذلك أن تنصيرهم يأتى فى سياق مجموعة من الفئات المستقرة وجاء النذير بهم فى الكتاب المقدس. وقد تم إرساء طريقة التنصير: فيجب أن يكون «بإرادتهم» وقائما على أساس الرضا. وعلاوة على ذلك. فإن اليهود السابقين، فى حال تنصيرهم. يجب عدم النظر إليهم بوصفهم مسيحيين آخرين. وكان المسلمون مشكلة أخرى. فقد كانت قلة من المسلمين قد تنصروا فى الماضى، وعندما عرضت عليهم الفرصة فى غزوات قشتالة الباكرة اختار كثيرون الرحيل إلى بلد تحت الحكم الإسلامى. وعلى أية حال، فإن المدجنين المسالمين الجادين فى عملهم الذين عاشوا فى الأراضى المسيحية على مدى عدة أجيال أظهروا أنه كان يمكن بالنسبة «للمسلمين» أن يعيشوا فى هدوء تحت الحكم المسيحى. وفى بعض المناطق كانوا قد تأقلموا بشكل مطرد مع الثقافة السائدة، لدرجة أنهم فى أماكن مثل Avila فى قشتالة وفى كثير من أراضى أراجون. لم يعودوا يستخدمون اللغة العربية.

ولم يكن تراث الثقافة الإسلامية، الذى كان قد أنتج قصر الحمراء وجامع قرطبة الكبير. محل تجاهل من جانب المسيحيين وهذا الموقف المحترم حسم السياسات الأولية وممارسات التنصير. لكن المسيحيين كانوا ما زالوا يرون أن المسلمين يتسمون بسجايا وحشية وقاسية. هذا الالتباس وجد فى كتب المجادلات المسيحية فى العصور الوسطى وفى تواريخ حركة الاسترداد. كما أنه حكم فى بعض الأحيان تجربة المعاصرين. فقد كانت النظرة إلى مسلمى غرناطة، مثل الجوانشيز، تصمهم بأنهم أصحاب هوية غير مؤكدة. فإذا كان المسلمون متوحشين. فإن تنصيرهم لابد وأن يكون أقل مدعاة للحيطة من تنصير اليهود. وكان لابد أن تتحول استراتيجية التنصير فى اتجاه مختلف.

* * *

من الممكن النظر إلى النصف الأخير من القرن الخامس عشر من عدة منظورات

متمايزة. فهو عصر النهضة الفنية والثقافية، وانتشار الطباعة، وفقدان القسطنطينية، وكشف الأوربيين للأمريكتين ورحلة ڤاسكو دى جاما إلى الهند، كل هذه الأحداث كانت تؤخذ على أنها من معالم ذلك العصر. فقد كان العصر السابق يتسم بكونه «كارثيا» جزئيًا بسبب النتائج التى خلفها الموت الأسود(*) الذى قتل ثلث سكان المنطقة ما بين أيسلندا والهند[١٥]. وهناك مجموعة كبيرة من الروابط- الاجتماعية والسياسية تم ربطها بهذا الحدث الفرد. ويشير فيليب زيجلر **Philip Zigler** فى دراسته عن الموت الأسود. إلى المشابهة التى حدثت فى القرن العشرين بين ما جرى فى الموت الأسود وما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. وفى رأيه أن المقارنة تتمثل فى أن كلا منهما «أسهمت أكبر إسهام فى تفكك عصر»[١٦] وقد شهد القرن الخامس عشر فى إسبانيا كلا من التفكك وإعادة الاندماج. ولكن على أسس مختلفة عن تلك الأسس التى كانت سائدة من قبل. وعلاوة على ذلك. بدلاً من وجود سبب واحد هائل، كان هناك فهم متزايد للأحداث على أنها نتاج أسباب متعددة. كان كل شىء فى حال من التدفق وخاضعًا للتغيير. كانت القوانين تكتب ولا تفرض بالقوة إطلاقًا، أو تفرض لفترات قصيرة فقط. وتغيرت الأسر الحاكمة. كما وجد الملوك، والأنبياء غير الشرعيين والمدعون الذين كانوا جميعا يتنافسون من أجل السلطة. وهنا أفكر أيضا فى فرنسا وإنجلترا اللتين كانتا دولتين قويتين غنيتين. وبالتالى مستقرتين. ولكن فى ثقافة محكومة بحدودها الداخلية مثل شبه جزيرة إيبيريا. ينبغى أن نتوقع عددًا قليلاً من اليقينيات أو النماذج فى أثناء القرن الخامس عشر وما بعده .

كانت الفئات الاجتماعية المستقرة من قبل فى إسبانيا بسبيلها لأن تنشطر. ويبدو هذا واضحًا فى لغة العصر. إذ إن كلمة «يهودى»، «مارانوس» التى زاد استخدام

(*) الموت الأسود Black Death وباء اجتاح العالم من جنوب شرق آسيا حتى أوربا فى منتصف القرن الرابع عشر. وقضى على أعداد ضخمة من سكان العالم آنذاك وقد حدث فى منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ووصفه المؤرخون العرب باسم «الفناء الكبير» وكان من أهم أسباب التدهور الاقتصادى والسياسى لدولة سلاطين المماليك (المترجم)

المسيحيين لها للإشارة المهينة إلى اليهود- المتخفين. وسمى المسلمون Moros التى كان يمكن أن تكون أحيانا كلمة إعجاب. ولكنها غالبًا ما كانت تتضمن شعورا بالاحتقار. أو كانوا يسمون المدجنين. الذين كانوا فئة من الخاضعين. وعندما كانوا يتحولون في مظهرهم عن طريق تنصيرهم إلى موريسكيين Moriscos أي «المسلمين الصغار». وهو مصطلح يشي بالاحتقار والحط من قدرهم. حتى إذا كان في بعض الأحيان ممزوجًا بشعور بالشفقة [١٧]. ولكنه لم يكن كذلك في بعض الأحيان: إذ إن المؤلف الحقيقى لدون كيخوته. Cid Hamet Benegeli. الذى قابلناه فى الفصل الأول، كان شخصًا مثقفًا ومتعلمًا. ويجب ألا نكون مرتاحين لاستخدام كلمة مورسكي المهينة، للسبب نفسه الذى يجعل كلمة مارانوس لا تنطق باستخفاف [١٨]. فقد كانت كلمة مستهجنة ولا تستخدم قط من جانب أولئك «المسيحيين الجدد» أنفسهم. إذ كانت قد صكت حديثًا لكى توحى بموقف جديد تجاه الناس الخاضعين. الذين كانوا قد جردوا من ديانتهم القديمة بمرسوم وخضعوا للتعميد بطريقة آلية سطحية. وعندما كتب الموريسكى نوميز دى ميولى Numez de Muley احتجاجًا على معاملتهم فى غرناطة. أطلق عليهم اسم أهل الأرض naturales .

ولكن التغير فى اللغة كان علامة على التغير فى المكانة. أولا فى غرناطه وقشتالة وبعد ذلك فى أراجون وفالنسيا. صار المدجنون «موريسكيين» بمرسوم ملكى. واختفى المسلمون المتوحشون ولكنهم صاروا نبلاء تحدثت عنهم قصص الحدود الشعرية؛ وفى ذلك الحين على مدى قرن من الزمان صاروا شعبًا «لهم فقط المظهر الخارجى للإنسان لأن بقية ما فيهم وحوش». لقد كان الموريسكيون نقيضًا لكل ما هو حسن، فهم يعبدون محمدًا، الذى كان «كلمة الشيطان». بدلاً من يسوع الرب الذى كان «كلمة الرب»[١٩]. وهنا يمكن أن نرى تغيرًا فى العملية. ذلك أن الهجاء التقليدى ضد المسلمين، الذى بنى على مدى قرون عديدة. قد اندمج مع أسلوب جديد فى الإساءة. ولم يحدث هذا باعتباره مجرد نوع من التقييم اللغوى: لقد كان يضرب بجذوره فى تتابع محدد من الحوادث. ولم يكن هذا الحصاد مقصودًا لم يكن هناك تنبؤ به ولكنه لم يكن نتيجة عشوائية.

ويمكن أن نضع نقطة بداية لهذا التعبير الجديد فى الانتقاص فى غرناطة فى أثناء أواخر صيف سنة ١٤٩٩م. ففى يوليو كان الملكان الكاثوليكيان فى غرناطة للمرة الأولى منذ ربيع سنة ١٤٩٢م. وبعد سبع سنوات كانا يتوقعان أن يريا شعبًا اعتنق المسيحية. حسب تقارير كبير الأساقفة تلافيرا وهرناندو دى زافرا التى قادتهما إلى الاعتقاد بذلك. لكن المدينة كانت على حالها التى تركوها عليه، ما زالت تبدو مدينة مسلمة أكثر منها مدينة مسيحية[٢٠]. وفى الأحياء المسيحية الجديدة كانت هناك كنائس جديدة ظاهرة. كما كانت هناك أعداد محدودة من المواكب، وأيام القديسين واحتفالاتها، وصوت أجراس الكنائس (التى كان مسلمو غرناطة يشيرون إليها باحتقار على أنها «أجراس البقر»). وعلى أية حال. كانت المساجد ما زالت تغص بالمؤمنين فى صلاة الجمعة.

أراد فرديناند وإيزابيلا الإسراع بمعدل التنصير. ربما إلى المستوى الذى تحقق بين يهود البلاد والجوانشيز فى جزر الكنارى. وخارج مملكة غرناطة كان التقدم يسير بشكل أفضل. ففى مدينة كاسبى **Caspe** فى أراجون كان المسلمون الباقون قد تحولوا إلى المسيحية بأعداد كبيرة. يقودهم أبرز أعيان جماعتهم. فقد صار الملكان الكاثوليكيان. فى أثناء الأشهر التى قضياها فى قصر الحمراء. مقتنعين أن التنصير لم يكن يجرى بما يكفى من النشاط فى العاصمة. وإذا ما تعثرت غرناطة. فإن التنصير فى المملكة بأسرها سيكون أصعب كثيرًا. وقبل رحيلهما فى شهر نوفمبر أصدرا التعليمات إلى كبير الأساقفة فى طليطلة، فرانسيسكو خيمينيز دى سسنيروس **Francisco Jimevez de Cisneros** (الذى كان قد خلف تالافيرا فى وظيفة قسيس الاعتراف الخاص بإيزابيلا)، بأن يدعو فريقه من المبشرين القادرين والمحاورين للاجتماع فى غرناطة لتسريع عملية التنصير.

وكان خيمينيز دى سيسنيروس قد جادل بالفعل فى البلاط مطالبا بسياسة أشد عدوانية تجاه المسلمين فى غرناطة. وبصفة خاصة. كان يعارض تمامًا العبارة الواردة فى اتفاقية الاستسلام سنة ١٤٩٢م والتى سمحت للمسيحيين السابقين وأولادهم أن

يبقوا، حسب اختيارهم، على الإسلام. وما إن استقر في الحى المسلم بغرناطة حتى بدأ فى الحال يعد قوائم بهؤلاء الأفراد، الذى وضع لهم مصطلح **elches**، الذين اجتمعوا فى حضوره. وهناك ألقى على مسامعهم خطبة حماسية. وعلى حد تعبير واحد من مؤرخى البلاط :

«أقنعهم بكلمات رقيقة بالعودة إلى الديانة الكاثوليكية المقدسة، فإنه سيكون من أفحش الخطايا السماح للناس الذين كان أسلافهم من المسيحيين بالانتماء إلى دين المسلمين. حسب قوله ... وأولئك الذين تنصروا بهذه الطريقة حصلوا منه على المساعدة وأسبغ عليهم الرضا. أما أولئك الذين رفضوا، فقد وضعهم فى السجن، وحبسهم حتى تنصروا .... وعندما سمع أن كثيرين من الزعماء المسلمين كانوا يهاجمون منهجه الذى كان يناقض الاتفاقية ... حبس المعارضين ووضعهم فى الأغلال، وعلى الرغم من أن ذلك كان مناقضًا لأخلاقه، فقد سمح بالتعامل معهم بطرق لم تكن صحيحة»[٢١].

كان هذا كناية عن السجن المشدد والتعذيب. وفى هذا كان خيمينيز دى سيسنيروس يتخذ نفس مسار محاكم التفتيش، التى كانت قد بدأت فى فالنسيا، وبطريقة غير قانونية تفرض سطوتها على المسلمين والمسيحيين على السواء [٢٢]. وعلاوة على ذلك، فإنه بسبب توقع زيادة المتنصرين فى غرناطة سنة ١٤٩٩م، امتدت سطوة محاكم التفتيش فى قرطبة إلى مملكة غرناطة. وفى النهاية مثل أمامها كبير الأساقفة تلافيرا نفسه بتهمة السعى إلى تهويد إسبانيا عن طريق السحر [٢٣].

وعندما ذهب أحد موظفى خيمينيز دى سيسنيروس إلى الحى المسلم فى ١٨ ديسمبر ١٤٩٩م لكى يخطب فى عدد آخر من المسلمين الذين كانوا مسيحيين من قبل **elches**، قتله أهل الحى، وأغلقوا البوابات وحملوا السلاح دفاعًا عن حقوقهم «وبدأوا يستغيثون بمحمد ويطالبون بالحرية. ويقولون إنهم سوف يحرقون اتفاقية الاستسلام، وخرجوا إلى الشوارع، وأغلقوا وحصنوا بوابات **Albaicim** ضد مسيحيى المدينة، ثم بدأوا يحاربونهم وطوال الليل ازدادت الاضطرابات» [٢٤] فقد

ساد الذعر بينهم خوفا من أن يتم تنصيرهم بالقوة. بل إن كبير الأساقفة تلافيرا الذى يحظى بالقبول عندهم قذفوه بالحجارة ولم يسمحوا له بالدخول. وعندما تبع الكونت دى تينديلا Count de Tendilla، القائد العام للملكة، كبير الأساقفة استمعوا إليه بقدر أكبر من الاحترام. وأخبرهم أن ملاحقة المسلمين ذوى الأصول المسيحية سوف تنتهى، وأنه لن يكون هناك المزيد من التنصير الإجبارى، وفى لفتة رمزية، أحضر زوجته وابنه الصغير من قصر الحمراء إلى البايشين وعهد بهم إلى رعاية السكان المسلمين وكرم ضيافتهم. واستمرت الانتفاضة فى المدينة حوالى عشرة أيام، ولكن كان هناك توقع بمزيد من الانتفاضات. لكن لم يكن ممكنا فعل شىء لمنع أخبار الحوادث فى العاصمة من الوصول إلى القرى المسلمة المخلصة فى البوخاراس. فقد كانت هذه القرى قد صارت الملاذ الأخير لأولئك الذين لم يستطيعوا أو لم يقدروا على مغادرة بلادهم، ولكنهم لا يريدون العيش بالقرب من النصارى أكثر مما يجب. وكان كثير منهم قد شاركوا فى الدفاع عن غرناطة وكانوا على ألفة بكل خط وكل صدع فى الأرض، وهى معرفة لا تقدر بثمن فى حروب العصابات التى لم تلبث أن غطت المملكة كلها .

فى الوقت نفسه استمر خيمينيز دى سيسنيروس فى برنامجه للتنصير الجماهيرى، وجعل وعود تينديلا تتبدد هباء. وبعد خمسة أيام من انتهاء انتفاضة البايشين، تباهى سيسنيروس بأنه عمَّد ثلاثة آلاف فى صباح يوم واحد. وتم إرسال الرسل إلى فرديناند وإيزابيلا فى إشبيليه. وكانا مع خوفهما من غضب المسلمين، قد تأثرا بارتفاع عدد حالات التنصير. وأصدرا تعليمات إلى خيمينيز دى سيسنيروس بأن «رغبتنا أن تجنى ما تستطيع من ثمار التنصير»[٢٦]. ولتبرير هذا التحول فى السياسة، زعم فرديناند آنذاك أن الانتفاضة القصيرة فى غرناطة، التى لم ينتج عنها سوى قتيل واحد، قد حولت أهل غرناطة إلى مسلمين محاربين انتهكوا شروط الاستسلام. وكون هذه مماحكة أمر تشى به حقيقة أنه أيضا اعترف أن الانتفاضة كانت أقل من أعمال الشغب. وفى الحال أكد على العفو الذى أصدره تنديلا على الجميع باستثناء أولئك الذين كانوا متورطين بشكل مباشر ومد العفو ليشمل كل

أعمال التمرد شريطة استثناء تلك التى تخص المتحولين إلى المسيحية بحلول ٢٥ فبراير ١٥٠٠م. كان التنصير الجماهيرى الذى خشاه المسلمون يجرى بالفعل. وضاعف سيسنيروس، الذى حصل مجددا آنذاك على الدعم المحدد، جهودهم وكان هو وفريقه قد عمدوا جميع سكان المدينة تقريبا- هذا هو الحدث «البطولى» الذى تم تخليد ذكراه فى رسومات فيجارنى فى الكنيسة الملكية.

كان تلافارا يعرف مسلمى غرناطة جيدا. وكان خيمينيز دى سسنيروس قد همشه آنذاك. وخشى من حدوث كارثة. وكتب إلى سكرتير فرديناند أن النجاح فى العاصمة لا يمثل ما سوف يحدث فى الريف. إن طائرًا واحدًا من طيور السنونو لا يصنع الصيف ...» فى تعليق موجز مقتضب. وأنهى خطابه بعبارة. « من غرناطة. التى هى فى الحقيقة مجرد قشرة رمان فارغة desgranada»[٢٦]. وسرعان ما حدثت انتفاضة جماهيرية فى الجبال عقب ذلك على نطاق لم يكن الملك يتوقعه. وعلى أية حال، بدا أيضا أن هذا يؤكد أنه كان على حق دائمًا. فقد كان المسلمون متوحشين ومحبين للحرب، ولا يسود الهدوء سوى إذا تم تنصيرهم جميعًا. كان الإسبانى المسيحى فقط هو الذى يأمل فى أن يزدهر ولكن لأن المدن والقرى فى ألبوخاراس انتفضت الواحدة تلو الأخرى، كان من الواضح أن هذا الهدف لن يتحقق بالوسائل السلمية. وجمع القائد العام، تنديلا، ما استطاع أن يجده من القوات وتحرك ضد جويخار Guejar. أقرب بلدة محصنة فى الجبال. وبعد قتال مرير، تغلب الجنود المسيحيون المدربون على أهل البلدة. وتم ذبح الناجين من الذكور جماعة على حين سبيت النساء واسترق الأطفال. وبعدها أبيحت البلدة للنهب على أيدى رجال تنديلا. وفى شهر فبراير وصل فرديناند من إشبيلية بقوات جديدة، وفى مارس وضع السيف فى lanjaron. ودخل طابور آخر ألبوخاراس تحت قيادة الكونت دى ليرين Count of Lerin. الذى داهم العديد من القرى. وفى إحداها حشر الناس والأطفال فى أحد المساجد قبل أن يفجره بالبارود[٢٧]. وقد وصف المؤرخ الأراجونى الذى عاش فى القرن السابع عشر بدرو دى أباركا Pedro de Abarca القرويين بأنهم «هذه الحيوانات المتوحشة التى تسكن ألبوخاراس». وهو رأى كان منتشرا على نطاق واسع فى ذلك الوقت. واستسلم الجزء

الغربى من الجبال. منح الناجون السلام إذا ما سلموا جميع أسلحتهم وحصونهم، ودفع غرامة عقابية قدرها خمسون ألف دوكات.

فى يوليو سنة ١٥٠٠م جاءت إيزابيلا والبلاط إلى غرناطة واستمرت أعمال التنصير تحت عين الملكة اليقظة. وتم تنصير مدن بياتزا، وجوديكس والمرية Beaza Gaudix Almeria وتم إرسال فرق من المبشرين إلى المناطق التى تم غزوها وقدمت المزيد من المغريات ولم يكن مطلوبًا من أى متنصر جديد أن يدفع نصيبه من الغرامة المفروضة على بقية السكان. ولكن فى ديسمبر دفع هذا التنصير النشط ألبوخاراس الشرقية إلى الثورة التى تم إخمادها بطريقة منظمة وبمداهمة كل بلدة أو قرية، واستعباد الباقين من سكانها. لقد قتل الرجال، ولكن فى بعض الأحيان تم تعميدهم جماعة قبل موتهم. وفى فبراير سنة ١٥٠١م، كانت هناك انتفاضة أشد خطورة فى الجبال عند الطرف البعيد لمملكة غرناطة، فيما وراء روندا وبالقرب من ملقا والمراكز الحضرية فى الجنوب. وفى الحال انطلقت قوات كبيرة من القادة القشتاليين ومعهم ثلاثمائة فارس وألفا جندى مشاة من أشبيلية لإخماد التمرد الجديد. وتم قتل العديد لأنهم تاهوا فى الجبال. بما فيهم قائدهم، وهو جندى شهير يسمى ألونسو هرمانديز دى قرطبة Alonso Hermandez de Cordoba الذى يعرف عادة باسم ألونسو دى أجويلار Alonso de Aguilar الذى صارت نهايته البطولية موضوعًا للعديد من القصص الشعرية الغنائية[٢٨]. كانت تلك أسوأ كارثة تحل بالجيوش القشتالية منذ الخسائر التى وقعت فى الحرب من أجل غرناطة. وجمع فرديناند قوة ضخمة، تكملها المدفعية فى روندا واستعد لتطهير الأرض بالطريقة نفسها التى كان قد تم بها تطهير البوخاراس، بالنار والسيف. وسرعان ما سعى قادة التمرد فى الغرب إلى طلب الصلح. وقدم لهم فرديناند خيارًا بسيطا. التعميد أو الرحيل من أراضى قشتالة. وواصل تقدمه حتى وافقوا. مكتسحا القرى المحصنة، ليقتل الرجال ويسبى النساء والأطفال.

كان قراره صريحًا لا لبس فيه. يجب أن ينتهى الإسلام فى قشتالة فقد أعلن فرديناند «إن رأيى ورأى الملكة هو أن أولئك المسلمين يجب تعميدهم، وإذا لم يصيروا

مسيحيين فإن أولادهم وأحفادهم سوف يكونون مسيحيين»[٢٩]. وتمت الموافقة على شروط السلام يوم ١١ أبريل سنة ١٥٠١م. وفي الحال عبر كثير من المسلمين مضيق جبل طارق إلى شمال أفريقيا. وبالنسبة لإيزابيلا أيضا كان يجب على المسلمين جميعا في قشتالة «إما أن ينتصروا أو يتركوا مملكتنا، لأننا لا يمكن أن نؤوي الكفار»[٣٠] وفي يوليو، أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرًا من قصر الحمراء يمنع المسلمين من الإقامة داخل حدود مملكة غرناطة. لأنهم يحولون دون التقدم الروحي للمتنصرين. وفي يوم ١٢ فبراير عام ١٥٠٢م تم إصدار مرسوم لقشتالة. ينص على أن المسلمين جميعًا يجب أن يختاروا بين مغادرة إسبانيا بحلول يوم ٢٠ أبريل أو التعميد. وهو وقت أقل مما تم منحه لليهود قبل عقد من الزمان. ومن ناحية كان هذا مؤشرا على اقتناع بأن من سيرغبون في الرحيل لن يكون عددهم كبيرًا. وهذا ما حدث بالفعل. فقد كان معظم الذين رغبوا في المغادرة قد غادروا بالفعل. وقد تأسف عدد قليل من المسيحيين على ما حدث. والواقع أنه ما إن تم بيع جميع أولئك الذين تم استعبادهم في غرناطة حتى كانت الحرب قد حققت مكسبا محترمًا للتاج.

وكان من رأى الملكة أن المرسوم الذى يطلب التنصير لم يكن ليرقى إلى التنصير الإجبارى لأن المسلمين كان أمامهم البديل بمغادرة قشتالة أو الخضوع للتنصير. وهرب عدد من المدجنين القشتاليين إلى أراجون. ونافار. حيث كان يمكنهم ممارسة شعائر الإسلام حتى ذلك الحين. وكان حفيدها شارل الخامس هو الذى طبق معادلة التعميد أو الطرد على كافة ممتلكاته الإسبانية. كانت هذه السفسطة غير مقنعة، وقد اكتشف مبعوثها بيتر مارتير دى أنغييرا Peter Martyr of Anghiera لشرح القرار لسلطان مصر، أن من الصعب إنكار التنصير الجماعى بالقوة. ولم يكن مسلمو غرناطة قد توقعوا على الإطلاق أن يلتزم المسيحيون باتفاقية ١٤٩٢م. ولكن قصة الغدر الذى مارسته قشتالة صار مصدرًا لعدم الثقة فى جماعات المتنصرين حديثًا. لقد قاوم المسلمون التنصير بالقتال، وبقبول وضعهم الجديد على مضض أيضا. ذلك أن وحشية الحرب فى ألبوخاراس. وخاصة موت ماركيز قرطبة (ألونسو دى أجويلار) عززت المزيد من المساواة الشعبية بين الإسلام والعنف والخطر الكامن.

فقد ساد الظن بأن الغرناطيين المسلمين كانوا على اتصال بالقراصنة البربر، وبنى جلدتهم في شمال أفريقيا، أو مع العثمانيين البعيدين. ومثلما كان اليهود المتنصرون يحملون وصمة فى دمهم، كذلك كان المسلمون الذين تم تنصيرهم بصورة جماعية. كان ينظر إليهم على أنهم بالطبيعة معارضون وخطرون. وكان الموريسكى فى غرناطة بحكم القانون ممنوعًا من حمل سكين يستخدمه في الأكل. خوفًا من أن يستخدمه لإيذاء أحد المسيحيين(٢١).

فى غضون سنوات قليلة. كان على إسبانيا أن تضم الكثير من الكفار الجدد رعايا لها، فى الأراضى الجديدة بأمريكا. وكانت التجربة الحديثة في التنصير الجماعى للمسلمين قد وضعت موضع الممارسة عبر المحيط الأطلنطى(٢٢). وفي الوطن كانت النظرة إلى المسلمين باعتبارهم مصدر تهديد، وعلى أنهم العدو فى الداخل، قد تعززت بالنضال الكبير مع العثمانيين فى البحر المتوسط. وترسخ الشعور بالخطر تمامًا. ذلك أن احتلال العثمانيين للأراضى الأراجونية فى أبوليا حول أوترانتو فى مملكة نابولى ١٤٨٠-١٤٨١م كان قصيرا ولكنه كان خطيرًا. فقد دمرت الكاتدرائية التي كان قد بناها أحد ملوك أراجون سنة ١٠٨٨م وصارت أنقاضًا ونهبت المدينة عند انسحاب الأسطول العثمانى. وقد أبحرت السفن عائدة لبلادها بسبب وفاة السلطان محمد الثانى، ولكن هناك اعتقاد بأنها قد تعود فى أى وقت. كذلك كان العثمانيون يخشون الطموحات الإسبانية. إذ إن حملتها «الاسترداد» شمال أفريقيا بدأت فى سنة ١٤٩٧م بالاستيلاء على مدينة مليلة، التى تبقى مثل سبته، أرضا إسبانية حتى اليوم.

وقد نمت الروابط القبلية والعشائرية بين الموريسكيين فى غرناطة وأولئك الذين كانوا قد عبروا مضيق جبل طارق إلى الأراضى الإسلامية لتصير فى نظر القشتاليين نوعًا من المؤامرة. فالمراسلات مع «البربر» والسعى إلى الهرب عبر مياه المضيق باتت أعمالا إجرامية يعاقب عليها بالموت. وحتى الأب بارتلومى دى لاس كاساس Bartolomé de las Casas. المدافع المتحمس عن الهنود الكفار فى الأمريكتين. كان يعتقد أن الحرب التى يشنها المسيحيون ضد الكفار فى الأمريكتين، كان يعتقد أن الحرب التى

يشنها المسيحيون ضد الكفار المسلمين. ضرورية وجديرة بالثناء لاسترداد القدس، ولطرد المسلمين خارج إسبانيا، ودائمًا للحرب ضد المسلمين في كل مكان. فهم أعداء العقيدة المسيحية، ومغتصبو الممالك المسيحية»[٣٣] وفي الأماكن الأخرى عبر لاس كاساس عن الدافع المزدوج لمحاربة الإسلام. «لدينا حرب عادلة ضدهم، ليس فقط عندما يشنونها ضدنا بالفعل ولكن حتى عندما يتوقفون، لأن لنا تجربة طويلة جدًا في قصدهم إلحاق الأذى بنا: ولهذا فإن حربنا ضدهم لا يمكن أن تسمى حربًا وإنما هي دفاع مشروع»[٣٤] وعندما يقدم لاس كاساس عدم الشرعية في اضطهاد الهنود Indios (السكان المحليين في الأمريكتين) وإساءة معاملتهم. فإنه يفعل هذا باعتباره نقيض التزامهم بشرعية الحرب المقدسة ضد الأتراك الكفار والمسلمين في إسبانيا Moors «الذين يزعجوننا ويسيئون معاملتنا». وهو يرسم التناقض بين الأمريكتين الكفار «الذين لم يعرفوا أبدا ولم يكونوا مضطرين لأن يعرفوا أن هناك قومًا مسيحيين في العالم ومن ثم لم يعادوهم على الإطلاق». «مسلمي إسبانيا والأتراك الذين اضطهدوا الاسم المسيحي واحتلوا بالعنف ممالك المسيحيين»[٣٥] وقرر أن الحقيقة أنه كان هناك كفار بعينهم في أمريكا يستحقون المعاملة القاسية، مثل أهل الكاريبي، الذين قاوموا كولومبس (والذين أمر فرديناند باتخاذ إجراءات متطرفة ضدهم) :

«بعد أن هبوا وتمردوا ضدنا تسببوا في عصيان بقية الهنود في الجزيرة... وقد حاولوا ويحاولون حماية أنفسهم من التنصير أو تعلم أمور عقيدتنا الكاثوليكية ويحاربون باستمرار ضد رعايانا... وهم يزدادون صلابة في أساليبهم. ويمزقون أوصال هنودنا ويأكلونهم»[٣٦].

كان الاتهام بأكل لحوم البشر محض افتراء. ولا يختلف كثيرًا عن الاتهام بأن اليهود يصلبون الأطفال ويشربون دماءهم[٣٧]. وعلى أية حال، فإن هذا الاتهام، مثل اتهام المسلمين «بالقسوة»، قد خدم لتجريد أهل الكاريبي من الحماية التي تتوفر للهنود المسالمين.

وعندما زادت الأخطار السياسية التى تمثلها قوة إسلامية توسعية. كذلك كان هناك معنى جديد وقوى يتم إضفاؤه على المخاوف القديمة والانحيازات القديمة. ولم يعد علماء النهضة المتحضرون يعتقدون أن المسلمين لهم رءوس مثل رءوس الكلاب وأنهم ينبحون، ولكنهم مع هذا نسبوا إليهم خصالا وحشية وقاسية: فقد كانت الانحيازات القديمة الملفقة قد تحولت. ففي أثناء عهد الملكين الكاثوليكيين. كانت هناك نظرية جديدة عن الكافر آخذة فى التطور. ففى سنة ١٥١٧م طور الكاردينال توماس دى ڤيو كايتانو Tomas de Vio Cayetano مذهبا مستحدثا عن درجات الكفر. كان هناك أولئك الكفار الذين هم بالفعل تحت سطوة المسيحية، وكان المسلمون فى إسبانيا المثال التقليدى عليهم. وكان هناك أولئك الذين هم بحكم القانون ولكن ليسوا فى الحقيقة تحت الحكم المسيحى، مثل سكان شمال أفريقيا أو الأرض المقدسة. وكان هناك أولئك الذين لم يكونوا قط تحت الحكم المسيحى مثل هنود الأمريكتين.

وبينما كان مشروعًا ومستحسنًا إجبار الفئتين الأوليين على اعتناق المسيحية، لم يكن مشروعا أن يتم استعباد السكان الأصليين فى العالم الجديد أو معاقبتهم. فقد كان ينبغى «أن نرسل رجالاً طيبين، السياسة التى كان تلافيرا قد سعى إلى تطبيقها (ببعض النجاح) في غرناطة. قبل أن تحل محلها الطرق الأكثر قسوة التى انتهجها خيمينيز دى سيسنروس.كان الجدل نفسه حول التعميد والتنصير الأمين الذى ترددت أصداؤه فى غرناطة فيما بين سنة ١٤٩٩م وسنة ١٥٠١م هو الذى نشب من جديد. وقد حكم القصد الجيد وراء التعميد النظرية، وهى وجهة نظر عبر عنها بشكل محدد البابا بول الثالث فى مرسومه الذى يحمل عنوان Altitudo divine Consilii (سمو العناية الربانية). «كل من قام بتعميد هؤلاء الهنود الذين جاءوا إلى ديانة المسيح باسم الثالوث المقدس المبارك دون اتباع الطقوس المرعية من جانب الكنيسة، ليسوا مذنبين لأنهم ظنوا عن حق أنه كان من المناسب فعل هذا».

وهكذا فإن وجهة نظر فرديناند وإيزابيلا أن الغاية الجيدة فى تنصير المسلمين فى غرناطة رجحت كفتها على أية شكوك حول الطرق المستخدمة وتمت المصادقة عليها

بأثر رجعي. ولكن وجهة نظر لاس كاساس. التي لم توزع مطبوعة حتى مرور أربعة قرون بعد كتابتها. عن عواقب هذا الأسلوب في تنصير الهنود إنما تنطبق بالقدر نفسه على المسلمين في إسبانيا. فإنهم بالتالي سيكونون :

«تحكمهم الكراهية الدائمة والضغينة تجاه مضطهديهم... ومن ثم، حتى عندما قد يقولون أحيانا إنهم يرغبون في اعتناق المسيحية ويمكن للمرء أن يرى أن الأمر قد يكون كذلك اعتمادًا على الدلائل الخارجية التي يبدونها للتدليل على رغبتهم؛ فإنه يمكنك دائما على أية حال. أن تكون في ريبة من أن تنصرهم لا يأتي من قصد مخلص ولا ينبع من إرادة حرة، ولكنه تنصر مزيف، أو هو تنصر لتجنب أية شرور يخشون أن تلحق بهم مرة أخرى في المستقبل»[٣٩].

ومما يثير السخرية، أن خيمينيز دي سيسنروس. الرائد في التنصير الجماعي. كان هو الذي كان قد أرسى الطريق في سنة ١٥١٧م أمام عمل حياة لاس كاساس عندما عينه ليرأس لجنة التحقيق في الشرور التي جرت على الهنود. ولكن نبوءة لاس كاساس طبقت بقوة أكبر على وطنه منها في الممتلكات الإسبانية في أمريكا.

وقد لاحظ الناقد ستيفن جرينبلات **Stephen Greenblatt** أن الغزاة الإسبان **Conquistadores** في القرن السادس عشر (الذين جلبوا معهم تجربتهم في غزو البلاد الإسلامية في إسبانيا) ورأوا في لغتهم أنها آلية للغزو. وقد اقتبس عن أنطونيو دي نبريخا **Antonio de Nebrija**. الذي نشر كتابه عن قواعد اللغة القشتالية سنة ١٤٩٢م، وقدمه إلى الملكة إيزابيلا أسقف **Avila**. وسألت الملك عن الهدف من الكتاب وأجاب الأسقف «ما القصد منه؟ يا صاحبة الجلالة. إن اللغة هي أداة الإمبراطورية الكاملة»[٤٠] كانت رؤية جرينبلات أن المواجهة في العالم الجديد بين السلطة الحاكمة وكلام إسبانيامن ناحية، والأهالي المخرسين من ناحية أخرى تحمل صدى قويًا من التنافس السابق مع «الآخر» المسلم. وهو يرى أن الغرب قد «تدربوا على مواجهتهم مع شعوب العالم الجديد، وتصرفوا في استجابتهم تجاه الرجل المتوحش الأسطوري. بوحي من اختلاط الانجذاب والرغض، والشوق والكراهية في

داخلهم»[41]. وفى عيون الكثيرين، لم يكن الرجل المتوحش مجرد تجريد أسطورى. فإن الكثير من خصاله كانت قد نسبت إلى المسلمين بالفعل، وهم من نسل إسماعيل. وكان ملاك الرب قد أخبر أمه هاجر: «وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا. وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنسانا وحشيا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه» (تكوين ١٦: ١٠-١٢)[42] لقد كانت الوحشية والعنف. ونقص التحكم فى النفس. والعاطفة الجياشة الانتقادات الأساسية التى اصطنعها العالم المسيحى لأبناء إسماعيل منذ الأيام الأولى.

هوامش الفصل الخامس

1. Washington Irving, *A Chronicle of the Conquest of Granada*, London: John Murray, 1829, vol. 1, pp. 648–50.
2. In El Escorial, the royal figures at prayer face the altar.
3. See John Edwards, *The Spanish Inquisition*, Stroud: Tempus, 1999, p. 88.
4. The account is by the Genoese Senarega, cited in Prescott, *History*, p. 322.
5. See Fabre-Vassas, *Singular Beast*, pp. 131–8.
6. This putative child of La Guardia was canonized in 1807.
7. See Yerushalmi, *Assimilation*, p. 10.
8. See Sicroff, *Controverses*, pp. 26–7. See also Antonio Dominguez Ortiz, *La Clase social de los conversos en Castilla en la Edad Moderna*, Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 1955, p. 13. For the complex vocabulary linking pigs and Jews see Fabre-Vassas, *Singular Beast*.
9. See Harvey, *Islamic Spain*, pp. 314–21. The easiest source of the full text of the capitulation is in García Arenal, *Los Moriscos*, pp. 19–28.
10. Caro Baroja, *Los Moriscos*, p. 9.
11. Ibid., p. 12.
12. Caro Baroja indicates that most of the Muslim inhabitants appeared content with these arrangements.
13. See Miguel Angel Ladero Quesada, 'Spain 1492: Social Values and Structures', in Schwartz, *Implicit Understandings*, pp. 101–2.
14. Columbus' *Journal*, cited Liss, *Isabel*, p. 291.
15. 'The calamitous century' was how Barbara Tuchman described it in her popular book, *A Distant Mirror* (1978).
16. See Philip Ziegler, *The Black Death*, London: The Folio Society, 1997, p. 245. The comparison he refers to was made by J. W. Thompson in 'The Aftermath of the Black Death and the Aftermath of the Great War', *American Journal of Sociology* 26 (1920–21), p. 565.

١٧- لاحظ أنور شيجنى أن مصطلح موريسكو(morisc) كان أقل استخدامًا من المصطلح التقليدى "مورو"، والسراكنة، والهاجريين إلخ . وكان مصطلح موريسكو يستخدم أيضا قبل سنة ١٥٠٢م مثلما حدث فى كتاب:

Libro del Buen Amor

انظر: .Chejne ، Islam and the West ، p. ١٧٦

18. See Arturo Farinelli, *Marrano (storia de un vituperio)*, Geneva: L. S. Olschki, 1925.
19. Pérez de Chinchon, *Antialcorán* (Valencia: 1532), cited in Cardaillac, *Moriscos*, p. 355.

٢٠- على الرغم من أننا لا نعرف شيئا عن تاريخ غرناطة من سنة ١٤٩٢ إلى ١٤٩٩م فإن هذه الفترة بقيت فى الذاكرة الشعبية باعتبارها عصرا ذهبيًا للسلام والازدهار. والخلافات حول تفسير مصطلحات الاستسلام استقرت على يد زافرا بما يرضي كلاً من المسلمين والمسيحيين . فقد بذل تالاڤيرا ما أمكنه من جهد لتنصير المسلمين من خلال التعليم ووضع النموذج والمثال ، وأنشأ حلقة نقاشية لتعليم اللغة العربية للقساوسة وتدريبهم على تقاليد التبشير فى الكنيسة، بحيث يوائمون الملبس والعادات واللغة عند المتنصرين الجدد. هذه الفترة من السلم كانت ممكنة لأن كلاً من الجانبين كانا يرحبان بالعيش فى ظل تسامح متبادل تجاه كل منهما الآخر، وهو موقف كان يضرب بجذوره فى التراث وفى شخصيات كونت تنديلا القائد العسكرى وتلاڤيرا .

Helen Nadar . The Mendoza Family in the Spanish Renaissance ١٣٥٠-١٥٥٠ ، New Brunswick، NJ: Rutgers University Press ، ١٩٧٩ ، pp. ١٥٧-١٨ .

(p. ٢٨١)

21. Alonso de Santa Cruz, *Crónica de los Reyes Católicos*, ed. Juan de Mata Carriazo, Seville: Escuela de Estudios Hispano-Americanos de Sevilla, 1951, vol. 2, pp. 191–2.
22. See Lea, *Moriscos*, pp. 27–8.

23. He came from a Jewish *converso* family.
24. Luis del Mármol Carvajal, *Historia del rebelión y castigo de los moriscos del Reyno de Granada* (1600), Madrid: Sancha, 1797.
25. Ladero Quesada, *Mudéjares*, p. 77.
26. Cited Liss, *Isabel*, p. 331.
27. See Lea, *Moriscos*, p. 461.
28. His brother served under Tendilla in the Alpujarras and went on to become one of the greatest soldiers of the age: Gonzalez de Córdoba, El Gran Capitán.
29. Ladero Quesada, *Mudéjares*, p. 81.
30. Liss, *Isabel*, p. 332.
31. Decree of 12 May 1511 (Seville) of Ferdinand the Catholic, authorizing new converts to use knives with a rounded point (*cuchillos de punta redonda*), *Colección de documentos inéditos para la Historia de España*, 113 vols, Madrid, 1842–95, vol. III, p. 568. The issue of bearing arms, whether for hunting or for other purposes, was a key area of contention between the *Moriscos* and the authorities. See Documents nos 1–6, 9, 11 and 13–17.
32. See Mercedes García-Arenal, 'Moriscos and Indians: A Comparative Approach', in Van Gelder and De Moor, 'The Middle East and Europe', pp. 39–55.
33. Casas, *Apologética*, p. 1037, cited in Luis N. Rivera, *A Violent Evangelism: The Political and Religious Conquest of the Americas*, Louisville, KY: Westminster, 1992, p. 212. See also Document 20.
34. See Casas, *History*.
35. Casas, *Apologética*, p. 1039.
36. See Richard Konetzke, *Colección de documentos para la historia de la formación social de Hispanoamerica 1493–1810*, Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1953, vol. 1, pp. 32–3.

٣٧– هناك حالات مؤكدة جيدا من الاستهلاك الاحتفالى للحم البشرى ، لاسيما فى الروايات الأوربية الباكرة عن العالم الجديد. وصارت شكلا شعبيا للغاية من الأدب Hans Staden، True History His Captivity (١٥٥٧) ولكن فى الوقت نفسه تقريبا، صارت طبيعة جسد المسيح ودمه ، التى شكلت جوهر طقوس التناول (الإفخارستيا)، محل محاجاة ساخنة بين البروتستانت والكاثوليك. وقد تم الاتفاق فى مجمع ترنت على أنه بالنسبة للكاثوليك "فإن الخبز والنبيذ يتحولان بواسطة القسيس المرسَّم من الكنيسة إلى لحم المسيح ودمه لدرجة أنه لايبقى سوى مظهر الخبز والنبيذ" . وكانت طبيعة التحول معقدة من الناحية اللاهوتية ، ولكن كان واضحًا أن هذا كان تحولا

"حقيقيًا" ولم يكن مجرد تحول رمزى . وقد نتج عن هذا مفهوم أن المسيحيين أيضا يمارسون شكلا من أشكال أكل لحوم البشر.

(٣٨٢.p)

38. Tomás de Vio Cayetano, *Secunda secundae partis summae totius theologiae d. Thomae Aquinatis, Thomas a Vio Cajetani comentariis illustrata* (1517), part 2, 2.66.8; cited by Luis N. Rivera, *A Violent Evangelism: The Political and Religious Conquest of the Americas*, Louisville, KY: Westminster, 1992, p. 214.
39. See Bartolomé de las Casas, *Del único modo de atraer a todos los pueblos a la verdadera religión*, trans. by Atenógenes Santamaría, Mexico City: Fondo de Cultura Económica, 1975, p. 465.
40. Stephen J. Greenblatt, *Learning to Curse: Essays in Early Modern Culture*, New York: Routledge, 1990, pp. 16–17.
41. Ibid., pp. 21–2.
42. Genesis 16: 11–12.

(٦)

"الأعشاب الضارة"

Malas Hierbas

كانت لإسبانيا تحت حكم خلفاء الملكين الكاثوليكيين- أولا حفيدها شارل. ثم فيليب الثانى- أعداء كثر. وكانت هناك خصومات قديمة مع جاراتها فرنسا والدول الإسلامية فى شمال أفريقيا. ثم كان هناك أعداء مذهبيون. من بينهم الإصلاحيون المسيحيون مثل لوثر وكالفن وأتباع إراسموس Erasmus يمثلون التهديد الأكبر. وأخيرا، الخطر الماثل على الدوام وهو الإمبراطورية العثمانية. والخطر الداخلى الخبيث المتمثل فى «المسيحيين الجدد» أى الذين كانوا يهودا أو موريسكيين من قبل. واستطاع لاس كاساس. الذى كان يكتب فى إسبانيا فى السنوات الأخيرة من حياته، أن يرى للوهلة الأولى ما كان يخشى منه «المسيحيون القدماء» مثل وصمة اليهودية الخفية والخطر الذى يشكله الموريسكيون الذين رفضوا بعناد أن يصبحوا مثل سائر المسيحيين. وكان هناك اعتقاد شائع على نطاق واسع بأن أيًا من هاتين المجموعتين لم تعتنق المسيحية حقا. وكان هناك اعتقاد بأن كليهما خطر يهدد العقيدة المسيحية ومن ثم فهم يهددون فى النهاية أمن إسبانيا. بيد أن الموريسكيين كانوا هم الذين قد صاروا فى النهاية أخطر من أن يعيشوا على أرض إسبانيا وهم الذين، طردوا فيما بين سنة ١٦٠٨م وسنة ١٦١٤م بغض النظر عن كونهم مسيحيين مخلصين أم لا. مات لاكاساس فى دير أتوشا Atocha بمدريد فى سنة ١٥٦٦م، ولهذا فإنه لم يعش ليرى حصاد «الكراهية والضغينة» المتواصلة فى الثورة الثانية فى ألبوخاراس التى بدأت قبل عيد الميلاد سنة ١٥٦٨م مباشرة.

كانت «الكراهية والضغينة» بين المسيحيين القدامى والموريسكيين متبادلة. وبينما كانت الدولة الإسبانية تضغط بشدة أكثر من ذى قبل على أقليتها من المتنصرين، كانت قدرة الموريسكيين وإرادة المقاومة لديهم تزداد صلابة وقوة. لقد كان من الممكن تفادى الحربين المرعبتين بين المسيحيين والموريسكيين (فى سنة ١٤٩٩-١٥٠١م وسنة ١٥٦٨-١٥٧٠م). فالمعاصرون الذين شاهدوهما رأوا أنهما بلا سبب ولا ضرورة. فقد جاءت كلاهما بسبب عدالة المنتصر. وليس فقط من السنوات العشر التى استغرقتها حرب غرناطة وإنما من الرغبة الموجودة على مدى القرون داخل قشتالة لتصحيح الأخطاء التى لحقت بأسلافهم الفيزيقوط الأسطوريين. كما أن الأساطير التى كانت قد عبأت المجتمع القشتالى فى أثناء مئات السنين من السلطة الإسلامية كانت أيضا قد غرست روح الانتقام فى هذا المجتمع. لقد كان كل من فرديناند وإيزابيلا يرغبان فى تحقيق الهدف القديم بوجود إسبانيا نقية، ولكن حسّهما السياسى «أنبأهما أن هذا الهدف ينبغى أن يتحقق بالتدريج بدلاً من الوسائل الجذرية. ولكن، كما رأينا، وجدا أن جاذبية الفعل المفاجئ الحاسم والدرامى لا تقاوم. وفى البداية توصلا إلى حل «مشكلة» اليهود، وعرضوا عليهم النفى أو اتباع الصليب. ثم جاء بعد ذلك التنصير الجماعى فى غرناطة، وهو ما حدث تحت نظر إيزابيلا. وأخيرا فإن الأوامر الملكية طبقت معادلة التنصير على كل المسلمين فى قشتالة فى أعقاب حرب البوخاراس الأولى.

ولم يسبق أبدًا أن تمت محاولة على هذا النطاق فى العالم المسيحى منذ التنصير الجماعى لقبائل السلاف فى البلقان قبل عدة قرون. وفى إسبانيا، كان تنصير اليهود والمسلمين مشروعًا ترعاه الدولة يدفعه للأمام الملكان الكاثوليكيان وخلفاؤهما فى سبيل مجد الرب ومجد إسبانيا. وكانت الكنيسة الإسبانية ومحاكم التفتيش الإسبانية أدوات الدولة إلى درجة كبيرة. ولم يسمح أى من شارل الخامس ولا فيليب الثانى للبابوية بأية سيطرة داخل أراضيها. وكان كلاهما على خلاف مع البابوات الذين حاولوا كبح جماحهما. فقد نهبت قوات شارل الخامس روما نفسها فى سنة ١٥٢٧م. وفى سنة ١٥٥٦م، كان البابا بول الرابع المعادى لإسبانيا فى عنف قد أصدر قرار

الحرمان ضد فيليب وأبيه. وأرسل فيليب قواته ضد الأراضي البابوية. وبعد موت بول الرابع، سعى فيليب (الذى عاد إلى صحبة المؤمنين) إلى إعادة بناء الرابطة التى تربطه بالبابوية؛ وبحلول سنة ١٥٩١م كان هناك أربعة وسبعون كاردينالاً من بين سبعين كاردينالاً يتقاضون رواتبهم من إسبانيا [1]. ومن بعدها تجنب كل من فيليب والكرسي المقدس (البابا) المواجهة. بيد أن تنصير الجماهير الذى حدث فى إسبانيا كان ضد احتجاجات البابوية فى البداية. وتحت حكم شارل الخامس وتحت حكم فيليب الثانى بدرجة أكبر، كانت المساواة بين الكاثوليكى الطيب وأفراد الرعية الطيبين عاملا حاسمًا واضحًا فى سياسة الدولة. أما الأراضي الواطئة فى الشمال، والخاضعة للحكم الإسباني، فقد صارت ملاذا للهراطقة البروتستانت والمتمردين، الذين لم يكونوا ليصبحوا أبدًا رعايا مطيعين ما لم يكونوا، مرة أخرى، مسيحيين كاثوليك مخلصين. وقد طبقت معايير مماثلة على الموريسكيين فى إسبانيا بعد سنة ١٥٠٢م.

ومثل كل الفئات الإدارية، كان مصطلح موريسكى **Morisco** يخفى داخله تقسيمات فرعية واختلافات محلية. فقد كانت هناك أربعة أجيال فصلت المقهورين سنة ١٤٩٢م عن أولئك المطرودين فى سنة ١٦٠٨م، وتغيرت أمور كثيرة على امتداد تلك الفترة الطويلة [2]. ففى غرناطة القديمة، فى السنة الأولى، كان هناك فى البداية عدد قليل من المهاجرين من المسيحيين القدامى، ولكن بحلول ستينيات القرن السادس عشر، كان هؤلاء الذين أعادوا تشكيل التركيبة السكانية يكونون أكثر من ٤٥ بالمائة من السكان[3]. وفى جميع أرجاء قشتالة وأراجون وڤالنسيا، كانت النظرة إلى المسلمين ثم الموريسكيين ترى فيهم حلفاء طبيعين لمختلف أعداء إسبانيا؛ فقد كان ينظر إلى الموريسكيين فى ڤالنسيا على أنهم فى عصبة تحالف مع قراصنة شمال أفريقيا أو الأتراك. أما الموريسكيون فى أراجون، الذين كانوا يعيشون فى سفوح جبال البرينيس، فقد كانوا على اتصال مع الهجونوت **Huguenots** (البروتستانت الفرنسيين) على الجانب الآخر من الجبال[4]. وفى نظر معظم الموظفين، كان الموريسكيون يمثلون جمهرة خطيرة دون تفرقة. ولكن فى الحقيقة كانت جماعات

المدجنين السابقين المبعثرة فى مناطق الحدود بقشتالة تختلف تمام الاختلاف عن العدد الكبير من سكان مملكة ڤالنسيا، الذين كانوا هم غالبية السكان فى المرتفعات. وفى غرناطة كانت المشكلة، فى نظر المسيحيين، حادة. كانت هذه أرضا تم غزوها حديثا، وتم خوض هذه المعركة من أجل «قلوب وعقول» السكان وكأنها امتداد للحرب. لقد كان الهدف المنشود هو التطهير.

كان البديلان المتاحان فى غرناطة بعد سنة ١٤٩٢م المقاربة الحذرة والمضنية التى قدمها تلافيرا، كبير أساقفة غرناطة. والاستراتيجية القوية التى تبناها الكاردينال خيمينيز دى سيسنروس رئيس أساقفة إسبانيا. فبالنسبة لتلافيرا. الذى كان قسًا مدربًا بشكل جيد. مفوها فصيحا فى لغة المتنصرين. كان ذلك سوف يجلبهم إلى المسيح بالإقناع وليس بالقوة[٥]. وكان خيمينيز دى سسينروس يفضل أن يجلب المسلمين بالسرعة الممكنة إلى أحضان الكنيسة ثم يستخدم محاكم التفتيش وغيرها من وسائل السيطرة الاجتماعية لمنع التمرد. وفاز سسنيروس فى الجدل وما إن حدث التنصير الإجبارى، حتى تم تقسيم المملكة إلى أبرشيات. وأرسل القساوسة إلى مراكز السكان الكبرى. وهناك شنوا معركة كانت بلا جدوى إلى حد كبير لتحويل المسيحيين الشكليين إلى مسيحيين حقيقيين.

ولم تكن المعضلة جديدة. ففى القرن الثانى عشر. كان بطرس المبجل قد حض بالفعل على أن المسلمين يمكن كسبهم بطريقة أفضل إلى حظيرة المسيحية «ليس كما يفعل شعبنا غالبًا، بالسلاح، ليس بالقوة وإنما بالعقل. ليس بالكراهية وإنما بالحب»[٦]. ويجدر بنا أن نتذكر أن مثالاً على نموذج أبطأ وأكثر تطورًا كان قد حدث بالفعل فى إيبيريا. ولكن فى الأندلس الإسلامية. فلم تكن هناك حملة منظمة لفرض الإسلام بالقوة فى إسبانيا بعد الفتح الإسلامى. بيد أنه فى غضون قرنين من الزمان كان معظم أهالى الأندلس المسيحيون قد اعتنقوا الإسلام. كانت الطرق القوية النشيطة التى كان رائدها خيمينيز دى سسنيروس تمليها الدوافع السياسية وبدا أنها سوف تنجح على المدى القصير. وبحكم القانون، وعلى الورق، كان الإسلام قد انتهى وأعلن

أن الأمة بأسرها رسميًا أمة مسيحية. ولكن أدوات السيطرة والكبت برهنت فى نهاية الأمر على أنها غير كافية. ولم يتمكنوا من التغلب على المقاومة السلبية للموريسكيين الغرناطيين مهما كانت الجهود الجهيدة التى استخدمت بها.

خلسة، استمر الموريسكون فى غرناطة يتلون القرآن الكريم، ويسمون أبناءهم أسماء إسلامية، ويختنون أبناءهم. وقد استهانت السلطات بقدرة الموريسكيين على المقاومة وحاولت تدمير ديانتهم بوسائل صممت للتطبيق على الهراطقة المسيحيين واليهود. كانت طريقتهم الأولى فى السيطرة استئصال النصوص الإسلامية. ففى سنة ١٤٩٩م أمر سسنيروس بأن جميع نسخ القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية يجب أن تجمع ثم صدر أمر بتدميرها. كان هذا تصرفًا رمزيًا بشكل عميق. وبينما كانت محاكم التفتيش تشعل نيرانا بطيئة تحت الهراطقة والمتنصرين فى إسبانيا، قدم خيمينيز دى سسينروس فعل الإيمان auto– da– fé الخاص به فى الميدان الرئيسى فى غرناطة؛ فقد أحرق كتب الإسلام المقدسة[٧].

لم يكن هذا بالضبط تصرف البربرية القح كما يبدو الآن. فقد كان سسنيروس الراعى الأكبر للبحث فى إسبانيا الذى كاد أن يكون وحده من دفع إلى الأمام إنتاج Biblia Complutense، التى طبعت نصوص المصادر المتعلقة بالكتاب المقدس فى اللغة اللاتينية، واللغة اليونانية والعبرية، والكلدانية (أو السوريانية) فى أعمدة متوازية. وتمامًا مثلما اعتقد خيمينيز دى سسنيروس فى قوة الكلمة المكتوبة وأن المسيحية سوف تتقدم من خلال هذه الطبعة الأثرية للكتاب المقدس، ولهذا كان مقتنعًا بأن الإسلام فى إسبانيا سوف تناله جروح مميتة بتدمير نصوصه المقدسة لقد كان يدرك تمام الإدراك مدى تبجيل المسلمين للقرآن الكريم والتقدير الخارق للعادة الذى ينظرون به إلى اللغة العربية. كان حرق الكتب جزءًا جوهريًا فى سياسته لتسريع التنصير. وفى نظره أنه ستكون هناك مبالغة طبيعية لدى المسلمين المتنصرين للبحث عن نور المسيح، ولا يستطيع سحبهم والعودة إلى أساليبهم القديمة سوى الدعاة المسلمين. ولم تكن هناك نسخ مطبوعة من القرآن الكريم والنصوص المخطوطة المستهلكة فى غرناطه لا يمكن استبدالها بسهولة.

ومن المؤكد. أن الذين كتبوا سيرة كبير أساقفة طليطلة رأوا فى حرق الكتب فعلاً عظيما للغاية يستحق الثناء، ودليلاً على عزم خيمينيز دى سسينروس على إنجاز أغراض الرب. ولهذا فإنهم غالوا فى عدد المجلدات بحيث أوصلوها إلى أكثر من مليون مجلد، وهو رقم غير محتمل لأنه كان يتيح أكثر من ثلاثة نصوص مخطوطة لكل ساكن من سكان غرناطة. هذا الرقم الكلى كان مجازًا أكثر من كونه حقيقة، مثل المدى البطولى غير الممكن للانتصارات المسيحية الباكرة على الكفار فى حرب الاسترداد. وفى نظر أنصار خيمينيز دى سسنيروس. أنه كان قد حقق نصرا مؤزرا فى حرب روحية تم شنها بكل وسيلة ممكنة. ولكى نجد ما يساويه فى المصطلحات المسيحية، فإننا بحاجة إلى الرعب الكاثوليكى والنفور من تدمير البروتستانت للصور والذخائر المقدسة فى الأراضى الواطئة فيما بعد فى القرن السادس عشر. كانت النار الموقدة فى الخلاء فى غرناطة عملاً من أعمال تحطيم الأيقونات عن قصد. وكان ذلك عملاً ناجحًا أيضا، لأن الكتب نفسها كانت فقط ذروة بناء العقيدة الإسلامية فى غرناطة. لقد عاشت غالبية الموريسكيين فى غرناطة ليس فى المدن وإنما فى الريف. حيث كان يمكن لعدد قليل من الناس أن يقرأوا النصوص. ولكن الرسالة كانت معروفة ويجرى تعليمها شفويًا. مثلما كان معظم المسيحيين المعاصرين يتعلمون دينهم سماعًا وبالمشاهدة. وهكذا فإن القوة الحقيقية للإسلام كانت تكمن فى عقول الأطفال وذاكرتهم. ومنذ أيام النبى محمد كانوا يتعلمون القرآن الكريم حفظًا عن ظهر قلب. وهكذا. حتى فى داخل المجتمعات الفردية الفقيرة كان ثمة مورد بشرى للمعرفة.

ونحن الآن نبدأ فى فهم أهمية النصوص الموريسكية المكتوبة. وهى تنتقل من يد إلى أخرى ويتم نسخها. مخبأة عن عيون الجيران وعن جواسيس السلطات. لقد كتبت فى تنويعة من اللغات والخطوط. كان بعضها باللغة العربية، وبعضها باللهجة الموريسكية الرومانسية التى تسمى **alajamlado**. بمعنى الأجنبية. وفى بعض الأحيان كانت لغة الخميادو تكتب بالحروف العربية وفى بعض الأحيان تكتب بالأبجدية اللاتينية. وهو ما يوحى بمجتمع مقيد فى استخدامه اللغة العربية؛ لأن الحديث بالعربية علنا كان يعنى المخاطرة بجذب انتباه محاكم التفتيش. ولكنهم كانوا

يؤمنون أن الخط المكتوب قد خلق من أجل كتابة القرآن الكريم. لقد كان علامة على ميراثهم وهويتهم وكان كل شيء يكتب بهذا الخط عملاً من أعمال الإيمان. ولهذا فإن النصوص المخطوطة، سواء باللغة العربية أو في الخميادو التي تستخدم الحروف العربية. كانت حيوية بالنسبة للعلماء للحفاظ على وحدة العقيدة. ولكنها كانت أيضا تحظى بتقدير في جميع الجماعات الموريسيكية باعتبارها رموزًا لدينهم وأصلهم الحقيقي الذي كان عرضة للعدوان. كانت الكلمة والمكتوبة تكملان إحداهما الأخرى. ولو كان الدين قد انتقل عن طريق الذاكرة والكلام فقط. فإن هذه المعرفة بمرور الزمن لابد أن تغير وأن تفسد. ولكن مادام كان هناك أولئك الذين كان يمكنهم قراءة آيات القرآن الكريم. ويكتبونها ويمررونها من جيل لآخر. لن يكون لحرق الكتب سوى تأثير محدود .

لقد كان الموريسكيون مسيحيين من الناحية الرسمية، وكان الرهبان والقساوسة قد جندوا في المملكة لكي يساندوا ديانتهم الجديدة. وعلى مدى عشر سنوات. حتى سنة ١٥١١م. بذلت جهود قوية لجعل عمليات التنصير الافتراضي هذه حقيقية. وعلى أية حال، فإنهم فشلوا في عمل أية طرق للوصول إلى السكان الذين لم يظهروا أي اهتمام إيجابي بالمسيحية. وبالتدريج. اعترف الموظفون في غرناطة بأن الموريسكيين يمكن أن يتنصروا فقط بتغيير كل جانب من جوانب حياتهم. وفي مايو سنة ١٥١١م. وعلى مدى السنوات التالية. تم إرساء عدد من القواعد لتنظيم الحياة الموريسكية. وقد شملت هذه القواعد جميع العادات التي كانت دينية على وجه الخصوص في أصلها. مثل الوضوء. وممارسات الزواج. وأساليب الذبح الشرعي الحلال. فقد فرض على أطفال الموريسكيين أن يكون لهم آباء روحيون وأمهات روحيات. وكان لابد لكل زواج موريسكي أن يتم بشهود من المسيحيين القدامى[٩]. وفي سنة ١٥١٣م صدرت الأوامر بأنه لا يجب على الرجال من المسيحيين القدامى أن تكون لهم علاقات حميمية مع النساء الموريسكيات[١٠]. وفيما بعد، اتسع هامش القيود هذا لكي يشمل الطعام الذي يأكله الموريسكيون وتوجيه الحياة الأسرية [١١]. في سنة ١٥٢٦م كانت هناك «وقفة في اضطهاد الموريسكيين» [١٢]. وجاء شارل الخامس إلى غرناطة وأمر ببناء القصر

الجديد الفخم، من الحجر الأبيض والرخام الأبيض اللامع، عاليًا على التل المشرف على المدينة وسط الأسوار الوردية للقلعة الإسلامية. وعندما وصل الإمبراطور، شاهد بسرعة مدى المشكلات الاجتماعية والسياسية واستفسر عن مكانة الموريسكيين. وقد أوضح التقرير أنهم لم يكونوا يتلقون التعليمات الدينية الصحيحة، وأنهم كانوا فريسة للاستغلال الباهظ. ونتيجة لهذا، تم التوصل إلى الاستنتاج المفزع بأنه لم يكن هناك ما يزيد على سبعة مسيحيين حقيقيين بين العدد الكبير من الموريسكيين الذين تمت مقابلتهم.

وقد سعى شارل، الذى أطال مدة بقائه فى غرناطة لمدة ستة أشهر خلال خريف سنة ١٥٢٦م، إلى الوصول لحل حاسم. وفى مرسوم غرناطة الصادر فى، ديسمبر ١٥٢٦م، أمر بإنهاء أربعين من المظالم الكبرى الواقعة على الموريسكيين. ولكنه فرض أيضا قيودًا جديدة كثيرة. فقد منعوا من استخدام اللغة العربية أو ارتداء الملابس التى كانت معروفة بأنها ملابس إسلامية. ومنعت النساء من ارتداء الحجاب. ولم يكن بإمكانهم لبس المجوهرات أو حمل أية أسلحة؛ وكان يجب أن تبقى أبواب منازلهم مفتوحة فى أيام الجمعة وفى أثناء حفلات الزفاف وإلا انغمسوا فى الممارسات الإسلامية. كما منعت الأسماء الإسلامية. وأخيرًا، حدد معنى كلمة **Moriscos** ومكانتها وأمر بوضع برنامج للتبشير والتوجيه تحت عناية كبير أساقفة غرناطة بدرو دى ألبا **Pedro de Alba**[١٢].

كان هذا شارل فى دور حامى الدين الذى كان قد جربه قبل خمس سنوات فى المجلس التشريعى فى ورمس **Diet of Worms**، ثم أحبط على يد مارتن لوثر. ولكن جهوده لم تكن أكثر نجاحًا فى غرناطة. وعلى أية حال، جلبت القرارات والمراسيم عائدًا ودخلا. فقد قبل مبلغ تسعين ألف دوكات لمدة ست سنوات من الموريسكيين ووافق على وقف المراسيم والقرارات العقابية، وهو ترتيب استمر (مع المزيد من الدفعات الإضافية الكثيرة) حتى تنازل عن العرش لصالح ابنه فيليب فى سنة ١٥٥٦م. ومع هذا، فإنها كانت هدنة غير متوازنة: فى الحقيقة كانت وسائل التنصير

والاضطهاد قد زادت قوة. ففى سنة ١٥٢٩م تم نقل محكمة تفتيش خاين إلى غرناطة ووضعت فى مبنى أنيق بالمدينة؛ وقبل ذلك كانت محكمة التفتيش فى غرناطة لا تعمل سوى باعتبارها فرعًا لمحكمة تفتيش قرطبة. وتم إرسال المزيد والمزيد من القساوسة إلى المملكة،.وتم إنتاج دليل للتنصير فى ثلاثينيات القرن السادس عشر[١٤].

وعلى أية حال. فإن هذا الضغط المتزايد من أجل التنصير كانت له نتائج غير مقصودة. فقد زاد من الإحساس بالهوية المسلمة فيما بين أهل غرناطة الذين طوروا مهارات خاصة في مقاومة الكنيسة المهيمنة. وفى خلال نصف القرن الذى أعقب الحرب الأولى فى ألبوخاراس يمكننا أن نرى تطورين متوازيين ومتصلين. فمن جهة، كان هناك إحباط عند كل مستوى داخل المجتمع المسيحى القديم بسبب قوة شكيمة الموريسكيين. الذين كان معظمهم مسيحيين بالاسم فقط حسبما أدرك الناس. وأكثر من هذا، كان ينظر إليهم على أنهم سيكونون أكثر خطورة. فقد بدا أنهم يزيدون عددًا وبمعدل أسرع من المسيحيين القدامى، وغالبًا ما كان هذا الانطباع حقيقيا. هذه الزيادة فسرها المسيحيون على أنها بسبب شبقهم الجنسى الكامن فيهم. وحتى فضائلهم مثل الجد والاجتهاد. كان لها آنذاك مضمون سلبى. فقد كانوا يعملون بجد. ولكن فقط لأنهم كانوا جشعين. إذْ كان همهم كسب المال وعدم إنفاقه إطلاقًا إلا داخل جماعتهم. وفى سنة ١٦٠٢. عكس رئيس أساقفة ڤالنسيا. خوان دى ريبيرا، الرأى الشائع منذ زمن طويل. «لأنهم عموما شهوانيون وجشعون ويحبون ادخار المال أكثر من أى شىء آخر ولا ينفقونه. فإنهم اختاروا مواصلة القيام بالأعمال الأكثر سهولة، أصحاب حوانيت. وباعة جائلون. وحلوانية. وجنايينية ... إنهم الإسفنجة التى تمتص الثروة إلى خارج إسبانيا»[١٥].

ولكن كان ينظر إليهم على أنهم أشرار أكثر من أى شىء آخر. فالموريسكيون تآمروا مع أعداء إسبانيا الخارجيين. على حين كان المزيد منهم داخل البلاد يخرجون على القانون. بحيث يتحولون إلى عصابات للسرقة أو قطع الطريق (monfies). وعند المستوى الرسمى. ظهر هذا الإحباط فى التشريعات المتشددة باطراد التى وضعت

بقصد كسر مقاومة الموريسكيين، ولكن غالبًا. لم تكن هذه القوانين توضع موضع التنفيذ. ففى ڤالنسيا. كان ملاك الأراضى من النبلاء يعتمدون على الموريسكيين لفلاحة ضياعهم وبذلك يحمونهم قدر الإمكان.

وقد حدث خط التطور الآخر داخل المجتمع الموريسكى. ففى غرناطة وبقية إسبانيا كان المجتمع الموريسكى قد حرم إلى حد كبير من زعمائه الطبيعيين. الذين كانوا قد رحلوا إلى شمال أفريقيا. وعلى أية حال. بقيت أعداد كافية من الطبقات المتعلمة والمتدينة للحفاظ على أصول الديانة الإسلامية وبدأت الجماعة أيضا تطور نخبة جديدة. وكان كثير من هؤلاء الرجال. مثل العالم ألونسو دى كاستيللو **Alonso de Castilll** كانوا متنصرين حقيقيين. ولكنهم مع هذا لم يفقدوا إحساسهم بالارتباط بعائلاتهم وأصولهم[١٦]. لقد صار الموريسكيون بسرعة بارعين فى التوافق مع العقيدة المسيحية أحيانا وبشكل متردد. فعندما كانوا يتعرضون للضغط كانوا يحضرون أطفالهم للتعميد، ولكن بعد الاحتفال. يعودون إلى بيوتهم ويغسلون بعناية كل آثار المياه المقدسة للكفار. وعندما أطلقت عليهم أسماء مسيحية، لم يكونوا يستخدمونها قط فيما بينهم. وإذا حضروا الخدمات الكنسية المسيحية، كانوا يقولون الكلمات الخاطئة أو يتكلمون فى أماكن غير مناسبة فى الاحتفال. وهم يتظاهرون بالجهل. وكان المسيحيون القدامى الحانقون الهائجون يشيرون إلى هذه الفضائح التى تحط من شأن الطقوس المقدسة وتسىء إليها. واستمر الموريسكيون فى إعطاء الصدقات التى نص عليها القرآن الكريم. وفى أداء فريضة الصلاة عندما يكون ذلك ممكنا ويعلمون أولادهم قراءة الكتب الدينية. وعندما كان أحدهم يموت كان أقاربه يرشون حفارى القبور حتى لا يدفنوا الموريسكى الميت فى فناء الكنيسة وإنما فى الأرض المفتوحة التى لم تكن مكرسة للكنيسة. ولم يكونوا يتعاملون مع السلطة المسيحية على الإطلاق. فقد وجد الكهنة العاملون فى المجتمع الموريسكى بطرطوسة أنهم كان يتمون عملهم فى الاعتراف بسرعة فائقة. لأن الموريسكيين «عندما يعترفون لا يكشفون إطلاقًا عن أية خطايا، ولهذا لم يجدوا شيئا للاعتراف»[١٧]. ويمكن أن نخرج بشعور عن كيفية مقاومتهم من المرسوم الذى صدر فى أوران **Oran** التى كانت تحت الحكم العثمانى

فى سنة ١٥٦٣م. والذى أسبغ الشرعية على بعض الحلول الوسط بشأن تشددهم فى التمسك بدينهم:

«استمروا فى الصلاة حتى إذا اضطررتم للصلاة فى صمت أو بالإشارة.

«أوفوا بالتزامكم بالزكاة بأية وسيلة لفعل الخير تجاه الفقراء. وتذكروا أن الله لا يعبأ بالظاهر، وإنما بالنية الداخلية فى قلوبكم

«وللوفاء بقوانين التطهر، استحموا فى البحر أو النهر؛ وإذا كان ذلك ممنوعًا فقوموا بذلك ليلاً وسيكون صالحًا تمامًا مثل القيام به فى ضوء النهار

«توضأوا قبل الصلاة أو حتى يتمموا حائطًا

«إذا أرغمتم ساعة الصلاة على تبجيل الأصنام المسيحية ... فانظروا إلى الأصنام عندما يفعل النصارى ذلك، ولكن فكروا فى أنفسكم أنكم تسيرون على الصراط المستقيم حتى ولو لم تكونوا فى مواجهة القبلة.

«إذا اضطررتم لأكل لحم الخنزير. فافعلوا. ولكن بعقل صاف واعترفوا بأنه ليس حلالاً. كما يجب عليكم بالنسبة لأى شىء آخر .

«إذا اضطررتم إلى أخذ الفائدة (الممنوعة فى الشريعة الإسلامية) فافعلوا مع تصفية نيتكم وطلب المغفرة من الله.

«إذا حكم عليكم الكفار. وكان بوسعكم أن تظهروا غير ما تبطنون. فافعلوا ذلك وأنتم تنكرون بقلوبكم ما تقولونه بألسنتكم. وهو ما أنتم عليه مرغمون»[١٨].

ولم يكن هناك أمر كان فيه عزم الموريسكيين على المقاومة أقوى منه فى موضوع الختان. فلم يكن الذكور المسيحيون يختتنون عادة. على حين كان المسلمون واليهود يختتنون. لقد كانت نقطة هوية محددة ولا يمكن القضاء عليها. فعل دم لا يشبه إطلاقا طقوس التعميد المسيحية[١٩]. وكان ممنوعًا من جانب شارل الخامس شخصيًا فى

غرناطة سنة ١٥٢٦، فيما عدا بإذن من الأسقف أو الحاكم الأكبر في المملكة. وكانت عقوبة الختان هي النفي الدائم وخسران جميع الممتلكات. وبذلت جهود قوية لتعقب أولئك الذين كانوا يقومون بعمليات الختان. وكانت القابلات الموريسكيات ممنوعات رسميًا وصدرت تعليمات للقابلات من المسيحيات القدامى بإبلاغ أي قسيس إذا وجدن طفلاً قد تم ختانه[٢٠].

ولكن بحسب برنارد فنسنت Bernard Vincent كانت الأغلبية الغالبة من الذكور في غرناطة يختتنون باستمرار في العقود ما بين الحرب الأولى والحرب الثانية في ألبوخاراس. وتشير سجلات محاكم التفتيش في ڤالنسيا إلى أنه في ثلاث قرى في سنة ١٥٧٤م كان ما يقرب من ثمانين بالمائة من السكان الذكور مختتنين. ولكن حينما كانت السلطات تحاول أن تكتشف المسئول. يقابلهم جدار من الصمت أو من التعليمات المضللة. وقد قالت إحدى الموريسكيات في ڤالنسيا إنها لا تعرف من الذي فعلها. فقد كان ابنها قد أخذ منها وعندما أعادوه. كان قد تم ختانه. وقد ألقى آخرون اللوم على أشخاص غير معروفين أو على أولئك الذين كانوا قد ماتوا وصاروا آمنين بالفعل. وقد سعت السلطات المسيحية إلى الإمساك بمن يقومون بالختان ولكنهم كانوا يفشلون عادة؛ وعندما كانت هذه السلطات تنجح. فغالبا كان الذين يقومون بالختان يلقون أقصى عقوبة، وقد حكم على أحدهم بالحرق حيًا في ڤالنسيا سنة ١٥٨٧م[٢١].

وعلى أية حال. بقي الموريسكيون مسالمين في الظاهر، بشرط ألا تقوم السلطات المسيحية بتهديد هويتهم الاجتماعية والدينية بشكل خطير. كانوا راضين بالانتظار. لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سوف ينتقمون من أعدائهم. الذين كانوا مذنبين بسوء النية في سنة ١٤٩٩م، وحنثوا بأيمانهم التي حلفوا عليها. وفي غرناطة وربما في أماكن أخرى في الجماعات الموريسكية بإسبانيا كان هناك اعتقاد بأن السيادة المسيحية لن تدوم إلى الأبد. واستمر الموريسكيون تحت الحكم المسيحي يسخرون من التعليمات القانونية التي كانت تحد من حريتهم. وفي نظر المسيحيين كان هذا شذوذًا لا يمكن السكوت عنه. لأن الموريسكيين بدوا بملابسهم ولغتهم وسلوكهم وكأنهم يزدرون كل

شيء يقدم إليهم ويستخفون به. وبين الحين والحين كان تصاعد العداء على المستوى الشعبى يدخل السجل التاريخي. وفي إحدى المحاكمات في قرطبة روى أن أحد المسيحيين القدامى صاح ضد الموريسكيين في الشارع «يا كلاب، من الذي أحرق الصور والصلبان والكنائس ووضع سر القربان المقدس في روث البقر» وصاح آخر «الموت لهؤلاء السدوميين الذين تحولوا عن ديانة يسوع المسيح»[٢٢].

انتهى الحل الوسط الموجود منذ زيارة شارل الخامس في سنة ١٥٥٨م في عام ١٥٦٦م وقدمت تفسيرات عديدة لهذا التشدد المفاجئ في المواقف تجاه الموريسكيين. فقد جلس على عرش إسبانيا ملك جديد. «ما كان يمكن شراؤه تحت حكم شارل الخامس لم يكن ممكنا في ظل حكم فيليب الثاني». إذ إن القوة الصاعدة للعثمانيين في غرب المتوسط والدليل الواضح على اتصال الموريسكيين مع أبناء دينهم زاد من المخاوف من «العدو في الداخل». وبدأت السلطات تسمع تقارير عن أن المرتدين الموريسكيين في الجبال كانوا يبدأون في تشكيل عصابات حرب كبيرة. وأنهم يهاجمون حتى المجموعات المسلحة جيدا من المسافرين المسيحيين على الطرق. والمجتمعات الصغيرة المنعزلة[٢٣]. وصارت محاكم التفتيش في جميع أنحاء إسبانيا أكثر نشاطًا. وفي يوم. مايو سنة ١٥٦٦م أعيد إحياء المراسيم المعلقة منذ زمن طويل بشأن غرناطة وزادت قوتها. وكان الرئيس الجديد المعين لمجلس القضاء الملكي في غرناطة، أعلى هيئة قانونية في المملكة. هو بدرو دي ديزا **Pedro de Deza**. وكانت لديه تعليمات بأن يفرض بالقوة المرسوم الجديد حرفيا. ولكي لا يكون هناك أي غموض أو لبس، أمر بطباعة نسخ من القيود الجديدة على أن توزع وتنشر في يناير سنة ١٥٦٧م، في ذكرى استيلاء فرديناند وإيزابيلا على المدينة.

وفي سنة ١٥٦٨م استأنف فرانسيسكو نونيز ميولي **Francisco Nunez Muley**. وهو موريسكي ومتنصر مخلص للمسيحية. ضد مرسوم سنة ١٥٦٧م الذي كان يدعو إلى القضاء على عادات الموريسكيين ومنع استخدم اللغة العربية:

«كيف يمكن أن تأخذ قومًا بعيدًا عن لغتهم الأصلية التى ولدوا بها وتربوا عليها. إن المصريين والسوريين والمالطيين وغيرهم يتحدثون ويقرأون ويكتبون العربية وهم مسيحيون مثلنا تماما... إن الموريسكيين جميعا يرغبون فى تعلم القشتالية فيما بقى من سنوات عمرهم. وباختصار فإن المرسوم قصد به أن يدمرنا. وفرضه بالقوة يسبب الآلام لأولئك الذين لا يمكنهم تحمل مثل هذا العبء. وهم يهربون من البلاد...»[٢٤].

وعندما هب الموريسكيون فى ثورة فى السنة التالية، كتب أحد زعمائهم، محمد بن محمد بن داود، قصيدة شعرية شعبية ذكرت سامعيه بالنجاسة التى جلبتها عليهم المسيحية :

إن عبادة أصنامهم المرسومة

لسخرية من الخفى العظيم

وعندما تدق الأجراس علينا أن

نجتمع لعبادة الصورة القذرة؛

فى الكنيسة يقوم الواعظ

بصوته الأجش مثل البومة الصارخة

وهو يبتهل بالخمر ولحم الخنزير

وتتم صلاة القداس مصحوبة بالخمر؛

فى تواضع زائف، يعلن

أن هذا هو القانون الإلهى[٢٥]

وكل عنصر- الأجراس الصاخبة، البومة (طائر الفأل السيئ)، والخمر لحم الخنزير القذر- كان يُذكر قراءه وسامعيه بأن المسيحية تهدف إلى تدميرهم[٢٦]. وكان الموريسكيون يسمون القساوسة الإسبان «الذئاب، لصوص بلا رحمة، يتسمون بالكبر والغطرسة، والعبث، اللواط، التراخي الأخلاقي، التجديف، والخروج على العقيدة، والمباهاة، والصلف، والطغيان، والسطو، والظلم»[٢٧].

كان للمرسوم الجديد هدف واحد، وقد كان مصممًا في النهاية للقضاء على الفروق التي كانت تسمح للموريسكيين بالتمسك بهويتهم المنفصلة. فقد منع بطريقة منظمة كل تلك التمييزات التي حددت بناءهم الاجتماعي. وكان عليهم أن يتعلموا اللغة القشتالية في غضون ثلاث سنوات، وبعدها سوف يتم منع اللغة العربية علنا وفي الخفاء، وكل الوثائق المكتوبة باللغة العربية يجب أن تلغى وتصبح باطلة، وتضمن هذا أية ممتلكات موثقة أو بعقد، وكان يجب إخضاع كل الكتب العربية للتفتيش، ويمكن الاحتفاظ بتلك الكتب التي تبدو غير ضارة، ولكن ليس لفترة أكثر من ثلاث سنوات، ويجب السماح بالملابس الإسلامية لمدة سنتين على الأكثر. وبعدها يجب على الموريسكيين أن يلبسوا مثل القشتاليين، وكل الأسماء الشخصية وأسماء الأسر الإسلامية وجميع سجلات النسب كانت ممنوعة، وكذلك منعت كافة أشكال الرقص والغناء التقليدي التي تسمى Zambras .Leilas، وكانت أشد الشروط خطرًا منع الوثائق واللغة العربية، والقضاء على علامات النسب أو أي ذكر لها. وعلى مدى عدة سنوات، كانت السلطات في غرناطة تقوم بفحص مراسيم الألقاب وتصادر أية ملكيات للأرض لم تكن تتماشى بالضبط مع ما جاء في المراسيم. وقد رأى الموريسكيون الأثرياء في المرسوم وسيلة شاملة لتجريدهم من أصولهم ولإثراء الموظفين وغيرهم من المسيحيين القدامى، وكان منع الأنساب قد قطع قلب البناء الاجتماعي لأنه كان سيجعل الزيجات داخل نظام العشيرة القديمة أمرًا مستحيلاً.

وصدر المرسوم في حينه، وفي اليوم نفسه دخلت جماعات من الجنود حمامات المسلمين في غرناطة، التي كانت ممنوعة في ظل التعليمات- وبدأوا تدميرها. وكان

واضحًا أن هذه القوانين الجديدة لن تكون حبرًا على ورق مثل التشريعات السابقة. وتم عقد اجتماعات على وجه السرعة فى ألبيثيم Albaicim. حيث تقرر أنه ما لم تتوقف الشروط. فإن الموريسكيين سوف يثورون كما فعلوا سنة ١٤٩٩م. وتم نشر مرسوم أخير يأمر بأنه فى عيد رأس السنة فى ١٥٦٨م يجب أخذ جميع أطفال الموريسكيين فيما بين سن الثالثة والخامسة عشرة إلى القسيس المحلى، الذى سيضعهم فى مدرسة حيث يجب أن يتعلموا اللغة القشتالية والدين المسيحى. وكان هناك الكثير من الوفود للاحتجاج لدى رئيس مجلس القضاء ديزا. ولكنه أخبرهم أن الملك كان قد عزم على إنقاذ أرواح الأطفال الخالدة وأن القرارات كانت نهائية. وكانت هناك أعمال شغب فى أثناء شهر أبريل سنة ١٥٦٨م فى العاصمة وفى الجبال. فقد كان هناك إحساس متصاعد بأن هناك تخطيطا لانتفاضة وأصدرت الحكومة أوامر بمصادرة كل الأقواس والبنادق التى كانت قد صدرت بها تراخيص للصيد [٢٨]. كانت الشائعات حقيقية. لأن الموريسكيين. بإحساس التضييق عليهم كانوا قد وضعوا خططا شاملة للانتفاضة فى يوم رأس سنة ١٥٦٩م، فى كل من المدينة والجبال. ثمانية آلاف رجل، فى ملابس الأتراك لبث الرعب فى نفوس المسيحيين، كان مخططا أن يزحفوا إلى غرناطة حيث سوف يغلق حى المسلمين Albaicin البوابات ويبدأون الثورة. بيد أن الخوف والكراهية فى الريف بلغ حدا جعل الانتفاضة تبدأ قبل موعدها. وتم ذبح الجنود والحاميات المحلية فى القرى والبلدات الصغيرة. وبحلول يوم ٢٣ ديسمبر. كان مائة وثمانية وعشرون مكانًا قد هبت فى انتفاضة ثائرة. ونجحت غارة فى غرناطة نفسها ولكن شابها سوء التنسيق. كانت جذور الانتفاضة وقوتها بين سكان الجبال فى ألبوخاراس.

ومع هذا فإنه بحلول منتصف فبراير سنة ١٥٦٩م. كان الماركيز دى مونديخار Mondejar، الذى كان يعرف غرناطة وألبوخاراس. قد أخمد الثورة بالفعل وفى كل قرية قدم شروطا للاستسلام، ولقى أولئك الذين خضعوا معاملة طيبة. أما أولئك الذين لم يخضعوا فكان مصيرهم القتل أو الاستعباد. ولكن بعد ذلك تم إلغاء تنازلاته وحل محله فى القيادة دون چون الأخ غير الشقيق للملك. وفى ذلك الحين

أيقن الموريسكيون أنهم يواجهون الموت أو العبودية حتى إذا خضعوا للملك. ولذلك واصلوا الحرب بمزيد من اليأس. ولم يتنازلوا عن مدينة أو قرية إلا بعد أن كبدوا الإسبان (وتكبدوا هم أيضا) عددًا كبيرًا من الأرواح. وفى الوقت الذى أخمدت فيه آخر علامات الثورة يوم ١٩ مايو ١٥٧٠م، كانت الحملة قد تكلفت ستين ألف قتيل إسبانى ومليون دوكات[٢٩]. وعلاوة على ذلك، حسبما لاحظ السفير البندقى ليوناردو دوناتو **Leonardo Donato**، فإنه لو كان الأتراك قد أرسلوا أسطولاً لمساندة الموريسكيين بدلاً من التحول ضد البندقية. لكانوا قد أوقدوا شعلة يستحيل إطفاؤها ولجعلوا الثورة تمتد إلى مرسيه. وڤالنسيا. وقطالونيا وأراجون. ولتوقع رجال الدولة الإسبان أن يتدفق نصف الهوجونوت الفرنسيين فوق جبال البرينيس»[٣٠].

لم يكن جميع الموريسكيين فى مملكة غرناطة قد انضموا للثورة. ولكن أولئك الذين نجوا ولم يصبهم أذى عوملوا جميعا المعاملة نفسها. وفى يوم أول نوفمبر سنة ١٥٧٠م. طلب من الموريسكيين الباقين أن يتجمعوا فى بلداتهم وقراهم[٣١]. ووصلت تجريدة من الجنود عند كل نقطة تجمع. وقسمت السكان إلى مجموعات كل منها ألف وخمسمائة فرد، يحرسها فرقة من مائتى جندى. كان من المتوقع أن يسير الرجال والنساء، وأن يحملوا أطفالهم وكبار السن. ومن خلفهم ممتلكاتهم الشخصية مكومة فوق العربات. وبينما اتجهوا صوب الشمال أو الغرب. إلى قشتالة. كان يتوقع منهم أن يقطعوا مسافة ثلاثة عشر ميلاً فى اليوم. وكان المفروض أن يتناولوا وجبتين جيدتين فى كل يوم. وفى الممارسة. كانت عملية الطرد الأولى لما يزيد على خمسين ألفا فوق طرق سيئة وفى طقس ردىء أمرًا يستحيل تدبيره أو تنسيقه. وبحلول الوقت الذى وصل فيه الموريسكيون مقصدهم فى قشتالة القديمة والجديدة. كان عشرون بالمائة منهم على الأقل قد ماتوا فى الطريق بين نوفمبر ١٥٧٠م وربيع سنة ١٥٧١م[٣٢]. والعدد الإجمالى حوالى ثمانين ألفا تم اقتلاعهم من بلداتهم وقراهم، وأعيد توطينهم فى مجتمعات لم تكن لديها رغبة فى استقبالهم. وتم ترك عدد قليل. وعدد من رجال العصابات والموريسكيين الذين فروا إلى الجبال بدلاً من الخضوع للعدالة المسيحية [الجائرة]. بيد أن هذا التطهير العرقى تحقق بثمن فادح. لأن الإقليم

الذى كان مزدهرًا صار عبئًا على الدولة الإسبانية. لقد أفرغت غرناطة بالفعل من سكانها السابقين. وحتى عندما أعيد توطين المسيحيين من الشمال فيها، لم تستعد المملكة رفاهيتها السابقة قط.

* * *

كان المنفيون الغرناطيون فى قشتالة، تحت المراقبة الدائمة، وقد أخذ منهم أطفالهم ليعيشوا فى عائلات مسيحية قديمة، ما زالوا يثيرون المخاوف الوحشية بين المسيحيين. وقد أثار الغرناطيون السابقون اهتمامًا خاصًا من محاكم التفتيش حيثما استقروا. ومع هذا وعلى الرغم من الزيارات الأسبوعية من القساوسة، كان الكثير ما زالوا غير قادرين على أن يصيروا «مسيحيين مخلصين وطيبين». فقد كان أهل غرناطة ما يزالون يحافظون على طرقهم القديمة، سواء فى دينهم أو فى «وحشيتهم المفترضة». وفى سنة ١٥٧٢م، أخبر أحد الموريسكيين من أراندا Aranda على نهر دوير Duero، فى أعماق قشتالة، القساوسة المحليين أن «الموريسكيين الذين أخذوا من غرناطة ينوون الثورة مرة أخرى والاستيلاء على التلال عندما يكون الوقت مناسبًا»[٢٣]. وكان الموريسكيون فى ڤالنسيا ومرسية وأراجون يشكلون خطرًا أكبر، لأنهم يستطيعون أن يتحدوا مع العثمانيين ويرشدوا السفن القادمة من الجزائر فى هجماتهم على الساحل الإسبانى. وفى سنة ١٥٨٠م سرت شائعات على نطاق واسع بأن الموريسكيين فى غرب الأندلس على اتصال بشمال أفريقيا وكانوا يخططون لإنزال قوات من المغرب[٢٤]. وبدا أن الخطر (الذى بنى على الشائعة وبعض الأدلة والبراهين) ضاغط ويستدعى حلاً عاجلاً.

وبعد عشر سنوات فقط من تفريغ غرناطة من سكانها بالكاد، اجتمع فيليب الثانى ومستشاروه فى ليسبون Lisbon لمناقشة المسألة الموريسكية. وفى سنة ١٥٨٠م كان فيليب قد كسب عرش البرتغال، وهكذا صار آنذاك حاكمًا على أرض إيبيريا كلها. ولكن إنجازه كان يبدو واقعًا تحت تهديد مشكلة الموريسكيين المستعصية

على الحل. وكان من المتفق عليه ضرورة وجود حل كامل ودائم. لأنه لم يعد بوسع إسبانيا أن تخاطر بوجودهم. وطلب الملك الاقتراحات. وكان أحد الاقتراحات أنه يجب تكديس السكان الموريسكيين جميعا على متن سفن قديمة ثم تغرق فى البحر بمن على متنها. ولكن الصعوبات اللوجستية كانت حائلاً لا يمكن التغلب عليه. وكانت هناك حاجة إلى الأسطول فى الفلاندرز. وعلى مدى العقدين التاليين تم اقتراح مشروعات خيالية أخرى لأن الملك مدَّ نطاق الاستفسار. وكان هناك اقتراح آخر يقضى بتشغيل جميع الذكور فى السفن حتى موتهم، مما يحقق فائدة كبرى للدولة. واقتراح غيره. من قسيس من أصل موريسكى هو دوريكال Durrical الذى اقترح حلاً يناسب مربى الماشية، ينبغى أن يأمر الملك بأنه. لايجب على الموريسكى أن يتزوج موريسكية. وإنما يتزوج فقط من المسيحيين القدامى. وسوف ينشأ الأطفال مسيحيين. على حين أن الذكور البالغين لن ينجبوا وسوف يتلاشى نسلهم»[٣٥].

فى سنة ١٥٨٧م أجاب أسقف سيجوربى Segorbe. مارتن دى يالفاتييرا Martin de Salvatierra على طلب فيليب إيجاد حل ببرنامج يتسم بالصفاقة المتسرعة. ففى نظر سالفاتييرا كان من الخطر تمامًا السماح للموريسكيين «هذا الشعب الشرير المؤذى» بالذهاب إلى شمال أفريقيا، حيث سيعززون قوة أعداء إسبانيا. وكان أحسن رد أن جميع الرجال والنساء والأطفال الموريسكيين. يجب أن يتم خصيهم أو استئصال مبيض الإناث منهم، ثم يمكن أخذهم إلى أماكن خاوية فى العالم الجديد ويتركون هناك[٣٦]. وفى السنة التالية، اقترح ألونسو جوتييريز الإشبيلى Alonso Gutierrez of Seville نوعًا من نظام العشيرة حيث يتم وضع علامة على وجه كل موريسكى، حتى يمكن التعرف عليهم ثم يرسلون إلى العمل. فإذا ما زادت الأعداد عن الحد، فيجب اختيار البعض لكى يتم إخصاؤهم «وهو ما يفعلونه بالهنود الحمر دونما صعوبة كبيرة»[٣٧] هذه الحلول البروكرستيزية(*). كانت تشترك فى عامل واحد: هو

(*) نسبة إلى بروكروستيز Procrustes الذى تقول الأساطير الإغريقية إنه كان لصا يضع سريرًا لكى يمدد عليه ضحاياه. فإذا كانت الضحية أطول من السرير قطع أطرافها حتى تتواءم معه، وإذا كان العكس مدَّ ساقى الضحية أو مطها. والمقصود هنا أن هذه حلول تعسفية مقترحة للمسألة الموريسكية (المترجم)

التخلى فعليا عن أى أمل فى تنصير الموريسكيين أو استيعابهم. وبينما كانت الأخطار الحالة سياسية. من الأتراك ومن البرتستانت- فإن التعامل مع الموريسكيين كان جوهريًا لأن الشكوك التى عاشت طويلا بشأنهم كانت تقول إنهم خبثاء بالميلاد. وقد وضع أسقف سيجوربى الموريسكيين واليهود فى حزمة واحدة باعتبارهما مخاطر تجابه إسبانيا: «هذا الشعب الشرير أعمى ومتمرد فى كفره بشروره الخالصة وروح التمرد عنده، كما كان الحال وكما هو الحال بالنسبة لليهود، الذين يقاومون الروح القدس»[٣٨].

ولاشك فى أنه كان هناك بعد سياسى جعل الخوف من الموريسكيين يظهر حقيقة وليس وهما: إذ إن فكرة مؤامرة بين اليهود الإسبان والمتنصرين وعدو خارجى (يهود إستنبول أو الفرنسيون أو البروتستانت) كانت راسخة. وعلى الرغم من أنها كانت تطفو على السطح أحيانًا. فقد كان لها أساس بسيط أو لم يكن لها أى أساس فى الحقيقة. ولكن الصلات بين الموريسكيين والأعداء المسلمين الخارجيين كانت حقيقية بما فيه الكفاية. فقد حاربت فرقة من الجنود العثمانيين معهم فى البوخاراس، كما أن القراصنة الموريسكيين أغاروا على السواحل. وتظهر جريمة «الهروب إلى البربر» من وقت لآخر فى سجلات قصر الحمراء، قيادة الأركان العسكرية فى غرناطة. وأمرت محاكم التفتيش «بتطبيق القوانين»، أو صادقت على السجن البطىء وتفتيت عظام الأرجل لكى تستخرج الاعترافات من الأعداء الداخليين من الموريسكيين. وكانوا يعرفون أن الموريسكيين، الذين كان كثير منهم باعة جائلين وحمالين، كانوا يعبرون إسبانيا بالطول والعرض، وهم يحملون معهم الأخبار وبعض الكتب الإسلامية أحيانًا. وكانوا يجلبون أخبارًا عن هزائم الإسبان فى البحر المتوسط، وهو ما كان يقابل بالفرح، على حين كانت هزائم العثمانيين مثل تلك التى حدثت فى ليبانتو تُقابل بالاستياء. وقد تعلم أفراد الجماعات الصغيرة الذين عاشوا فى واحدة من القرى أو البلدات المسيحية القديمة، أن يهمسوا بالنبوءات وكذلك كان حال الفرد الموريسكى الذى يعيش متظاهرًا بأنه مسيحى.

فى سنة ١٥٦٩م. وفى وسط الحرب من أجل ألبوخاراس. انتزعت محاكم التفتيش في غرناطة اعترافًا من موريسكى اسمه زكريا. وقد أخبرهم أن قومه كانوا متأكدين أنهم على وشك أن ينتقموا من المسيحيين. وكتب سكرتير المحكمة «لقد تعلموا فى كتب القصص أنهم سوف يستعيدون أرضهم وأن المسلمين البربر سوف ينتصرون». وكل المدن الإسبانية فى أفريقيا سوف تسقط فى أيديهم، ثم اعتقد الموريسكيون «أن جسرا مصنوعا من النحاس سوف يظهر عند مضيق جبل طارق. وسوف يعبرون عليه ويأخذون إسبانيا كلها حتى جاليسيا»[٣٩]. كانت كثير من هذه النبوءات جديدة تمامًا وليست من التراث القديم. وقد نمت آمال الانتقام من انتصارات الإسلام فى الأماكن الأخرى. وقال الموريسكيون لأنفسهم إن «الأتراك سوف يسيرون بجيوشهم إلى روما ولن يهرب المسيحيون فيما عدا أولئك الذين سوف يعودون إلى حقيقة النبى؛ أما الباقون فسوف يصيرون أسرى أو يقتلون»[٤٠]. وبدا الموريسكيون فى عيون معظم الإسبان خطرًا مستمرًا على العقيدة وخطرًا على الدولة[٤١].

وعلى أية حال. لوحظ أن النقطة التى تم طرد الموريسكيين عندها تصادفت مع أدنى مستوى من التهديد من جانب العثمانيين فى البحر المتوسط على مدى سنوات عديدة. ومع هذا. فإن الطرد كان مخططًا باعتباره العلاج ليس لداء عضال وإنما لمرض مزمن. وقد عبر سيرفانتس عن الموقف الشعبى تجاه الموريسكيين عندما كتب من خلال إحدى شخصياته الكلبية فى روايته «حوار الكلاب». «إنهم الحمى البطيئة التى تقتل بصورة أكيدة مثل الحمى الشديدة» [٤٢]. ومضت المجادلة لتقول إنه مادام بقى الموريسكيون فى إسبانيا فلن تستطيع الأمة أن تزدهر أبدًا. وكانت هناك حالات أفضل وأكثر عقلانية ضد الطرد على أسس اقتصادية. ولكن فى جدل استمر على مدى عدة عقود. لم يستطع أولئك الذين عارضوا طرد الموريسكيين أن يردوا على حجة لم يكن لها أساس فى الحقائق والأرقام. فقد كان الموريسكيون بالنسبة لأعدائهم مرضًا فى الجسد السياسى، وكان لابد من إخراجه منه بأية وسيلة ممكنة، مثل بعض حالات المزاج الشرير. وعلى الرغم من أن طرد اليهود سنة ١٤٩٢م، كان ما يزال ماثلاً فى أذهان كل من يهمهم الأمر. فإن الموقف لم يكن متماثلاً بالضبط. ففى سنة ١٤٩٢م،

كان قد تم رسم خط تقريبى يفرق بين اليهود والمسيحيين الجدد الذين كانوا من أصل يهودى. والواقع أن اليهود والمسيحيين الجدد قد بقوا. وفي السنوات الحديثة كان هناك جدل عنيف عما إذا كان طرد اليهود سنة ١٤٩٢م على أساس العرق أو العقيدة. فإن المسألة ما تزال مفتوحة؛ على أية حال، فإنه من الواضح أن طرد الموريسكيين سنة ١٦٠٩-١٦١٤م كان متوقعًا على أساس العرق[٤٣].

والمذمة التى حولها العالم بدرو أزنار كاردونا **Pedro Aznar Cardona** ضد الموريسكيين فى سنة ١٦١٢م كانت مختلفة عن أية مذمة ماضية ضد المسلمين. فقد قال إن الموريسكيين:

«وباء. أراذل. مهملين. وأعداء للآداب والعلوم. وهم يربون أطفالهم دونما تعليم؛ وهم أغبياء وكلامهم فيه وقاحة. ولغتهم بربرية. وملابسهم سخيفة. وهم يأكلون على الأرض ويعيشون على الخضراوات، والحبوب. والفاكهة. والعسل واللبن؛ وهم لا يشربون الخمر ولا يأكلون اللحوم إلا إذا ذبحوها بأنفسهم؛ وهم يحبون الاحتيال والقصص، والرقص، والتريض، والنزهة وغيرها من الانحرافات الهمجية؛ وهم يعملون بالأعمال التى تتطلب القليل من العمل مثل النسيج. والحياكة، وصناعة الأحذية، والتجارة وما أشبه ذلك. وهم باعة جائلون يبيعون الزيت، والسمك، والحلوى، والسكر، والبيض، وغيرها من المنتجات. وهم حمقى فى حمل الأسلحة وهكذا، فإنهم جبناء ومخنثون. وهم لا يسافرون سوى فى جماعات؛ وهم حسيون غير مخلصين. وهم يتزوجون شبابا ويتكاثرون مثل الأعشاب الضارة **malas hierbas** بحيث يزحمون الأماكن ويلوثونها»[٤٤].

ولم يكن الجميع يتفقون معه. ذلك أن المجادلات المعقدة والمكروبة فى غالب الأحيان كانت تعترف بالظلم والخطيئة فى طرد الموريسكيين البالغين ممن كانوا مسيحيين مخلصين وإبعاد الأطفال الأبرياء. وكانت هناك اقتراحات بأن أطفال الموريسكيين الصغار جدا يجب الحفاظ عليهم فى إسبانيا وينشأون مسيحيين طيبين، بعيدا عن التأثيرات المفسدة لوالديهم. وهو ما تم الاتفاق عليه فى نهاية المطاف. وبتعبير المؤرخ

باسكوال بورانات إي براشينا، المتخصص في عملية الطرد وصاحب التأثير الواسع، الذي قال لاحقا: «كان قانون الرعاية شديد الوطأة. ليس فقط على الأفراد المذنبين، ولكن على الناس أجمعين. على الأب والأبناء، على الكبير والصغير سواء بسواء: وخطيئة النسل (Pescado de raza). خطيئة الأمة بأسرها لأنها غرست المراوغة العنيدة في وجدان الموريسكيين الذين تم تعميدهم، ولم يكن ممكنا تخليصهم من هذا بعقاب أحد الأفراد، وإنما فقط من خلال إنزال العقوبة بكل أولئك المذنبين بجريمة التواطؤ والتضامن مع الارتداد العام عن الدين المسيحي... لقد كان الأطفال يدفعون ثمن خطايا آبائهم»[٤٥].

لقد كان يعبِّر بعد قرون مرَّت على الحدث، عن المشاعر العنيفة تجاه الموريسكيين التي كانت ما تزال تعتمل في وجدان إسبانيا الكاثوليكية في منتصف القرن التاسع عشر. وقد كتب عن مرسوم الطرد الصادر في ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩م «ونأتي الآن، أخيرا، إلى الساعة التي كفَّر فيها الموريسكيون جذورا وفروعًا (la raza Morisco) عن سلسلة طويلة مملة من الدنس، والتجديف، وتدنيس المقدسات، والتخلي عن المسيحية، والمؤامرات السياسية داخل صدر بلادنا العزيزة. لقد قضى الأمر Alea Jactaest[٤٦].

كان القرار النهائي يحبِّذ الطرد إلى شمال أفريقيا بدلاً من القتل الجماعي، وعند هذه الدرجة كانت الإنسانية قد انتصرت على السياسة الواقعية. ففي المنفى، استمر استياء الموريسكيين من طردهم باقيا في نفوس ذريتهم. وفي القرن العشرين، كانت بعض العائلات ما تزال قادرة على أن تظهر مفاتيح قديمة وقالوا إنهم سوف يفتحون بها أبواب بيوتهم القديمة في إسبانيا. وفي المرسوم، كانت هناك بعض التنازلات، فلم يكن مطلوبًا من كل أولئك الذين ينحدرون من أصول مغربية أن يرحلوا. وكان يمكن للموريسكيين أن يتركوا خلفهم أطفالاً حتى سن الرابعة لكي تتم تنشئتهم مسيحيين، والأطفال حتى سن السادسة ممن ولدوا لأب من المسيحيين القدامى وأم موريسكية كان يمكن أن يبقوا ومعهم أمهم؛ ولكن إذا كان أبوهم موريسكيا وأمهم من قدامى النصارى، فلابد من طرده وإبقائهم. وكان من الممكن أن تكون هناك حالات إعفاء

لأولئك الموريسكيين الذين كانوا يعيشون بين ظهراني المسيحيين فقط، وأولئك الذين كان يمكنهم الحصول من أحد الأساقفة ومن قسيس محلى على شهادة بمسيحيتهم الحقة. كان لهذه العبارات أن تريح ضمائر أولئك الذين لم يستطيعوا أن يتحملوا ذنب عقاب الأبرياء (٤٧). ولم يكن هناك وقت أمام الموريسكيين لاتخاذ من يمثلهم. وكان المتوقع أن يكون الطرد كليًا.

وهكذا، لم يتم طرد جميع الموريسكيين، على الرغم من أن الخروج كان شاملاً بقدر ما كانت حكومة فى القرن السابع عشر تأمل فى تحقيقه. واستمر رجال العصابات وقطاع الطرق من الموريسكيين فى اجتياح إسبانيا. وكانوا يعاودون الظهور بين الحين والحين فى سجلات محاكم التفتيش. وقد حدثت آخر محاكمة للموريسكيين فى قرطاجنة سنة ١٧٦٩م. حيث تم اكتشاف مجموعة داخل مسجد سرى (٤٨). وبالنسبة لكثير من الإسبان، فى القرن التاسع عشر كما فى القرن السابع عشر. بدا أن طرد الموريسكيين كان ضروريا أو حتميًا، وهى وجهة نظر استمرت أيضا حتى النصف الثانى من القرن العشرين. فقد ألقى كلاوديو سانشيز- ألبورنوز Claudio Sanchez. Albornoz. فى نهاية كتابه الذى يحمل عنوان :

Spain: Historical Enigma الضوء على المستقبل إذا لم يكن قد تم طرد الموريسكيين:

« لا يحتاج المرء إلى خيال واسع لكى يحسب المشكلات التى كان يمكن أن يتسبب فيها الموريسيكيون لإسبانيا. فى حال وجود ڤالنسيا «إسلامية» بعد ثلاثمائة سنة من الانتصار على المسيحيين بالبلاد. ووجود عدد من الموريسكيين يقارب عدد المسيحيين فى أراجون. فى خضم الاضطراب الذى ساد القرنين التاسع عشر والعشرين ... لقد تجنبت الأمة أخطارا فادحة ... كانت الأغلبية الموريسكية ستفرضها على حياتنا تاريخيا، وفى الوقت الحالى ١٩٦٢م وعلى مستقبلنا» (٤٩).

هنا توجد اللغة القديمة عن التحدى السكانى، حسبما جاءت فى صوت كلب سرفانتس، وكبير الأساقفة ريبيرا وغيرهما كثر فى زمن طرد الموريسكيين. بيد أن

سانشيز- ألبورنزو كتب من منظور لا يتعلق بتهديد بعيد مضى عليه ثلاثمائة سنة، وإنما عن خطر أحدث زمانًا. فقد أبقى الخوف من التهديد الإسلامى على ارتباط قوى بين الماضى والحاضر. فكل الرعب القديم يمكن أن يسترد عافيته. وهكذا فإن الكارثة العسكرية التى وقعت فى المغرب سنة ١٩٢٢م، عندما خسر قائد إسبانى اثنى عشر ألفًا من جنوده- قتلهم رجال قبائل البربر ومثلوا بهم فى معركة أنوال Anual -فتحت الطريق أمام سيل الخوف والكراهية. كذلك فعل المتمرد الجنرال فرانسيسكو فرانكو عندما أحضر جيش أفريقيا بكتائبه المغربية «Moorish» إلى إسبانيا سنة ١٩٣٦م. لقد زود الحكومة الجمهورية الشرعية بنقطة حشد قوية. لقد جلب فرانكو المسلمين (المور Moor) إلى إسبانيا مرة أخرى. وجلب معهم البربرية. وهكذا. وعلى الرغم من أن تسعمائة سنة من الإسلام انتهت بطرد الموريسكيين. فإن شبح وجودهم بقى منذ ذلك الحين فصاعدًا حتى القرن العشرين.

* * *

كانت الكراهية والخوف موجودين دائمًا فى المجتمع الإيبيرى وفى كل المجتمعات. ولكنهم فى إسبانيا ركزوا على مدى عدة قرون على القسمة بين العالم المسلم والعالم المسيحى كما لم يكن هذا تجريدًا نظريًا مثلما كان فى بقية أوربا المسيحية. فقد كان الإسلام والمسيحية متداخلين فى نسيجهما فى المشهد. فقد عاشت الديانتان جنبا إلى جنب، ليس فى وئام ولكن فى نوع من التوازن. وقد تغير هذا فى غضون فترة تقل عن قرن من الزمان، عندما تغيرت الموازين. حيث تم رسميا إلغاء اليهودية والإسلام. وتم خلق ثقافة مسيحية جديدة تدعو للوحدة. وفى القرون اللاحقة سوف يوصف هذا بأنه هندسة اجتماعية. ولكن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت يتم التلاعب بها فى نطاق مجادلة دينية. فاليهود. المتنصرون. والمسلمون والموريسكيون اعتبروا أعداء المسيح، وبالتدريج بات النظر إلى الموريسكيين باعتبارهم التهديد المباشر أكثر من غيره. وسرعان ما بدأوا يجتذبون ذلك النوع من الإهانة الغريزية التى كانت توجه

إلى اليهود طوال عدة قرون. هذه الإساءة، التي تطورت منذ سبعينيات القرن السادس عشر، كانت لها نهاية واحدة في المنظور المرئي، تصنيفهم جميعا باعتبارهم مسلمين متخفين. لقد كانوا هم العدو الدائم في الداخل. لقد كانوا هم «الأعشاب الضارة» التي كانت تخنق الدولة. وهكذا، فإن لغة الشارع الدالة على النفور والاحتقار تسربت صاعدة في المقالات العلمية التي كتبها علماء وقساوسة.

غالبا ما كتب الرجال المتعلمون باللهجة المحلية، القشتالية، والتي جعلت ما نشره ميسورا بصورة مباشرة أمام جمهور عريض داخل الأراضي الإسبانية. ولكنها أتاحت أيضا لهم جمهورا أوسع. ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت اللغة القشتالية لغة القوة العظمى في أوربا. وكان يمكن قراءة الكتب المنشورة بالإسبانية في معظم أنحاء أوربا. وهكذا فإن الهجاء المكتوب في إسبانيا، سواء كان بالقشتالية أو اللاتينية، كانت أصداؤه تتردد وتأثيره يمتد بعيدا فيما وراء جبال البرينيس. وفي ذلك الوقت يجب أن نتوقف عن رؤية إسبانيا بوصفها ركنا جنوبيا معزولاً من أوربا، وإنما نراها في ضوء الأفكار والمواقف، باعتبارها نقطة العقدة. فقد نشرت إسبانيا الإيديولوچيات التي كانت ترمي إلى أن يكون لها تطبيق عالمي ولكنها كانت غالبًا ما تضرب بجذورها في المشاغل الخاصة بإيبيريا. وكان الرحالة الأجانب على حق عندما تعرفوا على شبه الجزيرة الإيبيرية بوصفها متمايزة بشكل ما، لأسباب غالبًا ما نسبوها إلى أسلافها من المسلمين. ومن المثير للسخرية أن الأنماط الأدبية التي طبقوها غالبا على الإسبان كانت هي تلك التي كان المسيحيون القدامى قد ثبتوها على الموريسكيين. فبعد أن كان آخر الموريسكيين واليهود قد رحلوا بزمن طويل، استمرت هذه الصور والتشبيهات موجودة. وقد ظهرت الدولة الإسبانية وكأنها معجزة في عيون البعض، دولة مسيحية نموذجية مرتبة نموذجا للدولة الفاضلة (يوتوبيا)، وبالنسبة للبعض الآخر كانت على العكس تمامًا، دولة آثمة. وسواء كان طرد اليهود والموريسكيين فاضلاً أو آثمًا فإن ذلك يعتمد على ميولك أو منظورك .

وعلى أية حال، فإن الصور واللغة لا تبقى ساكنة على حالها قط. فعند نقطة ما بعد طرد الموريسكيين من غرناطة في سبعينيات القرن السادس عشر وإعادة

إسكان المدن والقرى الخالية بالمسيحيين القدامى من أهل الشمال، بدأت تظهر فى هذه المجتمعات مواسم وموالد للمسلمين والنصارى Fiestas of Moros. Cristiano وبالتدريج أيضا، عندما صار المسلم شخصًا بعيدا شبه أسطورى. صار الأتراك الخطرون الصورة الحاكمة المهددة للكافر[٤٠] وفى بعض الأحيان كانوا يصورون معا فى الموالد والاحتفالات. ففى سنة ١٥٢٢م تركزت احتفالات طليطلة بنزول شارل الخامس فى برشلونة على موكب تاريخى حول «برج شاهق الارتفاع [مصنوع من الخشب والجص] مملوء «بالمسلمين» الذين ارتدوا الملابس ذات الطراز الإسلامى وفى الداخل كان كبير الأتراك يدافع عن القلعة». وقد لقى المسلمون وكبير الأتراك الهزيمة فى دورات وتم استعراضهم بالسلاسل فى أرجاء المدينة، وهم يحملون أعلامهم. هذا الموكب التاريخى كان له رسالة واضحة ومباشرة ذات أهمية ملحة وعاجلة. ولكن الاحتفال بالانتصار المسيحى على الإسلام استمر باقيا بعد أن كان غرضه المركزى قد طواه النسيان. وحتى اليوم، تحتفل مدينة بازا Baza بمناسبة Cascamorras سحق المسلمين يوم. سبتمبر من كل سنة. ويجوب رجال مصبوغون باللون البنى من قمة الرأس إلى أخمص القدم يجوبون أنحاء المدينة، على حين يضربهم الناس، صائحين بأنهم جاءوا ليسرقوا صورة العذراء. وأصل هذا الاحتفال يتوه فى ضبابية الأسرار؛ ويفترض البعض (وهو ما لا يرجح) أنه يستدعى ذكرى تزمت الموحدين الشديد فى القرن الثالث عشر. وحتى الاسم- Cascamorras- رسم غامض. وعلى أية حال. كانت بازا نصرًا عظيمًا للملكين الكاثوليكيين فى الحرب من أجل غرناطة، ويمكن بسهولة قراءة Cascamorras لأنها «سحق المسلمين» (Cascar los moros) .

وهناك احتفالات مشابهة فى جميع أنحاء ما كان ذات مرة يسمى الأندلس. وعلى الرغم من أن المخطوطات التى تؤرخ لهذه الأحداث التى تتزايد باستمرار يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر. فإن كلمتى Moros (مسلمون)، Cristianos (مسيحيون) ظهرتا فى مهرجانات قبلها بزمن طويل. ففى ألكوى Alcoy فى ڤالنسيا، كان عيد سان جورج فى سنة ١٦٦٨م مميزا بالمواكب التى سارت خلال الشوارع وفيها بعض الرجال يرتدون مثل «المسلمين النصارى» وغيرهم بملابس «النصارى النصارى» فى

ملابس ترجع إلى القرن السابق. وفى المعركة التمثيلية التى اختتم بها الاحتفال، لم تكن مفاجأة أن المسيحيين أثبتوا مرة أخرى أنهم لا يغلبون. لقد كان الهدف من هذه الاحتفالات ألا يظهروا تفوق المسيحية على الإسلام بقدر ما كان الغرض إظهار أن :

« نقدم مشهدا عن الاتحاد المثالي وصورة عن عظمة المدينة: فلم يعد «المسلمون» موجودين باعتبارهم شخوصا مخيفة وسخيفة ... فالمسلمون في الاحتفالات ليسوا محاربين متوحشين ولكنهم رجال متحضرون نبلاء، وأزياؤهم تكاد تكون دائما أكثر أناقة من ملابس النصارى، ويبدون مهيبى الطلعة»[٥١].

وبمرور الزمن، صارت هذه الاحتفالات معقدة بصورة مطردة ومدهشة. بأدوار محددة خصصت لنواحٍ، وكنائس وإخوانيات محددة. ولكن فى القرى والبلدات الصغيرة بألبوخاراس كانت الاحتفالات تحتفظ بأشكالها الأصلية وغرضها الأصلى على مدى زمنى أطول. ففى ڤالور Valor . حيث ولد أحد قادة حرب ألبوخاراس الثانية، كان التركيز على الإحسان المسيحى. فقد قدم الملك «المسلم» سيفه إلى الملك المسيحى وركع عند قدميه. وأجاب المسيحى:

«أيها المسلمون إن الرحمة بين المسيحيين

تحيا فى قلوبنا. إنها تملأ روحنا

على الرغم من أنك مهزوم. فإننى أمنحك حريتك

خذ سيفا وانهض»[٥٢]

ولم يكن هناك مشهد يشى بالشرف والرأفة حقًا فى ڤالور فى سنة ١٥٦٨م. فقد كانت معركة دموية من أجل السيطرة على بلدة تتضور جوعًا. حيث مات مائتان من الموريسكيين فى قتال ضد المشاة المدربين الأشداء. وعندما تخلوا عن البلدة للإسبان، شنقوا رهائنهم المسيحيين فى برج الكنيسة. ولكن حتى فى ڤالور. نجحت الأسطورة التى صنعت «المسلمين والمسيحيين» فى حجب الحقيقة التاريخية، كما حدث فى جميع

أنحاء إسبانيا. هذا الاحتفال بالاتحاد فقد غرضه الأصلي في النهاية وصار ذكرى فولكلورية في أثناء القرن الثامن عشر. أي ما يزيد قليلا على قرن من الزمان بعد رحيل آخر «المسلمين». وفي أثناء القرن التاسع عشر تم تشكيل الأحداث بشكل آخر. ومع بداية هذا القرن كانت هذه الأحداث المحلية قد تحولت إلى عامل جذب وعرض سياحي عالمي .

وعلى أية حال. فإن فكرة «المسلمين مع المسيحيين» ولغة الاسترداد ظهرت أيضا في أملاك إسبانيا الاستعمارية في الأمريكتين وفي الشرق الأقصى[٥٣] وهناك لم تفقد جذورها الأصلية المتعلقة بالصراع. وقد انتشرت الاحتفالات **fiestas** بسرعة في أنحاء المكسيك وجواتيما لا حيث لم يشاهد أي «مسلمين» على الإطلاق. ولكن السكان المحليين حلوا محلهم. فقد ربطوا بينهم وبين المسلمين **Moros**. وحملوا المهرجانات التقليدية للأزدك والمعارك التمثيلية إلى احتفالاتهم. وحولوها إلى فييستا مهرجانات. وبينما رأى المستعمرون الإسبان في الاحتفال رسالة بالسلام والتسامح المسيحي، رأى السكان المحليون في احتفالات **Moros. Cristainos** وسيلة للحفاظ على ذكريات القوة الأزدكية بل والآمال في أن يطردوا الإسبان في النهاية[٥٤]. ولم تكن اللغة والمواقف في الاسترداد مقيدة في حدود الأطلنطي. وفيما بعد في القرن السادس عشر. وهناك بعيدا في الشرق في الفلبين. وجد الإسبان مجتمعات مسلمة قوية ومقاتلة في ميندناو وخليج سولو. وبالغريزة أطلقوا عيهم اسم المور (المسلمين). وقد وضعوا مصطلحا ليدل على الجماعات الكثيرة التي عملوا على تنصيرها بصورة جماعية كلية هو مصطلح **Indios**. على اسم الشعوب المسالمة في الأمريكتين. ولكن هؤلاء كانوا أصحاب البأس الشديد الذين كانوا يسمون المور (المسلمين) وهي تسمية عرقية. ولم يحدث أبدا أن نجح الإسبان في السيطرة على المسلمين جنوب الفيليبين. ولم تفلح أية حكومة لاحقة في الواقع. وهكذا. استمر الربط بين الإسلام والوحشية عندما أخذ الإسبان ثقافتهم معهم إلى العالم الأوسع .

وبهذه الطريقة حملت إسبانيا صراعها الطويل مع «الإسلام» فيما وراء شبه الجزيرة. لقد أشرت إلى أن «كيف». «لماذا» في الكلمات والمفاهيم التي ثبتت عن أبناء

قبائل الأزتك والملايو كانت ظرفية. ولكن الإحاطة الداخلية بمعرفة الخطر والوحشية كانت تنتشر بواسطة الكلمات نفسها. فقد عرف كل الإسبان ما الذى يمكن للمسلم أن يفعله وما سوف يفعله. وقد استمر هذا الموقف حتى في أكثر السياقات هدوءًا. وفى بلاطات عصر النهضة فى أوربا، كانت هناك رقصة عنيفة ولا تخضع للسيطرة صار اسمها الموريسك **Moresque**، أو الرقصة الإسلامية. وثمة شاعر ألمانى كان يزور نورمبرج فى سنة ١٤٩١م شاهد عرضا كان المشاركون فيه يتحركون فى دائرة، وهم يطوحون أذرعتهم وسيقانهم فى تقلصات هزلية، وأعناقهم ممدودة للخلف وعلى وجوههم تكشيرة وحشية. وفى بعض الأحيان كانوا يسمون «المجانين» أو «المتوحشين»، ولكنهم غالبا كانوا يعرفون باسم المسلمين **Moors**. وبوسعك أن تراهم حتى الآن، لأن هناك طاقما من الشخوص الخشبية المطلية **Moriskentanzer** صنعه **Erasnus Grasser** فى متحف ميونيخ. وهؤلاء المسلمون الصغار لهم وجوه داكنة، وسيقان وأذرع قوية، وأيد قوية، ووجوه عابسة. فهم يعطون إحساسًا بالقوة والغموض والتهديد[٤٤].

هوامش الفصل السادس

1. See Geoffrey Parker, *The Grand Strategy of Philip II*, New Haven, CT: Yale University Press, 1998, pp. 80–81.
2. See L. P. Harvey, 'Los Moriscos y los cinco pilares de Islam' in Temimi, *Prácticas*, pp. 93–7.
3. See John Lynch, *Spain 1560–1598: From Nation State to World Empire*, Oxford: Blackwell, 1994, p. 313.
4. See Braudel, *Mediterranean*, vol. 2, pp. 376–82.
5. Nigel Griffin makes the point that there was a constant shortage of competent missionaries, and many were being absorbed by the missions in America. See Nigel Griffin, '"Un muro invisible": Moriscos and Cristianos Viejos in Granada' in Hodcraft, *Mediaeval*, pp. 133–66. He also observed that the records of the Granada Chancellery and the archives of the Alhambra are 'still incompletely utilized by historians'. This was certainly true when I was working there almost twenty years earlier. Before my time in Granada only K. Garrad (among Western scholars) had used the material in a systematic way. And Garrad's splendid thesis has never been published.
6. Cited Kritzeck, *Peter*, p. 161.
7. Ordered on 12 October 1501. The limited effect of his ordinance may be gauged from a decree of Ferdinand on 20 June 1511 issuing a pardon to *Moriscos* who had books in Arabic and ordering them to hand them over to the authorities. They were to examine them, to pass on the books of philosophy, medicine and history, and to burn the rest; *Colección de documentos inéditos para la Historia de España*, 113 vols, Madrid, 1842–95, vol. XXXIX, p. 447.
8. See Documents, no. 21. There was a further decree in 1523 against attempts by *Moriscos* to bypass this provision Then there was a further letter issued in 1530 on the enforcement of the regulations.
9. See Documents, no. 22.
10. See Documents, no. 21.
11. See for example a copy of a 1530 letter from the empress in the archive of the Cathedral of Granada that the *Moriscos* should alter their form of dress.
12. See Domínguez Ortiz and Vincent, *Historia*, pp. 25–33.

13. Decree of 7 December 1526, cited in Gallego y Burin and Gámir Sandoval, *Moriscos*, pp. 206–13.
14. See Documents, no. 23. See also Antonio Garrido Aranda, 'Papel de la Iglesia de Granada en la asimilación de la sociedad morisca', *Anuario de historia moderna y contemporanea* 2–3 (1975–6), pp. 69–103.
15. Ribera's second 'Memorial', translated and cited in Hillgarth, *Mirror*, pp. 206–7.
16. See Cabenalas Rodriguez, *El Morisco granadino*.
17. Cardaillac, *Moriscos*, pp. 36–43.
18. On this process, called *taqiyah* or dissimulation, and the Mufti of Oran's advice, see Chejne, *Islam*, pp. 24–5.
19. See Fabre-Vassas, *Singular Beast*, pp. 112–19.

٢٠ – اختلف السن الذى كان الأطفال يختتون فيه " فالفقهاء ليسوا مجمعين على السن التى يجب أن يتم فيها الختان ... الماوردى يقترح أن الختان يجب أن يتم فى سن السابعة على الأكثر ولكن يفضل أن يكون بعد سبعة أيام أو أربعين يومًا فيما عدا الحالات التى لا يكون مناسبًا فيها " . انظر :

Sami Aleech " To Mutilate the Name of Jehovah or Allah : Ligimitization of Male and Female Cirumcision.

(p. ٣٨٤)

21. See Bernard Vincent, 'The Moriscos and Circumcision' in Cruz and Perry, *Culture*, pp. 78–92.
22. Juan Aranda Doncel, 'Las Prácticas musulmanas de los moriscos andaluces a traves de las relaciones de causas del Tribunal de la Inquisición de Córdoba' in Temimi, *Prácticas*, pp. 11–31.
23. See B. Vincent, 'Les Bandits morisques en Andalousie au XVIe siècle', *Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine*, 1974, pp. 389–400, and Reglá, *Estudios*, p. 44. The military headquarters in the Alhambra at Granada received reports of *monfies* and *Moriscos* attacking fishermen on the beach at Velez Malaga in 1564 (see Documents, no. 10); of Christians being taken prisoner by *monfies* in 1566 (see Documents, no. 12); and of murders *Moriscos* are supposed to have committed in La Cuesta de Cebeda (see Documents, no. 7).
24. Cited Chejne, *Islam*.
25. The full text is in Lea, *Moriscos*, pp. 434–7.
26. For these symbolic meanings see Malek Chebel, *Dictionnaire des symboles musulmans: Rites, mystique et civilisation*, Paris: Albin Michel, 1995.
27. All these appear in E. Saavedra, 'Discurso', *Memorial de la Real Academia de la Historia*, 6 (1889), p. 159.

28. See Documents, no. 14.
29. See Lea, *Moriscos*, p. 263.
30. Ibid., citing *Relazioni Venete*, Serie 1, Tom VI, p. 408.
31. The *Moriscos* in the capital itself had already been expelled in June 1569.
32. Lapeyre, *Géographie*, p. 125.
33. Dominguez Ortiz and Vincent, *Historia*, p. 58.
34. Ibid., p. 62.
35. He gave some thought to the problem of *limpieza* and concluded it was not an obstacle.
36. See Boronat y Barrachina, *Moriscos*, vol. 1, p. 634. The bishop proposed that these people without a land should be taken to a land without people: '*Este gente se puede llevar a las costas . . . de Terranova, que son amplissimas y sin ninguna población*.' That would finish them off and, to make sure (*specialmente*), there would be '*capando* [gelding] *los masculos grandes y pequeños y las mugeres* [the adult males and boys and the women].' This could be done in sequence, taking those from Valencia to one place, those from Aragon to another, those from Castile to another. These solutions have remarkably close echoes to Book IV of Swift's *Gulliver's Travels* (1726), where the Houyhnhnms debate the respective merits of exterminating or castrating the Yahoos. See Jonathan Swift, *Gulliver's Travels*, London: The Folio Society, 1965, pp. 215 and 240.
37. 'Informe de Don Alonso Gutiérrez acerca la cuestión morisca, Sevilla 5 Sept. 1588', cited in Boronat y Barrachina, *Moriscos*, vol. 1, p. 346.
38. Ibid., p. 627.
39. AHN Inq. Leg. 2603 I. Cited Cardaillac, *Moriscos*, p. 62.
40. See ibid., p. 60.
41. See Maria Soledad Carrasco, *El Moro de Granada en la literatura del siglo XV al XX*, Madrid: Revista de Occidente, 1956. The bulk of this was first published in English as 'The Moor of Granada in Spanish Literature of the Eighteenth and Nineteenth Centuries', PhD thesis, Columbia University, NY, 1954.
42. See Miguel de Cervantes Saavedra, 'The Dialogue of the Dogs' in *Exemplary Novels*, Warminster: Aris & Phillips, 1992.
43. For a clear parallel see Caro Baroja, *Formas*, p. 459.
44. Pedro Aznar Cardona, *Expulsión justificada de los moriscos españoles y suma de las excelencias cristianas de nuestro Rey D. Felipe el Católico tercero deste nombre*, Huesca, 1612, translated in Chejne, *Islam and the West*, pp. 177–8.
45. Boranat y Barrachina, *Moriscos*, vol. 2, p. 172.
46. Ibid., p. 189.
47. Ibid., pp. 192–3; expulsion decree, clauses 9–12.
48. See Lea, *Moriscos*, p. 391. Others suggest that these were not *Moriscos* but Muslim slaves or servants.
49. Sanchez-Albornóz, *Spain*, vol. 2, p. 1245.

٥٠ - «صدم الخيال الشعبى بالرعب من جراء هذه الحوادث الرهيبة (الانتصارات العثمانية فى البحر المتوسط) لدرجة أنه فيما بعد كانت كلمة «ترك» قد حلت محل كلمة السراسنة أو المور. انظر:

George Herelle , Les Pastorales á sujets tragiques considereees literairement , Paris : Libaraire Champion , 1926, p. 341 .

51. Marlène Albert-Llorca, 'Le Maure dans les fêtes valenciennes de *moros y christianos*', in Musée de la Corse, *Moresca*, p. 341.
52. Harold Lopez Mendez, *España desconocida: la Alpujarra, rincón misterioso*, Madrid: n.p., 1967, p. 90.

٥٣ - إننى ممتن كثيرا لداڤيد نيرنبيرج لتقديم هذه المنطقة كلها إلى. ففى اتصال خاص ناقض العروض فى أسبوع الآلام الإسبانى بالاحتفالات بالمسلمين والمسيحيين **Moros Y Cristianus** . وفى إسبانيا ، من المؤكد أن عرض المسلمين والمسيحيين كان عرضا للنظام الراسخ والعام ، يعيد تمثيل انتصارات قديمة ، ويضفى الشرعية على طبيعة النصر . وعلى أية حال فإنها ما إن تخرج عن الحوار المسيطر فى إسبانيا ، وعندما يكون الموضوع التراثي- أو موضوعًا غريبًا آخر- قد انتهى ، فإنهم كانوا يمكن أن يتحولوا إلى قوة مختلفة هدامة.

(٢٨٤.p)

54. See Harris, *Aztecs, passim.*
55. Calling for 'thick description'? See Geertz, *Interpretation*, pp. 6–30.

الجـزء الثالث

(٧)

إلى الأرض المقدسة

بدت شبه الجزيرة الإيبيرية كبيرة فى هذا الكتاب، بيد أنه لا توجد طريقة بسيطة ومحايدة يمكن بها الإشارة إليها. فكل اسم من أسمائها- إيبيريا، هسبانيا، الأندلس وإسبانيا- يعلن عن موروث مختلف، ونظرة خاصة إلى تاريخها وأصولها. على الرغم من أنه يصف الأرض نفسها بطريقة مختلفة. وعلى مدى زمن طويل كان أولئك الذين كتبوا عن «إسبانيا Spain» قد فعلوا ذلك اعتمادًا على مصادر مسيحية أساسًا. وأولئك الذين كتبوا عن «الأندلس» وأرخوا لها اعتمدوا بصفة رئيسية على المواد الواردة فى المصادر الإسلامية. وهكذا فإن تاريخ الماضى نفسه، فى الفضاء نفسه، كان له وجه مزدوج. فقد تضمن كل ما كان مكتوبًا عنها وما تم تجاهله، وما كان مرئيًا على السطح، وما أسماه ميرون بنفنستى Meron Benvenisti «التاريخ المدفون»[١]. والتاريخ المدفون ليس مادة أثرية يمكن الكشف عنها بالحفائر. وإنما هو أرض تملؤها الأشباح والذكريات. وجميع المناطق الثلاث التى أضعها فى اعتبارى فى هذا الكتاب لها تواريخ مدفونة.

كانت إسبانيا المنطقة الأولى. والمنطقة الثانية كانت شبه الجزيرة ذات الشكل الإسفينى التى يحدها البحر الإدرياتى من الغرب والبحر الأسود من الشرق. والتى تمتد حتى السهل المجرى الكبير. وقد أطلق عليها الأتراك اسم البلقان «أى الجبل». وذلك الاسم- البلقان- التصق بها. وهنا، مثل المواقع المقدسة فى إسبانيا. غمر القديسون المدفونون الأرض بنوع من القداسة[٢]. وهناك منطقة ثالثة تقع إلى الشرق،

على الطرف المقابل من البحر المتوسط. وهى ممتدة من حافة صحراء سيناء حتى سفوح التلال فى هضبة الأناضول. وكان لها عدة أسماء مختلفة، ولكن فى كثير من اللغات الأوربية كان لها وما يزال اسم شرق المتوسط **Levant**. من المصطلح الإيطالى والإسبانى الذى يشير إلى المنطقة التى تشرق الشمس عندها **Levante** فى الشرق. وفى اللغة العربية كانت تسمى المشرق، التى تعنى أيضا الأرض التى تشرق منها الشمس. ولكن النمط الأصلى لهذه الفكرة عن الأرض المقدسة كان ذلك الجزء من شرق المتوسط حيث ولد يسوع المسيح ومات[٣].

وقد فرض على المسلمين القيام برحلة الحج إلى مكة مرة واحدة على الأقل فى العمر. ولكن الحج إلى فلسطين، الأرض المقدسة. لم يكن فرضًا على المسيحيين. ومع هذا فإن الحاج سوف يجنى مكسبًا روحيًا عظيما. وقد تضمنت رحلة الحج المسيحى تضحية ومصاعب جسدية، كانت تستحق الثناء بحد ذاتها. وفضلاً عن ذلك، فإن الصلاة بقلب طاهر حيث وقف المسيح نفسه ذات مرة كانت عملاً ذا أهمية رمزية كبرى. وهناك فارس ترك ممتلكاته لدير كلونى ورحل قاصدًا الأرض المقدسة، كتب. «لقد قررت الذهاب إلى القدس. حيث صار الرب إنسانًا. وحيث تكلم مع البشر، ولكى أعبده حيثما مشى»[٤]. وكان من الممكن أيضا فرض الحج باعتباره تكفيرا عن جريمة خطيرة مثل القتل. وفى بعض الأحيان كان هؤلاء الحجاج يحملون سلاسل حديدية ثقيلة حول أوساطهم لكى تشير إلى سبب رحلتهم. وكان الاعتقاد شائعًا على نطاق واسع أنه عندما يصلى الخاطئ فى القدس، فإن الرب نفسه سوف يفك الحلقات الحديدية لكى يجعل غفرانه واضحًا.

كانت القدس مغناطيسًا يجتذب المسلمين والنصارى، واليهود على السواء. وكانت ثالث الحرمين بالنسبة للمسلمين (وما تزال). بعد مكة والمدينة[٥] وغالبًا ما كان اليهود الأتقياء يأتون المدينة فى شهر تشرى ويمكثون للاحتفال بعيد خيمة الهيكل[٦] وكان الحج المسيحى قد بدأ تحت حكم الإمبراطور قسطنطين واستمر تحت حكم خلفائه. وقد بذلت جهود كبيرة لاستعادة ماضى الأرض المقدسة. وإذا كانت

المواضع المقدسة قد ضاعت أو طواها النسيان فقد تم تحديد هذه المواضع التى ذكرها الكتاب المقدس وأعيدت إلى سيرتها الأولى، وشيدت كنائس فاخرة تكريسا للأماكن الأساسية فى حياة المسيح. وفى البداية بنى مجمع الضريح المقدس الشاسع فيما بين سنة ٣٢٦ وسنة ٣٣٦م. فوق المقبرة التى رقد فيها المسيح فترة قصيرة. وقد بدأت هيلين. أم قسطنطين المهيبة، بناء الكنائس فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون. وكانت هى مسئولة أيضا عن اكتشاف الصلبان الثلاثة التى فقدت فترة طويلة والتى صلب عليها يسوع الناصرى واللصان، وهى ذخائر مقدسة كانت قد اختفت عدة قرون قبل ذلك. وقد تم التعرف على الصليب الذى صلب عليه المسيح بحيلة بسيطة بإنزال امرأة مريضة تعانى سكرات الموت على كل من الصلبان الخشبية بالدور، ومشاهدتها على كل منهم وهى تشفى بمعجزة فى اللحظة التى وضعت فيها على الصليب الحقيقى.

ولم تكن القدس فقط. ولكن بيت لحم والناصرة وغيرها أماكن كثيرة ورد ذكرها فى العهد القديم والعهد الجديد، كانت تستقبل مددًا ثابتًا من الحجاج منذ القرن الرابع الميلادى فصاعدًا. وقد لاحظ سان چيروم (٣٤٢-٢٤٢٠م)، الذى كان يعيش فى الأرض المقدسة، أن الأماكن التى بها مسيحى مثابر يجب أن يصلى فى القدس قد صارت من الكثرة بحيث كان من المستحيل زيارتها جميعا فى يوم واحد [٧]. ولم يلبث الحجاج المتحمسون أن اكتشفوا كثيرًا من المواضع المقدسة الإضافية. وبعضها مشكوك فى حقيقته. وقد أخبرت جيروم. واحدة من جماعته كيف أنها زارت المنازل التى كان كورنيليوس وفيليب قد عاشا فيها من قبل فى مدينة قيصرية. وكذلك مقبرة العذراوات الأربع المجهولات. وفى بيت لحم لم تكتف فقط بزيارة كنيسة الميلاد، وإنما زارت أيضا ما جعله التراث مقبرة راشيل. وفى الخليل أخذوها لتشاهد بعض الذخائر المقدسة المهمة؛ فقد دخلت كوخ سارة الحقيقى، زوجة إبراهيم. حيث كانت ملابس إسحق وأقمطته قد حفظت، وخارج الكوخ شاهدت بقايا شجرة بلوط أبى الأنبياء التى طعنت فى السن ولكنها ما زالت تورق بنشاط [٨].

كان الغزو الفارسى لفلسطين ثم احتلالها فى بواكير القرن السابع، ثم الحروب بين الإمبراطور البيزنطى هرقل ضدهم وضد المسلمين ثم الفتح الإسلامى لفلسطين الذى أعقب هذا قد أعاق تدفق الحجاج بشدة. خاصة من الغرب. بيد أن تدفق الحجاج لم يتوقف بصورة كلية أبدا، وفيما بعد اشترى الإمبراطور شارلمان (الذى تقول الأسطورة إنه هو نفسه قام برحلة حج) نزلا فى القدس، لاستقبال أى مسيحيين غربيين. كما بنى كنيسة ومكتبة لكى يستخدموها. وفى سنة ٨١٠م أرسل أيضا الأموال لكى تستخدم فى إصلاح المواضع المقدسة الرئيسية بالمدينة[٩]. وعلى أية حال فإن جمهرة الحجاج لم يكونوا من المسيحيين الغربيين. ولكن من الرجال المتدينين والنساء الورعات من مصر وغيرها من المناطق التى كانت آنذاك تحت الحكم الإسلامى، وكذلك أولئك القادمون من أراضى الدولة البيزنطية. فقد قيدت الرحلة الطويلة من غرب أوربا رحلة الحج فى نطاق أولئك الذين كان بوسعهم تحمل الوقت والنفقات الكبيرة[١٠]. ومع هذا زادت أعداد الحجاج القادمين من الغرب بصورة ثابتة. وكانت هناك ست مجموعات كبيرة من الأراضى الناطقة بالألمانية فى القرن التاسع الميلادى، ثم إحدى عشرة مجموعة فى القرن العاشر، وبعدها تسع وثلاثون مجموعة فى القرن الحادى عشر[١١]. ولكن بمنتصف القرن التاسع كانت الرحلة قد صارت أشد خطورة.

* * *

لقد انتصر الإسلام فى القرن السابع ولكن السيطرة السياسية والعسكرية على الأراضى الإسلامية توزعت فى النهاية. وإن نظرة استراتيجية على أى خريطة للبحر المتوسط لسوف ترى شمال أفريقيا مرتبطًا بشرق المتوسط والأناضول عند شريط ضيق من الأرض يمثل جسرًا يمر فى الصحراء، عبر شبه جزيرة سيناء وشمالاً بحذاء الشريط الساحلى لفلسطين[١٢]. والنظرة السريعة الخاطفة سوف تسجل أن مختلف أراضى شمال أفريقيا. وبعضها شريط ساحلى وبعضها سلاسل جبال

مرتفعة. وبعضها صحراء. كانت متمايزة عن الأراضى الإسلامية إلى شمال الجسر البرى. وفوق هذا وذاك، فإن مصر. عند ملتقى أفريقيا وشرق المتوسط، كانت كيانًا تاريخيًا له خصوصيته. إذ إن أرض مصر، مثل القدس. قد ذكرت فى القرآن الكريم، وبذلك وجدت داخل نطاق الخصائص الإسلامية منذ البداية. ولم يكن هناك نظير للاقتصاد المصرى القائم على نهر النيل، وكان الإسلام فى مصر قد ورث تراثا طويلاً من الثقافة والحكم والسلطة. ومع بناء القاهرة فى الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى وافتتاح جامع الأزهر وجامعته سنة ٩٨٨م، صارت مصر أيضا مركزًا ثقافيًا للعالم المسلم[١٣].

ولكن لم تكن هناك عوامل أخرى كثيرة مشتركة بين أهل شمال أفريقيا وأولئك الناس فيما وراء الجسر البرى. فقد تشكل الإسلام فى شمال أفريقيا من كل من العرب والبربر. فإلى الغرب من مدينة القيروان. على خليج سرت الكبير المفتوح، كان هناك الناطقون باللغة البربرية، وليس العربية الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان. ومن حواف هذه الأراضى جاء الفاتحون الفاطميون إلى مصر فى منتصف القرن العاشر. هؤلاء المغامرون كانوا على المذهب الشيعى وأخذوا اسمهم عن فاطمة بنت النبى محمد، التى زعموا أنهم انحدروا من نسلها[١٤] وكانت الخلافة التى أسسوها فى القاهرة على أساس تقاليد الشيعة، حتى مع أن غالبية المسلمين الذين حكموهم فى دولتهم الجديدة كانوا على المذهب السنى. ومعظم التاريخ التالى للأراضى الإسلامية فى شرق المتوسط كان صراعًا بين أولئك الذين حكموا فى شمال الجسر البرى وأولئك الذين حكموا إلى جنوبه، بغض النظر عن المذهب الإسلامى الذى اعتنقوه[١٥]. ومنذ أواخر القرن العاشر، أغارت الجيوش بقدر أو آخر من الاستمرارية جيئة وذهابًا عبر الشريط الساحلى فى شرق المتوسط، حيث اشتبكوا على التوالى مع الجيوش البيزنطية والحكام العباسيين فى بغداد. ولكن القبائل البدوية، التى عاشت على الإغارة على التجار والمسافرين كانت الأخطر من وجهة نظر الحجاج. كانت فلسطين قد صارت منطقة حرب.

ونادرًا ما حاول الحكام المسلمون إعاقة الحج، الذى كان يوفر لهم مصدرًا مهمًا للدخل وكانت هناك حالات شغب بين الحين والآخر وغيرها من الاضطرابات الشعبية. كما حدث فى سنة ٩٦٦م عندما تم تدمير جزء من بناء الضريح المقدس، ولكن فى سنة ١٠٠٣م صارت هذه الهجمات سياسة رسمية. ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى غريب الأطوار فى القاهرة أمر فجأة بحملة ضد المسيحيين الشرقيين واليهود المحليين وأماكنهم المقدسة. وبناء على أوامره، تم تدمير عدد من الكنائس والمعابد. والأكثر درامية من هذا كله، أنه تم «تفكيك» الضريح الموجود بكنيسة القيامة، مع سحب المستويات الأعلى إلى أسفل حتى حالت الربوة المرتفعة من الكتل الحجرية والدبش التى كانت مرتفعة جدا دون المزيد من الإزالة. ثم سويت كنيسة مريم العذراء على جبل صهيون بالأرض، على حين أزيلت كنيسة القديسة آن تمامًا واستخدمت أحجارها فى أبنية جديدة بالموقع.

وقد وضع الحاكم وسائل جديدة ومبتكرة لممارسة الضغط على المسيحيين المحليين لكى يعتنقوا الإسلام. فقد أمر المسيحيين الأقباط والأرثوذكس بأن يلبسوا السواد «وأن يعلقوا صلبانًا خشبية ثقيلة فى أعناقهم، طولها نصف متر وعرضها نصف متر». وفى سنة ١٠١٣م أمر اليهود بأن يضعوا أجراسًا كبيرة حول رقابهم عندما يدخلون الحمامات العامة[١٦]. وقد أذعن كثيرون واعتنقوا الإسلام، ومع هذا استمر الحجاج الغربيون يفدون إلى بيت المقدس حتى فى أثناء أقسى الاضطهادات التى حلت بالنصارى المحليين(*). ولم تكن هجمات الحاكم بأمر الله على «أهل الكتاب»

(*) قارن بين هذه الاضطهادات المؤقتة والتى تراجع عنها الحاكم نفسه فى نهاية عهده وبين الاضطهادات التى ذكرها المؤلف نفسه فى الفصل السابق فى شبه جزيرة إيبيريا ضد المسلمين واليهود، ثم الموريسكيين. وعلى أية حال، فإن كثيرًا من الباحثين يعتبرون العصر الفاطمى على العموم، العصر الذهبى لأهل الذمة» فى مصر والشام وغيرها من المناطق التى خضعت للحكم الفاطمى؛ ولكن المؤلف اختار التركيز على تصرفات الحاكم التى نالت المسلمين السنة بضرر أكبر وأشمل مما أصاب النصارى واليهود، والذى نسبت إليه أمور كثيرة شاذة تركت تأثيرها السلبى على المجتمع المصرى والشامى بأسره (المترجم)

جزءًا من عداوة إسلامية عامة ضد المسيحيين. فقد قال كثيرون إن الخليفة الفاطمى كان مجنونا وغير متدين، وأن سياساته كانت غير مسبوقة بالتأكيد. كذلك أعلن الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ١٠١٣م أن له خصائص إلهية وبدأ في اضطهاد المسلمين السنة بالعنف نفسه الذى هاجم به الديانات الأخرى(١٧). وأخيرا فى سنة ١٠٢١م مات فى ظروف غامضة، وانتهى فكره المضطرب معه.

وعلى أية حال، ترددت أصداء تدمير كنيسة القيامة بقوة فى أوربا. ومن المفترض أن البابا سرجيوس الرابع Sergius IV قد أصدر منشورا موجهًا للمؤمنين، يحثهم على إرسال جيش عن طريق البحر من إيطاليا لإنقاذ مدينة القدس الجريحة. «ليعلم جميع المسيحيين أن الأخبار جاءت من الشرق إلى الكرسي البابوى بأن كنيسة الضريح المقدس قد تم تدميرها من سقفها إلى أساسها على أيدى الوثنيين. هذا الدمار قد غمر الكنيسة كلها ومدينة روما فى حزن عميق وأسى. إن العالم كله يرتدى ثوب الحداد والناس يرتعشون، وهم يزفرون زفرات حارة...

«وإننا نقصد بمساعدة الرب أن نقتل هؤلاء الأعداء جميعا ونعيد ضريح المخلّص المقدّس، ولا يجب عليكم يا أبنائى أن تخافوا اضطراب البحر، ولا ترتعدوا من هول الحرب، لأن الرب قد وعد كل من يخسر الحياة الحالية من أجل المسيح سوف يربح حياة أخرى لن يخسرها أبدًا. لأن هذه ليست معركة فى سبيل مملكة أرضية، ولكنها فى سبيل الرب الخالد». وبعد موت الحاكم بأمر الله، تم إصلاح الدمار المادى ببطء، وأعيد بناء الضريح المقدس جزئيًا على الرغم من أن ذلك لم يكن على مقياس بناء قسطنطين الكبير. وعلى أية حال، لم يكن هناك شيء يمكن أن يمحو الذاكرة الفولكلورية عن تدميره بأيدى المسلمين.

وقد أدت الذكرى الألفية لصلب المسيح سنة ١٠٣٣م إلى حفز حركة الحج إلى القدس، ومع هذا فإن أولئك الذين قاموا بالرحلة إلى الأرض المقدسة كانوا يعودون بحكايات عن خراب بلد اجتاحتها الحرب وهجمات البدو المتواصلة. وشيئا فشيئًا كان على الحجاج أن يسافروا فى مجموعات كبيرة يمكنها الدفاع عن نفسها: وكانت

هناك مجموعة من ألمانيا فى سنة ١٠٦٥م يقودها جونثر Gunther، أسقف بامبورج Bamburg. وصل عددها الإجمالى سبعة آلاف، بمن فيهم عدد من النبلاء وحامية مسلحة[١٩]. ولكن حتى بالنسبة لمجموعة كبيرة مثل هذه كانت الرحلة حافلة بأخطار غير متوقعة. وفى يوم ١٥ مارس، وكانت المدينة المقدسة على مرمى البصر تقريبًا، هاجمهم المغيرون وأوقعوا بهم خسائر جسيمة. وعلى مدى يومين لم يحاولوا أن يقاتلوا دفاعًا عن أنفسهم، ويردوا المهاجمين. وقد أنقذهم أمير الرملة، الذى وصل بحاميته وطرد المغيرين. ثم تولى حراسة المجموعة فى طريقهم إلى القدس. وهكذا على الأقل فى هذه المناسبة بذلت السلطات ما فى وسعها لحماية الحجاج. ولكن بالنسبة لأولئك الذين وصلوا فى النهاية إلى القدس وعادوا إلى وطنهم سالمين، كانت أقوى الذكريات تتعلق بأولئك الذين كانوا قد ماتوا على الطريق. ومن السبعة آلاف الذين كانوا قد انطلقوا فى الرحلة عاد ألفان[٢٠].

وبمنتصف القرن الحادى عشر كانت فلسطين قد صارت خرابًا بسبب الحرب، وكانت تغص باللصوص وقطاع الطرق. وكان إمداد جماعات الحجاج بالحماية والمؤن يتعدى قدرة الحكام المسلمين، فى الأرض التى كانت تعانى نقصا فى الطعام والمياه. ولابد أن هذه المجموعات التى كانت تضم عدة آلاف. ومعهم الحماية المسلحة من الفرسان المدرعين والمرافقين، ومعسكراتهم السائرة المحصنة. كانت تبدو مثل جيوش غازية أكثر منها جماعات من المتدينين. وبشكل متزايد كانت الجماعات الكبيرة من الحجاج الباحثين عن الطعام والمياه يلقون استجابات عدائية. كانت هناك مناوشات فى الموانئ مثل طرابلس وفيما بعد فى المدن الواقعة على طريق السفر مثل الرملة، حيث رفض أهل البلدة دخول الحجاج مدينتهم. وقد رأى الحجاج فقط أن الأرض المقدسة التى كان يجب أن تكون ملكا للمسيحيين. كانت تعانى على أيدى المسلمين. لقد كانت قد تحولت إلى «برية». وفى عيون الحجاج كان هناك قدر قليل من المظاهر الخارجية للتمييز بين أولئك المسلمين الذين يتصرفون بشكل حسن تجاههم مثل أمير الرملة، وبين الآخرين الذين لم يكونوا يفعلون هذا. وكانت الإحباطات التى لا تنتهى فى الرحلة، والطلبات التى لا تتوقف للرسوم والرشاوى للمرور عبر الأراضى

البيزنطية والإسلامية على السواء. وطلبات الدفع لتسهيل الدخول فى المواضع المقدسة قد غذت إحساسهم السائد بالغضب والاستياء. ولهذا فإن آلاف الحجاج حملوا معهم إلى بلادهم حكايات عن رحلتهم الصعبة والخطيرة، وقصصًا كانت بلا شك تحمل قدرًا من المبالغة يزداد عند كل مرة تعاد فيها روايتها، لتضخيم ما زعموا أنه كان بطولة من جانبهم.

* * *

ويكاد يكون من المستحيل. عند بداية الألفية الثالثة، أن نعيد بناء الفهم الشعبى للأرض المقدسة فى أثناء القرن الحادى عشر. ولكن يمكننا أن نقول بأمان إن قليلين من المؤمنين كانوا يجهلونها. وبالنسبة لمعظم المسيحيين العاديين فى ذلك الوقت، كانت ديانتهم تحددها احتفالات الكنيسة، وحقيقة الرب، ولكنها لا تتحدد بشكل مباشر من خلال النصوص المكتوبة[٢١]. فقد جاءت كلمة الرب إليهم عن طريق سلسلة من المواقف الشفاهية التى نقلها لهم قساوستهم. وقد أطلق عالم فقه اللغة الرائد والتر أونج Walter Ong عليها مصطلح «التعلم الشفاهى». وقد لاحظ أيضا الخاصية الدرامية الجوهرية فى الرسالة المسيحية. لقد صممت على أن تكون منطوقة لا سيما وأنها كانت مبنية حول مجموعة من السرديات والأمثال. وهذه لها جميع الخصائص الثلاثة للقصة الجيدة. الموقع. والشخصية والحدث. أما القرآن فهو على النقيض، على الرغم من قوته البلاغية العظيمة. يقوم فى جوهره على التجريد ونادرا ما يحدد الأماكن. والسرديات المسيحية كلها لها مكان Topos محدد. مثل إسطبل بيت لحم. أو إطعام الخمسة آلاف بجانب بحر الجليل. ودخول المسيح القدس. ومحاكمته ثم صلبه فى المدينة، كلها أحداث ترتبط ارتباطا وثيقا بالمكان[٢٢]. لقد صارت الطبوغرافية المتخيلة للأرض المقدسة المنتج الرئيسى للفن والرسوم التوضيحية فى العصور الوسطى. ولابد أن القدس بصفة خاصة، قد صارت مكانا أكثر واقعية بالنسبة لأى مسيحى من روما، وباريس، وإدنبرج أو لندن. فالناصرة، والجليل. وقبلها جميعا القدس، كانت

جزءًا من تراث كل مسيحي. وقد تصاعدت أهمية المكان المباشر بالشعور بأن كثيرًا من الذخائر المقدسة التي حظيت بالتبجيل فى الكنائس الغربية كانت أصولها موجودة فى الشرق[٢٣].

كانت المدينة المقدسة بالنسبة للمسيحيين الغربيين، وحتى بدرجة أكبر من المسيحيين الشرقيين، أرضًا مثمرة أكثر من أية أرض أخرى، مثل «جنة من المباهج والمتع»[٢٤] لقد كانت مركز العالم، حيث دخل دانتى الجحيم فى بداية كتابه «الكوميديا الإلهية» ولم تكن القدس اسم مكان مفرد. وقد ردد البابا أوربان الثانى أصداء هذا الشعور الشعبى، حين جسد الصراع، عندما دعا العالم المسيحى إلى مساعدة القدس: «هذه المدينة الملكية، من ثم، والتى تقع فى مركز الأرض أسيرة الآن بيد أعداء الرب... ولهذا فهى تسعى إلى أن تتحرر وترغب فى ذلك، ولا تتوقف عن أن تستعطفكم لتهبوا لمساعدتها. وهى تطلب منكم بصفة خاصة أن تنقذوها». لقد كانت الآلام والعذاب الذى يعانيه المسيحيون فى الشرق إنسانيا وليس مجردًا. لقد اغتصب الأشرار أرضا كانت ملكًا للمسيح (حسبما زعم البابا):

«ثمة جنس ملعون. جنس مبعد عن الرب تمامًا. جيل لم يتوجه قلبه حقًا ولا عهد بروحه إلى الرب، قد غزا أراضى أولئك المسيحيين وأخلاها من سكانها بالسيف، والنهب والنار... أو أنه دمر تمامًا كنائس الرب أو حولها لممارسة شعائر دينه. إنهم يدمرون الهياكل بعد أن نجسوها بقذارتهم. وهم يختنون المسيحيين. وينشرون الدم الناتج عن الختان على المذابح أو يصبونه فى أوانى التعميد.

«وعندما يرغبون فى تعذيب الناس بالموت الشنيع. فإنهم يثقبون بطونهم عند السرة ويستخرجون أحشادهم. ويربطونها فى عصى، ثم يقودون الضحية وهم يضربونه بالسياط فى دائرة حتى تندفع الأحشاء خارجه ويسقط الضحية طريحًا على الأرض وآخرون يقيدونهم فى عمود ويرشقونهم بالسهام. ويرغمون غيرهم على أن يمدوا أعناقهم ثم يهاجمونهم بالسيوف المجردة، محاولين قطع الرقبة بضربة واحدة. ترى ماذا أقول عن اغتصاب النساء الشنيع؟ إن الكلام عنه أسوأ من الصمت»[٢٥].

فى هذه الهجائية تحدث أوربان عن فلسطين. على الرغم من أن هذه الفظائع لم تحدث أبدا فى الحقيقة حتى فى ظل تجاوزات الحاكم بأمر الله. ولكن النص الخفى الذى كان أوربان يقرأ منه كان يتعلق بالعمليات الدموية الرومانية ضد الشهداء والتى كانت مألوفة لدى الذين كانوا يستمعون إليه(*).

وإنه لسؤال مفتوح عما إذا كان ممكنا شن الحملات الصليبية دون مهارات أوربان الثانى الخطابية. لقد كان يفهم مستمعيه المباشرين وجمهوره الأعرض على السواء. وبمهارة أعاد تفعيل العناصر المعروفة لدى جمهور السامعين. القسوة والبربرية. تدمير الضريح المقدس، وحكم الكفار. فى دعوة لم يكن من الممكن أن يكون لها سوى استجابة واحدة. ومن سوء الحظ إن ما نعرفه قليل جدا عن خططه ومقاصده فى أواخر صيف سنة ١٠٩٥م عندما عبر جبال الألب إلى فرنسا الجنوبية. فهل كان أوربان قد قرر بالفعل طرح دعوته إلى العالم المسيحى أم أن اقتناعه برز أثناء قدوم فصل الخريف؟ ومن المؤكد أنه قد اختار مسرح خطبته ببعض العناية. فقد كان قادة الكنيسة فى فرنسا مدعوين لاجتماع مع البابا فى كليرمون، على حافة أوڤرينى Auvergne؛ وكانت منطقة يمكن الوصول إليها من الشمال والجنوب. وفى يوم ١٨ نوفمبر ١٠٩٥م، اجتمع ثلاثمائة من رجال الكنيسة ومعهم مساعدوهم الكنسيون فى أكبر كنيسة بالمدينة، وملأوها عن آخرها. وهناك وضعوا حلولاً للمنازعات حول النظام والتنظيم السليم. وتم توقيع عقوبة الحرمان الكنسى على ملك فرنسا بسبب الزنا وعلى أسقف كامبرى Cambrai لبيعه الوظائف الكنسية فى أسقفيته. ولكن بينما كانت وقائع الاجتماع تمضى قدمًا. أعلن البابا فجأة أنه فى يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر سوف يتكلم ليس إلى الكنيسة فقط ولكن إلى العالم. وتم بناء منصة خارج البوابة

(*) قامت الدعاية للحملة الصليبية على الكذب وتلفيق الاتهامات الوحشية على أيدى المسلمين. وقد أخذ البابا ورجال الكنيسة الروايات القديمة عن الفظائع الرومانية ضد المسيحيين الأوائل (وهى أيضا تحمل قدرا كبيرًا من المبالغة) لكى ينسبوها إلى المسلمين فى القدس. لقد كذبت الكنيسة الكاثوليكية على رعاياها فى سبيل تجنيدهم فى الحملة الصليبية (المترجم)

الشرقية للمدينة وفى الصباح الباكر يوم الخطاب وضع العرش البابوى أمام جمهرة غفيرة من الحضور.

وقد اختلفت وتضاربت الروايات عن خطبة أوربان بشكل يبعث على الضيق فى حدث جلل فى التاريخ مثل هذا. ولم يكتب أحد تقريرا حرفيًا وهناك خمس روايات مختلفة عما قاله أوربان. وتختلف كل منها عن الأخريات اختلافا بينا فى اللهجة والموضوع الذى أكد عليه. لكى تعكس اهتمامات الكاتب نفسه. وعلى أية حال. فمن الواضح أن العامل المشترك فى جميع الروايات كان منهج أوربان فى كسب سامعيه. وإذا كانت التفاصيل تختلف. فإن قصده وأسلوبه واضح. لقد كان يخبر الجمهور الغفير الذى تجمع أمامه قصة. ويذكرهم بحقائق يعرفونها جيدًا. وينسج أفكاره وقصصه معا بطرق لم يكونوا حتى ذلك الحين قد أخذوها فى الاعتبار. وفى إحدى الروايات. كتبها روبير الراهب، دعاهم باعتبارهم رجال فرنسا، الذين لجأ إليهم فى الساعة التى احتاج العالم المسيحى إليهم:

« يا شعب الفرنج. أيها الشعب القادم عبر الجبال، يا من اختاركم الرب وأحبكم لأنكم تتألقون فى كثير جدا من أعمالكم؛ بعيدون عن كل الأمم بفضل موقع بلادكم. وكذلك بعقيدتكم الكاثوليكية وشرف الكنيسة المقدسة. إليكم نوجه خطابنا ونقصدكم أنتم بالحث على الفعل»[٢٦].

وفى رواية أخرى، أوردها فوشيه الشارترى. ربط فى حرص موضوع الكنيسة الطاهرة، الذى كانوا يناقشونه على مدى تسعة أيام، بالشر الكبير الواضح فى الشرق. ودعا النصارى للحج المسلح إلى الشرق:

«إننى. أو بالأحرى الرب، يناشدكم باعتباركم المبشرين بالرب أن ... تحملوا المساعدة حالاً إلى أولئك المسيحيين وأن تدمروا الجنس الشرير وتطردوه من أراضى أصدقائنا. إننى أقول هذا للحاضرين. وهو موجه أيضا لأولئك الغائبين. علاوة على أن المسيح يأمر به.

وكل الذين يموتون فى الطريق. سواء فى البر أو فى البحر، أو فى المعركة ضد الوثنيين سوف ينالون غفرانا لخطاياهم فى الحال. وهذا ما أمنحهم إياه من خلال سلطة الرب التى أسبغها علىّ.

يا له من عار من مثل هذا الجنس الحقير الوضيع، الذى يعبد الشياطين. أن يهزم شعبا يدين بديانة الرب القدير...».

وعندما تكلم. ردت عليه الجماهير بصيحة موافقة «الرب يريدها **Deus lo vult**» وعندما انتهى من خطابه، ركع أديمار **Adhemer** أسقف لوى بوى **Le Puy**. أمامه. يطلب منه الإذن بأن ينضم إلى الحملة العظيمة. وفجأة اندفعت الجماهير إلى الأمام وارتفعت صيحات «الرب يريدها» إلى ذروتها. وفى رواية جويبرت النوجنتى **Guibert of Nogent**. أنه حدث عند تلك اللحظة أن باركهم أوربان جميعًا وهو يرسم علامة الصليب بيده، ثم أعطاهم الشعار الذى سيخوضون الحرب فى ظله. «لقد وضع علامة تناسب تمامًا المهمة المشرفة برسم علامة الصليب، رمز معاناة الرب، شعار الجندية أو بالأحرى ما سيكون جيش الرب»[٢٧].

فى كليرمون حقق أوربان ما كان قد فشل سلفه المشاغب (وربما الأعظم) البابا جريجورى السابع فى إنجازه. فقد تخطى موضوعات السلطة البابوية والحكومة البابوية لكى يحث المجتمع المسيحى، من الكنسيين والعلمانيين. على الفعل. والحركة التى أطلقها (ومن الواضح إمكانية شن حرب لحساب الرب كانت موجودة قبل أن يتكلم) لم تكن لها حدود مقررة أو مدى محدد[٢٨]. ولم يكن لها اسم. وسوف تمر قرون قبل أن يصك مصطلح «حملة صليبية» للمرة الأولى، ولم يصبح هذا المصطلح شائعًا حتى القرن الثامن عشر. بعد وقت طويل من تراخى الدافع الأول. وبالنسبة لأوربان ومعاصريه كان ذلك حجًا أو رحلة. ولكنها رحلة صارت فريدة بسبب الصليب الذى ارتداه المشاركون فيها. لقد تجسد كل شىء فى الشعار والرمز. علاقة الصليب التى لا تنكر، والمألوفة لدى المسيحيين جميعًا[٢٩] .

كانت صورة الصليب علامة على الحدود بين عالم المسيحية وعالم الإسلام. بالنسبة لعالم المسيحية كان يمثل نصرًا جوهريا- على الموت نفسه. فهو يشير إلى بشرية المسيح وألوهيته على السواء، خاصة عندما كان يرسم جسد المسيح معلقًا فوق الصليب. أما بالنسبة للمسلمين فهو يمثل العبثية الجوهرية فى المزاعم المسيحية بألوهية المسيح. فقد كان المسلمون فى شرق المتوسط يدركون بالفعل الأهمية الرمزية للصليب عند المسيحيين. وكان لهذا السبب أن الحاكم بأمر الله الفاطمى كان قد أجبرهم على تحمل عبء الصلبان الخشبية الثقيلة حول أعناقهم. وكان لهذا السبب أن المسيحيين لم يكن يسمح لهم بوضع الشعار الكنسى فوق أسطح مبانيهم، وسبب غضب المسلمين وحنقهم عندما وضع الصليبيون المنتصرون صليبا على واحد من أقدس المواقع الإسلامية فى القدس.

وقد أنتجت دعوة أوربان للقيام برحلة حج مسلحة، تحت راية الصليب، استجابة بين السكان على نطاق واسع وفاقت كل التوقعات. هذا الاندفاع للمشاعر الشعبية والالتزام لا يمكن تفسيرهما بشكل صحيح بالأسباب المادية، مثل فقر المحاصيل. على الرغم من أن مثل هذه المسائل كانت من بين العوامل بالتأكيد. ذلك أن أولئك الذين احتشدوا استجابة لندائه بتحرير الأرض المقدسة كانوا فيما يبدو لديهم فكرة مهزوزة عما ينطوى عليه هدفهم. فلم يكن من الممكن أن يكون هناك مسيحى متدين لا يدرك أن هناك مكانًا فى الشرق حيث ولد المسيح. كذلك فلابد أن كثيرين كانوا قد سمعوا أن هذه الأرض الفردوسية كانت تحت التهديد. وفى بعض المجتمعات ربما كان هناك أيضا حاج كان قد قام بالرحلة فعلاً. وفى ثقافة حيث كانت المعرفة ما زالت تنتقل شفاهًا، كانت مثل هذه الشهادة تنتقل بسرعة كبيرة. وربما كان آخرون قد عرفوا حكايات الأبطال العظماء مثل الملك آرثر. والذين ساد اعتقاد واسع بأنهم قاموا برحلة الحج فى زمن أسبق. ولكن فى الأيام الأخيرة لم تعد قصص الحجاج تتناول المدينة المقدسة، وإنما كانت تتناول فشلهم فى إكمال الرحلة. فقد كانوا قد وجدوا الطريق مسدودًا واضطروا إلى الرجوع. وكان بطرس الناسك، الذى قاد الحملة الصليبية الشعبية فى سنة ١٠٩٦م. قد فشل بالفعل فى الوصول إلى الأرض المقدسة

فى مناسبة سابقة. فقد كان الجنود الأتراك الذين يسيطرون على الطرق المؤدية إلى القدس قد أجبروه على العودة، وتابعوه باللعنات .

كانت كنيسة القيامة قد نالها الدمار قبل أقل من قرن من الزمان، وكان هذا ما زال ماثلا فى الذاكرة الجماعية. وفى ذلك الحين بدت الأماكن المقدسة مرة أخرى واقعة تحت التهديد. كان الخوف إن لم تكن الحقيقة واقعيا بما فيه الكفاية. فقد كان الشرق ممزقًا بالحرب طوال معظم القرن الحادى عشر. ولكن فى أغسطس سنة ١٠٧١م تغير توازن القوى بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين فجأة بشكل شامل. ذلك أن الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد فرضوا سيطرتهم على العالم الشرقى الإسلامى هزموا الجيوش البيزنطية فى معركة مانزكرت فى أرمينيا. وفى غضون أشهر قليلة، كان الفرسان الأتراك يسيطرون على سواحل البحر المتوسط. وتم تأسيس سلطنة سلجوقية فى الأناضول. وفرض جيش من الأتراك السلاجقة الحصار على القدس فى السنة نفسها ولكنه استولى على المدينة من الحامية الفاطمية بعد سنتين فقط. وفى سنة ١٠٧٧م ثار المسلمون المحليون على سادتهم الجدد، وطردوا الأتراك. وعندما عادوا بالقوة استعادوا السيطرة على المدينة وارتكبوا مذبحة كبيرة ضد القاضى وعائلات أعيان المدينة. وكان النير التركى باهظا على المسلمين والنصارى واليهود سواء بسواء. فقد فرضت الضرائب الثقيلة على الكل دونما تمييز.

* * *

كان جنود المسيح الجدد «موسومين بالصليب» **Crucesignati**. وكانوا معفيين من العمليات العادية للقانون فى أثناء رحلتهم إلى الشرق. فلم يكن ممكنا الاستيلاء على ممتلكاتهم، ولا يمكن اتخاذ أى تصرف ضدهم. وحتى ذلك الوقت كان العالم المسيحى قد اعترف بفئتين فى المجتمع :أولئك الذين كانوا ينتمون لمؤسسة الكنيسة، والأغلبية الساحقة ممن لا ينتمون إليها. وفى ذلك الحين كان أولئك الذين أخذوا شارة الصليب يقفون فى منتصف الطريق بين الفئتين. وبمرور الوقت. تطورت النظم

الرهبانية العسكرية من الفرسان بحيث اعترفت بهذه المكانة الوسطى بشكل رسمى أكثر. ولكن فى «الحملة الصليبية» التى افتتحت بكلمات أوربان. كانت غالبية أولئك الذين انطلقوا نحو الشرق ليسوا من النبلاء ولا حتى مهرة فى السلاح. وحيثما كان أوربان قد أثار جنوب فرنسا، سواء بالخطابات أو جولات الدعوة التى لم تتوقف إلى الحج المسلح. كانت الدعوة إلى الحرب تنتشر فى الشمال لإنقاذ القدس على أيدى أشخاص غامضين من أمثال بطرس الناسك، الذى كان راهبا من قبل فى شمال شرق فرنسا.

وربما تكون الأسطورة قد بالغت فى الملامح والخصائص الجسدية لبطرس- لهجة ثقيلة. قصير وسمين ولكنه شاحب المظهر- وملابسه الرثة والحمار المسن الذى كان يسافر فوقه مسافات هائلة. ولكن تأثير ما كان يقوله فى القرى والمدن كان مذهلاً. وقد قال جيوبرت النوجنتى إنه كان باستمرار محاطًا «بجمهرة غفيرة من الناس». الذين اعتادوا نزع شعيرات من حماره. الذى كانوا يعاملونه على أنه من الذخائر المقدسة[٣٠]. وكان يدعو الناس لحرب من أجل المسيح، واتبعوه على الفور، وجلبوا معهم ما فى متناولهم من الأسلحة والأدوات. ومن البلاد الواطئة وشمال فرنسا ووادى الراين. كان قد جمع ما يقرب من خمسة عشر ألفا من الأتباع وقت وصوله بجيشه إلى كولونيا فى بدايات شهر أبريل ١٠٩٦م.

وبدأت عصابات من هؤلاء الجنود فقيرى التسليح ولكنهم مدفوعون بحماسة وحشية السير نحو الشرق [٣١]. وعندما وصلت هذه الكتلة البشرية أخيرا إلى أسوار القسطنطينية، حياهم الإمبراطور أليكسيوس بحرارة، ولكنه رفض السماح لهم بدخول المدينة. ولم يسمح لهم سوى أن يشاهدوا الأضرحة المقدسة من خلال البوابات وفى مجموعات لا تزيد عن ثمانية عشر شخصًا وتحت حراسة مشددة. وأقام الحجاج معسكرًا تحت أسوار ثيودسيوس على سبيل التلكؤ، وعاشوا أمام أرض المدينة. ونهبوا منازل الضواحى والضياع التى كانت تحيط بالمدينة. خاصة على امتداد ساحل البحر، بل إنهم انتزعوا الرصاص من أسقف الكنائس[٣٢]. وفى يوم.

أغسطس، وفر أليكسيوس أسطولاً من السفن الصغيرة لنقل الحجاج عبر البسفور. وكان مسرورًا لرؤيتهم يرحلون: ولم تكن هذه هى القوات التى كان يأمل فيها لكى تساعده في مقاومة عمليات النهب والتدمير التي يقوم بها الأتراك. ولا هو صدق أن هذه الحثالة يمكن أن تنجو من معركة مع المسلمين. وسوف يأتي البرهان على أنه كان محقًا.

تقدم جيش الحملة الشعبية جنوبًا وخرب الأراضـى أمامه. وأحرزوا بعض النجاح، واستولوا على بعض القلاع المعزولة وجمعوا كمية كبيرة من الأسلاب والغنائم. ولكن فى أكتوبر جمع الأتراك جيشًا كبيرًا يكفى للتعامل مع هذا العدو المستفز بصورة متزايدة والذين اعتبروهم من المرتزقة العاملين فى خدمة البيزنطيين[٣٣]. واستدرج الجواسيس الصليبيين خارج معسكرهم بحكايات عن أن أكبر وأغنى مدينة في الإقليم، وهى نيقية. التى كانت على بعد أميال قليلة فقط، يمكن أن تسقط بأيديهم. وفى فجر يوم ٢١ أكتوبر انطلقت القوة كلها- حوالى خمسة وعشرين ألفا من الرجال المشاة وخمسمائة من الفرسان- طالبين نيقية. وعلى مسافة ثلاثة أميال تقريبا من المعسكر وقعوا فى كمين أعده لهم الأتراك. الذين كانوا قد اختبأوا فى أرض الغابات على كلا جانبى النهر. وأمطرتهم رخات من الأسهم، ثم دهمتهم هجمات مفاجئة من الخيالة الأتـراك، وانهار النظام بأسره. وقد ركب الفرسان فوق مشاتهم وهم يحاولون الهرب .

لم تكن الحملات الصليبية الشعبية التى انتهت على هذا النحو الكارثى تضم الحجاج الذين كان البابا أوربان يتصورهم عندما أطلق دعوته فى كليرمون[٣٤]. فقد كان أوربان الثانى قد حدد القسطنطينية نقطة اللقاء للصليبيين وبحلول ربيع سنة ١٠٩٤م كانت أربعة جيوش من الفرسان والرجال المسلحين، وكتلة من أتباع المعسكر المسلحين. قد تلاقوا عند المدينة. وبحلول أوائل يونيو كان قد تم نقل جيش يتراوح عدده بين خمسين ألفًا وستين ألفا عبر مضيق البسفور بواسطة الأسطول البيزنطى. هذا الرقم الكبير يعطى إحساسًا مضللاً عن قوة الصليبيين العسكرية. فقد كان

حوالى سبعة آلاف فقط من هذا العدد من الفرسان ثقيلى التسليح، وهى مساهمة أوربا الغربية الخاصة فى فن الحرب. وكان بعض الباقين من حاملى الحراب المجربين وعدد قليل من رماة السهام، ولكن الجمهرة الغالبة كانوا من الصليبيين الفقراء، من الرجال والنساء، أغواهم الصليب والوعد بالغنائم والأسلاب. وكان كل فارس مدرع miles نواة لعصبة حرب مصغرة. فقد كان يسانده مرافقون بعضهم راكبون وبعضهم مشاة. ولكنهم جميعا مسلحون ومخلصون لقائدهم. وبدورهم كان معظم الفرسان يدينون بالولاء والطاعة لواحد من السادة الإقطاعيين الكبار أو الحكام الذين كانوا مسئولين عن الحملة. ولكنه كان بناء فضفاضًا به قليل من الإحساس المتماسك بالاتجاه، جيش يقوده مجلس من القادة. وفى الغرب، كانت معظم الشئون الحربية محلية وبينما كان كثير منهم قد زاروا الشرق فى رحلة الحج، كان نورمان جنوب إيطاليا فقط هم الذين لهم خبرة بالطريقة الشرقية فى الحرب. ومع هذا فحتى هم لم تكن لديهم معرفة بالمسافات الشاسعة فى آسيا الصغرى وعن المناخ القاسى. وصحراوات الملح حيث لا يمكن لشىء أن ينمو، وحيث يوجد عدو قوى غير أى عدو كانوا قد واجهوه من قبل.

كان الغرب والشرق يواجهان الحرب من منظورين مختلفين. كان الأسلوب الغربى قائمًا على أساس الاشتباك القريب. وعلى تأثير الفارس المدرع الذى يقود بكامل سرعته ضد عدوه، ومرافقوه غالبًا يحيطون به. وكانت خيول الحرب الأوربية أكبر وأثقل من الحصان فى الشرق، وكان من المعتاد أن يقاتل الصليبيون من فوق ظهور الخيل، بحربة ثقيلة وسيف طويل مستقيم. كما كانت الاستخدامات المتعددة للفرسان المسيحيين تستلفت النظر. وكان رداؤهم المصنوع من السلاسل الثقيلة hauberks يشبه القمصان الطويلة، يصل إلى منتصف بطن الساق. ويضعون غطاء رأس حديديا غالبا ما كان مقوى ومدعمًا. كان كفيلاً بصد أية ضربة. ولم تكن الصورة التى سادت أواخر العصور الوسطى عن الرجل المدرع الذى يجر قدميه. ولابد أن يُحمل ليوضع على السرج، تنطبق على هذه الجيوش. وسواء كانت القوات الصليبية ذات الدروع راكبة أو من المشاة، فقد كان بإمكانها أن تخترق معظم التشكيلات الشرقية.

وبينما كان الفرسان الغربيون يصطدمون بقلب صفوف العدو، كان الأتراك عادة ما يقفون بعيدًا عن خصومهم، ويمطرونهم بالسهام والرماح على بعد، قبل أن يندفعوا إلى الداخل بسرعة ليقوموا بالهجمة المضادة. وكان القوس التركى المقوس الذى لاينافس مصنوعا من طبقات من عظام القرون وأعصاب الحيوان؛ فى أيدى الرجال المهرة يمكن أن يقذف السهام لكى تحفر ثغرات فى قمصان الزرد أو الخوذة الحديدية. وتحكى إحدى الروايات عن صليبى أصيب بسهم فى ساقه: تغلغل السهم التركى خلال طبقتين من الزرد وغاص فى جنب الحصان عميقًا بحيث أرداه قتيلاً. وما زال الراكب مشبوكا فى جثته. وكان بوسع رامى السهام التركى الذى يمتطى فرسًا أن يقذف ثلاثة أسهم فى ثوانٍ قليلة وهو راكب بكل سرعته، سواء وهو يهاجم. أو وهو يتقهقر. وعلاوة على ذلك. كانت لدى جيوش الشرق قوات متخصصة لم تكن الجيوش فى الغرب قد طورت مثلها بعد. فقد كان رماة الأسهم من فوق ظهور الخيل هم أصحاب المهارة الأبرز لدى الأتراك؛ وقد كان لدى السوريين خيالة خفيفة (فرسان)، ماهرون وبارعون فى استخدام الحربة؛ وكان الفرسان الفرس مسلحين بدروع ثقيلة، تغطى الرجل والحصان سواء بسواء.

وقد وجد الغربيون أن الفارس المدرع لم يكن محصنًا ضد الخطر. فبعد الحملة الصليبية الأولى، عقد حاكم محلى مبارزة على سبيل المحاكمة بين اثنين من الأبطال. وفى جولة القتال هجم الفارس الغربى على خصمه برمح ثقيل. مصوبًا نحو صدره المكشوف. ورمى الفارس الشامى برمح خفيف فى عضلة كتف حصان الفارس. مما تسبب فى عرقلته واصطدامه بالأرض. وألقى بالفارس أرضا ولكن قبل أن يتمكن من الوقوف على قدميه. كان العربى قد ضربه طريحًا بخوذته الحربية، ثم قفز إلى الأرض لكى يذبح رقبة الأوربى المكشوفة بسيفه. وعند هذه النقطة توقف القتال الزائف. وعلى أية حال، فإن العرب والأتراك أدركوا بسرعة أن هؤلاء الرجال ليسوا مثل البيزنطيين، الذين كانوا على معرفة بهم من معارك كثيرة. وثمة صورة لهؤلاء الفرنج الأقوياء تطفو على سطح الأدبيات العربية. فهم يظهرون مثل رجال جسام حليقى الذقون «كما لو كانوا قد تخلفوا من قوم عاد» أو لو لم يكونوا من البشر بالمرة.

وكانوا يحملون حرابًا عريضة الرأس متينة أو حرابًا من فولاذ [٣٥]. ولم تكن الشجاعة المتهورة وقوة عزيمتهم مفهومة بالنسبة لنظرائهم المسلمين. ويحكى أسامة بن منقذ، وهو واحد من الأمراء المسلمين، قصة عن ثمانية من المحاربين العرب الذين قابلوا فارسًا صليبيًا واحدًا. وطلب منهم أن يعطوه ما معهم من الإبل. فسبوه ورفضوا. وقتل أو جرح منهم أربعة الواحد تلو الآخر، ثم طلب الإبل ثانية قائلا: «وإلا سوف أقضى عليكم» ثم قسم الإبل وأخذ أربعة وقادها أمام أعينهم لأنهم كانوا بلا حيلة أمامه ولم يكن لديهم أمل فى التغلب عليه. وهكذا عاد بغنائمه. وكان واحدًا بينما كانوا ثمانية رجال [٣٦].

وقد أوضحت المعركة الأولى للصليبيين مدى إمكانية خطورة أسلوب الحرب الغربى على الجيوش الشرقية الأكبر حجمًا. وقد حاصر الصليبيون مدينة نيقية، التى كانت الإغواء القاتل للحملة الصليبية الشعبية. وفى يوم ١٦ يونيو ١٠٩٧م، أرسل السلطان السلجوقى قلج أرسلان، أفضل قواته لمساندة الحامية التى تدافع عن أكبر مدينة فى ممتلكاته. ونزل الأتراك من التلال المرتفعة المحيطة، وهم يصيحون صيحات الحرب الخاصة بهم ويدقون الطبول. ووقف صف رفيع من الصليبيين بين الأتراك وشرفات الدفاع فى سور المدينة واندفع رجال قلج أرسلان عند بوابة المدينة الرئيسية، وهم يتوقعون سحق الصليبيين. وفوجئوا فى أثناء اندفاعهم إلى الأمام أن طابورا من الصليبيين قد ضربهم من الجناح ضربة مذهلة. وفى اللوحة الاستشراقية عن المعركة والتى رسمها فى القرن التاسع عشر هنرى سيرور Henri Serrur نجد قدرًا كبيرًا من الرومانسية، بيد أنها نقلت إحساسًا بالاشتباك المتوحش واختلاط الحابل بالنابل على حين يمزق الفرسان الصليبيون أعداءهم إربا إربًا. وفى معركة استمرت من الفجر حتى الغسق. تعلم قلج أرسلان القوة المدمرة للحراب الطويلة والسيوف الثقيلة التى بحوزة الصليبيين.

أما الصليبيون، من جانبهم، فسرعان ما تعلموا أن يحترموا دقة الرماة الأتراك وسرعتهم. وبعد ما يزيد قليلا عن شهر بعد سقوط نيقية، أكمن الأتراك لطابور صليبى

فى طريقه إلى الطريق الرومانى القديم الموصل إلى ضوروليوم. وقتلوا أو جرحوا الكثير من الصليبيين. ولكن الناجين تجمعوا من جديد. وحاربوا دفاعًا عن أنفسهم. وعندما هزموا الأتراك، ومهما كانت خسائرهم فادحة. فإن شيئا لم يوقف التقدم البطىء للصليبيين. وعندما نفدت منهم المؤن وماتت الخيول، انتهى الأمر بالفرسان إلى ركوب الثيران. ولكنهم ظلوا يواصلون الزحف، وقاموا باكتساح كبير شرقا ثم جنوبا. عبر الصحراء والجبال. وكانوا يخسرون رجالاً كل يوم، ولكن بحلول شهر أكتوبر سنة ١٠٩٧م توقفوا أمام مدينة أنطاكية الضخمة، مفتاح منطقة شرق المتوسط. وهى مساحة حضرية ضخمة طولها ثلاثة أميال تقريبا وعرضها ميل واحد فيما بين نهر العاصى وجبل سيلبيوس، حيث تتقابل سلسلة جبال لبنان مع سلسلة جبال طوروس. وأسوارها الطويلة ذات الشرفات الحصينة تتماشى طبيعة الأرض دون أية نقاط ضعف واضحة. وفوق أسوار المدينة قلعة قوية التحصين. وطوال الشتاء عسكر الصليبيون قبالة هذه الأسوار التى لا يمكن اختراقها، ويعانون يوميًا من هجمات المدافعين عن المدينة. وعلى أية حال. أتاح التوقف أمام أنطاكية للصليبيين أن يجددوا مؤنهم. فقد كانت أساطيل من السفن تجلب لهم الطعام والمعدات من قبرص. وكان كربوغا. حاكم الموصل، البعيد فى الشرق بالعراق الحديث، يستغل الشتاء أيضا وبواكير الربيع لحشد جيش كبير لفك حصار أنطاكية. ولو لم يكن الصليبيون قد استولوا على أنطاكية قبل وصوله لوقعوا فى مأزق خطير، محصورين بين أسوار «أنطاكية من خلفهم وعدو جديد واثق من نفسه أمامهم».

ولكن فى يوم. يونيو سنة ١٠٩٨م تظاهر الصليبيون أنهم يقيمون معسكرًا وانطلقوا نحو الشرق، لمواجهة كربوغا. ثم عادوا أدراجهم بعد هبوط الليل، وقامت عصبة صغيرة من الفرسان بتسلق الأسوار الشمالية- الغربية، التى كانت قد تركت بلا حراسة وفى داخل المدينة قابلوا بعض مواطنى المدينة من المسيحيين الذين قادوهم عبر شبكة الشوارع إلى اثنتين من بوابات المدينة الصغيرة. وهناك قتلوا الحراس وفتحوا الأبواب. واندفع الجيش الصليبى عن بكرة أبيه داخل أنطاكية. وفى يوم واحد كان كل تركى، رجلاً أو امرأة قد قتل. وعندما أرخى الليل سدوله يوم. يونيو. حسبما

ذكر المؤرخ المجهول صاحب «أعمال الفرنج Gesta Francorum. بذل الصليبيون محاولة، ولكنها باءت بالفشل، للاستيلاء على القلعة. وحاصروا أنطاكية على مدى ثمانية أشهر. وبعد يوم من استيلائهم على المدينة (وإن لم يستولوا على القلعة)، بدأت طلائع جيش كربوغا الكبير تظهر قبالة الأسوار. وسرعان ما وصل الجيش المسلم بأسره واستولى على آلات الحصار التى كان الصليبيون قد شيدوها. وإذا كان الصليبيون محصورين فيما بين القلعة فوقهم وجيش الموصل الذى يحيط، فإنهم وقعوا فى الفخ داخل المدينة التى لم يكن بها طعام وقليل من المياه. وقد كان الرجال يأكلون أوراق التين، والعنب، والشوك وكل أنواع أوراق الشجر المغلية فى الماء. وكان البعض الآخر يطبخون الجلود المجففة للخيول والجمال والثيران والجاموس[٣٧].

وتم إنقاذهم بمعجزة. وفى داخل المدينة تدهورت المعنويات يومًا بعد يوم. حتى تم اكتشاف ذخائر مقدسة غير عادية يوم ١٤ يونيو. فقد تم استخراج الحربة المقدسة التى كانت قد اخترقت جنب المسيح فى عملية الصلب من تحت الأرض فى كنيسة القديس بطرس. وقد تم الكشف عن موقعها فى رؤيا أو حلم. وأخذت الحربة التى اكتشفوها على أنها رسالة من الرب بأنه معهم[٣٨]. وبعد أسبوعين فقط، وبعد مواعظ كثيرة لا تنتهى، وصيام مطول وتجهيز الذخائر الهشة لتكون راية للمعركة، سار الجيش الصليبى وروحه المعنوية عالية، خارج بوابة الجسر على نهر العاصى، وتوجه مباشرة نحو القوة الإسلامية المعسكرة أمامه. ورفعت الحربة المقدسة عاليًا فى طليعة الجيش حتى يشاهدها الجميع. وتحرك الجيش بسرعة بطيئة. ولم يتبق من خيول الحرب بعد أشهر طويلة من الحصار سوى مائتى حصان[٣٩]. ولكن الجنود المشاة الذين كانوا يسيرون أمام الفرسان القلائل الباقين لم يكونوا من الرجال المبتذلين ذوى التجهيز السيئ غير المدربين. وقد عززهم عدد قليل من حاملى الرماح المدربين، والذين كانوا يشكلون المشاة فى المعارك السابقة. فقد كان معظم أولئك الذين ضمهم الطابور من الفرسان البارعين فى كامل تسليحهم الذين ثبت أنه من الصعب تمامًا قتلهم. وقد حكيت الروايات عن الفرسان الذين كانوا يبدون مثل القنافذ بالسهام التى رشقت بهم، والرماح والقذائف. ولكنهم ما زالوا يتحركون إلى الأمام ويقاتلون

بقسوة. وبينما كان الفارس الراكب، رمز الفروسية، يمتلك قوة ضاربة عظيمة، اكتشف الأتراك أن حصانه عرضة للخطر. وضد المشاة المدرعين، الذين يحاربون بصورة موحدة، برهنت الأساليب التركية التقليدية على أن فعاليتها قليلة، لقد كان الفرسان الغربيون مدربين للقتال على ظهور الخيل أو على أقدامهم: وكان هذا التنوع هو الذى أنقذ الصليبيين يوم ٢٨ يونيو ١٠٩٨م(*).

كان المسلمون الذين تجمعوا عند بوابة الجسر مجرد جزء من الجيش الرئيسى، الذى كان على بعد عدة أميال شمال المدينة. وعندما شاهدوا جيش المشاة يتقدم، ظنوا أن هذه محاولة يائسة من العدو الذى كان على حافة الهزيمة. ولم يكن هناك ما يجعلهم يعرفون أن شعور الصليبيين الجديد كان مشوبًا بالنشوة والفرح، وقد بدا مستحيلاً أن هذه العصبة الغوغائية من الرجال المشاة يمكن أن يبرهنوا على أنهم مميتون مثل الرجال على ظهور الخيل. وهجم الأتراك، وهم يمطرون الصليبيين بالسهام، ولقى كثيرون من أفراد المعسكر مصرعهم. ولكن لم يقتل من الفرسان سوى عدد قليل للغاية. وبسرعة انقضوا على المشاة المسلمين الذين كانوا يشكلون جمهرة قوة الحصار وقتلوا منهم الآلاف[٤٠]، ثم اتجهوا شمالاً، بحيث يكونون بالقرب من النهر الذى على يمينهم ولا يتعرضون للهجوم من ناحية الجناح وتقدموا بسرعة ثابتة. وهاجم فرسان المسلمين مرة بعد أخرى، ولكنهم كانوا يصدون. لم يكن هناك شيء يعيق الحربة المقدسة. ومع هبوط الليل، كان جيش كربوغا كله قد تراجع فى فوضى

(*) هذه رواية غير «تاريخية» لما حدث فى أنطاكية حسبما روته المصادر اللاتينية التى كتبها بعض من كانوا شهود عيان على الأحداث نفسها؛ فقد تجاهل المؤلف رواية هذه المصادر عن خيانة المسئول عن أحد أبراج المدينة الذى سلمه إلى بوهيموند النورمانى. كما تجاهل «تلفيق» حكاية الحربة المقدسة من أحد أتباع ريمون دى سانجيل، وانكشاف اللعبة ومحاكمة القسيس صاحب «الرؤيا المزيفة». والرواية هنا رواية فيها قدر كبير من الاعتماد على عناصر أسطورية وغير تاريخية. راجع، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، الفصل الثالث (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طبعة ٢٠٠٧م) المترجم

واستولى الصليبيون على معسكره. ووجدوا كمية هائلة من الطعام. وعددا كبيرا من أتباع المعسكر وخزينة الميدان الخاصة بكربوغا.

كان النصر الذى منحه الرب قبالة أسوار أنطاكية الأول فى سلسلة من الانتصارات. وذابت الجيوش الإسلامية على حين كان الصليبيون مستمرين فى تقدمهم جنوبا عبر إقليم شرق المتوسط حتى القدس. ومنذ أنطاكية فصاعدًا بدأ موقف المسلمين من الغزاة الأوربيين يتغير. فقد ترك الصليبيون تأثيرا حاسمًا ليس على الأتراك السلاجقة وحدهم ولكن على الثقافة السياسية المركبة والمتشرذمة فى شرق المتوسط. وفى ذلك الحين لاحظت كتب التاريخ الإسلامية كيف كان الفرنج مختلفين تمامًا عن البيزنطيين: فقد كانوا غير متحضرين بالمرة. وقد أسماهم المؤرخ الدمشقى «ابن القلانسى» الكفار، أو «المتوحشين». ولكن شكواه الرئيسية أنهم ينتهكون الاتفاقيات المعقودة ببساطة شديدة. فعند بلدة المعرة معرة النعمان قام الفرنج بعد أن منحوا السكان الأمان، بخيانة عهدهم. فقد أقاموا الصلبان فوق البلدة، وفرضوا الغرامات على سكان البلدة، ولم ينفذوا الشروط التى كانوا قد اتفقوا عليها[٤١]. ولم يذكر أشد الأحداث هولاً فى المعرة، والتى سجلها مؤرخون آخرون من المسلمين والمسيحيين. وقد كتب فوشيه الشارترى:

«إننى أرتجف فزعًا أن أقول إن كثيرًا من رجالنا. الذين عذبهم جنون الجوع بدرجة رهيبة، قطعوا قطعًا من اللحم الآدمى من أرداف المسلمين المدنين قتلى هناك. وقد طبخوا هذه القطع وأكلوها. والتهموا اللحم بوحشية الذى لم يكن قد نضج تمامًا من الشواء. وبهذه الطريقة نال من يفرضون الحصار أذى أكبر مما نال المحاصرين»[٤٢].

كان هذا سلوك حيوانات لا سلوك بشر، ولاحظ المؤرخون مثالاً بعد آخر لهذا العنف الماجن. وعند أنطاكية، سجل فوشيه أنه عندما استولى الصليبيون على معسكر المسلمين لم يستعبدوا النساء اللاتى وجدوهن (مثلما كان المسلمون سيفعلون) ولكن «فيما يتعلق بالنساء الموجودات فى خيام العدو فإن الفرنج لم يلحقوا بهن شرًا وإنما

غرسوا الحراب في بطونهن. ثم قاموا جميعا بصوت عال يباركون الرب ويمجدونه. لأنه في رحمة خالصة منه خلصهم من أقسى الأعداء»[٤٣]. وأعلن تاجر من المعرة «إنني من المدينة التي لعنها الله وحكم عليها بالخراب يا صديقي. قد قتلوا كل سكانها. وأعملوا السيف في المسنين والأطفال»[٤٤]. وحكى المؤرخون المسلمون عن الكثير من أعمال الخيانة والوحشية داخل العالم الإسلامي، ولكن كان هناك شيء مختلف في القسوة الحيوانية الفظة لدى الأوربيين. هذه الخصائص التي جعلتهم على هذا القدر من الفعالية في المعركة جعلتهم قادرين أيضا على الإتيان بأي فعل من أفعال الوحشية.

وفي عيون المسلمين، جاء المثل بالغ الشذوذ على هذه الوحشية الشريرة عندما تم الاستيلاء على القدس في نهاية المطاف. فعندما كان المسلمون قد فتحوا المدينة، عاملوها باحترام وتبجيل، وباستثناء عهد الحاكم بأمر الله القصير، تواجد المسلمون واليهود والنصارى جنبا إلى جنب داخل أسوارها. ولكن الصليبيين عاملوا المدينة مثل أي مكان آخر أبدى بعض المقاومة. ووصل جيشهم أخيرا إلى مقصده يوم. يونيو ١٠٩٩م. وما رآه الصليبيون وقع عليهم وقع الصدمة. فبدلاً من المدينة المقدسة التي رسموها في خيالهم، واجهتهم قلعة[٤٥]. وبخلاف أنطاكية التي كانت قائمة على أرض مسطحة بأسوارها الطويلة. كانت القدس توفر لهم فرص الهجوم. ولكن الميزة كانت تكمن في المدافعين الجدد عن المدينة بتجهيزاتهم الجيدة. وقبل ما يزيد على سنة، كانت القوات الفاطمية قد أعادت احتلال المدينة، وطردت الحامية التركية. وقد عملوا بنشاط لتحسين الدفاعات وأوضحوا أنهم لن يستسلموا دون قتال[٤٦]. وفي اليوم التالي لوصول الجيش الصليبي، قام الجيش كله. وأفراده حفاة وفي ملابس التوبة، بموكب حول المدينة، مما جلب عليهم صيحات السخرية من الجنود الذين فوق الأسوار. ثم تجمع الجيش على جبل الزيتون لكي يستمعوا إلى موعظة بعد أخرى، مما رفع معنوياتهم وذكرهم بالغرض من الرحلة. ولم يعد الصليبيون يتمتعون بفوائد الحربة المقدسة. فقد كانت شهرتها قد تلطخت بالشائعات التي انتشرت عن أنها لم تكن من الذخائر المقدسة الحقيقية. وطالب الراهب الذي كان قد اكتشفها، بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew، بحقه في الدفاع عن شرفه وعن الحربة المقدسة

من خلال المحاكمة بالمحنة(*). ومن سوء الحظ، أنه «احترق بصورة مرعبة» بألسنة اللهب ومات بعدها باثنى عشر يوما(٤٧).

وفي ذلك الحين تلقى الصليبيون خارج القدس أخبارًا عن جيش كبير يتجمع فى مصر لفك الحصار عن القدس. ولم تكن هناك فرصة لتجويع القدس حتى تستسلم. فلم يكن ممكنا أخذها سوى بالهجوم. ومرة أخرى، مثلما حدث فى أنطاكية، خاطروا بالوقوع في مصيدة بين العدو داخل الأسوار والعدو خارجها. ومن ثم كانت فكرة الحصار الطويل مستبعدة إذ يجب أخذ المدينة بالقوة. ولكن لم تكن لديهم الأخشاب التي يمكن أن يصنعوا منها السلالم وأبراج الحصار كما كانت الحامية قد سممت الآبار خارج الأسوار. وتم إرسال مجموعات لاستكشاف البلاد والعثور على ما يكفي من الأشجار لبناء آلات الحصار، وفي النهاية تم بناء برجين متحركين من الخشب سرًا، وغطيت بالجلود المبتلة لمنع الحامية المسلمة من تدميرها بالنار الإغريقية. وفي يوم ١٣ يوليو سنة ١٠٩٩م، تمت دحرجة أكبر البرجين ببطء في موقع قريب من السور الشمالي للمدينة. بينما كان كبش مغطى يضرب في السور الخارجي المنخفض الذى كان يحمى التحصينات الرئيسية. وعلى مدى يومين كان الكبش يضرب فى السور، تحت النيران المستمرة من جانب العدو. ولكنه ببطء حرك الأحجار في السور لدرجة أنه في صباح يوم ١٤ يوليو أمكن دفع البرج إلى مكان قريب بما يكفي لوضع

(*) المحاكمة بالمحنة Ordeal، نوع من المحاكمات البدائية التى عرفتها الشعوب الجرمانية التى سكنت أوربا فى موجات متتالية فيما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين. وتقوم هذه المحاكمة على أساس أن المتهم الذى يتعرض للأذى يكون مدانًا ومذنبًا. وكان من أشهر هذه المحاكمات أن يرفع المتهم حجرًا ثقيلاً من قاع إناء به ماء مغلى، أو يقبض على قطعة من الحديد المحمى، أو يدخل نارًا موقدة ويخرج منها. ومن الواضح أن هذه الوسائل كانت للتخلص من أفراد سيئى السمعة خصوصا فى زمن كان الطب والعلاج فيه متخلفًا فى أوربا. وقد دخل بارثولوميو النار واحترق. لكن القادة الصليبيين هم الذين أرغموه على هذا بعد أن اكتشفوا كذبه لصالح ريمون دى سان جيل (الصنجيل)، ولم يطلب هو ذلك (المترجم)

جسور الهجوم على متاريس المدينة. وبذل المدافعون المزيد من الجهود المستميتة لكى يسقطوه. ولكن تم اكتساحهم بعيدًا عن السور بوابل من السهام.

وفجأة انصبت سحابات ضخمة من الدخان الأسود الخانق بين آلات الحصار وغطى الأسوار، مما سبب صدمة للمدافعين. وعندما رأوا اتجاه لهيب النيران، أدركوا أن الصليبيين قد أضرموا النار فى حزم من القش المبلول داخل الأبراج. ولما اكتنف الدخان الأسوار. ثم تركيب جسور الهجوم وعبر اثنان من الفرسان الفلمنك وقفزا على سور المدينة. وبينما كانا يحتجزان المدافعين. اندفع المزيد من الفرسان عبر الجسور مما دعم الموقف على السور. وضعف الدفاع ثم انهار. وتم وضع السلالم بسرعة على السور وتسلق المزيد من الفرسان إلى داخل المدينة. وعندما تقدموا خلال الشوارع، كان المدافعون المسلمون يفرون أمامهم. وتحرك بعض الفرسان لفتح بوابة العامود. مما أتاح للجيش الرئيسى دخول المدينة. وقام آخرون بمطاردة المدافعين. وبدأوا يذبحون كل شىء يتحرك داخل الأسوار. وأعطى الكونت ريمون الأمان للباقين من الحامية فى قلعة المدينة، ولكن كثيرين لقوا حتفهم. وقد كتب ريمون الأجلويرى **Raymond of Aguilar** الذى كان معه:

«بعض رجالنا (وكانوا هم الأكثر رحمة) قطعوا رءوس أعدائهم، ورشقهم البعض الآخر بالسهام، بحيث سقطوا من الأبراج؛ وغيرهم عذبوهم وقتا أطول بأن قذفوهم فى اللهب. وشوهدت فى شوارع المدينة أكوام من الرءوس والأيدى والأقدام. وكان من الضرورى أن يتلمس المرء طريقه فوق جثث الرجال والخيول ....

«والواقع. أنها كانت عدالة الرب وحكمه المعتبر أن هذا المكان لابد وأن يمتلئ بدماء غير المؤمنين. لأنه عانى هذه الفترة الطويلة من كفرهم. كانت المدينة تغص بالجثث وبالدماء» [٤٨].

ثم كانت هناك ثغرة. فى اليوم الأول حدثت المذابح فى قلب المعركة. وفى اليوم التالى.

«في الصباح تسلق رجالنا بحذر فوق سطح المعبد (المسجد) وهاجموا المسلمين، من الرجال والنساء على السواء. وقطعوا رءوسهم بسيوف مسلولة. وقذف المسلمون الآخرون بأنفسهم من فوق المسجد... وسحب المسلمون الذين كانوا ما يزالون أحياء جثث الموتى أمام البوابات. وصنعوا منهم كومة ضخمة. كبيرة في حجم البيوت. ولم يكن أحد قد رأى مثل هذه الكثرة من القتلى الوثنيين أو سمع عنه قط»[٤٩].

ولاذ يهود المدينة بمعابدهم، التي أشعلت بها جميعا النيران. وماتوا جميعًا. وثمة كاتب. هو ألبرت الأيكس Albert of Aix. يذكر حادثة ضمَّنها بعض أولئك الذين كانوا حاضرين في القدس في رواياتهم. وفي اليوم الثالث بعد سقوط المدينة، قرر قادة الغزو قتل جميع الأسرى من الرجال والنساء والأطفال لئلا ينضموا إلى الجيش المتقدم من مصر في عملية حصار جديدة كان الصليبيون يتوقعونها ويخشونها[٥٠].

ولكن التقدم الإسلامي توقف بفعل انتصار نهائي مذهل. فقد توج فرح الصليبيين باستعادة بعض أجزاء صليب الصلبوت وكان القساوسة الأرثوذكس الذين طردهم القائد الفاطمي قبل وصول الصليبيين قد أخذوا معهم هذه الأجزاء. وبعد الغزو رجعوا ومعهم كنزهم الغالي وأخفوه. وعذبهم الصليبيون حتى كشفوا عن المكان الذي خبأوه فيه. وبخلاف الحربة المقدسة، كان لصليب الصلبوت أصل حقيقي. وهكذا. عندما تحرك جيش مصر على امتداد الساحل إلى مدينة عسقلان. وواجه جيشًا صليبيًا متجدد القوة، يحمل أكثر الذخائر المقدسة قداسة في طليعته.

كان الجيش المصري في معظمه مؤلفًا من المشاة: العرب والسود[*]، ورجال من شمال أفريقيا، والأرمن. وكانوا مسلحين جيدًا ومجهزين تجهيزًا حسنًا. وفي ١١

(*) ذكر المؤلف أنهم من الأثيوبيين. والحقيقة أن الجنود المشاة في الجيش الفاطمي كانوا من تلك الفئة التي أطلقت عليها المصادر التاريخية المعاصرة اسم «السودان». وهم ليسوا من منطقة السودان الحديث، ولكنها تسمية عامة كانت تطلق على كل من ينتمي إلى أفريقيا السوداء. وقد نقل المؤلف هذه التسمية عن المصادر اللاتينية التي كان مؤلفوها يظنون أن كل أسود البشرة أثيوبي؛ وهي في الأصل التسمية الإغريقية لسود البشرة. (المترجم)

أغسطس انقض عليهم الصليبيون الذين كانوا قد ساروا بأقصى سرعة. أمام أسوار عسقلان. وكان الصليبيون قد تعلموا درس أنطاكية: ففي ذلك الحين كان فرسانهم محميين بقوة متينة من الجنود المشاة، معظمهم مدرعون. ولكن عند عسقلان. كان الجيش المسلم هو الذي شن الهجوم على صفوف الصليبيين. يقودهم الجنود السود الذين كانوا يستخدمون عصيا حديدية ضخمة يمكن أن تهشم اللحم والعظام. وعلى كلا الجناحين حاول الفرسان المصريون وبعض الرماة الراكبين الإحاطة بالصليبيين. وإذ التصق المشاة المسلمون بظهورهم بأسوار عسقلان كانوا هدفًا مثاليًا لهجمة الفرسان الصليبيين. وبعد هجمة أو اثنتين ضربت الفوضى أطنابها بينهم، ثم أعاد الصليبيون تنظيم صفوفهم وشنوا هجمة ثانية. قاصدين العلم المصرى. وأخيرًا انهار المصريون وهربوا من ميدان المعركة.

فى أنطاكية. كان هجوم الصليبيين اليائس قد بث الذعر فى قلوب قوة أكبر حجمًا. لم تبد سوى القليل من المقاومة. وعند عسقلان، كان القتال أصعب كثيرا، وكان الصليبيون محظوظين لأن القوة المصرية كلها لم تكن جاهزة للمعركة عندما بدأوا هجومهم. ولكنهم بحلول أغسطس ١٠٩٩م، كانت صلابتهم قد اشتدت بفعل سنوات ثلاث من المعارك والحصار والرحلة الملحمية. وعلاوة على ذلك. كانوا قد صقلوا المهارات الخام فى الحرب الأوروبية. وقد لعب المشاة المدرعون دورا متزايد الأهمية وأدركوا أهمية القوات الراكبة الخفيفة والأكثر قدرة على المناورة والتى كان بوسعها حماية الخيالة المدرعة الثقيلة. بمطاردة الفرسان الرماة الأتراك. وبعد عسقلان لم يكن هناك عدو يحتمل أن يتحدى استيلاءهم على فلسطين. وبدأت الممالك اللاتينية فى الشرق، التى امتدت من حافة الهضبة الأناضولية حتى حافة صحراء سيناء، توطد نفسها .

وقد استمرت مملكة بيت المقدس اللاتينية على مدى سبعة وثمانين عامًا، من ١١٠٠م حتى ١١٨٧م. وشكلت كونتياتها. وبارونياتها. وإقطاعاتها، مجتمعًا حدوديًا كان تحت التهديد بشكل مستمر. ولا غرو أن الأثر اللافت والأكثر بقاء الذى تركه

الصليبيون على الأرض تمثل فى قلاعهم الضخمة والهندسة المعمارية العسكرية. فقد كانت الممالك الصليبية فى الشرق قد صمدت بسبب التدفق غير المنتظم من القوة البشرية ومن المال من الغرب، ولكن هذا لم يكن كافيًا على الإطلاق ونادرًا ما جاء فى وقته. كان هذا موطئ قدم ولم يكن غزوا شاملاً. مثل احتلال النورمان لإنجلترا سنة ١٠٦٦م وربما كان هناك حوالى ثلاثة آلاف من الفرسان الفرنج البالغين. بالإضافة إلى حوالى خمسة آلاف من المشاة من الرجال المسلحين. والذين تزوج كثير منهم من المسيحيات المحليات بل حتى من المسلمات. ولم يكن السكان الغربيون فى المملكة يتجاوزون فى عددهم الكلى أكثر من خمسة وعشرين ألفا. فى وسط جمهرة من السكان أكبر كثيرا من المسلمين الناطقين بالعربية والمسيحيين المحليين[٥١]. وعلى الحدود شمالاً وجنوبًا كانت هناك دول إسلامية معادية. لم تلبث أن سيطرت على الكيان اللاتينى فى نهاية الأمر. ولم يكن الصليبيون أكثر من مستعمرات متناثرة. تتمركز عادة على قلعة أو بلدة حصينة. لقد كانت قوتهم أشد على المستوى النظرى مما كانت عليه فى الواقع. لقد حدث أن حكمتهم الأرض المقدسة بدلاً من أن يحكموها هم .

* * *

لقد استخدمت كلمتى «حملة صليبية». «صليبى». وهذا ما يفعله الجميع. ولكن لم يسهم فى الحملة الصليبية الأولى «صليبى» واحد. ففى أفضل الأحوال كانوا صليبيين قبل أن توجد الكلمة نفسها **avant la lettre**. لقد كانت الحروب التى شنت بذريعة إنقاذ القدس سابقة على وجود كلمة «صليبى» بزمن طويل، وهى الكلمة التى صيغت للمرة الأولى فى القرن الثالث عشر فى كلمة **Cruzada**، بعد جيل من استرداد المسلمين للقدس فى سنة ١١٨٧م. ودخلت فى استخدامات اللغة الإنجليزية للمرة الأولى فى الشكل الفرنسى للكلمة **Croisade** سنة ١٥٧٥م، ولم تتم أنجلزتها تمامًا فى الشكل **Crusade** حتى بواكير القرن الثامن عشر، بعد **Crusada. . . Crusado**

Croisado التى تمت تجربتها جميعا ووجدت دون المطلوب [٥٢]كان مصطلح «الحملة الصليبية» منذ البداية مصطلحًا عائمًا. متحركا للغاية، يمكن تعديله. ولا يحدد بالدقة سوى القليل جدا ولكنه مفعم بالمضامين. لقد كان على الدوام نظرية متعددة الجوانب. وقد جند البابوات مفهومًا مفيدًا كان يسمح لهم بإعلان حرب مقدسة على أى فرد أو مجموعة. يصفونهم بأنهم أعداء المسيح[٥٣]. كانت هناك صليبيات ضد المسلمين، وضد الهراطقة المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية مثل الألبيجنيسيين فى إقليم البروفانس؛ وضد الملكيات المسيحية المتمردة. بل حتى ضد بلدات متواضعة لم تسر فى ركاب البابوية. ولكن الفئة الأولى، أى الحرب ضد المسلمين كانت دائما تحظى بالشرعية باعتبارها الحرب الحقيقية «من أجل الصليب وبه».

كانت الحرب المقدسة بدعة داخل الكنيسة المسيحية. التى كانت على مدى عدة قرون تناضل لكي تفرض سلام الرب على خصومها. وكان الأساقفة فى مقاطعة ناربون Narbonne. قبل أربعين سنة من خطبة أوربان. قد أعلنوا. «لايقتل مسيحى مسيحيا آخر، لأنه لا شك فى أن قتل مسيحى يعنى إراقة دم المسيح» [٥٤] كما أن أوربان الثانى، وفقا لرواية فوشيه الشارترى، قد عبر عن التناقض بين شرور الحرب والنضال من أجل قضية خيرة. فقد أخبر أوربان الجمع المحتشد فى كليرمون:

«أولئك منكم الذين اعتادوا من قبل على أن يتنافسوا بطريقة آثمة فى الحروب الخاصة ضد المؤمنين عليهم أن يحاربوا ضد الكفار، وأن ينهوا الحرب نهاية ظافرة ... وأولئك منكم الذين كانوا حتى هذه اللحظة لصوصًا عليهم الآن أن يصيروا جنودًا. وأولئك منكم الذين كانوا ينافسون فيما مضى إخوتهم وأقاربهم عليهم أن يحاربوا الآن ضد البرابرة حسبما ينبغى عليهم».

كان الإسلام قد طور نظرية متماسكة عن الجهاد قبل ذلك بفترة طويلة. فقد طرح الفقهاء المسلمون فكرة عالم ينقسم إلى جزأين– أحدهما دار الإسلام. حيث يحكم حاكم مسلم حقيقى. والآخر دار الحرب، حيث لم يكن زمام السيطرة بأيدى المسلمين[٥٥]. وعلى المسلمين أن يجاهدوا لضمان أن يحل السلام محل الحرب [٥٦]

والجذر العربى لكلمة يجاهد. جـ هـ د). اشتقت منه كلمة «جهاد». التى تعنى أى نوع من المعركة في سبيل قضية خيِّرة. وفى المصطلحات اليومية تشير إلى جهاد النفس ضد الشر أو ضد الغواية، وتسمى «الجهاد الأعظم». وهو أشبه ما يكون بما كتبه الكتاب المسيحيون فيما بعد عن الحرب المقدسة ضد الخطيئة[٥٧]. ولكن الكلمة نفسها كانت تعنى أيضا «الحرب المقدسة» فى المعنى العسكرى الخالص، الذى يعتبره معظم المسلمين «الجهاد الأصغر». المستمد من هذه العملية لتطهير النفس داخليا [٥٨]. وقد ركز معظم الكتاب الغربيين فيما بعد على المعنى الثانى، على حد تعبير رودلف بيترز Rudolph Peters الموجز:

«كانت عقيدة الجهاد فى الإسلام تروق دائما للخيال الغربى. ذلك أن صورة تركى مرعب، يرفل فى ثوب طويل وهو يلوح بسيفه القصير المقوس، مستعدًا لذبح أى كافر قد يصادفه فى طريقه ويرفض اعتناق دين محمد، كانت صورة نمطية شائعة فى الأدب الغربى على مدى زمن طويل ... والافتراض الكامن وراء هذه الأنماط الشائعة أن المسلمين. الذين غالبا ما يطلق عليهم بصورة فضفاضة اسم العرب، قوم متعطشون للدماء بالفطرة. معادون للأشخاص الذين يدينون بدين آخر، وأن هذا راجع إلى دينهم، الذى يزعم الغربيون أنه يدعو إلى عدم التسامح والتعصب والحرب المستمرة ضد غير المؤمنين»[٥٩].

وقد وردت كلمة جهاد مرات قليلة فى القرآن الكريم، وبشكل أكبر من تفسيرات الفقهاء للأحاديث النبوية الشفاهية المنسوبة للنبى محمد. وغالبًا ما تتطلب الأحاديث تفسيرًا خاصًا لكى تتم مواءمتها مع الأحداث. ومن الناحية النظرية، بالنسبة للإسلام وبالنسبة للمسيحية، كانت الحرب شرًا. ولإضفاء القدسية على المعركة والقتل كان لابد أن تكون جهادًا من أجل قضية خيرة وربانية. ومع مرور الزمن. بالتالى. طور كل من المجتمعين أفكارًا مشابهة تمامًا فى ظاهرها عن الحرب العادلة فى سبيل قضية خيرة. ولكن كانت هناك اختلافات بين العمليات المتوازية ولكنها مختلفة فى التطور[٦٠]. ففى العالم المسيحى. كانت عقيدة الحرب المقدسة محل جدل ساخن ثم

تشعبت فيما بعد إلى تفرعات إيديولوچية مختلفة كثيرة. كانت فى معظمها استجابة للتغير السياسى والاجتماعى. وقد تعرض مصطلح «الحملة الصليبية» لتشويه كبير. الحج. الرحلة، الموسوم بالصليب، وهلم جرا، وكلها كانت طرقًا أخرى لوصفها. أما فى الإسلام فقد كان هناك مصطلحان يستخدمان بشكل شائع- الجهاد، والغزاة فى التركية العثمانية- ويمكن أن يكون هناك قدر قليل من الجدل فى معنى هذين المصطلحين، وقليل من البحث النظرى فى حدودهما. وكان السبب فى هذا أن المذهب السنى السائد يحد بشدة من التقييم النظرى؛ وحسبما عبر المعاصرون عن هذا. لقد أغلق باب الاجتهاد حوالى سنة ٩٠٠. وكان معنى هذا أن أصول الدين. بما فيه الجهاد غير قابلة للمناقشة ولا يمكن تغييرها»[٦١].

بيد أن العلماء المسلمين استمروا فى مواءمة تطبيق هذه المبادئ غير القابلة للتغيير (الراسخة)، بشرح الحقائق الخالدة وتفسيرها وتطبيق القوانين الخالدة»[٦٢]. ولم يكن نظاما متحجرا وجامدًا. وإذا كانت النظرية ثابتة، فإن تطبيقاتها لم تكن كذلك. ولم تكن جميع الحروب ضد الكفار تعلن بوصفها جهادًا، ومن المؤكد أن المقاومة ضد الفرنج فيما بين سنة ١٠٩٧م وسنة ١٠٩٩م لم تكن تعتبر فى ذلك الوقت جهادًا. ولكن فى أثناء القرنين اللذين احتل فيهما الفرنج شرق المتوسط، علا صوت لغة الجهاد وصارت أكثر رسوخًا. ومثل خطب الدعوة للحملة الصليبية، كانت هذه الدعوة الموجهة إلى المسلمين تخدم غرضًا معينًا [٦٣]. لقد كانت الاجتماعات تعمل على لم شمل مجتمع كانت تحكمه الفرقة. فقد وفرت عبارة الحرب المقدسة. التى كانت تركيبا لغويًا جديدًا، أسلوبا بلاغيًا قويًا بصورة فريدة. وقبل المواجهة الحاسمة فى فلسطين. كانت المسيحية مركزة على مفهوم سلام الرب. وكان معظم العالم الإسلامى قد تخلى عرفًا عن البلاغة التقليدية وعن ممارسة «الجهاد الأصغر». ونتيجة نضال الثقافتين فى شرق المتوسط. فإن كلاً منهما بقيت مسلحة بإيديولوچية حرب جاهزة وسبب عادل للحرب .

وعندما واجهت القوات النظامية لكل من «الحملة الصليبية». «الجهاد» بعضهما البعض فى ميدان المعركة مباشرة. كان التناقض بينهما باديًا فى الحال. وإذا ما تحدثنا بصورة مرئية سنجد أن العنصر الرئيسى السائد من الجانب المسيحى الغربى هيمن على الآخرين جميعا. فقد كانت الرايات الإسلامية تحمل الكثير من الرموز والنصوص. معظمها أسماء الله الحسنى وآيات مناسبة من القرآن الكريم. ولكن على الجانب المسيحى كانت الصورة الوحيدة للصليب هى السائدة. ومن الاتصال الأول كانت السمة المحددة للحملة الصليبية هى رمز المسيح المصلوب. لقد كان «الصليبيون» موسومين بالصليب Cruceignati [٦٤]. وفى نظر المسلمين العرب، كان هناك شىء مميز ومثير للقلق بشأن هؤلاء المسيحيين. الفرنج، الذين يضعون شعار الصليب والذين كانوا قد اجتاحوا القدس فى سنة ١٠٩٩م[٦٥].

لقد انتهك من يرتدون الصليب جميع المقاييس المقبولة من المجتمع بطرق لا تخطر على بال المسيحيين المحليين بل والبيزنطيين. وحكى المحارب المسلم أسامة بن منقذ الذى عاش فى القرن الثانى عشر عن عدم ملاءمة سلوك الصليبيين فى الأرض المقدسة. فقال. «وليس عندهم شىء من النخوة والغيرة». وحكى قصة رجل حمامى كان الفرنج يرتادون حمامه:

«... فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشدُّ فى وسطه المئزر فى الحمام، فمدَّ يده فجذب مئزرى من وسطى رماه. فرآنى. وأنا قريب عهد بحلق عانتى. فقال: سالم، فتقربت منه. فمد يده على عانتى وقال. سالم، جيد، وحق دينى اعمل لى كذا. واستلقى على ظهره. وله مثل لحيته فى ذلك الموضع. فحلقته. فمرَّ يده عليه فاستواطأه فقال: سالم. بحق دينك اعمل للداما (والداما بلسانهم الست) يعنى امرأته. وقال لغلام له. قل للداما تجىء. فمضى فأحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لى. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرنى. فشكرنى ووهبنى حق خدمتى».

هذه الحكاية النابضة بالحياة تحكى عن حادثة حقيقية. أو ربما كانت مجرد طريفة من الطرائف. ولكن المؤكد أن الفرنج قد أربكوا أسامة وحيروه. فقد كتب. «فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة. وفيهم الشجاعة العظيمة. وما تكون الشجاعة إلاَّ من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة»[٦٦]. وكما لاحظت كارول هيللنبراند Carole Hillenbrand:

«هذه القصة تمس الاختلاف الجوهرى الذى أدركه المسلمون بين مجتمعهم ومجتمع الفرنج. ففى مجتمع كانت النساء فيه تحت حماية الرجال من أهلهن. لايسمح لهن بالكشف عن وجوههن المحجبة سوى لعدد من أقاربهن الذكور. فإن سلوك الفارس الفرنجى وزوجته ... كلاهما يذم لا أخلاقية الفرنج فحسب وإنما [على النقيض] يعزز أيضا قيم المجتمع المسلم»[٦٧].

وفى الحقيقة أن إثمهم ذهب إلى أبعد من هذا. فبالنسبة للمسلمين. كان الصليبيون، باختراقهم الحدود بين (الحرام). (الحلال). قد انتهكوا وزعزعوا ليس حياتهم فقط وإنما العالم كله من حولهم وفى عيون المسلمين، خلق الفرنج دنسًا مرئيًا للغاية ومستمرًا فقد كان رمز الصليب السائد موجودًا فى كل مكان فوق الكنائس وحتى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى المقدسين فى القدس. فقد كانت كل النظم الرهبانية العسكرية داخل الدويلات الصليبية تستخدم الصليب شعارًا لها وصار رمزًا للنجاسة. هذا الإحساس بالتلوث يجرى عبر إحدى الحكايات فى ألف ليلة وليلة. فهى تحكى كيف أن البراز الجاف للبطريرك الأكبر فى القسطنطينية كان مبجلاً لدى المسيحيين لدرجة أنه كان يحفظ ويصنع منه «أقدس بخور لتكريس النصارى فى كل مناسباتهم، ولمباركة العروس. ولتعطير المواليد الجدد وتطهير القسيس عند تكريسه». وبما أن البطريرك لم يكن يستطيع إنتاج الكمية المطلوبة. فقد اعتاد القساوسة على غش المسحوق بخلطه بمواد أقل قداسة، أى براز بطاركة أقل رتبة بل وحتى براز القساوسة أنفسهم». وفيما بعد كان هذا البخور المقدس ينثر على صليب خشبى كبير، كان الجنود يجبرون على تقبيله. وفى هذه الحال، يزعم الراوى. لايمكن أن يكون

هناك شك فى أنه المسحوق أصلى لأن رائحته رهيبة ويمكنها أن تقتل فيلاً فى جيش المسلمين»(٦٨).

هذه الفكاهة الساخرة المكشوفة، مثل الحكاية التي أوردها أسامة، تتعلق مباشرة بالنجاسة (بمعنى مادى) التى تصورها المسلمون فى الصليبيين، ولكنها توحى أيضا بإساءتها الأعمق للحساسيات الإسلامية. فبالنسبة لهم، كان رسم المسيح على الصليب يلوث نطاقًا كبيرًا من المحرمات. فالجسد الذى خلقه الله ليس موضع تفكير، بما فى ذلك الرب المسيحى الذى جرب الميلاد المادى. أما فى الإسلام فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، على حين كان المسيحيون الغربيون يزعمون أن له خصائص مادية. وقد ظهر أن قدرة الصليبيين على التلويث غير محدودة، فقد دنسوا، عن غفلة أو عن عمد، الحرم الشريف فى القدس منذ اللحظة الأولى التى احتلوا فيها المدينة، إذ قتلوا الآلاف داخل الحرم المقدس، كما أنهم جعلوا ساحة المسجد الأقصى إصطبلا لخيولهم، بينما سجل زائر فى وقت لاحق أنه، «بالنسبة لقبة الصخرة، بنى الفرنج فوقها كنيسة هيكلا، ووضعوا فيها السفن والتماثيل» وقد رأى الكاتب نفسه «صورا لحيوانات ترعى مثبتة على الرخام ورأيت بينها رسوما لما يشبه الخنازير»(٦٩) وسواء كانت خنازير أم لا تلك المرسومة فربما كان هذا أقل أهمية من التأكيد على أن الرواية كانت تبدو مقنعة تمامًا بالنسبة للمسلمين، وهناك رحالة مسلم آخر أصيب بالصدمة عندما صعد إلى الأماكن المقدسة فقال إنه دخل القدس ورأى الرهبان والقساوسة مسئولين عن الصخرة المقدسة... وشاهد عليها زجاجات الخمر التى يحتفلون بها فى صلواتهم، ودخل المسجد الأقصى الذى رأى فيه جرسًا معلقًا»(٧٠) وأكبر دليل واضح على هذا الدنس من وجهة نظر المسلمين تمثل فى الصليب الذهبى الكبير الذى كان قد تم وضعه فوق أعلى نقطة فى قبة الصخرة.

وسرعان ما بات الصليب رمزا لكل نوع من الدنس والتلويث المرتبط بالفرنج، كان هذا الامتعاض المسلم قائما، فى جزء منه على الأقل، على حقيقة الحياة اليومية فى الممالك الصليبية حيث حلت الصور المسيحية محل التجريد الإسلامى. كان هذا

العرض العلنى مزعجًا جدًا للمسلمين. وهناك كثير من الممارسات مثل تبجيل الصليب، والصور والتماثيل وما شابهها، كانت بين المسيحيين المحليين الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى قبل احتلال الصليبيين لفلسطين وبعده. وعلى أية حال. كان المسيحيون الذين يعيشون فى العالم الإسلامى ممنوعين عادة من إظهار التجليات السمعية والبصرية للمسيحية: فلا أجراس تدق لجمع المسيحيين، ولا صلبان فوق كنائسهم. ولا مواكب عمومية. وباختصار لا شىء يسىء إلى حساسيات الأغلبية. وهكذا لم يكن المسلمون عادة يواجهون بالعبادة المسيحية. التى كانت خفية إلى حد كبير. وقد جاء النصر العام للمسيحية، خاصة فى تلك الوفرة من الكنائس والأضرحة الجديدة التى بنيت فى جميع أنحاء فلسطين، صدمة بصرية ونفسية [٧١]. كان هناك الكثير من الكنائس والأضرحة قبل سنة ١٠٩٩م ولكن فى ذلك الحين كانت سرعة الأبنية الجديدة جامحة ولم تتباطأ على مدى ستة عقود أو سبعة. لقد تمت توسعة الضريح المقدس ليصبح كنيسة للحجاج ضخمة على الطراز الرومانسك **Romanesque**. تحرس أعظم ضريح فى العالم المسيحى. وكان المسجد المسمى الحرم الشريف (قبة الصخرة) قد ترك سليما من الناحية المادية ولكنه غطى بأعمال الفريسكو فى الخارج وبالصور المسيحية فى الداخل، وإذا تم تحويله إلى كنيسة قدس الأقداس معبد الرب (**Templum Donimi**) فقد تم تكريسه يوم عيد الفصح سنة ١١٤١م. وكان إضفاء الطابع المسيحى على المدينة ماديًا مصحوبًا بالتغير الذى طرأ على سكانها. فقد حرم المسلمون واليهود من العيش داخل أسوار المدينة. بحيث صارت القدس آنذاك مدينة مسيحية، بل اكتظت الأحياء المسلمة واليهودية القديمة بالمهاجرين والحجاج القادمين من الغرب[٧٢].

وعلى مدى القرون، باستثناء بعض المناسبات النادرة وبغض النظر عمن كان يحكم المدينة، كانت القدس فضاءً محايدًا. فقد كان اليهود والنصارى والمسلمون قد عقدوا نوعًا من السلام الربانى. وكان بوسع الحجاج أن يتعبدوا فى أماكنهم المقدسة، وكان يمكن للباحثين عن العلم أن يقتربوا من الله أكثر من خلال الدراسة. وفى بعض الأحيان تطور نوع من الأكاديمية غير الرسمية، حيث كانت الديانات المختلفة يمكن

أن تناقش موضوعات الإيمان. وقد قاطعت الحملة الصليبية الأولى والمملكة اللاتينية التى قارب عمرها قرنًا من الزمان ذلك التراث الطويل. ولكنها خلقت أيضا إحساسًا جديدا بالغضب والقلق فى كل من العالم المسيحى الغربى والعالم الإسلامى فى البحر المتوسط. وتكمن جذور هذا الغضب والقلق فى مرحلة أسبق زمنيًا. فى القرن السابع الميلادى، فلابد أن الصورة السلبية للكافر كانت موجودة فعلاً داخل المجتمع الأوربى قبل القرن الحادى عشر. ولا يمكن لشىء غير هذا أن يفسر الاستجابة غير العادية لدعوة أوربان. ولكن هذا لم يكن الخطاب السائد. وبعد الحملة الصليبية الأولى، كان هو الخطاب السائد فى الشرق وفى الغرب على السواء. وفى أثناء الاحتلال الصليبى للقدس، من سنة ١٠٩٩م إلى سنة ١١٨٧م، زادت استعمالات مجاز الدنس وما نتج عنها من الحاجة إلى التطهر فى كتابات الكتاب المسلمين. وكانت فى نغمتها، إن لم يكن فى مضمونها، مماثلة لردود الفعل الغربية لاحتلال المسلمين القدس فى السنوات السابقة على غزو سنة ١٠٩٩م ومرة أخرى فى القرون التى أعقبت استرداد المسلمين المدينة سنة ١١٨٧م .

لقد استثار الاسترداد الإسلامى للمدينة كثرة من الاستجابات المختلفة فى الغرب وبحلول أربعينيات القرن الرابع عشر، كان بوسع الدارس والمبشر الدومينيكانى البارز روبرت هولكوت Robert Holkot أن يجادل بأن «ليس ممكنا تعليم حياة المسيح سوى بتدمير destrundo et reprobando دين محمد ولعنته»[٧٣] وأكد أكثر من ذلك على أن الإسلام ينبغى استئصاله بالتبشير «والسيف الروحى» على السواء، وإذا لزم الأمر فبالغزو والإبادة. كما لم يكن هولكوت شخصا غير مهم. فقد نمت شهرته بعد موته سنة ١٣٤٩م كما أن كتابه «دراسة فى كتاب الحكمة». الذى تضمن هذه الإدانة، طبع عشرين طبعة فيما بين سنة ١٤٨٠م وسنة ١٥٢٠م [٧٤]. ولكن كان هناك آخرون. مثل وليم الطرابلسى William of Tripoli الذى كتب فى عكا، والذى آمن إيمانًا راسخًا بإمكانية تحويل المسلمين بوسائل سلمية إلى الحياة المسيحية. وقد اختتم كتابه De State Saracenorum (حالة المسلمين) بتأكيده الواثق. «فقط بكلمة الرب وحدها. دونما جدل فلسفى ودون أسلحة عسكرية، سوف يسعون مثل قطيع

بسيط من الخراف إلى معمودية المسيح وسوف يدخلون فى شعب الرب. ومن يقول ويكتب هذا هو الذى بإرادة الرب قد عمَّد أكثر من ألف» [٧٥].

بيد أن ثقته فى التنصير لم يشاركه فيها كثيرون. وكان النمط الأكثر شيوعًا يتمثل فى الدارسين الذين ساورهم الشك حتى فى الرغبة فى التنصير. والفرنسسكانى ألكسندر هاليسى Alexander of Hales فى كتابه Summae Universae Theologiae الذى صدر فى سنة ١٢٥٦م قد صنف المسلمين مع الهراطقة الموصومين وصمة لا شفاء منها بكفرهم ومن ثم يجب قتلهم بواسطة أية سلطة قانونية. وقد اقترح بينوا ألينيان Benoit of Alignan فى كتابه Tractatus fidei أن «سخافات محمد» يجب استئصالها «بالنار والسيف» [٧٦]. ولكن أحدًا من الدارسين لم يشرْ إلى أن حقيقة وجود الإسلام لا يمكن تجاهلها أبدا. كانت هذه «الأسطورة الذائعة للحملة الصليبية» التى اقتفى آثارها ألفونسى دوبرونت Alphonse Dupront من خلال كتاب حياته وهو كتاب تاريخ يكاد يكون على غرار كتاب جيبون فى مداه. هذه الأسطورة، على حد تعبيره، صارت «حقيقة مستوطنة، وهو شرط دائم للروح الجماعية» [٧٧]. ولكن الحملات الصليبية فى العصور الوسطى، مثل التوسع العثمانى فى البلقان والحصارين الكبيرين لفيينا (١٥٢٩، ١٦٨٣م)، كان لهما تأثير مزدوج. فقد غيرّت الغرب، ولكنها أيضا حولت مظهر الشرق.

هوامش الفصل السابع

١- هذا يختلف عن التاريخ "الوطنى" الشائع فى كثير من المجتمعات. وفى إسبانيا تنافس تفسيران متصارعان على الأرض الوطنية نفسها . انظر:

and Meron Benvenisti . Sacred Landscape: ١٥-٢ .Glick. Islamic . pp Berkeley . CA University . ١٩٤٨ The Buried History of the Holy Land Since . ٢٠٠٠ of California Press

وهناك أيضا فصل جيد كتبته بياتريس كاسو:

Beatris Caseau . " Sacred Landscape" in Glenn Bowersock and Oleg Grabar (eds.) . Late Antiquity . A Guide to the Past Classical ،١٩٩٩ .World. Harvard. MA: Belktap Press of Harvard University Press . ٥٩-٢١ .pp

(p. ٣٨٥)

2. See Anzulović, *Heavenly Serbia*, p. 22.
3. Many of the cities of the Levant and Anatolia had sites associated with the heroic early days of Christianity and were accordingly treated with reverence.
4. *Recueil des chartes de l'abbaye de Cluny*, cited in Dupront, *Mythe*, vol. 3, p. 1361.
5. The common Arabic term for the city, *Al-Quds*, refers to its sanctity. Later the sacred terrain was extended to the area immediately around the city to become the Holy Land, *al-ard al-muqaddasa*. After Saladin's reconquest this latter term was used to include the whole 'Holy Land', roughly as Christians conceived it. See Hillenbrand, *Crusades*, pp. 301–2.
6. See Gil, *History*, pp. 622–6.
7. Jerome, Epistle 46:9: 'Time forbids me to survey the period which has passed since the Lord's ascension, or to recount the bishops, the martyrs, the divines,

who have come to Jerusalem from a feeling that their devotion and knowledge would be incomplete and their virtue without the finishing touch, unless they adored Christ in the very spot where the gospel first flashed from the gibbet.'

8. Jerome, Epistle 108, which is the longest of his letters and where he describes Paula's journey through the Holy Land.
9. Cited Gil, *History*, pp. 285–7.
10. It has been estimated that it cost a year's income or more to undertake a pilgrimage. See J. Sumption, *Pilgrimage*, London: Faber, 1975, pp. 169, 205–6.
11. R. Röhricht, *Die Deutschen im Heiligen Lande: Chronologisches Verzeichnis derjenigen Deutschen, welche als Jerusalempilger und Kreuzfahrer sicher nachzuweisen oder wahrscheinlich anzusehen sind c. 650–1291*, Aalen: Scientia-Verlag, 1968 (new edition of 1894 edition), cited in Gil, *History*, p. 483.
12. This is Sir John Keegan's image, in our joint book *Zones of Conflict*, and I am grateful to him for it.

١٣– كان حكام القاهرة الفاطميون من المسلمين الشيعة بيد أن الأزهر كان يجذب دائمًا الطلاب والمدرسين من كافة أنحاء العالم الإسلامى.

١٤– هناك أدبيات ضخمة عن النماذج المختلفة للإيمان فى الإسلام ، ولا أقترح أن أحدد الفروق هنا. وسوف أشير إلى أنها كانت تمثل اتجاهات مختلفة فى الإيمان، والممارسة السياسية والاجتماعية ، داخل الإطار الكلى للإسلام الذى تم اعتناقه بمرور الزمن، وكان يؤدى فى بعض الأحيان إلى المزيد من الانقسامات والانقسامات الفرعية. ويؤكد مؤرخو الإسلام المحدثون أيضا على تقاليد الصوفية ، وتقاليد مختلف الدراويش ، "الإسلام الشعبى" التى كانت تدخل العبادات المحلية والممارسات المحلية. وبالإضافة إلى هذا، كان هناك فيما بعد تقاليد تنسكية مثل الوهابية فى القرن الثامن عشر فى شبه الجزيرة العربية. من أجل تحديد واضح انظر:

. Lapidus ، History

15. Although sectarian issues played some part, Sunni rulers fought Sunni rulers with the same verve that they confronted the Shia ones.
16. This is from the fifteenth-century *Kitat* by Al-Maqrizi, cited in Elizabeth Hallam (ed.), *Chronicles of the Crusades: Eyewitness Accounts of the Wars between Christianity and Islam*, Godalming: Bramley Books, 1996, pp. 22–5.
17. Gil, *History*, pp. 379–80. He notes that Al-Hakim may have regarded himself as the *mahdi*, 'redeemer', who had come to save and rescue Islam. Others simply considered him insane.

18. The history of this document is chequered. Carl Erdmann considered that it was contemporary with the destruction wrought by Al-Hakim. Later scholars, like Gieysztor, suggested that it was confected by the monks of Moissac at the time that Urban II was promoting the First Crusade. However, more recently Schaller has reinterpreted the whole issue and considers it authentic. Regardless of its date, it indicates the horror with which the destruction of the Holy Sepulchre was greeted. See Erdmann, *Origin*, pp. 113–17; A. Gieysztor, 'The Genesis of the Crusades: The Encyclical of Sergius IV (1009–1012)', *Medievalia et Humanistica* 5 (1948), pp. 3–23, and 6 (1950), pp. 3–34; H. M. Schaller, 'Zur Kreuzzugsenzyklika Papst Sergius IV' in H. Mordek (ed.), *Papsttum, Kirche und Recht im Mittelalter: Festschrift für Horst Fuhrmann zum 65 Geburtstag*, Tübingen: M. Niemeyer, 1991, pp. 135–53.
19. Marshall W. Baldwin, *A History of the Crusades: The First Hundred Years*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1958, pp. 76–7.
20. See Gil, *History*, p. 487.
21. 'The centrality of the bare scriptural word in liturgy, catechism and sermon receded before the elaboration of the church liturgical tradition. Thus the Word was available to the rank and file mainly through the evolved forms of the liturgy, biblical storytelling, or biblically inspired art, and much less, if at all, through substantial reading, recitation and study of the holy words themselves.' See Graham, *Beyond*, p. 120.
22. The only parable that lacks a sense of precise topography is where Jesus was tempted by the Devil.
23. I am grateful to the Rev. David Batson for explaining the issue of relics to me.
24. See Cohn, *Pursuit*, pp. 64–5.
25. This is taken from the account of Urban's Clermont speech by Robert the Monk from a work called the *Historia Hierosolymitana*. He was present at Clermont, but the text was written much later. I have used the online version @ www.wwnorton.com / nael / nto / middle / crusade / clermontfrm.htm
26. Robert the Monk claimed to have been present on the day although he composed his version about a quarter of a century after Clermont, and with the *Gesta Francorum* (*The Deeds of the Franks*, written about 1100, an account of the First Crusade) before him. But the details unconsciously reveal Urban's rhetorical skill and are thus convincing. See August C. Krey, *The First Crusade: The Accounts of Eyewitnesses and Participants*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1921, pp. 33–6.
27. 'This, made of any kind of cloth, he ordered to be sewn upon the shirts, cloaks, and byrra of those who were about to go.' See ibid., pp. 36–40.

٢٨- حسب رواية روبير الراهب فإنه عندما سمع أوربان الرد على دعوته بحمل السلاح بصيحات مرحبة «الرب يريدها.. الرب يريدها» شكر الرب، ولوح بيده طالبًا الصمت وقال: «ما لم يكن الرب حاضرًا في أرواحكم ، لما نطقتم جميعًا بالصيحة نفسها. ومن ثم فإنني أقول لكم إن الرب ، الذي زرع هذا في صدوركم ، قد أخرج منكم هذه الصيحة. فلتكن هذه صيحة الحرب لكم في القتال لأنها أعطيت لكم بواسطة الرب. وعندما تشنون هجومًا مسلحًا على العدو؛ فلتدوى هذه الصيحة من جميع جنود الرب «إنها إرادة الرب، إنها إرادة الرب».

29. Curiously, the anthropologist Roy Wagner, who coined the phrase 'Symbols that stand for themselves', bypassed the cross when searching for the core symbol of the West. In fact it meets his needs much better than the Eucharist, which he selected. See Wagner, *Symbols*.
30. Cited by Dana C. Munro, *Urban and the Crusaders: Translations and Reprints from the Original Sources of European History*, vol. 1:2, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1895, p. 20.

٣١- كانوا قد استخدموا صورة عدو كافر لابد من هزيمته وتدميره مهما كان الثمن. وكان أول من عاني من هذا الإفراط في تصوير العدو المتوحش هم اليهود في مدن حوض الراين. كانت الدوافع الأولية للصليبية هي السرقة والنهب، ولكن تحت هجومهم الوحشي، الذي يبرز في جميع المصادر، اللاتينية والعبرية، كانت هناك كراهية لشعب كان قد أنكر المسيح ، مثلما فعل الكفار الذين احتلوا القدس . وقد قُتل أكثر من ألف يهودي من الرجال والنساء والأطفال قتلوا فيماينز وأكثر من ذلك بكثير في مدن بعيدة مثل براج التي فتحت أبوابها للصليبيين. وعندما مروا خلال المجر في طريقهم إلى الشرق، عامل الصليبيون السكان المحليين كما فعلوا مع اليهود . وفي إحدى القرى أمسكوا بشاب مجري لم يستطع أن يخبرهم أين يمكن أن يجدوا الطعام وخوزقوه . انظر:

Runciman . History. vol . I. pp. ١١٦ .

(p.٣٨٨)

32. See Runciman, *History*, vol. 1, pp. 106–7.
33. There were many foreigners in Byzantine service, most notably the Varangian Guard, composed first of Norsemen, and later of Normans. After 1066, many Anglo-Saxons left England and made a new life in the East.
34. Nor did the Church approve of the massacres of Jews in the Rhineland by the popular Crusade. See Jacob R. Marcus, *The Jew in the Medieval World: A Source Book 315–1791*, New York, NY: Harper & Row, 1965, pp. 115–20.
35. Lyons, 'Crusading Stratum', pp. 147–61.
36. *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades: Memoirs of Usamah ibn-Munqidh*, trans. by Philip K. Hitti, New York, NY: Columbia University Press, 2000, pp. 120–21.
37. *Gesta Francorum*, cited in France, *Victory*, p. 277.
38. The Church of St Peter was being re-consecrated after its use as a mosque. Some doubted the authenticity of the relic but kept silent, because this manifest token of Divine favour suddenly restored the spirits of the Crusaders.
39. Even the fresh horses that had been gathered along the way had mostly expired and been eaten.
40. Kerbogha's army comprised many different detachments, including infantry spearmen and archers.
41. H. A. R. Gibb, *The Damascus Chronicle of the Crusades, Extracted and Translated from the Chronicle of Ibn Al-Qalanisi*, London: Luzac and Co., 1932, p. 47.
42. Harold S. Fink, *Fulcher of Chartres: A History of the Expedition to Jerusalem 1095–1127*, Knoxville, TE: University of Tennessee Press, 1969, pp. 112–13.
43. Ibid., p. 106.
44. Cited in Hillenbrand, *Crusades*, p. 71.
45. For the images of Jerusalem, see Dupront, *Mythe*, vol. III, pp. 1361–4.
46. There are suggestions that a Crusader embassy was negotiating in Cairo for a Christian protectorate over the city, such as the Byzantines had previously exercised, and as Emperor Frederick II was to conclude in 1229 for a period of ten years.
47. See Runciman, *History*, vol. 1, pp. 226–7.
48. The often quoted statement that the Crusaders walked 'up to their knees in blood' was a metaphor. The similarity between so many of the descriptions of killing and atrocity, notably in the capture of Constantinople by the Crusaders in 1204 and then by the Ottomans in 1453, suggests that many of these statements are stylistic and not intended to be taken literally. See August C. Krey, *The First Crusade: The Accounts of Eyewitnesses and Participants*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1921, pp. 257–62.
49. *Gesta Francorum*, cited by Elizabeth Hallam (ed.), *Chronicles of the Crusades: Eyewitness Accounts of the Wars between Christianity and Islam*, Godalming: Bramley Books, 1996, p. 93.

50. See France, *Victory*, p. 356.
51. See Runciman, *History*, vol. 2, pp. 237–64.
52. For a good introduction to this topic, see Christopher Tyerman, *The Invention of the Crusades*, Basingstoke: Macmillan, 1998. By the late eighteenth century, the future president of the young United States, Thomas Jefferson, had turned the word into a figure of speech, calling for a 'crusade against ignorance'.

٥٣- "الحرب المقدسة" التى تم خوضها ضد هؤلاء الذين ينظر إليهم على أنهم أعداء خارجيون أو داخليون للمسيحية من أجل استرداد الأملاك المسيحية أو دفاعًا عن الكنيسة أو الشعب المسيحى. انظر:

Riley – Smith . Short History . p. XXVIII

وكانت هناك محاولات للحد من هذه القوة التكفيرية عن الذنوب. وكان مارسيليون من بادوا الوحيد الذى هاجم إساءة استخدام البابوية لهذا الحق لبدء حملة صليبية.

(p.٣٩١)

53. 'A holy war fought against those perceived to be external or internal foes of Christendom for the recovery of Christian property or in defence of the Church or Christian people'; see Riley-Smith, *Short History*, pp. xxviii–xxix. There were attempts to limit this plenary power, and Marsilio of Padua was only the most notable figure who attacked papal misuse of this right to initiate a Crusade.
54. Meeting of the Bishops at Narbonne, 1054, cited in Marc Bloch, *Feudal Society*, trans. L. A. Manyon, London: Routledge and Kegan Paul, 1962, p. 413.
55. It was possible for a nation to be Islamic in belief but not under true and authorized Islamic rule. Thus rebels or Islamic enemies are often characterized as 'apostates' (*ridda*) and falling outside the protection of the faith. On this topic see the references cited by Fred M. Donner in his article 'The Sources of Islamic Conceptions of War' in Johnson and Kelsay (eds), *Just War*, pp. 31–69. In their survey article 'The Idea of the Jihad before the Crusades', Roy Mottahedeh and Ridwan al-Sayyid present convincing evidence that there was a multiplicity of interpretations for the lesser *jihad*. See Angeliki E. Laiou and Roy Parviz Mottahedeh (eds), *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, Washington, DC: Dumbarton Oaks, 2001.
56. The concept of War to enforce this Peace was criticized by Moulavi Cheragi Ali in *A Critical Exposition of the Popular Jihad*, Karachi: Karimsons, reprint of 1885 edition, n.d., pp. 157–9: 'It is only a theory of our Common Law, in its military and political chapters, which allow waging unprovoked war with

non-Muslims . . . The casuistical sophistry of the canonical legists in deducing these war theories from the Koran is altogether futile . . . Neither of these verses had anything to do with waging unprovoked war and exacting tributes during Mohammad's time nor could they be made a law for future military conquest.'

57. That is: *al-jihad al-akbar.*
58. That is: *al-jihad al-asghar.*
59. See Peters, *Islam*, pp. 4–5. He goes on to make the more contemporary point: 'Nowadays that image has been replaced by that of the Arab "terrorist" in battledress, armed with a Kalashnikov gun and prepared to murder in cold blood Jewish and Christian women and children.' The popular film *The Siege* (1998), which depicts the United States traumatized by Arab terrorism in New York, is a powerful example of this tendency; the mass murders at the World Trade Center on the morning of 11 September 2001 come into the same category as the killings in Jerusalem in 1099 in the history of atrocity.
60. See Johnson, *Holy War.*
61. The division between the Sunni and Shia branches of Islam in the seventh century had already created major divergences within Islam. Thus Shia scholars never accepted that interpretation was a closed issue.
62. This is Bernard Lewis's expression. See Lewis, *Political Language*, p. 129.
63. See Bonner, *Aristocratic Violence*, pp. 155–6.
64. See Hillenbrand, *Crusades*, pp. 304–8, and Lewis, *Discovery*, p. 22.
65. The point at which they came to be called *saliba*, 'crosses', is difficult to determine precisely.
66. Gabrieli, *Arab Historians*, pp. 77–8.
67. See Hillenbrand, *Crusades*, p. 280.
68. 'Tale of Umar b. Numan', *The Book of One Thousand and One Nights*, 4 vols, trans. J. C. Mardrus and Powys Mathers, London: Routledge, 1994, vol. 1, p. 442.
69. Imad al-Din al-Isfahani, *Kitab al-fath*, cited and translated in Hillenbrand, *Crusades*, p. 290. I wonder whether the stabling of horses in Al-Aqsa was either the source of the story for the Ottomans stabling horses in the Holy Sepulchre, or a memory that provoked them to do it.
70. Ibn Wasil, *Mufarrij al-kurub*, cited and translated in Hillenbrand, *Crusades*, p. 291.
71. On the building of Muslim Jerusalem and its transformation, see Oleg Grabar, *The Shape of the Holy: Early Islamic Jerusalem*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996.
72. For the near-complete separation of Muslim and Latin Christian societies in Palestine, see Benjamin Z. Kedar, 'The Subjected Muslims of the Frankish Levant' in Powell (ed.), *Muslims*, pp. 135–74.

73. *Postilla super librum sapientiae*, c.5, lecture 65: '*Non enim est possibile docere vitam Christi nisi destruendo et reprobando legem Mahometi*.' On Holkot, see Kedar, *Crusade*, pp. 188–9.

74. It had been much copied in the scriptoria, and the early editions appeared in Reutlingen, Speyer, Cologne and Basel; Holkot remained in print well into the seventeenth century.

75. Translated and cited in Throop, *Criticism*, p. 122.

76. See Kedar, *Crusade*, p. 189.

77. Dupront, *Mythe*, vol. 2, p. 976. The more than 2,000 pages of Dupront's work *Le Mythe de croisade* constitute one of the great works of modern historiography, but Dupront understood (and the book was published after his death) that he was able to explore only part of the vast spider's web of connections that he uncovered.

(٨)

الغزو والاسترداد

ولدت الحملة االصليبية الأولى من رحم الخوف. فقد اعتقد أوربان الثانى أن الأرض المقدسة كانت فى خطر واستجاب العالم المسيحى لدعوته. وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية اللاحقة إلى الشرق كانت إلى درجة كبيرة نتاجا للطموحات السياسية والتوسعات الإقليمية، فإن العنصر الداخلى لم يختف أبدا. فقد نمت المخاوف، من خلال الاتصال مع الشرق وازدياد انشغال الغرب بالإسلام. وبينما رأى المسلمون منبعا للدنس فى المسيحيين الفرنج، كذلك أيضا كان المسيحيون فى ذلك الحين يلومون المسلمين بسبب المد المتصاعد للفساد فى العالم المسيحى[١]. وشكى رجال الكنيسة من أن الناس فى المملكة اللاتينية كانوا يتبعون الأساليب الفاجرة للشرق، ويرتدون ملابس غير مسيحية ويسلون أنفسهم بالنساء المسلمات. إذا ما كان لنا أن نصدق جيمس الفيترى: «بين البولانى (أبناء الصليبيين الذين ولدوا فى الأرض المقدسة. لا يكاد يكون هناك واحد فى الألف يأخذ زواجه مأخذ الجد. فهم لا يعتبرون الزنا خطيئة مميتة. فمنذ الطفولة وهم يدللون وينغمسون فى المتع الجسدية، حيث إنهم ليسوا معتادين على سماع كلمة الرب، التى يتجاهلونها بخفة وطيش. والمدينة (عكا) مليئة بالمواخير ولأن الإيجار الذى تدفعه العاهرات أعلى. فإنه ليس فقط. العلمانيون، ولكن حتى رجال الكنيسة، بل حتى الرهبان، يؤجرون بيوتهم فى جميع أرجاء المدينة إلى العاهرات»[٢].

ولم يكن هناك مكان كانت فيه هذه الأفكار عن الدنس مطروحة بشكل أكثر وضوحًا من أفينون فى ربيع سنة ١٣٣٥م. ففى فبراير سقط قس فى منتصف العمر اسمه أوبيكينوس كانيسترس Opicimus de Canistris مريضًا على حين غرة. ورقد فى سريره حتى نهاية شهر مارس، عندما شفى فجأة، بعد أن رأى رؤيا، حسبما قال، عن العالم. وقد ترك مرضه خللًا فى عقله وأصيبت ذراعه اليمنى بالشلل. وانتهى مساره الوظيفى الرسمى سكرتيرا بابويا فى القصر البابوى. ومع هذا، تعلم أن يستخدم ذراعه اليسرى، وبدأ يكتب ويرسم بصورة متهورة. وعلى مدى الشهور القليلة التالية ملأ أكثر من اثنتين وخمسين قطعة كبيرة من الرق. وعند تلك اللحظة اختفى من على مسرح التاريخ. إذ إن تاريخ موته غير مؤكد. واختفى ما كتبه فى السجلات البابوية حيث بقى غير مكتشف على مدى ستمائة سنة تقريبا.

كان أوبيكينوس قد بات مهووسا بخطيئته ورغبته الخاصة. ففى أثناء مرضه بدأ يرى أشكالًا ثلاثة ضخمة تتوارى خلف معالم خريطة عالم البحر المتوسط. فكان أحدها ذكرًا، والآخر أنثى، وكان الثالث شيطانيا ملتحيًا وحشيًا. وقد رسم أشكاله المشوهة على خط الساحل، وفى اعتقاده أن الرب خلق الأرض لغرض ما، وأن رسالته كانت واضحة بحيث لا يخطئها أحد. هكذا قدم أوبيكينوس البحر المتوسط باعتباره بحر الخطيئة. وعلى خط الساحل الشمالى (أوربا) وخط الساحل الجنوبى. أفريقيا) رسم بالحبر رأسين لشكلين توأم، أحدهما لذكر والآخر لأنثى، وجعل لهما وجهين، وملابس، وأذرع وسيقانًا. تناسبت مع الطبوغرافية الأطراف السفلى بشكل أكثر دقة. فكانت إيطاليا تناسب شكل الساق اليمنى والحذاء ذى الرقبة لشكل أوربا، ولكن الساق اليسرى انتهت بشكل غير مضبوط فى قلب بلاد اليونان. ومهما كان الأمر، فإن الذروة حيث تكاد تتلامس الرأسان كانت مركز اهتمامه. فقد أوضح أوبيكينوس أن هذا لم يكن جوارًا بالصدفة. لقد كانوا متعمقين فى الحوار الجسدى[٣].

ورسم على الساحل الأفريقى شكلًا أنثويًا فى الملابس المراكشية، وكانت بذراعيها اللتين تشيران باتجاه بطنها (الحجاب الحاجز)، من المفترض أنها تهمس

فى أذن أوربا: "تعال، نتضاجع"[٤] والكلمة اللاتينية التى استخدمها commisce mini . تحمل معنى الاختلاط المحظور، وأعلن أوبيكينوس عن مضيق جبل طارق: "بين إسبانيا وموريتانيا يوجد vulva oceani فرج المحيط الذى يمر فيه البحر المتوسط" [٥] كان المشهد الذى استحوذ عليه هو ارتباط امرأة مسلمة مغرية وأوربا طاهرة انحرفت عن سبيل الفضيلة. لقد كان هذا حقًا عمل الشيطان. وعند الناحية الأخرى من البحر المتوسط، رأى رأس الشرير، شكل قاتم احتل الشطر الشرقى من البحر المتوسط ووجهه يغطى منطقة شرق المتوسط والأراضى التى يحتلها المسلمون، ولحية كاملة تصل إلى حافة البلقان.

صار أوبيكينوس منشغلًا بهذه المعانى الأعمق فى أرض المنطقة. فقد توصل إلى أن يرى كل حادثة فى حياته المضطربة كما لو كانت مرسومة على الخرائط أمامه. ورويدا رويدًا صار هو أوربا الرجل، الذى يناضل ضد الإغواء. وعندما أصيب بالمرض فهم متاعبه باعتبارها رمزا للمتاعب السياسية التى ابتليت بها لمبارديا. وبفحص نماذج الشعر على جسده أدرك أنها "دالة" على موضع بساتين الكروم فى جميع أنحاء أوربا[٦]. وقد ازداد انشغاله بالرغبة الجنسية والشر قوة عن ذى قبل. وصارت المرأة، أفريقيا" رمز الخطيئة، والنفاق وما إلى ذلك". على حين أن الرجل، أوربا يمثل "الطهارة والخلاص أو التقوى"[٧]. وقد لعب بالارتباط بين السواحل الشمالية والسواحل الجنوبية. ففى بعض الأحيان كانت أفريقيا ذكرًا فحلًا وأوربا الأنثى الضعيفة أمام الإغواء. ولكن فى معظم رسوماته، كانت أفريقيا ترتدى ملابس امرأة مسلمة: فكانت المرأة، أفريقيا، بطبيعة الحال، كافرة. وكان العالم المسيحى قد تدنس بسبب جواره مع أفريقيا وشرق المتوسط. كان هذا معنى المرأة، أفريقيا والشكل المعتم للشر. وكانت هناك الأرض التى يحتلها "الإسلام". والقدس نفسها ترقد تحت جسد الشر، على حين كانت إسبانيا تتعرض للغواية.

وقد عبر أوبيكينوس (فى شكل متطرف) عن رابطة مشتركة بين الشرق المسلم بالخطر والفساد. وقد أكدت التجربة التى مر بها شرق المتوسط على مدى القرنين

اللذين شهدا الاحتلال الصليبى المعتقدات التى كانت قد استفزت الدافع الصليبى فى المحل الأول. إذ كان الصليبيون الأوائل قد كرسوا أنفسهم لخلاص الأرض المقدسة، التى اعتقدوا أنها كانت معرضة لخطر التدمير. هذا الشعور بالتهديد تزايد عندما وصلوا إلى الشرق وهذا القلق تنامى خلال الفترة التى شهدت الوجود الصليبى كلها. كانوا قلة وكان الكفار كثرة "حيثما يكون لدينا كونت يكون للعدو أربعون ملكًا. وحيثما يكون لنا فارس يكون لهم دوق... وحينما يكون لنا قلعة يكون لهم مملكة"(٨).

هذا الشعور بالضغط، من جانب أقلية مسيحية غربية ضئيلة تغرق فى بحر من الكفار، كان حقيقيًا ومختلقًا في آن معًا. وقبل قرن من حياة أوبيكينوس الكانيستريسى، لاحظ المؤرخ روجر الفندوفرى Roger of Wendover فى خطاب مكتوب من مدينة عكا سنة ١٢٢١م، "نحن والشعوب الأخرى على ناحيتنا من الماء تحت ضغط كبير جدًا ونفقات عظيمة في القيام بهذه الحملة الصليبية. لدرجة أننا لن نكون قادرين على توفير نفقاتنا الضرورية للاستمرار ... إذا لم تتداركنا الرحمة الربانية ونتلقى قريبًا المساعدة من رفاقنا المسيحيين" (٩). ومع هذا كان الوجود فى الشرق ضرورة جوهرية لتدعيم انتصار المسيح. ولهذا السبب امتدح شاعر مجهول حملة لويس التاسع ملك فرنسا فى منتصف القرن الثالث عشر باعتبارها وسيلة "لتعميد سلطان الأتراك، وبذلك يتم تحرير العالم" (١٠).

فى فلسطين وفى إسبانيا، كان الإسلام والمسيحية يتنافسان من أجل الأراضى نفسها. ومع هذا كان هناك فارق دقيق. فالأندلس ترقد على الطرف الخارجى للعالم الإسلامى، ولم تكن لها الأهمية الخاصة للمسجد الأقصى فى القدس، حيث أسرى بالنبى محمد فى رحلة إعجازية ليلًا، ثم أخذ إلى السماء(١١). وزعم المسيحيون الإسبان أن إسبانيا هى الأرض المقدسة الخاصة بهم بحق الأسبقية، التى كان المسلمون فيها دخلاء مؤقتين. وعلى النقيض من ذلك زعم المسلمون واليهود والنصارى جميعا لأنفسهم حقوقًا كاملة فى أرض فلسطين التى يبجلها أتباع الديانات الثلاث جميعًا. وعلاوة على ذلك، فى كل حالة، كانت عملية خسارة هذه الأرض واسترجاعها فيما بعد

قد صارت موضوعًا دينيا وأدبيا متكررًا. فقد ولدت خسارة المسلمين للأماكن المقدسة فى القدس، منذ سنة ١٠٩٩إلى ١١٨٧م انشغالاً كثيفًا بالعدو المسيحى الكافر.

وقد خلقت المواجهة بين العالم المسيحى الغربى والعالم الإسلامى بعد سنة ١٠٩٩م تراثًا من الذم والقدح فى كل من الجماعتين. فكل معركة، وحصار، أو تدنيس أو نهب. كانت وقودًا للسرديات المعادية. وهكذا بدا أن استرداد كونتية الرها سنة ١١٤٤م على يد عماد الدين زنكى حاكم الموصل تدخل إلهى بالنسبة للمؤرخ المسلم ابن الأثير الذى قال إن الله القدير رأى أمراء المسلمين...وكيف قصرت همتهم عن دعم الدين الحق والدفاع عن المؤمنين بالله الواحد الأحد ورأى خضوعهم لعدوهم وقسوة طغيانهم .... وأراد عندها أن يرسل على الفرنج واحدًا يمكنه مبادلة الشر فى أفعالهم ويرسل لشياطين الصلبان. أى المسيحيين الغربيين، حجارة من عنده لتدميرهم والقضاء عليهم[١٢].

وبالنسبة للأسقف وليم الصورى، ضاعت المدينة بسبب الإخفاقات المسيحية. المشاجرات التافهة بين الأمراء المسيحيين والإهمال فى العالم المسيحى للميراث المقدس فى الشرق:. وهكذا بينما أمير أنطاكية. الذى تحكمت فيه الكراهية الحمقاء، تأخر فى تقديم المساعدة التى يدين بها لإخوته وبينما انتظر الكونت المساعدة من الخارج. انتقلت مدينة الرها القديمة، المكرسة للمسيحية منذ زمن الحواريين وتحررت من خرافات الكفار من خلال الكلمات التى بشر بها الحوارى ثادايوس، إلى عبودية لا تستحقها[١٣].

وقد دفعت خسارة الرها الغرب إلى شن الحملة الصليبية الثانية التى قادها الإمبراطور الألمانى كونراد الثالث Conrad III والملك لويس السابع louis VII ملك فرنسا. وقد رسم ستيفن رنسيمان Steven Rumciman خارطة صعود الحملة ثم سقوطها المشين:

"ليس هناك مشروع غربى لحملة صليبية بدأ بآمال أعظم من هذا. وقد خطط لها البابا، وتم التبشير بها وألهمتها فصاحة سان برنار St. Bernard الذهبية، وقادها

اثنان من حكام أوربا الغربية الكبار، ولهذا كانت واعدة بالكثير من المجد والخلاص للعالم المسيحى .... وفى الحقيقة أن الحملة الصليبية قد انتهت نهاية خائبة على أيدى قادتها. بسبب مشاكساتهم، وجهلهم وغباوتهم وعدم كفاءتهم"[١٤].

ولم يحدث لأية حملة صليبية تالية أن لبَّت التوقعات الكبيرة التى خلقتها الحملة الصليبية الأولى "الحج". ففى أثناء القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر تسببت سلسلة متتابعة من المغامرات الفاشلة في الدفع بعدد من الكتاب إلى التساؤل عما إذا كانت هذه الرحلات تنفيذًا لإرادة الرب حقًا. هل كان الرب سيسمح لها بالفشل على هذا النحو المشين والمخزى إذا ما كانت تنفيذًا لإرادته؟ وقد وجدت الكثير من الحلول المبتكرة لهذا اللغز. فقد نتج الفشل عن جوانب القصور العادية فى الحملات الصليبية نفسها وعن المجتمع الشرير الذى كان قد أنتجها. لم تكن جديرة باسترداد المدينة المقدسة. وشرح آخرون انتصارات «المسلمين الكفار» بأنها أداة يطهر بها المسيح شعبه الخاطئ ويدعوهم إلى الإصلاح. ولكن بالتدريج برز تفسير أكثر شمولًا، بدا وكأنه يناسب الظروف، كما أنه رتب الإسلام فى داخل العقيدة المسيحية.

فبالنسبة لكثير من الدارسين يمكن تفسير نجاح الإسلام فقط بطريقة عقلانية لو أن النبى محمدًا وأتباعه يمثلون المسيح الدجال، الذى كان ظهوره إيذانًا بانتصار المسيح النهائى فى مجيئه الثانى. وكان سان بولس قد أعطى هذه الفكرة القديمة تعريفا مسيحيا موجزًا: "لأنه لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولا ويستعلن إنسان الخطية ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلهًا أو معبودًا حتى إنه يجلس فى هيكل الله بصفته إلها مظهرًا نفسه أنه إله. [١٥] (رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكى ٢:٤. وبالنسبة للكثير من المسيحيين. فإن "إنسان الخطية" الواضح بذاته كان هو النبى محمد. وربط المسلمين بالمسيح الدجال جعلهم أعداء ألداء للمسيحيين، ولكن هذا أكد أيضا هزيمتهم فى نهاية المطاف. ومن الخطر أن نكون محددين أكثر من اللازم فى مسائل الإدراك والفهم. ولا حادث واحد. أو نص أو صورة واحدة يجب أن تقرأ خارج سياقها الأصلى، ولا يمكن أبدا أن نكون متأكدين من أن الوثائق القليلة المكتوبة

ليست ناجية بالصدفة. ومن ثم فهى مضللة) وباقية من الماضى البعيد. ولكن منذ فترة أواخر العصور الوسطى فصاعدًا، كان هناك تحول فى الصورة التى كانت لدى الجماعة المسيحية والجماعة الإسلامية عن كل منهما الأخرى. فقد كانت كل منهما عدائية وشكاكة، ولكن بينما كانت صورة الغرب عن الشرق تبدو فى حال دائمة من التغيير والتبدل، كان الموقف الإسلامى ثابتًا.

وأقرب ما يمكن أن يوصلنا إلى الموقف الشعبى يتمثل فى الحكايات عن الأبطال الفولكلوريين الذين يقضون على خصومهم، وهم من الصليبيين أحيانًا، وأحيانًا أخرى من البيزنطيين. وبالإضافة إلى الأبطال الفولكلوريين التقليديين من أمثال أبو زيد ورستم. كان هناك أبطال جدد وتاريخيون مثل السلطان الظاهر بيبرس السلطان المملوكى حاكم مصر، الذى طرد الفرنج فى النهاية من آخر معاقلهم فى المشرق[١٦](*).

وتراث هذه الحكايات هى الفانتازيا المسلية، وهى ما كان الناس يريدونه. أما الحكايات التى كانت مليئة بالدراما، والإثارة والشخصيات النابضة فكانت بضاعة الحكائين الجوالين المحترفين. ولهذا فإن "سيرة الظاهر بيبرس" عبارة عن تتابع طويل من المغامرات الجسورة غير الممكنة. فقد دافع السلطان عن الفقراء وأصلح الأخطاء. وكان ينتقل بطريقة سحرية إلى إنجلترا وكانت له الكثير من المواجهات التى تهز الوجدان. ومع هذا فإن تجربته مع المسيحيين تم تنميطها بـ "الخيانة" من جانب "جوان" . جون. الذى لقى فى النهاية جزاءه العادل على يدى السلطان. وفى ملحمة شعبية أخرى، "الأميرة ذات الهمة" . حتى أشجع الفرنج وصف بأنه. رجل شرير للغاية وغشاش"[١٧].

(*) هذه رؤية شعبية فى «سيرة الظاهر بيبرس»، وليست حقيقة تاريخية، لأن الذى قاد عملية الطرد النهائى للصليبيين هو السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م. (المترجم)

كان هؤلاء جميعًا أشرارًا مخزونين (لاستخدامهم عند الضرورة. ، تماما مثلما كان بيبرس بطلًا ذا بعد واحد. ولكن مثلما كان الغربيون يحددون ملامح شخصيات الرجال والنساء في الشرق، كانت هناك صور للكفار في مخيلة المسلمين يمكنهم معرفتها بسهولة لأنهم كانوا قد عرفوا بالفعل أن المسيحيين أشرار في جوهرهم. وكانوا قد سمعوا أن الفرنج خطرون، وخونة وأشرار، وفاسدون ماديًا وروحيًا. وفي النهاية لم يتبق الكثير من الإعجاب بشجاعة الصليبيين الذى كان قد ظهر في كتابات أسامة بن منقذ.

مثلت المواجهة التي ظهرت في شرق المتوسط صدمة عظيمة لكل من العالم المسيحى الغربي وعالم الإسلام في البحر المتوسط، مما ترك بصماته بعمق على كل من الثقافتين. فقد كان كل غزو يولد الرغبة في الاسترداد. ولكى نفهم كيف ولماذا استمر هذا الأثر موجودًا على مدى قرون عديدة. لا بد من الاستعانة بعلم النفس الاجتماعي، وعندها تتمثل الصعوبة في إيجاد مناهج تفسير ليست مفارقة زمنيًا أو غير مناسبة. وقد أرسى كيمبول يونج **Kimball Young**. وهو واحد من أهم الرواد في هذا العلم. جوهر المشكلة. " يمكن أن تكون الدعاية صريحة وغرضها ظاهر معلن، أو ربما تخفي قصدها. وهى دائمًا لها مكان داخل إطار اجتماعى. ثقافى، بغيره لا يمكن فهم ملامحها النفسية ولا ملامحها الثقافية. [١٨] كان الخوف والكراهية اللذان نبعا من المواجهة بين العالم الإسلامى والمسيحى استجابة شرطية أو بافلوفية [١٩]. (نسبة إلى تجربة بافلوف **Pavlove** على الحيوانات للتعرف على الاستجابات الشرطية). وغالبًا ما كان التأييد المساند نابعًا من الاقتناع الذى رسخ بوسائل أخرى في الغالب. لأن الاستجابة كانت أحيانًا تجربة شخصية. ومعظم أولئك الذين اعتقدوا أن الكفار– "السراكنة" "الهاجريين" "الإسماعليين"، "الأتراك". كانوا متوحشين وبرابرة لم يقابلوا أبدًا مسلمًا أو تركيًا في حياتهم. ومع هذا فإن هذا الفهم كان حقيقيًا بالنسبة لهم كما لو كانوا قد عرفوا المسلمين أو الأتراك. لقد عرفوا هذا من جيرانهم. ومن الاستماع والقراءة، ومن الصور البصرية، مثلما نفعل نحن اليوم. هذا الغرس لمعرفة جديدة كان حيويًا للإبقاء على العداوة .

كانت رسالة بافلوف أنه ما لم تكن هذه التجارب و المعتقدات تدعم وتتعزز بانتظام فإن الاستجابة الشرطية سوف تتضاءل. هذه التغذية بالقطارة بالمعلومات والأفكار الجديدة، وتكرار الموضوعات القديمة وإعادتها. كان يعنى أن الصراع البعيد فى شرق المتوسط بين العالم المسيحى وعالم الإسلام قد حكم العلاقة التالية بينهما. لقد صار النقطة المرجعية الرمزية للتذكر فى المستقبل. وعلى حد تعبير ألفونس دوبرونت "عندما نقول كلمة" حملة صليبية"، هناك شيء ما يهز مشاعرنا ويزعجنا. هذا «الشيء ما» هو قوة الأسطورة القصوى التى هى حية وحقيقية»[٢٠] وكلمة «حملة صليبية»، تحمل معنى أقوى بالنسبة لكثير من المسلمين، على حين أن "الجهاد" ما يزال يستفز الخوف بين المسيحيين. لقد صارت هاتان الكلمتان كناية عن العدو، تعززان ذكريات قسوتهم ووحشيتهم الجوهرية[٢١].

ويمكننا أن نقتفى آثار الوسائل التى تم بها بناء هذه المخاوف والكراهية. لقد بدأ إيمانويل سيفان Emmamuel Siven عمله الجوهرى عن. الحملة الصليبية المضادة" عند المسلمين بالإشارة إلى عناصر متمايزة وإن كانت متشابهة فى خلق هذه الإيديولوجية:. المواقف الكائنة". التى كانت موجودة قبل ضغط الأحداث وضغط الدعاية "والمواقف المختلقة" التى تشكلت (أو استغلت) نتيجة للأحداث أو الدعاية[٢٢].

وكانت وظيفة هذه الإيديولوجية تعزيز المواقف الكائنة. ولكن هذه العناصر التوأم كانت قوية فى خلق الإيديولوجية الأولى فحسب، وفيما بعد، فى خلق أسطورة "الحملة الصليبية" فى الثقافة الغربية. فقد كان لدى الصليبيين الذين زحفوا إلى الأرض المقدسة أفكار ثابتة (وإن كان أساسها رديئًا) عن عدوهم، على حين لم يكن لدى المسلمين الذين واجهوهم أى مفهوم محدد عن الفرنج سوى أنهم كفار منفرون بشكل شاذ. وعلى أية حال، ففى أثناء هذه المواجهة فى الشرق، طور المسلمون والمسيحيون الغربيون آراء أكثر تعقيدًا ومتسقة بشكل ما عن كل منهما الآخر. والدرجة التى وصلت إليها كل مجموعة فى إنتاج صور معاكسة أو صور مرآة تستلفت النظر.

فقد اعتبر الأوربيون أن المسلمين قساة وعنيفون بطبعهم. وشعر المسلمون بالشيء نفسه عن الأوربيين. وقد طور الأوربيون تصورا جامحًا عن النزعات الجنسية لدى المسلمين. واعتبر المسلمون أن الفرنج، حسبما أوضح أسامة بن منقذ، أفضل قليلًا من الحيوانات فيما يتعلق بالسلوك الجنسي السليم.

وبالقدر نفسه، كان باستطاعة كل جانب أن يقدر السجايا البطولية والنبيلة لدى الآخر. فقد تم تصوير السلطان صلاح الدين في كثير من الروايات الأوربية، على الرغم من أن جيوشه استردت القدس سنة ١١٨٧م، باعتباره حاكمًا عادلا وشريفًا أكثر من كثير من الحكام الأوربيين المسيحيين. وبالمثل، لم يجد المسلمون أية صعوبة في الاعتراف بالمهارة العسكرية وشجاعة خصومهم في الوقت نفسه الذي وصفوهم "بالملاعين" كما أن المواقف السلبية لم تمنع العديد من أشكال الاتصال السياسي والاقتصادي بين الأعداء حتى في أوقات الحروب والدعاية العدائية[٢٣]. وعلى أية حال، فبينما أنتج المسلمون صلاح الدين والظاهر بيبرس، وكانوا خصومًا أشداء في ساحة المعركة، فإن قواهم المرئية ظهرت أقل من قوة الأوربيين"[٢٤]. فلم تكن هناك قلعة للمسلمين، مثلا، يمكن أن تجاري القوة الدفاعية للقلاع الصليبية مثل حصن الكرك، وبوفرت **Beaufort** على ساحل البحر في صيدا [٢٥]. وكانت سيادة الأتراك العثمانيين منذ منتصف القرن الرابع عشر، في كل من الأناضول والبلقان هي التي غيرت موازين القوى. لقد كان صلاح الدين نبيلًا فردًا، ولكنه كان يمثل شعبًا حقيرًا. أما سلطان الأتراك، الخان الأعظم، والذي عرفه الأوربيون باسم **Grand Signor**. فكان في رأيهم يمثل دولة كافرة وثقافة كافرة قوتها مصدر خوف لا يمكن إنكارها.

وقد جعل سلطان الأتراك من نفسه حامل راية الإسلام. وكان الأتراك العثمانيون بدوا، جاءوا باعتبارهم مرتزقة جلبهم السلاجقة إلى الأناضول. وبقوا بعد سقوطهم. وبحلول سنة ١٢٨٠م تمركزوا في مركز عثماني صغير، في غرب الأناضول. وأسس ابنه عثمان عاصمتهم في بورصة على منحدرات جبل أوليمبوس في ميسيا سنة ١٣٢٦م، حيث يوجد نقش بلقب "المجاهد سلطان الغزاة. الغازي ابن الغازي" [٢٦] وبنى

قصر أورخان فى قلعة المدينة فوق حافة جبلية طويلة، وهى قلعة أخذت تمتد وتكبر حتى صارت "عصية على الاقتحام تقريبا" [٢٧]. وفى سنة ١٣٥٠م جند الإمبراطور حنا كونتاكوزينوس John Contacuzenus مقاتلى أورخان العثمانيين فى حملته ضد ملك صربيا ستيفن دوشان Stephen Dushan. وبعدها بثلاث سنوات، عبر سليمان بن أورخان مضيق الدردنيل واستولى على القلاع التى كانوا قد وعدوا بامتلاكها ثمنا لدعمهم. وفى غضون سنوات قليلة. كان العثمانيون قد تقدموا من قاعدتهم فى جاليبولى إلى مدينة أدرنة Adrianpoli الحصينة، عاصمة إقليم تراقيا.

وسقط سليمان عن جواده عندما كان يمارس الصيد ومات متأثرًا بجراحه. وكان ابنه مراد هو الذى خلف جده أورخان سلطانا حوالى سنة ١٣٦١م. وخلال خمسة عشر شهرًا كان جنوده الغزاة قد بثوا الرعب فى تلك الأراضى. واستسلمت أدرنة بدلًا من أن تواجه مصير خورلو Chorlu. حيث كان العثمانيون قد ذبحوا كل من كان داخل أسوارها، ولم يبقوا سوى على القائد لكى يتم إعدامه بصورة رسمية. وسرعان ما امتدت الأملاك التركية فى أوربا من البسفور إلى سفوح جبال البلقان. وقبل الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية السلطة العثمانية، بيد أن المسيحيين الآخرين لم يكونوا على هذا القدر من السكون. وعبر الصرب ومعهم بعض المجريين المحالفين، نهر ماريتزا River Maritza. "لكى يتم الإمساك بهم مثل الوحوش البرية فى وكرها". ودفعوا إلى النهر "مثل ألسنة اللهب التى تهزها الريح"، على حد تعبير كلمات مؤرخ عثمانى [٢٨].

وفى سنة ١٣٦٦م عبر العثمانيون نهر ماريتزا واندفعوا شمالًا حتى كانوا سنة ١٣٦٩م قد استولوا على الممرات الجبلية والأراضى الواقعة أمام صوفيا. ثم تحول مراد عندئذ باتجاه الغرب فى مقدونيا. وفى سنوات ثلاث كان الأتراك قد وصلوا نهر فردار عند مدينة سكوبجى Skopje وامتدت ممتلكاتهم الأوربية عند هذه النقطة من سهل تراقيا إلى جبال الألب الدينارية Dinaric Alps. كذلك وسع السلطان ممتلكاته فى الأناضول. ولكن الشطر الأكبر من ممتلكاته كان يقع شمال مضيق الدردنيل

ولهذا حول عاصمته من بورصة إلى أدرنة وبحلول سنة ١٣٨٦م، كانت معظم المدن المسيحية الرئيسية فى جنوب البلقان، بما فى ذلك صوفيا، وموناستيرونيس، فى يديه. ولم يتبق بعيدا عن سلطانه سوى بلجراد على نهر الدانوب والقسطنطينية. وفى سنة ١٣٨٨م شن مراد حملة بجيوشه ضد مملكة صربيا لكى يستكمل فتوحاته لأراضى البلقان.

وفى يوم ٢٠ يونيو سنة ١٣٨٩م، وفوق سهل كوسوفو بولجى، "حقل الغربان" حيث نعمت الغربان بوليمة من جثث الموتى، هزم مراد بجيوشه الأوربية والآسيوية التى تساندها كل القوى المسيحية الخاضعة له، لازار Lazar قائد الصرب. وعند لحظة الانتصار هذه، قتل السلطان فى ميدان المعركة وخلفه فى الحال ابنه بايزيد الذى كان يقود الجناح الأيمن من الجيش التركى. وفى أعقاب المعركة، خضع الأمراء الصرب الباقون للسلطة العثمانية. وبعد كوسوفو، حول العثمانيون انتباههم تجاه العقبة الوحيدة الباقية فى سبيل سيطرتهم على جنوب البلقان. وفى سنة ١٣٩١م، فرضوا الحصار على القسطنطينية نفسها، ولكن مرة أخرى قامت الأسوار العظيمة بحماية المدينة. وكانت فرقة من ستمائة رجل مسلح وألف وستمائة من رماة السهام يقودهم بوسيكو Boucicault، وهو مارشال من فرنسا، قد وصلت سنة ١٣٩٨م وكسرت الحصار العثمانى وزادت من قوة المقاومة البيزنطية. بيد أنه حتى هذه التعزيزات لم تستطع أن تزيح التهديد التركى، ولذلك انسحب بوسيكو بعد سنة وتم رفع الحصار فى مقابل تنازلات جعلت من الإمبراطور البيزنطى بالفعل تابعًا للسلطان.

وكان العالم المسيحى الغربى قد اعترف فى النهاية بقوة عدوه الجديد. وعلى مدى حوالى خمسين سنة (١٣٩٦. ١٤٤٨م) تم تجميع أربع حملات صليبية لا بقصد إعادة الاستيلاء على القدس وإنما بقصد مهاجمة العثمانيين "الكفار" فى البلقان. وبعد سنة ١٣٨٩م، لم يعد العدو المسلم فى آسيا ولكنه كان على ضفاف نهر الدانوب، مع وجود فرسان التتار يشنون إغاراتهم على المجر وأراضى الحدود فى النمسا، وبعد ست سنوات من كوسوفو، استجاب الصليبيون للدعوة الملحة من البابا

بونيفاس التاسع Boniface IX وزحف جيش مسيحى أوربى صوب الشرق. وتم سحق هذا الجيش فى يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٣٩٦م على أيدى القوات العثمانية جيدة التنظيم تحت إمرة السلطان بايزيد يلدريم (أى الصاعقة) قبالة بلدة نيقوبوليس على المرتفعات المطلة على نهر الدانوب. وفى الصباح التالى للمعركة جلس السلطان يشاهد الأسرى الصليبيين يساقون عرايا أمامه، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. وخيرهم بين اعتناق الإسلام أو قطع رءوسهم فى الحال، إذا رفضوا. وتخلى عدد قليل منهم عن دينهم، وتم ترتيب الأكوام المتزايدة من الرءوس فى تلال صغيرة أمام السلطان، وسحبت الجثث بعيدًا. وفى نهاية ذلك اليوم الطويل، ذبح العثمانيون أكثر من ثلاثة آلاف صليبى. وإن كانت بعض الروايات وصلت بالعدد إلى عشرة آلاف. وتم إطلاق فارس وحيد وأرسل إلى باريس ليحكى انتقام السلطان إلى ملك فرنسا. كانت المذبحة فى جزء منها ردًا على المذبحة التى ارتكبها الصليبيون ضد أسراهم من الأتراك قبل المعركة، ولكن هذا الذبح الرسمى والاحتفالى كان ابتكارا، ومختلفا عن المذابح التى كانت شائعة بعد الاستيلاء على المدن أو فى أعقاب المعارك مباشرة. وكانت المذبحة الجماعية التى ارتكبها الصليبيون فى القدس سنة ١٠٩٩م قد نبعت من تعطش هائج إلى الدماء بعد المعركة. وعلى النقيض من ذلك كان قصد بايزيد أن ينفذ عملًا محسوبا يستقر فى الذاكرة عن القسوة، ويتعارض مع السلوكيات العادية فى الحرب. فقد كان كثير من أولئك الذين قتلوا من أصول نبيلة، كان سيتم دفع فدية لهم [٢٩].

ولكن هدف السلطان كان قد تحقق. فسرعان ما انتشرت أخبار نيقوبوليس وما جرى بعدها فى جميع أنحاء أوربا وبرهنت على الصعوبة البالغة فى إثارة أى اهتمام فى الغرب بشن حملة صليبية جديدة [٣٠]. وفى المجر فقط كانت الدعوة إلى حملة صليبية ما زالت ممكنة، وسرعان ما واجه مراد الثانى بن بايزيد قوة مجرية بعثت من جديد. وكان المجريون وحلفاؤهم تحت قيادة "فارس والاشيا الأبيض" يانوس هونيادى Janos Hunyadi . الذى ذاع صيته الفضى فى جميع أرجاء البلقان. وقد عرفه المجريون باسم «توركفيرو ToroKvero» (أى سوط الترك). وقد عين حاكما لترانسلفانيا فى سنة ١٤٤١م، واستعاد الكثير من الأرض التى كان الأتراك

قد استولوا عليها على امتداد نهر الدانوب. وفى سنة ١٤٤٣م، تم القيام بالحملة الصليبية التى طال انتظارها: فقد شن فلاديسلاف ملك بولندا والمجر، حملة صليبية جديدة. وتقدم بحذاء نهر الدانوب ليستولى على صوفيا ونيش. وبعد هزيمة خطيرة نالت مراد عند كوستونيزا **Kostuniza**، وافق على هدنة مدتها عشر سنوات.

ولكن فى السنة التالية، انتهك الملك المجرى شروط الهدنة وقاد حملة صليبية جديدة أسفل الدانوب. وكان مراد فى ذلك الوقت يدافع عن ممتلكاته فى آسيا، فسارع إلى جمع جيوشه من هناك ومن أوربا. وزحف شمالاً تجاه الصليبيين. وعند مدينة فارنا **Varna** . على ساحل البحر الأسود، أحرز السلطان بشكل غير متوقع نصرا آخر على مقياس معركة نيقوبوليس. ومات الملك فلاديسلاف وكثير من أفضل قواته فى المعركة. وفصلت رأس الملك عن جسده، وحفظت فى برميل من العسل وأرسلت إلى بورصة حيث رشقت فى حربة وتم عرضها فى موكب نصر فى الشوارع[٣١]. وفى الوقت نفسه، هرب هونيادى، الذى كان يقود أحد أجنحة القوة الصليبية، من الكارثة وفر شمالاً فيما وراء الدانوب. وفى بطء جمع جيشًا جديدًا وزحف جنوبًا لمهاجمة العثمانيين. وفى يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٤٤٨م، وفوق سهل كوسوفو الذى ارتبط بالقدر، تقابل هونيادى وجيشه من المجريين والولاشيين والتشيك والألمان مع العثمانيين على الأرض نفسها التى كان لازار قد سقط قبل أكثر من نصف قرن مضى. واستمرت المعركة ثلاثة أيام، واستسلم جيش هونيادى للنظام والإصرار العثمانى[٣٢].

كانت هناك كثافة جديدة فى هذه الحروب التى جرت بالبلقان. فحتى ذلك الحين كان المغول متفردين فى قسوتهم الجامحة، ولكن فى ذلك الحين بدا أن كلا من المسلمين والمسيحيين يحسد الآخر على مدى التجديد والابتكار فى المذابح. فقد استكمل حاكم والاشيا. **voivod**. المدعو **Vald Tepes** (صاحب الخازوق) أسلوب الموت الجماعى. بأن يضع أسياخًا من الرماح الطويلة فى أجساد أعدائه. وكلما كانت العصا طويلة كانت مكانة الضحية أعلى قدرًا[٣٣]. وفى سنة ١٤٦١م. تملك الرعب ابن مراد الثانى.

السلطان الشاب محمد الثانى. عندما شاهد عشرين ألف جثة متعفنة معلقة فى قوائم خارج أسوار عاصمة فالد تيرجوفيست Tirgoviste. على الرغم من أنه هو نفسه لم يتردد فى معاقبة المجرمين بالخوازيق فى دولته. وقد شهدت القرون السابقة أمثلة عديدة منفردة من الوحشية المتعمدة. ولكن منذ القرن الخامس عشر بلغت البربرية مستويات جديدة. فالموت العلنى بسلخ السيناتور البندقى براجادينو قبل معركة ليبانتو مباشرة، الذى وصفته فى الفصل الأول، كان مشابها فى المجتمع المسيحى الغربى بالاحتفالات الموسعة بالحرق auto –de–fe فى إسبانيا. ومسرح للمشاهدين للقسوة العلنية فى الإعدام شمال جبال البرينيس[٢٤].

وعلى أية حال. فإن المذبحة الأكبر. فى عيون الأوربيين، كانت الاستيلاء على القسطنطينية وانتهاكها على أيدى جيوش محمد الفاتح يوم ٢٨ مايو سنة ١٤٥٣م. فقد كانت الهزيمة التى لحقت بالمجريين فى ڤارنا قد قلصت إلى حد كبير حماستهم للقيام بحملة صليبية فى الشرق، ولم تكن هناك معارضة متماسكة فى الغرب لمشروعات السلطان الشاب فى المدينة. وفى تناقض صارخ مع حالات الحصار السابقة التى ضربها المسلمون على المدينة على مدى القرون. فإن الجيش الذى تجمع فى بواكير ربيع سنة ١٤٥٣م لم يعول كثيرا على الوزن العددى (على الرغم من أنه كان كبيرا للغاية) وإنما على الحرفية العسكرية وأساليب الحرب المتقدمة. أولا. كان الأتراك قد سلحوا حصنيهم التوأم على كلا جانبى البسفور لمنع أية قوة نجدة من الوصول إلى القسطنطينية. وثانيا فى مصنع مدافع جديد فى أدرنة. تم تصميم صناعة قطع مدفعية حصار ضخمة يمكنها تدمير الأسوار الثلاثية القديمة التى كانت تحمى العاصمة البيزنطية. ولكن عدم التوازن بين القوة الإسلامية والضعف المسيحى كان ظاهرا فى قوائم أسماء الجنود: فقد كان أقل من سبعة آلاف رجل يدافعون عن أسوار القسطنطينية التى امتدت أربعة عشر ميلاً. فى مواجهة ثمانين ألف رجل من العثمانيين المتجمعين خارج الأسوار.

وفى الساعات الباكرة من صباح يوم ٢٨ مايو. بعد ثلاثة وخمسين يوما من المقاومة اليائسة، اقتحم الإنكشارية العثمانيون الأسوار ودخلوا المدينة. وبحكم العادة استباحوا المدينة ثلاثة أيام مثلما كانوا يفعلون فى كل مدينة يستولون عليها عنوة. وفى البداية قتلوا كل من وجدوه حيًا. ومن كنيسة سانت مارى التى ترتفع عالية فوق القرن الذهبى، جرى فيض من الدماء باتجاه الميناء أسفل التل. واقتحم الجنود الكنائس. وأخرجوا منها الأشياء الثمينة. وقتلوا أو اغتصبوا كل ما أعجبهم. وبعد الظهر دخل السلطان المدينة رسميا. وذهب مباشرة إلى كنيسة أيا صوفيا. وهناك أمر بالكف عن نهب المدينة وتدميرها وأمر بتحويل الكنيسة الكبيرة إلى جامع. ويسجل دوكاس **Ducas** فى كتابه "**Historia Turco– Byzantina**" أحداث ذلك اليوم:

"واستدعى (السلطان محمد الثانى) واحدًا من قساوسته الأراذل (يقصد شيخ) صعد إلى المنبر لكى يدعو إلى صلاته الشريرة. ابن البغى. السابق المنذر بالمسيح الدجال. صعد على المذبح المقدس. ليقدم صلاته. وأأسفاه على المصيبة. واحسرتاه على الفعل الشنيع. ويحى ويحى. ما الذى جرى لنا. أوه أوه. ما الذى شاهدناه. تركى كافر يقف على المذبح المقدس الذى وضعت فى أساسه الذخائر المقدسة للحواريين والشهداء. فلتتوارى أيتها الشمس. أين قتل الرب، وأين الابن وكلمة الأب الذى ضحى هناك وأكل ولم يفن؟

حقا لقد حسبنا على أننا مدلسون. وحسبت الأمم أن ديننا عبث. وبسبب خطايانا، فإن المعبد (أيا صوفيا) الذى كان قد بنى باسم حكمة كلمة الرب، والذى يسمى معبد الثالوث المقدس، وكنيسة صهيون الجديدة العظيمة، صارت اليوم هيكلاً للبرابرة. وسميت وصارت بيت محمد هذا حكمك يا رب" [٣٥] .

وشعور الانتهاك نفسه يملأ الخطاب الذى كتبه دارس بيزنطى، صار كاردينالاً فيما بعد. وهو بيساريون **Bessarion** إلى دوج البندقية بعد شهرين من سقوط المدينة :

"وإذا نهبت بأيدى أشد البرابرة بُعدًا عن الإنسانية وأكثر أعداء المسيحية وحشية، وأقسى الوحوش البرية افتراسًا. لقد تم نهب الخزانة العامة، وتم تدمير الثروات الخاصة، وجردت المعابد من الذهب، والفضة، والمجوهرات، ورفات القديسين، وغيرها من أفخر الزينات، وذبح الرجال مثل القطيع، واستبيحت النساء، واغتصبت العذارى، وخطف الأطفال من آبائهم"[٣٦] .

وعلى أية حال، فإن بشاعة الأتراك كان لها سابقة، فقد كان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م قد وصف فى مصطلحات مشابهة جدًا. إذ كتب نيكيتاس خونياتس Nicetas Choniates عن تلك الأيام قبل قرنين ونصف من الزمان:

"وأأسفاه، الصور التى كان يجب تبجيلها، قد ديست تحت الأقدام، وألقيت الذخائر المقدسة للشهداء المقدسين فى أماكن قذرة، ثم رؤى ما يقشعر المرء من سماعه، فقد أريق دم المسيح وجسده على الأرض أو ألقى بعيدًا .

"ولم يكن هناك أحد لم ينل نصيبه من الحزن والأسى، فى الشوارع، فى المعابد، الشكاوى، والبكاء، والرثاء، والحزن، وأنين الرجال، وصراخ النسوة، والجراح، والاغتصاب، والأسر، والتفريق بين أولئك الذين ينبغى أن يبقوا سويًا [٣٧] .

وفى عيون المسيحيين الأرثوذكس ربما كان هناك القليل للاختيار ما بين أعمال السلب الكاثوليكية أو الإسلامية، ولكن كان هناك، مع هذا تمييز دقيق فى اللغة المستخدمة لوصف مرتكبى هذه الأعمال المرعبة الوحشية. لقد كان المسلمون أشرارًا بلا مواربة، «ابن البغى» "أكثر الوحوش البرية افتراسًا" . "برابرة لا إنسانيون" . "الكفار" . "كما أن الكثير فى رواية دوكاس قد ورد عن شراسة العثمانيين المهلكة. فقد شرب السلطان محمد حتى سكر فى مأدبة بعد سقوط المدينة، وطلب من لوكاس نوتاراس Lakas Notaras، أحد الموظفين البيزنطيين الباقين، أن يرسل له ابنه الأصغر الوسيم، وأجاب نوتاراس، "ليس من عادتنا أن أسلم ابنى لكى ينهبه، سيكون من الأفضل لى كثيرًا إذا ما أرسلوا الجلاد ليقطع رأسى" . وعندما جاء الجلاد ساند

شجاعة أبنائه بدعوتهم باللجوء إلى حماستهم الوطنية والمسيحية[٣٨]. ولم يكن هذا مجرد استشهاد نوتاراس وعائلته. وإنما استشهاد مدينة مسيحية عظيمة[٣٩].

موضوعات التدمير والاستشهاد هذه والوحشية المتفشية فى العثمانيين بنيت على مفاهيم سابقة عن الإسلام. وبالنسبة لكثير من المسيحيين الغربيين صار الاستيلاء على القسطنطينية والمذابح التى صاحبت ذلك كارثة توازى كارثة خسارة القدس سنة ١١٨٧م. ومن ناحية مناقضة، بالنسبة لمسلمين بدا الاستيلاء النهائى على المدينة رمزًا وضمانا فى آن معًا للنصر النهائى للإسلام. وبينما كانت "القدس" قد صارت التشبيه المجازى السائد فى العصور الوسطى. فإن ضياع القسطنطينية. آخر معاقل المسيحية فى الشرق بكل ما تحويه من بقاع مقدسة. صار موضوعا سياسيا ودينيا مكررًا على مدى القرون الأربعة التالية. فى غرب أوربا وفى شرقها على السواء. ومع الاستيلاء على "القدس الجديدة" صار العثمانيون قبلة أنظار العالم المسيحى. بيد أن أى عنصر من عناصر الإعجاب كان يعادله إحساس بالرعب والرهبة. وكان لكل منهما جذور راسخة فى الواقع الحقيقى. كانت القسطنطينية تحت الحكم العثمانى. أو إستنبول حسب اسمها التركى- أعظم بشكل لا متناهى فى مبانيها الجديدة الفاخرة. فى ثروتها الهائلة. وسكانها الذين زادوا كثيرا. وفوق هذا وذاك. فى القوة العسكرية والسياسية التى فاقت إلى حد بعيد القوة الذابلة لسالفتها البيزنطية. وبالمقدار نفسه. بدت تحت حكم العثمانيين متمتعة بكل خصال الشهوانية والانحراف ورفاهية الخطيئة. وقد حمل عليها الدارسون النصارى حملة شعواء قاسية على مدى عدة قرون[٤٠]. هؤلاء الأتراك فى عيون الأوربيين قد صاروا آنذاك رمزًا للكفار. وهو أمر يبدو منطقيا لأن هؤلاء الأتراك هم الذين كانوا يحاربونهم منذ الحملة الصليبية الأولى.

ما هو التركى. لقد طرح هذا السؤال بصورة بلاغية مبشر نمساوى شهير فى أواخر القرن السابع عشر. وكانت إجابته. "هو نسخة طبق الأصل من المسيح الدجال ... إنه نمر شره لا يشبع... إنه وحش حقود. هو لص التيجان دون ضمير

.. هو صقر قاتل ... إنه سم زعاف شرقي، إنه جهنمي غير مقيد. إنه قطعة حسية من الوسخ. إنه وحش طاغ. إنه سوط الرب"[٤١].

لقد كان الخطاب الصليبي يتبدل طوال تاريخه الطويل. فمنذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر اتخذ تنويعة من الأشكال الجديدة [٤٢] وقد أوضحت كيف أن الصليبية الإسبانية Cruzada ضد المسلمين امتدت خلال القرن السادس عشر لتشمل سلسلة من الغزوات في شمال أفريقيا والأراضي الجديدة في الأمريكتين. والآن سوف نجعل شبكتنا أوسع مدى. فمنذ القرن الثامن عشر. صارت "الحملة الصليبية" التبشيرية مشروعًا بروتستانتيا. وكسبت حياة جديدة في الغزوات الاستعمارية البريطانية في الهند وأفريقيا في أثناء القرن التاسع عشر(وما بعده) فقد رأى كثير من الإنجيليين المبشرين النصارى المتحمسين أنه من الطبيعي أن يستخدموا مفردات من قبيل. الحملة الصليبية". التي كانت بالنسبة لهم تمثل حربًا روحية ضد الشر. وكانت كتب الترانيم والأغاني الدينية. مثل Hymns Ancient and Modern (والذي نشر للمرة الأولى سنة ١٨٦١م) من أحسن الكتب مبيعًا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وعرف كثيرون كلمات وألحان أكثر الترنيمات شعبية عن ظهر قلب [٤٣]. كانت هذه الترانيم تحث المؤمنين على أن "حاربوا حرب الخير. بكل القوة" (John S.B.Monsell ١٨٦٣) أو أن ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم جنودا في سبيل الرب. وكان أنجح هذه الدعوات إلى الفعل. إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون، سيروا كما لو كنتم ذاهبين إلى الحرب. مع صليب يسوع. استمروا مثلما سبق" (١٨٦٥م). والتي كتبها سابين بارينج جولد Sabine Baring Gould لأنه "أراد للأطفال أن يغنوا عندما يسيرون من قرية إلى أخرى، ولكنهم لا يستطيعون أن يفكروا في أي شيء مناسب تمامًا. ولهذا جلست في الليل. وتوصلت إلى أنني لابد أن أكتب شيئا بنفسي. إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون"، كانت النتيجة[٤٤].

وبالتدريج صار المعنى الشائع لكلمة "حملة صليبية" في اللغة الإنجليزية مجازًا دالاً على فعل قوي في قضية خيرة [٤٥]. ولكن المعنى القديم عن الصليب والحرب

المقدسة كان ما يزال رمزًا فاعلاً. كما لم تكن العداوة المحددة ضد المسلمين قد تلاشت تمامًا. وأتذكر أننى كنت أغنى فى المدرسة ترنيمة كتبها نيل J.E.Neale. كانت لها شعبية منذ نشرت للمرة الأولى قبل قرن من الزمان. وكان نيل قد أعاد صياغة نص كتبه أندروا الكريتى .

أيها المسيحيون. ألا ترونهم

على الأرض المقدسة؟

كيف تتدفق قوات مدين

وتتدفق حولنا ؟

أيها المسيحيون انهضوا

واضربوهم بقوة

لا تحسبوا المكسب

وإنما الخسارة

اضربوهم بقوة بجدارة

الصليب المقدس

وقد تساءلت فى ذلك الحين عمن يمكن أن يكون "قوات مدين" . ولم يحدث سوى بعد وقت طويل للغاية أن وجدت أن مؤلف الترنيمة قد عرف "الميديين" على أنهم مرادف "السراكنة"(٤٦) ومن الواضح أن الأرض المقدسة بالنسبة لأندرو الكريتى كانت هى القدس والمواقع المسيحية فى شرق المتوسط. التى كانت تحت حكم العثمانيين فى أيام نيل .

على أية حال، كان استعمال نيل شاذًا. وأنتج فيما بعد نسخة أكثر تهدئة. فقد تحولت "قوات الميدين" إلى "قوى الظلام". وربما اعتبر هذا مناسبًا أكثر لمجالات التبشير. وبالمثل فإن كلمة "الكفار" التي كانت ما زالت مستخدمة في بواكير القرن التاسع عشر. لم تعد مجندة لدى كتاب الترانيم[٤٧]. وحلت عبارات "أراضي الوثنيين" و"ظلام الوثنية" محل أرض الكفار الخراب. فهل يحتمل أن كلمة "كفار" كانت مرتبطة بالضبط بمسلمي البحر المتوسط؟ وعلى أية حال. عاد روبرت ميتشل Robert Michell في سنة ١٩١١م مباشرة إلى لغة "الحملة الصليبية" في معناها الحربي الأصلي :

أنصتوا لدعوى الصليبية الجديدة

فالمسيح سيكون ملكا على الجميع

وليعلن التحدي للعالم كله

ليكن المسيح ملكا

وقد أدى تكراره للكلام إلى تكبير الموضوع:

رحبوا بملك الملوك. المنتصر المخلص

فجنود الحملة الصليبية الجديدة سائرون

هذه صيحة المعركة. لقد صار المسيح ملكا

احملوا الراية نحو النصر

رحبوا بالدعوة إلى الصليبية الجديدة

اجعلوا المسيح ملكا

قوي هو عدو الصليبية الجديدة

فالخطيئة فى درعها مصطفة جيدا للقتال

وفى القتال يجب أن نطرح أفضل ما لدينا

اجعلوا المسيح ملكا

كان هناك المئات من المبشرين فى الأرض المقدسة فى الوقت الذى كتب فيه ميتشيل ولكن الفرقة الكبيرة من المبشرين وجهوا اهتمامهم صوب مكان آخر [٤٨]. ومع هذا، فإن المصطلحات الجوهرية "للحملة الصليبية" والغزو بقيت حاضرة بشكل مستمر فى الخطاب والنشاط المسيحى[٤٩].

لقد شن المبشرون فى القرنين التاسع عشر والعشرين حملاتهم الصليبية، كما اعتقدوا، من أجل نصر روحى، لا من أجل غزو إقليمى. بيد أن الكلمة لم تجعل الفصل بينهما سهلاً. فهذا الالتباس بين حرب مقدسة بالمعنى الروحى وانتصار على قوى الظلام الزمنية كان لها وجود متأصل منذ زمن طويل. وهناك اثنان عاشا فى القرن السابع عشر، عاصرا بعضهما تقريبا هما جون بونيان **John Bunyan** وتوماس فوللر **Thomas Fuller** . وكلاهما كتب كتابا يحمل عنوان الحرب المقدسة **The Holy War** .كانت مقاصد بونيان المضمرة واضحة من العنوان.

The holy War. Made by Shaddai upon Diabolus For the Regaining of the Metropoli of the World or the losing and Taking Again of the Town of Mansoul.

وقد نشر فى سنة ١٦٨٢م، أما كتاب توماس فوللر فعنوانه :

The History of the Holy Warre

فكان مساويًا فى شعبيته لكتاب بونيان، وقد نشر للمرة الأولى سنة ١٦٣٩م، ثم أعيدت طباعته أربع مرات فيما بين سنة ١٦٤٠م وسنة ١٦٥١م، وكان نادرا ما تنفد طبعته. كان كتاب فوللر عملاً تاريخيًا- أول وصف كامل للحملات الصليبية

فى العصور الوسطى باللغة الإنجيزية. أما قصة بونيان الرمزية الموسعة فقد عولت أيضا على صور الكفار. فقد استخدم مفهومًا عن الأجنبى كان شائعًا فى زمانه. كان الشرير فى روايته هو الملك ديابولوس. الذى وصفه بأنه "ملك السود، وهو أمير بالغ الهياج". وله "قلب إبليس" وهو "جشع لا يرتوى. وقد كبر مثل الجحيم نفسه". وكثيرا ما كانت هذه الأوصاف تُطلق على الأتراك.

وبخلاف بونيان. الذى كان ابنًا لسمكرى. كان فوللر يتمتع بمكانة أكثر استقرارًا وراحة فى المجتمع. فقد كان قسيسا فى كنيسة إنجلترا. كما كان ملكيًا معتدلاً والقس الخاص للجنرال سير رالف هوبتون Sir Ralph Hopton فى أثناء الحرب الأهلية. وعلى الرغم من أن كتابه The Holy Warre كان قد نشر قبل اندلاع القتال فى سنة ١٦٤٢م، فإن وصفه الصليبيين وهم يناضلون ضد جيوش الكفار بدا وكأن صداه يتردد لدى كل من الجانبين فى الحرب الضروس التى كانت تزداد مرارتها. وقد رأى كل من أنصار الملكيين والبرلمانيين فى أعدائهم كفارًا وأعداء للدين الصحيح. وهكذا ارتبطت القصة الرمزية والتاريخ والحوادث الجارية سويا برباط لا ينفصم.

وقد ظهرت تواريخ شعبية للحروب الصليبية أيضا فى لغات أوربية أخرى. بيد أن القرن العشرين بدأ قبل أن يبدأ المسلمون فى كتابة تواريخهم الخاصة عن الصليبيات فى شرق المتوسط. وفى ذلك الحين اعتقد المبشرون المسيحيون أنهم قد حولوا مفاهيم "الحملة الصليبية" ومفرداتها إلى حرب روحية على الخطيئة والشر. ولكن المسلمين الآن أعادوا اكتشاف العواقب الوخيمة لحوادث القرن الحادى عشر: تدنيس أماكنهم المقدسة وتخريبها. فبالنسبة لهم، صارت الحروب الصليبية حادثًا معاصرًا. وليست شيئًا تلاشى بمرور ثمانمائة سنة. فالكلمة العربية "الصليبيون". استخدمت فى ترجمة كتاب تاريخ عسكرى فرنسى سنة ١٨٦٥م. وأول نص كامل مكتوب بالعربية (ومن مصادر عربية) عنوانه الأخبار السنية للحروب الصليبية. نشره سيد الحريرى فى سنة ١٨٩٩م[٥٠]. وكلمة الصليب موجودة فى اللغة العربية منذ زمن باكر. ولكن لم يحدث حتى القرن العشرين أن اكتسبت هذا المعنى الجديد

الكريه [٥١]. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا تكاثرت معان جديدة. واكتسب المصطلح الجديد "الصليبيون" معنى وكلاء الغرب الاستعماريين والاستغلاليين. أعداء القومية العربية والإسلام [٥٢]. وقد اندمجت معان سياسية جديدة للغرب مع العبارات المجازية القديمة عن النجاسة والنهب التي تشكلت من تجربة المسلمين مع الصليبيين قبل قرون خلت.

* * *

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين كانوا يعيدون تقييم عصر الحروب الصليبية. فقد بدأت فرنسا "صليبية غزو" جديدة في بواكير القرن التاسع عشر. وبحلول عشرينيات القرن التاسع عشر كانت أسرة البوربون الملكية الفرنسية قد عادت إلى السلطة بعد هزيمة نابليون النهائية سنة ١٨١٥م. وصار لويس الثامن عشر مشغولاً بشمال أفريقيا. وقد ورث تراثا حيث كان مجد أجداده القدامى مرتبطًا بالشرق. وقد ظهر "تاريخ الحروب الصليبية **Histoire des Croissades** الذي حظي بشعبية هائلة من تأليف جوزيف. فرانسوا ميشو **Joseph. Francois Michaud** في السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية النابليونية. وكوفئ المؤلف بوسام الشرف جزاء جهده. بيد أن أسرة البوربون العائدة. ولاسيما شارل العاشر خليفة لويس الثامن عشر منذ سنة ١٨٢٤م، قد وافق على وجهة نظر ميشو بأن "أكثر النتائج إيجابية في نتائج الحملة الصليبية الأولى تتمثل في مجد آبائنا. هذا المجد الذي هو إنجاز حقيقي لأية أمة" [٥٣]. وبسرعة صارت الحملات الصليبية المثال الأول على عظمة فرنسا. وكان كتاب ميشو تعاد طباعته بصورة مستمرة وقد أدى إلى صدور مجموعة طموح من المصادر الأصلية في خمس لغات- مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية **Recueil des historiens des Croisades**. التي بدأت في سنة ١٨٢٤م، وظهر المزيد من المجلدات على فترات منتظمة من بعدها تحت رعاية أكاديمية المخطوطات والآداب **Academie des Inscriptions et Belles. Lettres** وعندما جاء الملك شارل العاشر إلى مجلس النواب رسميا ليعلن التدخل في الجزائر. برر هذه الفعلة بأنها. لصالح

المسيحية"(٤٤) وكان وزراؤه قد حسبوا بمزيد من الاستخفاف أن النجاح فى شمال أفريقيا قد يحول الانتباه عن الأزمة السياسية المتصاعدة فى الوطن. ولم يحدث. وسقطت الملكية البوربونية عن عرش السلطة .

وعلى أية حال، ومع أن لويس. فيليب الذى انتصر فى ثورة ١٨٣٠م. لم يكن يشارك سلفه في الثناء على الكاثوليكية، فإنه قد كان مولعًا بالمجد الوطنى. فقد رأى ارتباطا مباشرًا بين فرنسا البطولية فى الحملة الصليبية الأولى وانتصارات الحملة الصليبية الجديدة وغزو الجزائر فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. التى لعب فيها أبناؤه دورًا نشيطًا. وكان جوهر هذه الصليبية الجديدة قد رسم فيما بعد بيد هوراس فيرنيه Horace Vernet، الذى كان مقربا بصورة خاصة للملك الجديد. في لوحته The First Mass in Kabylia. التى صورت الخدمة الميدانية. فالقوات تركع باحترام على حين يمسك كاهن القداس القربان بيديه بحيث يشاهدونه. وهو يرمز إلى جسد المسيح ودمه وقد خففت اللوحة الجبال المنخفضة التى شكلت خلفية الصورة، على حين تجلس مجموعة من العرب متجهمين فى واجهة اللوحة. وفى سنة ١٨٣٧م. بينما كان الغزو يمضى قدمًا. بدأ لويس فيليب يعيد تشكيل بناء قصر فرساى الكبير لكى يصير متحفا للتاريخ الوطنى يحتفى بالقرون العديدة من الانتصار العسكرى الفرنسى. وكان مقدرًا للوحة فيرنيه أن تبرز ظاهرة من بين كل لوحات الكانفاه التى غطت الحوائط .

وقد صورت الغرف الأولى فى متحف الملك الحملات الصليبية. بأسلوب يحاكى الطراز القوطى فى الزخرفة وقائمة طويلة من الصليبيين الفرنسيين. أبطال فرنسا الأوائل. ثم جاءت الشخصيات العظيمة الأخرى فى التاريخ العسكرى لفرنسا لتصل إلى ذروتها بإنجاز نابليون الأعلى. ولكن قصة المجد استمرت بعد الإمبراطور. فقد كرمت صالات العرض الأخيرة. صالة قسطنطين وصالة سماله Smalah الصليبية الجديدة فى الجزائر. والكتاب الإرشادى الرسمى للمتحف لم يترك مجالاً للشك فى ماهية الرسالة التى كان مقصودًا أن يتلقاها الزائر:

"وهناك نجد مرة أخرى، بعد فترة انقطاع دامت خمسمائة سنة، الأمة الفرنسية تخصب بالدم السهول المحترقة التى رصعتها خيام المسلمين. هؤلاء هم ورثة شارل مارتل، وجودفرى البويونى، وروبرت جويسكارد وفيليب أغسطس، يستأنفون المهام التى لم تنته لأسلافهم، المبشرين والمحاربين. إنهم فى كل يوم يمدون حدود عالم المسيحية"[٥٥].

وسرعان ما بدأ فيض ثابت من المستعمرين يستقرون فى المستعمرة الفرنسية الناشئة فى الجزائر، لتفرض الوجود المسيحى فى أرض كانت أرض "الكفار" سابقا. وتم خلق مقاطعة فى الجزائر سنة ١٨٣٨م صارت مستعمرة تضم عدة مقاطعات فى سنة ١٨٦٦م، بها أسقفيتان فى قسطنطينة ووهران. وبعدها بعامين تم تأسيس منظمة تبشيرية جديدة تحمل اسم "الآباء البيض" بهدف حمل الرسالة المسيحية إلى داخل **Kabylia** فى الصحراء بالجنوب. وإذ كانوا يرتدون ثيابا بيضاء **gandoura**، ومعها عباءة، فإنهم بدوا أشبه بالعرب الجزائريين منهم بالفرنسيين. وتحت السلطة المباشرة لهيئة الدعاية فى روما، كان "الآباء البيض" يشبهون الجزويت من حيث حماستهم ونظامهم ونشاطهم فى أيام عزهم قبل عدة قرون [٥٦].

وبقى الانشغال بشمال أفريقيا بعد لويس- فيليب، واستمر خلال حكم نابليون الثالث، وحتى الجمهورية الثالثة التى واصلت هذا الاهتمام. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كان بوسع الكتاب أن ينظروا وراءهم إلى غزو فرنسى مستمر فى الامتداد، فى الجزائر، وفى الحماية الفرنسية على تونس وفى الاقتسام الفرنسى الإسبانى للمغرب فى تسعينيات القرن التاسع عشر، وبقى موضوع الحملة الصليبية يحظى بالشعبية. وكان كتاب ميشو قد صار كتابًا مدرسيا فى سنة ١٨٤٤م، وكانت قد صدرت منه ثمانى عشرة طبعة عند نهاية القرن، وفى سنة ١٨٧٧م ظهرت نسخة جديدة فاخرة، كانت مزينة بمجموعة من الرسوم الفاخرة التى رسمها جوستاف دوريه **Gustave Dore** تمثل القوة والسيطرة المسيحية. هذه البلاغة والصورة عن الحملة الصليبية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت فى العادة قناعًا لمشروعات أكثر

قذارة. ولكن من الخطأ أن نأخذها باستخفاف كامل. فقد كانت الجزائر مستعمرة فرنسية خلقتها الصدفة أولاً. ثم أداة لمواجهة عدم شعبية الحكومات المتعاقبة فى باريس. ولكن كثيرا من المهاجرين إلى الجزائر وحتى من الجنود الذين حاربوا هناك. والمبشرين الذين عملوا فى الصحراء. غالبًا ما اعتقدوا أنهم كانوا يلبون نداء أكثر سموًا. ولم يحدث فى أى مكان آخر بالأراضى الإسلامية أن كان هناك مثل هذا الأخذ بالثأر للمملكة اللاتينية (الصليبية فى القدس). فمرة أخرى تم زرع مجتمع مسيحى وسط الكفار. وكان يجب على كل المواطنين الوطنيين فى فرنسا أن يبتهجوا لأن وطنهم. الذى كان قد استولى على القدس فى الحملة الصليبية الأولى. قد جلب فى ذلك الحين القوة المسيحية مرة أخرى إلى الساحل الجنوبى للبحر المتوسط. لقد كانت هذه المهمة الكبرى لسان لويس (الملك لويس التاسع)، القديس الحامى للوطن. وهى المهمة التى تحققت بعد حوالي سبعة قرون من موته .

ولم يكن قصد فرنسا أبدا أن ترحل. لقد صارت الجزائر جزءًا مندمجًا من فرنسا الكونية، ووجودها مثالاً لحضارة فرنسا ومصيرها الثقافى. هذه "المهمة التمدينية" كان يتم تدريسها فى كل مدرسة فى فرنسا وفى مدارس الإمبراطورية فيما وراء البحار، وبالتدريج حلت هذه الأيديولوجية الموحدة محل مفردات الحملة الصليبية الطائفية. فيما عدا الدوائر الكاثوليكية العليا. بيد أن الدعم للجزائر الفرنسية زاد من اتساع الفجوة بين الكنسيين والمعادين للكنيسة. فقد آمن كثيرون تمامًا فى مهمة فرنسا فى شمال أفريقيا وكانوا مستعدين لاستخدام أية وسيلة لمساندتها. وكان يمكن التخلى عن أية أراض مستعمرة أخرى. مثل الهند الصينية، أو المساومة عليها فى خمسينيات القرن العشرين. ومن دواعى السخرية. أن الجزائر. أولى ثمار مهمة التمدين. والأرض التى أعيد غزوها بحملة صليبية. كانت هى التى قضت فى نهاية المطاف على الجمهورية الرابعة وهى التى أدت إلى تولى شارل ديجوال الرئاسة. وما يزال تجريم التخلى عن الجزائر الفرنسية **LAlgerie francaise** مستمرًا إلى اليوم .

وإذا كان هناك فرد واحد يجسد بعث الروح الصليبية الفرنسية من جديد فهو شارل دى فوكو **Charles de Foucauld**. فقد ولد سنة ١٨٥٨م. وصار يتيما سنة ١٨٦٤م. وصار فيما بعد ضابطا بالجيش. كانت سيرة حياة عملية طبيعية. لأن أسماء أسلافه الذين كانوا قد حاربوا فى الحملات الصليبية كانت منقوشة على حوائط متحف لويس. فيليب فى قصر الفرساى. ولكنه كان جنديا لا أمل منه، حتى اكتشف فى نفسه حبًا للصحراء ونزوعا إلى الاستكشاف. وفى سنة ١٨٨٧م. نشرت دراسته الرائدة "اكتشاف المغرب **La Reconnaissance du Maroc** وبعدها بعامين. وكان ما زال بطلا فى باريس، دخل ديرًا لنظام الترابيست وأعلن صراحة شوقه للاستشهاد. وفى سنة ١٩٠١م سافر بوصفه مبشرًا فى الصحراء وبعد خمسة عشر عامًا تم اغتياله. أو حسبما زعم البعض. استشهد. وسيرته التى امتدت من طرف إلى الطرف الآخر. تردد صدى سيرة حياة الشاب الإنجليزى لورنس. وعلى أية حال. كان هناك اتجاه نحو المسار المتقلب الذى سارت فيه حياة فوكو. وهو مثل أسلافه كان تسوقه قوى عديدة. ولكن أشدها قوة كانت غيرة وحماسة صليبية حقيقية. كان لورنس يفتقر إليها. وفى البلاد الأنجلو. سكسونية، كان النموذج الصليبى قد بات محل اهتمام بالماضى. أو موضوعا لحكايات الأطفال. مثلما فعل الروائى هنرى **G.A. Henry** فى روايته الناجحة:

For The Temple:. tale of the fall of Jerusalem [٥٧] (نشرت ١٩٠٤م)

* * *

فى بعض الأحيان كانت مفردات "الحملة الصليبية" وأيديولوچيتها ترد على بال المسيحيين المشتبكين فى حرب ضد المسلمين بسهولة تماثل تمامًا السهولة التى يرد بها مصطلح الجهاد على بال المسلمين الذين يقاومونهم. وفى كل من الحالين لم يحدث أبدا أن اقتربت النظرية من الممارسة. ولم يحدث أبدا أن قام أحد البابوات بتخويل السلطة لحملة فرنسا "الصليبية" فى شمال أفريقيا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وكثير من

حروب "الجهاد" التى نودى بها ضد الأوربيين فى الإقليم نفسه كانت من الناحية الفنية مريبة فى عيون السلطات الدينية العثمانية فى إستنبول. وعند هذه النقطة تطلعت كل من الحرب المقدسة عند المسيحيين والجهاد عند المسلمين للوراء إلى أصولهما ولكنهما كانتا قد تجاوزتاها. كانت لغة الحرب المقدسة قد صارت وسيلة للتعبئة. لا تكبح جماحها حدود القانون. فقد كان الحديث عن "الحملة الصليبية" أو "الجهاد" نغمة قوية، دعوة لا يمكن مقاومتها لحمل السلاح. لقد كانت ذكرى ظرفية عميقة عن الحماسة المتعصبة والبطولة. تبث فيها حياة جديدة فى كل مرة يتم فيها إحياء لغتها وأيديولوجيتها. ومع قدوم العصر الحديث لم تعد المسألة مسألة ما تعنيه أى من الكلمتين بالضبط فى المصطلحات القانونية، وإنما صارت هى الاستجابة التى تولدها كل منهما.

كانت المواجهات بين عالم الإسلام وعالم المسيحية فى إسبانيا وفى شرق المتوسط مختلفة عن بعضها تمام الاختلاف. ففى شرق المتوسط. تدخل العالم المسيحى الغربى فى منطقة كان لها بالفعل تراث مسيحى طويل المدى وبها نسبة سكان مسيحيين كبيرة. على الرغم من أنها كانت غير متمايزة كثيرًا. فى عيون الغربيين عن المسلمين. أما فى إسبانيا. فكان موقف "الإسلام" هو الذى تغير. من وضع المنتصر إلى وضع المهزوم. فقد صار الموريسكيون بقايا تبعث على الخوف والاحتقار فى دولة مسيحية وجدت فى نهاية الأمر أنه لا يمكن التسامح إزاء وجود المسلمين بها. وكانت المواجهة بين المجد الفرنسى والمقاومة الإسلامية فى شمال أفريقيا حملة صليبية "اصطناعية". وفى البلقان، المنطقة الثالثة حيث قابل "الإسلام" العالم المسيحى، كان الموقف مختلفًا مرة أخرى. وعلى مستوى واحد فقط. فى المواجهة بين العقيدتين الدينيتين- كان الموقف قابلاً للمقارنة بشكل محدد ومضبوط. وكل شىء عدا ذلك. اللغات. والتاريخ والأعراق. كان مختلفًا. ولكن إذا كانت هناك روابط مباشرة قليلة فقد كانت هناك على الأقل متوازيات مفترضة. ففى البلقان. اعتنق كثير من المسيحيين المحليين فى ألبانيا والبوسنة الإسلام. تمامًا مثلما كان المسيحيون قد فعلوا فى إسبانيا فى القرون الأولى بعد الفتح الإسلامى. أما فى شرق المتوسط. وبعد الاعتناق الجماعى للإسلام عقب الفتح الإسلامى، فقد حافظ المسيحيون المحليون على ثقافتهم وديانتهم متماسكة

إلى حد كبير. وقد عانى المسيحيون الأرثوذكس تحت حكم الصليبيين اللاتين أكثر مما عانوه تحت الحكم الإسلامي.

كانت هذه الأقاليم جميعا منتزعة من أوربا (إذا لم تكن جبال البرينيس تبدو الآن حاجزا مانعًا. فإنها كانت كذلك في الأزمنة السابقة) [٥٨]. وكان شرق المتوسط جزءًا من الشرق بلا جدال. "ينتمي" إلى أوربا فقط بمعنى ميتافيزيقي. ولكن البلقان كانت حدود أوربا البرية كانت حقًا على الهامش ولكنها مندمجة على الرغم من هذا [٥٩] وبحلول القرن السادس عشر بدا الاحتلال العثماني للبلقان ورمًا سرطانيًا داخل الحدود الطبيعية للعالم المسيحي. وقد عكس الجغرافي إبراهام أورتليوس Abraham Ortelius وجهة نظر واسعة الانتشار حين كتب. "بالنسبة للمسيحيين (انظر الأوربيين" في طبعة ١٥٨٧م من كتابه Thesaurus geographicus) [٦٠] فإن إعادة التأكيد على فكرة العالم المسيحي (حتى على الرغم من تقسيمه بعد الإصلاح البروتستانتي. تولدت عن تهديد الإسلام. لقد أدى الخوف المستمر من التوغل العثماني عبر حدود مفتوحة إلى جعل امتلاك الأتراك لهذه الأراضي التي كانت مسيحية من قبل خطرًا حقيقيًا».

ومنذ الربع الأخير من القرن السادس عشر. حتى ولو لم تكن هناك حرب بين الهابسبورج والعثمانيين. في كل سنة تقريبا. كانت عصابات التتار تنسل عبر الحدود من البحر وتتوغل للإغارة غربًا في Steyr غرب النمسا. ومثل الصراع في البحر المتوسط. الذي تخللته معارك عظيمة مثل معركة ليبانتو كانت هذه العدواة الجديدة بلا نهاية. وصار الصراع مع الإسلام في البلقان داخل جسد أوربا أكثر خطورة من أية مواجهات سابقة. وقد شكل الوزن الكلي للدعاية المضادة للإسلام. مثل الخطب الملتهبة في النمسا القرن السابع عشر التي ألقاها المقدس Abraham. Sancta ومئات الكتب والكتيبات الموجهة ضد الأتراك. هجوما ثابتًا يختلف عن أي هجوم انتشر من قبل. وهكذا صارت البلقان بمثابة موضع اللمسات النهائية للفعل النهائي من جانب أوربا في مواجهة "الاسلام". أي "حملة صليبية" أخيرة. ومن سوء الحظ أن العواقب طويلة المدى لتلك الخصومة بقيت بعد اختفاء العثمانيين.

هوامش الفصل الثامن

1. See Penny J. Cole, '"O God, The heathen have come into your inheritance" (Ps. 78:1): The Theme of Religious Pollution in Crusade Documents 1095–1188', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden: E. J. Brill, 1993, pp. 84–111.
2. Cited in Prawer, *World*, p. 91.
3. Richard G. Salomon, 'A Newly Discovered Manuscript of Opicinus de Canistris: A Preliminary Report', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* XVI (1953) 1, pp. 45–57. The full treatment of the Opicinus MSS and his life appeared in Richard G. Salomon, *Opicinus de Canistris: Weltbild und Bekenntnisse eines Avignonesischen Klerikers des 14. Jahrhunderts*, 2 vols, London: Warburg Institute, 1936. The second volume consists of a set of images of the various elements within the MSS. Opicinus de Canistris was obsessed with impurity, to the degree that Richard Salomon classed him a sexual psychopath. But he also observed, 'Of course, not everything in the work of a psychopath is pathological.' The supremely diabolical quality of the carnal connection between Muslim Africa and Christian Europe offended doubly against the law of God. There was no better (or more readily identifiable) means of depicting the corruption of the world than by suggesting a sexual union between a Christian and an infidel. In Opicinus' day, the loss of Jerusalem to the Muslim enemy was still an open wound. He struggled vainly to present the complexity of the political and theological world that confronted him; inevitably, his sheets remained a work in progress, unfinished and experimental. They were littered with images of God, Jesus Christ, doves with vast embracing wings, the Virgin Mary, strange and mythical beasts; yet in his own mind all were worked back into the themes embodied in his texts and captions.
4. See Jörg-Geerd Arentzen, *Imago Mundi Cartographica: Studien zur Bildlichkeit Mittelalterlicher Welt- und Ökumenekarten unter besonderer Berücksichtigung des Zusammenwirkens von Text und Bild*, Munich: Wilhelm Fink Verlag, 1984, p. 315. Chapter 4, 'Die Karte als Sinnbild in den Zeichnungen des Opicinus de Canistris', pp. 275–316, is the most thorough recent treatment of Opicinus. *Commisceo* has the sense of mixing or mingling, in this case perhaps relating to seminal and vaginal emissions.

5. Richard G. Salomon, 'A Newly Discovered Manuscript of Opicinus de Canistris: A Preliminary Report', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* XVI (1953) 1, p. 53.
6. Ibid., p. 52.
7. His sexual obsession has caused one scholar to observe that 'for Opicinus, earth cartography is tantamount to exposing the fornicating world . . . a cartographer's attempt to represent the world as a netherland that embodies – incorporates – corruption and sexual sin.' See Gandelman, *Reading Pictures*, pp. 84–5. Richard Salomon also noted 'his tendency towards prurience' and cited Opicinus' remark in his text: 'While I was working on this, a simple priest from Lombardy came to see me, and I had to cover the abdomen of the woman with a piece of paper in order not to shock him.'
8. H. Hagenmayer, *Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088–1100: Eine Quellensammlung zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*, Innsbruck: Wagner, 1901, p. 147. Cited and translated in Riley Smith, *First Crusade*, p. 91.
9. Cited and translated in Peters (ed.), *Christian Society*, p. 141.
10. Cited in Kedar, *Crusade*, pp. 161–2.
11. See Hillenbrand, *Crusades*, pp. 141–61, for the growing importance of Jerusalem within Islam.
12. Cited and translated in ibid., p. 112.
13. William of Tyre, *Historia rerum in partibus transmarinis gestarum*, trans. James Brundage in *The Crusades: A Documentary History*, Milwaukee, WI: Marquette University Press, 1962, pp. 79–82.
14. Runciman, *History*, vol. 2, p. 234.
15. II Thessalonians 2:4.
16. For the heroic self-image, see Renard, *Islam*, and Bridget Connelly, *Arab Folk Tale and Identity*, Berkeley, CA: University of California Press, 1986, pp. 4–6. The *Sirat al-Zahir Baybars* chronicles the wars of the Mamluk Sultan Baybars against the Mongols, Persians and Christian Crusaders. The *Dhat al-Himma* recounts deeds of the Arabs against the Byzantines and the Franks. 'However, while the fourteenth-century polemicist Philippe de Mézières praised the chivalry of the Turks it was a means only to condemn the "Saracens" who occupied Jerusalem and to chastise the failures of Christians who behaved worse than the Turks.' See Petkov, 'Rotten Apple'.
17. Malcolm C. Lyons, *The Arabian Epic*, 3 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1995, vol. 3, p. 112.
18. Cited in J. A. C. Brown, *Techniques of Persuasion: From Propaganda to Brainwashing*, Harmondsworth: Penguin Books, 1963, p. 19.

١٩- تجارب بافلوف ١٩٠١-١٩٠٢م أوضحت أن السلوك المحدد يمكن أن يكون «مشروطًا» . وقد بينت أبحاثه كيف أن الكلاب كانت تهضم طعامها . وأراد أن يعرف ما إذا كانت المحفزات الخارجية تجعل لعابها يسيل . وفى الوقت نفسه كان يدق جرسًا وهو يطعمها. وبعد فترة ، أخذت الكلاب- التى كانت من قبل لا تستجيب سوى عندما ترى طعامها وتأكله- يسيل لعابها عندما يدق الجرس . وعندما نشر نتائجه أطلق على هذه الاستجابة «رد الفعل المشروط» . هذا النوع من السلوك كان لابد من تعلمه ووصف بافلوف عملية التعليم هذه بالشرطية . ولكنه اكتشف بالقدر نفسه من الأهمية أن «رد الفعل المشروط» هذا يضعف إذا ما دق الجرس بصورة متكررة ولم يكن هناك طعام. فإذا حدث ذلك، فسوف يتوقف الكلب فى النهاية عن إفراز اللعاب عند صوت الجرس . وإذا لم يتعزز الحافز بصورة فعالة، يتضاءل «رد الفعل المشروط» ثم يفشل . انظر:

Ivan Petrovich Pavlov ، Essential Works of Pavlov، ed. Michael Kaplan ، New york ، Ny: Bantam Books، ١٩٦٦

20. Dupront, *Mythe*, vol. 1, p. 19.

٢١- يوضح إيمانويل سيفان بشكل مقنع أنه فى العالم المسلم قامت الفرقة على أساس "الحملة الصليبية" وهى كلمة كانت من نتاج الحداثة العلمانية. وقد تمت تعبئة كلمة حملة صليبية / صليبيين وأعيد إحياؤها مع إحياء الخصومة القديمة لصورة الصليب. انظر :

Emanuel Sivan، "Modern Arab Historiography of the Crusades"، Asian and African Studies : Journal of the Israel Oriental Society (١٩٧٢)، pp. ١٠٩-٤٩.

وبالمثل كانت كلمة جهاد قد سجلت للمرة الأولى فى اللغة الإنجليزية سنة ١٨٦٩م على الرغم من أن معرفة الحرب المقدسة عند المسلمين كانت موجودة منذ أواخر العصور الوسطى. وهكذا كان المفهوم مستخدمًا قبل الكتابة.

22. See Sivan, *Islam*, p. 7.
23. For the Crusading period, see Michael A. Köhler, *Allianzen und Verträge zwischen fränkischen und islamischen Herrschen in Vorderen Orient: Eine Studie über das zwischenstaatliche Zusammenleben vom 12. bis 13. Jahrhundert*, Berlin: Walter de Gruyter, 1991.
24. See Smail, *Crusading Warfare*, p. 215: 'Every strong place had, however, the same fundamental importance. Wherever it stood, it was the embodiment of force, and therefore the ultimate sanction of the Latin settlement.' Saladin acquired a curious position as the 'noble Arab' in Western eyes. Gladstone in his attacks on the Turks in 1876 talked of the 'noble Saladins', meaning the Arabs. But Sultan Baybars did not attract anything of the same favourable Western response as Saladin.
25. See Adrian J. Boas, *Crusader Archaeology: The Material Culture of the Latin East*, London: Routledge, 1999, pp. 91–120.
26. Cited by Colin Imber, 'The Ottoman Dynastic Myth', *Turcica* 19 (1987), pp. 7–27.
27. See Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture*, London: Thames and Hudson, 1971, p. 35.
28. Cited by Lord Kinross, *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Ottoman Empire*, New York, NY: Morrow, 1977, pp. 46–7.
29. Ransoms were demanded for the most eminent and profitable captives.

٣٠- كان هذا أمرا لافتا للنظر لأن العثمانيين هزموا فى سنة ١٤٠٢م على يد الحاكم المغولى تيمورلنك فى الأناضول ، وتم أسر السلطان بايزيد . وبدأت فترة طويلة من الاضطراب السياسى العثمانى ، عندما تمكنت حملة صليبية من استرداد الممتلكات العثمانية فى أوربا، وعلى أية حال، فإنه بعد حملة نيقوبولس الصليبية كانت الحماسة قليلة للقيام بحملة جديدة.

(م.٣٩٤)

31. Stavrianos, *Balkans*, p. 54.
32. His ally, the Albanian Skenderbeg, arrived just too late to turn the tide of battle in Hunyadi's favour.
33. Vlad Tepes believed in a puritan moral order and, in addition to many of his political rivals and the wealthy classes of Wallachia, what he deemed 'unchaste' women suffered the most terrible deaths under his rule.
34. See Mitchell B. Merbeck, *The Thief, the Cross and the Wheel: Pain and the Spectacles of Punishment in Medieval and Renaissance Europe*, London: Reaktion Books, 1999, pp. 126–57.

35. Doukas [sic], *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks: An Annotated Translation of 'Historia Turco-Byzantina'*, trans. Harry J. Magoulias, Detroit, MI: Wayne State University Press, 1975, pp. 231–5.
36. Letter of Bessarion 13 July 1453 to Doge Francesco Foscari.
37. See D. C. Munro, *Translations and Reprints from the Original Sources of European History*, Series 1, vol. 3:1, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1912, pp. 15–16.
38. Doukas, *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks: An Annotated Translation of 'Historia Turco-Byzantina'*, trans. Harry J. Magoulias, Detroit, MI: Wayne State University Press, 1975, pp. 231–5.
39. Babinger is dubious about the motives for killing Notaras. He points out that Kritoboulos (a fifteenth-century historian and governor of Imbros) discounted Mehmed's sodomitical lust and replaced it with a political rationale. See Franz Babinger, *Mehmed the Conqueror and His Life*, ed. William C. Hickman, Princeton, NJ: Princeton University Press, pp. 96–7.
40. Some, like ardent enthusiast for the war against the infidel Philippe de Mézières, came to blame the sinful schismatics, the Orthodox, for the triumph of Islam. See Petkov, 'The Rotten Apple'.
41. Cited Robert A. Kann, *A Study of Austrian Intellectual History from the Late Baroque to Romanticism*, London: Thames and Hudson, 1960, pp. 74–5.
42. On some of its nineteenth-century forms see Elizabeth Siberry, *The New Crusaders: Images of the Crusades in the Nineteenth and Early Twentieth Centuries*, Aldershot: Ashgate, 2000.
43. Over 170 million copies of *Hymns Ancient and Modern* were sold over a period of 120 years.
44. These were processions that accompanied the traditional Whit Monday festivals in Yorkshire.
45. Thus Thomas Jefferson's 'crusade against ignorance' of 1786 eventually becomes the Presidential 'Crusade in the Classroom' in the first year of the third millennium. This was the title of a school test volume in the United States. The description read: '"Crusade in the Classroom" is a practical non-partisan guide to the changes and choices you can expect from the Bush administration. In clear, jargon-free language, Dr. Douglas Reeves explains the Bush policies for school reform, predicts how these new programs will change our schools, and helps parents understand their options.' Kaptest catalogue, 2001, @ http://www.Kaptest.com
46. Midian was, like Ishmael, a son of Abraham, but born to Keturah. However, the Ishmaelites were elided with the Midianites, as in Judges 7: 12, where 'all the children of the east lay along in the valley as numerous as locusts'. Later 'Midianites' became for Christians another term for the desert Arabs, like Agarenes.

47. Thomas Moore's hymn of 1816:

   Come, ask the infidel what boon he brings us,
   What charm for aching hearts he can reveal,
   Sweet is that heavenly promise Hope sings us –
   'Earth has no sorrow that God cannot heal.'

   was given a new concluding verse in 1831:

   Here see the bread of life, see waters flowing
   Forth from the throne of God, pure from above.
   Come to the feast of love; come, ever knowing
   Earth has no sorrow but heaven can remove.

48. There were numerous Protestant and Catholic missions – English, Scottish, French, German, Italian, American and Austrian – to Palestine but they concentrated on winning over the Orthodox and did not seek to convert Muslims, which could have endangered convert and missionary alike.

٤٩- أوردت جمعية King's Cross Victory Crusade تقريرًا تفخر فيه بأنه فيما بين ١٩٧٦م وسنة ٢٠١١م قدمت أكثر من مليون نسخة من الكتاب المقدس إلى الهند. ولم يتم تحديد طبيعة النصر.

(٣٩٥.p)

49. The 'King's Cross Victory Crusade' has reported with pride that between 1976 and 2001 it has delivered more than one million Bibles to India. The nature of the victory was not specified. See Bibles for India campaign @ http://victorynetwork.org/VictoryIndia.html

50. *al-Akhbar al-saniyya fi'l-hurub al-salibiyya*, Cairo, 1899. See Emanuel Sivan, 'Modern Arab Historiography of the Crusades', *Asian and African Studies: Journal of the Israel Oriental Society* 8 (1972), pp. 124–5.

51. The Archbishop of Beirut wrote of the *al-Ifranj al-Salibiyyun* in the sixth volume of his *History of Syria* in 1901.

52. Especially in the works of Sayyid al-Qutb.

53. Joseph-François Michaud, *Histoire des Croisades* (4th edn, Paris, 1825, vol. 1, p. 510) cited and translated in Kim Munholland, 'Michaud's *History of the Crusades* and the French Crusade in Algeria under Louis Philippe', in Chu and Weisberg (eds), *Popularization*, p. 150.

54. Ibid., p. 154.

55. Ibid., p. 164, citing the Salle de Constantine in 'Versailles et son Musée Historique'.

56. The Congregatio de Propaganda Fide was established in Rome by Pope Gregory XV in 1622. It was charged with supporting missionary activity and

was at the centre of a large system of colleges and other educational institutions.

57. Reissued in the 1920s and twice more in the 1950s.

58. Even today, the high passes are a severe challenge to an ill-prepared automobile.

59. In 1537, the Tyrolese cartographer Johann Putsch produced a map of Europe called 'Queen of Europe'. It was subsequently reproduced in the 1588 edition of Sebastian Munster's famous *Cosmographia*. In Putsch's design, the Balkans are on the fringe of Europe, the queen's 'skirt', but with Greece, 'Scythia' and Muscovy, they are unquestionably 'Europe'. 'Tartary' to the east is conveniently separated by a river from Europe proper, and Constantinople is depicted as a Western city on the hem of the queen's garment.

60. John Hale, *The Civilisation of Europe in the Renaissance*, London: HarperCollins, 1993, pp. 5–6. Hale is citing Denys Hay, *Europe: The Emergence of an Idea*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1957, p. 109.

الجزء الرابع

(٩)

أشباح البلقان ؟

في بيت جدى. كانت الكتب "الدنيوية" تحفظ في غرفة مظلمة. عفنة وفي برودة الثلج. وأسفل السلم، وفي خزانة كتب من خشب البلوط المدهون وعليها ستائر خضراء صغيرة تغطي اللوحات الزجاجية. كانت توجد الطبعات المختلفة من الكتاب المقدس وأرفف من الكتيبات، وقراءات الكتاب المقدس والكراسات. وهناك أيضا كانت ألعاب الكتاب المقدس التي كنا نلعب بها- السؤال السادس "اذكر أسماء الرجال الصالحين الثلاثة الذين ألقى بهم في أتون النار" ولكن أعلى السلم كانت قد ألقيت في زوايا النسيان والتجاهل أكوام من الأعداد القديمة لمجلة National Geographic. وربطات غير متينة من الكتب التي كانت تنتمي إلى طفولة جدى، والتي كانت ما زالت تحمل البصمات الملطخة الدالة على قراءة أبي النهمة. وكانت هناك مجلدات عديدة من حكايات G.A.Henry المثيرة والمؤثرة حسبما ما أزال أظن. شرلوك هولمز في مجلة Strand Magazine والرواية البطولية Our Living General. وكل الأمتعة الشخصية المتنوعة التي تخص طفولة صبي عاش في العصر الفيكتوري. كانت أعداد مجلة ناشيونال جيوجرافي "دنيوية" بشكل استثنائي. ولكن في ذلك الحين كان جدى قد عرف الرب في فترة متأخرة تمامًا من الحياة ولم يكن الاتساق المطلق من نقاط قوته مطلقًا .

وعلى أية حال. ففي وسط كل معارك الكتب ورائحتها العطنة. أرعبني شيء واحد فقط. ففي مجلد أزرق. رمادي كئيب عنوانه :

With the Colours or. The Piping Times of Peace .

وصف مونتجوى جيفسون R. Mountjoy Jephson مغامرات ضابط شاب فى ستينيات القرن التاسع عشر. وقد تغلب على الأهالى الأصليين فى الجزر الأيونية، وهونج كونج، والهند والصين واليابان. وأنقذه مسدسه الذى يثق فيه من كثير من المواقف الحرجة. ولكنه كاد يلقى حتفه فى كورفو Corfu. فقد هاجمه كلب ألبانى ضخم:

"فى لحظة، ألقى بى على الأرض، وجثم الوحش الهائج فوقى، وناضل لكى يصل إلى رقبتى، ولكن من حسن الحظ أن يدى كانت بالفعل على رقبته وأمسكت به بعيدًا عن رقبتى... وكانت أنفاسه الحارة تلفح وجهى، وعيناه متقدتان مثل قطعة من الفحم المشتعل، واللعاب يسيل من فكيه القويين القاسيين، تلك الأسنان البيضاء الحادة كانت قد انغرست بالفعل فى لحمى، لأن يدى وأكمام معطفى ملوثة بالدماء وأشعر بالدم الدافئ ينساب نازلا على ذراعى وأنا أبعده عنى".

ومن حسن الحظ أن بوب فويل الشاب كان عنده سكين صيد وعمل على قتل خصمه بصعوبة. ثم واجه من ينتقم للكلب. "الألبانى ومعه سيفه الطويل مسلولاً ومشرعًا بيديه، ووجهه يفيض بالحيوية ومفعم بالغضب الشديد، على مسافة خطوات ثلاث منى". وسكين الصيد المصنوع من صلب شيفيلد يتصدى للسيف الطويل ولكن: "النصل الحاد للسيف يفلت من مقبض سكينى ويمزق ذراعى من الأمام من المعصم حتى المرفق ... وأنا الآن أتصارع معه، لأنه كلما اقتربنا أكثر من بعضنا كان ذلك أفضل بالنسبة لى ... ولاحظت كيف أن قوة رائحة الثوم قوية فى فمه، وحتى إلى هذا اليوم فإن نفحة من هذه الثمرة النفاذة تجلب دائما إلى عقلى المخاطر المميتة لهذا العناق الوحشى"[1].

وانتهى كل شىء نهاية طيبة، ذلك أن رفاق بوب أنقذوه فى اللحظة الأخيرة، وربطوا يدى الألبانى وقدميه بالقيود. ولكن بوب، أدرك أنه كان قد قتل كلب الرجل الأثير، وحوله إلى مهزوم، وقد أرعبتنى الرسوم التى حفرها سيمكين عن هذا الحادث وأنا فى سن التاسعة آنذاك، وما تزال لها قوة التخويف. لقد كان الألبانى المندفع

من الغابات. بعينيه الداكنتين القاسيتين. وشفتيه المزموتين ولحيته الخشنة. مادة الكوابيس التى تنتابنى. وإلى يومنا هذا بقى أول فهم غريزى وطفولى للبلقان. ولكننى لم أكن وحدى فى الرعب الذى أمسك بتلابيبى. ذلك أن الخوف من الشرق شائع فى كثير من الأمم. فبالنسبة للإنجليز، يبدأ وجود البرابرة من كاليه Calais وعلى حد قول الأمير متيرنيخ Prince Metternich. تبدأ آسيا من طريق فيينا السريع Remnweg الذى يؤدى شرقًا إلى البحر[٢]. بيد أن هذه الخارطة الثقافية لم تكن أبدًا غير دقيقة. والأراضى الواقعة جنوب نهرى الدانوب والسافا ذات شخصية مزدوجة. فقد كانت جزءا من أوربا وجزءًا من الشرق على حد سواء، ويصدق الأمر نفسه على الشمال البعيد. كانت بولندا وروسيا مسيحيتين، ولكنهما أيضا كانتا متوحشتين. ويكمن قلب هذا التناقض في بلاد اليونان. فالبلقان يقينا جزء من العالم العثمانى، ومع هذا فهو أيضا مهد الحضارة الإغريقية ومهد الحضارة الغربية. كيف أمكن لليونان أن تهوى على هذا الحضيض. من مجدها القديم إلى المكانة المضمحلة التى وصفها الرحالة الغربيون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر؟

كانت الإجابة، العثمانيون. "تركيا فى أوروبا" كانت قد بدأت فى القرن الرابع عشر. وكانت قد احتلت الأراضى المسيحية من بحر إيجه حتى بودابست فى ثلانينيات القرن السادس عشر، ثم انكمشت فى بطء لتقتصر على سهل أدرنة فقط، التى كانت مركزها الأوربى في بداية الأمر، وعلى مدينة إستنبول فى عشرينيات القرن العشرين. وقد صارت القرون الخمسة تقريبا التى سادها الحكم العثمانى بمثابة المشجب الذى يعلق عليه كل فشل فى هذه البلاد. كانت هناك وحشية وقوة غاشمة كامنة فى شعوب البلقان وفى تضاريسها على السواء، إذ إن الأتراك حولوا الناس إلى متوحشين. كما بقيت الأرض مستعصية على الترويض. ويتحدث روبرت كابلان فى كتابه الأخاذ الذى يحمل عنوان Balkan Ghosts:. Journey Through History (والصادر سنة ١٩٩٤م). عن العثمانيين كما لو كانوا قد جثموا فوق صدر البلقان مثل الكابوس. وكان يمكن نسبة أى شىء خاطئ إلى وجودهم. وثمة راهبة أرثوذكسية هى الأم تاتيانا. كانت من بين مصادره فى المعلومات قالت له. "كان يمكن

لنا نحن (الصرب) أن نكون أعظم حتى من الإيطاليين لولا وجود الأتراك"، وأضاف كابلان نفسه. "هذه العبارة كانت تتكرر باستمرار فى جميع أنحاء البلقان أيام دام ريبيكا (دام ريبيكا وست Dame Rebecca West. مؤلف كتاب Black Lamb and Grey Falcon وفى أيامى. ويكتب دام ريبيكا "لقد خرب الأتراك البلقان، وخلفوا دمارًا جسيمًا بحيث لم يتم إصلاحه بعد"(٣).

بالنسبة لكابلان. كان يمكن حشد ماضى البلقان واستخدامه فى شرح الأحداث القاتمة المؤلمة. وقد كنت على مدى عدة سنوات معجبًا بالنظرة الفاحصة فى كتاباته. كما أعجبتنى قدرته على تقديم الخطر، فى الضوء وفى الظل على السواء. ولكنه فى كتاب Balkan Ghosts غابت عنه هذه الميزات. ففى هذا الكتاب كتب عن عالم ليس به سوى الرعب والوحشية. دونما مراعاة للفروق. يطارده دائما ماض يتسم بالتفاؤل. بل إن مفردات كابلان اتسمت بالقتامة. كانت مفرداته ما زالت قهرية. ومع هذا. وفى الوقت نفسه. جلب إلىّ من جديد ذكريات طفولتى المخيفة عن الألبانى الذى تفوح منه رائحة الثوم.

لقد نمت أسباب نظرته السوداوية العميقة من الفترة التى كتب فيها. فهنا رجل يرى الأماكن التى كان قد عرفها فى أيام أسعد حالاً، وقد صارت فجأة تضج بالوحشية والقتل. واكتشف أن أصول هذا التحول المكشوف تكمن كليًا فى تاريخ المنطقة الطويل والمظلم. كان الماضى حاضرا. ومعه التعبيرات المجازية عن وحشية سبعينيات القرن التاسع عشر التى تم ربطها بأعمال الوحشية التى جرت فى تسعينيات القرن العشرين. لقد كانت المذابح المجرية التى وقعت سنة ١٨٧٦م. عندما قتل الباشبوزوق العثمانيون آلافا بحرابهم وسيوفهم الطويلة. النقطة التى يمكن أن نقول عندها. بالنسبة لروبرت كابلان. "فى الأزمنة الحديثة. كل شىء بدأ هنا" (٤). لقد كان يختلق نمطا خاصًا من التاريخ للبلقان- وهو ما أسماه عالم الاجتماع إيمانويل واللرشتين Immanuel Wallerstein فيما بعد "فضاء الزمن". حيث يكون معنى الزمن والفضاء فى حياتنا اختراعًا بشريًا ... فالزمن والفضاء منغلقان سويا لا ينفصمان ويشكلان

بعدًا واحدًا (٥) وقد استخدم واللرشتين مثالاً بلقانيًا واحدًا. هو مثال كوسوفو، ومثالاً من أيرلندا الشمالية لكى يبين أن روايتين مختلفتين تمامًا عن الماضى يمكن أن يتواجدا في الوقت نفسه فى المنطقة نفسها، وهما روايتان لا يمكن لأى قدر من الأدلة والبراهين أن تغيرهما أو تنكرهما (٦). وهذا ما تعود علماء الأنثروبولوجى أن يسموه الحاضر الأنثروبولوجى. نوع من "فضاء الزمن" يناسب بصفة خاصة الشعوب "البدائية" التي في عالمها قد تجمد الزمن. ولم تكن هناك إمكانية للتغيير أو التبديل(٧) هذا الطراز من تاريخ البلقان يتجسد فى فرانجو تودجمان **Franjo Tudjman**. العالم وأول رئيس لكرواتيا بعد سنة ١٩٩١م(٨) .

ولكن، في وقت لاحق، بعد أن قرأت المزيد، صار واضحًا أن كابلان لم يكن وحده فى تبنى هذه القناعات. لقد وقف فى تراث طويل من الكتابة عن البلقان وما يرتبط به من حقد وقتامة (٩) وقبل حوالي ثمانية عقود من كتاب كابلان **Journey through History** كان هناك كاتب آخر هو هارى دى ويندت **Harry de Windt**، زميل الجمعية الجغرافية الملكية، ومؤلف كتاب:

The New Serbia. Aride to India from Paris to New york by Land .

قام بزيارة البلقان بوصفه مراسلاً خاصًا لمجلة **Westninister Gazette** وكان عنوانه يحمل ببساطة عنوان **Through Savage Europe**. وقد شرح السبب فى هذا. «لماذا أوربا المتوحشة؟» سألنى صديق كان قد شاهد منذ وقت قريب رحيلى من شيرينج كروس **Charing Cross** إلى الشرق الأدنى.

وأجبت، لأن المصطلح وصف بدقة البلاد المتوحشة التى لايوجد بها قانون والواقعة فيما بين البحر الأدرياتى والبحر الأسود .

ولسبب غامض، على أية حال، فإن الرجال الإنجليز أقل ألفة بجغرافية دول البلقان منهم بأفريقيا السوداء. كانت هذه حالتى ومن ثم كان على أن أتعلم أن هذه البلقان نفسها يمكن أن تتباهى بمدن عبارة عن نسخ مصغرة من لندن وباريس. بيد أن

هذه مراكز متحضرة. أما المناطق البعيدة فهي. كما لو كانت تنتمي للماضي. موطن للخروج على القانون وأعمال العصابات. حيث يجب عليك أن تسافر ومعك مسدس في كل جيب وحياتك على كفك. وعن هذه الحقيقة. كما سيرى القارئ، كانت لدينا أدلة دامغة وغير سارة قبل نهاية الرحلة. وعلاوة على ذلك. ألا تباغت عواصم صربيا وبلغاريا التي تغص بالقصور الفاخرة العالم الخارجي بين الحين والحين بجرائم تنتمي إلى بربرية العصور الوسطى ... ولهذا السبب فإن كلمة "متوحش" تنطبق تماما على هذا الجزء من أوربا الذي نوشك على عبوره" [١٠].

لقد كان ويندت وكابلان يقولان الشيء نفسه تقريبًا. فلا علاج للبلقان ولا شفاء لها، لأنها ملعونة بماضيها الجماعي. ويصبح كتاب "رحلة عبر التاريخ" جولة في قلب الظلام، كتالوج لأعمال الرعب. وهكذا، فإن الحاضر إذا وضع في سياق هذا الماضي المظلم. سواء سنة ١٩٠٧م أو سنة ١٩٣٩م. يبدو قابلًا للتغير. وحتما تظهر القصص نفسها في كل من الكتابين بأشكال مختلفة: الرواية غير المحتملة من أن الإمبراطور باسيل الثاني سفاح البلغار أمر بسمل عيون أربعة عشر ألف أسير بلغاري، وفلاد صاحب الخازوق Vlad the Impaler وغابته التي تتكون من الأجساد الملتوية على الخوازيق، وساحة المعركة العابسة في كوسوفو بولجي. كان كابلان قادرًا على أن يضيف حواجز الكابوس التي وقعت في تسعينيات القرن العشرين. فقد كان هاري دي ويندت قد اندفع في رحلة سياحية أشبه بالزوبعة، ولكن روبرت كابلان تحرك على نحو أكثر منهجية، يسجل الأصوات الحقيقية لآلهة الانتقام، مثل الأم تاتيانا التي كانت قد رأت كل شيء وعانت كل شيء مثل الأم شجاعة في رواية برتولد بريخت: "إنني مسيحية خيرة، ولكنني لن أدير الخد الآخر إذا ما قام أحد الألبان بسمل عيني رفيق من الصرب أو اغتصب فتاة صغيرة أو خصى صبيا صربيا عمره اثنا عشر عامًا ... لقد اعتادت عيناي على الظلام وللمرة الأولى نظرت إلى وجهها نظرة جيدة. كان لها مظهر قوي وعظام خديها بارزة، ولها عين أم متوقدة. كانت امرأة عجوزًا حسنة المحيا من الواضح أنها كانت جذابة في شبابها وعلى الرغم من أن عينيها كانت نارية، فإنها ظهرت أيضا مشتتة بشكل غريب، كما لو كانت ملطخة بالخرافة"[١١].

هنا حقيقة أكثر عمقا. فالعمى بسبب الخرافة، والقصص القديمة التى تم تجميلها، وأعيدت حكايتها، ثم اكتسبت قدرًا أكبر من المرارة عند إعادة حكايتها، كل هذا يكمن فى قلب هذه الرحلات عبر التاريخ.

وعلى النقيض من هذا، قدم الكاتب الأيرلندى جيمس كريح **Jemes Qreagh** مؤلف كتاب **Scamper Sebastepol and Jerusalem** فى سنة ١٨٦٧م قدم نفسه على أنه من الحمقى الذين يتحول كل شيء لديهم إلى الجانب المشرق [١٢]. وفى نفس الوقت الذى كان السكان المسلمون فى مقاطعتى هرزيجوفينا والبوسنة يحملون السلاح ضد السلطان الإصلاحى فى إستنبول، انطلق هو فى جولة سياحية ترفيهية مع مسار نهر الدانوب إلى بلجراد، ومن هناك اتجه غربًا إلى البوسنة وكرواتيا، وفى النهاية عرج جنوبا نحو جبال هرزيجوفينا، والجبل الأسود والأراضى الألبانية. وكتابه الذى نشر فى السنة التالية، كان يحمل عنوان:

Over the Borders of Christendom:. Journey through Hungary، Slavonia،

Serbia، Bosnia، Herzegovina and Montenegro to the north of Albania in the Summer of 1875.

ويبدو انشغال كريج الأساسى منصبًا على. البنات الطويلات ذوات الخلقة الحسنة يلبسن صديريات صارخة وتنورات تجعلهن يبدين، من على بعد، فى مظهر الفتيات الأفغانيات"[١٣] ولكن تحت الراية المرحة البشوشة، رأى كريج أشياء من منظور مختلف تمامًا عن كثير من الرحالة الغربيين. واقتبس عن مجرى عجوز كثير السفر قابله فى رحلته مع نهر الدانوب:

"الفيلسوف المسافر سوف يجد رجالًا ونساء، وفى قاع الشيء سيجد نفسه فى كل مكان. هناك الطموح نفسه فى كل قلب، والسذاجة نفسها فى كل عقل، والنصب

والغش نفسه فى كل قسيس، والرغبة نفسها لدى كل امرأة، والأنانية نفسها بين الجميع. ولغاتهم وتعليمهم هو وحده المختلف"[١٤].

وعلى غير العادة، فإنه وضع القليل من الفروق المميزة بين المسلمين والمسيحيين. ففى بلجراد وصف بانوراما "للمآذن الرشيقة للمساجد التركية المهجورة، وأبراج الكنيسة والأسقف الواسعة من الآجر الأحمر"؛ لقد كانت المساجد «مغلقة الآن أو تستخدم فى أحقر الأغراض وأدناها؛ وفى مكان ما كان الأتراك يعتبرونه مقدسًا فى وقت مضى، كانت مساجدهم تدنس وتتنجس على أيدى قوم كانوا عبيدًا لهم من قبل"[١٥].

وعلى أية حال.. قدم كريج صورة كلية تشبه كثيرا ما قدمه غيره من الكتاب فى بعض الجوانب. فخارج المدن والبلدات كانت البلقان بلاد قانون، لأن الحكومة العثمانية كانت لها سلطة قليلة فى أراضيها الحدودية. وقد وصف كريج تركيًا أخبره أن السفر فى البوسنة غاية فى الخطورة، وأشار إلى جرح فى جانبه، قال إنه جاء نتيجة هجوم فى الغابات فى اليوم السابق. وأى واحد، مسلمًا كان أو مسيحيًا، من السكان المحليين أو زائرًا، كان ضحية محتملة. وقد بقى الأيرلندى الذى يبدو فى ظاهره منغلقًا على نفسه فى خان حقير، حيث «يرقد المشاغبون القذرون، وأصحاب المنظر الجميل، والمسلحون المتأنقون مبعثرين على الأرضية»؛ وهاجمته جحافل البراغيث– "أكثر أماكن الإقامة دفاءة فى سانت كاترين (فى لندن) لا يمكن أن يكون أكثر وساخة من هذا المكان؛ ومع هذا... فإننى لم أنم أبدا بمثل هذا الارتياح" [١٦]. ولكنه لاحظ بدلا من أن يلعن أو يدين، ومن المؤكد أنه لم يلق باللوم على العثمانيين فى كل أمراض البلقان أنه. "يقف الأتراك والمسيحيون فى البوسنة، باستثناء الخدمة فى الجيش، على قدم المساواة، ولكن تذكر الاضطهادات القديمة ما يزال يلهم هذه الكراهية المميتة، مثل عواطف رابطة الريباندمن Ribandmen الكاثوليكية ورابطة الأورانج Orange men البروتستانية فى شمال أيرلندا المستعدة دائما للانطلاق بعنف يثير الدهشة لأن الأسباب التى قد تبرر هذا العنف قد زالت منذ زمن بعيد.

وفى البوسنة يمكن لأى عيد، أو موكب، أو كلمة أو أغنية أن تزج بالمقاطعة فى أتون لهيب يمكن أن يجعل حتى أعمال الشغب في بلفاست تتوارى فى الظل .... ويعلم الله أن الحكومة التركية ليست أكثر إدارة مستنيرة فى أوربا؛ ولكن لديها صعوبات مخيفة تعوق نضالها بحكمها المستبد الأبوى الذى يمنع البوسنيين بالتأكيد من تمزيق بعضهم البعض إربا إربا.

وكل السوء يمكن أن يعزى إلى الأتراك، وغالبا ما نسمع أنهم طغاة يمارسون الاضطهاد لدرجة أن الناس بصفة عامة يعتقدون أنهم كذلك"(١٧).

وفى الجبل الأسود، فى مرحلة لاحقة من رحلته، كانت له مقابلة أخرى، تشبه جدا لقاء روبرت كابلان مع الأم تاتيانا:

"رجل مهذب، مدجج بالسلاح ويرتدى معطفًا لونه أخضر فاتح أخبرنى أنه كان محاميًا في المحاكم العليا الإنجليزية. وعبر عن عجبه من أننى نجوت دونما حوادث فى أثناء رحلة طويلة مثل هذه فى تركيا وبدأ يتحدث عن الأتراك بعبارات رشيقة مصقولة، قدمها فى إيماءات مفعمة بالحرارة والفصاحة القانونية. وبعينين لامعتين، أسماهم الكلاب. والخنازير والثعالب والأفاعى والثعابين، وأعلن أنهم متوحشون وغير متحضرين ومنحطين. على حين وصف المسيحيين فى المقاطعات نفسها بأنهم متحضرون ومهذبون ومتقدمون".

وفى أدب اعترض كريج. قائلا إن تجربته ليست هكذا. وانقض عليه المحامى مهاجمًا. قائلا إنه. "لم يسمع قط مثل هذا الرأى فى حياته كلها. وأن من واجب جميع المسيحيين أن يكرهوا المسلمين"(١٨).

وكتب الرحلات هذه. وكانت هناك كتابات أخرى عديدة مثلها- ليست يوميات ولا كتب تاريخ موثقة. وإنما هى نوع من الهجاء. فكل كاتب كان يحكى الحكاية التى صنعها لنفسه. والشخصيات من أمثال المحامى الساذج فى الجبل الأسود أو الراهبة الأرثوذكسية ذات العينين المتقدتين. قد اختيرت لأغراض تتعلق بالسرد. لحكاية قصة

معينة. لقد أراد كابلان أن يبين أن البلقان كانت مثبتة فى الكراهية القديمة. وقد أسدت الأم تاتيانا معروفًا. وقدم كريج. الذى أعجب بخصائص الرجال العثمانيين المهذبين. ذلك السلافى المختال بنفسه الذى أدان نفسه بوصفه في جوهره "جبليًا خشنًا" وأن ربه كان يسمى "السفاح العجوز" على ما زعم كريج [١٩]. وداخل أراضى البلقان بدا أنه من الممكن. فى زمن رحلة قصيرة. جميع مشاهد الماضى والحاضر بالتالى فى مشهد واحد. ثم يذهب كاتب حديث غزير الإنتاج عن الإقليم يذهب إلى حد أنه يقترح أن "البلقان ... هى اللاوعى فى العالم. فهنا توجد ذكريات التاريخ المكتوبة. ومخاوفه وآلامه وصوره" [٢٠].

وفى عالم تكتنفه الظلال مثل هذا لا يمكن أن يؤخذ شىء بثقة. وحتى صورة شبه جزيرة البلقان الوعرة الجدباء التى غالبا ما يتم تصويرها فى الرسوم. ليست صحيحة سوى فى جزء منها [٢١]. فالتلال والجبال تغطى مساحة كبيرة من الأرض الواقعة جنوب نهر الدانوب وسلسلة جبال الكربات فى الشمال. ولكن لم تكن هناك سلسلة ضخمة من القمم العالية (tatena mundi) تجرى بشكل مستمر من البحر الأسود حتى جبال الألب ثم تستمر حتى المحيط الأطلنطى حسبما كان بعض الجغرافيين قد أكدوا من قبل [٢٢]. وفى الحقيقة. أن إيطاليا أكثر وعورة من الكثير من أراضى البلقان [٢٣]. ففى أماكن كثيرة من صربيا، "قمم الجبال أقل من ألفى قدم ونادرًا ما تتجاوز ثلاثة آلاف قدم". وحتى فى الجبل الأسود "الذى يشبه بحرًا من موجات هائلة تحولت إلى صخور". نادرًا ما تتجاوز القمم الجبلية ستة آلاف قدم" [٢٤]. ولكن فكرة الأرض الفضاء المتطرفة كانت تضرب بجذورها فى العمق. لقد كان أصل كلمة "بلقان" كلمة تركية قديمة. تعنى ببساطة الأرض العالية (المرتفعات). وعلى وجه الدقة منحدر جبلى تكسوه الغابات .

وبما أن الغربيين أخذوا خطأ بمفهوم أن الإقليم بأسره مرتفعات برية. فإن المنطقة كلها فيما بين بحر إيجه ونهر الدانوب. جبالا. وتلالا. وسهولاً مفتوحة. كانت يتم تعريفها على أنها "مرتفعات". وقد وجدت ماريا تودورفا **Maria Todorova**

أن أول استخدام لكلمة "البلقان" في كثير من اللغات الغربية جاء عند نهاية القرن الخامس عشر. في وصف بعث به عالم إنساني إيطالي هو فيليبوس كاالليماكوس Phillippus Challimachus إلى البابا بول الثاني. وقد لاحظ أن الناس المحليين يسمون الجبال بولكانوم "Bolchanum"(٢٥). ومع هذا فإن ذلك المفهوم الخاطئ كان كاشفًا أيضا. لأنه في القرن التاسع عشر كانت الجغرافيا تدور غالبًا حول المفهوم وحول القياس العلمي بالقدر نفسه. وهكذا. في أسكتلندا كانت "المرتفعات" تعني الوحشية والبربرية. على حين تساوت كلمة "الأراضي الواطئة" مع الزراعة والحضارة(٢٦). وفي الحقيقة كانت هناك الكثير من المرتفعات المتوحشة جنوب "خط المرتفعات". وقد وضع بعض رسامي الخرائط بالمنطق السليم علامات على كل من المرتفعات "الشمالية" و"الجنوبية"(٢٧).

كانت الجبال علامة على المخاطرة. وبهذا المعنى كانت البلقان vertiginous (تسبب الدوخة أو الدوار) حقًا. كانت الأراضي المرتفعة في البوسنة. وهرزيجوفينا، والجبل الأسود وألبانيا مليئة، حسبما علم الرحالة الغربيون. ليس بالفلاحين النابضين بالحيوية. وإنما بعصابات اللصوص وقطاع الطرق. وعلى أية حال، كانت هذه الفئات قابلة للتحول والتبدل. وغالبا ما كان مفهوم الأهالي المحليين صورة مرآة تعكس وجهة نظر الزائر. على الرغم من أن الأهالي ينظرون إليها نظرة مختلفة. فالبلقان بالنسبة للشرقي. مثل كلمة Montana بالنسبة للإسباني في أقصى الغرب، كانت تعني مأوى الخارجين على القانون من اللصوص والمجرمين. ولكنها كانت أيضا قلب أرض الشرف القبلي، والوطنية في وقت لاحق. فالمحاربون الأشداء الذين تربوا على الشجاعة والبسالة، وفي أكثر مناطق البلقان منعة وتحصينا. هم رجال متوحشون. يسمون armatoli، hajduks، Klephts- قد حافظوا على عوائدهم القديمة. والحكايات والأساطير التي تحكي عن ماض بطولي(٢٨) وكانوا محل إعجاب ومبعث خوف في آن معا. فالقاتل واللص يمكن النظر إليهما بوصف كل منهما رجلاً شريفًا. كانوا شخصيات ملحمية. تكمن شهرتهم (وليست سمعتهم السيئة) في تدبير الانتقام من أعدائهم. ويحكي المؤرخ برانيمير أنزولوفيك Braninir Anzulovic كيف أنه في

إحدى الحكايات الشعبية عاقب جروجو Grujo زوجته على خيانتها لحساب الأتراك:

لطخ زوجته بالشمع والقطران

والكبريت والمسحوق سريع الاشتعال

ولفها فى قطن ناعم

وصب عليها براندى قويًا

ودفنها حتى وسطها

وأشعل الشعر فوق رأسها

على حين كانت هى تلقى الضوء مثل شمعة براقة[٢٩]

وهناك ثقافات أوربية أخرى لديها أبطال شعبيون غامضون مشابهون [٣٠]. ولكن البلقان لديها نزعة غنية إلى صناعة الأساطير. مع كل قرية أو عائلة تحكى قصصًا عن أبطالها المحليين. وكان اعتزاز السلاف والألبان بلغتهم كبيرًا. ويعود السلاف بشكلها المكتوب إلى اثنين من المبشرين الأرثوذكس الأوائل من سالونيكا. هما كيرل وميثوديوس اللذان خلقا صيغة من الطقوس الكنسية فى عبارات سلافية وكتباها فى خط فريد يسمى Glagolitic. من الفعل السلافى القديم "يتكلم". وعرفت هذه اللغة فيما بعد باسم سلافية الكنيسة، وقد جعل هذا اللغات السلافية تتفوق على غيرها من اللغات المحلية. مما رفعها فى عيون السلاف إلى مستوى اللاتينية والإغريقية على اعتبار أنها وسيلة جديرة لنقل كلمة الرب.

هذه اللغة الحاذقة والجميلة لم تلبث أن طورت أشكالاً وتنويعات عديدة. إذ إن الإقليم الأكثر تفتتا- فى اللغة وفى النواحى العرقية والدينية كذلك- يقع عند الطرف الأقصى من البلقان على امتداد ساحل البحر الأدرياتى، عبر ما يسمى الآن هرزيجفوينا والجبل الأسود وحتى ألبانيا الحديثة واليونان[٣١]. وعبر الجرف المكون

من الحجر الجيرى فى جبال الألب الدينارية فى البوسنة، كان هناك تنوع وتعقيد أكبر من هذا. وهناك وجدت الكاثوليكية إلى جانب الأرثوذكسية والإسلام. ولكن حتى داخل الجماعة الكاثوليكية كانت توجد تقسيمات. كان بعض الكاثوليك يعبدون الرب باللاتينية ويكتبون بالحروف اللاتينية. حسبما علمهم المبشرون من إيطاليا. وآخرون تعلموا شعائرهم وطقوسهم الكاثوليكية فى اللغة السلافية الكنسية فى الخط الجلاجوليتى، وغيرهم يقرأونه فى تنويعة بوسنية من الخط الكيريللى. وكان هناك فى البوسنة أيضًا (فى نظر الكاثوليك) كنيسة بوسنية هرطقية. وفى مناطق كثيرة كانت توجد جيوب من الأرثوذكس. وهكذا، كان عالم المسيحية فى غرب البلقان لا يحتوى فقط على التقسيم الثنائى بين الأرثوذكسية والكاثوليكية، وإنما يضم تنويعة محيرة مربكة من الأشكال في اللهجات وخطوط الكتابة، يدافع أتباع كل منها دفاعًا وحشيًا عنها. وإلى الشرق كانت الأرثوذكسية هى السائدة. ولكن حتى هناك كانت توجد فروق طفيفة عديدة بين اللهجات [٣٢]. وفيما بين السلاف كانت الأوصاف الوطنية مثل "الصرب" أو «البلغار» لاتحدد الهوية بشكل كاف [٣٣]. وكان وضع الغرباء فى خانة الأصدقاء أو الأعداء يعنى معرفة القرية أو البلدة التى جاءوا منها. وأية جماعة أو عرق هم جزء منه .

والتنوع المفرط من الصعب أن ننسبه إلى "الأوطان" المحددة بوضوح والتى قدمها المؤرخون الوطنيون وأرباب الدعاية فى القرن التاسع عشر [٣٤]. وهناك تفتت مماثل وجد خارج السكان السلاف. فالأرض التى صارت ألبانيا فى سنة ١٩١٢م لم يحتلها السلاف قط. فالإلليريون الأصليون الذين عاشوا هناك حافظوا على ثقافة متمايزة ولغة شبه لاتينية لا يفهمها السلاف. وداخل الفئة العرقية "للألبان". وكانت هناك تقسيمات واضحة. سواء فى الديانة أو فى البناء الاجتماعى. ففى الجنوب. بالقرب من الأراضى اليونانية. كانت المسيحية الأرثوذكسية هى السائدة. على حين كانت بعض القبائل في الشمال كاثوليكية. ولكن الجماعات الألبانية كانت خاضعة لمزيد من التقسيم بين ملاك الأرض الجنوبيين (Tosks) وسكان المرتفعات الشماليين (Ghegs). وبعد الغزو العثمانى للبلقان. احتفظت جماعات التوسك والجيج بالمناطق

المسيحية والإسلامية. فسرعان ما أصبح كونك ألبانيا يعنى كونك مسلمًا. وفى البوسنة، أيضا، كان هناك خليط دينى إضافي، مع تحول عدد كبير من السلاف المحليين إلى الإسلام، لدرجة أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم "الأتراك" (Turci). واستمروا يستخدمون لغتهم السلافية الأم، ولكن بنغمة بوسنية متمايزة وهناك مسلمون آخرون "أتراك حقيقيون" سواء من الأناضول أو من الشراكسة الذين وطنهم الحكام العثمانيون فى البلقان. كانوا دائما متمايزين عن "الأتراك" المحليين ويُطلق عليهم اسم Turkuse [٣٥] .

وأية خريطة للبلقان أوضحت حقًا ذلك التنوع غير العادى فى اللغات والعقائد الدينية والتوزيع العرقى فى الإقليم لن تبدو مثل أى شيء من حدود القرن العشرين. وإذا كان هذا النموذج يشبه شيئا فإنه يشبه الخريطة البحرية لأرخبيل ما، مثل أرخبيل بحر إيجة الشمالى أو أرخبيل الكيكلاديس Cyclades. وهكذا، بدلاً من "شبه جزيرة"، وهو الوصف التقليدى للإقليم- ربما يكون الاستخدام المجازى الأفضل لوصف البلقان أنها أرخبيل، أى نموذج من الجزر المنفصلة، بعضها كبيرة، والبعض الآخر صغيرة. وعلى أية حال، فإن مجتمع الأرخبيل، وخاصة المجتمع الذى وضع فى فضاء عرقى ولغوى ملفوف وملتو كما هو الحال فى البلقان، سوف يصبح بالضرورة واعيًا تمامًا بالفوارق المحلية، ولن يتقبل بسهولة البنى المنظمة للسياسات الأكثر تقليدية[٣٦]. وقد أصابت الدهشة إديث دورهام التى كانت تسافر فى مقدونيا سنة ١٩٠٥م، لأنه فى بعض المناطق المعزولة كانت العادات المسيحية تبدو وقد اصطبغت بقوة بالمعتقدات الشعبية القديمة:

"لا أظن أننى رأيت قط صورة قديس فى أى من هذه البيوت. فالأيقونة والمصباح، التى تستلفت النظر جدا فى بيوت الصرب، وسكان الجبل الأسود والألبان الأرثوذكس، كانت غير موجودة، ولا حتى يتوسل الناس بالمسيح والقديسين، ولا يرسمون علامة الصليب على أنفسهم فى أوقات الوجبات، أو قبل الذهاب للنوم فى المساء، ويبدو أنهم لا يمتلكون شيئا من الحماسة الدينية التى هى من الخصائص

البارزة جدا للفلاحين الأرثونكس. ويبدو أنهم يؤمنون بالتمائم التى يلبسونها أكثر من أى شيء آخر. وكان بعض هذه التمائم غاية فى الغرابة. أحدها كان قلبًا من الزجاج الأخضر. أو خرزتان وربيتان، أو قطعة نقود إنجليزية"(٢٧) .

وأدركت بسرعة أن التعميميات السهلة فى بلاد على هذا القدر من الشذوذ أمر بلا معنى. فقد رأى الناس أنفسهم أصحاب ولاءات وهويات متعددة. ونسبة الكراهية إلى الأصل العرقى كان تصنيفًا محدودًا للغاية. فمثلما هو الحال فى كل مكان كان النفور قد كشف الأسباب وتجلياتها. فقد كان الجيران يحاربون بعضهم بعضًا. والرجال والنساء على خلاف. وكان جميع الغرباء شياطين وخطرين. وربما كانت الفردية العنيفة الخاصية الوحيدة التى تميز البلقان بأسره. وهو ما يصدق على أهل السهول بقدر ما يصدق على أولئك الذين يشغلون الأرض الجبلية.

* * *

وليس هناك أحد متأكد تمامًا أين يجب رسم حدود البلقان. هل كانت جبال الكاربات. فى إمارات والاشيا ومولدافيا. المسكونة "بالرومانيين" الذين يتحدثون لغة لاتينية- جزءًا من البلقان. والراهب الترانسلفانى الذى نشر فى سنة ١٧٧٩م كتاب صلوات عنوانه **Carte de rogacioni** باللغة اللاتينية بدلاً من الخط الكيريللى كان يظن أنها ليست من البلقان. لقد عمل "إعلانا عن التمايز العرقى للرومانيين وتأكيدا على الرابطة مع أوربا"(٢٨). ومعظم هذا الفصل يهتم بالأراضى الواقعة جنوب نهر الدانوب. ويميل غالبية المؤرخين القوميين إلى تقليل دور القوى الخارجية. على حين أن مؤرخين كثيرين يكتبون من منظور خارجى ينظرون إلى البلقان على أنها حقل طبيعى لاهتمامهم. بيد أن كلاً من المقاربتين للتواريخ الماضية للإقليم تشترك فى فرض مشترك. مؤداه أن الاحتلال العثمانى الطويل كان مصدر كل مشكلات الإقليم. أزيحوا ذلك التأثير الشرير ويمكن علاج الشرق المسيحى.

وكانت الخطط النمساوية والروسية لهذا العلاج بعيدة عن النزاهة. وكانت لدى روسيا على وجه الخصوص طموحات هائلة. وهناك كاريكاتير شعبى من القرن الثامن عشر يصور الإمبراطورة كاترين الثانية تبنى الطريق الإمبراطورى العظيم بين الصخرة الصلبة لروسيا حتى الهلال الإسلامي الحاد فوق مآذن إستنبول. وتقف رءوس أوربا المتوجة فى الأسفل، وهم ينظرون فى فجور إلى تنورتها الضخمة ويعلقون على ما يرونه. وتبدو الإمبراطورة العظيمة غير مرتاحة لتعريتها. ولكن الكاريكاتير يحمل نقطة جدية، أنه لا روسيا ولا أسرة الهابسبورج النمساوية كان بوسعهما تجاهل القوة الإسلامية فى البلقان، بأكثر مما كان يمكن لبروسيا أن تترك بولندا وحدها. وتقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن عشر ألقى بظلاله على معاملة البلقان فى القرن التاسع عشر، على الرغم من أنه على خلاف الحالة فى بولندا، كان الهابسبورج فقط هم الذين وضعوا إضافات رئيسية إلى ممتلكاتهم من الأراضى المقتطعة من بولندا، ولكن روسيا كسبت دورًا حاكما وإن لم تكسب أراضي، وإذ صارت تصور رمزيًا على أنها دب مصدر خطر، تلوح افتراضًا على محمياتها وربيباتها فى البلقان، وتبريرًا لتمزيق بولندا فى القرن الثامن عشر والمقاربات التى تمت فى القرن التاسع عشر لإعادة تشكيل البلقان كان هناك اعتقاد بأن شعوبها البربرية سوف تستفيد من "التنوير" [41]، وكان لهذه المفاهيم جذور عميقة، ففى سنة ١٥٧٢م كان أمير فرنسى، هنرى دى فالوا، قد حكم لفترة قصيرة في وارسو، ولم يستطع شاعر البلاط لديه أن يرى شيئًا خيرًا فى البولنديين وبلادهم:

وداعا بولندا

وداعًا أيتها السهول المهجورة

المغطاة بالجليد والثلوج أبد الدهر

أيها الشعب المتوحش والمتغطرس اللص

المتباهى كثير الكلام والمحشو كلامًا

والذي يتدثر آناء الليل وأطراف النهار بالفراء الأشعث

ومتعته الوحيدة أن يلعب بكأس خمر

بالشخير في النوم. والنوم على الأرض

والذي يرغب عندئذ أن يكون شهيرًا مثل مارس

إنها ليست حرابك العظيمة المعتادة

ثياب ذئبك. معاطف سلاحك المضللة

تنتشر في كل مكان بالأجنحة والريش

إن أطرافك الذكورية. وليست أفعالك المروعة

أيها البولنديون الأغبياء. إن ما أنقذكم من الهزيمة

حالتكم البائسة هي وحدها التي تحميكم[٤٢]

وظهر الكتاب في القرن الثامن عشر، في عصر التنوير. مشغولين تمامًا بالشرق مثلما فعل أسلافهم في القرون السابقة. وقد تبدلت بؤرة الاهتمام. ولكن لم تتغير الفروض الكامنة. وقد قدمت دراسات لاري وولف Larry Wolff الفذة بعنوان Inventing Eastern Europe and Venice and the Slavs تفسيرات جديدة مقنعة للانشغال الغربي بالعالم السلافي. وعندما قرأت كلا الكتابين صدمت بكيفية أن المواقف السلبية التي كنت قد ربطتها حتى ذلك الحين على وجه الخصوص بالمسلمين والشرق العثماني قد امتدت في حركة التنوير في القرن الثامن عشر إلى العالم السلافي كذلك[٤٣]. والفروق بين العالمين كانت وما زالت عميقة. فقد كان العالم السلافي (إلى حد كبير) مسيحيا وكان العالم العثماني مسلمًا في غالبيته، ومع هذا رأى الرحالة الغربيون كلاً منهما غارقًا في الجهل والشراهة والعنف.

ويقتبس وولف من الكونت دى سيجور Comte de Segur الذى كتب عن بولندا الكاثوليكية أنها خاوية. بها غابات شاسعة ترصعها سهول مفتوحة. و"سكان فقراء. مستعبدون. والقرى القذرة. وأكواخ تختلف قليلاً عن الأكواخ الوحشية. كل شيء يجعل المرء يفكر أنه قد رجع القهقرى عشرة قرون وأن المرء يجد نفسه فى وسط جحافل من الهون. والإسكيثيين، والسلاف والسارماشيين". وهناك زائر إنجليزى. هو وليم كوكس William Coxe. الذى كان يسافر فى روسيا وبولندا. وجد أيضا مصادر البربرية الشرقية فى الشعوب البدائية التى تقطن الإقليم التى يمكن إدراجها تحت العنوان الواسع "النير التركى". وفى موسكو قابل "أرمنى وصل حديثًا من جبل القوقاز". كان صورة للبربرى إلى حد كبير. ووصفه بالطريقة نفسها التى صور بها آخرون وحشية "الغازى". "الباشبوزوق" والأكنجى أو الدراويش فى خدمة العثمانيين:

"كانت ثيابه تتكون من ثوب طويل فضفاض. مربوط بشريط. وسروال وحذاء كبيرين. وكان شعره مقصوصًا على طريقة التتار، بشكل دائرى. وكانت أسلحته خنجرًا وقوسًا من قرن الجاموس مشدود بوتر من أمعاء الحيوان نفسه ... وقد رقص رقصة كالملوك التى تتطلب شد كل عضلة، وهو يلوى جسده فى أوضاع متنوعة دون أن يبرح مكانه. وأشار إلينا بالدخول إلى الحديقة. وسره كثيرًا أن يرينا خيمته وأسلحته ... وقد ذهلنا بشخصية هذا الأرمنى غير المصطنعة. وقد بدا مثل رجل متوحش بدأ لتوه فى الأخذ بأساليب الحضارة" (٤٤).

هذا "الأرمنى" أظهر خصائص سلبية. الوحشية والافتقار إلى التحكم فى نفسه- كانت قد ألصقت "بالإسلام" منذ فترة العصور الوسطى الباكرة. لقد جاء "تخلف" الشرق السلافى من أسباب كثيرة متمايزة. ولكنى أتساءل إن كان من بينها الاتصال مع العالم المسلم الشرقى؟(٤٥) لقد اصطدم الإسلام بالعالم السلافى على امتداد حدود ممتدة. وفى القرن الرابع عشر، بينما كان العثمانيون يتقدمون فى شرق أوربا. كان مغول القبيلة الذهبية، الذين كان "نير التتار" لديهم قد جثم

زمنًا طويلاً على الأرض السلافية الشمالية للموسكو فى (روسيا) وبولندا قد اعتنقوا الإسلام. وبمرور الزمن حررت قوة روسيا البازغة نفسها رويدًا رويدًا من هيمنة سلطة القبيلة الذهبية. ولكن فرسان التتار أعادوا فقط تجميع أنفسهم فى منطقة أبعد إلى الشرق. وبعدها كانوا يغيرون على ممتلكاتهم السابقة بدلاً من أن يحكموها. وفى سنة ١٤٨٤م، استولت الجيوش العثمانية. المندفعة صوب الشمال على المدن الحصينة الحاكمة في كيلكيا عند مصب نهر الدانوب وأكرمان **Akkerman** عند مصب نهر الدنيستر وبقيت قوة مهيمنة في أراضى الحدود حول البحر الأسود. وكان تتار القرم متحالفين مع العثمانيين. يشنون الإغارات فوق خيولهم القصيرة السريعة فى الأراضى البعيدة وراء الدانوب داخل المجر والدوقيات النمساوية. واستوطنوا عدة أجزاء من الممتلكات العثمانية الأوربية. وبقوا منفصلين إلى حد كبير عن السكان المسلمين المحليين. الذين كانوا يتحدثون لغة مختلفة تمامًا .

وفى نظر الغرب. كان لكل من "التتار". "الأتراك" هويات جماعية ومنفصلة على السواء. وخمر الساحرات الجهنمى فى مسرحية "ماكبث" لشكسبير كانت تتضمن عنصرى الشر التوأم. أنف التركى وشفاه التترى" [٤٦]. وبينما كانت عبارة "التركى الكبير" تجسد نظرة "الإعجاب" المحسودة لسجايا العثمانيين. كان التتار رمزًا للوحشية المخيفة التى لا توصف التى كانت خصلتهم الأخرى. وقال البعض إن اسمهم يعنى أنهم ساكنو الجحيم (من الكلمة اللاتينية **Tartarus**) [٤٧] وصار الراهب فورتيس **Fortis** دليل الغرب ومرشده بشأن وحشية البلقان وسكانه. فقد كتب "رأيت العادات. والشعر والموسيقى. والملابس. والسكنى تترية مثلما هى فى سيبيريا" [٤٨] ولاحظ الفارس لويس دى جوكورت **Le Chevalier Louis de Jaucourt** الذى كتب عن "التتار" سنة ١٧٦٣م فى موسوعة ديدرو **Diderot** أنه كان. من الأمور المهينة أن هذه الشعوب البربرية يمكن أن تخضع كل نصف الكرة الأرضية الذى نعيش فيه" فى عصر جنكيز خان. وأكد لقرائه أنه على الرغم من أن "هذا المخزون الهائل من الرجال

الجهلة الأقوياء ذوى الميول الحربية قد تدفقوا بكثرة فى جميع أنحاء نصف الكرة الذى نعيش فيه تقريبا... فإن الأمم الراقية مصونة من غزوات هذه الأمم البربرية»[٤٩] ولكن ليس فى أراضى البلقان الوعرة القاسية على أية حال .

ولم يمكن أبدا تحديد أى الأمم "متمدنة" وأيها "بربرية". لأن الأتراك والتتار، والسلاف كانت لهم حدود مشتركة. وجبال الألب الدينارية شديدة الانحدار. والأراضى حول البحر الأدرياتى، كانت سببا في وجود مثل هذا الإقليم المفتت. وبعد زيارة فورتيس لممتلكات البندقية فى البلقان. نشر كتابه **Travels in Dalmatia** فى سنة ١٧٧٤م. ولم يصف أهل هذه الجبال. المورلاكشيين، أبدًا بأنهم. "جنس من الرجال المتوحشين. لا عقل لهم، ولا إنسانية لديهم. قادرون على الإتيان بأى خطيئة" . مثلما اتهمهم أهل السواحل بأنهم ارتكبوا "أفظع تجاوزات القتل والمذابح. والعنف والحرق العمد"[٥٠] وإنما يقدم كتاب فورتيس ورسائله العديدة صورة أكثر إيجابية بكثير لسكان المرتفعات. وقد قال إن العنف الذى كان يلام عليه المورلاكشيون **Morlachi** أحيانا بحق إنما كان نابعًا من الظروف التى عاشوا فى رحابها. وفى مجتمع كانت فيه اللصوصية والإغارات هى العادة. كان الكثير من المورلاشيين بالضرورة قد صاروا لصوصًا **hajduks** أو مثل اللبلاب هؤلاء الرجال "عاشوا عيشة الذئاب يتجولون بين المنحدرات الصخرية الوعرة التى لا يمكن تسلقها. يتعلقون من صخرة لأخرى ... ولن يكون مدهشًا إذا ما سمع المرء كثيرًا عن ضربات أو مذابح ارتكبها هؤلاء الناس الذين صاروا متوحشين وتضايقهم الفكرة الموجودة دائمًا عن مثل هذا الموقف البائس"[٥١] .

كان المورلاكشى وغيرهم مجبرين على أن يعيشوا مثل هذه الحياة البائسة بفعل العبث الذى أصاب الأراضى العثمانية فى أوروبا. والذى فاض على ممتلكات البندقية أو أملاك أسرة الهابسبورج فيما وراء الجبال. لقد كانت الحياة فى مناطق الحدود الوعرة مختلفة عن الحياة فى البلدات والقرى فى السهول. كان اللصوص **hajduks** فى جبال الألب الدينارية. مثل الأوزقوق **Uskok** رجال مناطق الحدود فى القرن

السادس عشر فى سينج Senj، رجالاً، لا آباء لهم ولا أمهات. فالبندقية والسيف أمهم وأبوهم»[٥٢] وكانت أراضى المرتفعات، الكثير من بلاد اليونان، ومناطق كبيرة من ألبانيا، وهرزيجوفينا، والبوسنة، والجبل الأسود كله- تغص بالرجال المسلحين، من المسيحيين ومن المسلمين سواء بسواء. فالطرق والممرات كان مفهومًا أن الميليشيات المسلحة تحميها ضد رجال العصابات المعروفين فى المناطق التى تتحدث اليونانية باسم Klephts. لقد كانت الإغارة مهنة مشرفة. والبعض مثل الشهير "أسد يانينا" على باشا (الذى خلده دوماس فى روايته "الكونت دى مونت كريستو"، اكتسب سطوته ونجاحه بممارسة هذه المهارات. وكان من السهل إضفاء الرومانسية عليهم. وتوماس جوردون فى كتابه الذى صدر سنة ١٨٣٢م بعنوان History of the Greek Revolution أفاض فى التعبير عن إعجابه:

"إن النشاط الخارق للعادة وتحمل المشاق والتعب صنع منهم قوات خفيفة قوية صلبة فى الحصون الوطنية. كانوا يلتحفون عباءات مشعثة وينامون على الأرض يتحدون العناصر. وقد أعطاهم هواء الجبال النقى صحة متينة. هكذا كان المحاربون الذين حافظوا على الروح اليونانية فى أسوأ الأوقات"[٥٣].

كان هناك سبب وحيد بسيط للمصاعب والتعب. فدون عبء الأتراك الثقيل، كان يمكن لفضائل الهيللينيين الحضارية القديمة أن تنهض من جديد. وكذلك كان يمكن أن يحدث للسلاف.

هوامش الفصل التاسع

1. Jephson. *With the Colours*, pp. 158–62.
2. In some sources it is the Landstraße.
3. Robert D. Kaplan, *Balkan Ghosts: A Journey through History*, New York, NY: Vintage, 1994, p. 32.
4. Ibid., p. 227.
5. See Immanuel Wallerstein, 'The Time of Space and the Space of Time: The Future of Social Science', Tyneside Geographical Society Lecture, University of Newcastle upon Tyne, 1996, *Political Geography* XVII, 1, 1998.
6. Ibid.: 'They are arguing in terms of episodic geopolitical TimeSpace . . . the Serbians [asserted that] current population figures and current boundaries are simply irrelevant; Kosovo was part of Serbia morally because of things that happened in the fourteenth century. These are arguments using structural TimeSpace. Kosovo's location in Serbia was said to be structurally given. There is no way of resolving such a debate intellectually. Neither side can demonstrate that it is right, if by demonstrating it we mean that the arguments are sustained by the weight of the evidence in some scientific puzzle.'

٧- المصدر نفسه " وقد كان يفترض أنهم إذا كانوا "بدائيين" في الحاضر، فلا يمكن أن يكون هناك تطور تاريخي ، ومن ثم فإن سلوكهم في الماضي كان بالضرورة مثل سلوكهم في الحاضر. ومن ثم فإنهم كانوا "شعوبًا بلا تاريخ" . ولهذا السبب كتبت الإثنوجرافيا فيما يسمى "الحاضر الأنثروبولوجي" . وقد أنتج الحاضر الأنثروبولوجي دراسة مهمة عن المفاهيم المختلفة للزمن ، كتبها يوهانس فابيان ، ودراسة لافتة كتبها عالم أنثروبوچي آخر هو موريس بلوش. ولكن كلا من فابيان وبلوش يعملان من داخل المنظور نفسه ، وكلاهما يتقبل فكرة أن الزمن نسبي، بدرجات متفاوتة، اعتمادًا على شخصيته الثقافية الواحدة. انظر :

Fabian . Time and the Other ; and Maurice Bloch. The Past and the Present "in his" Ritual. History and Power. pp. ١-١٨ .

وتصف مقدمة كتابه اختلافه مع فابيان – وكل من هاتين المقاربتين مهمة للغاية في نوع الأسطورة – التاريخ في بنيانها الذي برز في البلقان حسب زمانها .

(٣٩٦.p)

8. See Franjo Tudjman, *Horrors of War: Historical Reality and Philosophy*, New York: M. Evans and Company, 1996. The original version was entitled *Bespuća povijesne zbiljnosti: Rasprava o povijesti i filozofiji zlosija* (*Wastelands of Historical Reality: Discussion on History and Philosophy of Aggressive Violence*) and was published in May 1989, and the second edition in November 1989, then a third and fourth in April and October 1990. On each occasion, Tudjman changed the emphasis of the book, often using his own neologisms to present his ideas. The English-language text published in 1996 was, in the words of his translator, 'substantially revised' to appeal to a US audience. I am very grateful to my colleague Dr Dejan Jović for talking to me in detail on the issues embodied in this chapter, and letting me see the text of his own book prior to publication.
9. See Vesna Goldsworthy, *Inventing Ruritania*. The Balkans' relationship to Europe was essentially detached, sandwiched between West and East, or even between the West and Africa.
10. Harry de Windt, *Through Savage Europe, Being a Narrative of a Journey Undertaken as Special Correspondent of the 'Westminster Gazette' throughout the Balkan States and European Russia*, London: T. Fisher Unwin, 1907, pp. 15–16. His book was a considerable success, with the first edition sold out in less than a month.
11. Robert D. Kaplan, *Balkan Ghosts: A Journey through History*, New York, NY: Vintage, 1994, pp. 33–4.
12. Creagh observed that the 'very pretty girl of about nineteen' who came to his room at Neusatz 'was not the least abashed at my Highland costume'. See Creagh, *Over the Borders*, p. 52.
13. Ibid., p. 15.
14. Ibid., p. 38.
15. Ibid., p. 82.
16. Ibid., p. 88.
17. Ibid., pp. 124–5.
18. Ibid., pp. 274–5.
19. Ibid., p. 276. Creagh misunderstood or misread a Montenegrin tradition. It was considered among the mountain warriors dishonourable to die 'in bed like a woman'. To the news of a tribesman's death the proper response was, 'Who killed him?' If he had not died honourably at the hands of an enemy, the euphemism was 'God, the old executioner'. See Alan Ferguson, 'Montenegrin Society 1800–1830', in Clogg (ed.), *Balkan Society*, p. 209.

20. Sam Vaknin, www.balkanland.com/index.html, 20 December 2001.
21. From the German *Balkanhalbeiland*, used by the German geographer August Zeune in the first decade of the nineteenth century. See Todorova, *Imagining*, pp. 25–6.
22. In *Imagining the Balkans*, Maria Todorova cites Jobus Veratius, who believed that mountains stretched in a chain from Mesembria on the Black Sea to the Pyrenees. See ibid., pp. 26–7.
23. Four-fifths of Italy is taken up by mountains or hills. See Stuart Woolf, *A History of Italy 1700–1860: The Social Constraints of Political Change*, London: Methuen, 1986, p. 15.
24. W. G. Blackie, *The Comprehensive Atlas and Geography of the World*, London: Blackie and Son, 1882.
25. Cited Todorova, *Imagining*, p. 22.
26. See Linda Colley, *Britons: Forging the Nation 1707–1837*, New Haven, CT and London: Yale University Press, 1992, p. 15.
27. The Scottish wilderness where John Buchan set his novel *The 39 Steps* was not some barren northern glen but the bare and desolate mountains of Galloway, just north of the English border.
28. *Armatoli* were a form of occasional militia; *hajduks* were bandits.
29. Cited Anzulović, *Heavenly Serbia*, p. 50.
30. For example, Spain's bloodthirsty 'El Cid', or the murderous Celtic anger of Rob Roy Macgregor's vengeful wife, as described by Sir Walter Scott in his novel *Rob Roy*, or the folk tales of Sicily and Calabria.

٣١- تفاخر الألبان بجذور كل من اللهجتين التى تضرب فى اللغة الإلليرية القديمة ومن اللهجة الأرڤانيكية جاء اللقب "Arnauts" الذى عرفوا به عادة . كانت لغة ذات أصل لاتينى ، مثل كانت لغة Vlachs، وهم شعب انتقل من مكانه بسبب تقدم السلاڤ منذ القرن السادس فصاعدًا .

32. The majority of Orthodox believers used the Cyrillic script, brought by missionaries dispatched by Bulgarian rulers after their nation had abandoned pagan beliefs.
33. A further element of linguistic diversity was that the Bulgars, with a different ethnic origin, adopted Slavic speech.
34. See, for example, the catalogue of claims for Bulgaria in Stephanove, *Bulgarians*. The construction of unitary nationalism owed much to R. W. Seton-Watson, both in his academic writing and as advisor to the 1919 Peace Conferen See H. Seton-Watson et al. (eds), *R. W. Seton-Watson and the Yugosla Correspondence 1906–1941*, 2 vols, London: British Academy, 1976.

35. Also as *Potunice*. On identity, see Ivo Banac, 'Bosnian Muslims: From Religic Community to Socialist Nationhood and Post-Communist Statehood 191 2002', in Pinson (ed.), *Muslims*, pp. 132–3.
36. I have adapted some of the ideas developed by Mark Patton in *Islan* pp. 179–90. These same concepts can also be applied, I believe, to the sta of Balkan development. Banac, *National Question*, also uses the 'island' 'pocket' vocabulary and it is implicit in his analysis; pp. 43 sq.
37. Durham, *Burden*, p. 153.
38. Individualism was also ascribed to many other groups elsewhere: Highland in Scotland, fishermen in the Adriatic, muleteers in Iberia. But outsiders we certainly strongly conscious of this quality in South-eastern Europe.
39. See Hitchins, *Romanians*, p. 1.
40. Depicted in Mraz, *Maria Theresia*, p. 315. The cartoon was widely circulat especially in Austria and Germany.
41. The status of Russia was ambivalent. In this context she was part of the We and not of Slavic 'barbarism'. Russia showed what could be achieved from t raw material by the application of the values of the Enlightenment.
42. Translated in Davies, *God's Playground*, p. 419.
43. His second chapter in *Inventing Eastern Europe* is entitled 'Possessing East Europe: Sexuality, Slavery and Corporal Punishment'.
44. For Ségur and Coxe, see Wolff, *Inventing*, Chapter 1.
45. This is my interpretation. Larry Wolff, in correspondence, was cautious abc taking it too far.
46. *Macbeth* (1606), act 4, scene 1, line 26.
47. St Louis of France in 1270: 'Either we shall push them back into Tarta whence they came or they will bring us all into heaven.' Cited in *OED* unc 'Tartar'.
48. Cited and translated in Wolff, *Inventing*, p. 318. Wolff sees the role of t Tartars as seminal: 'The most overwhelming eastern vector of influence up Russia, viewed unequivocally as a force of barbarism, was that of Tart and the Tartars. China, Persia and Turkey could be regarded in the age Enlightenment as possessing their own Oriental civilisations, but the Tart received no such concession. If Russia belonged to the Tartar empire in t age of Batu Khan, Tartary belonged to the Russian empire in the age of Pe [the Great], but the relation, even reversed, still weighed in the balance betwe Europe and Asia, civilisation and barbarism'; pp. 190–91. Conversely, t Spaniards had always regarded the Tartars as Noble Savages by comparis with the greater evil of the Ottomans. See Bunes Ibarra, *Imagen*, pp. 91–2.
49. Cited Wolff, *Inventing*, pp. 192–3.
50. Abbé Fortis cited and translated in Wolff, *Venice*, pp. 126–7.
51. Ibid., pp. 152–3.

52. Cited Bracewell, *Uskoks*, p. 1887.
53. Gordon, *History*, vol. 1, p. 31.

(١٠)

تعلم الكراهية

لست مهتمًا بتقديم عذر للعثمانيين. ولكن جعلهم أصل جميع الشرور ومنشأها ليس سوى أسطورة تقليدية. فبالنسبة للغرب، كانت كلمتا القسوة والأتراك قد صارتا مرادفين على نحو أو آخر. فقد أظهر الأتراك كافة نقائص المسلمين. ولهذا فإنه مهما شغل العثمانيون بال جيرانهم الأوربيين. ومهما كان حجم الإعجاب والحسد الذى قد يثيرونه. فإن ميراث الشر التركى لم يكن موضع تساؤل. فالسفير البندقى إلى السلطان مراد الرابع، كتب عن هذا الرجل العظيم فى القرن السابع عشر أنه «حول أفكاره كلها نحو الانتقام، بشكل كامل لدرجة أنه خضع لإغراءاته، توجهه مشاعر السخط والحنق، ويحركه الغضب. فبرهن على وحشيته وقسوته التى لا تبارى. وفى تلك الأيام لم يقتل أحدًا. فلم يشعر أنه سعيد ولم يبد أية علامة على السرور»[١]. وبعد ذلك بقرن من الزمان كتب سفير بندقى آخر هو چيوفانى إيمو Giovani Emo. عن الوزير طوبال عثمان وشجاعته وكرمه. وعلى أية حال كان هو الآخر تشوبه نقيصة العيوب الكامنة فى ديانته. «القسوة. والطمع. كانت رذائله. والإرادة القوية، والقدرة الذهنية والمعرفة كانت فضائله». فقد كان عثمان «يعاقب على كل تجاوز طفيف للقانون بالموت، الذى كان يغطى قسوته برداء العدالة»[٢].

هذا الافتراض. بأن فضيلة التركى أو المسلم تقل وزنًا عن رذيلته. كانت له أصوله البعيدة، حسبما أشرت فى الفصول السابقة. ففى المسرحيات والروايات. والأشعار طوال القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر. صار العالم المسلم،

الذى كان يصور عادة على أنه الأتراك، موضع تصوير العواطف الجامحة أو القسوة الحقيقية [٣]. وحتى حركة الموضة التركية الحماسية فى القرن الثامن عشر، التى عربدت وتلذذت فى الملابس الشرقية والمشاهد الغريبة. كان لها صدى تحمله عن هذه الجوانب المعتمة. ومهما بدت مقطوعة موزار Flight from the Seraglio عامرة بالفرح وسارة. فإن جمهورها لم تفته مشاعر الإحساس بقسوة الطغيان التركى. وغالبا ما بدا الغربيون على استعداد لتصديق أية حكاية عن الظلم بلا مناقشة. «ويرينا التاريخ أن أوربا دائما شجاعة ودائما غيورة على حريتها. وهو أيضا يظهر لنا على النقيض أن آسيا دائمًا مستعبدة وضعيفة مثل امرأة» [٤] هذا الاعتقاد الغربى، بأن الشرق لا يمكنه أن يهرب من نقائصه إلا إذا صار مثل الغرب تبناه أيضا بعض الإصلاحيين العثمانيين (المسلمون الذين زاروا أوربا الغربية فى تلك الفترة وكانوا إما مصدومين بما شاهدوه أو أنهم صاروا بسهولة مولعين بأوربا من خلال تجربتهم) [٥].

وكان صعبًا للغاية نفى المواقف التى كانت قد انغرست منذ الدروس الأولى فى مرحلة الطفولة. ففى سنة ١٨٢٣م «سافر بريطانى أقام فى الشرق عشرين سنة (وهو دبلوماسى يسمى سكين J.H.Skene) على امتداد ما أسماه «أراضى الحدود المسيحية والتركية». وتتسم روايته بالحيوية وتحفل بالإثارة. فقد كانت شخصية سكين الودودة تفتح له الكثير من الأبواب. وقد تقابل مع قائد مشهور. مصطفى باشا. وصارت بينهما صداقة. وأرسل القائد يستدعى أولاده لمقابلة الزائر. وقد وجدهم سكين مبهجين. «سألت أباهم إذا ما كانوا كلهم مولودين من الأم نفسها، وهو سؤال كنت أظنه طبيعيا جدا. فقد كان للأولاد الملامح نفسها، ولكن عيونهم كانت ملونة بألوان مختلفة]. ولكن السؤال لم يعجب الباشا الذى أجاب بجفاف إنه لم يتزوج سوى مرة واحدة فقط ومن ثم فإن أبناءه جميعا من الأم نفسها» [٦].

هل كان «سؤالا طبيعيا للغاية». لقد انتهك قوانين المجاملات الغربية والعثمانية على السواء. ولم يكن سكين ليسأل سؤالاً فظًا مثل هذا لرجل إنجليزى من بنى وطنه كان قد قابله للتو [٧]. ولكن طرح هذا السؤال على مسلم تجاوز المنطقة الخاصة

بالعائلة، وهو ما كان بالقطع منطقة محرمة. وعلى أية حال، كان ذلك أمرًا «طبيعيًا» بالنسبة لسكين لأنه كان يظن أن جميع العثمانيين ذوى النشأة الطيبة لابد وأن يكونوا متعددى الزيجات، يتخذون لأنفسهم أكثر من زوجة فى الوقت نفسه. كان سؤاله هفوة ولم يكن جريمة، ومن المؤكد أن سكين لم يفترض أن جميع العثمانيين كانوا قساة أو أشرارًا. والواقع، أنه رأى فى كثير ممن قابلهم فى ترحاله رجالاً راقين. ولكن ربما كان لابد لـ «بريطانى مقيم لمدة عشرين سنة» أن يعرف بشكل أفضل قبل أن يسير وراء استجابته المفاجئة [٨]. والرحالة الغربيون الذين ليست لهم ثروته من الخبرة والتجربة في الإقليم لايمكن أن يلاموا إذا ما توصلوا إلى الاستنتاج نفسه: ذلك أن تربيتهم وثقافتهم المسيحية كانت قد أعطتهم المفاهيم المسبقة حول ما قد يرونه ويسمعونه [٩].

والمغزى الأخلاقى الجوهرى وراء قصة سكين الصغيرة أنه كان لديه نمط فى ذهنه، واعتقد أن العثمانيين جميعا سوف يتوافقون مع النمط. هذا الموضوع نفسه عن الرجوع إلى الحالة البدائية التى يرسمها النمط يجرى من خلال ما كتبه كابلان وغيره عن تاريخ البلقان بوصفه حالة من العصاب الجماعي. لقد كانت شعوب البلقان في كتاب «أشباح البلقان» ببساطة شعوبًا تعاود العيش فى تراثها الوحشى. أو، بالأحرى، يجدون المساعدة لاستعادة هذه الرابطة مع ماضيهم، وذكرياتهم الثقافية الجامعة، من خلال جهود من يقومون بالدعاية. كانت هذه ذكريات مستعادة، تذكرهم بتدميرهم أو تشويههم بواسطة الاحتلال العثمانى [١٠]. إذن، وبطريقة ما غير محددة، فإن الصرب والكروات، الأحفاد الذين يفصلهم زمن طويل عن أولئك الذين أساء إليهم الأتراك بشكل عنيف، صاروا هم أنفسهم مسيئين. إن التشابك بين الأسطورة والحقيقة يكاد يكون لا فكاك منه .

ماذا كان مصدر هذه الذكريات الاجتماعية. إننا بحاجة إلى أن نبدأ على الأقل بالقرن السابع عشر، إن لم يكن أبعد من ذلك. ففى سنة ١٦٨٣م قام العثمانيون، الذين كانوا يفترض أنهم يعانون «الاضمحلال»، بمفاجأة أوربا الغربية بتسيير جيش

ضخم صوب ڤيينا وهددوا المدينة. وفشلت جهودهم الجسورة وتم صدهم وإبعادهم عنها. وبعدها انتهزت أسرة الهابسبورج الحاكمة في النمسا فرصة فشل العثمانيين لتحصل منه على ميزات كاملة. وفي سلسلة من الحملات امتدت على مدى ثلاث عشرة سنة، أخذوا يطاردونهم، عبر المجر أولاً. ثم فيما وراء الدانوب، وأخيرا جنوبا في قلب البلقان. وفي سنة ١٦٨٩م، قام جيش نمساوي باقتحام إقليم كوسوفو وأعلن أن المسيحية قد انتصرت على الإسلام. وكان الصرب في كوسوفو سعداء بأن يقسموا يمين الولاء للإمبراطور ليوبولد، ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا النمساويين يتقهقرون في السنة التالية، ليتركوهم تحت رحمة العثمانيين العائدين.

وعندما دخل جيش عثماني ومعه حلفاؤه من التتار كوسوفو مرة ثانية اعتبروا الكثير من الصرب خونة ومتمردين انحازوا إلى جانب عدوهم. وتم نهب قرية بعد أخرى، وقررت الكثير من العائلات بحكمة ألا تخاطر بالبقاء تحت الحكم التركي. وتحت قيادة البطريرك الأرثوذكس كارنوچيفك Carnojevic المسئول عن الأماكن المقدسة في بيك Pec. هجروا مزارعهم وقراهم ليهربوا نحو الشمال، ثم عبروا نهر الدانوب مع النمساويين المتقهقرين إلى داخل المجر تحت حكم الهابسبورج. وفيما سمي بعدها Vojvodina. من الكلمة السلافية الدالة على «الدوقية». أعطى الإمبراطور الصرب ميثاقًا بأن يؤسسوا مجتمعهم الخاص. وقد استغلت أسرة الهابسبورج هؤلاء المنفيين ليكونوا خطًا أول للدفاع ضد الهجمات العثمانية، وصارت «الهجرة الكبرى» معادلاً أسطوريًا لخروج اليهود من مصر. وكان البطريرك بالنسبة لهم بمثابة موسى لبني إسرائيل[١١]. ومثل بني إسرائيل الذين زيفت هويتهم بعبوديتهم في مصر أولا، ثم صقلت بعد ذلك في الأسر البابلي. بقيت الأرض الضائعة طوطمًا لعصر ذهبي تلاشى واختفى بالنسبة للصرب في المنفى.

كانت هجرة سنة ١٦٩٠م الخسارة الكبرى الثانية التي عاناها الصرب على أيدي العثمانيين. فقد تضافر النفي والهزيمة ليشكلا البنية المزدوجة للهوية الصربية، مع الكارثة التي صارت مقدمة لازمة للنصر. وحسبما ذكر من قبل. فإنه قبل ثلاثة قرون

من الزمان، فى سنة ١٣٨٩م، وفى قلب كوسوفو، وفى كوسوفو بولچى، لقى الجيش الصربى هزيمة مروعة على أيدى القوات العثمانية التى يقودها السلطان مراد الأول. والتاريخ الحقيقى المضبوط كان أقل أهمية من الشبكة الكثيفة من الأساطير والأشعار الملحمية التى نسجت حول الهزيمة. فمنذ بواكير القرن الثامن عشر فصاعدًا، كان هناك عدد قليل جدًا من الأطفال لا يعرفون الأمير ذا الخصال المقدسة الأمير لازار الذى قاد الصرب أو الرجال العظام الكثيرين الذين ذبحوا بعد المعركة على أيدى العثمانيين القساة الألداء. وكان لابد لهم أيضا أن يعرفوا السلطان العثمانى الشرير الذى طعن فى ميدان المعركة فى عمل من القصاص الربانى. وقد بدأ مؤرخ صربى مبكر روايته عن «لازار النبيل واللطيف» بكيفية أنه:

قاتل قتالاً جيدًا

لصالح البلاد

ولم يسمح فى أثناء حياته

للوحش الملعون، المتغطرس القاسى

أن يدمر شعبكم

الذى أعطيتموه للمسيح

ثم أعلن لازار نفسه:

إننى أفضل أن يُراق دمى

بدلاً من أن أتقرب أو أنحنى

للقاسى والشرير

السفاح، الهاجرى[١٢].

واللغة التقليدية المستخدمة ضد الإسلام منذ القرن السابع- «الهاجرى». «الوحش القاسى». كانت العبارة الطبيعية لوصف الأتراك. وقد صار مجاز الانتصار من خلال الاستشهاد. حيث كانت الهزيمة، قد تحولت إلى نصر مجيد، موضوعًا متكررًا وإلهامًا لمستقبل الصرب. وقد لخص البطريرك دانيلو فى كتابه الذى كتبه أواخر القرن الرابع عشر: **Narrative about Prince Lazar**. مستقبل جيش الصرب فى مواجهة عدوهم الوحشى: «لقد عشنا زمنًا طويلاً من أجل الدنيا: وفى النهاية نسعى إلى قبول نضال الشهيد ونعيش فى السماء للأبد. نحن نسمى أنفسنا جنودًا مسيحيين. شهداء من أجل الربانية لتسجل فى كتاب الحياة... إن المعاناة تجلب المجد والكدح يقود إلى السلام» [١٣].

مثل هذه الأساطير ترجع بجذورها الأولى إلى الحكايات الشعبية الشفاهية. وفيما بعد دونت قصة هذه الأحداث. ولكنها لم توجد سوى فى مخطوطات قليلة النسخ. وفى عام ١٦٠١م نشر راهب كارتوسى يدعى مافرو أوربينى **Mavro Orbini** بمدينة راجوزا على البحر الأدرياتى (دوبروفنيك) قصة لازار فى كتاب مملكة السلاف **Kingdom of the Slaves** [١٤]. وفى سنة ١٧٢٢م وبناء على أوامر بطرس الأكبر، هذا المدافع القوى عن «الأمة السلافية واللغة السلافية» تمت ترجمة الكتاب [١٥]. ويبدو أنها لم تكن ترجمة كاملة أو أمينة، ولكن قصة كوسوفو، كان لها تأثير متزايد، خاصة بين الجماعات الصربية فى أراضى الهابسبورج التى كان أجدادهم قد غادروها فى سنة ١٦٩٠م [١٦].

أما الجماعات المسلمة فى البلقان. وعلى الرغم من أنهم لم يستخدموا مادة مكتوبة أو مرئية بالدرجة نفسها كما فعل المسيحيون. فإنهم طوروا أيضا شعورهم بالهوية الثقافية. فقد كانت هذه الجماعات المسلمة ضاربة بجذورها فى أعماق الأرض شأنهم شأن نظرائهم المسيحيين. لأن معظمهم كانوا ينحدرون من صلب الأهالى الذين اعتنقوا الإسلام وليس من المهاجرين. ونتيجة لهذا، طوّر الإسلام فى هذا الإقليم الكثير من الخصائص التى لاتوجد بأى مكان آخر فى العالم الإسلامى. وقد

استمرت هذه الخصائص حتى نهاية القرن العشرين. وكانت تعتبر «أن كونك مسلمًا هي الطريقة البوسنية» على حد تعبير تون برينجا Tone Bringa، التي أجرت عدة لقاءات مع البوسنيين في ثمانينيات القرن العشرين. وهي تصف حادثًا في أثناء صيام رمضان، الذي كان يظن في البوسنة أنه يناسب النساء والمسنين من الرجال، الذين ليس عليهم أن يتجشموا عناء العمل الشاق:

«ذات مساء نشب نزاع نمطي مألوف بين زوجين في أثناء شهر رمضان. وبدأت المشاجرة عندما حثت الزوجة زوجها أن يأتي لصلاة المغرب في المسجد. ثم تطورت إلى مشاجرة حول أحداث ماضية في زواجهما الذي استمر عشرين سنة، والزوج يسأل زوجته لماذا لم تتزوج إمام مسجد إذا كان هذا ما تريده. ثم أجمل دواعي تعاسته ... إنني لم أتناول أي قهوة طوال اليوم ونحن الآن في شهر رمضان وهكذا قد لا أشرب براندي»[١٧].

ولم يكن هذا مجرد تطور حدث في القرن العشرين. ففي سنة ١٨٩٧م كان طومسون H.C.Thomson، الذي كان يزور البوسنة، قد لاحظ أيضا هذه الخاصية في الرجال البوسنيين: «إنه لن يشرب الخمر، ولكنه سوف يحتسي البيرة، أو البراندي أو الويسكي، أو أية مشروبات كحولية أخرى، لأن النبي حرم شرب الخمر فقط»[١٨]. ومن الواضح، أنه في كثير من هذه الجماعات المسلمة كانت الشريعة الدينية الصارمة تُنحى جانبًا[١٩].

وكان سرد الحكايات يعزز الإحساس بالجماعة. وقد شارك كل من المسيحيين والمسلمين في تراث مشترك من القصص، تدور غالبًا حول موضوعات متماثلة، ولكن لها رسائل مختلفة للغاية. وكل رواية تتغير بحذق وبراعة وبصورة متمايزة على مر الزمن. وكانت بعض الحكايات المسيحية معادية للأتراك بشكل شامل وعميق. «أغاني الهاجدوك والكليفتس ليس بها مادة ولا معنى لها دون الأتراك. ونظيرتها عند المسلمين لن يكون لها معنى دون أغاني الهاچردوك وهذا النوع بأسره يعتمد على الأتراك. وملحمة كوسوفو من الواضح أنها تكون مستحيلة دون الأتراك»[٢٠].

وعادة ما كانت حكايات المسلمين أطول كثيرا وربما تستغرق حكايتها عدة أيام. وكما هو الحال مع القصص التى تروى حتى الأزمنة الحديثة فى تركيا الحديثة. فربما جلست القرية كلها لكى تستمع، وقد تقاطع. وقد تعلق على نوعية حكاية الحكاية، بل وتضيف إلى الحكاية التى يحكيها الراوى. كانت هذه ملاحم شفاهية على الطراز الهومرى (نسبة إلى هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسية)، المجرب لدى الجماعة كلها. وفى البوسنة كان هذا التراث الجماعى قويًا من نواح أخرى: فقد كان البوسنيون يحتشدون لدفع أى أعداء من الخارج. فقد قاوموا جيوش النمسا التى غزت أقاليمهم فى سنة ١٨٧٨م تمامًا مثلما كانوا قد هاجموا الإنكشارية العثمانيين المغيرين قبل ذلك بسنوات قليلة.

ووجود شعور بالمكان والجماعة غالبًا ما كان مهمًا مثل اللغة والدين. ذلك أن الناس فى أحد الأودية أو أحد سفوح التلال لابد أن يقفوا ضد أناس آخرين، حتى وإن كانوا يستخدمون اللغة نفسها ويشتركون معهم فى العقيدة نفسها. وعلاوة على ذلك. فبينما قد يرى الغرباء مجتمعا موحدًا يمكن تعريفه بلغة مشتركة وعقيدة مشتركة فإن أولئك الذين داخل هذه الجماعة غالبا ما سيجدون تمايزات مكشوفة لا تخطئها العين داخل هذه الفئات الأوسع. وحقيقة البلقان (إن لم تكن النظرية) كانت متعددة المعانى. فالفروق الواضحة على المستوى العرقى والدينى- كما هو الحال بين السلاف والبلغار والألبان. والفلاشى، أو بين المسيحيين والمسلمين- والتى لاحظها الكتاب الأجانب جميعا، لم تكن فى الواقع العلامات الوحيدة على الاختلاف. فقد تكلم السكان المحليون بمزيد من الترحيب عن وفرة من الجماعات المتمايزة. وكل منها ترى نفسها منفصلة عن جيرانها. كما أن الجماعات المنفردة بنت صيغاتها الخاصة من الأبطال التراثيين[٢١]. وكانت عملية الانشطار اللامتناهية عملية تحسمها الجغرافيا جزئيًا. فحتى لو لم تكن الأرض فى مداها تنتمى لجبال الألب. فإن توالى التلال، وحواف الجبال المرتفعة والوديان كانت تفصل مستوطنة عن أخرى. والأماكن التى تفصلها عن غيرها أميال قليلة كانت غالبًا ما تأخذ الرحلة إليها وقتًا أطول فوق الممرات الوعرة، ومن ثم كان الاتصال بينها محدودًا فى غالب الأحيان. وكانت إحدى

نتائج هذه الجغرافيا متجسدة فى ذلك التنوع اللافت فى اللغة. واللغات السلافية التى يستخدمها الصرب والكروات والتى كانت منقسمة إلى تنويعة كبيرة من اللهجات. وقد حدد إيڤو باناك Ivo Banac عشر مجموعات رئيسية من اللهجات فى الفترة بعد سنة ١٧٠٠م(٢٢).

* * *

هذه التعددية قوضت واحدا من أقوى «المزاعم المسبقة» فيما بين الغربيين حول البلقان(٢٣) فقد افترضوا أنه لغرض ما كان المسلمون يشكلون جماعة وغير المسلمين يشكلون جماعة أخرى، وكان استنتاجًا منطقيًا ذلك الذى خرجوا به لأن هذا كان المبدأ الذى يبدو أن العثمانيين أرسوا على أساسه هياكلهم السياسية. فقد قسموا السكان عندهم وفق خطوط نفعية إلى «ملل». أى جماعات أو طوائف دينية. بدلاً مما كانت تفعل الإمبراطوريات الأخرى من تقسيمهم على أساس اللون أو القبيلة(٢٤). وكان ذلك ترتيبًا فعالاً واقتصاديًا للغاية. فقد كانت «الملل» من غير المسلمين تدير شئونها الخاصة: إذ تمتع المسيحيون واليهود بالحكم الذاتى إلى حد كبير. تحت سلطة زعمائهم الدينيين وهكذا كان البطريرك فى القسطنطينية مسئولاً عن السلوك الطيب للمسيحيين الأرثوذكس فى أى مكان بالممتلكات العثمانية. فإذا تمردوا، ربما يدفع رأسه ثمنا لذلك. وكان ذلك تهذيبًا لممارسة بدوية تركية قديمة بأخذ الرهائن(٢٥). وأحد نتائج هذه البنية السياسية تمثل فى أن الرعايا الأتراك، كانوا فى حدود معينة، مسموحًا لهم بإدارة شئونهم الخاصة. وكل من لم يكونوا أعضاء الطبقة الحاكمة العثمانية كانوا رعايا، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودًا. ومن الواضح تمامًا أن الرعايا المسلمين وقعوا تحت نير الاضطهاد من جانب السلطات العثمانية مثل غير المسلمين تقريبا. فغالبًا ما كان عبء الحكم العثمانى ثقيلاً على الرعايا جميعًا.

وعلى أية حال، كانت معاناة غير المسلمين أكبر. إذ كانت هناك فرص لا نهائية لانتزاع الأموال والرشاوى من النصارى واليهود نظير الرسوم والتصاريح بشكل

أكبر من فرص انتزاعها من المسلمين. وحيثما كان يحدث اتصال بين المسيحيين أو اليهود من ناحية، والموظفين من ناحية أخرى، كانت النقود تنتقل فيما بين الأيدى. فقد كانت أعمال الترميم فى مبانى غير المسلمين تتطلب تصريحًا. وكان الموظفون يتربحون من هذا. وفي بعض الأحيان كان يمكن شراء حق بناء كنيسة جديدة أو معبد جديد، ولكن بثمن باهظ. ولم يكن هذا الضغط قاصرا على الأراضى العثمانية: إذ كان البروتستانت في البلاد الكاثوليكية يخضعون فى أحيان كثيرة لعقوبات رسمية منظمة وقاهرة بصورة أشد. وقد اشتهرت معاملة اليهود فى أوربا المسيحية دومًا بالسوء والقهر. وليست هناك سوى أدلة قليلة على أن الدولة المركزية العثمانية قد انتهجت سياسة اضطهاد مستمرة. فلم يكن هناك مكسب تجنيه السلطات العثمانية من وراء ترهيب غير المسلمين فى البلقان. إذ إنهم كانوا يريدون الحصول على أكبر قدر ممكن من المال من النصارى من خلال الضرائب. وفيما عدا ذلك. قنع العثمانيون بترك «الرعايا» في حالهم [٢٦].

وفى مناطق البلقان التى اختلطت فيها الجماعات والطوائف. كانت لدى المسلمين فى بعض الأحيان فرصة مشاهدة المسيحيين مباشرة. وكانوا يشاركونهم اللغة والحياة الاجتماعية. ولكن من الصعب تحديد مدى أهمية الدور الذى لعبته الهويات الدينية فى الحياة اليومية. فالأدلة قليلة سواء على هذا الجانب أو ذاك. ولا يبدو أن الخصومات العنيفة فيما بين الجماعات المختلفة كانت شائعة. أو على الأقل لم تسجل. ولم يكن لدى أى من السكان المسلمين أو السكان المسيحيين الكثير من الدوافع لإزعاج الآخرين لأن ذلك كان سيؤدى فقط إلى جذب انتباه الموظفين العثمانيين الذين لم يكونوا موضع ترحيب. وعندما كان يلوح شبح المنازعات بين المسلمين والنصارى، كانت جذور المنازعات غالبًا ترتبط بموضوعات أكثر دنيوية. المال، والأرض والغيرة والجشع [٢٧]. وعندما كانت تنتقل المجادلات إلى الساحة الرسمية. أى المحاكم والأحكام الشرعية، لم يكن ذلك فى صالح غير المسلمين بالتأكيد. ومع هذا فإن المسيحى الثرى أو اليهودى الغنى كان يمكنه أن يضمن حكما لصالحه فى مواجهة المسلم الفقير. وعلى أية حال، فإن المسيحيين الذين كانوا يضعون فى اعتبارهم أن المحاكم كانت معاكسة لهم، كانوا أقل اهتمامًا حتى من جيرانهم المسلمين فى جذب

اهتمام السلطات للتدخل فى حياتهم. ولاشك فى أن كثيرا من مسيحيى البلقان كانوا يشعرون بالاضطهاد. كان هذا. فى جزء منه ،بسبب وجود إحساس بالاستياء الكامن تطور من أواخر القرن الثامن عشر فصاعدا بأن البلاد وجميع مواردها. التى كانت مملوكة من قبل لأهلها وحدهم، يحتلها المسلمون فى ذلك الحين.

وبما أنهم كانوا يستمعون المرة تلو المرة إلى قصص عن تراثهم النبيل، وعن الحكام المسيحيين العظماء. وعن أبطال الماضى، وعن زمن مضى قبل قدوم الأتراك، فقد كانت الاستجابة الغريزية من جانب الفلاحين المسيحيين أن يظنوا أن جيرانهم المسلمين يمتلكون ما يجب أن يعود إليهم. فقد ساعدت الأيقونات الورقية فى المنازل، والأساطير الوطنية التى تتكرر حكاياتها لهم فى أوساط العائلة وفى القرية، والكتب والمنشورات. بل التعليم نفسه. كل هذا ساعد على إظهار شعور بالهوية. وقد تحول هذا إلى إحساس بالظلم تغذى على خصومات عميقة الجذور (وإن كانت كامنة). فقد كان المسيحيون مستائين من دفع ضريبة الرأس (الجزية). على الرغم من أنهم كانوا يعفون من دفع الزكاة. وهى العشور الدينية الخيرية الواجبة على المسلمين. وكانت هناك واجبات أخرى مفروضة على الرعايا المسلمين، وليست مفروضة على النصارى واليهود، مثلما كانت هناك مدفوعات مفروضة على هؤلاء وليست مفروضة على جيرانهم المسلمين. وبعض حالات الاضطراب إما أنها كانت حكايات خيالية. أو حكايات ترجع إلى الماضى البعيد [٢٨].

وعلى أية حال. تزايد العبء المالى على شعوب البلقان فى أثناء القرن الثامن عشر بشكل لا رحمة فيه. وكان القليل من المال يصل إلى خزانة الدولة المركزية. وبدلا من ذلك كان يلتصق بأيدى الوسطاء. ومنذ الغزو. كان العثمانيون قد حكموا ولاياتهم البلقانية باستخدام أشكال مختلفة من الحكم غير المباشر وعدد صغير من موظفى الدولة [٢٩]. وقد أدمجوا الكثير من زعماء الجماعات المسيحية المختلفة فى النظام الحكومى، بحيث إن أكبر شخصية. وهو البطريرك الأرثوذكسى فى إستنبول(*)، كان

(*) لا أدرى لماذا يصرُّ المؤلف فى جميع صفحات الكتاب على أن يتحدث عن العاصمة العثمانية إستنبول باسمها البيزنطى «القسطنطينية» الذى صار اسما دالا على حقبة تاريخية وحضارة انتهت بقيام الدولة العثمانية فى ١٤٥٣. بعد فتح القسطنطينية. (المترجم)

يتمتع برتبة الباشا السامية وكان مخصصا له راية رسمية عثمانية. بيد أن الحكم غير المباشر لم يكن يعمل بكفاءة سوى عندما كان تحت السيطرة ويكبح جماحه الحكام الشرفاء الذين ترسلهم العاصمة. مع سلطة الحكم بالحياة والموت على الموظفين المحليين. لقد كان هؤلاء هم المسئولين في النهاية عن فرض القانون. وضمان طرق السفر والمباني العامة. ولأنهم كانوا يرهبون من هم فوقهم، فإنهم كانوا يرهبون من هم تحتهم، وبمثل هذه الوسيلة كان الهيكل الذى يبدو متداعيًا على وشك السقوط يعمل بقدر كبير من المساواة.

ومنذ بواكير القرن الثامن عشر بدأ النظام كله يعاني الإخفاق والفشل. ذلك أن المصالح الإقليمية القوية، مسلمة ومسيحية على السواء، شعرت بأن في إستنبول يدًا أضعف عن ذى قبل وبدأت تعامل القانون بقدر من الحصانة. فقد تجاهل السادة المحليون الذين عرفوا باسم «البكوات» سلطة موظفى الدولة. بل إنهم منعوا باشا الإقليم من الإقامة فى العاصمة سراييفو، وجعلوه يمكث فى مدينة ترافينيك **Travinik** الأصغر. ورفض الإنكشارية. الذين كانوا في الأصل يتمركزون لفترات محدودة فى البلقان للدفاع عن ممتلكات السلطان. العودة إلى إستنبول وحازوا الأرض والممتلكات، كما حازوا شهرة مخيفة بين القرويين المسيحيين الساكنين حول معسكراتهم، وصموا آذانهم عن الأوامر الصادرة من إستنبول. وصاروا القوة الفعالة فى الأقاليم داخل الدولة، مثل رفاقهم الإنكشارية فى العاصمة، الذين كانوا يخلعون السلاطين بل يغتالونهم. وكان الإنكشارية المعسكرون فى قلعة بلجراد بشكل خاص مشهورين بسمعتهم السيئة فى الاغتصاب والابتزاز .

كان الحكام العثمانيون فى القرن الثامن عشر لايهتمون بالأحوال الداخلية بالبلقان (بشرط إرسال عوائد الضرائب إليهم). وإنما كانوا يهتمون بالضغط من جانب إمبراطور الهابسبورج وروسيا على حدود أملاكهم. ففى الشرق. كانت إيران قد صارت مرة أخرى منافسًا للولاءات المحلية حيث كانت السلطة العثمانية من قبل سلطة بلا منازع. وفى فترة التوسع العثمانى، كانت الحروب مربحة، تجلب الغنائم

والأسلاب، والممتلكات فى الأراضى، والعبيد والضرائب. أما فى القرن الثامن عشر فقد انعكست النماذج. إذْ كانت الحرب آنذاك تستنزف موارد الدولة. كما أنها خلقت طلبا متزايدًا على القوة البشرية تمثَّل فى أخذ الفلاحين بعيدًا تحت الحراسة لمحاربة الروس أو النمساويين[٣٠]. وزاد الضغط على الإمبراطورية باطراد مما أدى إلى أن القادة العثمانيين اعتقدوا أنهم سوف يحتاجون للأخذ بالنظام العسكرى الغربى إذا ما أرادوا الدفاع عن ممتلكاتهم[٣١].

ولا ينبغى لنا أن نبالغ فى قصور قدرات العثمانيين. لأن هذه غالبًا ما كانت عبارة مجازية بلاغية عما ظنوا أنه قصور أخلاقى ولم يكن ضعفا عسكريًا حقيقيًا– فقد كان ما يزال بوسع العثمانيين أن يفاجئوا الجيوش الغربية بمهارتهم وإصرارهم. إذ كان يتم تصوير الأتراك باستمرار على أنهم فى حال من الاضمحلال والانحدار منذ أواخر القرن السابع عشر. وكثير من كتاب القرن الثامن عشر الذين قدموا الصورة نفسها كانوا يكشفون عن إحباطاتهم هم بسبب النزعة المحافظة العثمانية التى لا يمكن اختراقها. والحقيقة أن عملية الاضمحلال كانت بطيئة تمامًا. ومن دواعى السخرية أن أقوى دولة أوتوقراطية فى غرب أوربا، وهى فرنسا، هى التى انفجرت من الداخل أولاً، بدلاً من الإمبراطورية التركية التى زعموا أنها متداعية. ولكن فيما بعد لم يعد باستطاعة الأتراك مقاومة الموجات الصادمة التى تنبعث من الثورة الفرنسية أكثر من أى بلد أوربى آخر. وإذا أطاحت بها زوابع النابوليونية، عاودت الدول الصغيرة الظهور باعتبارها جمهوريات جديدة تحت الرعاية الفرنسية. وحتى الإمبراطوريات مثل النمسا وروسيا كانت مجبرة على التوافق مع القوة الإمبراطورية الفرنسية الجديدة. وفى البداية تدخلت فرنسا فى الشرق بغزو ولاية مصر العثمانية فى سنة ١٧٩٨م، وهو ما أدى إلى هزيمة المماليك الحاكمين فى معركة الأهرام خارج القاهرة. وفى نهاية المطاف، أدى التصرف الفرنسى إلى سيادة محمد على، الألبانى الذى عينه السلطان سليم الثالث. وقد خلقت مصر تحت حكم محمد على جيشا قويًا وأسطولاً وصار أعظم سند للدولة العثمانية ولكنه كان أيضا أعظم تهديد لسلطة السلاطين العثمانيين.

كانت للتورط الفرنسي في البحر الأدرياتي تأثيرات مباشرة. فقد حلت السيادة الفرنسية محل احتلال البندقية للساحل الأدرياتي في البلقان على مدى عدة قرون. في الجزر الأيونية أولا (ولفترة قصيرة)، ثم فيما بعد. بعد سنة ١٨٠٩م، في ولاية إيلليريا. من رأس البحر الأدرياتي إلى جنوب دلماشيا، لتخلق دولة مفردة من الممتلكات السابقة لأسرة الهابسبورج والبندقية [٣٢]. وقوضت فرنسا الثورية الوضع العثماني[٣٣]. وفي سنة ١٧٩٧م أمر نابليون قائده في الجزر الأيونية أن «يتملقوا السكان ... وأن يتحدثوا عن أثينا وإسبرطة الإغريقية في مختلف الإعلانات التي قد تصدرونها» [٣٤]. وتبدو هذه المقاربة مشابهة جدا في مقاصدها بالمحاولات الفرنسية لاحتواء الرأي العام المسلم في أول إعلان للفرنسيين في مصر سنة ١٧٩٨م. ولكن في حالة بلاد اليونان كان لها صدى أكثر عمقا. ذلك أن المساواة بين شعب اليونان وحضارة بلاد الهللينيين القدامى كانت شائعة فيما بين الدوائر المتعلمة في كثير من بلاد أوربا الغربية. وبصفة خاصة في فرنسا، وبريطانيا وكثير من الدول الناطقة باللغة الألمانية. تلك الرابطة هي التي فرضت وجود الجماعة التي عرفت باسم «المثقفين الإغريق». كانوا في معظمهم من المنفيين الإغريق الذين يعيشون خارج الأراضي العثمانية، أو في الإمارات المستقلة في مولدافيا ودالاشيا. شمال نهر الدانوب. وكانت فرنسا الثورية درسًا مهمًا لهؤلاء المحررين للبلقان. وكان يمكن ألا تكون هناك حدود لطلب الحرية. ولم تكن أي تضحية غالية إذا ما أدت في النهاية إلى قيام الوطن.

* * *

إنني لا أقترح أن نتتبع كافة المسارات الملتوية التي أدت باتجاه التحرر الوطني بالنسبة للشعوب المختلفة في البلقان[٣٦]. وعلى مدى القرن من سنة ١٨٠٤م عندما هبَّ الصرب ضد أعمال العصابات التي مارستها حامية الإنكشارية في بلجراد. حتى نهاية حروب البلقان في سنة ١٩١٢م. كانت البلقان في حالة نضال مستمرة

بشكل أو آخر. وفي بعض الأحيان حاربت شعوب البلقان ضد أحدها الآخر، وفي بعض الأحيان حاربوا ضد الأتراك، سواء بصورة فردية أو جماعية. وقد لعبت الدول الأوربية العظمى الأخرى دورًا نشيطًا، تساند فريقًا أو آخر. ولكن في ذلك الصراع الطويل كانت هناك حادثتان مرعبتان لخصتا «البلقان» بالنسبة لكل الأجانب. والمذابح التي صاحبت بداية الثورة اليونانية في سنة ١٨٢١-١٨٢٢م (التي سوف أناقشها هنا). «الأهوال البلغارية» في سنة ١٨٧٦م (التي سوف ندرسها تفصيلاً في الفصل التالي). وفي كل من الحالين، فإن ما حدث بالفعل يختلف بصورة حادة مع ما كتب آنذاك. ويمكن لنا أن نرى كيف أن أساطير البلقان الجديدة كانت قد تشكلت ثم انتشرت مثل أسنان التنين في الأساطير اليونانية.

ولا نزاع في أن البلاد جنوب نهر الدانوب قد ورثت تراثا طويلاً من العنف الاجتماعي شأنها شأن جميع مناطق المرتفعات. فقد كانت الحياة تبدو رخيصة. ففي الجبل الأسود كان قطع الرءوس ممارسة شائعة. كما كان الحال بين العثمانيين. لقد كان هذا عالما كانت فيه الحياة الفردية قصيرة بشكل غير عادي. ولكن حيثما كان المجتمع يستمر في الحياة في كل فرد من أفراده. كانت الروابط المشتركة تضمهم سويا. لقد كانت متطلبات الشرف تمتد خلال العائلة بأسرها. أو تمتد في الجبال إلى العشيرة كلها. وفي مرتفعات ألبانيا. كانت جرائم الشرف. والمنازعات والمشاجرات تظل موجودة عبر أجيال عديدة حتى يتم أخذ الثأر[٢٧]. كان الضمان الوحيد ضد سكين في الظهر، أو رصاصة غير متوقعة تقتل أي واحد يمكن أن يكون مرتبطًا بسلسلة من حوادث الثأر. وكانت هذه هي الفكرة التي لا ينطق بها أحد وراء صيحة «اقتلوا الأتراك جميعًا في المورة» والتي كانت أصداؤها تتردد في قرية وراء أخرى في ربيع سنة ١٨٢١م .

كانت لدى العثمانيين أيضا ثقافة انتقام. فقد كانت العدالة قائمة على أساس العقاب الناجز والإرهاب. وكان يمكن لرجل واحد أو جماعة بأسرها أن تموت تكفيرا عن جريمة. فقد كانت المسئولية الفردية والمسئولية الجماعية على السواء مبررات كافية للعقاب بالقتل. فإذا كان مرتكب الجريمة قد هرب. كان للقاضي أن يأمر بعقاب

شخص من العائلة نفسها، أو من القرية نفسها أو حتى من الملة نفسها [٣٨]. كانت هذه هي الحال عندما كان سليمان باشا، حاكم بلجراد، قد أعيد إلى عاصمته بعد ثورة الصرب في سنة ١٨٠٧م. كان لديه «رجال تم حرقهم أحياء، وعلقوا من أرجلهم فوق قش ينبعث منه الدخان ... وتم خصيهم وسحقهم بالصخور. وضربوا بالفلقة... خارج بوابة إستنبول فى بلجراد ... كانت جثثًا للصرب المخوزقين الذين نُحروا فوق ظهور الكلاب...»[٣٩]. وعندما كانت بلجراد قد سقطت فى أيدى غزاتها. تم قتل المزيد من الرجال. ولكن النساء والأطفال المسلمين تم الإبقاء على حياتهم، لكى يتم تعميدهم بالقوة [٤٠]. ومن غير المحتمل تمامًا أن يكون الأتراك قد عذبوا حتى الموت الرجال الذين كانوا قد ارتكبوا هذه الأعمال العدوانية فعلاً، وأشعلوا النيران فى المبانى وأحرقوا كل من كانوا بداخلها أحياءً. وعانى آخرون من جراء الجرائم التى ارتكبتها جماعتهم، وذلك بقصد منع أى أعمال عصيان أخرى. وكان العثمانيون. والسلاف. واليونانيون جميعا يراعون قانون الذبح والثأر غير المكتوب .

وهناك كثير من المؤرخين «للمقاومين». «المستعدين للقتال» فى الثورة اليونانية ولكن أحدًا منهم لم يشرح تمامًا ما حدث فجأة فى سنة ١٨٢١م قرب عيد الفصح عندما بدأ الفلاحون اليونانيون فى المورة يقتلون جميع المسلمين فى البلاد– من الرجال والنساء والأطفال على السواء. فقد ذبح ما يقرب من عشرين ألف شخص فى مدى أشهر قليلة. هذا القتل الذى جرى على المسلمين، وليس المذابح التركية التى جرت على المسيحيين فى جزيرة خيوس Chios فى السنة التالية، كانت تلك نقطة البداية فى المذابح التى وقعت فى حرب التحرير. لقد كانت هناك سوابق للمذابح على هذا المستوى. ولكن ليس فى البلقان. ففى العقود الثلاثة التى سبقت سنة ١٨٢١م فعلاً، كانت أوربا الغربية وليس الشرق المخدَّر هى التى قدمت الأمثلة الأكثر إثارة للخوف فى الاغتيال الجماعى. فقد تم رفع «الإرهاب» إلى مستوى المبدأ الذى يقوم عليه الحكم فى أثناء السنوات الأولى للثورة الفرنسية. إذ قام غوغاء باريس بالتمثيل بجثث بعض ضحاياهم، على حين صممت فى المقاطعات الفرنسية وسائل غير مسبوقة. مثل الإغراق الجماعى، لتسريع عملية التخلص من أعداء الشعب. ورسومات جويا

Goya عن «كوارث الحرب **Disasters of War**، تظهر فى مقدمة كتابه «تاريخ الثورة اليونانية **History of the Greek Revolution**» الذى نشر سنة ١٨٣٢م. اعتذر لأنه يكتب عن. «موضوع محفوظ ومن الواضح أنه استهلك تماما»[٤١]. وقال إن أربعين كاتبًا. كانوا قد نشروا حول الموضوع. حكم على ثلاثة أو أربعة منهم فقط بأنهم يستحقون القراءة. وكان كتابه عملاً نموذجيًا فى التاريخ: فقد بحثه جوردون بحثا مستفيضًا. مع الميزة الإضافية بمعرفة الأرض وكثير من المشاركين. إذْ إنه كتب حينما كانت الحوادث ما زالت ماثلة فى الأذهان. وقد احتقره الأتراك ولكن ليس إلى درجة الهوس [٤٢]. كانت أسباب الثورة عند جوردون هى الغيرة الدينية. والنزعة الوطنية، والكبرياء القومى الذى ناله جرح عميق بسبب الإهانة والجرح [٤٣]. وسجل كيف أنه فى سنة ١٨٢١م كان اليونانيون ينقلون الأسلحة المحملة بالسفن والبارود إلى المورة وكان الجو مفعمًا برياح التمرد. وقد بدا ذلك لبعض المؤرخين اللاحقين كما لو كانت الثورة مخططة. ففى كل مكان. وكما لو كانت هناك إشارة متفق عليها سلفا، هب الفلاحون وذبحوا جميع الترك- رجالا ونساء وأطفالاً- الذين استطاعوا أن يضعوا عليهم أيديهم.

فى المورة لا يجب الإبقاء على الأتراك

ولا فى العالم الواسع بأسره

هكذا كانت تصدح الأغنية. من فم إلى فم، لتعلن بداية حرب الاستئصال [٤٤].

لم تكن الحرب مخططة ولا منظمة. فما إن قام الأسقف جرمانوس وزعماء الكنيسة الأرثوذكية «برفع راية الصليب» فى أبريل سنة ١٨٢١م حتى اكتسب التمرد «أرضا بسرعة مدهشة، ومن جبل إلى جبل آخر، ومن قرية لأخرى تغلغل حتى أبعد ركن فى المورة. وفى كل مكان هرع الفلاحون إلى الأسلحة، وأولئك الأتراك الذين يقيمون فى الريف أو المدن غير الحصينة، إما قطعوا إربا أو أجبروا على الهروب إلى الحصون» [٤٥].

وقد أسهب جوردون أكثر من ذلك فى قتلى اليونانيين. فهناك العديد من الرهائن اليونانيين الذين سيقوا بناء على أوامر القائد التركى «تم اقتيادهم إلى الأمام وأطيحت رءوسهم. وقد صبغت الدماء عتبة مكان إقامته. وتركت عظامهم فترة طويلة حتى ابيض لونها فى الفناء»[٤٦] وهناك آخرون قذفوهم «عرايا بلا رءوس»، من فوق شرفات الأكروبوليس فى أثينا.

ولكن الرعب تملك جوردون مما شاهده من بربرية اليونانيين. ففى مدينة تريبوليتسا Tripolitsa، التى اكتظت بالمسلمين الهاربين من المناطق الريفية المحيطة، شاهد اقتحام اليونانيين للأسوار:

«الغزاة الذين أصابهم جنون الهياج الحقود، لم يراعوا سنًا أو جنسًا، قد كانت الشوارع والمنازل تفيض بالدماء. وتقطعها أكوام من جثث الموتى. وقد حارب بعض المسلمين بشجاعة وقدموا حياتهم غالية. ولكن الأغلبية ذبحوا دونما مقاومة... كانت ألسنة اللهب تتوهج فى القصر وكثير من البيوت التى أضرمت فيها النيران بعد ليلة انقضت فى السلب والقتل»[٤٧].

وكان جوردون، بوصفه جنديا، قادرًا على أن يفهم النهم إلى الدم فى لحظة النصر الأولى، ولكن الانتقام مضى أبعد من ذلك كثيرًا [٤٨].

لقد كانت صور تريبوليتسا. ألفا امرأة وطفل «ذبحوا فى إحدى شعاب جبل مينالیون Maenalion» حيث ملأت جثثهم المنتفخة مقبرة مفتوحة ضخمة- تملأ ذهن جوردون عندما وصف المذابح العثمانية التالية فى خيوس. فقد كتب عن جزيرة شاعرية، على مسيرة سبعة أميال من ساحل آسيا الصغرى، بها ثمان وستين قرية، وثلاثمائة دير، وسبعمائة كنيسة. وكان عدد سكان خيوس مائة ألف يونانى وستة آلاف تركى وعدد قليل من الكاثوليك واليهود. وكانت معروفة بمناخها الجميل والتسامح المتبادل بين طوائفها المختلفة. وأخلاقيات نسائها المتساهلة. وكانت أيضا مركزًا للتعليم اليونانى والأدب اليونانى، وفيها كلية، ومكتبة ومطابع ومتحف.

وكانت جماعة صغيرة من المغيرين فى الثورة اليونانية من ساموس Samos قد جلبوا التمرد إلى الجزيرة. وكانوا قد أحرقوا المبانى ونهبوا كافة الممتلكات المنقولة التى استطاعوا أن يجدوها. ثم غادروا. ولكن بعد أسابيع قليلة وصلت قوة غازية كبيرة ثم بدأت الثورة فى الاشتعال. وتم قتل المسلمين المحليين وأحرقت المساجد. وعندما وصلت الأنباء إلى إستنبول. خشيت الحكومة أن ينتشر التمرد إلى جزر يونانية أخرى قريبة من الساحل التركى. ثم عبر المياه إلى مدن آسيا الصغرى. وفى هذه الأزمة دعا الحاكم العثمانى إلى استنفار عام بين الرعايا المسلمين لاستعادة خيوس[٤٩]. ومع هذا. حسبما لاحظ جوردون، ألمح السلطان إلى أن الجزيرة يجب أن تهاجم ليس فقط «من أجل ... الدين والإمبراطورية». فقد كان هناك دافع دنىء. إذ كانت خيوس المسيحية تعد بالكثير من القوارب الصغيرة. وقد اقتحم الجنود العثمانيون عاصمة المدينة. والمشهد حسبما وصفه سكوت Scot. يمكن مقارنته بنهب تريبوليتسا. فقد تم ذبح تسعة آلاف فى يوم واحد. وكل يونانى أمكن العثور عليه وضع فيه السيف، حتى نزلاء مستشفى المجانين، والمرضى فى المستشفى، ومؤسسة الصم والبكم». وتوغل أكثر من ثلاثين ألف مسلم من آسيا الصغرى فى الجزيرة. يقتلون وينهبون وهم فى طريقهم، ويقبضون على النساء والأطفال ليباعوا فى أسواق النخاسة. وبنهاية مايو ١٨٢٢م. كان قد تم قتل خمسة وعشرين ألفا. وأسر خمسة وأربعين ألفًا. والأعداد الضخمة من الرقيق أغرقت الأسواق فى إستنبول، وتم قتل كثير ممن لم يتم بيعهم بسهولة مثل الشياه العجوزة. وتركت أجسادهم فى الشوارع لكى تتعفن.

بيد أن جوردون كان ما زال يرفض أن يلعن جانبًا ويتضامن مع الآخر. وقد كتب. «هل كتبنا بغرض تقديم خدمة حصرية لأمة كريهة أو حزب كريه واحد، وسيكون سهلاً أن نطيل فى كتالوج المذابح هذا. إن المذابح تنبع أحيانا من القسوة المنهجية لحكومة بربرية. ولكنها غالبا ما تنبع من الهياج الأعمى للناس الساخطين»[٥٠]. وقد ركزت على هذه الرواية جزئيا لأنه كان شاهدًا دقيقا وصادقًا. ولكن أيضا بسبب هذه القدرة على فهم قسوة الأتراك، كانت المجازر القاسية التى ارتكبها اليونانيون

أشدَّ إزعاجًا بالنسبة له. وفى النهاية استنتج جوردون أن اليونانيين حقًا فى أيامه كانوا قد ورثوا مشاعرهم الأكثر رقيا من أسلافهم، على حين أن أولئك الذين كانت قد أفسدتهم البربرية الشرقية قد أظهروا ما تتسم به من قسوة وخيانة[٥١]. وفى رأيه أن هذه العملية كانت قد بدأت مع إفساد الشرقيين لسجايا اليونانيين فى عصر الإسكندر الأكبر. فلم يكن رجال الإسكندر ملائكة. ولكن «خطاياهم الأصلية تفاقمت بالنعومة الشرقية وبالاختلاط مع رعايا كانوا أكثر فسادًا منهم»[٥٢] وبهذا المنطق الملتوى. كان اليونانيون فى أيامه قد صاروا «مثل الأمم الشرقية فى كل عصر»[٥٣].

وإذا كان توماس جوردون قد صار هو إله التاريخ Clio للثورة. فإن هناك جوردون آخر كان هو رب الفصاحة Calliope لها. ولم يفعل أحد لينبه الغرب لنوع الحملة الصليبية الجديدة فى بلاد اليونان أكثر مما فعله الشاعر جورج جوردون، اللورد بيرون. فى كتابه Childe Harold`s Pilgrimage (١٨١٢-١٨١٣م). وهو عبارة عن ركض سريع قام به بيرون خلال الفن الغربى وفلسفة التاريخ، وقدم بلاد اليونان فى البداية باعتبارها أرض النضال الملحمى. وبعث بلاد اليونان القديمة فى يونان جديدة. سوف تأتى البشرى بها فى ثورة أوسع وأكثر عالمية:

ألف سنة لا تكفى لبناء دولة؛

وساعة قد تمرغها فى التراب، وعندما

يستطيع الإنسان تجديد مجدها الغابر

يستعيد فضائلها. ويقهر الزمن والقدر[٥٤]

لقد تجاوز هذا الصراع كل ما سبقه من صراعات. وفى عينى بيرون كانت العقبة فى سبيل هذا العصر الجديد تتمثل فى الحكم العثمانى. الكفار الذين «تدنس عمائمهم الآن كنيسة أيا صوفيا». والذين كانوا قد صنعوا ممر الدماء على امتداد الغرب[٥٥]. ولكن موقفه تجاه الشرق تخطى الأنماط التقليدية. وكتابه Turkish Tales الذى نشر فى أعقاب النجاح المذهل لأول مقطع من قصيدة Childe Harold كان مليئًا «بالأتراك

النبلاء» مثل حسن The Gianur ((١٨١٣م) أو سليم تعيس الحظ فى The Bride of Abydos (١٨١٣م). وعلى الرغم من أن شخصيات بيرون المأساوية ضمت. فى مظاهرهم الخارجية. التنميط الشائع فى القرن الثامن عشر للأتراك. فإنها كانت شخصيات أكثر بشرية ومكشوفة أكثر من أى أشخاص عاديين[٥٦]. كان حسن وسليم غربيين فى عواطفهما. وآمالهما. ومخاوفهما. وما دمر تلك الآمال كانت الخشونة القاسية التى يتسم بها الباشوات والسلاطين. وما دمر الحياة البشرية على المستوى الفردى كان أكثر إهلاكا للإلهام البشرى على المستوى الوطنى .

ومنذ بداية الثورة اليونانية فى سنة ١٨٢١م، كانت الكتب والمنشورات قد بدأت تظهر ضد «الأتراك القساة» ووحشيتهم فى بلاد اليونان. وبعد قصيدة بيرون «martyrs death» فى عيد الفصح سنة ١٨٢٤م فى قلعة ميسولوغى Missologhi غرب اليونان. كانت هناك زيادة مفاجئة فى المنشورات المكرسة للقضية اليونانية[٥٧]. كما كانت فرنسا بصفة خاصة واقعة فى قبضة دراما الثورة اليونانية. فقد كانت باريس على مدى سنين طويلة نقطة التجمع للمنفيين والمبعدين، بما فيهم رائد إحياء اللغة اليونانية أدامانتيوس كوريس Adamontios Korais، الذى أمضى معظم حياته فى المدينة. ومات هناك فى سنة ١٨٣٣م. والبعض. مثل جريجوريوس زاليكيس Grigorios Zalykis. كانوا ثوارًا فى مخادعهم كما كانوا يخدمون الأتراك أيضًا– فقد كان السكرتير الأول فى السفارة العثمانية بباريس من سنة ١٨١٦م حتى ١٨٢٠م. وكان ميناس مينويديس Minas Minoidis يعلم اللغة اليونانية فى باريس وعمل أيضًا مترجمًا فى وزارة الخارجية الفرنسية. وكانت باريس أول عاصمة أوربية تتلقى الأنباء من هذه «المستعمرة» اليونانية.

كانت الجاذبية العاطفية للنزعة الهللينية قوية، بيد أننا لا يجب أن ننسى أن الفنانين الفرنسيين كانت لديهم من الدوافع الدنيوية الكثير وراء الفيض المفاجئ من صور الحرب فى اليونان التى أنتجوها. فقد كانت إمبراطورية نابليون قد قدمت كثرة من المهام للفنانين. على حين كان عمال الطباعة وتجار التجزئة يكسبون عيشهم من

بيع نسخ من الرسوم الشهيرة لجمهور أوسع. وبعد سنة ١٨١٥م، كان الفنانون الذين وجدوا سوقًا جاهزة لمشاهد المعركة يبحثون عن موضوعات جديدة. وكان اندلاع الثورة في اليونان نفسها أكثر جاذبية من ثورة في إمارات الدانوب(٥٨). وكل الفرقاء السياسيين في فرنسا، من الملكيين إلى الليبراليين وأنصار بونابرت السابقين، كانوا يؤيدون القضية اليونانية. فأولئك الذين كانوا يكرهون الثورة كبتوا شكوكهم ووساوسهم. وجريدة الملكيين **Le Drapeau Blanc** استنتجت أن: «اليونانيون مسيحيون يريدون خلع النير الإسلامي، ومن ثم فهو خير» (٥٩). وكانت تلك أيضًا قضية رومانسية بشكل عجيب. وقضية شرقية بشكل غريب. فقد ارتدت النساء حب الموضة التركية. **la Turque** مرة أخرى. ولكن كانت ملابسهن حينذاك في اللونين الأزرق والأبيض اليونانيين اللذين تم استخدامهما بشكل صحيح سياسيًا .

والازدهار المفاجئ في الرسوم والمطبوعات التي أعقبت الحرب في اليونان على هذا النحو كانت له تنويعة من «الدوافع الحافزة». فقد قدمت الصحافة الفرنسية تقارير ملونة عالية الجودة عن المذابح العثمانية. في ٢٧ مايو ١٨٢١م أوردت مجلة **Le Constitutionnel** تقريرًا بأنه قد تقرر رسميا في إستنبول «ذبح جميع الرعايا المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية». وبحلول ٢٤ يوليو كانت هذه قد صارت خطة للعثمانيين لمحو المسيحية من على وجه الأرض. وفي ٢٥ مايو ١٨٢١م كانت مجلة. **Gazztte de France** قد قارنت الأتراك بوحش بري متعطش للدماء وقالت إن هناك «غوغاء يهاجمون جميع المسيحيين بلا تمييز». ومن دواعي السخرية، في ذلك الحين، أن هذا النمط كان يناسب اليونانيين في المورة أكثر مما يناسب الأتراك وينطبق عليهم. وقد كان هناك رسم واحد أو اثنان يصوران القتل الذي تعرض له الأتراك. وثمة قصيدة غنائية كتبها ألفونس دوبريه **Alphonse Dupré** تتحدث عن استيلاء اليونانيين على تريبوليتسا في. أكتوبر ١٨٢١م. ولكن الأغلبية الساحقة من الصور قدمت الصراع في شكل يحابي اليونانيين. لقد كان الصليب موجودا في كل مكان في مواجهة رمز القوة التركية. علم ذيل حصان الباشا. وعادة ما كان يتم تصوير هذا العلم ملقى في التراب على الأرض، كما كان في إسكتش لم ينته لرسام مدينة ليون

بيير ريفوال. Pierre Revoll في لوحة (*) War in the Morea. or the Trimph of the Labarum وهي اللوحة التي أظهرت راية الباشا مطروحة تحت أقدام اليونانيين ذوي العيون المتوحشة، على حين يلوح الصليب فوق الصورة. وعلى العكس. نجد في لوحة Disaster at Missologhi. التي رسمها تشارل لانجلوا Charles Langlois ذيول الخيل تتقدم على اليونانيين الهاربين.

وتكاثرت الرمزية مع مرور الزمن. فبعد غزو شبه جزيرة المورة بواسطة القوات المصرية المدربة جيدًا والتي قادها إبراهيم باشا ابن محمد علي، والذي كان يحارب لصالح السلطان محمود الثاني، تبعثرت الجيوش اليونانية، وانتزعت منهم معاقلهم بعد إراقة دماء كثيرة. وثمة مطبوعة رسمها دوكارم Ducarme في سنة ١٨٢٨م قدمت La Gréce immolée (التضحية باليونان). تصور رجلاً مسنًا ومعه ولد صغير ملتصق بركبتيه يقف أمام الصليب. وامرأة ذراعاها ملفوفتان حول الصليب. ومعها طفل عار يتشبث بيدها. على حين نجد في جانب الصورة يونانيا آخر يحتضر. وقد رشق سهم في قلبه. بينما هناك آخر ميت بالقرب منه. وفي الخلفية، كان عمود من العصور الكلاسيكية قد سقط. ويسوق نحوهم على خيول تشبه مجموعة من الأتراك، مسلحين بالقسي والسهام، والمسدسات والسيوف التركية الطويلة. وخلفهم حامل الراية يلوح براية ذيل الحصان الطويلة. وهناك قليل من الشك حول مصير الرجل المسن والأطفال. أما بالنسبة للمرأة، فيبدو أن الاعتداء الجنسي مؤكد لأنها ترفع عينيها إلى السماء. ولم يكن هناك أحد في باريس في سنة ١٨٢٨م رأى هذه المطبوعة يمكن أن يراوده أي شك في معناها.

(*) اللاباروم، labarum راية عليها شارة الصليب. وهي تطوير للرايات القديمة للأباطرة الرومان كانت تجمع بين علم الإمبراطور وشعاره. ولكن الإمبراطور قسطنطين الكبير كان أول من وضع عليها شارة الصليب في معركة القنطرة الملفية التي انتصر فيها على منافسه على العرش الإمبراطوري: وهي قصة تمزج بين التاريخ والأسطورة (المترجم)

هذه الاستخدامات المجازية تظهر بين الحين والآخر على لوحات الكانفاه؛ الصليب. اليونانيون الأبطال على أقدامهم يقاتلون الأتراك الجامدين على ظهور خيولهم، النساء ومعهن الأطفال على صدورهن. والعذارى يتوسلن إلى السيدة العذراء. لقد كانت هذه حاضرة في كل مكان في الصور التي تباع في الشوارع بباريس كما في الرسوم المعروضة في الصالونات للمساعدة في خدمة القضية اليونانية. لقد قدموا صورة واحدة قوية عن «الخير» يحارب «الشر». كانت كثير من الموضوعات مألوفة بالفعل، منذ أوائل الرسوم. مثل لوحة **Gos** سنة ١٨٠٦م **Battle of Aboukir** «معركة أبوقير» حيث كانت الرايات المثلثة التي تشبه ذيل الحصان منكسة صوب الأرض على حين كان القائد المملوكي المهزوم يقدم سيفه للجنرال مورات **Murat**. ولكن خليط الأمور المثيرة للشفقة، والفخر المسيحي والبطولة المسيحية. والغطرسة العثمانية كان مزيجًا جديدًا. ولوحة إيوچين ديلاكروا **Eugéne Delacroix** بعنوان المذبحة في خيوس **Massacre on Chios** التي عرضت في سنة ١٨٢٤م ثم اشتراها لويس الثامن عشر ليضعها في اللوفر، كانت مثالاً على هذا الموضوع. وإذا وجهت إليها سهام النقد آنذاك لأنها كانت مشوشة وتعج بالفوضى. فإنها جذبت الانتباه إلى براعة ديلاكروا في السخرية الكاريكاتورية. والتي كانت في ذلك الوقت تمثل مصدر دخله الرئيسي. إنها لم تكن فنًا وإنما كانت دعاية[١٠]. فقد تجمع المسيحيون المرهقون سويا مثل القطيع لكي يتم شحنهم على متن السفن إلى العاصمة عبيدًا في حراسة اثنين من الأتراك. وعثماني بارد بلا تعبير على وجهه يمتطي فرسًا. يستل سيفه ليقطع جسد يوناني مفتول العضلات يحاول أن يحمي امرأة نصف عارية. ولكن في خلفية الصورة تجري أعمال الغزو الحقيقية. فالنساء يتم سحبهن من شعورهن، وأخريات يجردن من ثيابهن. وغيرهن يتعرضن لمطاردة حملة الحراب من الخيالة. وعلى النقيض من رسم كلاسيكي عظيم من طراز داود. لم يكن الفعل الرئيسي في مركز الواجهة. وإنما في أعمال الوحشية الاعتباطية التي تتكشف في الخلفية.

وقد كشفت الرسوم الكثيرة التي تناولت سقوط ميسولوغي في أبريل عام ١٨٢٦م عن موضوع مزدوج. الاستشهاد والنصر. ففي ميسولوغي تم ذبح اليونانيين

على أيدى الأتراك المنتصرين، ولكنهم فى لحظاتهم الأخيرة يفجرون مخزون الذخيرة لديهم بحيث قتلوا ألفين من «البرابرة» حسبما زعموا. وبعد ميسولوغى رُسمت صورة الوحشية لتكون أكثر قوة ووضوحًا. ففى الرسم المطبوع لأيوجين ديڤيريا **Eugeene Deveria** يظهر طفل عريان على وشك أن يخترقه سيف تركى على الرغم من توسلات أمه. على حين ترتدى الخيول التركية أطواقًا من رءوس المسيحيين فيما يشبه القلادة[١١]. وفى صورة أخرى امرأة تستعد لطعن نفسها وطفلها بدلاً من أن تعانى «قدرا أسوأ من الموت»[١٢] ولوحة ديلاكروا المسماة **Greece on the Ruins of Missologhi** (سنة ١٨٢٦م) أشد حذقًا ومهارة. إذ إن الرايات التى تشبه ذيول الخيل ترفرف فى خلفية الصورة، والمدينة العظيمة قد انفجرت. لتسحق أهلها تحت الصخور. ومع هذا فإن تجسد اليونان، نصف الراكعة على الأنقاض، ليست مفزوعة أو خائفة. إنها متحدية وفخورة .

كانت المادة المصدرية لكل هذه الصور هى الحوادث حسبما تصوروها فى فرنسا. فقد عولوا على تقارير الأخبار، والاجتماعات العامة. والمنشورات. والأشعار بل وحتى الروايات. بيد أن العملية كانت أشبه بالدائرة. لقد تولدت الصور عن النصوص المكتوبة. وكلاهما كان يغذى الذوق الشعبى ثم ساعد على تشكيل هذا الذوق. ومن بعدها صارت مصدرا للمزيد من الصور والنصوص. وتم تذكر المذابح التى جرت فى خيوس كما صورها ديلاكروا وغيره من الفنانين مثل كولان **Colin**. وعلى العكس. فلأن قتل المسلمين فى المورة لم يتم تصويره، وعلى الرغم من التقارير التى كتبت عن هذه المذابح. فإنها بدت أقل من الحقيقة كما بدت أقل قدرة على تحريك المشاعر. لقد بقيت اللوحات العظيمة فى مخيلة العامة بعد نسيان النصوص المكتوبة التى قامت على أساسها بزمن طويل. فالفنانون الفرنسيون، من الأساتذة إلى صناع المطبوعات التافهة، قد خلقوا مجازات مرئية للإحياء الهيلليني، الذى صوروه على أنه حملة صليبية جديدة.

هوامش الفصل العاشر

1. 'Relationi di Petro Foscarini', in Nicolò Barozzi and Guglielmo Berchet (eds), *Le Relazioni degli stati europei lette al Senato dagli ambasciatori veneziani nel secolo decimosettimo 5th series: Turchia* (Venice 1866), part 2, pp. 89–90; cited and translated in Lucette Valensi, *Venice and the Sublime Porte: The Birth of the Despot*, trans. Arthur Denner, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1993, pp. 1–2.
2. Cited Mary Lucille Shay, *The Ottoman Empire from 1720–1734 as Revealed by the Dispatches of the Venetian Baili*, Urbana, IL: University of Illinois Press, 1944, p. 34.
3. For example, successful plays on the London stage included *The Christian Hero* (1735), *Zoraida* (1780) and *The Siege of Belgrade* (1791), all of which deployed these themes.

٤- كاتب هذه الكلمات نيكولاس- أنطوان بولانجر، كان شابا فرنسيا يعمل مهندسًا مدنيا وعالمًا يعجب به دويدرو كثيرًا، وقد مات فى سن السابعة والثلاثين سنة ١٧٥٩م ، ولكن أحد آخر أعماله ، الذى نشر سرًا ، بعد موته ، كان يتناول موضوع الاستبداد المثير للجدل. ومقالته:

.Rechershes sur l'origin de des patisme Oriental

كانت تعتبر فى فرنسا مصدر تحريض ، ولهذا نشرت فى الأراضى الواطئة سنة ١٧٦١م . وعلى الرغم من أن بولانجير اعتبر أن أوربا كان لها نصيبها الخاص من الاستبداد ، وعلى الرغم من حساسياته النقدية ، فإنه مع هذا تمسك بالرأى التقليدى المسلم به عن الشرق ، الذى تضمن الشرق الأدنى وكذلك الشرق الأقصى.

5. See Lewis, *Discovery*.
6. See *A British Resident*, p. 308.
7. With so many young women dying in childbirth or from disease, many Western widowers made a series of marriages. (Thus the wicked stepmother became a

literary stereotype.)

8. Possibly Skene's experience of many years had not been with Constantinople sophisticates like the general, but with more traditionally minded provincials.
9. Skene was the British Consul in Aleppo.
10. The concept of 'recovered memory' was developed in the 1990s as a means of enabling children and adults to recall memories of events they had forgotten or repressed. The use of these powerful psycho-therapeutic methods also elicited recollections of events that had never taken place, or manipulated recollection to produce a desired outcome. While most of the research has focused on sexual abuse in childhood the wider implication of this research sheds light on the process of generating social 'memories' about the distant past. See Elizabeth F. Loftus, 'Imagining the Past', *The Psychologist* 14 (November 2001) 11, pp. 584–7. Moreover, 'memories that have had time to fade are particularly susceptible to distortion' by imprinting ideas; see Kathryn A. Braun, Rhiannon Ellis and Elizabeth F. Loftus, 'Make My Memory: How Advertising Can Change Our Memories of the Past', *Psychology and Marketing* 19 (January 2002), pp. 1–23. The concept of 'collective memory' derives from the work of Maurice Halbwachs in the 1920s–1930s; born in 1877, he was sent to Buchenwald in 1944 and died in 1945. His principal work has now been translated as *On Collective Memory*, ed., trans. and intro. by Lewis A. Coser, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1992. Halbwachs asserted (p. 50) that 'If certain memories are inconvenient or burdens us, we can always oppose to them the sense of reality inseparable from our present life. We are free to choose.' Part of the lesson of the Balkans in the 1990s is that this freedom to choose may well be heavily constrained.
11. The number who actually migrated is, like most other elements of this history, still violently contested. For a reasoned revisionist view, see Malcolm, *Kosovo*, pp. 139–40.
12. 'An Abbreviated Biography of Prince Lazar', translated and cited in Emmert, *Serbian Golgotha*, pp. 62–3.
13. The Serbian capacity to transmute disaster into victory had deep cultural roots and carried through into the twentieth century. The retreat of the Serbian army through Montenegro before the Austrian army in 1915, losing 100,000 killed or wounded, was followed at the end of the war with the creation of a South Slav kingdom.
14. *Il regno degli Slavi hoggi corrottamente detti schiauoni historia di Don Macro Orbini in Peso*: Appraise Girolamo Concordia, 1601.
15. The translator was a native of Herzegovina named Sava Vladislavic; see Ante Zadic, 'Strossmayer y los Búlgaros', *Studia Croatica* 1971, No. 42–3.
16. Emmert observes that the Austrian authorities tried without success to prevent copies entering the Habsburg domains.

17. See Bringa, *Being Muslim*, p. 165. Her fine book encapsulates the tragedy of modern Bosnia.
18. Thomson, *The Outgoing Turk*, p. 156.

١٩- كانت التقاليد الثقافية البلقانية للمسلمين يتم التعبير عنها فى جميع لغات الإقليم تقريبًا، لأن معظم المجتمعات المسلمة استخدمت اللغات الألبانية، والسلافية أو اللهجة اليونانية على الرغم من أن بعض المهاجرين التتاريين والأناضوليين استخدموا اللغة التركية فيما بينهم. وكان يتم التبديل فيما بين اللغة اليونانية والألبانية فى كثير من المناطق وفى بلاط أنجح حاكم عثمانى فى البلقان- على باشا من يانينا- كانت اللغة اليونانية لغة رسمية ، وليست التركية العثمانية: وكان على باشا نفسه يفضل لغته الألبانية الوطنية. والواقع أنه من غير المؤكد أنه كان عارفا بتعقيدات اللغة العثمانية ، لأنه عندما كان يقوم بتصحيح الوثائق كان يستخدم الخط اليونانى : انظر :

. ٥-٢٤ .Fleming ، the Muslim Bonaparte، pp

(٤٠٠.p)

20. Albert B. Lord, 'The Effect of the Turkish Conquest on Balkan Epic Tradition' in Birnbaum and Vryonis (eds), *Aspects*, pp. 298–9.
21. The Albanian traditional hero Skendarbeg was shared by both Muslim and Christian communities, but each tribal group constructed 'its' hero in different ways.
22. See Banac, *National Question*, pp. 46–9.
23. I have found Lawrence Stone's categories – Presuppositions, Preconditions, Precipitants, Triggers – a very useful matrix for tracing a way through the complex history of events in the Balkans. See Lawrence Stone, *The Causes of the English Revolution 1529–1642* (2nd edn), London and New York: Routledge, 2002.
24. See Davison, 'Turkish Attitudes'.
25. The Muslim communities had their own local officials who were likewise responsible for the good order of their own community.
26. Halil Inalcik discussed some of the long-term causes of the deteriorating position of the *raya* in 'The Ottoman Decline and its Effects on the Reaya' in Birnbaum and Vryonis, *Aspects*, pp. 338–53.
27. One parallel in the West is how many accusations of witchcraft or heresy were eventually found to be rooted in wholly secular causes.

٢٨- هناك أدبيات عن الرعب من الدفشرمة كما لو كانت قد احتلت مكانا فى الذاكرة الحية، بدلاً من أن يكون مكانها الماضى قبل عدة قرون. لقد كان الدفشرمة هم المجندين الإجباريين من غير المسلمين للخدمة الإمبراطورية. وكان الذكور يؤخذون جنودا (الإنكشارية) وكان بعضهم يتم تدريبهم موظفين ومديرين. ولم يمتد هذا النظام على أقصى تقدير فيما بعد القرن الثامن عشر . وقد اعتنق معظمهم الإسلام ولكنهم بقوا فى أغلب الأحيان على ولائهم لمجتمعاتهم المحلية وحافظوا على صلتهم بعائلاتهم . وبغض النظر عن عنصر التحول الدينى، الذى يزعج المسيحيين جدا، فإنها لم تختلف كثيرا عن التجنيد العسكرى فى روسيا أو أراضى الهابسبورج .

(p.٤٠٢)

29. They governed Bosnia and Herzegovina with about 120 officials; the bureaucratic Austrians who took over from them in 1878 employed 600 by 1881. By 1897 this had risen to 7,379. See Sugar, *Industrialization*, p. 29.
30. See Irwin T. Sanders, 'Balkan Rural Society and War', cited in Rhoads Murphy, *Ottoman Warfare 1500–1700*, London: UCL Press, 1999.
31. See Ralston, *Importing*, pp. 43–68.
32. Britain replaced the French in the Ionian Islands.
July–October 1950, p. 321. Cited and translated in Stavrianos, *Balkans*, p. 211.
35. Perhaps the best and most succinct statement of the libertarian viewpoint came much later, not from a left-wing ideologue, but from a conservative: 'Extremism in the defence of liberty is no vice!' Barry Goldwater, US Republican Presidential candidate, 16 July 1964.
36. In the case of the Greek Revolution, I do not intend to discuss the uprising in Moldavia and Wallachia, or the later conduct of the war, but to focus on the events of 1821–2.
37. As they could in other clan societies – the feud between the Campbells and the Macdonalds in Scotland originated in 1297.
38. This too had its echo in local customary law, which assumed collective and clan responsibility for any act. This could be found just as readily among the Arabs of Jordan and the Arabian peninsula, in the Druze and Maronite Christian communities of Lebanon, and in Italy and Spain.
39. See Petrovich, *History*, vol. 1, p. 84.
40. See Stevan Pavlowitch, 'Society in Serbia 1791–1830', in Clogg (ed.), *Balkan Society*, p. 144.

41. Gordon, *History*, vol. 1, pp. i–ii.
42. He gave many examples of individual Turks who had behaved with a great sense of honour, better than the Greeks.
43. Gordon, *History*, vol. 1, p. 143.
44. See W. Alison Phillips, *The War of Greek Independence 1821 to 1833*, London: Smith Elder, 1897, p. 48.
45. Gordon, *History*, vol. 1, p. 149.
46. At Patras, on Palm Sunday, the Turks 'amused themselves at their leisure in impaling or beheading prisoners and circumcising Christian children'; ibid., p. 156.
47. Ibid., pp. 244–5.
48. 'Their [the Greeks'] insatiable cruelty knew no bounds, and seemed to inspire them with a superhuman energy for evil . . . Every corner was ransacked to discover new victims and the unhappy Jewish population (even more than the Turks an object of fanatical hatred) expired amid torments which we dare not describe. During the sack of the city, the air was close, dull and oppressively hot'; ibid.
49. 'Never were firmans obeyed with more alacrity; intelligence of the revolt of Scio [Chios] excited very strong feeling throughout Asia Minor, detachments of troops covered the roads, and the ancient fervour of Islamism seemed to revive. Old and young flew to arms, and a regiment composed entirely of Imams was seen to march through the streets of Smyrna'; ibid., p. 356.
50. Ibid., p. 192.
51. 'Those who are best acquainted with the Greeks cannot fail to remark the numerous and striking features of resemblance that connect them with their ancestors . . . The Grecian character was, however, long tried in the furnace of misfortune, that the sterling metal had mostly evaporated and little but dross remained; having obliterated whatever was laudable in the institutions of their forefathers, their recent masters had taught them only evil'; ibid., p. 32. It was the 'worthiest' of the Athenians who sought to prevent the deliberate massacre of the civilian Turks in the city, while 'the system of the worst and most degraded Greeks, of exterminating, *per fas et nefas* [by fair means and foul] every disciple of Islam who fell into their hands'; ibid., pp. 414–15.
52. Ibid., p. 4.
53. Ibid., p. 231.
54. *Childe Harold*, Canto 2:84.
55. Canto 2:79.
56. For a new insight into Byron's attitudes, see Makdisi, *Romantic Imperialism*, pp. 136–7. He notes Byron's comment: 'the Ottomans are not a people to be despised. Equal, at least, to the Spaniards, they are superior to the Portuguese.

If it be difficult to pronounce what they are, we can at least say what they are *not*: they are *not* treacherous, they are *not* cowardly, they do *not* burn heretics, they are *not* assassins . . .'

57. On the pamphlet literature see St Clair, *That Greece*, pp. 372–3. At that time the publications in English and German diminished. He also noted how there was a flood of books on Greece after Byron's death, and in a number of these Byron and Missolonghi were mentioned in the title: see ibid., pp. 386–7.

٥٨– لم يكن معقل الثورة في بلاد اليونان نفسها، وإنما في مقاطعات الدانوب في الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت الطبقة الحاكمة مؤلفة من اليونانيين من أهل القسطنطينية ، الذين كان كثير منهم يرعون الجماعات اليونانية الوطنية السرية. ودور الجمعيات اليونانية السرية ، أو "رابطة الصداقة" ما يزال غير واضح . ففي أغلب الأحيان كان الأعضاء الفرديون ينسقون فيما بينهم بدلا من أن يقدموا خطة تفصيلية للقتل في شبه جزيرة المورة في سنة ١٨٢١م.

(٤٠٢.p)

59. See Athanassoglou-Kallmyer, *French Images*, pp. 11–12.

60. Nina Athanassoglou-Kallmyer draws a strong connection between the two: 'By joining regular to irregular, and classical to expressive, Delacroix's cartoons reveal a balanced dualism – sublime and grotesque . . . the prints are significant as early exemplars of similar solutions observed in Delacroix's painting. In . . . *Massacres on Chios* for example conventionally constructed scenes are punctuated by elements of the grotesque . . . possibly derived from graphic satire.' Part of the success of this picture was that it appealed to 'the street'. See Athanassoglou-Kallmyer, *Eugène Delacroix*, p. 112.

61. *Massacre of the Greeks at Missolonghi* (1827).

62. François-Emile de Lansac, *Scene from the Siege of Missolonghi* (1828) in Athanassoglou-Kallmyer, *French Images*, p. 81.

(١١)

"خط عريض من الدماء"[١]

بين المذابح التى جرت فى خيوس فى سنة ١٨٢٢م وعمليات القتل التى جرت سنة ١٨٧٦م التى عرفت باسم «الرعب البلغارى» بالتعبير الدارج. تغيرت كثير من العناصر السياسية فى التوازن. فقد كان العثمانيون قد أحرزوا قشرة «غربية»، من سواحلهم. من معاطفهم السوداء الردنجوت التى كان يُشار إليها باسم «الإسطنبولى» إلى بدلة التشريفات التى كان يلبسها أعضاء الحكومة الدستورية وما يزينها من أوسمة ونياشين. وفى سنة ١٨٣٩م ومرة أخرى فى سنة ١٨٥٦م، أصدر خليفة السلطان محمود الثانى وابنه السلطان عبد المجيد مراسيم تفوقت على الحكومات الغربية فى مثاليتها الورقية. فقد منعت رسميا الشتائم والإهانات الموجهة ضد المسيحيين[٢]. ففى حرب القرم، فيما بين سنة ١٨٢٣م وسنة ١٨٥٦م. كان السبب المزعوم للتدخل الإنجليزى والفرنسى ضد روسيا هو حماية تركيا من الهجوم الروسى. ولم تكن هذه الدوافع. بطبيعة الحال، إيثارية، ولكن درجة من «الميل للأتراك» تطورت ببطء فى الغرب [٣]. لقد كان بايرون قد أوضح النضال من جانب الفرد الذى طرحته أرضا دولة فاسدة وقاسية. والآن. وقد أعلنت الدولة العثمانية الإصلاح. بدأت دورة جديدة من الجاذبية بدلاً من الرفض[٤].

ولم يكن الجميع قد صدقوا أن الأتراك قد تغيروا. وفى وقت لاحق وصف وليم إيوارت جلادستون بريطانيا وفرنسا بأنهما عقدتا العزم على «محاولة تجربة كبرى فى إعادة تنظيم الإدارة فى تركيا على أمل علاج رذائلها غير المتسامحة وتحسين

رذائلها الأقل تسامحًا»[٥] فقد كان المزيد والمزيد من الغربيين قد شهدوا الحكومة العثمانية بشكل مباشر. فقد سافر الحجاج المسيحيون إلى فلسطين وكان حتما أن يعانوا من نزوات الموظفين العثمانيين. وكان هناك شيء من الغضب القديم من أن الأرض التي كان المسيح قد عاش فيها تحت حكم أجنبي أخذ يطفو ثانية على السطح. وفي الوقت نفسه. فإلى الشمال كانت جبال لبنان تمور بالصراع فيما بين الطوائف، إذ كان القريبون الدروز يقتلون الموارنة المسيحيين، وكانت هذه الأحداث ترد في تقارير كاملة يكتبها القناصل الغربيون في المنطقة[٦].

وفي سنة ١٨٦٠م، تطور العنف المتقطع إلى حرب أهلية. امتدت فجأة إلى مذبحة راح ضحيتها آلاف من المسيحيين في دمشق على أيدي العامة الهائجين. وكان اثنا عشر ألفًا من المسيحيين المرعوبين تحت حماية الزعيم عبد القادر الجزائري المنفي الذي أمر حراسه بحماية هؤلاء الذين يحتمون بقصره. وفي النهاية. استجابت الحكومة العثمانية وأرسلت وزير الخارجية. فؤاد باشا. بجيش ومعه تعليمات بإعادة سلطة الدولة. وقد فعل هذا بإعدام كل الموظفين العثمانيين الذين فشلوا في منع أعمال القتل والاغتصاب. وشنق زعماء عمليات القتل التي جرت في دمشق، وفرض على طائفة الدروز غرامة باهظة في لبنان، ونفى زعماء الدروز[٧]. وهناك جغرافي نمساوي، اسمه فيليب كانيتز Philip Kanitz وجد عددًا قليلاً من الناجين يعيشون عيشة كريهة في أقفاص بعد خمس عشرة سنة في بلغاريا العثمانية [٨]. وتحت ضغط بريطانيا وفرنسا، تم وضع ترتيبات حالت دون عودة الحرب الأهلية بين الموارنة والدروز[٩].

وقليلون في الغرب هم الذين يقدرون تعقيدات الشئون السياسية في شرق المتوسط أو تقلب مزاج غوغاء دمشق. فقد قرأوا تقارير عن قتل المسيحيين والتمثيل بجثثهم، مع ما يبدو من تورط السلطات العثمانية في المذابح. بل كانت هناك تقارير عن موظفين عثمانيين يضعون المسيحيين تحت حمايتهم، ويصادرون أسلحتهم. ثم يسمحون لأعدائهم بقتلهم. وعندما زار أحد الإنجليز. سيريل جراهام Cyril Graham. ناحية (حاصبيا) في لبنان. وجد دليلاً على المجزرة جثثا متعفنة. قتلة

متغطرسون وتكاسل رسمي. وقد أحس جراهام أنه كان في وسط نوع ما من جنون الدم غير العادي، حيث تلاشت كافة المظاهر العادية. وقد حكى كيف أن «الدروز الذين صحبوني كانوا يطلقون النكات على جثث الموتى، وأراني أحدهم زوجًا من المسدسات من الفضة. كسر أحدهما في تحطيم رءوس المسيحيين». وما صدمه أيضا كان الدروز أنفسهم: «لقد سافرت في جميع أنحاء بلادهم؛ وهم الآن يتحدثون بقدر كبير من الصفاقة، ويتباهون بأعداد المسيحيين الذين قتلوهم، ويؤكدون أنهم سوف يمزقون إربا إربا كل قوة سوف تحضر ضدهم»[١٠] وبالنسبة لكثيرين. ليس هناك ما يدعو للدهشة في هؤلاء القتلة. فقد كان الأتراك (مرة أخرى) هم النمط الأصلي.

كان هذا سنة ١٨٦٠م. وأخبار المذابح الجماعية التي جرت على المسيحيين بعد ست عشرة سنة في بلغاريا أنتجت استجابة على نطاق مختلف بدرجة هائلة. بيد أنه حسبما لاحظ ريتشارد شانون **Richard Shannon** «لم يكن هناك جديد أو شيء غير عادي في حقيقة التمرد البلغاري أو المذبحة. فقد كان كلاهما من الملامح المزمنة للإدارة العثمانية. إذ كانت المذابح في بلغاريا بشعة في العادة[١١]. وإذا ما وضعنا الأمر بشكل فج. كان العدد الإجمالي للقتلى في دمشق ولبنان في سنة ١٨٦٠م وفي بلغاريا سنة ١٨٧٦م لا يختلف كثيرًا. وعلى أية حال، فإن العدد في دمشق ولبنان استفز الغضب فقط بين أولئك الذين كانوا يميلون للغضب. على حين أن عدد ضحايا بلغاريا تسببوا في حملة صليبية أخلاقية على نطاق هائل. ففي سنة ١٨٧٧م كتب المؤرخ البارز فريمان **E.A. Freeman** في مجلة **Contemporary Review** أن معارضة الأتراك كانت قد صارت لازمة أخلاقية. «كان الناس يتجمعون سويا كما لو كانوا سيقدمون أرواحهم. كما لو أن قلوبهم لن تستريح في داخلهم حتى تنطق ألسنتهم... لينظفوا أيديهم من الأعمال التي كانوا قد سمعوا حكايتها لتوهم» وبالنسبة لفريمان «لقد تلقت الأرض بعمومها خبرًا استدعى القيام بطقس من طقوس التطهر بالغسيل لمسحها من وعي البشرية كلها»[١٢]. وكان وكيل هذا الدنس والنجاسة هم «الأتراك الذين يقصر الوصف عنهم» أو كما وصفهم قسيس أنجليكاني: «أفظع الفظائع، المحمدية»[١٣].

هذه اللغة التي تخطت المعقول في سخونتها كانت لها سابقة. فقبل أقل من جيل واحد. في سنة ١٨٥٧م. كان عامة البريطانيين قد صادقوا بشغف على سلسلة من المذابح ارتكبها الجيش البريطاني لإخضاع تمرد عسكرى للجنود الهنود. وحثت الصحف الحكومة على اتخاذ إجراءات أشد خشونة. وقد شجعهم في هذه الحملة كثير من الشخصيات البارزة. وفي يوم. أكتوبر سنة ١٨٥٧م أكد الروائى تشارلز ديكنز لقرائه في لندن أنه لو كان القائد العام للقوات في الهند. لكان «أبذل أقصى ما في وسعى لاستئصال الجنس (الهندى) الذى وقعت عليه وصمة أعمال القسوة الأخيرة... وبكل ما هو مناسب والسرعة الرحيمة للإعدام، لكى أمحوه من البشرية وأزيله من على وجه الأرض» كان يقصد الهنود، من جميع الأعمار، من الرجال والنساء والأطفال على السواء. إن آلية الهياج الوطنى قد عملت بالطريقة نفسها في المناسبتين.

تميل الأمم وهى في قبضة الذعر الاجتماعى الجماعي، سواء البريطانيون في مواجهة المتمرد الهندى في سنة ١٨٥٧م أو الرعب البلغارى سنة ١٨٧٦-١٨٧٧م (أو الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م). يميل إلى التصرف بالأسلوب نفسه. وفى كل هذه الحالات. كان الذعر يتأجج بفعل الكلمة المكتوبة والصور المرئية. فالغضب والهياج العام تطور في سنة ١٨٥٧م عندما قرأ البريطانيون عن امرأة بيضاء أهينت وأطفال أبرياء قتلوا بقسوة [١٤]. وفى الهند كما في البلقان كان هناك القليل من التنظيم أو التخطيط الجدى الذى أحدث المذابح الأولية [١٥]. والمذابح المضادة، التى قامت بها السلطات البريطانية في الهند. والعثمانيون (سنة ١٨٢٢م وسنة ١٨٧٧م) تم تنفيذها بوصفها فعلاً رسميًا لبث الرعب والترهيب [١٦]. ولم تعتقد أى من الحكومتين أنها غير مناسبة في وقتها. فقد رأت الحكومتان أنهما تواجهان مؤامرة جماهيرية شاملة.

وثمة سلسلة من الحوادث غير المترابطة. بدأت بمقاومة إسلامية عنيدة لحظة بناء كاتدرائية أرثوذكسية جديدة في سراييفو سوف تعلو فوق جامع بيجوفا **Begova** الذى يرجع تاريخه إلى القرن السادس عشر، أشعلت شرارة العنف. ومنذ سنة

١٨٧٢م فصاعدًا كانت هناك مقاومة لجباة الضرائب العثمانيين. مع تسليح الفلاحين لأنفسهم وهروبهم إلى الجبل الأسود المجاور. وردت السلطات المحلية، كما كانت تفعل عادة، بوحشية مفرطة. وبحدود سنة ١٨٧٦م كان قد تم حرق مئات من القرى وقتل أكثر من خمسة آلاف فلاح بوسني[١٧]. وسرعان ما تسربت عدوى التمرد إلى الولايات البلغارية. وبدا أن تهديد الثورة العامة ماثل بصورة عاجلة.

وقد أسهمت كل قطعة من الدعاية الثورية وكل تقرير للمخابرات في تأكيد المخاوف فهل كان على الحكومة في إستنبول أن تغض النظر عن التهديدات الإرهابية التي أطلقها الثوار البلغاريون؟ لقد كتب الثوار: «هرزيجوفينا تقاتل، والجبل الأسود ينتشر فوق الجبال وقادم بالمساعدات. وصربيا مستعدة لتحريك قواتها. واليونان على وشك إعلان الحرب؛ ورومانيا لن تبقى محايدة. فهل هناك أي شك في أن الموت يحوم فوق تركيا ؟» [١٨]. وفي يوليو سنة ١٨٧٥م وعند نيڤيسنجي **Nevesinge** في هرزيجوفينا اجتمع رؤساء العشائر وألقوا بالتحدي ضد الأتراك. وأعلن أحدهم:

«منذ اليوم الملعون في كوسوفو [بولچي في سنة ١٣٨٩م] والأتراك يسرقون حياتنا وحريتنا. أليس عارًا أمام العالم بأسره. أننا نحمل أسلحة الأبطال ومع هذا نسمى رعايا الأتراك. إن العالم المسيحي بأجمعه ينتظر منا أن نهب من أجل حريتنا ... اليوم فرصتنا في الثورة وأن نشتبك في قتال دموي»[١٩].

وقد أدت حرب العصابات هذه في رأي هارولد تمبرلي **Harold Temperley** مباشرة إلى الثورة في بلغاريا وكل ما تلاها. لقد كانت حربًا قاسية على كل من الجانبين. وأول الأشياء التي رآها القنصل البريطاني هولز **Holmes** عندما دخل نيڤيسنجي، رأس صبي تركي لوحتها الشمس، ودمًا يتدفق من حلق فتاة تركية صغيرة[٢٠].

وفي كل من الهند والبلقان سرعان ما اختلطت الحقيقة بالأسطورة. ولكن في بعض الأحيان كانت الأساطير هي التي علقت بالذاكرة. ومع هذا فإن ضمان استجابة جماهيرية لم يكن بالأمر السهل. فقد تطلب إحساسًا متزايدا بالدراما والرعب، أسلوبا

شبه مسرحي في التقديم. وتذكر السير إدوين بيرس Edwin Pears الرعب البلغارى الذى حدث سنة ١٨٧٦م فى مذكراته:

«لقد رأوا الكلاب تتغذى على البقايا البشرية. وأكواما من الجماجم البشرية، وهياكل عظمية كاملة تقريبا. وملابس عفنة، وشعرًا آدميًا. ولحمًا بشريًا عفنًا فى كوم واحد فاسد. ورأوا المدينة وليس بها سقف واحد، والنساء هنا وهناك يولولن ويبكين موتاهن فى وسط الأنقاض. وفحصوا الأكوام ووجدوا أن الجماجم والهياكل العظمية كانت كلها صغيرة وأن الثياب كانت لنساء وبنات. وقد أحصى ماك جاهان Mac Gahan مائة جمجمة حوله مباشرة. كانت الهياكل العظمية بلا رءوس. مما يبين أن هؤلاء الضحايا قد قطعت رءوسهم.

وبعد ذلك شاهدوا هيلكين عظميين لطفلين صغيرين يرقدان جنبا إلى جنب مع تمزقات أحدثها السيف فى جمجمتيهما الصغيرتين. ولاحظ ماك جاهان أن عدد الأطفال المقتولين فى هذه المذابح كان ضخما. وقد سمعوا من مصادر موثوقة من شهود العيان أنهم غالبا ما كانوا يوخزون بحراب البنادق .

ولم يكن هناك متر تحت الأنقاض لم ير فيه هو ومستر شويلر Schuyler بقايا آدمية. وكانت الشوارع تغص بها [٢١]. وعندما اقتربا من الكنيسة وجدا الأرض مغطاة بالجماجم والكثير من اللحم البشرى المتعفن. وفى الكنيسة نفسها كان المنظر منفرًا لدرجة أننى لم أهتم بإعادة إنتاج الوصف المرعب الذى قدمه السيد ماك جاهان» [٢٢].

كان جانواريوس ماكجاهان Januarius Mac Gahan مراسلاً حربيًا مجربًا. وقد نشر أول تقرير له من الديلى نيوز بلندن يوم. أغسطس سنة ١٨٧٦م. وفى اليوم نفسه تُلى تقرير رسمى فى مجلس العموم أكد التفاصيل العابسة التى جاءت فى تقرير ماكجاهان. والمزيد من أعمدة الصحف أبقت بلغاريا فى أذهان العامة. وثمة رسالة أطول وأشد ترويعا من ماكجاهان ظهرت فى يوم ١٦ أغسطس. وبعدها بثلاثة عشر يوما تمت طباعة التقرير الأولى للقنصل الأميركى شويلر إلى حكومة الولايات المتحدة كاملاً فى صحيفة «الديلى نيوز». وقد أضاف هذا مزيدًا من الوقود إلى الحريق. وتم

تأكيد جميع التحذيرات السابقة، من مايو سنة ١٨٧٦م فصاعدًا. التى كان بعضها دقيقًا. والبعض الآخر حافل بالخيال [٢٣]. وقد بلور كتيب جلادستون شعورًا شعبيا موجودًا بالرعب والرفض. وبدأ فى صياغة إسهامه فى الحملة ضد العثمانيين حتى قبل أن يرى تقرير شويلر. وكتب بانفعال شديد- وبحلول أول سبتمبر سنة ١٨٧٦م كان قد أكمل بالفعل أكثر من نصف كتابه[٢٤]. وفيما بعد فى. سبتمبر اختتم نصَّه وأرسله إلى الطابع. وفى. سبتمبر كانت كل النسخ قد انتهت وتم توزيعها .

وتأثير كتاب Bulgarian Horros and the question the East الذى كتبه جلادستون ليس له مثيل. فقد باع أربعا وعشرين ألف نسخة فى اليوم الذى صدر فيه. وأربعين ألف نسخة فى أقل من أسبوع ومائة ألف نسخة على المدى الطويل[٢٥]. وظهرت آلاف من المنشورات الأخرى وتم الكشف عن أهوال أخرى. ولكن ظهور الهجاء الشديد الذى كتبه جلادستون ضد الأتراك فى سبتمبر ١٨٧٦م كان النقطة التى صارت عندها قضية معاداة العثمانيين تكتسح ما عداها. فقد لخَّص الرجل العجوز الكبير الخصومة المسيحية التاريخية ضد الإسلام فى الشر الذى لايبارى لدى العثمانيين «حيثما ذهبوا. كان خط عريض من الدماء علامة على المسار وراءهم، وعلى مدى اتساع ممتلكاتهم. تلاشت الحضارة من المشهد»[٢٦].

لم يكن جلادستون قد وطأ الأراضى العثمانية سوى مرة واحدة. فى شهر فبراير سنة ١٨٥٩م. وكتب حينها فى يومياته؛ «إن الانطباع الكلى مثير للحزن بدرجة أكبر. إنه كل شىء. كل شىء، الكسل، الاضمحلال، الجمود، وصورة الرب الآن غير موجودة فى أى مكان» [٢٧]. وقد كتب جلادستون ملاحظات على الكتب التى قرأها فى شكل هوامش، كما سجل محتوياتها يوميا فى يومياته. ومن هذا يبدو واضحًا أنه فى قراءاته عن الشرق، على مدى حوالى خمس عشرة سنة، كانت الكتب المعادية للعثمانيين لها الغلبة. وكتابان فقط يحابيان العثمانيين وجدا مكانا فوق أرفف مكتبته. وهو منحاز مولع بالهللينية. وباحث منغرس فى أمجاد بلاد الإغريق القديمة، وكراهيته للعثمانيين كانت لها جذور عميقة عاطفية وخلفية عقلانية على السواء[٢٨].

وبينما كانت المذابح تجرى، كان يعمل فى كتاب عن هوميروس، وكان ذهنه مشغولاً بأصول اليونان الكلاسيكية. والتناقض الذى رآه بين المجد المتمدين للإغريق القدامى والبربرية الكبرى للأتراك المعاصرين جعل قلمه يحلق عاليًا. وقد أظهر كتاب الأهوال البلغارية تغيرًا فى التسجيل؛ فقد تبنى جلادستون الأسلوب العدوانى المحشو بالكلام القارص. وهو ليس حقًا نمط أسلوبه القوى ولكنه عادة ما يكون أسلوبا بلاغيًا محكومًا [٢٩].

وهناك نصوص قصيرة قليلة كان مجموعها أربعا وستين صفحة كان يمكن أن يكون لها تأثير أكثر فعالية. وقد بنيت الاستجابة البريطانية للمذابح البلغارية بشكل ثابت على مدى ما يزيد على خمسة شهور بعدها. وقد تغذى التهييج على الخطب فى البرلمان، والرسوم الكاريكاتورية. والتقارير فى الصحف والاجتماعات العامة. وقد نجح كتاب «الأهوال البلغارية» على هذا النحو الكامل لأنه ركز فى خطاب منفرد حالة مزاجية عامة قلقة للغاية تناضل من أجل توضيح الأمور [٣٠]. ولكن عندما لم تكن هناك حوادث جديدة وتقارير جديدة، كان الاهتمام العام يخبو. وبات واضحًا أن الغضب الشعبى لن يبقى على المدى الطويل. وفى سنة ١٨٧٨م. كان التهييج على مذابح سنة ١٨٧٦م قد خفت حدته، وكانت الشوارع البريطانية تردد صدى أغنية جديدة شعبية فى تلك الساعة ليست موجهة إلى الأتراك وإنما إلى الروس:

نحن لا نريد أن نقاتل

ولكن وحق السماء إذا أردنا

فلدينا السفن

ولدينا الرجال

ولدينا المال أيضًا

لقد حاربنا الدب من قبل

وبما أننا بريطانيون حقا،

فإن الروس لن يأخذوا القسطنطينية

في سنة ١٨٧٦م كانت بريطانيا البؤرة الرئيسية للهياج. وقد اضطلعت بالدور الذى كانت فرنسا قد اتخذته من أجل اليونان فى عشرينيات القرن التاسع عشر وفى سنة ١٨٧٦م كان وقود التهييج والإثارة هى الكلمة المكتوبة والاجتماعات العامة، على حين أنه فى سنة ١٨٢٢م كانت الصور والرموز المرئية هى الأكثر إقناعًا. ولكن ما يستلفت النظر أكثر من غيره تمثل فى «الحداثة» الجوهرية فى الاستجابة سنة ١٨٧٦م. وكانت هذه الحداثة متجسدة فى وسائل إعلام حديثة ومتناغمة فى حملة ساعدت على خلق استقطاب سياسى حاد، بين المعادين للأتراك والمناصرين لهم، فى كل مستويات المجتمع. لم تكن هناك مسألة مناصرة السلاف دون نقاش، مثل ذلك التعاطف العالمى القريب مع اليونانيين فى عشرينيات القرن التاسع عشر. وأخيرا تم وضع الفعل فى إطار من العمل السياسى القومى. ففى بريطانيا. وجد الفيكتوريون ذوو العقليات الراقية. مخرجًا طبيعيا فى إدانة الأتراك. الذين صاروا المجاز الدال على التعاملات غير الأخلاقية لحزب التورى البريطانى. إذ إن نزعتهم المحافظة النفعية بدأت تبدو مدنسة وغير أخلاقية.

وإذا كانت الصور قد لعبت دورًا أصغر فى سنة ١٨٧٦م مما لعبته فى سنة ١٨٢٢م. فربما كان نتيجة حضور جلادستون الطاغى، سواء بوصفه متحدثًا عامًا أو كاتبًا متخصصًا فى المجادلات. وعلى أية حال، كانت هناك بعض الصور القوية المرئية بشكل خارق للعادة ألهبت الخيال العام. وفى يوم. أغسطس سنة ١٨٧٦م، وقبل يومين من ظهور تقرير ماكجاهان الأول، هاجم كاريكاتير عنوانه **Neutrality unde difficulties** رئيس الوزراء. بنيامين دزرائيلى. وقد أظهر الكاركاتير شكل بريطانيا تشير إلى مشهد كان فيه الجنود الأتراك يحملون النساء ويرفعون الأطفال ليتقابلوا مع سيوفهم فى وسط غابة من الرءوس المغروسة على حراب البنادق. وقد جلس رئيس الوزراء بهدوء ليقرأ كتابه الأزرق مع كتابة تعلن «المذابح البلغارية. إننى

لا أستطيع العثور عليها في التقارير الرسمية!!». وبعدها بشهر. في يوم. سبتمبر ١٨٧٦م نشر بونش Punch كاريكاتيرًا آخر وأشد غضبًا. « الحالة الراهنة». وفيه بريطانيا تنظر باحتقار إلى «الأتراك». وهناك سيف يقطر دمًا مرفوع في يده. وفي الخلف مبانٍ تحترق. ورءوس منغرسة في أسياخ وأطفال موتى. وتركيا تطلب مساندة بريطانيا. والإجابة هي: «أكون صديقة لك». ليس ويدك بهذا اللون».

ولكن سرعان ما تغيرت نغمة الكاريكاتير. بحلول شهر أكتوبر. كان چودى وهو رسام كاريكاتير منافس لبونش قد جعل صورة چون العجل John Bull (وهو رمز دنيوى لإنجلترا أكثر من بريطانيا) يفصل بين تركي ومسيحي شرقي. وكل من الاثنين الشرقيين مدجج بالسلاح. ومرسوم بصورة كاريكاتورية مبالغ فيها. ولكنهما متساويان بشكل واضح من حيث الخطأ. وكان التدخل البريطاني مطلوبا للسيطرة عليهما. والكتابة المعلنة في الرسم تقول. ما الذى يجب أن ينتهى إليه الحال». فقد صار التركي بيديه الملطختين بالدماء باطلاً سمينًا تغذى على شعوذة كريهة قدمها له الحكام الأوربيون[٣١]. ومع السنة التالية كانت روسيا وتركيا ترسمان بوصفهما من البرابرة[٣٢].

* * *

وقد تعود الأنثروبولوچيون أن يحددوا المجتمع بوصفه مجموعة من الناس يعيشون سويًا في الوقت نفسه. في المكان نفسه، ويتكلمون لغة مشتركة وفي البلقان. ثبت أن اصطناع دولة من مجموعة طوائف أمر صعب بشكل غير عادي. ورسم الحدود لكل دولة جديدة. على أساس اللغة أو غيرها. كان يفشل بشكل متكرر بسبب الإحباط من المكان الذى عاش فيه الناس فعلاً بعد قرون من الاحتلال العثماني. وعلى سبيل المثال. كان أكثر من أربعين بالمائة من الذين يتحدثون اللغة الألبانية يعيشون خارج حدود الدولة الألبانية التى تأسست سنة ١٩١٢م. (فقد كان كثير منهم قد انتقلوا إلى الأراضى الواطئة الآمنة بعيدًا عن الحروب العنيفة الدموية في حياة الجبال).

وكانت هناك على الأقل خمس مناطق كانت شخصيتها الوطنية تتحدد باستمرار أو يعاد تحديدها. فقد كانت مقدونيا يونانية أو بلغارية أو حتى ألبانية بحسب رؤيتك. وحتى بعد سنة ١٨٧٨م. كانت بلغاريا تضم الكثير من الأتراك وبقيت تراقيا أرض المعارك بين الأتراك، والبلغاريين. والصرب واليونانيين. والبوسنه وكوسوفو برهنتا على أنهما الأكثر إثارة للمشكلات بين الجميع. وبالنسبة لبناة الأوطان كان هناك خياران رئيسيان. فإما يمكنهما دمج عناصر متنافرة وتأمل في إخضاعها. أو يمكنهما التوفيق بين الجماعات المتنافرة .

وضمن مفهوم البلاد الجديدة في البلقان والتي خلقت في القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين. كان هناك نوع من التحول. فعلى أحد المستويات كان يمكن أن يكون التحول مجرد التحرر من «النير العثماني» وإعطاء البلاد القديمة الفرصة «لأن تتنفس بحرية». كانت هذه الحماسة الساذجة التي عززت مفهوم اليونان الناهضة في بعث جديد. وفي صربيا وكرواتيا كانت تضرب بجذورها في الموقف المرتبك الانتقائي من الماضي [٣٤]. فالجمع الفولكلوري للأغاني القديمة، والأشعار الوطنية والكتابات التاريخية التي طبعت وحررت بحذر- كلها خلقت ما وصفه إيفو باناك صدقا بأنه «مسيحانية عنصرية في الثقافة». واتخذت أشكالاً عديدة. فقبل الحرب العالمية الأولى، خطط الفنان الكرواتي إيفان مستروفيتش **Ivan Mestrovic** لبناء معبد في كوسوفو. على شكل صليب لاتيني، وله قبة «أكبر من قبة كنيسة القديس بطرس». و «برج للعصور» من خمس صفوف كان سيرمز إلى «خمسة قرون من العبودية». كل صف سوف تحيط به «أرواح الشهداء» وعند القمة شعلة دائمة خالدة، هي «صلوات الشعب»[٣٥] ولم يتم بناء رؤيته المعمارية العظيمة أبدًا ولكنه شرح فيما بعد الدوافع وراء التصميم الذي وضعه. «ما كان في ذهني محاولة لخلق مجمع للمثل الوطنية الشعبية وتطورها، لكي أعبر بالحجارة والبناء كيف أنه في أعماق كل واحد منا ترقد ذكريات اللحظات العظيمة والحاسمة في تاريخنا»[٣٦].

وعلى أية حال. لم يكن ممكنا قط أن تشارك فيها مجموعة واحدة في مملكة الصرب، والكروات والسلوفيين. فمثلا لم يرد ذكر سكان الجبل الأسود وهرزيجوفينا

الذين كانوا خاضعين (لأنهم من الصرب) داخل الدولة الجديدة. . أما مسلمو البوسنة فربما اشتركوا فى اللغة. وعاشوا فى المكان نفسه. فى الوقت نفسه. ولكن ثقافتهم لم تكن هى نفسها ثقافة جيرانهم[٣٧] .

والتطهير العرقى. إما عن طريق «الترحيل». أو بالصيغة الأشد رعبا التى ظهرت فى تسعينيات القرن العشرين، قد أثر حقًا فى كل أمم البلقان [٣٨]. وعلى أية حال. لم يكن التطهير العرقى نتاجًا حصريًا لـ «العقلية البلقانية». وبدلاً من ذلك يمكن تتبع آثاره من حيث الزمن والطريقة التى خرجت فيها الدول الوطنية إلى الوجود منذ عشرينيات القرن التاسع عشر فصاعدًا. ولكن لا توجد عملية تاريخية تفسر العنف الخارق للعادة والكراهية غير العادية التى ظهرت فى بعض الأحيان. فكيف السبيل إلى فهمها؟ ربما تكمن إحدى الإجابات فى أعمال اثنين ممن نالوا جائزة نوبل فى الأدب من هذه المنطقة. فقد ولد إلياس كانيتى **Elias Canetti** فى روس **Ruse** على ضفاف نهر الدانوب سنة ١٩٠٥م. وكان أجداده من بين اليهود الذين طردوا من إسبانيا فى عام ١٤٩٢م وكانت لغته الأولى هى اللادينو **Ladino**(*). وكان فى سن السادسة عندما غادر بلغاريا إلى الأبد: وقد أنهى حياته رجلا إنجليزيًا. وبدأ كانيتى يكتب الكتاب الذى حمل عنوان **Crowds and Power** فى فيينا سنة ١٩٢٥م. وقد اكتمل فى النهاية ونشر فى سنة ١٩٦٠م.

والأديب الثانى الحائز على «نوبل». وهو إيڤو أندريك **Ivo Andric**. ولد فى قرية بالقرب من تراڤنيك **Travnik** فى سنة ١٨٩٢م وبقى منغمسا فى ذكرياته عن البوسنة بقية حياته. فقد ترعرع فى مستعمرة. هى المستعمرة الوحيدة. بالمجر النمساوية. وكانت البوسنة. هرزيجوفينا تحت السيادة العثمانية حتى سنة ١٩٠٨م حسب الفهم العام، ولكن فى ذلك الحين انتهى ذلك الوهم وأدخلت رسميًا ضمن أملاك أسرة

(*) لغة اللادينو Ladino هى لهجة عبارة عن مزيج من اللغة الإسبانية واللغة العبرية. كانت خاصة باليهود فى إسبانيا وبعد طردهم منها أواخر القرن الخامس عشر. (المترجم)

الهابسبورج. ولكن البوسنة وهرزيجوفينا بقيتا شاذتين. ولم تكن البلاد تحكم من خلال حكومة النمسا أو حكومة المجر وإنما كانت تحكم شخصيا بواسطة وزير مالية مشترك يمثل الإمبراطور فرانز جوزيف الأول. وتحت حكمه كانت جمهرة كبيرة من البيروقراطيين يديرون البلاد وأهلها بشكل أشمل وأكثر تدخلاً عن ذى قبل[٣٩]. وقد أدت السنوات الأربعون من حكم الهابسبورج إلى عزل البوسنيين (والمسلمين خاصة) عن التجربة السياسية للأمم البلقانية الأخرى. «أن تكون مسلمًا هى الطريقة البوسنية» كان الشعار الذى أنتجته فترة العزل، عندما صار المسلمون البوسنيون جزءًا من مجتمع علمانى إلى حد كبير لم يكن يحكمه الصرب ولا الكروات. ولا كان لهم. بطبيعة الحال. بوصفهم مسلمين الوضع الممتاز الذى كانوا يتمتعون به من قبل تحت الحكم العثمانى[٤٠].

كانت تجربة أندريك فى البوسنة تحت حكم الهابسبورج طفلاً وشابًا أداة فاعلة فى الموضوع الذى اختاره لرسالة الدكتوراه فى جامعة جراتز. ففى سنة ١٩٢٣م أكمل دراسة بعنوان «تطور الحياة الروحية فى البوسنة تحت تأثير الحكم العثمانى» [٤١] وقد استنتج من دراسته أن التاريخ كان قد خلق فجوة عميقة لا يمكن سدها فى وطنه[٤٢]. وكتب فى سنة ١٩٥٤م. «فى البوسنة، كان هناك عالمان، لا يمكن أن يكون بينهما أى اتصال حقيقى ولا حتى إمكانية الاتفاق. عالمان رهيبان قدر لهما أن يشتبكا فى حرب خالدة بألف شكل مختلف». ومع هذا. فإن أندريك. الذى كان معجبًا بالأبطال الثقافيين العظماء فى الماضى، مثل ڤوك ستيفانوفيش Vuk Stefanovic وكارادتشيك Karadzic وبيتر بتروفيتش نجيجوس Petar Petrovic Njegos فعل مثلما فعلوا[٤٣]. فقد كان يدمج الماضى فى الحاضر. فالبوسنة التى كان عرفها فى طفولته ودراسته الباكرة صارت البوسنيين فى الحاضر. إن الحياة لم تكتف بمحاكاة التاريخ بشكل ساخر. إنما كانت هى التاريخ. وقد اعترف بهذا. «إن أدبنا التقليدى والمكتوب قد جعل الأتراك يقعون تحت طائلة غضب الله، فى نوع من خيال المآتة لا يمكن رسمه سوى بألوان قاتمة ودموية، شىء لا يمكن الكلام عنه فى هدوء أو نفكر فيه بعقل بارد»[٤٤].

لقد صنع الماضى الذى لابديل له حاضرًا لا يمكن تغييره. كان تشخيصه للحال مؤلما بالنسبة له. وأحد الشخصيات فى كتابه Bosnian Chronicle. وهو الدكتور كولونا الأحمق المتحذلق، عبر عن موقف أندريك نفسه. فبالنسبة لواحد عرف الغرب :

«أن تعيش فى تركيا [البوسنة] يعنى أن تمشى على حافة سكين وأن تحترق على نار هادئة. إننى أعرف هذا. لأننا ولدنا على حافة السكين تلك، ونحن نعيش ونموت فوقها، ونحن ترعرعنا واحترقنا على تلك النار... ولا أحد يعرف ما معنى أن تولد وتعيش على شفا هاوية، بين عالمين. تعرف وتفهم كليهما وأن تكون عاجزًا عن أن تساعد فى تفسير كل منهما وشرحه للآخر وأن تقرب بينهما. أن تحب كلا منهما وتكرهه... أن يكون لك وطنان ومع هذا لا تجد وطنا. أن تكون فى كل مكان فى وطنك وأن تبقى غريبًا إلى الأبد. باختصار أن تعيش ممزقًا على رف، ولكن بوصفك ضحية وجلادًا فى الوقت نفسه»(٤٤).

* * *

لقد كان الماضى حافلاً بالتناقضات مثل الحاضر. وفى سنة ١٩٣٩م، وفى الذكرى الخمسمائة والخمسين لمعركة كوسوڤو بولچى. كان الأسقف نيكولاى فليميروڤيتش Nikolaj Velimirovic يتحدث عن «جلجثتنا الوطنية وفى الوقت نفسه قيامتنا الوطنية»(٤٦) وقد أنهت الحرب العالمية الثانية القيامة الصربية. ذلك أن الدولة التى كان على رأسها جوزيف بروز (تيتو) فى سنة ١٩٤٥م أعلنت «أخوة شعوب يوجوسلافيا ووحدتهم» واضطهدت كل اتجاهات الوطنية الحصرية. وبدلاً من دولة الصرب والكروات والسلوڤيين، الثالوثية. أعطت يوجوسلافيا الجديدة هوية سياسية ومؤسسات برلمانية لكثير من المستبعدين من فكرة الجنوب السلاڤى. فقد تم الاعتراف بكل من المقدونيين والبوسنيين جماعتين قوميتين. وكان رد تيتو على مشكلات الأغلبيات والأقليات إلغاء المفهوم نفسه. فقد كان الجميع متساوين داخل ديموقراطية شعبية (٤٧). وبقيت هذه الهوية اليوجوسلاڤية فوق القومية إلى ما بعد

موت تيتو سنة ١٩٨٠م أكثر قليلاً من عشر سنوات. وفى يوم ٢٥ يونيو ١٩٩١م كانت جمهورية سلوڤينيا أول من انفصل عن الدولة الاتحادية. ولكن قبلها بعامين. فى الذكرى الستمائة لمعركة كوسوفو بولچى. كان الرئيس الصربى سلوبودان ميلو سوڤيتش وفوق أرض المعركة نفسها قد تحدث عن إحياء عسكرى لصربيا. وعبر عن الالتباس نفسه مثلما فعل الأسقف فليميروڤيتش قبل خمسين سنة. «من الصعب أن نقول اليوم ما إذا كانت معركة كوسوڤو هزيمة أو انتصارًا بالنسبة للشعب الصربى، وما إذا كنا بفضلها قد سقطنا فى العبودية».

وتعبئة الماضى لكى يرشد الحاضر ليس وقفًا على البلقان. ولكن أساطير البلقان. سواء كانت قصصا عن كوسوڤو. أو حكايات سكندربج **Skenderbeg**. أو «أكاليل الجبل» لنجيجوس، أو فكرة الوطن الذى لم يتحقق التى كتبها ليودڤيت چاج **Ljudevit Gaj**. سنة ١٨٣١م. «لقد نامت طويلاً. لكنها لم تتلاش / سوف نوقظها ونعيد إحياءها- تبدو وكأنها تخدم غايات مظلمة وقاسية [٤٨]. وثمة أغنية ملحمية مسلمة من البوسنة تجرى هذا المجرى:

الحدود الدموية مثل هذا

مع الدم فى الغداء. مع الدم فى العشاء

كل امرئ يمضغ ملء فيه دمًا

وليس هناك قط يوم أبيض للراحة[٤٩].

فهل يعنى هذا أن البلقان كانت مسكونة بتاريخ لا يمكن الفكاك منه، ملعونة دوما بتكرار الأفعال الدموية التى جرت فى الماضى؟ ولم تكن المشكلة لعنة وإنما هى اعتقاد عميق بأن التاريخ أبو الحاضر وأمه. وفى كل مرة كان يتم التلكؤ عند ذكريات قرن من الزمان. أو ستة قرون. كانت تكتسب حياة جديدة. وقد تعجب روبرت كابلان لماذا بدت عينا الأم تاتيانا «مشتتة بشكل غريب». وهى تحكى عن ألبانى يقوم بختان صبى صربى صغير. وظن أنهما بدتا كما لو كانتا «قد محيتا بفعل الخرافة». وكان

هناك تفسير آخر. أنها في عين ذاكرتها. كانت حقا تعيش الماضي من جديد. لقد كانت ذكرياتها ذكريات سيئة. ولكنها استحضرت بطريقة انتقائية وجمعت في حكاية مثلما كان فيكتور فرانكشتين قد جمع سويًا أجزاء قصة عودته من الموت:

« من ذا الذي سوف يتصور أهوال شقائي. بينما كنت أتخبط بالبلل بين رطوبة القبر اللعينة، أو أعذب الحيوان الحي لكي ينفخ الحياة في الطين الميت؟ ... لقد جمعت العظام من سراديب حفظ الموتى؛ وانتهكت بأصابع دنسة الأسرار الهائلة للوجود البشري... لقد قدمت لي غرفة التقطيع ومكان الذبح كثيرًا من مادتي؛ وغالبا ما كانت طبيعتي البشرية تتحول باشمئزاز عما يشغلني، على حين كان يحفزني شغف يتزايد بشكل مطرد ...»[٥٠].

هذا الفصل، مثل مادته، ملتبس بشكل عميق ومبهم. فمن ناحية، ينكر أن «البلقان» كانت فريدة في قسوتها ووحشيتها. ومن ناحية أخرى، يقدم خيطا طويلاً من الأهوال التي يبدو أنها تبرهن على العكس. ولو أنني صنفت «أهوال البلقان» الأحدث زمنا والتي وقعت في تسعينيات القرن العشرين بكل تفاصيلها التي تبعث على القرف والاشمئزاز لكانت الصفحات مشبعة بلون الدم الأحمر. وللسبب نفسه أيضا تراجعت عن تكرار الحكاية الشهيرة عن «الخوزقة» في كتاب أندريك **Bridge over the Drina** ولا تكاد تكون هناك أمة في العالم ليس لديها ماض أسود. ولكن هناك شيئًا خاصا يتعلق بالطريقة التي استخدم بها التاريخ في البلقان. ويستطيع اليونانيون بطريقة مشروعة أن يزعموا أن لديهم أطول تراث وأكثره تأثيرًا، ولكن كلاً من أمم البلقان قد بنت ذاكرة واضحة عن عصورها البطولية. البيزنطي والبلغاري، والصربي والكرواتي والبوسني عصور من المجد الإمبراطوري تم تسجيلها كلها بحرص. وفي كل حالة، بحق، وغالبًا بالتلاعب في التتابع الزمني، كان مقدرًا للتاريخ المسيحي البهيج في زعمهم أن يتوقف على أيدي الأتراك. وقد أمكن إلقاء اللوم عليهم وعلى وجودهم في كل شيء.

وفى البلقان، وبسبب «النير التركى»، كان للفولكلور معنى سياسى قوى، إذ إن القصص عن الانتصارات القديمة والقتل قديما، كما فى **Mountain Wreath** لنجيجوس، كانت لها علاقة رمزية مباشرة:

لقد هلك الاسم الصربى فى كل مكان

فالأسود القوية صاروا فلاحين أذلاء

والمندفعون والطماعون اعتنقوا الإسلام

لينزل عليهم ابن الصرب الذى أرضعوه وباءً

أولئك الذين هربوا أمام السيف التركى

أولئك الذين لم يجدفوا فى حق الدين الصحيح

أولئك الذين رفضوا أن يقيدوا بالسلاسل

وأراقوا دماءهم سويًا ليموتوا

فى بطولة للحفاظ على اليمين المقدس

واسمهم المحبوب، وحريتهم المقدسة

لقد صمدت رءوسنا أمام الاختبار القاسى فى المعارك

أولادنا الشجعان تألقوا مثل النجوم المشعة

أولئك الذين ولدوا فى هذه الجبال السامقة

سقطوا يوميًا فى حروب الماضى

وضحوا بحياتهم فى سبيل الشرف، والاسم والحرية

وكل دموعنا كانت تمسح على الدوام

بفعل الأصوات الخفيفة

فالتضحيات لم تذهب هباء

لأن أرضنا الصلبة صارت الآن

مقبرة القوة التركية التى لا تشبع[٥١].

هذا الربط بالحاضر غير موجود فى الحكايات التى سجلها الإخوة جريم، وفى أغانى الحدود الإنجليزية. وفى أيرلندا التى يحكمها الإنجليز فقط قدم الماضى الفولكلورى اللغة والنماذج المناسبة للفعل السياسى المعاصر. وثمة مقطوعة من قصيدة قديمة أعاد طباعتها كونستانزا. الليدى وايلد. تقول :

عندما التهب غضب الثوار

وركب الأبطال بالآلاف ذاهبين إلى الحرب

وقعت اللجم فوق الخيول[٥٢]

لقد وصف الثوار الأيرلنديين أنفسهم بفخر بأنهم «Fenians» يشنون الحرب على خصومهم الإنجليز. وفى أيرلندا كما فى البلقان، قدَّم العمل العلمى فى تسجيل ماضى الوطن ونشره رسالة بالشفرة ضد القهر.

وربما لا يمكن تفسير ذكريات القهر لواحد نشأ مع القهر منذ طفولته. هذه المشاعر والانحيازات ليست مخلوقة مع الإنسان وإنما يجب تعليمها. وعلى مدى أكثر من قرن من الزمان لم يكن مصدر هذه القصص التراث الشفاهى الذى ينتقل بالكلمة المسموعة من جيل إلى جيل فحسب، وإنما بواسطة الكلمة المطبوعة والصورة المرئية أيضًا. وفى كثير من البيوت القديمة، كما أظن. هناك ما يعادل الحجرة الخلفية فى بيت جدى. والآن يمكننا أيضا أن نتعلم كيف نكره بطرق جديدة: من خلال الفيلم وعلى

شاشة التليفزيون وصفحات الإنترنت. بيد أن العملية تبقى هى نفسها. ذلك أن السباب متحرك. فيمكن أن يغير هدفه. ولكنه ما يزال يحمل معه كل وزن العار. ففى البلقان بعد سنة ١٩٢٢م لم يعد هناك عثمانيون. إذ كانوا قد رحلوا. فقد كانوا هم العدو فى الملاحم السلاقية الوطنية، وفى ذلك الحين لم يعد لهم وجود. ولكن الألبان المسلمين، وبدرجة أقل، البوسنيين المسلمين، أخذوا مكانهم باعتبارهم خصومًا أجانب. وعلى مدى وقت طويل كان الألبان يتصرفون باعتبارهم منفذى أوامر السلطات العثمانية القابعين بعيدًا فى إستنبول. وآخر السلاطين الذين ارتكبوا المذابح. عبد الحميد الثانى. استخدم الألبان حراسًا فى داخل قصره الحصين، فى يلدز. ولم يكن يأتمن غيرهم على حياته. وعندما انتهت حرب البلقان فى سنة ١٩١٣م، أصر الإسبان على منح الألبان دولتهم الخاصة؛ وعلى أية حال. وحسبما لاحظنا فيما سبق، كان كثيرون قد استقروا بالفعل خارج حدودها الجديدة.

وصار الألبان فى كوسوڤو هدفًا لكراهية خاصة من حكومة الصرب. فبالنسبة للقوميين المتشددين كان وجود المسلمين فى الأرض المقدسة التى كان الصرب قد أجبروا على التخلى عنها فى سنة ١٦٩٠م أمرًا لا يمكن احتماله. وفى ثمانينيات القرن العشرين تم نسبة سلسلة من الأعمال المنكرة المثيرة إلى الألبان فى كوسوڤو. واعتبرها كثير من الصرب بيانا على التهديد الذى يمثله هؤلاء «الأجانب» [٥٣]. وتم الربط بين أحد هذه الأعمال المنكرة بصفة خاصة وبين البلاغة القديمة ضد العثمانيين. ففى أول مايو سنة ١٩٨٥م، وحسب التقارير الواردة فى الصحف اليوغوسلافية، تعرض فلاح صربى اسمه چورچى مارتينوڤيتش Djordj Martinovic لهجوم اثنين من الصرب لم يتم التعرف عليهما. «أساءا معاملته، وأدخلا عنوة زجاجة فى جسده»[٥٤] وانكسرت رقبة الزجاجة فى دبره، مما سبب له ألما فظيعًا. وجرحًا جسديًا. وكانت هناك إشارات بأن الدوافع ربما كانت تتعلق بالأرض. ولكن لم تظهر قط أى أسباب كافية. ثم ظهر افتراض أنه كان فى الحقيقة فعلاً من أفعال الإشباع الذاتى فى الجنس. وقيل إن مارتينوڤيتش كان قد وضع الزجاجة فى عصا خشبية ثم جلس عليها. ولكن ذلك أيضا فنده الدليل الطبى. وعلى الأقل قدمت أربعة تقارير (وكلها تتناقض مع أحدها الآخر) .

لكن بمرور الوقت باتت الحقائق أقل أهمية من الرمزية. فقد بدأت الصحف تسميها «خوزقة» وربطتها بالمذابح التى ارتكبت. فى زمن الأتراك». وأخذ هذا على نطاق واسع على أنه إشارة إلى وصف أندريك لحادثة مثل هذه فى كتابه **The Bridge over the Drina** وأصدرت الأكاديمية الصربية للعلوم مذكرة مطولة أشارت إلى حالة مارتينوڤيتش، وقالت إنها من «بقايا الأيام السوداء لاستخدام الأتراك الخوازيق». وثمة كاتب كان قد بحث الحالة وشخصها بقدر أكبر من الوضوح: «هناك نحن نتعامل مع بقايا الإمبراطورية العثمانية... لقد وضعه الألبان على عصا، فى هذه المرة مغطاة بزجاجة. وفى زمن الأتراك. كان الصرب يوضعون على الخوازيق أيضا، حتى مع أن الأتراك لم يكونوا يفعلون هذا. وإنما خدمهم- الأرناؤوط [وهو المصطلح القديم الدال على الألبان[٥٦]].

وقد ألصقت بالألبان عامة جريمة لم تكن مؤكدة فى أحسن الأحوال. وفى النهاية تضاءل الدليل ضدهم ليصل إلى حقيقة أن هذه كانت الطريقة التى كان الأتراك يتصرفون بها، وكان الألبان هم وكلاءهم. وبعد عشر سنوات من الحادثة لاحظت جولى ميرتوس **Julie Mertus** أن «قوة قضية مارتينوفيتش تكمن فى قدرتها على استفزاز الخيال الأولى عن الاضطهاد الصربى: بربرية الأتراك المتمثلة فى الخوزقة»[٥٧].

وتبين هذه القضية النزعة العدوانية غير العادية والميل إلى السباب التى تهزم كل الحقيقة والمنطق. والواقع أنهم أعادوا كتابة الحقيقة كما أعادوا تحديدها. ففى سنة ١٩٩٢م انتخب صرب البوسنة طبيبا نفسيًا من الجبل الأسود ليكون زعيما لهم. هو رادوڤان كارادزيك **Radovan Karadzic**. وقد تحدث ماركو فسوڤيتش **Marko Vesovic**. وهو صديق من أيام المدرسة لكارازديتش. عن كيف أن رفيق دراسته القديم كان قد أصبح مهندس المذابح الجماعية. وقد لام ڤسوڤيتش الأفعال الشريرة التى ارتكبها كارازديتش بناء على حقيقة أنه كان قد ولد فى الجبل الأسود. «إن الصرب ليسوا أمة أسطورية أو شعبا أسطوريًا. فى هذه الحرب علينا أن نفهم أن أهل الجبل

الأسود شعب أسطورى. يمكنك القول إنه فى هذه الحرب تأثر الصرب بأساطير الجبل الأسود... والوسيلة التعبيرية الأساسية لدى أهل الجبل الأسود هى المغالاة فى البلاغة. ففى دقيقة واحدة يذهبون إلى أقصى طرف...» ثم نكر «أعظم الكلمات» لشاعر الجبل الأسود نچيجوس «دع الممكن يكون. ودع ذلك الذى ليس ممكنا يحدث». وقد تخيل رادوڤان كارازديتش نفسه شاعرًا. على طريقه سميه البطولى. وهناك صدى لا يخطئه أحد لهذا الموضوع الشعرى بصياغة الطبيب «عندما يتملكنى نوع من النار المجنونة، يمكننى أن أفعل أى شىء».

وقد وصف ڤسوڤيتش كيف أنها كانت «تجربة ممتازة أن تجلس فى ليالى الشتاء فى الجبل الأسود وتستمع إلى القصص التى كانت ثرية جدا فى خيالها ... منزوعة تمامًا عن الحقيقة»[٥٨] وباعتباره زعيمًا سياسيًا أظهر الدكتور كارازديتش كيف أنه بكذبة هنا، ونصف حقيقة هناك استطاع. وكان يستطيع. أن يفعل أى شىء. وكانت كل هذه القصص والسباب ضد المسلمين فى البوسنة. فى النهاية، حكايات بلا حدود. لقد ربط الدكتور كارازديتش النصوص القديمة بالمخاوف الجديدة، وتحدث إلى مستمعيه فى مصطلحات عرفوها منذ طفولتهم. لقد جعل القتل يبدو طبيعيا. وعاديا بل ومقدرًا مسبقا [٥٩]. وإذ استدعى ذكريات مظلمة عن ماض متخيل. كان مثل زمار مجنون:

بواسطة السحر الخفى، أسحب

كل المخلوقات التى تعيش تحت الشمس

التى تزحف أو تسبح أو تطير أو تجرى

ورائى كما لم تر من قبل أبدًا

وأنا أساسا أستخدم سحرى

على المخلوقات التى تؤذى الناس[٦٠].

هوامش الفصل الحادى عشر

1. The words are Gladstone's in *Bulgarian Horrors*.
2. Skene describes how this was decreed for the Ottoman navy, but in theory to be extended more generally: 'Everything had, however, been done to eradicate these apprehensions [Christian fears of Muslims], even to the prohibition of the terms *Raya* and *Ghiaur*, which were made punishable offences in the navy, where Christians and Turks were thrown together, and it can now only be the effect of time.' The legislation was not effective. See Skene, *A British Resident*, vol. 2, p. 332.
3. Perhaps 'Turcophilia' implies too much amity. Most of those who sympathized with the Turks were also fierce critics of what they considered their deep and inherent weaknesses.

٤- أوضح أسامة المقدسى بشكل مقنع كيف أن القبول التقليدى من جانب الدروز والمسيحيين الموارنة والمسلمين لجيرانهم من أصحاب الديانات الأخرى قد تمت الإطاحة به على أيدى الضغوط الخارجية لعملية التحديث العثمانية والمبشرين الغربيين (مع القناصل والأساطيل الحاضرة دائمًا فى الخلفية) . انظر:

.Osama Makdisi، The Culture of Sectarianism

5. Gladstone, *Bulgarian Horrors*, p. 15.
6. Ussama Makdisi has convincingly shown how the traditional acceptance by Druze, Maronite Christians and Muslims of their neighbours of other faiths was overthrown by the external pressures of Ottoman modernization and Western missionaries (with the consuls and navies ever present in the background). See Ussama Makdisi, *The Culture of Sectarianism*.
7. See Kamil S. Salibi, 'The 1860 Upheaval in Damascus' in William R. Polk and Richard L. Chambers (eds), *The Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1968, pp. 185–202. The Ottomans held Arab Muslim notables responsible in exactly the same way that they had Christians and Jews in other incidents. Sixty-one were hanged and 111 shot in a meadow outside the city. Other leading

Damascenes were exiled. Others complained that after 1860 'Christians and Europeans, patriarchs and bishops were given undue precedence.'

8. See Magris, *Danube*, p. 327.
9. See Engin Akarli, *The Long Peace*.
10. Public Record Office FO 78/1520, 'Report of Cyril Graham Esq., on the Conditions of the Christians in the Districts of Hasbeya and Rasheya', in Brant (Consulate, Damascus) to Russell (London), 13 August 1860.
11. Shannon, *Gladstone*, p. 22. Shannon's book is an exemplary study of the process by which publications generate political actions and attitudes.
12. E. A. Freeman, 'The English People in Relation to the Eastern Question', *Contemporary Review*, February 1877, cited in Shannon, *Gladstone*, p. 14.
13. In a letter from Stuart Poole to Henry Liddon, 4 February 1877; cited in Shannon, *Gladstone*, p. 33.
14. See Jane Robinson, *Angels of Albion: Women of the Indian Mutiny*, London: Penguin, 1997. The official investigation after the Mutiny produced no evidence of sexual violation. Copulation with an Englishman would have caused a catastrophic loss of caste for a Hindu, and there is no record of Muslims raping Christian women in India. However, the implication of sexual molestation was omnipresent, in both text and image.

١٥- المجموعة الثورية التي نظمت الانتفاضة جنوب الدانوب يوم ٢ مايو ١٨٧٦م في **Panagurishte** لم تكن منظمة وكانت سيئة القيادة. وبغض النظر عن إقناع امرأة مدرسة كانت قد تعلمت التطريز لتصنع لهم راية، تظهر أسداً أصفر اللون ومخالبه على الهلال وشعار "الحرية أو الموت" ، فإن عقد اجتماع عام، ظهر أنه بلا خطة متماسكة . ومع هذا ، فإن الجموع الثائرة التي استمعت إلى الخطب الملتهبة وأنشدوا الأغاني الثورية واصلوا مسيرتهم لقتل جميع الأتراك الذين عثروا عليهم في المناطق المجاورة ، ويبرزون أن مجموعهم وصل إلى ألف . انظر:

Stavrianos، Balkans ، pp .٢٧٧-٨٠ .

ويشير مارك مازور إلى أنهم لقوا القليل من الدعم بين الفلاحين الذين كانوا قد برهنوا على مقاومتهم العنيفة لنداء الوطنية البلغارية انظر:

Mazower، Balkans ، pp .٨٨-٩٥ .

وعلى أية حال يشير جوستين مكارثي أنهم استهدفوا عمداً القرى الشركسية باعتبارهم من الخصوم العرقيين . انظر :

Macorthy ، Death، p .٦٠.

16. The excuse that the murders were committed by forces outside the control of the Ottoman authorities is unconvincing. The authorities in Constantinople were wont to use terror by whatever means came easily to hand.
17. Malcolm, *Bosnia*, pp. 131–3.
18. Cited and translated in Stavrianos, *Balkans*, p. 379.
19. Cited and translated in Harold Temperley, *The Bulgarian and Other Atrocities 1875–8; The Light of Historical Criticism*, London: Humphrey Milford, 1931, pp. 7–8.
20. Ibid., p. 9.
21. Eugene Schuyler (1840–90) was both a scholar and a diplomat. His biography of Peter the Great was the first in English based on Russian sources. His longest and most fruitful period was his years in Russia during the 1860s and 1870s. The book of his journeys through Turkestan is a classic work of travel literature.
22. MacGahan remarks that its prosperity had excited the envy and jealousy of its Muslim neighbours. 'I elsewhere remark that, in all the Moslem atrocities, Chiot, Bulgarian, and Armenian, the principal incentive has been the larger prosperity of the Christian population'; from Sir Edwin Pears, *Forty Years in Constantinople 1873–1915* (New York: D. Appleton and Co., 1916), pp. 16–19. I have used the text from the Internet Modern History Sourcebook in which the spelling has been modernized. Pears's own report outlining the atrocities was sent to London in June 1876.
23. News began to appear in the *Manchester Guardian* and in reports to *The Times* from Gallenga, its correspondent in Constantinople.
24. For the composition of the pamphlet see Shannon, *Gladstone*, pp. 106–9.
25. A second and wholly new pamphlet appeared in the following year.
26. Gladstone, *Bulgarian Horrors*, pp. 12–13.
27. Gladstone's Diaries, 2 February 1859. I have taken this account of Gladstone's attitudes and presuppositions about the Ottomans both from Mark Nixon's unpublished paper on the topic, and from conversations. I am extremely grateful to him for allowing me to use his material.
28. Gladstone was preoccupied, as were many of his contemporaries, with the cruel eroticism of the Turks. Six pages of J. L. Farley's pamphlet *Cross or Crescent* dealt in prurient detail with the ravishment and massacre of Christian women by the bestial Turks. Much of Gladstone's copy of this text was, according to Mark Nixon, underlined or highlighted with marginal notes.
29. His second pamphlet, *Lessons in Massacre or, The Conduct of the Turkish Government in and about Bulgaria, since May, 1876*, published in the Spring of 1877, was vintage (and slightly sententious) Gladstone.
30. See Shannon, *Gladstone*, p. 110.
31. 28 October 1876.

32. 5 May 1877.
33. See Fabian, *Time and the Other*, pp. 80–87.
34. On the Balkan past, Mazower, *Balkans*, and Todorova, *Imagining*, provide the best introductions.
35. Banac, *National Question*, pp. 202–14.
36. Emmert, *Serbian Golgotha*, p. 132, citing and translating Duško Kečkemet, *Ivan Meštrović*, Zagreb: 1970, pp. 1–3.
37. For the position of the Turks of Bulgaria or Pomaks, see Karpat (ed.), *Turks*.

٣٨- فـي رأيـي أن نقل السكان مثلما تمت ممارسته فـي عشرينيات القرن العشرين (وما تلاها) يقف على قدم المساواة مع التطهير العرقي بالإمارة. ولكنهما ليسا متطابقين . لمناقشة جيدة عن هذه الموضوعات انظر:

.McGarry and O'Leary (eds.). Politics

وقد مارس العثمانيون إعادة التوطين الإجباري ، ولكن الهدف كان عادة خلق مستعمرات تقوى قبضتهم على الإقليم. وبالنسبة لأصل هذا المصطلح "التطهير العرقي" يكتب درازن بتروفيتش في :

An Attempt at Methology" . European Journal of International Law

: ١٩٩٤

"إن التطهير العرقي ترجمة حرفية لتعبير في اللغة الصربية الكرواتية . وأصـل المصطلح... من الصعب إيجاده ... وتحليل التطهير العرقي لا يجب أن يكون محدودًا بحدود حالة يوجوسلافيا السابقة الخاصة. فإن هذه السياسة يمكن أن تحدث ويكون لها عواقب مرعبة في كل الأراضي التي بها سكان مختلطون ، خصوصا في محاولات إعادة تحديد الحدود في أراض بعينها. هناك منطق جديد للصراع يعتمد على الأفعال العنيفة ضد "العدو" والسكان المدنيين على نطاق واسع، بدلاً من الحرب بالمعنى التقليدي. أي بين القوات المسلمة. والأمثلة على هذا المنطق والسياسة كثيرة اليوم.

والاستخدام الأصلي للمصطلح قد طبق على يد الصرب ليطلق على الهجمات الألبانية على الصرب في كوسوفو ولم يستخدم سوى فيما بعد (من جانب الكروات

والبوسنيين) لوصف الأفعال التي ارتكبها الصرب. وأدين بالعرفان لديجان جوفيتش لشرح هذا الاشتقاق المركب. وسلوفينيا فقط هي التي أعفيت إلى حد كبير، ولكن السلوفينيين عانوا كثيرًا من الشك والضغط من سلطات الهابسبورج وفيما بعد من الدولة النمساوية الجديدة في عشرينيات القرن العشرين.

(٤٠٦.p)

39. See Sugar, *Industrialization.*
40. Incorporated in the Slav state the Bosnian Muslims had an ambivalent status. It was only in the 1960s, when Bosnian Muslims were recognized as a national group by Tito, that their collective position began to improve. The appeal of a 'Yugoslav' identity rather than Serb or Croat affiliation proved seductive. See Friedman, *Bosnian Muslims.*
41. See Andrić, *Development.*
42. 'At the most critical stage of its spiritual development, at the time that the fermentation of [Bosnia's] spiritual forces had reached a culmination, invasion by an Asian warrior people whose social institutions and customs meant the negation of Christian culture and whose faith – created under different climatic and social conditions and unfit for any kind of adjustment – interrupted the spiritual life of a country, degenerated it and created something quite strange out of it.' Cited and translated by Tomislav Z. Longinović, 'East within the West: Bosnian Cultural Identity in the Works of Ivo Andrić', in Wayne S. Vucinich (ed.), *Ivo Andrić Revisited: 'The Bridge Still Stands'*, Berkeley, CA: University of California Press, 1995, p. 124.
43. Vuk Stefanović Karadžić was born in 1787. The bulk of his active life was spent in Vienna. Petar Petrović Njegoš was born in Montenegro in 1813. His four main books of poetry were *The Voice of Mountaineers* (1833), *The Cure for Turkish Fury* (1834), *The Song of Freedom* (1835, published 1854), and *The Serbian Mirror* (1845). His major work *The Mountain Wreath* was published in Serbian in Vienna in 1847.
44. Tomislav Z. Longinović, 'East within the West: Bosnian Cultural Identity in the Works of Ivo Andrić', in Wayne S. Vucinich (ed.), *Ivo Andrić Revisited: 'The Bridge Still Stands'*, Berkeley, CA: University of California Press, 1995, p. 126.
45. See Andrić, *Bosnian Chronicle*, pp. 262–3.
46. Emmert, *Serbian Golgotha*, p. 141. The famed 'blackbirds' of Kosovo Polje were no doubt crows or similar scavengers.
47. See Wachtel, *Making*, pp. 129–34.
48. Cited and translated in Tanner, *Croatia*, p. 75.
49. Cited and translated in Banac, *National Question*, p. 59.

50. Mary Shelley, *Frankenstein*, Chapter 4. It is curious how Frankenstein, set in the original in Switzerland, was moved in one of the first filmic treatments (1931) to Bavaria. Then in *Frankenstein Created Woman* (1967), Frankenstein had moved east (into 'Dracula territory'?) to a 'nineteenth-century Balkan village'.
51. Njegoš's *Mountain Wreath*; see http://www.rastko.org.yu/knjizevnost/umetnicka/njegos/mountain_wreath.html (the *gusle* is a traditional folk instrument).
52. In Lady Wilde, *'Speranza', Ancient Legends, Mystic Charms & Superstitions of Ireland with Sketches of the Irish Past, to which is Appended a Chapter on 'The Ancient Race of Ireland' by the Late Sir William Wilde*, London: Ward and Lock, 1888.
53. See Mertus, *Kosovo*.
54. Ibid., p. 100.
55. Andrić is quite specific that those who impaled the victim, the peasant Radisav, were gypsies. Martus cites the source as M. Jankovic, '*Zlocin kao u vreme Turaka*', ('Crimes as in the Time of the Turks') *Politika Ekspres*, 14 January 1991, see Martus, *Kosovo*, p. 119. The most moving account of the continuing plight of the Balkan gypsies is Isabel Fonseca's fine book, *Bury Me Standing: The Gypsies and their Journey*, New York, NY: Vintage, 1996.
56. Mertus cites the author as Žirovad Mihajlović.
57. Mertus, *Kosovo*, p. 112.
58. Weine, *When History*, pp. 107–9. Weine was an American psychiatrist who spent five years interviewing in Bosnia on memories of ethnic cleansing.
59. He liked to carry the *gusle*, with which Njegoš and other poets are often depicted. One of his colleagues in the Kosovo Day Hospital at Sarajevo described how 'I heard his first talks in the villages and on television. He was very familiar with the language. He was making jokes . . . He used much more his knowledge of the culture, of the spiritual archetypal needs of the Serbian people than psychiatry to seduce them. He was using stories, legends, *gusle* and religion'; Weine, *When History*, pp. 114–15.
60. Robert Browning, 'The Pied Piper of Hamlin', in Browning, *Poetry and Prose*, selected by Simon Nowell-Smith, London: Rupert Hart-Davis, 1950, p. 110.

الجزء الخامس

(١٢)

« المعمم وحامل السيف الأحدب »

هناك صورة ليثوجرافية (على الحجر) صغيرة قاتمة رسمها نيكولاس. توسانت شارلي Nicolas. Toussaint Charlet توضح كيف علم الباريسيون بتدمير الأسطول المصرى. العثمانى فى نافارين فى سنة ١٨٢٧م. ويأخذنا شارليه فى بيت متواضع للغاية، حيث جاء الجيران لسماع الأخبار. وطفل يقف على منضدة ومعه الجريدة يقرأ لمجموعة من الكبار. وهناك أطفال آخرون يلعبون وكلاب تسعى على الأرضية فى مشهد منزلى نمطى. وهذه الصورة تخبرنا بالكثير جدا عمن كان متعلمًا ومن لم يكن، وتوضح العملية التى كانت الكلمة المكتوبة والمطبوعة تنتشر بواسطتها بعيدًا وراء نطاق أولئك الذين كانوا يستطيعون القراءة لأنفسهم. ولكن منذ الأيام الأولى للطباعة فى خمسينيات القرن الخامس عشر كان غير المتعلمين قادرين على أن "يقرأوا" بعض الأشياء بأنفسهم. أى الصور.

وللصور عادة رسالة سطحية، ولكن بالنسبة لأولئك الذين كانوا قد تعلموا. كانت الصور مثقلة بمعان أكثر عمقًا[١]. وحتى الأميون كانوا معتادين على قراءة الصور. ولم يكن كل منزل فى إنجلترا يمتلك نسخة من كتاب جون فوكس John Foxe History of the Acts and Monuments of the Church. 1563 والمعروف أكثر بعنوان Book of Martyrs. قادرًا على متابعة النص فى صفحاته التى تجاوزت ألف صفحة [٢]. ولا كانوا بالضرورة مهتمين بالاضطهادات الباكرة ضد المسيحيين تحت حكم الأباطرة الرومان الذين كانوا قد طواهم النسيان منذ زمن طويل. ولكنهم

كانوا يستطيعون فهم الصور القوية المرسومة على قطع الخشب ويتجشمون عناء حل مغاليق العبارات القصيرة التي تصف التعذيب الذى عاناه المسيحيون في زمانهم.

وبالنسبة للإنجليز البروتستانت. كانت هذه الصور والقصص تذكرهم بالاضطهاد والطغيان الكاثوليكي. كان كتاب فوكس يحظى بشعبية طاغية لدرجة أن الطبعات الجديدة كانت ما تزال تعاد طباعتها بعد ثلاثة قرون من نشره للمرة الأولى.

كانت أوصاف الأتراك بالمثل متخمة بالرمزية. وأخذت السيوف والأقواس، والحراب، مكان المحارق التي عانى عليها الشهداء البروتستانت، ولكنها كانت تذكرة دائمة بالعنف، والتهديد، والخطر. وفي بعض الأحيان كان الإفراط الجنسي والانحراف تحل محل الوحشية. وفي بعض الصور كان يتم تقديم هذه العناصر جميعًا. وكان كثير من الأوربيين مقتنعين بأن المسلمين شاذون جنسيا. وتم تصوير الأتراك على أنهم مغرمون بالخوزقة، أحد الأشكال القليلة للعقاب الذى لم تكن تمارس في الغرب. وتتضمن الرسوم التي تصور هذا الجنس غير الطبيعي والقسوة المفرطة في آن واحد[٢].

بيد أن الصور كلها لم تكن من هذا النمط. إذ كان الكثير منها يظهر رزانة الحياة العثمانية، ملابس الأتراك الفاخرة، ومناظر مدنهم الأخاذة العامرة بالمباني الفاخرة. وقد كانت للصور الشائعة في عصر النهضة عن الأتراك جوانب عديدة؛ بعضها معجب وفضولي، والبعض الآخر مخيف. ولكن مثلما كان من الصعب على رجل إنجليزي في القرن السابع عشر أن يرى صورة لروما ولا يتذكر الشهداء البروتستانت الذين تم إحراقهم في سميثفيلد Smithfield . كانت صورة الشرق ملطخة بالألوان القاتمة أو المؤذية. وكانت كل صورة. كما أشار لا كان. مشحونة تمامًا بطريقة استخدامها فيما مضى.

وثمة صور محددة تطورت في بطء. وفي البداية كان هناك عدد قليل من الفنانين الأوربيين لديهم مفهوم عن كيفية رسم "المسلم". ولهذا جعلوا المسلمين يبدون مثل الغربيين، يلبسون نفس الدروع، ويمتطون الخيول نفسها، وغالبًا ما يحملون

الأسلحة نفسها. ولذلك في صورة لمعركة المنصورة سنة ١٢٥٠م (فى أثناء الحملة الصليبية السابعة)، لا يمكن تمييز لويس التاسع ملك فرنسا عن خصومه المسلمين إلا بالتاج الذى على رأسه [٤]. وبالتدريج ظهرت العلامات التعريفية. ففي نوافذ كنيسة الهابسبورج فى Koniqs Felden كونيجسفيلدن بسويسرا، تمت تفرقة المسلمين عن المسيحيين بشعارات العقرب المنمطة على دروعهم [٥]. بيد أنهم كانوا ما زالوا يضعون دروعا أوربية الطراز. وكان فى إسبانيا، ولا غرو، أن تم رسم صور أكثر واقعية لأول مرة تظهر الكفار مختلفين تمامًا عن خصومهم المسيحيين[٦]. وثمة هيكل فى ڤالنسيا يظهر ملك أراجون جيمس الأول يساعده قديس فى معركة ضد المسلمين. أما خصومه، بملامحهم القاتمة، وثيابهم الفضفاضة ودروعهم على شكل قلب، لا يمكن قط أن تخطئهم العين على أنهم فرسان مسيحيون.

* * *

هذا المنظر عن العالم الإسلامى فى الغرب كان قد طبع إلى حد كبير فى أثناء القرنين الذين أعقبا سقوط القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م.، وقد تصادفت هذه الفترة مع تطور الكلمة والصورة المطبوعة وانتشارها فى الغرب. ومع أواخر القرن السابع عشر، كانت مسألة كيف يبدو شكل الكافر، وكيف يتصرف. قد صارت معلومة شائعة. وللعداوة ضد العالم الإسلامى، كما أشرت من قبل، سوابق قديمة للغاية[٧]. ولكن الصور المطبوعة، والأعمال المرسومة، والنحت، والأشكال الفنية أعطت العداوة هوية مرئية، تغيرت إلى حد ما وتحولت مع مرور الزمان، عندما أدخلت عناصر جديدة. ولكن الأسس نفسها التى شكلت العدو الكافر بقيت على حالها بشكل أو آخر، على الرغم من أن تنظيمها وترتيبها تحول على مدى القرون. كانت عملية التعريف مرئية ونصية فى آن معًا. وفى أغلب الأحيان لم تكن الصور والكلمات منسجمة. فى بعض الأحيان كانت الصور تستفز استجابات أكثر تعمقًا من النصوص المكتوبة التى

تصحبها. وقد اتسعت الهوة بين الصورة والنص في أثناء القرن الثامن عشر، ثم ضاقت خلال القرن التاسع عشر. وضاقت أكثر خلال القرن العشرين.

كذلك تغير الممثلون. فحتى القرن التاسع عشر. كان الكافر هو. "التركي" ولكن في أثناء النصف الأول من ذلك القرن، أعادت أوربا أيضًا اكتشاف ما أسماه الكاتب الرحالة كينجلاك A.W.Kinglake في كتابه (1847)'Eothen. "البدوي الحقيقي"(٨) كان ساكن الصحراء مشبعًا في نظر كثير من الأوربيين بخصال الوحشي النبيل التي لم يكن من الممكن قط أن تنطبق على العثمانيين. وبعد أربعين سنة من كتاب Eothen نشر تشارلز مونتاجو دوتي Charles Montagu Doughty كتابه المسمى Travels in Aralia Deserta في مجلدين كبيرين. وجعل أبطاله الصحراء وأولئك الذين يعيشون فيها على السواء. كما أن الغزو الفرنسي لشمال أفريقيا، أظهر أبطالًا عربًا متميزين مثل عبد القادر الجزائري الذي كان صورة حديثة لصلاح الدين الأيوبي والعدو النبيل، كان معنى التغير في دور الصورة في منشورات القرن التاسع عشر يعني أن هناك تحولًا كبيرًا للغاية فيما كان يتم تصويره والكيفية التي كان يتم تقديمه بها. لقد صارت الصور المطبوعة ألعابًا يمكن لجمهورها المتزايد من المتعلمين قراءتها وحل مضمونها. ونتيجة لهذا التحول الثقافي، يكون من الخطأ أن نبحث عن مفهوم نمطي مفرد ووحيد، هو العداوة المطلقة في العصور الوسطى. الصور والنصوص في القرن التاسع عشر وما بعده أكثر تعقيدًا وأشد تضليلًا على السواء، لأنها تفترض أنها تخاطب جمهورًا من المتعلمين. ورسوم بونش الكارتونية التي ناقشتها في الفصل العاشر لا بد من قراءتها في سياقها. إذ لم يكن عنوان "The London Charivari" الثانوي قد وضعه بونش عبثًا، إنما كان تعبيرًا عاميًا عن عدم الاتساق أو الصخب والجلبة. كان الأمر يتطلب بعضا من المهارة لكي تخرج بمعنى من التنافر والنشاز..

ومع هذا فإنه على الرغم من هذه النماذج والأساليب الجديدة في التقديم، بقيت المواقف القديمة تجاه الشرق الكافر قائمة. وليس واضحًا على الإطلاق كيف تطورت هذه الظلال في البداية. وفي زمن باكر (القرنين الخامس عشر والسادس عشر. لم تكن

الصور وحدها، فى ظنى، تستطيع أن تجعل جذور فكرة الكافر تضرب فى الأعماق. فمن ناحية، لم تكن الصور موجودة بأعداد كبيرة(٩). ولم يكن هناك شيء عن "الأتراك" مثل تلك الوفرة من الصور اللوثرية التى أسيء استخدامها بصورة قارصة. والتى يتذكرها الناس جيدا) عن البابا وكرادلته(*). هنا كانت الصور عادة تجعل ما كان له اسم فعلاً مرئيًا ومحددًا. ولكن مع "الأتراك" كان الشكل المرئى أحيانا ينبئ بالكلمات. خذ مثلاً السيف القصير المحدب والذى كان له فى الغالب حد عريض بشكل لا معقول يجعله يبدو مثل نوع من ساطور اللحم. ونحن نسميه Scimitar" السيف الأحدب". وأول استخدام مُسجل لكلمة السيف الأحدب فى الإنجليزية لكى تشير إلى سيف تركى محدب جاء سنة ١٥٤٨م، بعد وقت طويل من ظهور الصورة لتصبح دليلا مرئيا على التركى المتوحش الخطير. ولا أحد يعرف بالضبط من أين جاء أصل الكلمة. فلم تكن مصطلحا. وليس لها اشتقاق واضح (١٠). ومع هذا صارت إشارة على الكافر. وفى كوميديا موللبير "Le Baurgeois Gentilhomme". مثلا والتى عرضت للمرة الأولى فى سنة ١٦٧٠م، وهى "احتفال تركى غريب" قدم فى لغة عامة شاذة. استخدمت لإضفاء النبالة على البورجوازى سهل الانخداع. مسيو جوردان (١١). أما الأشياء التى تحوله إلى نبيل تركى فهى عمامة وسيف أحدب. ويظهر البورجوازى فى البداية "وهو يلبس على الطراز التركى ولكن دون عمامة أو سيف محدب". ثم. وبطريقة احتفالية. يخلع عليه المفتى بالعمامة والسيف. وإذا به يصبح تركيا. لقد بقى "السيف الأحدب". "العمامة" رموزًا للأتراك حتى فى القرن العشرين. وقد وصف الدكتور جورج هورتون George Horton القنصل العام الأميركى فى سميرنا فى كتابه الذى يشي بالخوف من الأتراك The Blight of Asia الذى نشر فى سنة ١٩٢٢م. كيف أن "التركى حيثما يصل سيفه الأحدب- ذليلا، دنسا ومسيئًا. كان

(*) من المعلوم أن العداوة بين أتباع مارتن لوثر. الذين عرفوا باسم البروتستانت (أى المحتجين) فيما بعد. وبين البابوية الكاثوليكية. كانت عنيفة. والمؤلف هنا يشير إلى الصور السيئة المنسوبة إلى أتباع لوثر وتصور البابا والكرادلة. (المترجم)

يفجر الحضارة الرومانية اللاتينية بالتدهور الأبدى، حتى إذا ما ضاع كل شىء جلس راضيًا بوحشية ليغفو فى شيخوخة لا أمل منها"(١٢).

وثمة سيف أحدب يظهر فى الصور المطبوعة الأولى عن التركى الخارج عن المألوف وكانت قائمة على أساس الملاحظة (١٣). وتظهر هذه الصور فى كتاب "الحج إلى القدس The Pilgrimage to Jerusalem الذى كتبه موظف علمانى بكتدارئية ماينز. وهو برنارد فون بريدنباخ Bernard von Breydenbach . وفى أبريل سنة ١٤٨٣م. بدأ رحلة الحج إلى الأرض المقدسة بصحبة الفنان إيرهارد روفيتش Erhard Reuwich وعدد من المسافرين الأرستقراطيين. وكان قصد بريدنباخ دائمًا أن يخرج تقريرا مطبوعًا بالحفر على الخشب لأنه جعل روفيتش يرسم الأماكن التى زاروها. فضلاً عن مجموعة من الصور عن الناس فى الأرض المقدسة. وأكبر الملامح درامية فى الكتاب كانت مناظر بانورامية للموانئ التى مرت المجموعة بها، خاصة المنظر الموجود بالملحق عن البندقية. وطوله أكثر من ستة أقدام طولاً. وهو واحد من أوائل الرسوم لعروس البحر الأدرياتى.

وكانت لروفيتش حتى فى رسومه البانورامية. عين مدهشة ترى التفاصيل الاجتماعية. وكان فى بعض الأحيان يأخذ منظورًا من زاوية عالية، ليطل منها على مشهد حضرى، ولكنه يضمنه أيضا الريف المحيط بالمدينة. وهنا يمكننا أن نرى اللصوص يحتجزون المسافرين وجرائم أخرى، والنسوة تغسل الملابس، والعقوبات التى يتم تنفيذها. وكانت كتابات بريدنباخ منسجمة، بيد أن رسومات إيرهارد روفيتش على الخشب المطبوعة هى التى جعلت الكتاب متميزًا. وهناك صور أخرى وضعت بين ثنايا النص، مثل مجموعة من الأتراك الراكبين، والمسلمين ومعهم نساؤهم، ويهودى معه أكياس العملات، ومسافرون جلسوا لتناول وجبة. وصورة اليهودى وضعت ملاحظة غير مؤكدة، ولكن الصور الأخرى لم تظهر سوى الفضول ولم تبين أية عداوة واضحة(١٤).

لقد طبع كتاب بريدنباخ للمرة الأولى على يد روفيتش فىماينز سنة ١٤٨٦م ثم ظهر بعد ذلك فى اثنتى عشرة طبعة، باللاتينية، والهولندية، والألمانية، والإسبانية والفرنسية[١٥]. وصار مكونًا رئيسيًا فى الكتب المجموعة فيما بعد مثل الملخص الشهير لتاريخ العالم الذى جمعه صمويل بورخاس **Samuel Purchas** الذى نشر أول مرة فى سنة ١٦٢٥م[١٦]. وفى تكريس الجزء الأول إلى تشارلز أمير ويلز (الذى لم يلبث أن صار الملك تشارلز الأول)، كتب بورخاس أنه «من فوضى هذه المعلومات المرتبكة وضعت إطار هذا العالم التاريخى بطريقة جديدة تعتمد على شهود العيان». لقد كان «دليل شهود العيان» يختلف تمامًا عن تخيلات سير جون ماندفيل **John Mandeville** . ومهما كانت هذه الأدلة خاطئة أو متطرفة من جانب بعض شهود العيان الذين اعتمد عليهم بوخارس فإنهم قد شاهدوا فعلا ما وصفوه بأم أعينهم[١٧].

ولكن فى كتاب **The Pilgrimage to Jerusalem** رأى المؤلف والرسام الشاهد معًا. وكان ذلك أمرًا غير عادى إلى حد كبير آنذاك. وبقيت رسوم روفيتش مصدرًا قياسيًا للصور التى رُسمت بعد ذلك عن الشرق. فقد كان الأتراك والمسلمون الذين رسمهم يرتدون ثيابًا فضفاضة. وكانوا كلهم مسلحين بالأقواس والسيوف المحدبة التى تميزهم. كانت وجوههم نحيلة تشبه الصقور. ومع هذا لم يكن القراء جميعًا ليروا الصور نفسها عندما يقرأون نص بريندباخ. فقد كانت الطبعة الفرنسية المنشورة فى ليون ١٤٨٨م تعديلًا حرًا قام به نيكولاس لوهون **Nicholas le Huen** بنقوش نحاسية خلابة بدلًا من رسوم روفيتش الأصلية المحفورة على الخشب. ومع مرور الزمن تزايد مدى الصور التى يفترض أنها تصور العثمانيين بصورة هائلة، وقد قام بعضها على أساس "دليل العيان". والواقع أن هذه الصور قد قيض لها أن تلخص الشرق الغامض فى كل جوانبه. وفى كثير من مشاهد الكتاب المقدس، كان يتم رسم اليهود فى زمن المسيح، يرتدون الثياب الفضفاضة والعمائم الكبيرة التى كان يرتديها الأتراك فى القرن السادس عشر.

هذه العناصر نفسها. الأثواب والسيوف المحدبة والعمائم. صارت(مع الهلال الموجود في كل مكان) الرموز الدالة على عدو قاتل. وفي مسرحية عطيل وصف شكسبير العدو في إيجاز بأنه "الكلب المختن" وهي مصطلحات كان جمهوره يعرفونها. ويسميه "تركي حقود ومعمم" [١٨]. وكانت التفاصيل الموحية أساسية للغاية. ففي سنة ١٥٢٢م أنتج فنان نورمبرج الشهير هانز سيبالد بيهام **Hans Sebald Beham** حفرًا في لوح واحد عن الهجوم التركي المعاصر على جزيرة رودس، التي احتلها فرسان القديس يوحنا. وتبدو بعض التفاصيل خارج مكانها. وتبدو مدينة رودس المحاصرة كما رسمها بيهام مثل مدينة من جنوب ألمانيا ويظهر الأتراك الذين رسمهم وهم يطلقون النار من مدافع ميدان غربية الطراز، ويتقدمون مثل المشاة المرتزقة الألمان. المعروفين بـ **landsknechrts**. على أنقاض أسوار المدينة. وسفنهم في البحر هي سفن المحيط الأطلنطي ذات البطن، وليست سفن البحر المتوسط الملساء.

بيد أن لمسات رمزية حاذقة قليلة حددت بشكل واضح عدوا شرقًا وقويا[١٩]. إذ إن جميع المهاجمين كانوا يضعون العمائم، ويحملون سيوفا محدبة. ولديهم خيام حربية على الطراز الشرقي، وكل منها يزينها هلال، على حين يوجد على مقدمة الشاطئ مسيحي تعيس الحظ (حسبما نفترض) قد وضع على خازوق. ويظهر الأتراك خصوما منظمين ألداء. لقد كان القصد من صورة بيهام الكبيرة المحفورة أن توجه إلى جمهور من الموسرين، ولكن مثل هذه المكونات ظهرت في الكتيبات الأرخص ثمنا والصور الكبيرة في ألمانيا في النصف الأول من القرن السادس عشر. وأيضا في سنة ١٥٢٢م، ظهر كتيب لمؤلف مجهول عنوانه:

A Little Book about the Turks:. Useful Discourse or Conversation among Several People تمت طباعته في أربع طبعات، ثم طبع مجددا في سنة ١٥٢٧م وسنة ١٥٣٧م[٢٠].

كان هناك العديد والمزيد من المنشورات "الإعلامية" وكلها تعتمد على الخطر التركي الجديد، وهو عدو قوي كان قد استولى على جزيرة رودس المنيعة وقلعة بلجراد

الحصينة في غضون أشهر قليلة. وكانت معظم هذه المنشورات مكونة من نصوص قصيرة للغاية في أربع أو خمس صفحات فقط، وكان لكثير منها أغلفة مرسومة أو بعض الرسوم في داخلها.

ومن المستحيل أن نعرف كم من الناس "قرأوا" هذه الكتيبات والكتب المرسومة(٢١). ولكن الصور نفسها تبدو لي مفتاح الموضوع. فقد وضع ميشيل دى سيرتو Michel de Certeau جملة حيوية بشكل مدهش. "نص مكون من شرائح". ليصف الموقف عندما يتم ربط نمطين مختلفين ومتضادين سويا" (٢٢). كان يفكر في أنماط النصوص المكتوبة وليس في العلاقة بين الصورة والنص، ولكن التوترات التي وجدتها كانت شبيهة بالأمثلة التي قدمها. إذ إن لصق صورة على نص في الصفحة نفسها يتسبب في عدم الاستقرار. فالنص يقرأ بالتوالي، من قمته شمالا إلى أسفله يمينا في الصفحة. وأي شيء يقاطع هذا التدفق يشوش المعنى. وهكذا فإن أكثر صورة مناسبة لا تنسجم قط تمامًا مع النص. إن الصورة موجودة لجذب الانتباه. وهي تقرأ أو تفهم بطرق تختلف تمامًا عن الطرق التي تفهم بها الكلمات المحيطة بها.

كانت موارد الفنان الذى يرسم على الأخشاب أقل وفرة من المصادر المتاحة لكاتب ما.والواقع أن القصد من الرسم المطبوع من حفر على الخشب كان البساطة والتأثير البالغ. ولهذا كانت هذه الأعمال الفنية، غالبًا، تبالغ في تصوير السجايا الوحشية للمسلمين الكفار وحبهم للحرب، تماشيا مع هذا السياق. وعندما كتب الطابع يوهان هاسيلرج Johann Haselierg كتيبه الخاص ونشره سنة ١٥٣٠م لكي يحث الإمبراطور شارل الخامس على مواجهة الأتراك، وضع له غلافًا أماميا يصور الجيشين. جيش معمم يقوده السلطان سليمان "العدو اللدود للدين المسيحي". يواجه قوة من العالم المسيحي يقودها الإمبراطور شارل الذى يضع ريش الطاووس على خوذته، رمزًا إلى الخلود والبعث. وكان تأثير صورة الغلاف على كيفية فهم النص قويًا. ثم يستوعب القارئ النص، كما يحدث الآن، وفي ذهنه هذه الصورة.

وفى الفترة ما بين تدمير الأتراك للمجريين فى معركة موهاكس سنة ١٥٢٦م، وهزيمة الأتراك فى ليبانتو ١٥٧١م، وضعت أساليب أكثر قوة وتعقيدًا لتصوير العثمانيين الأشرار والأقوياء. وتم تجاوز خيال بيهام البسيط برسوم كانت تزداد حذقًا باستمرار. وعند نهاية القرن السادس عشر اضطلع فنان بلاط الإمبراطور رودلف الثانى، ابن أخى شارل الخامس، بعمل لوحة "الخطر التركى" وأنتج عددًا من قطع الفن الباروكى الرائعة. ومع هذا. فإنه على الرغم من عدم سذاجة الصور بما فيها من فكر وحذق، كانت ما تزال محكومة بالمدى المحدود نفسه الذى دارت فيه الموضوعات الأساسية للكتب الأولى التى أنتجها عصر الطباعة الباكر incumalula . وتظهر الرسومات التى أبدعها جان موللر Jan Müller فى تلك الفترة السيوف. والسيوف المحدبة، والأقواس، والأسهم، بل والعمائم الأكبر حجما. وقد بقيت هذه العناصر بمثابة البصمة المرئية الأساسية للأتراك.

وقد بدأ ترتيب هذه الرموز وتوزيعها. الأسلحة والملابس. يتغير بدهاء فى العقود الأولى من القرن الثامن عشر جزئيًا، نتيجة الاهتمام المشترك بالزهور بشكل لافت. لقد كانت الزهور مرئية بوضوح شديد فى العاصمة العثمانية منذ منتصف القرن السادس عشر. وبحلول ثلاثينيات القرن السابع عشر كان الرحالة التركى الشهير «أوليا جلبى» يقدر أن هناك حوالى ثلاثمائة بائع زهور فى إستنبول. فقد كانت المروج المفتوحة على امتداد القرن الذهبى تزهو بزهور التيوليب والليلاك فى الربيع وكانت رائحة الليلاك تفوح بالنشوة. وقد أحيا إدخال زهور التيوليب إلى أوربا من تركيا فى منتصف القرن السادس عشر، أولا فى أوجسبرج Augsburg سنة ١٥٥٩م، ثم أنتويرب Antwerp وممتلكات الهابسبورج فى الأراضى الواطئة فيما بين سنة ١٥٦٢م، وسنة ١٥٨٣م، ولعًا بالزهور والحدائق فى غرب أوربا. وتطور الإنتاج الغزير للزهور ليصير صناعة فى الأراضى الواطئة، وكانت أبصال التيوليب تصدر عبر أوربا. وكان لدى الحاكم العسكرى لدولة Baden Durlach الصغيرة أكثر من أربعة آلاف شجيرة تيوليب بحلول سنة ١٦٣٦م، كلها موضوعة بعناية فى قوائم سجلات حديقته[٢٢].

ولم يلبث الولع بزهور التيوليب الذى شدد قبضته على أوربا فى أثناء القرن السابع عشر أن هدأ فى نهاية الأمر (بعد أن كون ثروات كثيرة وبدد ثروات أكثر). ولكنه تلقى صدمة فيما بعد فى الأراضى العثمانية فى أوائل القرن الثامن عشر. فقد كان للسلطان أحمد الثالث ولع مفرط بالتيوليب، وصار حكمه، فيما بين سنة ١٧٠٣م وسنة ١٧٣٠م، يعرف باسم "لالى ديفرى" أى "عصر التيوليب". ولم تكن الزهور التى زينت قصره من التنويعات المحلية التركية أو الفارسية ولكنها كانت من نتاج البراعة الأوربية فى فلاحة البساتين. هذه الأصناف الغريبة (والمريضة غالبًا)، والتى كانت مبهرجة فى ألوانها مثل الببغاوات، والتى كانت تتألق فى ألوان مختلفة، كانت تسمى "الشاذة" أو "الغريبة". وكانت مختلفة تمامًا عن الزهور الأسطوانية البسيطة التى كان الأتراك يبجلونها منذ زمن طويل. بيد أنها مع ذلك كانت ساحرة ومغرية بالنسبة للذوق التركى. وقد كتب السفير الفرنسى سنة ١٧٢٦م تقريرا عن أنه كانت هناك.

" نصف مليون من أبصال التيوليب فى حديقة الوزير الأعظم. وعندما تزهر التيوليب ويريد الوزير الأعظم أن يريها للسلطان يحرصون على ملء أية فراغات بزهور التيوليب المقطوفة من حدائق أخرى وتوضع فى قوارير. وعند كل زهرة رابعة توضع الشموع على الأرض بارتفاع زهور التيوليب وتزين الممرات بأقفاص بها كافة أنواع الطيور. وكل الطيور المغردة محاطة بزهور فى أوانيها، وتضاء بعدد هائل من المصابيح البللورية من مختلف الألوان[٢٤]».

ولم تكن هذه هى الصورة القديمة نفسها عن البربرية القاسية.

ومن المستحيل أن نتوخى الدقة حول التاريخ ولكن من المؤكد أنه مع عصر التيوليب بدأت الفكرة الرمزية عن "التركى" تجمع معانى كثيرة وممتدة. إذ إن تماثل مظهر زهرة التيوليب مع شكل العمامة قد لاحظه أول مرة سفير الهابسبورج فى إستنبول جيسلين دىبوسبيك **Ghislain de Busbecq** فى خمسينيات القرن السادس عشر. فقد كان مولعًا بالزهور، وعلى أساس من هذه الرابطة المرئية، أعطى

زهرة التيوليب اسمها خطأ. وهى صيغة خاطئة للكلمة التركية الدالة على العمامة "طولبان". ولكن العمائم التى كانت ذات مرة رمزًا على العنف الشرقى، اكتسبت آنذاك رابطة إضافية أكثر نعومة. وعندما جاءت أول سفارات عثمانية إلى فرنسا فى عشرينيات القرن الثامن عشر. صارت العمائم، والحرائر الثقيلة. والفراء. والأثواب الفضفاضة، فجأة، مرغوبة على نطاق واسع. وانتشرت موضة الرغبة فى الرسم بثياب شرقية. la Turque فى أوساط الأرستقراطيين الأوربيين. فبالنسبة للغرب كانت الزهور والحرير والثياب الفضفاضة تشير إلى حياة ناعمة بدلاً من خشونة أرض المعركة (على الرغم من أن الأدلة الواردة فى الصور السابقة بينت أن العمائم والقفاطين لم تكن لتعيق العثمانيين فى الحرب) .

كانت الموضة التركية أيضا طرازًا موحيًا فى المخادع. وبدأت تتكاثر الصور المشبعة جدا بالجنس عن العثمانيين. وحيث كانت الطاقة اللامحدودة غير المقيدة للسطان وباشواته تستفز إراقة الدماء والطعان، حلت آنذاك محلها صور تشى بشهوتهم الجامحة. الجنس الخشن والولع الوحشى بالحريم[٢٥]. وفى بواكير القرن التاسع عشر. يتهكم توماس رولانسون Thomas Rowlanson فى لوحته "الحريم". وقد رسم هذه الرابطة بصورة مباشرة فاحشة. ولكن الرابطة نفسها ظهرت فى صور لا تعد ولا تحصى وإن كانت أقل مباشرة. وكان المشهد قد تغير من ميدان المجد إلى غرفة النوم.. "السلطانات الصغيرات فى الحريم" فى كتاب الماركيز دى صاد One Hundred and Twenty Days of Sodom . كن يمثلن الجانب المظلم فى الموضة التركية[٢٦] .

* * *

وليس هناك عدد دقيق لإجمالى الصور التى أنتجت بكثرة فى العالم الغربى فيما بين سنة ١٤٨٠م وسنة ١٨٠٠م. ففى الأراضى الواطئة وحدها فى القرن السابع عشر يصل العدد إلى ملايين كثيرة [٢٧]. وغالبًا ما كان الأدب الشعبى الرخيص يحمل

صورة تزين الغلاف. وغالبًا ما كانت الصورة مقطوعة الصلة بتفاصيل النص. لقد كانت الصورة تحدد الموضوع. مثل الاغتيال المرعب أو قصص الرومانسية. ولكن مع قدوم القرن الثامن عشر برز دور أكثر أهمية للصورة المطبوعة أيضا. كان "الكتاب النموذجي" لهذا المفهوم فى النشر يتمثل فى دائرة المعارف الكبرى التى نشرها دينيس ديدرو **Denis Didoro** فيما بين سنة ١٧٥١م وسنة ١٧٧٢م. فى سبعة عشر مجلدًا للنص وأحد عشر مجلدًا للوحات [٢٨]. وكان قصد ديدرو فى الأصل أن يدمج ما بين الكلمات والصور. ولكن ظروف نشر دائرة المعارف والفصل المادى بين الصور والنص المتصل بها جعل هذا أمرًا مستحيلاً. وفى تناول الكلمات والصور سويًا كانت لدائرة المعارف عدد من البشائر الناجحة. وكانت واحدة من أكثرها طموحًا موسوعة :

The Ceremonies and Religious Customs of the Various Nations of the Known World. والتى نشرت فى سبعة مجلدات على يد الرسام الشهير برنارد بيكارد **Bernard Picard.** [٢٩]

كان بيكارد قد ولد كاثوليكيا فى باريس. وبرزت موهبته لأول مرة بوصفه رسامًا هندسيا فى أثناء تدريبه فى الأكاديمية الملكية. ولكن عندما بلغ السابعة والثلاثين من عمره استقر فى أمستردام واعتنق البروتستانية. وكان بالفعل رسامًا ناجحًا راسخ القدم عندما اعتنق فكرة الدراسة الشاملة والمقارنة لجميع ديانات العالم. وقد انتقد الكاتب الكاثوليكى الكونت جوزيف دى مايستر **Joseph de Maistre** الذى عاش فى القرن التاسع عشر "المنقاش البروتستانتى" لبيكارد لأنه هاجم محاكم التفتيش الإسبانية التى أخذ مايستر على عاتقه مهمة الدفاع عنها[٣٠] وقد أدى هذا إلى تسفيه هدف بيكارد. وهو تصوير جميع الديانات على قدم المساواة. وتختلف نصوص العديد من الطبعات التى صدر فيها الكتاب اختلافًا كبيرًا. فالنسخة الأولى التى نشرت فى أمستردام فيما بين سنة ١٧٢٣م وسنة ١٧٤٣م كانت فى الشكل الذى كان بيكارد يقصده. وفى الجزء الثانى من المجلد السابع فى "ملاحظة للقارئ" أدان بيكارد طبعة ١٧٤١م الفرنسية. التى كانت قد تم "تعديلها" لتتماشى مع مطالب الرقيب. وقد أعاد

مجلد أمستردام طباعة المادة الجديدة التي كانت قد ضايقت بيكارد. وكانت الطبعات الإنجليزية المختلفة مختصرة وأعيدت صياغتها. ولكن بينما تبدلت النصوص. بقيت الصور كما هي. وبمعنى من المعاني. فإن هذا ليس مدهشا أو غريبا. فقد كان بيكارد مشهورًا بأنه رسام. وكانت النصوص قد كتبت وأعيدت كتابتها على أيدي عدد من المؤلفين المختلفين حول الصور التي رسمها .

وعلى أية حال. فمن الغريب أن رسمًا واحدًا بعينه، ربما هو الأكثر حذلقة فى الموسوعة كلها، هو الذى أفلت من انتباه الرقيب. ففى القرن السابع عشر كانت الصورة الرئيسية فى مواجهة صفحة العنوان، قد تطورت بحيث صارت تلخيصًا مرئيًا للكتاب أشبه ما تكون بغلاف ورقي لكتاب فى القرن العشرين. ومع حلول القرن الثامن عشر كان القراء قد اعتادوا على هذه المناقشات المرئية[٢١] كان رسم بيكارد معقدًا بشكل خارق للعادة. ولكي يؤكد أنه لم يكن هناك لبس قدم كتابة طويلة تحت الصورة ولكنه لم يصف فى هذا السطر كل شيء كان قد بينه. كان أبناء الطائفة البروتستانية يقفون جنبا إلى جنب مع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية وقساوستها، وخلفهم مجموعة من المعابد البوذية والأصنام الخيالية، على حين كان على أحد الجوانب بعض المؤمنين بمذهب الروحانية يعبدون الحيوانات وقوى الطبيعة. ولكن في مقدمة الصورة هناك جرف صغير لا يزيد ارتفاعه عن أقدام قليلة، وعلى الأرض عند سفح ذلك الجرف يجلس المسلمون[٢٢]. ويستنتج القارئ على الفور من ملابسهم، وأسلحتهم والنظرة الوحشية أنهم مسلمون. وثمة علامة أخرى أكيدة تمثلت فى أنهم كانوا مجتمعين حول جمل. ولم تكن مصادفة أنهم يجلسون بالقرب من باب الجحيم، وقد تلوت وجوههم الملتاعة من خلال الشواية الحديدية السميكة. هذه الصورة الوحيدة، بخلاف أية صورة أخرى فى المجلدات العديدة لتاريخ بيكارد «العلمى»، حملت فكرة لا بد لكل مسيحى أن يعرفها: أن الكفار المسلمين كانوا أدنى من كل ديانة أخرى، وأنهم قريبون من باب الجحيم، الذى يمكن أن يدلفوا منه بسرعة. كان هذا انطباعًا لا بد لأى قارئ غربى أن يخرج به من هذه الصورة المواجهة لصفحة العنوان في داخل الكتاب، جوهر الكتاب برمته. وهى تعبر عن القوة العظمى لنمط الكافر،

والتى بنيت على مدى القرون، على الرغم من اهتمام بيكارد بتطهير نفسه من كل انحياز.

وكتاب The Ceremonies and Religious Customs مثال باكر لرغبة عصر النهضة. فى توثيق الكون المعروف بكل جوانبه. فقد تضمن العمل الهائل تسجيل العالم السرى للشرق، ولكن هذا المشروع كان مشوبا بالعيوب. فقد اعتقد الأوربيون بالغريزة فى عدم وجود الزمن فى الشرق، وقد أدى هذا الموقف إلى إغراق الكثير من المشروعات الكبيرة للمعرفة التراكمية. وكان من أوائل هذه المشروعات المسح الذى قام به الكونت لويجى فرديناندو مارسيجلى Lougi Ferdinando Marsigli للقوة العسكرية للإمبراطورية العثمانية. فقد كان مارسيجلى قد قام بزيارة خرافية إلى الأراضى العثمانية فيما بين سنة ١٦٧٩م وسنة ١٦٨٠م، وكتب نص تقريره عند عودته[٣٣]. وبعد خمسين سنة، أى بعد عامين من موت مارسيجلى سنة ١٧٣٠م، تم نشره. وكان قد عكف على عمل الرسوم حتى قبل أيام قليلة من موته[٣٤]. ولكن فى ذلك الوقت، لم يكن البناء العسكرى للعثمانيين الآلة القوية التى كان عليها فى الفترة السابقة على الفشل الكارثى خارج فيينا فى سنة ١٦٨٣م.

ولم يظهر شىء من هذا الاضمحلال فى الكتاب عندما نشر. فقد كان مزينا بالرسوم، ومخطوطات مارسيجلى فى مكتبة Royal Armoury باستوكهولم توضح نصًا منمقا مكتوبا مع الرسوم والألوان المائية فى مواضعها. وعلى مدى بقية القرن الثامن عشر (وفيما بعد، للغرابة) أخذت رؤية مارسيجلى فى القرن السابع عشر على أنها تقرير معاصر تمامًا عن القوة العسكرية. ونشر كتابه بالفرنسية، ثم الإيطالية، بل وبالروسية فى سان بطرسبورج سنة ١٧٣٧م[٣٥]. وهناك إيقاف للزمن يستلفت النظر بدرجة أكبر حدث مع ترجمة "الخطابات اللاتينية" الشهيرة للسفير الإمبراطورى بوسبك إلى الإنجليزية. إذ كان بوسبك قد وصف الإمبراطورية العثمانية كما كان يتذكرها فى خمسينيات القرن السادس عشر. وتم تسويق خطاباته سنة ١٧٤٤م فى إنجلترا بواسطة شركة توزيع ونشر على أنها. تحتوى على أدق تقرير عن الأتراك والأمم المجاورة»[٣٦].

وفى أثناء القرن الثامن عشر زار عدد متزايد من الفنانين الغربيين الأراضى العثمانية ورسموا أو صوروا ما شاهدوه. وبعضهم، مثل جان. بابتست فان موير Jean . Baptiste van Moeur وجان. إيتين ليوتارد Jean . Etienne Liotard. قضوا فترات طويلة فى إستنبول، ولكن العالم الذى صوروه كان فيه جزء حقيقى وجزء خيالى. وقد تخصص ليوتارد وآخرون، فى رسم الغربيين فى إستنبول يرتدون ثيابًا عثمانية أصلية. والصورة التى رسمها أنطوان دى فافرى Antoine de Favery سنة ١٧٥٤م حملت عنوان. امرأة تركية"، ولكن من غير المحتمل تمامًا أن موديلاته كانت من النساء المسلمات العثمانيات، حسبما أشار. فالصور التى أبدعها هؤلاء الفنانون كانت دقيقة. ومضبوطة" بدرجة أكبر كثيرًا من تلك الصور التى أنتجت قبل قرن من الزمان. ولكنها أيضا كانت مرسومة من أجل سوق كانت تطلب رسم ما كان من غير المحتمل أنهم استطاعوا رؤيته. فلم يكن أى فنان ذكر يمكنه دخول حمام النساء أو «الحريم» أى المنطقة الخاصة التى تعيش فيها النساء والأطفال فى أى بيت عثمانى. وقد صارت الانطباعات العابرة ثابتة باعتبارها صورة لا تتزحزح عن الإمبراطورية. وقد رسم الفنانون ملابس الاحتفالات الرسمية فى البلاط التى يرتديها الموظفون العثمانيون فى المناسبات الكبرى للدولة. وافترض الجمهور الغربى أن هذه كانت الملابس التى يرتديها العثمانيون يوميًا، فى الشتاء وفى الصيف. وقد عاش الفنانون الأوربيون بين الدبلوماسيين والمغتربين الغربيين، أو بين المسيحيين العثمانيين، أو الطوائف اليهودية. ولا غرابة فى أنهم عكسوا الأخلاقيات، والاهتمامات والانحيازات لدى مضيفيهم.

وعلى أية حال، كان هناك عمل ضخم فى القرن الثامن عشر عن الإمبراطورية العثمانية قدم ما شاهده المؤلف إجناتيوس موراديجا دوهسون Ignatius Mouradgea D`Osson على أنه حقيقة الإمبراطورية التحتية. فقد كان عازمًا، للمرة الأولى، بطريقة منهجية على أن يبين العالم العثمانى للغرب الأوربى، ووضع رسوم النص بأمانة بحيث كانت الكلمة والصورة تحكيان القصة نفسها فى صورة عامة أسماها General Picture of the Ottoman Empire Divided into Two Parts of

which One contains the Mohamadan legislation the other the History of Ottoman Empire

وقد ولد هذا الهدف من رحم الإحباط. فقد كان نصف أمريكي، ونصف فرنسي، كاثوليكيا، ولد بوصفه من الرعايا العثمانيين، وأمضى حياته حتى منتصف العمر فى الأراضى العثمانية، وكان غضبه يزداد باطراد مع السيل من الكتب والصور التى فشلت فى أن ترسم ذلك العالم كما عرفه. وفى مقدمته كان دقيقا للغاية فيما يتعلق بمقصده. وقد أعلن أن مؤلفين آخرين، نظروا أيضا إلى سطح هذه الدولة الشاسعة "دونما فهم الأسباب الكامنة تحت السطح. وقد نتجت الأوهام والخطأ من هذه المنظورات البعيدة، السطحية والعابرة". وكانت لسوء الفهم هذا عواقب خطيرة. فالجهل المطبق". والبربرية" كانت هى الصفات المعتادة التى أطلقت فى أوربا على العثمانيين، حسبما قال دوسون. وفى الحقيقة أنه كان متحمسا للإمبراطورية أكثر من معظم العثمانيين المسلمين. وقد كتب أبو بكر راتب، السفير العثمانى إلى فيينا فى سنة ١٧٩٢م أن "الله يعلم، أنه غيور جدا على الدولة العلية بحيث إننى لو قلت إنه عثمانى أكثر منا، لما جاوزت الحقيقة"[٢٧].

كان طموح دوسون لمشروعه لا يعرف حدودًا. وكان يفترض أن ينشر كتابه بواسطة المطبعة الملكية التى تستخدم أفضل الطابعين فى باريس والتى تديرها عائلة بيدو **Didot**. وكانت الرسوم ستنفذ بيدى تشارلز. نيكولاس كوشان. أحسن رسام فى زمانه. ولم تضم المجلدات الضخمة الثلاثة من الحجم الكبير، والمجلدات السبعة الأصغر من قطع الثمن فى الطبعة "الشعبية". سوى الجزء الأصغر من رؤيته المتباهية[٢٨]. وقد وصف كارتر فندلى **Carter Findley** هذا بأنه "مسح شامل لا يمكن أن يوجد مكتملاً للتاريخ الإسلامى وما قبل الإسلامى. من مصر القديمة إلى إيران إلى المغول. وكان يفترض أن يتبع هذا تاريخ الإمبراطورية العثمانية (منذ أصولها البعيدة إلى سنة ١٧٧٤م) ثم- لأن هذا الجزء يسمى اللوحة العامة. تشريعات الإمبراطورية العثمانية"[٢٩] وهكذا لم يظهر سوى جانب واحد من الخطة الكبرى مطبوعًا فى صيغة

كاملة. وقراءته الآن. تجعله يبدو بشيرا (بمصطلحات النشر) بأكبر منشورات القرن التاسع عشر. كتاب «وصف مصر» الذى صدر فى فرنسا الإمبراطورية. وقد نشر المجلدان الضخمان الأولان لدوسون أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ولابد أنهما كانا معروفين لنابوليون عندما خطط لتخليد دخوله إلى مصر فى الفترة من ١٧٩٨م إلى ١٧٩٩م.

وعلى مدى ما يقرب من قرنين من الزمان. بدا دوسون كأنه شخصية غامضة ورومانسية مثل "الكونت دى مونت كريستو" فى رواية ألكسندر دوماس. فهل كان البارون دوسون حقًا سليل أسرة نبيلة سويدية قديمة. أم أنه كان ببساطة تاجرًا أرمنيًا كان قد عمل بالسفارة السويدية فى إستنبول. لقد كان ابن أوانيس موراdجيا وهو أرمنى عثمانى فى خدمة القنصل السويدى بأزمير. وكلير باجى. وهى ابنة كاتب القنصل الفرنسى فى المدينة نفسها. وفى سنة ١٧٤٠م ولد إجنايتوس فى بيرا. وهو حى أوربى فى إستنبول عبر القرن الذهبى. وتبع أباه وصار مترجمًا للسفارة السويدية فى سنة ١٧٦٢م. وبحلول سنة ١٧٦٨م. وفيما بعد ولفترة قصيرة تولى أعلى منصب فى سفارة السويد بإستنبول. رئيس البعثة .

ومن زيجة ممتازة لابنة أرمنى غنى تاجر ومصرفى. وجد مصدر تمويل أسلوب حياة يتعدى دخله من عمله مترجما. وبحلول سنة ١٧٨٠م، كان إجناتيوس قد دخل فى العمل مع حميه. إلى جانب عمله فى السفارة .وفى سنة ١٧٨٩م سمح له ملك السويد أن يغير اسمه تكريما لأحد أعمامه كان قد شمله. بجناحه الأبوى". ويبدو أن هذا الشخص يسمى دوسون. وهو مقابل خيالى قام إجناتيوس به لاسم عمه الأرمنى المركب من Tosunyan. الذى كان يعنى بشكل ما "العجل الهائج". هذه التهجئة الفرانكفونية حملته إلى مسافة بعيدة. ففى سنة ١٧٨٠م. منح لقبًا من ألقاب النبلاء السويديين وتقدم من "Le Sieur Mouradjea إلى "Le Chevalier de Mouradgea إلى "Le Chevalier d'Ohsson" فى النهاية .وفى البلاط الفرنسى قدم نفسه على أنه شخص شرقى. وفى وسط الباروكات. والقماش الساتان. والحرير. كان يمشى

بخطوات وئيدة فى الثياب الفضفاضة لأحد الموظفين العثمانيين والقبعة الطويلة التى يعلو الفراء قمتها التى يضعها أحد المترجمين فى سفارة ما.وقد ماتت زوجته فى سنة ١٧٨٢م، ومنذ سنة ١٧٨٤م حتى سنة ١٧٩٢م عاش فى باريس ليشرف على نشر كتابه الكبير.

كان المشروع فى ذهنه منذ سنة ١٧٦٤م، عندما قرأ واحدًا من أوائل الكتب التركية المطبوعة فى مطبعة إبراهيم متفرقة التى كانت قد استهلكت منذ فترة طويلة وسوف أناقشها في الفصل التالي. وقد خطط دوسون لكتابه "اللوحة العامة" بعناية على مدى سنين عديدة. واستخدم فنانين لرسم الأماكن. والملابس والحوادث الكبرى فى جو من السرية. وكانت مبادئه حاكمة الدقة والمنفعة. وكانت النتيجة عملا يفتقر إلى نزعة المغالاة التى حكمت الكثير من الصور الأوربية. وأكبر دليل واضح على هذا الفرق يوجد في تصوير الرسام لحمام النساء. فمع أواخر القرن الثامن عشر كان هذا المكان قد بات بالفعل موضعا للإثارة الجنسية المحمومة بالنسبة لأهل الغرب. وما كان يحدث داخله لا يمكن سوى تخيله. بما أنه لم يكن هناك سبيل إلى دخول الرجال فيه. بيد أن الرسومات التى رسمها فيما بعد **Ingres** عن "الحمام **The Bath**" كانت أوج تراثًا طويلاً من رسم الإناث العاريات بأعداد كبيرة من ناحية. وبداية موضع خصب فى الفن الاستشراقى من ناحية ثانية. فكيف عرض كتاب روسون حمام النساء. (وكذلك حمام الرجال المنفصل) كان اللحم البشرى الوحيد الظاهر فى الصورة لأم ترضع رضيعها فى تحفظ. وكل شخص كان يرتدى ملابسه بالتواضع الشرقى التقليدى. وحتى فى هذه النقطة. عندما كان جمهوره الغربى يتوقع رؤية مختلفة (وربما تدغدع حواسهم) عن العثمانيين. التزم دوسون بما كان يعرف أنه الحقيقة.

وقد ظهر المجلد الأول من الطبعة الفاخرة فى سنة ١٧٨٧م. والثانى فى ١٧٨٩م. ونشر المجلد الثالث والأخير فى سنة ١٨٢٠م، أى بعد موته بثلاث عشرة سنة. على يد ابنه إبراهيم. أما نشر ما كان يأمل فى أن تكون طبعة جماهيرية فقد بدأ سنة ١٧٨٨م.

بيد أن هذه الطبعة أيضا لم تكتمل سوى فى سنة ١٨٢٤م. ولم تثمر خطط ترجمتها إلى الإنجليزية عن شىء إطلاقًا، ولم تثمر أيضا خطط إصدار طبعة باللغة الألمانية فى فيينا، على الرغم من أن أجزاء ظهرت بالفعل فى الألمانية. والسويدية والروسية. على حين نشرت هجينة غريبة فى فيلادلفيا سنة ١٧٨٨م. وقد استولت هذه الطبعة على إغراء "عرض الكثير من القطع الغريبة من نصف الكرة الشرقى. المتعلق بالقدر المسيحى واليهودى. مع طقوس متنوعة وأسرار الماسونيين الشرقيين". لقد خفضت قيمة التقديم المحترم لصورة حقيقية عن الشرق الذى قدمه دوسون. فهناك خاصية تصويرية غير عادية فى كتاباته وفى الصور المرسومة بعناية والتى تجعل كلماته حقيقية على السواء. بيد أن السوق كانت تطلب شيئًا مختلفًا. "قطعًا غريبة". تصور الشبق الجنسى الشرقى. والاستبداد، والقسوة. وعندما اكتملت هذه النشرة فى نهاية الأمر، لم يكن هناك تقريبا جمهور يعول عليه يطلب الكتاب .وبعد مذبحة خيوس سنة ١٨٢٢م، كان هناك عدد قليل من الناس فى فرنسا يريدون أن يقرأوا أى شىء يقدم العثمانيين فى صورة حميدة.

كانت محاولة دوسون للتغلب على الخطاب السائد محكومًا عليها بالفشل. ولم تستطع حتى طبعة المجلدات الثلاثة بالحجم الكبير أن تهدم هذا الخطاب السائد. ولكن الشكل الذى اتخذه الخطاب لم يكن جامدًا بلا حراك. وتشير آسلى شيراكمان Asli Cirakman إلى أن تصور الغرب عن الشرق العثمانى. قد تحرك من التشرذم الواسع للآراء المتصارعة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى موقف العداوة الواحدة المتسقة فى القرن الثامن عشر. وعلى أية حال. استمرت عملية التغير هذه. ولم تكن دائمًا فى الاتجاه نفسه. وفى رأيها. أن الصورة فى الفترة الأولى كانت طغيانا بسيطًا. وبدت فى الفترة الثانية أكثر استبدادًا [٤٠]. ولكن لو أخذنا القصة قدمًا فى القرن التاسع عشر. يتغير الشكل مرة أخرى. فبعد سنة ١٨٢٩م. عندما تخلى العثمانيون عن الحرير والفراء المغرى وخلعوا العمامة لصالح الطربوش وبدلة

الريدينجوت "الإسطنبولى". بدأ الغرب يصورهم على أنهم رجال جدد، سائرون على درب التقدم. بيد أنهم كانوا ما زالوا يحملون الوصمة التى لا تمحى لأصلهم. حسبما كتب جلاد ستون فى هجائه المقذع فى سنة ١٨٧٦م:

"إنهم ليسوا المسلمين المعتدلين فى الهند، ولا أحفاد صلاح الدين الفرسان فى بلاد الشام، ولا المراكشيين المتحضرين فى إسبانيا. لقد كانوا، جميعًا، منذ اليوم الأسود الذى دخلوا فيه أوربا أول مرة، الجنس البشرى الوحيد المعادى للإنسانية ... ومرشدهم فى هذه الحياة نزعة قدرية صارمة، لأن ثوابها فى الحياة الآخرة، فردوس حسى"[41].

وعلى مدى القرون، فى عيون الغرب الأوربى، أُلصقت بالمسلمين الكفار العديد من المظاهر المختلفة[42]. لقد كانوا "الهاجريين"، و "الإسماعيليين"، "السراكنة"، و "المور"، "الأتراك"، "التتار"، "البدو"، "والعرب"، ومع كل مرة كانت صورة الكفار تصبح أكثر دقة. وإذا ما تكلمنا من الناحية المرئية، لم يكن هناك شكل خاص للهاجرى أو الإسماعيلى أو حتى للسراكنة. إنه مجرد اسم. ولكن المور والأتراك والبدو كان لهم صورة مرئية محددة ودقيقة تماما، لقد تم تثبيتهم، بمعنى أن صورة فوتوجرافية قد تم "تثبيتها" بمواد كيميائية وتحويلها إلى صورة دائمة، بالصور المطبوعة وبالأعمال الفنية .

هوامش الفصل الثانى عشر

١- الناقد الروسى ميخائيل باختين ، الذى كتب مع ڤولوسينوف فى أعقاب الثورة الروسية سنة ١٩١٧م نظرا إلى شعارات زمانهما . فالمطرقة والمنجل مجرد أدوات . ولكنهما إذا وضعا سويًا صارا رمزًا ، وشعار الاتحاد السوڤييتى . وقد لاحظ باختين وفولوسينوف "أن أية سلعة استهلاكية يمكن أن تتحول إلى علامة أيديولوجية . مثلا ، الخبز والنبيذ يصيران رمزين دينيين فى الطقوس المسيحية" . وهناك جدل يجرى عما إذا كان هذا قد كتبه فولوسينوف أو ميخائيل باختين تحت اسم فولوسينوف ، أم أنهما كتباها سويًا . وقد أرجعت الفضل لهما سويًا . انظر:

. ٥٠ .Marris (ed). Bakhtin Reader ، p

(٤٠٦.p)

2. It was first published in a large Latin folio at Basel in 1559, and in English in 1563. It went through four editions in Foxe's lifetime: there was a corrected edition in 1570 and two more in 1576 and 1583. Six further editions appeared in 1596, 1610, 1632, 1641, 1684 and 1784. Further versions came out in 1837–41 and 1877, growing larger and more weighty. The edition of 1684 was published in three folio volumes of 895, 682, and 863 pages.
3. Impalement was a significant and evolving trope in Western depictions of the Muslim East. Impalement is a dominant visual element in *Lamenta et ultima disperatione di Selim Gran Turco* (Venice, 1575); see Nebahat Avcıoğlu, 'Ahmed I and the Allegories of Tyranny', in Muqarnas, Part 1, 2001, p. 208. Later in Jean de Thévenot, *Voyages de M. de Thévenot tant en Europe qu'en Asie et en Afrique*, Paris: Charles Angot, 1689, vol. 2, there is an image of impalement in Ottoman Egypt. It depicts an Arab on a camel with burning brands strapped to his arms (so that boiling fat would drip down and burn his skin). In the background are two pyramids, and in front of these two impaled men, one smoking a pipe. The text in Chapter LXXIX, 'The Punishments', criticized Egypt. However, in the Dutch edition of 1723, illustrated by Jan Luyken, the

image is changed. It now depicts a European or Anatolian setting (the dominant camel has vanished and the extraordinarily brutal visual details of the impalement appear in the foreground). See *Alle de gedenkwaardige en zeer naauwkeurige reizen van den heere de Thevenot*, trans. by G. van Broekhuizen, 2nd impression, Amsterdam: N. ten Hoorn, 1723, p. 441.

4. The image is in *Les Chroniques de France ou de St. Denis*, British Library, MS Roy. 16 G VI. f. 412.
5. See the cartouche in Window 11, of the Saracens climbing the walls of Assisi reproduced in Marcel Beck, Peter Felder, Emil Maurer and Dietrich Schearz, *Königsfelden: Geschichte, Bauten, Glasgemälde, Kunstschätze*, Freiburg im Breisgau: Walter-Verlag, 1983.
6. A fifteenth-century French image distinguished Arabs from Crusaders by presenting the former as half-naked savages. The image is in *Les Chroniques de France ou de St. Denis*, British Library, MS Add. 21143. f. 90.

٧- كما يمكن أن نرى في ريشة الخوذة للوردات أودلي **Audley** الذين جاء أسلافهم إلى إنجلترا مع وليم الفاتح في سنة ١٠٦٦م وأسلحتهم ، في اللغة الطريفة لعلم شعارات النبالة ، تتكون من سلاح معلق في الكتف منحنيا ، ويستقر الكوع على إكليل من الزهور، ممسكا بسيف عليه رأس رجل ملتح له مظهر "شرقي". أما الشعار الموضوع أسفل ريشة الخوذة فهو (الموت للظالم) فيجعل الأمر واضحًا .

p.٤٠٨

8. A. W. Kinglake, *Eothen*, London: J. Ollivier, 1847, p. 180.
9. For the range and significance of early images see Strickland, *Saracens, Demons, and Jews*. The inter-relationship between the image and text is not generally well covered: Hélène Desmet-Grégoire's study of eighteenth-century French images of the East is a notable exception; see Hélène Desmet-Grégoire, *Divan magique*.
10. The *OED* gives the first usage as Edward Hall's in *The Union of the Two Noble and Illustrate Famelies of Lancastre and Yorke*, published in 1548: 'Aparaled after Turkey fashion . . . girded with two swords called cimitaries.' It cites Christophorus Richerius, *De rebus turcarum*, published in Paris in 1540, for the statement that the Janissaries called their swords 'cymitharra'. Adolphe Hatzfeld and Arsène Darmesteter in their *Dictionnaire général de la langue française du commencement du XVIIe siècle jusqu'à nos jours, précédé d'un traité de la formation de la langue*, Paris: Librairie Delagrave, 1890–1900 say it has a fifteenth-century origin but are not specific.

١١- تم إدخال الحادثة التركية بناء على الإصرار الشخصي من جانب لويس الرابع عشر الذي كان قد صار على صلة بالأتراك بعد سفارة إلى باريس سنة ١٦٦٥م. انظر:

Fatma Müge ، East Encounters West : France and the Ottoman Empire in the Eigteenth Century، New York

. ٣-٧٢ .pp ، ١٩٨٧ ،N.Y. Oxford University Press

وتقدم جوشيك رواية كاملة عن التأثيرات المتبادلة للروابط بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية.

(٤١٠.p)

12. G. Horton, *The Blight of Asia*, 1922, chapter 19, www.hri.org/docs/Horton/hb-29.html
13. 'Outlandish' moved from its late medieval usage – meaning 'external' – to the later use which had become a term of abuse. See *OED*.
14. That is, it seemed to represent the stereotypical medieval Christian view of the Jew.
15. These included an edition printed by Mikulas Bakalar in Pilsen; a Lyons edition of 1488 printed by Martin Huss (freely adapted with new illustrations); another by Anton Sorg in Augsburg also in 1488; another brought out by Pablo Hurus as *Viaje de la Tierra Sancta* in Saragossa in 1498; see Clair, *History*, and Lucien Febvre and Henri-Jean Martin, *The Coming of the Book: The Impact of Printing 1450–1800*, trans. David Gerard, London: Verso, 1976.
16. Samuel Purchas, *Purchas, His Pilgrimes in Five Books*, London: William Stainsby for Henry Fetherstone, 1625. The copy I have used is British Library BL 984 h.5.
17. One, Lithgow, opined that 'the nature of the Arabs was not unlike the jackals', decried the 'villainy of the Armenians' while noting 'the constancy of the Turks', ibid., p. 1846. 'Sir John Mandeville' was the author of the most famous (and widely read) medieval travel narrative. Mandeville – supposedly an English knight, but this was probably a pseudonym – made his 'travels' in the first half of the fourteenth century. He plainly did go east, but much of his book is the purest fantasy.
18. *Othello*, act 5, scene 2, lines 357–61.

    'In Aleppo once,

Where a malignant and a turbaned Turk
Beat a Venetian and traduced the state,
I took by the throat the circumcised dog
And smote him thus.'

19. On Beham, see M. Geisberg, *The German Single-leaf Woodcut: 1500–1550*, vol. 1, New York, NY: Hacker Art Books, 1974, pp. 268–75.
20. *Türcken Biechlin*, which is written in a south German dialect; see Bohnstedt, 'The Infidel Scourge', pp. 10–11.
21. This topic is not well covered, but I have found useful elements in the chapter on 'Towards an Emblematic Rhetoric' in Manning, *The Emblem*, pp. 85–109.
22. See Certeau, *Writing*, p. 94: 'We admit as historiographical discourse that which can "include" its other – chronicle, archive, document – in other words, discourse that is organised in a laminated text in which one continuous half is based on another disseminated half.'.The 'dissemination' of an image is implicit in the multiplicity and coordination of its visual elements, arranged in predetermined order.
23. See Anna Pavord, *The Tulip*, London: Bloomsbury, 1999, p. 80.
24. Ibid., pp. 48–52.
25. See Dufrenoy, *L'Orient Romanesque*, vol. 3, p. 687.
26. See Marquis de Sade, *120 days of Sodom*, London: Arena, 1989, pp. 263 sqq.
27. The figure was given in a paper by Professor Gary Schwarz at a colloquium led by Professor John Brewer at the European University Institute, Florence. More recently, Schwarz has extended these impromptu remarks; see Gary Schwarz, 'The Shape, Size and Destiny of the Dutch Market for Paintings at the End of the Eighty Years War' in Klaus Bussmann and Heinz Schilling (eds), *1648: War and Peace in Europe*, Vol. 2, *Art and Culture*, Münster: Veranstaltungsgesellschaft 350 Jahre Westfälischer Friede mbH, 1998, pp. 240–42.
28. The text volumes, with their 72,000 articles by 140 contributors, were often held up by censorship. But the plates did not seem to interest the censors and were published at the rate of about one volume a year from 1761. Many of the 2,569 pages of plates showed images on a double-page spread.
29. The 1783 Amsterdam and Paris edition was enlarged to eleven volumes, in a '*Nouvelle édition, enrichie de toutes les figures comprises dans l'ancienne édition en sept volumes, & dans les quatre publiés par forme de supplément par une société des gens de lettres* [A new edition, enriched with all the images in the old edition in seven volumes and the additional four published in the form of supplements by a group of literary gentlemen]'.
30. 'Let the Protestant burin of Bernard Picard exert itself as it will in tracing to us hideous representations of real or imaginary tortures inflicted by the judges of the Inquisition; it signifies nothing, or can only be addressed to the king of Spain.'

Cited in Richard Lebrun, 'Joseph de Maistre's Defence of the Spanish Inquisition' www.umanitoba.ca/faculties/arts/history/spanishinquisition.html

31. On the development of the frontispiece see Corbett and Lightbown, *Comely Frontispiece*, pp. 1–47.
32. Part of the caption reads: the 'successor of Mahomet, Ali, explained the Alcoran to the many people who make up the Mahometan Religion', translated from 'Le Tableau des Principales Religions du Monde' in Bernard Picard, *Cérémonies et coutumes religieuses de tous les peuples du monde, représentées par des figures dessinées de la main de Bernard Picard avec une Explication Historique, et quelques Dissertations curieuses*, Amsterdam: J. F. Bernard, 1733–43.
33. He went back in 1691–2.
34. Marsigli had created his own institute in Bologna and a printing house to prepare his published works. However, he had a number of them published in Amsterdam. See Stoye, *Marsigli's Europe*, p. 309.
35. Copy in the Library of Congress listed as *Voennoe sostianie Ottomanskiia Imperii s eia priraschemiem I ipadkom. Vse ukrasheno grydorovandistami*, St Petersburg: Imp. Akademii nauk, 1737. I have not yet seen this text.
36. Ogier Ghislain de Busbecq, *Travels into Turkey . . . Containing the Most Accurate Account of the Turks, and Neighbouring Nations, Translated from the Original Latin of the Learned A. G. Busbequius*, London: J. Robinson and W. Payne, 1744. This was successful enough to reissue in 1774. The first edition of Busbecq in English had been edited by Nahum Tate and printed by J. Taylor and F. Wyat in London in 1694. It was published as 'The four epistles of A. G. Busbequius concerning his embassy into Turkey; being remarks upon the religion, customs, riches, strength and government of that people. As also as a description of their chief cities and places of trade and commerce. To which is added his advice how to manage war against the Turks. Done into English Epistolae quatuor.' However, Latin editions of Busbecq were also still being published – for example an Oxford edition of 1771.
37. Cited and translated in Findley, 'Ebu Bekir Ratib', p. 48.
38. The page size of an elephant folio volume is twenty-three by fourteen inches.
39. My historical data on D'Ohsson is taken from the extended version of Findley's paper 'A Quixotic Author'. I am extremely grateful to Carter Findley for letting me use his impressive work, which deserves a much wider audience.
40. Cited Çirakman, 'From Tyranny to Despotism', p. 58. Dominique Carnoy presents a rather different picture in her study of French images in *Représentations*.
41. Gladstone, *Bulgarian Horrors*, pp. 12–13. By his second pamphlet of the following year, Gladstone was less violent and more circumspect in his utterances. See *Lessons in Massacre or, The Conduct of the Turkish Government in and about Bulgaria since May 1876*, London: John Murray, 1877.

42. And, as Joseph Conrad observed at the beginning of his Eastern novel *Under Western Eyes* (1911), 'This is not a story of the West of Europe.'

(١٣)

الفن الأسود

المطبعة آلة[١]. لا أخلاق لها. ولكن قوتها هائلة. وقد تخيل الشاعر الحالم وليم بلاك William Blake (الذى كان يعمل بالطباعة) أنه زار «دار طباعة فى الجحيم» وهناك «رأى الطريقة التى كان يتم بها نشر المعرفة من جيل إلى جيل» ورأى «الطباعة بالطريقة الجهنمية، بواسطة القوارض. وهى فى الجحيم مفيدة ولها خصائص علاجية ... لتكشف عن اللانهائى الذى كان مخبوءًا». وحسبما لاحظ بلاك أنه. إذا ما كانت أبواب الفطنة طاهرة نظيفة فلابد أن يظهر كل شىء للإنسان كما هو. لانهائى»[٢]. لقد أوضح، بصورة متطرفة. ثقة معاصريه عموما فى المطبعة باعتبارها عاملاً أخلاقيا. وكانت ثمة جذور بعيدة لهذا الرأى. ولكن فى عصر التنوير كان هناك إيمان شبه عالمى بقدرة المطبعة السحرية على تحويل المجتمع. وكانت الرقابة بمثابة الاعتراف السلبى بهذه القدرة، ولم تعمّر الراحة التى عمت فى القرن الثامن عشر من جراء التحكم فى الكلمة المطبوعة (فى أملاك الهابسبورج وفى روسيا) زمنًا طويلاً. ولكن. ماذا كانت حال أولئك الذين لم ينعموا بفائدة الكلمة المطبوعة؟ لقد عاشوا فى دياجير الظلام، ينتظرون أن يجىء الضوء ويشتاقون إليه. وماذا عن حكومة أدارت ظهرها للمطبعة عامدة. لم يكن من الممكن اعتبارها سوى رمز البربرية؟ .

كان هذا على وجه الدقة موقف الإمبراطورية العثمانية والشرق الكافر. فقد ظن أهل الغرب الأوربى أن العثمانيين «حرموا» المطبعة بسبب دينهم المتحجر المعادى

للمعرفة. الإسلام(*). وفى ظنهم أن رفض الأتراك لهذه البركة الفريدة من الغرب كان مؤشرًا على عمق الشر الكامن فيهم وجوهريته. إذ إنهم بالإبقاء على الجهل إنما يواصلون الاستبداد الذى وصفته آسلى سيراكمان[٣]. وفى اعتقادى أن الجدل حول الطباعة كان بمثابة الصياغة الأخيرة للمسبة والمذمة التى ألصقها الغرب الأوربى بالشرق الكافر. ولكنها كانت إدانة قد عدلت بحرص وضبطت نغمتها بحيث تتوافق مع أخلاقيات عصر التنوير. وما كان قد بدأ مع المسلم باعتباره «شناعة الدمار». ثم استمر على أنه «المسيح الدجال». «العدو الشرير» وكل المذمات الأخرى، انتهى برسم صورة الجهل المنحط. هذا هو النمط الذى كان قد جاءنا عبر العصور حتى اليوم، وما يزال يزدهر فى الغرب. ولكننى أعتقد أن «فشل» العثمانيين فى الأخذ بالمطبعة كان النقطة الأولى التى عندها كان هذا الانحياز قد تم توضيحه بشكل منهجى.

وإذا ما كنت محقًا. فإن هذا الموضوع الغامض. سواء كان أم لم يكن جزءا من آلة كانت أم لم تكن تستخدم فى الطرف القصى من البحر المتوسط. يستحوذ على صدى أعمق كثيرا. وصدمة الغربيين عن «الصحراء الفكرية» فى الشرق كانت ملاحظة شائعة. وقد كتب الرحالة والعالم الفرنسى ڤولنى **C.F. Volney** تقريرا حظى بشعبية هائلة عن رحلاته فى بلاد الشام ومصر فيما بين سنة ١٧٨٣م وسنة ١٧٨٥م. فقد هاله على نحو خاص نقص الكتب. وقد رسم تناقضًا صارخًا. فى فرنسا كانت القراءة شائعة. ولكن «فى الشرق، ليس هناك ما هو أكثر ندرة من الكتب». وعلى مدى ستة أشهر فى منطقة شرق المتوسط وولايات الإمبراطورية العثمانية هناك وجد عدد من النصوص، ولكن الكتب التى اكتشفها كانت فى معظمها مؤلفات قديمة فى النحو والبلاغة، وتفاسير القرآن. وفيما يتعلق بأى موضوع آخر. لم يكن هناك حقا

(*) من المعلوم تمامًا أن الإسلام يحث على طلب العلم والمعرفة. على عكس المزاعم العدائية الأوربية التى حرصت على النيل من الإسلام والمسلمين بشكل مستمر. ولكننا هنا نريد أن نبين للقارئ الكريم أن هذه ليست آراء المؤلف، وإنما هى طريقته فى عرض الرؤية الأوربية بالمصطلحات والأوصاف الأوربية. (المترجم)

أى شىء. «القليل جدا من كتب التاريخ، وقصص وروايات. ورأيت فقط نسختين من «ألف ليلة وليلة». وأخيرًا قرر أنه لم يكن المزعج أنه كان هناك القليل من الكتب الجيدة فى الشرق، ولكن ما أزعجه ألا تكون هناك كتب على الإطلاق. وكان السبب واضحًا. «فى هذا البلد كانت كل الكتب بخط اليد». وكان استنتاج ڤولنى أنه دون المزيد من الكتب لن يمكن أن يحدث تغير رئيسى أو تقدم فى الإمبراطورية العثمانية.

وقد رأى جدارة قليلة نسبيًا فى اللغة العربية، التى جعلت الطباعة أمرًا صعبًا: «تكاليف الطباعة كبيرة، خاصة مع الأخذ فى الحسبان أنه يجب استيراد الورق من أوربا والعمل اليدوى بطىء. وقد أمكن حل المشكلة الأولى ببساطة شديدة. ولكن المشكلة الثانية تحتاج حلاً جذريًا. ذلك أن الحروف العربية لابد أن تُصف يدويا. ويتطلب صفها عناية كبيرة. وانتباها عظيما لكل حرف. وعلاوة على ذلك. تعتمد طريقة صف الحروف على ما إذا كانت تأتى فى جملة. وهناك تنويعات مختلفة فى الحروف فى بداية الكلمة ونهايتها. وأخيرا هناك الكثير من الحروف المزدوجة. وهذه لا يمكن عملها بمجرد مضاعفة الحروف الموجودة. فعلى من يجمع الحروف أن يمشى جيئة وذهابا على الطاولة التى يصل طولها ثمانية عشر قدمًا ليجد الحروف فى تسعمائة صندوق لحروف الطباعة. إن إهدار الوقت على هذا النحو يعنى أن من يطبعون بالعربية لا يمكنهم إطلاقًا الإتقان العظيم الذى تحققه مطابعنا»[٤].

كان الحل الذى قدمه ڤولنى إصلاحًا شاملاً للخط العربى غير الملائم[٥]. وقد كان يتمتع بقدر كاف من الذكاء الحاد بحيث عرف أن مجرد تقديم المطبعة وحدها لم يكن حلاً لمشكلة أشد أصولية: فإن ما كان مطلوبا تحويل شامل للمجتمع الشرقى، بداية من لغته .

وفى سنة ١٧٩١م. عاد إلى الموضوع. وفى ملاحظاته التى ترجمت كثيرًا على أنها «صدام حضارات» ينذر بنهاية العالم والتى أسماها. **The Ruins** أو **Mediterranean on the Revolutions of Empires and the Laws of Nature** بدأ «رحلته» خلال الماضى «فى الأراضى العثمانية وخلال تلك الولايات التى كانت قديما ممالك مصر

وبلاد الشام». وقد كانت نبوءته الفظيعة قائمة على أساس ما كان قد رآه من هذه الأراضى تحت الحكم العثماني؛ في الفصل ١٢ «دروس الماضى تتكرر فى الحاضر»، أرسى النهاية الوشيكة للإمبراطورية العثمانية. فقد صارت كلمة «تركى» صفة تدل على الاحتقار والإدانة. وهكذا. فإن كان واثقًا من أنه مثل العالم المسلم «مادام أن العالم الصينى سوف يستخدم حروفه الحالية فى الكتابة، فإن من المتوقع ألاّ يحققوا أى تقدم فى الحضارة»[٦] فما الذى كانت تملكه أوربا ولا تملكه الإمبراطورية العثمانية أو الإمبراطورية الصينية؟ لم يكن يساور فولنى شك، وعبَّر عن فكرة ما تزال قوية فى أيامنا هذه. رؤية واثقة تحققت بقدر أكبر من النجاح بفضل الوسائط الإلكترونية لدينا. فقد كانوا يفتقرون إلى «موهبة العبقرية الربانية، فن الطباعة المقدس، الذى وفر وسيلة توصيل الفكرة نفسها فى لحظة إلى ملايين الناس وتثبيتها بطريقة باقية. متخطية قوة الطغاة فى القبض أو الإعدام»[٧].

وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا القوة الملحقة «بالفن المقدس» فإننا نحتاج إلى إزالة الالتباس حول الأسباب التى دعت الشرق الكافر إلى الاستخفاف به. لقد صار الفشل فى الأخذ بفن الطباعة الجديد الذى ابتكره جوتنبرج حجر الزاوية فى التخلف الجوهرى الذى وصف به المسلمون. فمنذ القرن الثامن عشر، كان هذا هو التفسير الكافى للتباعد المطرد بين العالم الشرقى والعالم الغربى، فالعالم الغربى يتطلع إلى الأمام والشرق ينظر إلى الوراء. لقد صار هذا جزءا من النموذج التاريخى القياسى، وهو ما أسماه مؤرخ العلوم توماس كوهن Thomas Kuhn «الحالة العادية» للفهم. ومعنى أن تغير هذا النموذج القياسى أو حتى تتساءل عن جدواه أن تدخل فى خضم دوامة عنيفة. ومن الأسهل أن تطرح السؤال بافتراض وجود حقيقة معاكسة بصيغة «ماذا لو» [٨]. ماذا لو كان محمد الفاتح قد دفع ديون المقاول المينزى يوهان جوتنبرج Johanne Gutenberg المتورط. وشحن مطبعته إلى القصر القديم المطل على البسفور؟ (هذا السؤال للتغطية على انتصار محمد الثانى بفتح القسطنطينية ١٤٥٣م) ربما لا يكون هذا مجرد أحمق، ونحن نعرف ما نفعله بانفعالات السلطان محمد وظروف جوتنبرج المالية على السواء. كما أنه ليس أمرًا خياليًا تمامًا، لأن

العالم الإسلامى كان بالفعل رائدًا فى تطور أهم كثيرًا من ابتكارات جوتنبرج الثلاثية. الحرف المعدنى الذى يمكن إعادة استخدامه. وقالب السبك. والمطبعة.

لقد كان الورق أكثر من الطباعة هو الذى أحدث ثورة فى العالم. فلنأخذ سؤالاً آخر معاكسًا للحقيقة. ماذا لو أن يوهان جوتنبرج كان مضطرا إلى أن يطبع كتابه المقدس على المادة الوحيدة المتاحة فى سنة ١٤٥٥م؛ الرق. أى جلود الغنم. والبقر والماعز. ما الذى كان يمكن أن يحدث لاختراعه العظيم إذا لم يكن هناك ورق فى أوربا الغربية. إن دور الورق فى ثورة الطباعة قد مرًّ عليه الجميع مرور الكرام بشكل يدعو إلى الاستغراب[٩]. ومع هذا فإنه بغير الورق. الذى انتقل من الصين إلى العالم الإسلامى ومنه إلى أوربا، فمن الصعب حقًا أن نتخيل تطور النشر فى أوربا.

بدأ إنتاج الورق فى أوربا بإيطاليا فى القرن الثالث عشر. فى أمالفى. جنوب شرق نابولى، وفى فابريانو **Fabriano**. شمال أسيسى **Assisi**. وقيل إنهم كانوا قد تعلموا أسرار صناعة الورق من المسلمين فى اكساتيفا **Xativa**. بالقرب من ڤالنسيا. وقد عملت كل من المدينتين الإيطاليتين على صناعة ورق عالى الجودة. ما لبثوا أن أعادوا شحنه إلى العالم الإسلامى، الذى كان ما زال السوق الرئيسى لذلك المنتج. ولم يحدث حتى سنة ١٣٩٠م أن انتقلت صناعة الورق إلى شمال جبال الألب، مع موظف من مدينة نورمبرج. هو أولمان سترومير **Ulmann Stromeir**، الذى حول طاحونة الدقيق التى يملكها خارج المدينة إلى مصنع ورق. يديره إيطاليون مهرة[١٠]. ولكن الورق الإيطالى كان يتفوق على ما عداه، سواء فى النوعية أو فى سطح الكتابة. وكان السلطان محمد الثانى يشترى الورق من إيطاليا للكتبة العاملين لديه، ولكنه أيضا انشأ مصنعه الخاص لصناعة الورق بجوار المجرى المائى المسمى القاجيثانى **Kagithane** عند رأس القرن الذهبى[١١]. وعلى الرغم من أن صناعة الورق ازدهرت واضمحلت فى مراكز مختلفة لإنتاجه فى العالم الإسلامى، فإنها لم تفشل تماما قط، على الرغم من المنافسة من إيطاليا ومن أجزاء من أوربا فيما بعد. وقد استمر صناع الورق المسلمون فى تجربة أصناف جديدة من الورق وتطويرها لمختلف الحاجات حتى القرن التاسع عشر بالتأكيد. وأنا أعتقد أنه حتى الوقت الحاضر.

قابل روح الإقدام والجرأة هذه بمزاعم التحجر الإسلامى ومعاداة المعرفة التى افترض بعض الأوربيين أنها حالت دون إدخال مطبعة روتنبرج. أو ربما يجب علينا أن نفكر فى الأمر على أنه جرعة مزدوجة من النزعة المحافظة. مادام أن الثقافة الإسلامية التى كانت قد أخذت الورق الصينى قد أخفقت فى أخذ الطباعة الصينية من المصدر نفسه. قبل قرون من جوتنبرج. وإذا كان هذا حقا. فربما كان دليلاً واضحًا على الخوف الفطرى من التجديد. بيد أن هذا ليس حقيقيًا. إن منع الطباعة والكتاب المطبوع يتوارى فى ضباب الغموض. ومن الغريب أن تنسب إليه تلك الأهمية التى ربطوها به فى الغرب[١٢]. وتتكرر القصة نفسها بواسطة عدد من الزوار الذين زاروا الإمبراطورية العثمانية. وكان المصدر الرئيسى رحالة فرنسيا ومؤرخ البلاط لدى كاترين ميديتشى **Catherine de Medici** وهو أندريه ثيڤيت. وقد أخبروه أن :

«الإغريق. والأرمن والمجريين، والأحباش، والأتراك، والمسلمين والتتار هم فقط الذين يكتبون الكتب باليد. والأتراك يطيعون مرسوم بايزيد الثانى إمبراطورهم. والذى أعلن سنة ١٤٨٣م. مهددا بالموت، من يقترف قراءة الكتب المطبوعة، وهو الأمر الذى أكده السلطان سليم الأول ابنه سنة ١٥١٥م»[١٣].

ولكن «وليد قدورة»، مؤلف الدراسة الكبرى عن التطور البطىء للطباعة فى الشرق الأوسط، يتشكك عن حق فى هذه الحكايات التى لم تنقل عن مصادرها الأولية. وأنا أشك فى الأفكار المتداولة عن أن تحريمًا إسلاميًا للطباعة قد ظهر انطلاقًا من الكراهية الإسلامية للصور[١٤].

وهنا يبدو أننا على أرض أكثر صلابة. ذلك أن تحريم الصور قد أخذ على أنه تمايز كلى، ودائم، وغير قابل للتبدل بين الشرق والغرب. لقد تم التعليق عليه منذ الاتصال الأول فى القرون الأولى. وتأكد من احتقار المسلمين لاستخدام الصور الدينية فى الدول الصليبية. ولكنها ليست الحقيقة فى هذه المصطلحات المطلقة. فقد كان هناك تراث طويل من تصوير البشر والحيوانات فى الشرق المسلم، وقد تكاثر هذا التصوير تحت حكم الخلفاء الأمويين فى كل من شرق المتوسط وإسبانيا،

وما يزال من الممكن مشاهدته في الأشياء التي بقيت من قصورهم[١٥]. وانتعشت الفنون المرئية والتصويرية بشكل خاص تحت الحكم العثماني، وأيضا بشكل ظاهر. في فارس والهند تحت الحكم المغولي. ولكن على خلاف العالم المسيحي، لم تلعب الصور البشرية والحيوانية في العالم الإسلامي أي دور في الفن الديني[١٦]. وإذا تم تصوير النبي محمد أو أحد خلفائه بصورة استثنائية لسبب ما، فإن وجوههم كانت دائما محجوبة لا مرئية.

هكذا تتهاوى المطلقات النظرية، ويتبدل ما يفترض أنه لا يقبل التبدل. وكلما تعمقنا أكثر في موضوع الصور والطباعة. نكتشف عند كل نقطة أن هناك التباسات غير متوقعة. وعندما تختبر الفروض الراسخة منذ زمن طويل عن الشرق، يبرز فورا الانحراف الشاذ عن القاعدة والحالات الاستثنائية. وقدكتب دانييل جوفيمان Daniel Goffiman أن البلاد العثمانية في حقيقتها أنها. عالم تحكمه الاستثناءات»[١٧] وهذه مراجعة مذهلة لمواقف دامت طويلاً. ومنذ ذلك الحين افترضت معظم الدراسات عن الشرق أن تنظيم الحياة وفقا لما هو مدون في التشريعات، والترتيبات وقوانين السلف وسلوكهم كان يطبق بالضبط على الحياة اليومية الحقيقية. ولهذا السبب فإن بوسبك. الذي كتب في القرن السادس عشر. كان ما زال حجة له قيمته في القرن الثامن عشر. كذلك فإن كثيرا من الشرقيين اعتقدوا أيضا في القيمة الحامية لنظام مستقر في العالم. وأولئك الذين زاروا الغرب غالبا ما أخذوا خاصية التنظيم هذه على أنها أفضل ملامح عالمهم مقارنة بما شاهدوه ورأوا فيه اضطرابًا في الغرب[١٨].

ولكن عالمهم الشرقي لم يكن أكثر جمودًا مما كان الغرب الذي حسبوه بلا جذوره وفي حال من التغير المستمر. وهناك تفرقة مهمة تتعلق بالمطبعة. ولم تكن أسباب عدم اتخاذ الشرق المطبعة عندما صارت متاحة لأول مرة في القرن الخامس عشر، راجعة إلى معاداة المعرفة إراديا ولا إلى خوف ساذج من الكلمة المطبوعة. لقد كانت هناك أسباب أخرى أكثر دنيوية. فعلى مدى قرون عديدة، برهن الخط العربي على نجاحه غير العادي في الشرق. فقد استخدم في كتابة اللغة العربية. واللغة التركية. واللغة

الفارسية واللغة العبرية. وعلى أية حال، فإنه لم يكن متوافقا تمامًا فى نقل الصيغة المنطوقة لأى من هذه اللغات إلى شكل مطبوع. فهناك ثمانية وعشرون صوتًا فى اللغة العربية المنطوقة. يمثلها ثمانية عشر حرفًا. وقد وضعت النقاط فوق أو تحت بعض الحروف، بحيث تغير أصواتها وتعدلها. على حين أن حروف الحركة لم تكن تسجل على الإطلاق. وحتى عند الحديث باللغة العربية. دعك من اللغات الأخرى التى تستخدم الخط العربى، كان المصدر الشفاهى هو الذى يعول عليه أكثر من النص المكتوب. خاصة إذا كان المتحدث قد تذكر الكلمات التى كان قد سمعها .

وقد أدى تطور تقاليد الخطوط فى الغرب طوال العصور الوسطى إلى وضع تقنين بعينه لممارسات الكتبة. ولكن كانت هناك تنويعات وحالات عدم انتظام كثيرة. وفى مناطق معينة، مثل قاعة المحكمة، بقى السجل المنطوق هو النص الدقيق والحقيقى (وفى بعض الظروف ما يزال النص المكتوب يعتبر ثانويًا)[١٩]. وقد تم الاعتراف بتفوق الشكل المنطوق ولكن مكانته أخذت تتضاءل حتى قبل عصر الطباعة. ومع الطباعة تم بالتدريج عمل مستوى قياسى للأعراف والتقاليد. واستبعدت التنويعات. ففى إنجلترا القرن الخامس عشر بذل الطابع الشهير وليم كاكستون William Caxton الكثير من الجهد لتثبيت لهجة لندن لتكون شكل الكتاب المطبوع. وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أخذ الطابعون يسقطون باطراد أشكال الحروف المختلفة والمغايرة كلما استطاعوا. لأن المزيد من الحروف كانت تزيد من التكلفة عندهم، سواء فى حروف الطباعة أو فى بطء عمل من يقومون بصف الحروف. وعملية. التنقية» نفسها حدثت فى كل من اللغة الفرنسية والألمانية .

وقد أوجد صف الحروف فى اللغة العربية مشكلات فريدة. وحسبما لاحظ فولنى فى البداية، لم تكن الطباعة سهلة بالعربية. وقد حلل جوناثان بلوم Jonathan Bloom السبب فى هذا. فالعربية فى جوهرها لغة تكتب بخط اليد المشبّك. على حين أن جميع اللغات الأوربية تتكون من حروف مفردة تصلح كلها للكلمات التى تصف فى الطباعة حرفًا بحرف. وأشكال الحرف العربى تتغير أيضا، اعتمادا على المكان

الذى يظهر فيه الحرف فى الكلمة. ولم يكن خلق البنط العربى واستخدامه فى الغرب شيئا يمكن لمعظم الطابعين التجاريين أن يروا فى القيام به شيئًا معقولاً لأنهم كانوا سيحتاجون إلى خمسمائة قطعة مختلفة من أشكال الحروف على الأقل. والبنط الذى استخدمه نابليون لطباعة الوثائق باللغة العربية فى أثناء غزو مصر سنة ١٧٩٨م كان له سبعمائة حرف مختلفة. وفى مقارنة سريعة. فإن لوحة طباعة «رومانى» ربما كان يحتوى على مائتين وخمسين حرفا مختلفًا (أعلى وأسفل. ورموز التنقيط وما إلى ذلك). وكل المشروعات الباكرة فى الغرب بإيطاليا وغيرها لخلق بنط للحرف العربى كانت تحتاج عادة لدعم أحد الرعاة الموسرين (مثل الكاردينال فرديناندو دى ميديتشى فى سنة ١٥٨٥م) لكى يساند المشروع لأسباب إيديولوچية أو لأسباب تتعلق بالوجاهة والمكانة[٢٠]. وكان أحد الأهداف المباشرة تقديم مادة الصلوات للمسيحيين الشرقيين الذين كانت العربية لغتهم. وكانت روما تخشى أن يكسبهم البروتستانت إلى جانبهم من خلال النصوص المطبوعة باللغة العربية أو يكسبهم الأتراك العثمانيون الذين يدعمهم الهراطقة من الأراضى الواطئة. وإنجلترا. والسويد وألمانيا [٢١].

ولم يتم إنتاج كتب مخطوطة عربية كثيرة فى أوربا ولم يستطع أحد أن يوائم بين كل الفروق الدقيقة والتزويقات فى النصوص العربية المخطوطة. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت المقارنة تجرى بين هذه الكتب العربية المطبوعة وأعمال أى خطاط وناسخ ماهر فى الأراضى العثمانية. ولم تكن المقارنة فى صالح الكتب المطبوعة. ولم يكن هناك نقص فى أولئك الراغبين فى الدخول فى هذه الحرفة. وقد أشار لويجى فرديناند مارسيجلى أنه كان هناك أكثر من ثمانين ألف ناسخ يعملون فى إستنبول فى ثمانينيات القرن الرابع عشر على الرغم من أن الرقم الذى أورده كان يتضمن قطعًا العديد من كتبة الرسائل وكذلك نساخى الكتب. وكان من الأقوال الشائعة أن القرآن أنزل فى مكة. وتلى فى القاهرة وكتب فى إستنبول. كانت طريقة إنتاج الكتاب فى الشرق شفاهية فى العادة: إذ كان العالم يُملى من الذاكرة

على مجموعة من الكتبة. أما فى العالم المسيحى، فقد اشتهر توماس أكويناس (توما الأكوينى) بأنه كان يُملى أربعة كتب فى الجلسة نفسها على أربعة سكرتيرين مختلفين، وهو ينتقل ما بين سكرتير وآخر للحفاظ على إيقاع العمل.

وبالنسبة للعالم المسلم كانت العملية أكثر آلية. وربما كان دستة من الكتبة يكتبون النص نفسه من إملاء واحدة. وما إن تتم عملية الكتابة، حتى يعيد كل كاتب قراءة ما كتبه حتى يضمن الدقة، ويشهد العالم أن النسخة صحيحة. وبسرعة شديدة كان يمكن إنتاج أكثر من مائة نسخة بالنسخ والتصحيح المنتظم [٢٣]. وكان هناك أيضا عدد كبير من المكتبات فى العالم المسلم على نطاق أكبر كثيرًا من تلك الكائنة فى الغرب. وكانت كثير من هذه المكتبات تشكل جزءا من مجمعات المساجد وكانت معظم النصوص التى تحويها نصوصا دينية بطبيعتها. ولكن كان هناك أيضا تقليد مجموعات الكتب الخاصة فى المكتبات التى تُفتح للعامة. وكانت هناك مكتبات عامة كبيرة فى العاصمة ولكن فى كثير من الأماكن الأصغر أيضا كانت توجد المكتبات. وفى القدس، كانت مجموعة الخليلى تضم أكثر من سبعة آلاف مخطوط بالعربية. على حين احتوت مجموعة رجيب الخالدى على أكثر من عشرة آلاف كتاب باللغة العربية، والتركية والفارسية عندما فتحت للعامة فى بواكير القرن العشرين[٢٤].

وفى القرنين الأولين بعد جوتنبرج، لابد أن أرباح الطباعة بدت مسألة تثير التساؤل فى الشرق الذى كان يستخدم الخط العربى، ولكن بنهاية القرن السابع عشر كان واضحًا أنه من بين الأشياء ذات الطبيعة التقنية، كانت للنص المطبوع مزايا عظيمة. وعلى أية حال، فإن تقديم هذا الابتكار الغربى كان لابد وأن يهزً عدة مصالح راسخة قوية. كان أولها النساخون والكتبة الذين كانت الإدارة العثمانية كلها تعتمد عليهم؛ وثانيها، طبقة العلماء الذين كانوا يسيطرون على المساجد حيث كان يتم الكثير من أعمال نسخ الكتب، والكثير من النصوص التى يمكن لعامة الناس الاطلاع عليها موجودة فى المساجد. وقد حرص المحبذون للطباعة على أن يأخذوا فى اعتبارهم اعتراضات العلماء. والوثيقة التى قدمها واحد من أهالى ترانسلفانيا اعتنق الإسلام

واسمه إبراهيم متفريقة فى سنة ١٧٢٦م للوزير الأعظم تؤكد على الفوائد الكثيرة للأسلوب الجديد، ولكن بصفة خاصة «نشر القواميس. والتواريخ. والنصوص الطبية وكتب العلوم والفلسفة والفلك. والمعلومات حول الطبيعة والجغرافيا وكتب الرحلات». وتماما مثل الحكي، وعلى الرغم من التأكيد. بأن الدولة العثمانية المجيدة تملك المدافع التى تهدر مثل الرعد. والقنابل المخيفة، والبنادق القوية» ومن ثم فلا يوجد شيء تتعلمه من الغرب فى فن الحرب. فإن التكنولوجيا العسكرية كانت لها الأسبقية العظمى فى ذهن الحكومة العثمانية[٢٥]. وعلى مدى ثلاثين سنة بعد الفشل في الاستيلاء على ڤيينا سنة ١٦٨٣م. كان العثمانيون يتعرضون للضرب بشكل مستمر من جانب جيوش الهابسبورج. فقد كانوا يأملون أن يتعلموا الأسرار العسكرية للغرب بعيدًا عن الكتب.

وكان سماح السلطان باستقدام الطباعة باللغة التركية العثمانية قد حصرت بعناية فى دائرة ضيقة. فقد استبعد جميع الكتب المتعلقة بالدين والشريعة. والتى كانت جزءًا من الساحة الدينية). التى بقيت بشكل ثابت جزءا من تقاليد المخطوطات. لم يكن الشخص الرائد فى استقدام الابتكار الغربى هو إبراهيم متفريقة المتواضع. ولكنه كان رجلاً أكثر بروزًا فى المؤسسة العثمانية. فقد صدر الأمر إلى الطابع وإلى محمد سعيد باشا. الذى كان قد صحب والده محمد باشا فى سفارة عثمانية إلى فرنسا. وكان المرسوم قد حصل على موافقة السلطات الدينية فى إستنبول. فى «غلطة» (عبر القرن الذهبى) وفى سالونيكا، وكذلك شيخ الإسلام. أعلى شخصية دينية فى الإمبراطورية. وقد موّل سعيد باشا العملية كلها، فاستوردوا المطبعة نفسها من فرنسا، ودفع للطباعين المهرة من ڤيينا. وتصرف باعتباره الراعى والحامى للمشروع البادئ. وبصورة ملائمة، تبين صورة سعيد باشا. التى رسمها چاك آڤيد Jacques Aved سنة ١٧٤٢م، الرجل ويده موضوعه على كتاب، وهو ما يعنى فى تقاليد الفن الأوربى أنه ملتزم بالفن والثقافة[٢٦].

ومع ذلك فإن هذه المطبعة الأولى، التى عملت لمدة ثمانية عشر عامًا، لم تنجح إلا فى طباعة ثلاثة وعشرين كتابًا فقط. وكتاب واحد فقط من هذه الكتب، هو أولها،

عبارة عن قاموس عربى مترجم إلى اللغة التركية العثمانية، هو الذى أعيدت طباعته. كان هذا الإخفاق راجعًا جزئيًا إلى أن الوزير الأعظم إبراهيم باشا الذى كان قد دعم المطبعة قد قتل على أيدى الإنكشارية عند خلع السلطان أحمد الثالث فى سنة ١٧٣٠م، لينهى بذلك عصر زهور التيوليب. وعاد الشك فى الابتكار الأوربى إلى الظهور. ولكن الحقيقة الأعظم أن الطلب على المطبعة كان قليلاً.

وتتضح الأسباب أكثر قليلا إذا ما تأملنا المسألة لا فى ضوء الانحياز ضد المطبعة وإنما فى ضوء الموضوعات المسموح بها. وقد حددت الإدارة العثمانية هذه الموضوعات بشكل صارم للغاية. وحسبما أوضح ڤولنى، وهو ما أثار امتعاضه إلى حد ما، كان الدين والشريعة بالفعل مادة غالبية الكتب المخطوطة. وفى أوربا القرن الخامس عشر، بالمثل، كان الدين والقانون الفئات الأكثر شعبية ونجاحًا فى المطبوعات الأولى، لتغطى أكثر من ثمانين بالمائة من جميع العناوين المنشورة[٢٧]. وهكذا فإن المطبعة التركية، التى تنتج النصوص فى اللغة التركية العثمانية، لم يترك لها سوى شريحة صغيرة من السوق، وقدر غير كاف من المنشورات لا يمكنها من تطوير الشبكة اللازمة للتوزيع والانتشار. أضف إلى ذلك حقيقة أن الكتب الأولى لم تكن ذات جاذبية كبيرة عند مقابلتها بالكتب المكتوبة بخط اليد الفاخرة. ولم تكن الحروف خشنة نسبيا فحسب، ولكنها كانت فى الغالب مصاغة على أساس أسلوب شمال أفريقيا. وتأمل هذه العوامل والأسباب الكامنة وراء الفشل الأولى للطباعة يقلل كثيرا من الاعتبارات الإيديولوچية .

ولكن هل كان لأسباب دينية أن الإدارة حرمت طباعة الكتب الدينية؟ أعتقد أن هذا أيضا يحتاج أن نراه فى سياق أوسع. فلم يكن العثمانيون يجهلون التقسيمات التى سببها الانقسام الدينى فى أوربا. فالواقع أنهم استفادوا من هذا فى النواحى السياسية والاقتصادية على السواء. وكانوا يدركون أيضا أن الكلمة المطبوعة كانت قوه فعالة فى التسبب فى هذا الانقسام. كانت الطباعة مسموحًا بها فى نطاق الأقليات المسيحية واليهودية. وبلغاتهم وبالخط العربى أيضا (ولكن ليس باللغة العثمانية).

وعلى أية حال، كانت هذه هى الكتب التى خدمت حاجات جماعاتهم ولم يكن لها تقريبا أى انتشار خارجها. كانت الكتب العربية تستورد من إيطاليا، وفرنسا، وأراضى الهابسبورج. على الرغم من أنه كانت هناك قيود قاسية على هذه التجارة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. كانت الاستجابة للكلمة المطبوعة، حتى بالخط العربى استجابة واحدة: فى بعض الأحيان كان يُسمح بالكتب المطبوعة، وفى أوقات أخرى لم يكن مسموحًا بها. ويبدو أن القلق السياسى الرئيسى للحكومة كان ينصب على الكتب المطبوعة باللغة التركية العثمانية، التى كانت اللغة الشائعة فى الإمبراطورية.

كان جوهر وجود الإمبراطورية العثمانية السيطرة، ولكن السياسة فى كيفية ممارسة هذا بأفضل طريقة كانت فى حال دائم من التبدل. ومن الناحية النظرية كانت حكومة السلطان تسيطر على كل شىء، ولكن فى الممارسة، وفى الولايات البعيدة، ربما كانت هذه القوة وهمية تمامًا[٢٨]. كان الترخيص بالطباعة محكومًا بشروط صارمة، مع وجود شيخ الإسلام أعلى سلطة دينية فى الإمبراطورية رئيسا للهيئة التى تمنح التراخيص، فى محاولة للسماح بالتطور مع مواصلة السيطرة فى الوقت نفسه [٢٩]. كانت حكومات أوربية كثيرة، لا سيما تلك الحكومات الموجودة فى البلاد الكاثوليكية، أيضا تعدل وتوائم نظمها لتحقيق أعلى مستوى من الحماية ضد المواد غير المرغوبة (الهرطقية والحساسة سياسيًا، والفاجرة والأدب المكشوف). ولم تحقق هذه الإجراءات النجاح بدرجة واحدة[٣٠]. فقد كانت الحكومات فى الغرب تفضل أن تحتفظ بزمام الكلمة المطبوعة بدلاً من أن تسمح لها بالتطور المنطلق بلا قيود. ويتضمن تاريخ فترة ما بعد عصر النهضة أمثلة لا حصر لها عن محاولات الحكومات لترويض الطباعة من خلال الرقابة، أو الاضطهاد أو المشنقة[٣١].

وربما لو كان قد سمح للطابعين بإنتاج الكتب الدينية والقانونية فى الإمبراطورية العثمانية، لنمت هذه الصناعة بسرعة أكبر. بيد أن ذلك ليس مؤكدًا، مع الأخذ فى الاعتبار هشاشة أى سوق للكتب وعدم وجود نظام للتوزيع. وهناك تقدير بأنه فى غضون القرن الذى انصرم فيما بين تأسيس مطبعة متفريقة وموت السلطان محمد

الثانى الإصلاحى العظيم سنة ١٨٣٩م لم يكن هناك أكثر من ٤٣٩ عنوانا منشورا باللغة التركية العثمانية[٣٢]. وقد زاد الإنتاج بشكل مثير فى أثناء القرن التاسع عشر. ولكن فى النهاية لم يزد عدد العناوين المطبوعة عن عشرين ألف عنوان قبل سنة ١٩٢٨م. عندما اتخذت الجمهورية التركية الحروف اللاتينية. هذا التطور البطىء نفسه فى سوق الكتب قد أثر فى كافة مناطق الأراضى التركية فى أوربا، والواقع أن الجماعات اليونانية والسلافية كانت على هامشها[٣٣].

كانت عناوين متفريقة الأولى هجينًا غريبًا. فإنها بدأت بتقاليد تجليد المخطوط الإسلامي ومظهره. ولكن على خلاف معظم الكتب الإسلامية. كان بعضها مزينًا بالرسم. وكان الكتاب الثاني الذى نشر تقريرًا مترجمًا عن نص للجيزويت عن ثورة دموية فى أفغانستان. وبه رسوم، وكان الكتاب الثالث تاريخا لجزر الهند الغربية ومجموعة من الحكايات الخرافية، مزينة تماما بالرسوم. وكان لإحدى القصص صورة شجرة تحمل نساء بدلاً من الفاكهة. يتساقطن على الأرض حينما ينضجن. وهن يصحن «واك. واك». وعلى حد تعبير الراهب جيامباتيستا تودرينى **Giambattista Toderini**. الذى نشر تاريخه الضخم عن الأدب والموسيقى التركية فى سنة ١٧٨٧م. فإن هذه الشخصيات. صارت غاية فى الشعبية بحيث إنها كانت تُنسخ وتعرض فى الاحتفالات الرسمية، على حين كان المشاهدون يصيحون «واك. واك». وعلى الرغم من هذه الإشارة إلى اهتمام العامة، فمن المستحيل أن نعتبر المشروع ناجحًا. فقد كان متوسط الطبعة ألف نسخة وكانت المجلدات تتكلف الكثير.

ولم يكن الحرف المطبعى الذى ابتكره جوتنبرج. وإنما كان فن الطباعة على الحجر الذى اخترعه آلويس سنفيلدر **Alois Senefelder** سنة ١٧٩٨م. هو الذى جعل من الممكن وجود سوق جماهيرى للكلمة المطبوعة بالخط العربى[٣٤]. وكانت طباعة الحروف قد تحسنت بعد إنتاج «فونطات» عربية جديدة. وأنشأ محمد على باشا، حاكم مصر، مطبعة كبيرة فى حى بولاق بالقاهرة ١٨١٥م[٣٥]. وتم تأسيس مطابع جديدة فى القسطنطينية. وعلى الساحل الآسيوى أوسكودار. ولكن المشكلة

الأساسية فى طباعة الخط العربى كانت قد تغيرت. ولم تختف جوانب القصور الكامنة فى حرف جوتنبرج سوى باختراع فن الطباعة على الحجر. فمع الطباعة على الحجر. بدلاً من الطريقة الشاقة لرص الحروف. أمكن طباعة النص المكتوب. باليد كما هو مكتوب بالضبط. وأمكن رسم الرسوم على ألواح النقل أو مباشرة على سطح أحجار الطباعة التى تم صقلها بعناية. وكانت النوعية الناتجة جيدة، بل أمكن استخدام مجموعة مختارة من الألوان. وتمت طباعة أول كتاب بطريقة الطباعة على الحجر فى اللغة التركية العثمانية في باريس، وليس فى إستنبول. على يدى بيانشى **T.X.Bianchi** فى سنة ١٨١٧م. وقد وصلت أول مطبعة بالحجر فى الإمبراطورية العثمانية إلى إستنبول حوالى سنة ١٨٣٠م. وتمت إقامتها على أرض وزارة الحربية. تحت رعاية خسرو باشا، على أيدى اثنين من الطباعين الفرنسيين المشهورين من مارسيليا. هما هنرى وچاك كايول **Henry and Jacques Cayol**. وكان الكتاب الذى ألفه راعيهما (خسرو باشا). الذى اكتمل بتسع وسبعين صورة، أول منشوراتهما فى سنة ١٨٣١م[٣٦].

وبمنتصف القرن التاسع عشر. تمت ميكنة عملية الطباعة بالحجر، التى كانت فى أيامها الأولى تتطلب مهارة كبيرة لتجهيز الأحجار والطباعة بدقة. واستخدمت ألواح الزنك بدلاً من الحجارة بصورة متزايدة. وازدهرت مجلة عثمانية منذ أواخر ستينيات القرن التاسع عشر وكانت توزع فى جميع أنحاء الإمبراطورية. وهكذا. بارتقاء السلطان عبد الحميد الثانى العرش سنة ١٨٧٦م، كان العالم العثمانى يمتلك الصحف والمجلات والطباعة والتصوير. لا تختلف عن العالم الأوربى سوى من حيث مدى انتشارها. كانت هذه علامات الحداثة والمدنية، فى مجتمع بقى إلى حد كبير، ريفيا. أميا. محافظًا. ومقاومًا للتغيير بشكل حازم[٣٧].

* * *

وهكذا جاء الفن الأسود. طباعة الحروف- متأخرًا إلى العالم العثماني. وفي الغرب كان قد اكتسب هذه الكنية لأن الطباعة كانت عملاً كريهًا وكان الطباعون ملطخين بالحبر دائما. ولكن هذه العبارة تعنى شيئًا آخر أيضا. ففى الغرب، مع استثناءات نادرة وثمينة، كان لابد من طباعة أى كتاب جيد بالحبر الأسود على ورق أبيض أو على الرَّق. وعادة ما كانت الصور تطبع بالحبر الأسود أيضا. وفى بعض الكتب. مثل الكتاب المقدس أو كتب الصلوات، كان يمكن طباعة بعض الحروف أو الجمل بالحبر الأحمر «عناوين». وقد جاءت عبارة «a red letter day» الإنجليزية، ومعناها «يوم ميمون حافل بالبشر»، من ممارسة بيان أعياد الكنيسة والاحتفالات باللون الأحمر في «كتاب الصلوات العامة». ولكن حتى الاستخدام العام للون فى الطباعة أواخر القرن التاسع عشر. حتى الكتب المطبوعة الفاخرة والمكلفة كانت مطبوعة بلون واحد. وفى تقاليد المخطوطات الأقدم زمنًا. بطبيعة الحال. ربما كان الكتاب يتضمن رسومات وزخرفة بألوان متعددة. ولكن مملكة اللون بعد «ثورة جوتنبرج» كانت قد استسلمت للطابعين ورسامي الصور المصغرة. أما فى الشرق. على العكس. فقد استمر تجميل الكتب وتزويقها. وكان مزخرفو الكتب ورساموها ينالون مكافآتهم فى بلاطات العثمانيين والفرس والمغول، ولم يكن ليطرأ على الفكر تقريبا أن يكون الكتاب غنيًا باللون. وكانت كتب كثيرة تُعزز بصور الأشكال الآدمية والحيوانية، التى كان الأوربيون يفترضون أنها محرمة داخل عالم الإسلام فى حوض البحر المتوسط.

ولكنها حقيقة أيضا أنه لم يكن هناك فى أى مكان بالأراضى العثمانية. ولا حتى فى القاهرة التى عمل محمد على بجسارة على تحديثها. شيء شبيه بذلك التقاطر البطيء للصورة المطبوعة فى مجتمع أمي بدرجة كبيرة على نحو ما حدث فى الغرب. ففى الأراضى العثمانية «التى تتمتع بحماية جيدة». وحتى منتصف القرن التاسع عشر، فى المدن والبلدات، لم تكن هناك أية صور دينية، وكانت هناك رسوم قليلة لأشخاص. أو رسوم كاريكاتورية. وكانت هناك فى الحقيقة ندرة فى الصور العلمانية من أى نوع. وفى الريف فيما بين الفقراء والأميين، لم يكن هناك شيء على الإطلاق.

وبالنسبة لكثير من المسلمين، كانت الصورة المرئية التي رسمتها يد بشرية شيئًا عبثيًا تمامًا وغير مفهوم. لقد كانت الصورة ببساطة فئة من الشر مثل الشيطان نفسه. فلم تكن دينية، إنما كانت بدعة ينبغي تحاشيها وتجنبها. فقد تشكلت حول الكلمة المنطوقة، والتي ترجمت أمجاد الطبيعة في الشعر وليس بالصورة. ولم يشارك عالم الإسلام في الوعي الأيقوني الذي كان شائعًا في جميع أنحاء الغرب، حيث كانت الصور جزءًا من الثقافة التي تطورت في كل بلد أوربي. وحتى أولئك البروتستانت الذين حرموا التماثيل في الكنائس، وأنزلوا صور القديسين والشهداء ومريم العذراء تحت الأقدام، تقبلوا الصور في النطاق العلماني عادة. وعلى أقل تقدير، كانوا يعرفون ماهية الصور. أما الموقف في الشرق المسلم فكان مختلفًا تمامًا. وكان برينكلي مسيك Brinkley Messick قد صك العبارة الذائعة «دولة الخط اليدوي». في وصفه المجتمع اليمني الذي عاش بغير صور وكانت تحكمه الكلمة المكتوبة[٣٨]. وقد تأسس مفهومه على قوة الخط المكتوب وأهميته في التراث العربي. ولكن الكلمة المكتوبة في ذلك التراث كانت بحد ذاتها ظلاً للكلمة المنطوقة فحسب. لقد كان الصوت البشري أقوى كثيرًا من أي شكل من أشكال الكتابة، لأنه يمتد بفعل لغة الجسد، النغمة الصوتية وتغيراتها، بل حتى بحضور المستمعين الذي يبعث على النشاط ويولد الطاقة[٣٩]. لقد كان جوهر الإسلام تلاوة (القرآن) ثم تدوينه في (كتاب). وربما لم يكن ذلك الكتاب نصًا ماديًا، وإنما كان كتابًا ماثلاً في الذهن فقط[٤٠]. لقد كانت النصوص المكتوبة بالعربية مشبعة بشيء من هذا الكتاب الإلهي، ولكن حتى الخط الذي جرى تقديسه لم يكن ليقدر على التعبير سوى بصورة ناقصة عن العظمة الشفاهية التي لا توصف للقرآن الكريم.

لم يكن هناك مكان عام للصور المطبوعة في هذا العالم. إذ كانت في معظم الأحوال موجهة للمتعة الفردية من جانب القلة المتعلمة. وقد وصف أسين آتيل Asin Atil تطور الأستوديو الإمبراطوري الذي أنتج الصور ذات الرسومات[٤١]. وفي هذا الأستوديو تخصص بعض الفنانين في الخط اليدوي خاصة التوقيعات السلطانية الفخمة (الطغرة). أمَّا رسامو «البورتريه» أي الصور الشخصية، بسبب مهارتهم

فى تصوير الشكل الآدمى، فكانوا مجموعة فى الأساس ولكنها مجموعة هامشية وحصرية داخل الأستوديو وقاصرة على من يعملون بها من الفنانين المستقلين. كان هناك كثير من الفنانين يعملون بشكل خاص فى العاصمة، ولكن قلة منهم هم الذين أعلنوا أنهم رسامو صور آدمية. ومن المؤكد أن السبب فى ذلك كان راجعًا بصورة جزئية إلى العار الذى كان يمكن لهذا النشاط أن يجلبه. فما كان مناسبا للسلطان كان يحمل الكثير من المخاطر للفنان الفرد أو جامع اللوحات الفرد. وكان بعض السلاطين منذ محمد الفاتح فصاعدًا يأمرون بطباعة كتب مليئة بالصور كما جمعوا كتبًا محلاة بالرسوم من مختلف المصادر أيضا. وكانت كلها تخزن مع الكنوز الأخرى للاستخدام الخاص للسلطان فى الخزانة الداخلية بقصر طابوقابى سراى.

كان إنتاج هذه الكتب فى القرن السادس عشر. والتواريخ بصفة خاصة. عملاً من أعمال الدولة، يضفى طابع العظمة على مجرى التاريخ العثمانى وانتصارات الجيوش العثمانية تحت حكم السلاطين. ومن ثم فقد صورت المسلمين وغير المسلمين، ولكن يظهر فيها قدر أقل كثيرا من العدوانية التى تحكم الكثير من التصورات الأوربية عن الكفار. ففى لوحة لوكمان **Lokman** التى تحمل اسم **Hunemame**. مثلاً. يظهر الغربيون فى صورة شخوص بشرية عادية. ففى إحدى الصفحات يظهرون وقد تملكهم الضجر والملل. وبعضهم يلعب النرد. وعدد قليل منهم يطلقون مدفعهم على الجيوش العثمانية، ورجل واحد نائم على قطعة مدفعية. ولا يظهر فى الصورة واحد فى صورة شريرة [٤٢]. وهذا، بطبيعة الحال، لا يقول شيئًا عن المواقف الشعبية. لأن هذه الصور كانت ستشاهد فقط بعيون القلة الممتازة[٤٣]. ولكن مثل هذا التقديم فى وثيقة دولة من الواضح أنه كان مناسبًا ومقبولاً بالنسبة للسلطان العثمانى. وربما كان الغربيون يشتمون ويسبون بالكلام أو الكتابة، ولكنهم كانوا يرسمون فقط بوصفهم موضوعات تثير الفضول.

ونسخ القرآن المزخرفة بشكل فاخر شائعة ومنتشرة ولكن من المستحيل قبول نسخة من القرآن بها صور بالطريقة التى تطبع بها الكثير من نسخ الكتاب المقدس

المصورة[44]. والصور التى تحمل وجهًا بشريًا أو شكلاً حيوانيا لعبت فى غالب الأحيان دورا هامشيًا فى تشكيل ثقافة المسلم. فبالنسبة لأغلبية المسلمين، بخلاف المجموعات الصغيرة من المثقفين فى الحضر، لم تكن الصور شيئًا مفهومًا. وأقرب موقف لفهمي هذا الموقف وصفه الكاتب ألبرت مانجيل **Albert manguel** فى كتابه المغرى، **History of Reading**. ويحكى مانجيل كيف أنه كان فى سنة ١٩٧٨م يعمل لدى ناشر فى ميلانو. وذات يوم وصلته حزمة:

« كانت تحتوى، بدلاً من المخطوط، مجموعة كبيرة من الصفحات التى تحمل رسومًا، ترسم عددًا من الأشياء الغريبة والعمليات المفصلة ولكنها غريبة وتحت كلام بخط لم يتعرف عليه أحد من المحررين ... ولأنه مكتوب كله من كلمات وصور مخترعة فإن شفرة سيرافينى **Codex Seraphianus** [نسبة إلى مؤلفها لويجى سيرافينى] فيجب قراءته دون مساعدة أية لغة عامة، من خلال علامات لا معنى لها سوى تلك المعانى التى وضعها قارئ مستعد ومخترع»[45].

وإذ ثار اهتمامى، ذهبت إلى المكتبة البريطانية لأرى بنفسى نسخة من هذا العمل الغريب، وهو فى غلاف من القماش الأسود الأنيق، وصفحاته موشاة بالرسوم مثل مخطوط من العصور الوسطى. وأدركت بسرعة أن معناه بالنسبة لى سيكون فقط هو المعنى الذى أضفيه أنا عليه. فقد كان الخط مستعصيا على فك ألغازه ولكن إلى درجة ما استطعت التواصل مع الصور– كان فى بعضها قطع وكسور فى داخلها تعرفت عليها، ولكن لم تكن هناك طريقة لمعرفة ما كانت الصفحات تعنيه حقًا، وبعد نصف ساعة، استسلمت. هذا الاصطدام بما يستعصى على الفهم هو الكيفية التى يستجيب بها الناس الذين يعيشون فى عالم بلا صور عندما يواجهون بالصور للمرة الأولى، إنها لغة جديدة كان يجب تعلمها .

وهناك جدل لا ينتهى بين الباحثين حول لغة الصور ومعناها. فالبعض يأخذونها على أنها عنصر واحد فى بناء شاسع من العلامات، والبعض يفهمونها على أنها خريطة «لنصوص متعددة النماذج، وموجهات وقوى». وعلى الطرف الآخر، تصبح

الصور هويات منفصلة وقوية لها حياتها الخاصة «نصوصا أيقونية»[٤٦] والوصل بين النظريات والعالم الحقيقي ليس أمرًا سهلاً، خاصة لأن الصور المطبوعة فى الكتب وغيرها من المنشورات غالبا ما يتم تجاهلها. وهى لا تقف وحدها بخلاف الأعمال الفنية أو حتى مطبوعات الفنانين. فهى مرتبطة بالكلمات من حولها. ومثلما يجب قراءة الكلمات التى تكون النص المكتوب لكى نفهمها أو نفك رموزها. يجب فهم الصور [٤٧]. ولكن مثلما هو الحال مع شفرة سيرافينى، فإن فهم ما تعنيه صورة ما مستحيل حقا إذا لم يكن هناك شىء عنها يمكن التعرف عليه. وتبقى الصور حضورًا أجنبيًا غير مألوف فى العالم المسلم قبل القرن الثامن عشر. وفى الممارسة لم يحدث حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن صارت الصور أكثر شيوعًا. حتى فى المدن الكبرى. ولهذا السبب لا يبدو أن هناك علاقة بين معظم النظريات التى أنتجت فى الغرب عن طبيعة الصور وبين ظروف العالم الإسلامى.

وعلى مدى قرون عديدة صار المسيحيون الغربيون (والشرقيون) على خبرة بفهم الصور التشخيصية المصنوعة بأيد بشرية. فقد تعلموا أن تمثال أحد القديسين له صفات خاصة تتعلق بحياة القديس وقصته. وأن صندوقًا للذخائر المقدسة يضم يدًا ذابلة أو جمجمة مزينة بالجواهر، هو من الذخائر المقدسة وله معنى. وقد تعلموا كيف «يقرأون» الصورة أو الشىء بمشاهدته. هذه المهارات المرئية نفسها فى التفسير قد استخدمت فيما بعد فى التعليم، فى تعليم قراءة النصوص المكتوبة[٤٨]. وحركة معاداة الأيقونات البروتستانتية فى القرن السادس عشر نادرًا ما حرمت الصور بالمعنى المطلق. ذلك أن الأمر الوارد فى الكتاب المقدس كان يعنى لهم عبادة غير ربانية للصور[٤٩]. ولم يكن هناك فى أى مكان بالعالم الإسلامى صور مرسومة أو مطبوعة شائعة بقدر شيوعها فى العالم المسيحى الأوربى. لقد كان المسلمون، من المتعلمين وغير المتعلمين. يعيشون بين الأصوات. كانوا يتعلمون بالسماع والتلاوة والتكرار. فقد كانت المعرفة تنتقل من خلال الصوت المنطوق. والذى كان أكثر رنة وصدقًا من الكلمات الخرساء المطبوعة على إحدى الصفحات [٥٠]. لقد كانت ثقافة لا تؤدى الصورة المطبوعة فيها (للحيوانات والبشر) دورًا تعليميًا يماثل ما تؤديه فى

العالم المسيحى الغربى. فلم يكن الأطفال يتعلمون القراءة باستخدام الصور المرئية. ولكن من خلال التلاوة وفك رموز النص المكتوب[٥١].

وعلى أية حال. فإن التناقض بين العالمين. الغرب بالصور والشرق بغيرها. لم يكن مطلقا حقًا. فثمة مجال من الرسوم العامة كان موجودًا فى العالم الإسلامى وكانت تستخدم على نطاق واسع. وحسبما لاحظ دوسون، فبينما لم يسك المسلمون أنفسهم عملات تحمل صورا بشرية فإنهم سعدوا باستخدام العملات الأوربية التى حملت الصور. ذلك أن عملة ماريا تريزا الفضية التى فيما بعد صارت العملة الذهبية البريطانية وعليها صورة رأس الملكة فيكتوريا العملة الشائعة الموثوق بها فى شبه الجزيرة العربية. ولكن مع هذا كانت هذه العملات تنتمى إلى العالم الخارجى الكافر والغريب.

ولم يحدث سوى بعد تطور التصوير الفوتوجرافى فى القرن التاسع عشر أن دخلت الصور البشرية وصور الحيوانات فى العالم الإسلامى بصورة أكثر عمومية. وفيما بعد عندما كان المتطهرون ما يزالون يحرمون أية صورة تظهر صورة آدمى أو حيوان. قطع التصوير الفوتوجرافى الطريق على أى اعتراضات دينية. وكان هناك رأى يجادل بأن الصورة الفوتوجرافية لا تخلق بعمل بشرى وإنما نور الله الذى يتفاعل على مركب كيميائى ليخلق الصورة. وهذا أيضًا فتح الطريق أمام قبول الصور المطبوعة، لأنه منذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ التصوير الفوتوجرافى يستخدم فى عمل ألواح الطباعة بالحفر. وبالمنطق نفسه. كانت جميع عمليات الطباعة بكل مراحلها التى تستخدم التفاعل الكيميائى مسموحًا بها. وكان يمكن أيضا شرح الحفر بالطريقة نفسها وبالأسلوب نفسه، لأن الكتل كان يتم إنتاجها ميكانيكيا أو كيميائيا بصورة متزايدة.

ومبادئ الاستثناء نفسها امتدت فيما بعد إلى الفيلم والتليفزيون. ومع العقد الأخير من القرن العشرين كان العالم المسلم قد واءم نفسه مع عالم كانت فيه الصور المرسومة للأشكال الآدمية أمرًا عاديًا. فقط الذين لا يكادون يبصرون. والزهاد

وأصحاب العقول الضيقة هم الذين استمروا فى منع كافة الصور المرئية سواء كانت من صنع الفن البشرى أو نور الله السماوى. وفى عشرينيات القرن العشرين صدم الملك ابن سعود ملك العربية السعودية إخوانه عندما سمح بأخذ صورة فوتوجرافية له. هذا الملك حامى الحرمين الشريفين والذى صار فيما بعد ملك العربية السعودية. لم يلق بالاً لاعتراضاتهم. أكثر من اهتمامه باعتراضاتهم على السيارات والطائرات. وكان من السهل نسبيًا على الملك أن يتبع ميوله. ولكن ملايين المسلمين العاديين فعلوا الشيء نفسه.

* * *

وشيئًا فشيئًا توصلت إلى استنتاج أن محاولة تقنين الفروق بين الشرق والغرب لا يمكن أن تمت بصلة إلى حقائق الحياة المعاشة. ونفر قليل جدا فى الشرق أو فى الغرب، فى الماضى كما فى الحاضر، عاشوا أو يعيشون حياتهم كلها حسب الكتب المقدسة والشرائع. وكان معظم الناس يقضون أيامهم فى توافق مع أخلاق جماعتهم أو طائفتهم الخاصة[٥٢]. وعند السطح المشترك. حيث يتصادم العالمان. تقع الحوادث وفى سياق واحد خاص. هو التجارة العالمية. يمكن أن تلاحظ زوارًا غربيين للشرق وهم يقعون فى براثن الإحباط بسبب اختلاف سرعة إنجاز الأعمال. ولكن بالمثل. ومن الممكن أن يتملك شعور بعدم الراحة أشخاصًا كبارًا من الشرق بسبب الهرج والمرج فى الاجتماعات فى بعض البلدان الأوربية: وتوضح عبارة «اقطع المطاردة» التى نجدها فى أفلام الغرب الأمريكى الفرق بين عالم الشرق وعالم الغرب. فبالنسبة للبعض. ما يأتى قبل الحدث الرئيسى ليس سوى مقدمة غير مهمة، وبالنسبة للبعض الآخر، يكون الحدث الرئيسى جزءًا فقط من تركيبة العادات والمجاملات بأسرها. هذا التحول الزمنى بين حادث يمكن أن يكون «مقطوعًا»، وحادث لا يمكن قطعه، فيما أظن، يبدأ فى الوصول إلى قلب الاختلاف.

هناك زمن الساعة وهناك زمن الإنسان. وقد أوضح جيرهارد دوهران -ڤان روسوم Gerhard Dohrn- van Rossum كيف أن الغرب صار محكومًا بزمن الساعة بصورة متزايدة. فمع القرن التاسع عشر. كان بوسع وزير تعليم فرنسا أن يتباهى أنه يعرف بالضبط ما الذى سوف يدرسه أى تلميذ فى المدارس الفرنسية فى أية ساعة من ساعات اليوم الدراسى[٥٣]. أما فى الشرق فكان الوقت أكثر إثارة للجدل. فقد كان السلطان مراد الثالث، مثل جده محمد الفاتح. فضوليًا بشأن الساعات الميكانيكية الغربية. ذلك أن كبير الفلكيين لدى مراد أقام مرصدا فى العاصمة وكتب أول كتيب عن الساعات الميكانيكية فى الإمبراطورية. وفى سنة ١٥٦١م، صنع ساعة تظهر مواقيت الصلاة، وهى آلة سرعان ما تم تدميرها لأنها كانت تعتبر جهازًا كافرًا تسعى لتحل محل المؤذن وقوة الصوت البشرى. ومثل المطبعة. كان زمن الساعة له تاريخ مركب جمع بين النجاح والفشل فى الشرق.

كانت لدى عمى الكبير أتو ڤيت Otto Veit ساعة كان قد اشتراها من السوق الكبير فى إستنبول عندما سافر إلى هناك من ڤيينا فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى. وأتذكر أنها كانت تبين الأوقات المختلفة التى كانت تستخدم فى المناطق الواقعة تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. كان أحد العقارب يبين الوقت الهجرى، وكان عقرب آخر يبين الوقت المستخدم فى الحكومة والأعمال (مالى). والثالث كان يبين الوقت الغربى. وقد أخبرنى أنه كان قد اشتراها بعد أن كانت قد فاتته عدة مواعيد لأن أولئك الذين كان يفترض أن يقابلهم كانوا يستخدمون توقيتا وكان هو يستخدم توقيتا آخر. وقد قرأت فيما بعد عن مسافر كانت لديه المشكلة نفسها:

«سوف يتحدد الوقت على الطريقة التركية، التى تبدأ بالعد عند غروب الشمس، ويستمر على مدى أربع وعشرين ساعة كاملة، وهكذا فى منتصف ما بعد الظهر يمكن أن يقال للمرء إن الساعة السابعة عشرة. وبما أن الشمس تفتقر إلى الأدب الذى يجعلها تغرب يوميًا فى الوقت نفسه. فمن الضرورى أن تحمل تقويمًا فى رأسك كل يوم لضبط التوقيت التركى مع الإنكليزى فى الوقت نفسه»[٥٤].

وجميع الموضوعات التى نوقشت فى هذا الفصل تتعلق بالتوقيت. وفى القرن الحادى والعشرين، يشترك الشرق والغرب الآن فى الكثير من البضائع والأدوات، وخاصة الراديو والتليفزيون والأفلام والإنترنت. وكذلك الكتب والمجلات والصحف. ولكن هذه لم تستخدم في الوقت نفسه. فقد كانت هناك فجوة زمنية. والغرب يطور نماذج جديدة من الاتصالات. ويتخذها الشرق فى وقت لاحق. لقد مضت أربعة قرون قبل أن تصير الصور والكلمة المطبوعة شائعة في الشرق المسلم مثلما كانت فى الغرب.

ومع الفيلم والراديو والتليفزيون كانت مسألة عقود من الزمن. ولم تستغرق مع الإنترنت سوى أقل من خمس سنوات. ولكن هذا التأخير الطويل فى قبول ثورة الطباعة كانت له عواقب عميقة. فقد كان معناها أن توقيتات الشرق وتوقيتات الغرب لم تكن متطابقة. ونحن نحتاج إلى وسيلة تربط بينهما مثلما كان عمى الكبير يحتاج إلى ساعة متعددة التوقيت.

وحجة هذا الكتاب فى المناقشة أن كلاً من الكفار المسيحيين والكفار المسلمين كانوا ينظرون لبعضهم بعضًا بعين الشك طوال اتصالهم طويل المدى. فقد كان كل منهما يلعن الآخر ويذمه بشكل روتيني. وهو أمر متوقع. بيد أن اللعنة لم تكن هى نفسها من النوع نفسه. والمؤكد أنه منذ اختراع الطباعة. ومن خلال تكاثر الصور، كانت المذمة الغربية قد صارت أكثر قوة وأوسع انتشارًا بشكل غير محدود. ولكن الآن، وعقارب الزمن تمضى إلى الأمام، تعلم الشرق الدرس. فالمسلمون يستخدمون المطبعة ووسائل الإعلام المرئية والإلكترونية بالمهارة نفسها والحذلقة التى يستخدمها بها الغرب. كما أنهم تعلموا أيضا كيف يمكن لهذه التقنيات الجديدة أن تحمل «المذمة» التى يوجهها الشرق، إلى مدى أبعد وأكثر قوة مما يمكن لقلم الكاتب أن يفعله.

هوامش الفصل الثالث عشر

١- تاريخ الطباعة فى حال من التحول السريع . ذلك أن نظريات جديدة وأهدافًا جديدة صارت سائدة وحاكمة . وفى رأيى بغض النظر عن النصوص الرئيسية مثل نصوص إليزابيث أينشتين ولوسيان فيبفر ، وهنرى چان مارتان ، وروبرت دارنتون ، ورودلف هيرش ، وحديثا جدا أدريان چون ، أن أكثر دراسة ذات فائدة جاءت من جيرارد جينيت فى بنائه لما يسمى «النصوص الموازية» وهذا يربط الأشكال المادية للنص بجمهوره ، بالإمكانية والواقع . وعلى أية حال، فإنه حتى جينيت نفسه أحجم عن مناقشة الموضوع الذى يهمنى هنا- وهو دور الصور وأثرها. «لقد تركت بالمثل ثلاث ممارسات تبدو علاقتها بالنصوص الموازية تبدو غير منكورة ، ولكن تحقيق كل منها قد يتطلب عملاً كثيرًا كما هو مطلوب هنا فى معالجة هذا الموضوع برمته ... وتشكل الممارسة الثالثة قارة شاسعة: «هى الصور والرسوم التوضيحية». ويمكننى هنا فقط أن أرتبك بشأن الموضوعات المتضمنة ولكننى آخذ الموضوع بمزيد من التفصيل فى كتاب قادم. انظر :

Genette، Paratexts ، pp. ٤٠٥-٦ .

(p.٤١١)

2. This appears in 'The Marriage of Heaven and Hell'; see William Blake, *Poetry and Prose of William Blake*, ed. Geoffrey Keynes, London: The Nonesuch Library, 1961, p. 187.
3. See Çirakman, 'From the "Terror of the World"'.
4. Volney, *Travels*, vol. 2, pp. 177–9. Volney is in error in one small particular:

5. He wrote *On the Simplification of Oriental Languages* in 1795, and *The European Alphabet Applied to the Languages of Asia* in 1819.
6. See C. F. de Volney, *The Ruins, or, Meditations on the Revolutions of Empire and the Law of Nature*, rep. New York, NY: Twentieth Century Publishing Company, 1890, p. 81.
7. Ibid., p. 76.
8. I find the whole idea of counterfactual history, of which Simon Schama's *Dead Certainties* (1991) was a pioneering approach (and unjustly criticized when it first appeared), an invaluable critical tool. The collection edited by Niall Ferguson, *Virtual History* (1997), makes the case for the approach, especially Ferguson's long Introduction, pp. 1–91.
9. Jonathan Bloom in his sparkling survey of paper in the Islamic world (*Paper before Print*) can cite only one book: Dard Hunter's *Papermaking: The History and Technique of an Ancient Craft*, first published by Knopf in 1943, revised and republished in 1947, and reissued in 1978. Hunter's is still the sole general overview available in English.
10. A short-lived mill was set up in France at Troyes a little earlier.

١١– قليل هو المعروف عن هذا المصنع الأول للورق، بينما هناك معلومات أكثر كثيرا معروفة عن المصنع الذى أقيم فى القرن الثامن عشر فى يالوڤا، على الناحية الجنوبية الآسيوية من بحر مرمرة فى سنة ١٧٤٤م. هذه البلدة لها مدد مستمر من الماء عالى الجودة اللازم لأى قدر كبير من الإنتاج . انظر:

Fatma M¨ge Gocek . East Encounters west : France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century. New York . N.Y.: Oxford University Press. ١٩٨٧. pp. ١١٤–٥ .

12. Most of the Ottoman sources are not contemporary with the first fifteenth- and sixteenth-century prohibitions. See ibid., pp. 110–11.
13. Thevet's life of Gutenberg, in *Histoire des plus illustres et savans hommes de leurs siècles*, Paris: Manger, 1671, vol. VII, p. 111, cited by Gdoura, *Début*, pp. 86–7.

١٤– موقف طالبان وإمارة أفغانستان الإسلامية تجاه الصور موقف عدائى. وقد تمت المقارنة مع موقف اللا أيقونية البيزنطية باعتبارها سياسة دولة ، ومن الصعب أن نجد معادلاً إسلاميا على هذا القدر من الراديكالية والتنسيق فى العصور الحديثة . وحتى تجاوزات الاستيلاء على مكة والمدينة (وتدمير المقابر والصور) لم

تكن من الدولة. ومن الواضح أن سياسة طالبان كانت كذلك . فالقائد الأعلى الملا محمد عمر أمر بتدمير جميع التماثيل في البلاد، مما نتج عنه تفجير التماثيل البوذية القديمة في باميان . وأوضح البيان الرسمي أنه في ضوء الفتوى التي أصدرها العلماء الأفغان البارزون وحكم المحكمة العليا الأفغانية تقرر كسر كل الأصنام الموجودة في مختلف أنحاء البلاد. والسبب في هذا أن "هذه الأصنام كانت آلهة للكفار ، الذين كانوا يعبدونها وهذه مبجلة حتى الآن ربما تتحول إلى آلهة مرة أخرى. والله هو الإله الواحد الحق ويجب إزالة كل الآلهة المزيفة" . وتم التأكيد أيضا على أن الصور والصور الإلكترونية محرمة أيضا، ولكن موظفي طالبان أنفسهم صوروا تدمير التماثيل . وسمح كثير من قادة طالبان بأخذ صورهم ، وتمت الإشارة إلى أن سياستهم بشأن الصور كانت دينية من الناحية النظرية، ولكنها كانت سياسية انتقائية في الممارسة.

(p.٤١٤)

15. See David Talbot Rice, *Islamic Painting: A Survey*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1971, pp. 21–6. For the Abbasids see Richard Ettinghausen, *Arab Painting*, New York, NY: Rizzoli, 1977, p. 41–53. The classic statement is Arnold, *Painting in Islam*.
16. Iconoclasm in Reformation Europe was directed not so much at images, but at art used in a religious context. See, for example, Philips, *Reformation*.
17. See Goffman, *Ottoman Empire*, p. 91. This short book, which is innovative both in its structure and in its insights, is a mature and compelling correction to a long tradition of misrepresentation. I am extremely grateful to Virginia Aksan for drawing it to my attention.
18. See Lewis, *Discovery*, especially his account of the Egyptian scholar Sheikh Rifaa Rafi al-Tahtawi's five-year stay in Paris.
19. The stage of final reading, when a written text is read out loud, is still an essential part of the legislative process in the United States and the United Kingdom.
20. Cardinal Ferdinando de' Medici financed the establishment of the Typographia Medicea Linguarum Externarum by Raimondi in 1585.
21. The first book to be printed in Ottoman Turkish was George Seaman's translation of the New Testament. He was the interpreter to Sir Peter Wyche,

English Ambassador to Constantinople, and the book was printed at Oxford in 1606. In 1734 William Caslon was commissioned by the Society for the Promotion of Christian Literature to cut an Arabic fount for a New Testament to be used in missionary work.

22. See Bloom, *Paper*, p. 116.
23. For the prevalence (and design) of libraries see Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture*, London: Thames and Hudson, 1971.
24. See Dov Shidorsky, 'Libraries in Late Ottoman Palestine between the Orient and the Occident', *Libraries & Culture* 33, 3, (summer 1998), pp. 260–76. See also Hitzel (ed.), *Livres*.
25. Müteferrika had already begun to print by 1719. He sent a map of the Sea of Marmara to the Grand Vizier Damad Ibrahim Pasha, with a note to the effect that 'if your Excellency so commands, larger ones can be produced.' For the document from the Sultan setting up the printing press in Constantinople, see 'The Firman of Ahmed III, given in 1727 authorizing Said Effendi and Ibrahim Müteferrika to open a printing house using Arabic script', trans. Christopher Murphy in Atiyah (ed.), *Book*, pp. 284–92.
26. He was by then himself the Ambassador to the Court of France.
27. It has been estimated that from 1455 to 1500 between 6 and 20 million copies of publications were printed in Europe. Six million is a very cautious estimate, and probably about 12–15 million might be a good working figure. Between 30,000 and 35,000 separate editions of books from this half-century still survive, representing various versions and reprints of some 10,000 to 15,000 different texts. See the estimates for editions in Europe and the useful analyses of content in southern and northern Europe in Gerulaitis, *Printing*, pp. 17–18 and 57–129. Hirsch, *Printing*, pp. 133–5, uses J. M. Lenart's figures from *Pre-Reformation Printed Books* (New York: 1935). Assuming that about 500 copies (on average) of each edition were produced, then printing in aggregate 15 million copies is reasonable. So who read or bought all these books? This question has never been answered satisfactorily. The calculations of copies printed are of necessity approximate, hence the wild discrepancies. See also Lucien Febvre and Henri-Jean Martin, *The Coming of the Book: The Impact of Printing 1450–1800*, trans. David Gerard, London: Verso, 1976, p. 248.
28. There had been several attempts to set up printers' workshops in the Balkan lands, all of which failed. In the centuries of Ottoman rule, only a handful of books were produced in the southern Slav lands. The first were printed in Cetinje in Montenegro in the 1490s by a monk named Makarije. Eight other

short-lived presses were later set up, but their total output was eleven slender titles. From the sixteenth century Slavic books were produced in other lands and brought across the frontier. Many were printed by a succession of specialist printers in Venice, beginning with the Vuković family from Montenegro in the early sixteenth century. Another major centre developed at the same time in Wallachia; but it was not until the 1770s, when recognizing the demand for texts for the Serbian market, that printers in Vienna, St Petersburg and Leipzig competed to supply Serbs both in the Vojvodina and in the lands under Ottoman rule. However, supplies were irregular and many printers could not be bothered with the effort of sending them south of the Danube, where trade was erratic and often risky. See Michel Lassithiotakis, 'Le Role du livre imprimé dans la formation et le développement de la littérature en grec vulgaire XVIe–XVIIe siècles', and Nathalie Clayer, 'Le Goût de fruit défendu ou, La Lecture de l'albanais dans l'Empire ottoman finissant', both in Hitzel (ed.), *Livres*.

29. A modern analogy is the way in which the People's Republic of China has (as of 2002) modernized its publishing industry while at the same time maintaining government supervision. I owe this analogy to a number of my Chinese students, notably Xiaoyang Chen whose help I gratefully acknowledge on this topic.

30. See Daniel Roche, 'Censorship and the Publishing Industry' in Darnton and Roche (eds), *Revolution in Print*, pp. 3–28, and Jean-Pierre Levandier, *Le Livre au temps de Marie-Thérèse: Code des lois de censure pour les pays austro-bohémiens (1740–1780)*, Berne: Peter Lang, 1993, and *Le Livre au temps de Joseph II et de Léopold II: Code des lois de censure pour les pays austro-bohémiens (1780–1792)*, Berne: Peter Lang, 1995.

31. Marie-Elisabeth Ducreux's frightening narrative of how Jiri Janda, a Czech peasant, was executed for reading a forbidden book shows that the printed word was still reckoned as a deadly threat in the Habsburg domains in 1761; see '"Reading unto Death": Books and Readers in Eighteenth-century Bohemia', in Chartier (ed.), *Culture of Print*, pp. 191–229.

32. Klaus Kreiser citing Jale Baysal, *Müteferrika'dan Birinci Meşrutiyet'e kadar Osmanlı Türklerinin bastıkları kitaplar*, Istanbul: Univertesi Edebiyat Facültesi, 1968, in Lehrstuhl, *Beginnings*, pp. 15–16.

٢٣- على الرغم من وجود عدد قليل من الكتب ، فإن الصور الدينية المطبوعة لعبت دورًا مهمًا في الجماعات المسيحية في البلقان . فقد كانت الصور الدينية بؤرة قوية في الإيمان المسيحي. فقد كان على المؤمن أن يجسر على مواجهة مخاطر السفر لزيارة أحد الأديرة ومشاهدة ما به من أيقونات . وقد كانت الأيقونات المشهورة قد نسخت منذ زمن طويل في الأديرة وكانت كتل خشبية بسيطة من هذه تنتج وتباع إلى المؤمنين . ولكن بحلول القرن الثامن عشر ، ظهر الكثير من الأعمال الكبيرة. والرهبان المهرة في الأديرة الأرثوذكسية على جبل آثوس وجبل سيناء حفروا ألواحًا للطباعة ، أو أحيانا رسموا نسخًا رئيسية للصور المقدسة. وكانت هذه ترسل إلى ڤيينا ووارسو وموسكو أو روما ، حيث كان اليونانيون المحليون على استعداد لأن يدفعوا من أجل إعادة إنتاجها . وكانت بعض الصور قد أنتجت من أجل الجمهور السلاڤي الغالب لأنها تحمل عبارات توضيحية بكل من اليونانية والسلاڤية . وكان لابد من إعادة اللوحات المطبوعة إلى الأديرة ، حيث كانت تعطى للرهبان الرحالة الذين كانوا يوزعونها على المؤمنين الأرثوذكس في القرى بجميع أنحاء البلقان . وكانت النصوص والصور الدينية الكاثوليكية توزع على نطاق واسع في النواحي الكاثوليكية وبهذه الوسائل- كلمة الفم والنصوص المكتوبة والصور المرئية- حافظ مسيحيو البلقان على إحساسهم بالهوية الاجتماعية والدينية تحت الحكم العثماني . وقد أخذت التفاصيل من ملاحظات معرض "الرسوم الدينية الأرثوذكسية في القرنين ١٨ و ١٩" بجامعة تورنتو في مركز الفن بها ، ومن سجلات وزارة الثقافة الهيللينية عن الأيقونات الورقية الأتونية. وثمة دراسة عن الكتب المنشورة باللغة اليونانية فيما بين ١٧٤٩م و١٨٢١م تشير إلى أنه فقط حوالي ٧٪ كان يشتريها الناطقون باللغة اليونانية داخل الأراضي التي لم تلبث أن شكلت دولة اليونان المستقلة . ومعظم هذه الأعمال كانت معدة لجمهور ذي تعليم راق ، وعلى الرغم من أنه كانت هناك مدارس في باتموس وخيوس ، وفي الجماعة اليونانية الكبيرة في سميرنا ، وكذلك في جبل آثوس وتسالي، فلم يكن هناك قراء كثيرون في أراضي الجنوب اليونانية. انظر :

Philipos Iliou , Pour une Revolusion", in Association d'études du

cited by Peter Mackrige –٤٧٥ .pp .(١٩٦٩ :sud–Est european IV (Safia
A Balkan Perspective". in Clogg . ١٨٣٠–١٧٨٠ "The Greek Intelligentsia
. ٩–٦٨ .(ed.) Balkan Society. pp

role in the Christian communities in the Balkans. Religious images were a strong focus of Christian belief. The devout would brave the perils of travel to visit a monastery and see its icons. Famous icons had long been copied in monasteries and simple woodblocks of these were produced and sold to the faithful. But by the eighteenth century, much more elaborate work emerged. Skilled monks in the Orthodox monasteries of Mount Athos and Mount Sinai engraved plates for printing, or sometimes drew master copies of the holy images. These would be sent to Vienna, Warsaw, Moscow or Rome, where local Greeks would pay for their reproduction. Some of the images were obviously produced for a predominantly Slav audience because they bore both Slavic and Greek captions. The printed sheets would be returned to the monasteries, where they were given to travelling monks who distributed them to the Orthodox faithful in villages throughout the Balkans. Catholic religious texts and pictures circulated widely in the Catholic districts. By these means – word of mouth, written texts and visual images – the Christians of the Balkans preserved their sense of social and religious identity under Ottoman rule. Details are taken from the exhibition notes for 'Orthodox Religious Engravings 18th and 19th Centuries' at the University of Toronto Art Centre, and from the records of the Hellenic Ministry of Culture on Athonite paper icons, www.culture.gr/2/21/218/218ad/e218ad00. A study of books published in Greek between 1749 and 1821 suggests that only about 7 per cent were bought by Greek-speakers within the lands that eventually formed the independent Greek state. Most of these works were prepared for a highly literate audience, and although there were schools on Patmos and Chios, in the large Greek community of Smyrna, as well as on Mount Athos and in Thessaly, there were not many readers in the southern Greek lands. See Philipos Iliou, 'Pour une étude quantitative du public des lecteurs grecs à l'époque des Lumières et de la Révolution' in *Association d'études du Sud-Est européen* IV (Sofia: 1969), pp. 475–80, cited by Peter Mackridge, 'The Greek Intelligentsia 1780–1830: A Balkan Perspective', in Clogg (ed.), *Balkan Society*, pp. 68–9.

34. There was a subculture of printed books from the outside world even before local printing got under way. In the Ottoman lands Christians and Jews had access to imported liturgical texts printed in Arabic from an early date. A Greek Orthodox Metropolitan established the printing house that printed in Arabic script in Aleppo in 1707. A generation later the Maronite monastery at Al-

Shuwayr in Lebanon began to print books for their community. Printing religious books in the Armenian script began in Constantinople, also in the 1730s. But all this activity was invisible to the majority Muslim population, which had no interest in the liturgical texts of other faiths. The Christian and Jewish printers were careful to do nothing to anger the Ottoman authorities by printing work of a more contentious nature. But Armenian commercial printers, who until the nineteenth century were printing in a script incomprehensible to Arabic-readers, by then had the equipment and the skills to take a major role in the general printing market. The best studies of Ottoman lithography still remain two short pamphlets. One is Grégoire Zellich, *Notice historique sur la lithographie et sur les origines de son introduction en Constantinople*. Istanbul: Impr. A Zellich Fils, 1895. Anton Zellich, the author's father, was a Croat printer from Dalmatia, who began work with the Cayols in 1840, and set up on his own account in 1869. Selim Nüzhet Gerçek's short pamphlet *Türk tas basmaciligi*, Istanbul: Devlet Bashimevi, 1939, is useful because he had access to the library of the Cayols' patron Khusrev Pasha at Eyub, which contained many examples of their early lithographic work in the Ottoman Empire.

35. Mehmed Ali had sent Nikola Masabki to Italy in about 1811 to learn the craft of printing. He set up the new government press at Bulaq, with Arabic and Persian founts. The development of printing in the Middle East (and Masabki's visit to Milan) has now been covered comprehensively in an important work of collective scholarship edited by Eva Hanebutt-Benz, Dagmar Glass and Geoffrey Roper; see *Middle Eastern Languages*.
36. On the Cayols, see Johann Strauss, 'Le Livre français d'Istanbul (1730–1908)' in Hitzel (ed.), *Livres*, pp. 276–301.
37. Women's magazines were especially successful, and some included engravings, and after 1908, photographs, of fashionable women. See Kadin Eserleri Kütuphanesi Bibliografiya Olushturma Komisyonu, Istanbul, *Kütüphanelerindeki eski harfli Türkçe kadin dergileri bibliyografyasi (1869–1927)*, Istanbul: Metis Yainlan, 1993.
38. See Messick, *Calligraphic State*.
39. This oral system also constituted a very active (and controlling) form of the interpretative community proposed by Stanley Fish. There was much less of the individual forming his or her own singular ideas, as Kevin Sharpe describes in his study of the reading habits of Sir William Drake in seventeenth-century England. As Sharpe put it, Drake 'constituted himself . . . as a thinking and feeling entity, an ego, a "conscious self", and as an entity to be so conceived; and he did so through writing and reading.' In the 'calligraphic state', texts were formed communally and more often than not reinforced collective views. Other ways of reading came later, with the greater profusion of printed texts.

See Stanley Eugene Fish, *Is There a Text in this Class? The Authority of Interpretive Communities*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980, and Kevin Sharpe, *Reading Revolutions: The Politics of Reading in Early Modern England*, New Haven, CT: Yale University Press, 2000, p. 340.

40. I find Madigan's *The Qur'an's Self-Image* very persuasive on this topic.
41. See Esin Atil, 'The Art of the Book', in Esin Atil (ed.), *Turkish Art*, Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1980, pp. 138–238. This remains an essential introduction, but much work has been done in the last twenty years. Many of these books were state art, and the collective volume *The Sultan's Portrait: Picturing the House of Osman*, Istanbul: Isbank, 2000, has contributions by all the main specialists in the field.
42. See *The Rescue of Nigbolu by Sultan Bayezid*, in Lokman, *Hunername*, vol. 1, 1584–5, Istanbul: Topkapı Saray H.1523. fol.108b.
43. Private citizens also commissioned pictorial art but, like the ruler, kept it out of sight.
44. De Hamel, *The Book*.
45. See Manguel, *History*, p. 95.
46. For 'vectors and forces', see Kress and Van Leeuwen, *Reading Images*. For 'icontexts', see Alain Montandon (ed.), *Icontextes*, Paris: Ophrys, 1990, and Peter Wagner, *Reading Icontexts*.
47. James Elkins writes of a Renaissance engraving that it 'evokes writing, it has the feeling of writing, or language, not because of some nebulous or unrecognised habits of seeing, but on account of a dozen or so specific qualities that are also shared by writing.' The engraving (from a picture by Mantegna) 'is an image that evokes pictures as it evokes writing . . . Whatever narrative we might want to see here will be the result of a certain reading of the relation of signs.' See Elkins, *On Pictures*, pp. 160–61.
48. See Gilbert, *Reading Images*.
49. On the use of images in Protestant propaganda, the work of R. W. Scribner is the basic source. See, especially, Scribner, *For the Sake*.
50. See Madigan, *The Qur'an's Self-Image*.
51. A very good description of this process of learning a language of faith, Arabic, in a culture where the national script is Roman, can be found in Baker, 'Presence', pp. 102–122.
52. See Fabian, *Time and the Other*.
53. See Gerhard Dohrn-van Rossum, *History of the Hour: Clocks and Modern Temporal Order*, translated by Thomas Dunlap, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1996, pp. 251–8.
54. See Henry C. Barkley, *Bulgaria before the War during Seven Years' Experience of European Turkey and Its Inhabitants*, London: John Murray, 1877, p. 181.

الجزء السادس

(١٤)

المذمة والسباب
عوالم من الكراهية

كان الجانبان المتعارضان في ليبانتو سنة ١٥٧٢م يصيحان فى كل منهما الآخر من فوق أسطح السفن. ويمكننا أن نستنبط أشياء قليلة عن ذلك التبادل. وعلى الرغم من أن طواقم السفن والجنود ربما لم يكونوا يفهمون اللغة التى يتحدث بها العدو، فإذا ما سمعوا أصوات الكلام تعلو فوق ضجيج المعركة لكانت عقولهم قد حاولت أن تجعل ما قيل واضحًا وسهل الفهم. ذلك أن وظائف الأعضاء عند البشر تجبر المخ على أن يتعامل مع ما يستقبله عن طريق الصوت. وحسب تعبير دافيد كريستال David Crystal . "عندما نحمل أصواتا، نسمعها على أنها كلام،أو لا كلام. ويبدو أنه لا توجد منطقة وسطى. ولا يهم مدى جهدنا فى المحاولة، فإننا لا نستطيع أن نسمع الكلام على أنه سلسلة من الفحيح الصوتى والطنين، وإنما نسمعه فقط تواليًا لأصوات الكلام"(١).

كانت اللعنات. والسباب، والإهانات والابتهالات فى طلب المساعدة الإلهية ضد العدو المكروه تمثل ما كان يتوقعه كل من المسلمين والمسيحيين فى مثل هذا السياق المتطرف. ولكن عملية فهم ما كان يقال حتى فى خضم المعركة كانت مختلفة قليلًا عما حدث فى المجتمعات المختلطة حول البحر المتوسط يوميا على مدار قرون كثيرة. وفى المواجهات اليومية كان لا بد للعقل البشرى أن يتعامل مع كل أصوات الكلام. وفى المواجهة، كان يمكن قراءة الإيماءات ولغة الجسد حتى لو كانت الكلمات غير مفهومة.

وربما كانت تقع أخطاء، ولكن كان من السهل دوما أن تحدد من الظروف ما إذا كان قصد المتحدث وديًا أم عدائيًا. وأول قناة لفهم. أي تفسير الأصوات. لا إرادية، ولا يمكن منعها سوى بسد الأذن لمنع الأصوات. والقناة الثانية أي إضفاء المعنى على تلك الأصوات. وهي كما أرى. في جزء منها رد فعل مشروط قائم على أساس تجربة ماضية. وفي جزء آخر تقدير عقلي للموقف الجاري. وعلى سبيل المثال، فإن الإهانة أو إشارة فظة يصر بها أحدٌ ما عبر الشارع تكون واضحة في قصدها عادة. مثل هذا التبادل يوجد تحت مستوى فهم ما تعنيه الكلمات. ولا يحتاج السامع إلى أن يكون متمكنًا من المعنى المضبوط للكلمات لكي يفهم أنها ليست عبارات إطراء. وقدم إيفو أندريك. في روايته **Bosnian Chronicle** مثل هذا الموقف بالضبط. وفي إحدى نقاط قصته. التي جرت في البوسنة ١٨٠٤م يمتطي جان دافيل. القنصل الفرنسي الجديد. جواده مع حراسه عبر الشوارع في ترافينك ليقابل حاكمها الباشا العثماني:

"ثم بمجرد أن وصلوا البيوت التركية الأولى. بدأوا يسمعون أصواتًا غريبة. أناس ينادي أحدهم الآخر. وهم يغلقون أبواب بيوتهم ونوافذهم بصوت عال. وعند أول باب فتحت بنت صغيرة فتحة في بوابة مزدوجة. وغمغمت ببعض كلمات غير مفهومة وبدأت تبصق بسرعة. كما لو كانت تستمطر اللعنات عليهم. واحدة بعد الأخرى انفتحت البوابات. ورفعت شراعات النوافذ لتكشف عن وجوه خاطفة تتملكها كراهية متعصبة. وأخذت النسوة المحجبات يبصقن أو يشتمن، وصاح الصبيان بالشتائم مصحوبة بإيماءات بذيئة وتهديدات واضحة. وهم يضربون أردافهم بأيديهم أو يلوحون بأيديهم عبر حناجرهم ... وكان دافيل يراهم بالكاد كما لو كان هناك حجاب رديء يرتعش أمام عينيه. ولم يتوقف أحد عن العمل أو التدخين أو يرفع عينيه لتحية الشخص غير العادي ولو بنظرة ... والشرقيون وحدهم هم الذين يمكنهم أن يكرهوا الآخرين ويحتقروا إلى هذا المدى ويظهروا كراهيتهم واحتقارهم بهذه الطريقة[٢].

وقد عرف دافيل الكراهية عندما سمعها ورآها (فهل كانت إهانته ستزيد أو تقل لو أنه فهم الكلمات التي كانت النسوة تصيح بها تجاهه. ربما كان سيستطيع أن يرد بشكل فعال من نوع ما، ولكن. من ناحية أخرى. ربما كانت الإهانة قارصة ولاذعة بدرجة أشد). لقد اخترقت الإهانة درع عدم الفهم.

إن كلمة الكراهية. مثل كلمات الحب، تحمل حسًا قويا بالقصد[٣]. لقد كان العالمان الإسلامي والمسيحي متنافسين على المستوى الديني. والجغرافي. والسياسي والاقتصادي ومتباريين منذ أول نقطة اتصال بينهما. ولا غرابة في أن كلمات الكراهية بدلاً من كلمات الحب كانت تسود عندما كان أحد العالمين يثير صورة الآخر. ولكن من بعدها. تحولت عملية إثارة هذه الصورة وعواقبها. فكيف تشكلت العداوة انطلاقًا من تجربتين متناقضتين في الحياة. لقد كانت التجربة الأولى. وما تزال في بعض المناطق. تجربة العيش جنبًا إلى جنب. وكانت التجربة الثانية عندما لم تكن تجربة الكراهية قد تمت بشكل مباشر أبدًا، بيد أنها كانت تجربة مرعبة. كانت هذه إلى حد كبير الكيفية التي تم بها تشكيل صورة المسلم الشهواني والتركي الرهيب في الغرب على أيدي باحثين لم يرفعوا عيونهم قط عن صفحات نصوصهم. وربما أضفى العيش في نطاق محصور بعدًا إنسانيًا على الآخر. وربما أدى انقطاع الاتصال بالآخر إلى تكوين مفاهيم خيالية. أدخلت الكثير من الموضوعات في الأدب وفي الفنون المرئية. بيد أن الناتج لم يكن بالضرورة محكومًا بالسياق.

والمذمة موجودة في كل مكان. وكثير من الناس يستخدمونها. ولكن في نطاق خاص أو مقيد عادة. وتتحدد أهميتها بأين وإلى من تكون المذمة والسباب موجهة. كل الناس سوف يتحدثون إلى أصدقائهم وأقربائهم في لغة لا يستخدمونها علنا– أي مع والديهم، أو رؤسائهم. أو شخصيات أخرى لها احترامها. ولكن عندما يصير الكلام الخاص معرفة علنية. تتبدل أهميته[٤]. إن قوة اللعنات والسباب تتصل مباشرة بهذا الرنين. ومنذ اختراع الطباعة تلاشت الحدود بين السياق الخاص والسياق العلني بصورة بطيئة. وهناك تمييز مهم. فالكلمات المنطوقة داخل أسرة أو في قرية معزولة

تختلف وظيفيا (إن لم يكن فلسفيا وفقهيا) عن الكلمات نفسها إذا ما نشرت فى صحيفة أو أذيعت على اتساع العالم فى الراديو أو التليفزيون.

ومن قراءة ميخائيل بختين **Mikhail Bakhtin** بدأت الحصول على رؤية داخلية فى عالم بغير معنى ثابت أو بنية صلبة. وربما كانت تجربة باختين القاسية فى الحياة قد انعكست على ما كتبه وكيفية كتابته. فقد ولد سنة ١٨٩٥م، وكان الابن الثانى لصراف إقليمى ميسور الحال. وقد انتهت سيرة حياته الباكرة عندما وقع تحت طائلة ستالين فى سنة ١٩٢٩م. وعلى مدى حياته البالغة كلها. كانت الثورة والتحول الاشتراكى لروسيا مثار اضطراب فى حظ باختين. فبدلاً من أن يسقط ضحية رصاصة فى العنق أو يذهب فى رحلة بلا عودة إلى الجولاج **Gulag**. أرسل باختين إلى منفى داخلى فى قازاقستان. وهناك كان يعلم المحاسبة نهارًا ويدرس هو فى الليل. وببقـائه صـامتًا ومتواريًا عن الأنظار نجا من عملية تطهير جديدة فى سنة ١٩٣٧م.

وكانت الحرب مع ألمانيا تعنى السماح له بتعليم اللغة الألمانية (التى كانت لغته الثانية) لطلاب المدارس العليا. ولكن حتى بعد نهاية الصراع كان ما يزال يعتبر. "لا يمكن الاعتماد عليه". ومن ناحية. كان هذا بسبب التخلى عن جذوره وتربيته الأرثوذكسية ومع اهتماماته العالمية وصلاته الكوزموبوليتانية كان محظوظًا بالنجاة من موجة تطهير ثالثة للمثقفين فى خمسينيات القرن العشرين. ولم يحدث سوى فى ستينيات القرن العشرين أن تم إنقاذ باختين من الاختفاء. بواسطة مجموعة من الباحثين الذين كانوا قد قرأوا أعماله وكانوا مذهولين أن يكتشفوا أنه ما زال حيًا. وفى ذلك الحين كان قد فقد إحدى ساقيه بسبب التهاب نخاع العظام. وكان يمشى على عكازين أو يمشى مترنحًا مستندًا على عصاه. كما تسبب تدخينه للسجائر الرخيصة فى سعال دائم وانتفاخ الرئتين الذى أودى بحياته فى النهاية.

وجميع الكتب التى كتبها. وهو مختف عن الأنظار. أو منفيًا فى العزلة التى فرضها على نفسه. تنطلق من موضوع الزوال. فقد كان عدم الأمان والتبدل هما

الأمرين الثابتين فى حياته كما كان التبديل جوهر دراساته ورسالتها. وكان هذا موجودًا فى دراساته عن ديستوفسكى. وفى مقالاته المنشورة بالإنجليزية. مثل مقالته المعنونة **The Dialogue of Imagination**. وفى أعظم أعماله عن **Rabelai**. فقد رأى كل كلمة فى اللغة تقريبا على أنها فى حال من التغير والتبدل كما لو كان استخدام الكلمات الأخرى يقاطعها أو يلونها. كان هذا "التداخل النصى" طبيعيًا. وبالنسبة لباختين كانت الحياة الطبيعية العادية والصحية هى تلك التى يتم فيها التفاعل مع الآخرين. فأى شيء يفعلونه أو يقولونه يؤثر عليك ويؤثر على استجابتك. لكن هذه العلاقة المتبادلة لا يمكن أبدا أن تكون متطابقة على الجانبين. وقد حكى باختين قصة عن اثنين من الناس ينظر كل منهما إلى الآخر. اعتبرهما بوصفه مراقبا ينظر إلى مراقب آخر. أنت واحد منهما وشخص غيرك هو الآخر :

"أنت تستطيع أن ترى أشياء وراء ظهرى وأنا أستطيع أن أرى أشياء وراء ظهرك لا يصل إليها بصرك. ونحن الاثنان نفعل الشيء نفسه فى الأساس. ولكن من مكانين مختلفين. وعلى الرغم من أننا فى الحدث نفسه. فإن هذا الحدث مختلف بالنسبة لكل منا. أماكننا مختلفة ليس فقط لأن جسدينا يمثلان موقعين مختلفين فى الفضاء المادى الخارجى. وإنما أيضا لأن كلا منا يتأمل الآخر وينظر إليه من مركز مختلف"[٥] .

ولقد ساعدتنى أعمال باختين على فهم القطبين المتعارضين– "الكافر المسيحى". "الكافر المسلم". على أنهما متصلان. أو "أعداء فى المرآة"[٦] .ولكن على مدى قرون عديدة. وبينما قد يكون كل منهما مدركا للآخر وواعيا به. بل لاحظ الآخر. فلم يستطع أى منهما أن يرى ما يراه الآخر حسبما يشير باختين. والعلاقة بين "واحد". "آخر" يمكن أيضا أن يكبح جماحها قوة كل منهمـا النسبـية على المستوى الاجتماعى. أو السياسى أو العسكرى. وفى النهاية كان من المستحيل أن يتشاركا [٧]. لقد كانت كلمات الكراهية والصور الداعية إلى الاحتقار نتاجًا مباشرًا لاختلافات الموقع. وقد وصف باختين ما يحدث عندما يتم النطق بمثل هذه الكلمات: "إن النطق لا يتصل فقط بالحلقات السابقة فى السلسلة وإنما يتصل أيضًا بالحلقات التالية فيها...

فمنذ البداية الأولى يتوقع المتحدث استجابة لها. فهمًا نشيطًا مستجيبًا. والنطق كله مبنى على توقع مواجهة هذه الاستجابة"[8] فى هذا الحوار تكون اللغة "سلاحًا". "درعًا" على السواء[9]. إن الكثافة المتعمدة للإهانات. سواء كانت منطوقة أو مكتوبة. تجعل من العسير التنبؤ بتأثيرها إذْ إن المذمة والسباب أخطر العناصر فى أية لغة وأكثرها انتشارًا .

واتباعًا لفكرة باختين عن الحوار. هناك فريقان فى كل حالة سباب. وربما بدا منطقيا أن الشخص الذى أثر بشكل مباشر هو الذى وجه الإهانة. ولكننى أعتقد أن العكس ربما كان صحيحًا. فإذا كنت أنت من انصبت عليه الإهانة. فربما لا تعرف أنها قد وقعت. أو تفهم ما قيل بالضبط. مثل القنصل دافيل. واليوم أكثر الإهانات بذاءة وفحشًا تظهر على الإنترنت، ولكن الضحايا الموجهة ضدهم لا يقرأونها قط. ولكن أولئك الذين يوجهون اللعنات يسمعون الكلمات بالتأكيد. ويتردد صداها فى عقولهم. وحتى لو كنت أنت الهدف المقصود بالسباب (وتسمع الإهانة وتفهمها). ستكون لديك القوة على استنكارها. والشتائم الوقحة لا شك فى أنها تجعل أولئك الذين ينطقون بها يشعرون بأنهم فى حال جيدة. ولكنهم نادرًا ما يصيبون هدفهم، لأنه من ذا الذى سوف يصدق مثل هذه الإهانات الموجهة ضدهم؟[10]

هذا النوع من الإساءة له غرض آخر. أن يحدد الفرق الجماعية بين "هم". "نحن". إذ يتم تصويرهم على أنهم من البشر أو أنهم ليسوا بشرًا على الإطلاق. نحن بشر، بجذورنا الضاربة فى القيم السامية. أما الأعداء الذين نصمهم بالشيطانية. سواء أولئك الذين تجرى فى عروقهم دماء غير نقية" أو "أبناء القردة والخنازير". فلا دور لهم فى المجتمع الإنسانى. إن الكلمات أو الصور تستخدم لانتزاعهم من القوانين والتابوهات التى تحكم العلاقات بين البشر المتساوين. هذه الكلمات المتطرفة المشبعة بالكراهية صارت الآن أشد فعالية بكثير بفضل وسائل الاتصال الجماهيرية[11] .

إن التاريخ الذى ينتهى فى الحاضر لا يكتمل قط. لقد أعدت كتابة هذا الفصل فى الشهور التى أعقبت تدمير مركز التجارة العالمى فى نيويورك. وهو يحمل علامة تلك

الأيام الجياشة بالحماسة. وفترة التوطئة لنشر هذا الكتاب فى سنة ٢٠٠٢م تغطى الحرب فى العراق. وأنا الآن أكتبه مرة ثانية. فى هذه المرة فى أعقاب الحرب. وفى أحد المعانى. فإن سؤال «ما الخطأ الذى وقع» الذى كان عنوان مقالة البروفيسور برنارد لويس فى مجلة The Atlantic Monthly فى يناير ٢٠٠٢م وعنوان أحسن كتبه مبيعًا، صار الآن تلخيصا لعصر من الماضى القريب. وأنا أقول الماضى. لأن الغزو العسكرى الذى حدث فى ربيع سنة ٢٠٠٣م قد نقلنا فيما وراء التشخيص الذى وضعه لويس. ووضعنا فى أرض مجهولة. ومثلما أنتج تدخل الغرب فى البلقان سيلاً من الكتب والمقالات والأعمال التليفزيونية والأفلام. فإن التدخل طويل المدى فى العراق يستتنسخ تلك العملية. والسبب واضح. فقد قال بسمارك ذات مرة إن مصالح ألمانيا فى البلقان لم تكن تستحق "العظام الصحية لفرد من الجنود البوميرانيين" [١٢] إن التضحية اليومية للجنود الغربيين(*) حول طبيعة أى صراع بعيد. تولد حاجة جديدة إلى الفهم.

وتكمن قوة لويس الكبرى فى نثره الرائق ومهارته فى تبسيط ما هو معقد [١٣]. ولكن هذا ينجح بأفضل ما يكون فى موضوع يكون القارئ على ألفة به. وكلما رأينا وعرفنا المزيد عن الشرق. قلت رنة الإقناع فى كلماته. وما بدا واضحًا لا لبس فيه عند النظر إليه من مسافة. قبل سنة ٢٠٠٣م، يبدو الآن أشد تعقيدًا وعويصًا عندما اقتربنا منه. وقد جادلت فى هذا الكتاب بأن وجهة النظر الغربية فى العالم المسلم فى حوض البحر المتوسط كانت تضرب بجذورها فى ماض بعيد، كما أن عواقب ذلك

(*) هذه "التضحية" التى يقوم بها الجنود الغربيون فى العراق وغيرها. تقابلها "تضحية" مفروضة على الشعب العراقى تفوق بأضعاف مضاعفة ما تنتجه التضحية الأولى- ولكن المهم أن قوى الهيمنة الغربية هى التى فرضت على شبابها وعلى أهل العراق هذه الخسائر لكى تحقق مكاسب الهيمنة لصالح احتكارات السلاح والبترول. وقوى الرأسمالية العالمية. وأنا مع المؤلف فى "أنهم" (الغرب) بحاجة إلى أن يفهم أنه ليس من حقه أن يقتل ويحرق فى أنحاء العالم من منطلق أنه يضع القانون العالمى ولا يخضع له. (المترجم)

الوضع ما تزال تؤثر فى المواقف الغربية حتى اليوم. ولكننى وجدت من يذكرنى بأن هذه العملية تبدلت على مر الزمان. وعلى حد تعبير جون أدامسون John Adamson :

"منذ عصر التنوير ... كان الغرب يتحدى العالم الإسلامى ليس فقط بفقه مختلف وإنما بمفهوم مختلف تمامًا عن الدولة. مع مبادئ أن الدينى والعلمانى يمكن (ويجب أن) يكونا مجالين منفصلين. وأن السلطة السياسية تصعد من الشعب ولا تصدر عن حاكم مقدس يعينه الرب. وأنه حتى تعاليم المسيحية يمكن أن تقابلها بالتشريع عندما تختلف مع الإرادة الشعبية.

"إن التحدى الفكرى الذى تطرحه الحداثة الغربية يختلف نوعيا عما كان يجرى من قبل"[١٤] وأدامسون محق تمامًا. فقد أنتج التحدى الذى طرحته الحداثة الغربية هياجًا فكريًا فى الشرق الإسلامى. ولكن ليس فى الشكل الذى وجد الغرب أنه من السهل فهمه. ولهذا فإن مقالة "What Went Wrong" (التى كتبها برنارد لويس) تحتاج إلى وضعها فى السياق، وعلى مدى الكثير من القرون كان الفكر السياسى والفلسفى قد أصابه الوهن فى الشرق. على الأقل لأن الحكام العثمانيين لم يشجعوه. ونتيجة لهذا وصلت ثمار عصر التنوير الأوربى إلى الشرق متأخرة إلى حد ما [١٥]. ومن بعدها سعى الشرقيون (ويسعون) للبحث فى عيون كثير من المفكرين المحدثين. لكى يحصلوا على الشكل السطحى للتقدم الاقتصادى والمادى. دون معرفة أن هذه تتطور من الالتزام بالتعليم والحرية فى مجال الفكر والعمل. ومجتمع مفتوح مدنى فى جوهره. وقد علق هؤلاء الباحثون فشل الشرق فى الاستنارة على نزعة معاداة التقدم العنيدة لديهم، والعقيدة السيئة البسيطة. ولكنهم توقعوا أكثر مما ينبغى. وأية مواجهة بين مثل الاستنارة ومجتمع تقليدى ستكون بالضرورة أمرًا صعبًا[١٦] .

ولم يحدث دائما أن كان مسار التقدم سهلاً حتى فى أوربا أو الولايات المتحدة[١٧]. فقد وجدت المقاومة ضد المجتمع العلمانى فى المناطق الريفية فى كل مكان. وخلال القرن التاسع عشر، كان كثير من المحافظين الأوربيين الذين لم يتصالحوا أبدًا مع المثل الأجنبية عن التقدم يكرهون كل جانب من جوانب الحداثة[١٨]. وبالنسبة للأغلبية

الريفية الساحقة. خاصة فى شرق وجنوب شرق أوربا. وفى فرنسا وإسبانيا وفى إيطاليا. لم تكن لهذه الأفكار السياسية والاجتماعية الجديدة أى معنى، فعادة ما كان المؤمنون يعتقدون أن قساوستهم يقولون لهم [١٩]. ولم تكن مقاومة التغيير مختلفة كثيرًا تحت الحكم الإسلامى .

ولكن التحدى الذى طرحته الأفكار السياسية والاجتماعية الجديدة. والتكنولوجيا الحديثة، أنتج أيضا استجابة حماسية بين الشرقيين سواء من خلفيات ريفية أو من خلفيات حضرية متعلمة[٢٠]. هذا التحدى من جانب الحداثة الأوربية حفز عملية إحياء فكرى لا مثيل لها منذ قرون. ففى المدن والقرى فى العالم الإسلامى بحوض البحر المتوسط. كانت هناك السلسلة نفسها من المواقف تجاه التغير والحداثة كما هى فى مدن أوربا الغربية. فبعض المسلمين المتعلمين. والمسيحيين المحليين واليهود اختاروا أسلوبا علمانيا للحياة. يعيشون بأثاث ومفروشات أوربية بدلاً من التقليدية ويقرأون الكتب بالفرنسية والإنجليزية. ويناقشون الأفكار بنفس حماسة الباريسيين أو أهل فيينا [٢١]. وبقى آخرون مؤمنين ولكنهم مشتبكون بالموضوعات المتولدة عن الاتصال بالغرب. والصورة التى رسمها مارشال هدجسون Marshall Hadgson للعالم المصرى محمد عبده يمكن أن تنسحب على طبقة بحالها من المفكرين المسلمين المشابهين :

"كان يجب أن يزور أوربا ليستعيد إيمانه بالإنسان. ولكنه لم يقبل شيئا من الغرب ما لم يكن قد اجتاز معاييره الصارمة. وعندما رفض "التقليد" والتراث لم يرفضهما لصالح التغريب ولكن تحبيذًا للاجتهاد المسلم... وكان متأثرًا بكثير من المفكرين الأوربيين المحدثين وأكثرهم تأثيرا Comte. الذى كانت نزعته الوضعية قد هزمت الموضوعية العلمية... لكن ذلك الذى دعا إلى نظام دينى جديد لمقابلة حاجة إنسانية مستمرة. اشترط أن يكون متسقًا مع العلم. ولكن محمد عبده كان مقتنعًا بأن الإسلام هو الذى يستطيع أن يقدم ذلك النظام الدينى"[٢٢] .

كان المفكرون الإسلاميون فى أواخر القرن التاسع عشر واعين تمامًا بالحداثة الأوربية فى تجلياتها المادية والسياسية [٢٣]. والبعض. مثل محمد عبده. عرفوا الثورة الفكرية الأوربية التى برزت منها. ولكن تفكيرهم تطور فى اتجاه مضاد لما رأوا أنه الشخصية السلبية للغرب. وقد نما هذا من تراث طويل. ففى الأزهر بالقاهرة. وهو أقدم جامعة فى العالم. تجادل العلماء حول شكل العقيدة وبنيتها منذ أواخر القرن العاشر الميلادى. هذا التراث من النقد والبحث فى القاهرة ظل باقيا بعد اختفاء المنافسين فى دمشق وبغداد. ومنذ بواكير القرن التاسع عشر صارت المدينة رائدة فى الطباعة ونشر المواد العلمانية والقومية والدينية أيضا. وفى سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى. وبينما كانت مصر ما تزال تحت الاستعمار البريطانى. بدأ الكثير من الجدل السياسى فى القاهرة يركز من جديد على القرآن الكريم والحديث طلبًا للإرشاد. وكان لابد من الحرص فى القيام بهذا. فقد كان الإسلام ضد فكرة البدعة. التى كانت لابد وأن تقوض مفهوم الوحى الكامل والمجتمع المثالى[٢٤]. إذ كان لابد من تقديم التغيير. بشكل بلاغى. على أنه. لا تغيير". أو من الأفضل على أنه رجوع إلى حالة للمجتمع أسبق زمنًا وأكثر نقاء. وكان لابد من توفيق أية ممارسة جديدة داخل نموذج لا يتغير. ومع هذا. كان هناك تراث من التفكير والتدبر. بحثًا عن إعادة فحص المسائل التى كان قد "أغلق" باب الاجتهاد فيها قبل قرون وإعادة تفسيرها [٢٥].

وفى تاريخ الإسلام الباكر كانت الأفكار قد انتقلت بواسطة التلاميذ. الذين كان كل منهم قد استمع إلى كلمات شيخه. ثم نقلها بدوره إلى تلاميذه هو. لقد كانت سلسلة تربط كل باحث برباط قوى مع أسلافه ومع أولئك الذين كانوا بدورهم قد تعلموا الحقيقة من بين شفتيه. وثمة سلسلة روابط مماثلة ربطت بين المنظرين والناشطين فى حركة الإحياء الإسلامى. وأضاف كل منهم إسهامه الخاص. وهناك حركة فكرية تركزت فى محاربة قوة الغرب بدأ بشخصية مركبة هو جمال الدين الأفغانى. الذى كان يلقى دروسه فى مصر. ثم نفى إلى باريس. وفى النهاية مات فى إستنبول فى سنة ١٨٩٧م. فقد دعا المسلمين لمقاومة العرب. ولتحويل أسلحة الغرب وأساليبه الفنية ضده [٢٦].

وكان أحد أخلص أنصاره محمد عبده. وعندما طرد الأفغانى من مصر. تبعه محمد عبده إلى باريس. وهناك نشر جريدة لم تعش طويلاً. "العروة الوثقى". التى دعت إلى الوحدة الإسلامية فى مواجهة القوة الغربية. وقد استمرت أعمال محمد عبده على يد واحد من تلاميذه، هو السورى رشيد رضا. وهذا بدور كان تأثيره عظيما على حسن البنا، الذى أسس جماعة الإخوان المسلمين فى سنة ١٩٢٨م. وعلى أكبر المنظرين فيها. سيد قطب (٢٧) .

لقد أسس حسن البنا منظمة سياسية ودينية جديدة بدأت مثل "نادى شباب مع تأكيدها الرئيسى على الإصلاح الأخلاقى من خلال التواصل. والمعلومات والدعاية"(٢٨). لقد بدأ البنا تقليدًا حيث تحالفت الشئون السياسية مع تقديم المساعدة للفقراء والمعدمين. وبحلول سنة ١٩٤٠م كان هناك أكثر من خمسمائة فرع للمنظمة فى مصر. وقد ارتفع هذا الرقم إلى خمسة آلاف فرع سنة ١٩٤٦م. وقد وجدت جمعية الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا أتباعًا لها فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. حيث كانوا غالبًا يتعرضون لاضطهاد لا يرحم من السلطات العلمانية. وقال الملك عبد العزيز آل سعود ملك السعودية إنه كان له "إخوانه". وفى أدب رفض عرضهم لتأسيس فرع فى مملكته.

كان سيد قطب عالمًا وكاتبًا غزير الإنتاج على السواء. وقد كتب أعظم مؤلفاته (وأكثرها إثارة للجدل) فى سجنه فى ستينيات القرن العشرين. وصار واحدًا من الشخصيات البارزة فى الإخوان المسلمين. وعندما تم إعدامه بأمر من الحكومة المصرية، تحول إلى شهيد فى عيون مؤيديه. وهناك مصرى شاب، هو عبد السلام فرج. لقى المصير نفسه الذى لقيه سيد قطب. إذ كان فى سنة ١٩٧٩م قد أسس مجموعة. "جماعة الجهاد". وفى. أكتوبر سنة ١٩٨١م. نجحت "الجهاد" فى قتل أنور السادات رئيس جمهورية مصر الذى كانوا قد أدانوه بأنه حاكم شرير. وحسبما أعلن واحد من الذين اغتالوه على الملأ. "أنا الملازم خالد الإسلامبولى، لقد قتلت الفرعون ولا أخشى الموت" (٢٩). وبالنسبة لفرج والإسلامبولى وجماعتهما كان السادات

يستحق الموت "علينا أن نعمل بحكم الله فى بلادنا أولاً. ثم نجعل كلمة الله هى العليا ... وليس ثمة شك فى أن أول ميدان للجهاد هو استئصال زعماء الكفر (الفاسدين من أمثال السادات) وأن نضع محلهم نظامًا إسلاميًا كاملاً. ومن هناك يجب أن نبدأ[٣٠] .

كانت جماعة الجهاد تؤمن بالقوة السحرية القريبة للفعل الثورى الجسور. وفى رأيهم أن «قتل الفرعون سوف يؤدى فى نهاية المطاف إلى إعادة بناء الدولة الإسلامية الحقة[٣١]. وعلى عكس كتابات سيد قطب المفرطة والتفصيلية، تمثل إنتاج فرج فى كتاب مفرد وحيد، عبارة عن كتيب فى ثمانين صفحة، «الفريضة الغائبة»، ولكن تأثيره كان يفوق أى تناسب مع عدد النسخ التى طبعت منه[٣٢]. كان فرج مثل أسلافه، قد انضم إلى السلسلة. فقد طور فكرة أنه فى الموقف اليائس السائد أيامه، صار الجهاد المسلح الفريضة الفردية على كل مسلم حقيقى. كان هذا فى عينى فرج الفريضة التى كانت قد أهملت. وإذا لم يكن تجديدًا بالضبط، فقد كان هذا انعكاسًا لعدة قرون من الممارسة الإسلامية. ذلك أن مثل هذا المفهوم عن الصراع الذى يتم خوضه خلال فعل رمزى نجد له نظيرًا فى النزعة العدمية لدى الفوضوى الروسى نيتشايف **Nechaev** الذى عاش فى القرن التاسع عشر. فقد سمى القتل السياسى، "الدعاية للفعل" . ولكن فى روسيا برهنت هذه الأفكار على أنها أفكار هائمة وشاذة، وعندما انتشرت فى الغرب، لم يكن للقتل العدمى سوى جزء قليل من التأثير الذى كان نيتشايف قد توقعه.

وفى الشرق الإسلامى كان للعنف الرمزى تاريخ مختلف. فقد ربط فرج الجهاد بأول أيام العقيدة، مما أعطى القتل عنده سياقًا وإيديولوجية صلبة كان يفتقر إليها الفوضوى نيتشايف الذى لا جذور له. فعلى مراحل تخلى الإحيائيون الإسلاميون أيضا عن أى أمل فى أن تأتى الفضيلة من أى دولة مسلمة علمانية. والمجتمع الربانى فقط «الذى يرشده القرآن الكريم» هو الذى يحمل الأمل. وقد رفضوا أى حل وسط أو مواءمة مع القوى الدنيوية؛ سواء حكومات المسلمين المستبدين. أو تلك الحكومة بالديمقراطية الجماهيرية على النمط الغربى. فقد كان يدفعهم اقتناع بأنه من خلال تضحيات لا نهاية لها وعزم لا يلين سوف ينتصر جهادهم فى النهاية. أما بالنسبة

للثوريين، فإن الدم وتضحيات الشهداء سوف تستعيد فى النهاية طهارة العقيدة ونقاءها. وعلاوة على ذلك، فإن القضاء على كل واحد من أولئك الذين. عاثوا فى الأرض فسادًا سوف يزيد من سرعة الخلاص. أما كيف كان يتم تحديد مثل هؤلاء الأعداء فكان أمرًا مرتبطًا فقط بالتراث والعادة الراسخة منذ زمن طويل فحسب[٣٣]. وتم تعديل المذمة والسباب القديم لكى يفى بمتطلبات الشئون السياسية المعاصرة.

وفى العصر الحديث تطور معنى الجهاد والممارسة الجديدة له [٣٤]. وكان للتحول وجهان متمايزان: معناه داخل العالم الإسلامى وتأثيره خارج هذا العالم. ففى سنة ١٩٧٨م انتهكت حكومة إيران الثورية جميع القواعد الدبلوماسية وقبضت على طاقم سفارة الولايات المتحدة فى طهران. وبعدها بسنوات، وعلى تليفزيون NBC. شرح الزعيم الروحى لإيران آية الله الخومينى نفسه[٣٥]. فقد تحدث عن أمريكا بوصفها. الشيطان الأكبر" و"الحية الجريحة". وكان رد فعل الولايات المتحدة هياجًا مستمرًا بسبب مواطنيها والاستياء من وصفها بالشيطان. فقد كانت فى ذلك الحين تؤازر العراق فى حربها مع إيران.

وقلائل هم الذين لاحظوا عبارة «الحية الجريحة» التى كانت الجزء الأخير من مسبة الخومينى لأمريكا. فقد كانت العبارة مصنفة على اعتبار أنها مجرد شتيمة. والحقيقة أنه كان هناك معنى أكثر عمقًا كامنًا تحت هذا الهجوم الكلامى. فقد كان آية الله يشير إلى الحكاية القديمة عن الإمام على بن أبى طالب، والد الحسين الذى استشهد فى كربلاء. فقد كان موت الحسين القاسى اللحظة المؤسسة للمذهب الشيعى فى الإسلام. وقد أعطى هذا مغزى خاصا للكلام فى إيران. فقد حكت القصة أن الشيطان ذات مرة قرر أن يخرج الإمام عن صلاته[٣٦]. وعندئذ اتخذ الشيطان شكل الحية وعض ساقى الإمام بصورة مستمرة. وشعر الإمام بالألم لكنه واصل صلواته كما لو أن شيئا لم يحدث. وما كان الخومينى يقوله" إن الشيطان (الولايات المتحدة) ربما يجرح لكنه لم يكن ليقدر على أن يعرقل مسلمًا حقًا. وربما تكون الحية الجريحة أكثر شرًا ولكنها سوف تضعف وتموت فى النهاية [٣٧].. وأمريكا القوية. سوف تستسلم فى النهاية لقوة الإسلام الإلهية".

وليست هناك مؤسسة سجلت الأمثلة الحديثة عن المذمة المسيحية العلنية ضد العالم الإسلامى أو جمعتها. وعلى أية حال، هناك منظمة ترجمت ثم أذاعت الكثير من الهجائيات الإسلامية ضد الغرب وضد إسرائيل. فقد تم تأسيس معهد الشرق الأوسط لبحوث الإعلام (MEMRI. فى واشنطن العاصمة فى سنة ١٩٩٨م، بهدف. بناء جسر على الفجوة اللغوية بين الشرق الأوسط والغرب". وهدفه السياسى أن. يجمع المعلومات اللازمة للجدل حول سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط؛ وله وضعية منظمة مستقلة، غير مشاركة، ولا تسعى للربح، تترجم وتوزع المادة فى ثمان لغات مختلفة"[٣٨]. وعلى الرغم من هذه المزاعم، فإن التزامه السياسى أحادى الفكر مكشوف، وبمتابعته، فى خضم مواد كثيرة، جمع المعهد فى دأب مذمة وسبابًا عربيًا عامًا.

وبعض أكثر النصوص التى ترجمها MEMEI حدة هى خطبة الجمعة الموجهة إلى المؤمنين فى الجوامع، التى تسجل ثم تنشر غالبا بفضل التكنولوجيا الحديثة على شبكة الإنترنت (وقد وجدت أيضا خطبًا فى الغرب تمثل مصدرًا قيمًا عن كلمات الكراهية. وفى كلا الحالين هناك رسالة سياسية يتم التعبير عنها بمصطلحات سياسية جدًا). وفى يوم ٢١ مارس سنة ٢٠٠٣م أذاع االتليفزيون الفلسطينى خطبة للشيخ المديرس. وقد تحدث بطريقة لا لبس فيها بالنسبة لسامعيه [*]؛ فقد قال إن الله أغرق فرعون ومن معه، وسيغرق الفراعنة فى كل جيل، وسيغرق القزم الرئيس الأمريكى فرعون كل زمان. وقال إن أمريكا الصليبية الصهيونية قد بدأت بمهاجمة العراق بلد الإسلام والعروبة وهذه هى حرب صليبية صهيونية حسبما قال بوش ذلك الفرعون الصغير[٣٩].

إن العقيدة توفر الإطار المرجعى فى كل من المذمة الإسلامية والمسيحية. وفى الخطب السعودية التى اختارت منها MEMRI نماذج مختارة، قال الخطيب[**] إنه

(*) لايمكن الحصول على النص العربى لهذه الخطبة. ولهذا آثرت إبراز أهم ما جاء بها فقط (المترجم)

(**) سوف يتم اختصار هذه الخطبة وإبراز توجهاتها الأساسية للسبب السابق ذكره فى الملاحظة السابقة. (المترجم)

سوف يتكلم عن المسيحية بوصفها ديانة حادت عن سواء السبيل، وإنه سوف يفحص هذه الديانة ويراجع تاريخها الحافل بالكراهية والشناعة والحروب ضد الإسلام والمسلمين. وقال إنهم يمكن أن يروا أن هذه الديانة التي ينتمي إليها كثيرون من سكان الأرض حادت عن الصراط المستقيم باعتناق فكرة الثالوث؛ فهم يرون المسيح عليه السلام ابن الله. كما أن النصارى يعتقدون أن المسيح قد صلب. «وبعد هذا كله يتحدث البعض عن التقريب بين ديننا ودينهم»[٤٠].

وعلى أية حال، وكما سنرى، فمن الممكن أن يكون المسيحيون الغيورون على نفس القدر من الجهل ويوجهون الإهانات نفسها إلى المسلمين[٤١].

* * *

لقد تغير الجهاد في معناه. وكذلك تغير معنى مصطلح. الحملة الصليبية". وكما رأينا في الفصل الثامن، تطورت الكلمة منذ أوائل القرن التاسع عشر لتتخذ معنيين متوازيين. أحدهما المصطلح الفني لوصف الحملة الصليبية "التاريخية" في الشرق الأوسط، والتي كانت قد اتخذت قبل ذلك مجموعة من المسميات المختلفة. والآخر كان مرادفًا لـ. القتال بشراسة من أجل "قضية خيرة". وربما كانت عبارة توماس جيفرسون Thomas Jefferson . حملة صليبية ضد الجهل" Crusade against Ignorance أول استخدام بهذا المعنى[٤٢] بيد أن هذا الطراز من التشدد احتفظ بروابط قوية مع القيم الأقدم، على الرغم من أن هذا لا يحظى باعتراف واسع في الغرب مثلما يحظى إحياء مفهوم الجهاد. ولم أجد بالفعل شيئا منشورا عن التقاليد الجديدة للحملة الصليبية على حين أن هناك سيلًا من الكتب عن الجهاد في الإسلام. بيد أن البرهان والممارسة الدالة على شن الحملات الصليبية موجودة وواضحة لكل ذي عينين.

وما تزال" حرب الكلام" تستخدم على نطاق واسع. فقد وصف أحد القساوسة زيارة ناجحة إلى الهند فى مارس سنة ٢٠٠٠م بقوله. «دعيت لكى أدعو إلى حملة صليبية فى الهند .... وعندما وصلنا، رأيت على الفور الخراب والذبول الروحى، وقد أحزن هذا قلبى. إذ إن المعابد الهندوسية كانت موجودة فعلاً فى كل ركن..... المجد للرب، فقد تم إنقاذ أربعمائة وعشرين من الهندوس»[٤٣] وقد بدا لى من غير المألوف أنه اندهش من وجود المعابد الهندوسية عند كل ركن فى الهند التى زارها: فما الذى كان يتوقعه؟ وعلى أية حال، فإن هذا الدليل على هذا الوجود القوى للعدو لم يثبط عزيمة الآخرين. ومنذ سنة ١٩٧٦م كان قسيس آخر، راى كندريك **Ray Kendrick** الذى سلَّم **Kings Cross Victory Crusades** فى جميع أنحاء الهند[٤٤]. إذ إنه هو وفريقه المخلص. لهم رؤية موحدة فى تسليم مليون نسخة من الكتاب المقدس لشعب الهند الذين يتضورون جوعا إلى إنجيل يسوع المسيح ولم يمسكوا كتابًا مقدسًا بأيديهم [٤٥]. وقد استخدمت لغة الحرب المقدسة أيضامن جانب مبشرين مسيحيين آخرين. واثنان منهم، يعملان فى الهند أيضا، وصفا بأنهما "محاربان جديران":

" ما الذى يطرأ على ذهنك عندما يقول أحدهم حرب؟ هل تفكر فى قصف بيرل هاربور بالقنابل، وربما الحرب الكورية أو الفيتنامية، أو عاصفة الصحراء، أو الصراعات الجارية فى البوسنة، وكوسوفو، أو تيمور الشرقية؟ وبقدر ما يمكن أن تكون هذه الحروب رهيبة، اليوم، فأنا أكتب عن حرب الحروب جميعًا واثنين من المحاربين الجديرين. إنها حرب مغزاها. أن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم مع ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماوات. (رسالة بولس الرسول إلى أهل افسوس إصحاح (٦: ١١، ١٢) .

" إنها حرب لتحرير أولئك الذين أسرهم الشيطان وأعوانه. فمن هم المحاربون فى جيش الرب؟ إنهم المسيحيون الذين يعلنون الحرية الموجودة فى يسوع المسيح.. ومن بين محاربى الرب المخلصين الكثيرين، اثنان من المبعوثين للتبشير فى الهند

هما جيريس وجوانيتا بولارد، جديران بميدالية الشرف المتميزة من الرب. فإنهما يستمران في مهاجمة معاقل الشيطان في الهند ويسعيان إلى تحرير الأسرى"(٤٦).

لقد كانا "يحاربان في الخطوط الأمامية". الحرب في سبيل قضية خيرة. صليبية. بقيت بشكل واضح جزءا أساسيًا من الحوار المسيحي(٤٧) هذا الاستخدام المنشود لكلمة. "حملة صليبية" قوبل بالإنكار من البروفيسور برنارد لويس الذي كتب ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١م:

" في الاستخدام الغربي، كانت هذه الكلمة قد فقدت منذ زمن طويل معناها الأصلي (الحرب في سبيل الصليب) وربما لا يدرك كثيرون أن هذا هو اشتقاق الاسم. وفي الوقت الحالي» تعني كلمة "حملة صليبية" دائمًا ببساطة حملة حماسية من أجل قضية خيرة. وقد تكون هذه القضية سياسية أو عسكرية، على الرغم من أن هذا المعنى نادر للغاية. والأكثر شيوعًا قضية اجتماعية، أو أخلاقية أو بيئية. وفي الاستخدام الغربي الحديث نادرًا ما تكون دينية"(٤٨).

هذه ملاحظة عجيبة. فقدت معناها الأصلي منذ زمن طويل ...... نادرًا ما تكون دينية"؟ إن تأكيدات لويس التي يسوقها عالم شهير بهذا الوزن، قد ابتكرت للرد على زلة اللسان المحرجة سياسيًا من رئيس الولايات المتحدة عندما استخدم كلمة. الحملة الصليبية" وهو ما سأعود إليه بعد قليل. لقد كان البروفيسور يعدل تحديًا كلاسيكيا. إن لم يكن وقحًا) :"من الذي ستصدقه؟ أنا أم أذنيك الكاذبتين؟». والحقيقة أن الربط بين الحملة الصليبية بقي قائمًا في كل مكان داخل المسيحية الإنجيلية وخارجها على حد سواء(٤٩). بيد أن لويس لم يكن زائغًا تمامًا في تفسيره. ففي الولايات المتحدة تعني الحملة الصليبية أيضا بالنسبة لمعظم المسيحيين "شيء أخلاقي يتعلق بالفضيلة" وبتأكيد جزء فقط من القصة، نشر الجهل وليس التنوير. ومن سوء الحظ أن تأثير كلمة. "الحملة الصليبية" على العالم خارج الولايات المتحدة مشابه لتأثير كلمة. "الجهاد" فيما وراء المجتمع الإسلامي والسياق الإسلامي(٥٠).

وكل من "الجهاد" و"الحملة الصليبية" بقايا من زمن سابق موجودان فى الحاضر وتماما مثلما كانت أفكار الجهاد تطرح دائما داخل المجتمع الإسلامى، فإن "الحملة الصليبية" أيضا لها تاريخ طويل ومستمر غير منكور داخل «عالم المسيحية». ولكن الجهاد الجديد والحملة الصليبية الجديدة تبدلا. وفى غمار عملية التبدل اكتسب قوة سياسية واجتماعية جديدة. إنهما ليسا حفريات حية وإنما هما من نتاج القرن العشرين[٥١].

إن" الحملة الصليبية. فى معانيها القديمة ما تزال لها أنصارها العلنيون[٥٢] فقد أسس الدكتور روبرت مورى **Robert Morey** وهو خصم عنيف ضد الإسلام، ناديًا صليبيًا.**Crusaders club** وبه ثلاث درجات. صليبى يدفع خمسة وعشرين دولارًا يوميًا وفى مقابلها يتلقى "شريط الشهر" مجانا وبطاقة مصمغة تلصق على مصدر السيارة. ولكى تصبح "قلب الأسد" يجب دفع مائة دولار شهريا وفى مقابل هذا يتلقى المرء شريط الشهر المجانى وبطاقة مصمغة بالإضافة إلى اشتراك فى مجلة **Quarterly Journal of Biblical Apologetics** وكوبًا خاصًا للقهوة يمنح المدافعين عن الدين **Faith Defenders Ciffee Travel Muq** . و"الفارس" عليه أن يلتزم بدفع خمسة آلاف دولار سنويا. ولكن الفارس يمنح سيفًا صليبيًا للمدافعين عن الدين **Faith Defenders Crusades Sword** ،ويتلقى رسائل ربع سنوية خاصة من الدكتور مورى، وكذلك كل الفوائد التى ينالها أصحاب الدرجات الأدنى من العضوية. وعلى قمة السلسلة عضوية بلاط الملك ريتشارد. وعضو البلاط يمنح ميزة الوصول إلى البريد الإلكترونى الخاص بالدكتور بوب، وقطعة مختارة من رداء المعركة، ودعوة مجانية لمأدبة نادى الصليبيين السنوية. وعلى أية حال، فإن جميع الأعضاء يشتركون فى إعلان المبادئ نفسه:

"إن الدين الإسلامى يمثل أكبر خطر ضد الإنسانية عرفته الدنيا حتى الآن. وأنا أوافق على هذا الإعلان وسوف أقدم مساندتى. وأفهم أيضًا أن الهبة التى أقدمها سوف تزيد من جهد المدافعين عن الدين لكى تصل إلى الأرواح الضائعة من أجل

المسيح. وإننى أقف ثابتًا مع المدافعين عن الدين وأفهم المزيد أننا فى هذه اللحظة من التاريخ، فى أزمة التناسب اللحمى"(٣٢).

* * *

من السهل رفض هذه الحملة والحملات المماثلة واستبعادها باعتبارها غير مهمة، ولكن وسائل الاتصال الحديثة قد أعطت كلا من «الجهاد» الجديد. «الحملة الصليبية» الجديدة مدى غير عادى، أكبر بكثير مما كان موجودًا بالفعل.

"المذمة" هو الاسم الذى استخدمته لوصف النظام التقليدى والتاريخى الذى كان فيه عالم "المسيحية" يرتبط "بالعالم الإسلامى". لقد تجمع أولًا فى الماضى البعيد، ولكن هذا البناء أعيد بناؤه، وأضيف إليه وتم تحديثه على مر القرون. ولكن مثل أى بناء تاريخى آخر، تم بناؤه على أسس قديمة. فالمذمة عن اللعن. وليست حول "اللغة السيئة" المستخدمة يوميًا، ولكنها عن الشتيمة الرسمية والمقصودة. وكثير من الحضارات تستخدم اللعنات أو كلمات القوة، ولكن فى كل من العالم المسيحى والعالم الإسلامى كان النطق بالمذمة والسباب الرسمى عملًا أكثر رصانة، كما أنه مفعم بالعواقب الوخيمة. ولكى نستشعر قوة مثل هذه الشتائم يمكن أن نقرأ عملًا يضم كافة أنواع السباب **Great Cursing of Archbishop Dunbar of Glasgo** التى صبها على قطاع الطرق على الحدود الأنجلو. سكسونية. وهى مكتوبة باللغة الأسكتلندية فى الأصل، وهى تفقد القليل من نكهتها عندما تقدم باللغة الإنجليزية القياسية.

"إننى ألعن رأسهم وكل شعرة فى رأسهم؛ ألعن وجههم، وعقلهم وفمهم، وأنفهم، ولسانهم، وأسنانهم، وجبهتهم، وكتفهم، وصدرهم. وقلبهم، ومعدتهم، وظهرهم، ومرفقهم، وذراعيهم، وساقيهم، وقدميهم، وكل جزء فى جسدهم. من قمة رأسهم إلى أخمص قدميهم. من قدام ومن خلف. فى الداخل وفى الخارج.

" إننى ألعنهم ذاهبين وألعنهم راكبين. ألعنهم واقفين وألعنهم جالسين. ألعنهم وهم يأكلون وألعنهم وهم يشربون. ألعنهم وهم ينهضون وألعنهم وهم رقود، ألعنهم فى بيوتهم وألعنهم وهم بعيدون عن بيوتهم. ألعنهم داخل بيوتهم وألعنهم خارج بيوتهم، ألعن زوجاتهم. وأولادهم. وخدمهم الذين يشاركون معهم فى أعمالهم. ألعن محاصيلهم. وقطعانهم. وصوفهم. وأغنامهم، وخيولهم. وخنازيرهم، وأوزهم. ودجاجاتهم. وماشيتهم. إننى أضع لعنتى على قاعاتهم. وغرفهم. ومطابخهم. وعلى ركائزهم. ومخازن غلالهم. ومظلات أبقارهم. وساحاتهم، وعلى أرضهم المزروعة بالكرنب. ومحاريثهم. وآلاتهم الزراعية. والبضائع والبيوت اللازمة لإعاشتهم ورفاهيتهم. ولتتنزل عليهم كل الرغبات واللعنات الشريرة منذ بداية الدنيا. حتى هذه الساعة ولتنزل عليهم لعنة الرب التى تنزل على الشيطان وتابعه. والتى طردتهم من السماء وألقت بهم فى قاع الجحيم".

"وأخيرا. فإننى أدينهم بشكل دائم ليقبعوا فى الدرك الأسفل من الجحيم. حيث يبقون مع الشيطان وأتباعه على الدوام. ولتذهب أجسادهم إلى المشانق ... لتشنق أولا، ثم تنهشها الكلاب وتمزقها الخنازير وغيرها من الوحوش البرية المكروهة من العالم كله. ويذهب نور عيونهم، وتذهب أرواحهم بعيدا عن وجه الرب. وتنقضى سمعتهم الطيبة من العالم. حتى يمتنعوا عن خطاياهم المذكورة. وينهضوا من هذه اللعنة الرهيبة ويتوبوا ويكفروا عن خطاياهم" [٥٤].

هذه اللعنة الكنسية التى تنتمى إلى القرن السادس عشر ضد مرتكبى الشر لها رنة قديمة. بيد أن لها أصداء حديثة أيضا. ولم تكن الفتوى الإسلامية معروفة فعلاً فى الغرب حتى إدانة آية الله الخومينى لسلمان رشدى سنة ١٩٨٩م بسبب روايته "آيات شيطانية". فقد قال الخومينى إن الأثر الشرير والملعون للكتاب يجعل مؤلفه مستحقًا للموت. وبطبيعة الحال. فى الوقت نفسه، كان القساوسة فى الكنائس المسيحية يصوغون كلامًا ماكرًا ضد أشكال أخرى من "الشر" يخاطبون به جماعاتهم، ولكن أكثر عقوباتهم تطرفًا كانت روحية [٥٥] وعلاوة على ذلك، كان لجهودهم تأثير قليل

خارج جماعات المؤمنين المسيحيين فى مجتمع به عدد كبير من غير المؤمنين. وبينما دفع الخومينى لغة الشر مرة أخرى إلى مركز الساحة السياسية، كانت الشخصيات السياسية فى الغرب أشد حرصًا .

والاستثناء الكلاسيكى الوحيد كان الرئيس الأمريكى رونالد ريجان "وإمبراطورية الشر" التى صكها فى هجومه على الاتحاد السوفييتى. والخطاب الذى ألقاه الرئيس ريجان فى مجلس العموم البريطانى يوم. يونيو ١٩٨٢م صار منذ تلك الحين معروفًا عامة باسم "خطاب إمبراطورية الشر" [٥٦]. ولكن. وللغرابة. أن هذه الكلمات لا توجد فى النص الرسمى. ففى تلك المناسبة، وأمام البرلمان البريطانى المشهور بمشاكسته. كان الرئيس ريجان قد تحاشى بالفعل هذه العبارة العاطفية. فقد كان يحتفظ بها لجمهور مختلف تمامًا من السامعين.

وكان ريتشارد سيزيك Richard C.Cizik. نائب رئيس الرابطة الوطنية للإنجيليين National Association Evangelicals. قد أشار إلى أن ريجان ألقى خطبة عن الحرية الدينية. وفى. مارس ١٩٨٣م اعتذر الرئيس. وفى فندق شيراتون بأورلاندو فى فلوريدا. خاطب ريجان المجتمعين من الإنجيليين. وقد غطى كافة الموضوعات التقليدية التى كانت تشغل بال مستمعيه. فقد تحدث عن الإجهاض وعن الصلاة فى المدارس وعن "اليقظة الروحية" فى أميركا. ثم تحدث عن التاريخ: "ولكن إذا كان التاريخ يعلمنا شيئًا. إنه يعلمنا أن ترضية أصحاب العقول البسيطة أو التفكير الذى يلبى رغباتنا عن خصومنا حماقة. فإنه يعنى خيانة ماضينا ... ولهذا أحثكم أن تجهروا بالقول ضد أولئك الذين سوف يضعون الولايات المتحدة فى موضع الدونية العسكرية والأخلاقية ... إننى أحثكم على أن تنتبهوا لإغراء التكبر- إغراء الإعلان بسعادة عن أنكم فوق الجميع وبأن تصموا كلا الجانبين بأنهم مخطئون. أن تتجاهلوا حقائق التاريخ والنبضات العدوانية لإمبراطورية شريرة. ببساطة أن تسمى سباق التسلح سوء تفاهم هائل ومن ثم تنأوا بأنفسكم عن الصراع بين الصواب والخطأ والشر" [٥٧] .

كان ريجان، وهو خطيب مفوه، قد اختار سجله بحيث يناسب مستمعيه. ففى لندن كان قصده أن يلمس قواعد مختلفة؛ الحرية، الديموقراطية، نقطة فارقة فى التاريخ. وقد أعلن أن الشمولية والشيوعية مصيرهما "مزبلة التاريخ". ومن الناحية الرمزية، ربما، كان الخطاب المسهب عن "الشر" محفوظًا من أجل مجموعة صغيرة، جماعة القساوسة فى أورلاندو(٥٨).

فى أوربا، غالبًا ما كان ريجان يلعن على أنه مهرج، يخلط فى الحديث، يقول ما لا يمكن قوله، يترنح خارج حدود الخطاب السياسى الصحيح(٥٩). وكان ذلك أيضًا رأيى حتى سمعته يتحدث مباشرة إلى الأمة فى واحدة من "دردشاته بجانب المدفأة" التى كان يذيعها بصورة منتظمة، على غرار أحاديث فرانكلين ديلانو روزفيلت الرائدة فى الراديو فى ثلاثينيات القرن العشرين. ففى كل يوم سبت، بداية من سنة ١٩٨٢م، كان ريجان يتحدث إلى الأمريكان عن موضوعات الساعة السياسية والحكومية. كان الأداء بلا عيب يشوبه، مقنعًا حتى للمتخصصين. فقد كانت كل كلمة تسقط فى مكانها، وكل نغمة تشدك إلى رجل يتحدث إليك عبر الغرفة، وليس عبر القارة. ومن ثم استمعت إلى خطبه حيثما وحينما استطعت. وبعدها بسنوات أدركت أن الخطباء الثلاثة الأساتذة فى أمريكا. روزفلت، وريجان وكلينتون. كانوا جميعا يمكنهم الحديث إلى الملايين ومع هذا يبدو وكأنهم يتبادلون الحديث (دردشة) مع صديق. وفى بعض الأحيان كان يمكن لرسالتهم أن تكون فى بيتها وحميمية، وفى أوقات أخرى أكثر رئاسية ورزانة. ولم تكن ميزتهم ماثلة فقط فى الكلمة الصحيحة، أو العبارة الإخبارية، ولكن فى ذلك السجل الصحيح، والنغمة المناسبة للحدث. فقد كان لها أن تقود المستمع (أو المشاهد) بإغوائه عبر رسائلهم، دونما إضاعة أية فرصة. كان ثلاثتهم جميعا مقنعين كبارًا فى الشئون السياسية فى القرن العشرين(٦٠).

ولكن أحدا منهم لم يكن، ولا حتى ريجان، صليبيًا متحمسًا بالمعنى المسيحى(٦١). كانت حملة ريجان ضد الشيوعية، ناتجة عن عقيدته الأساسية بوصفه محافظًا وجمهوريًا وهى عقيدة اكتسبها كلها مع زواجه الثانى. وقد لعبت القناعات الدينية

دورًا صغيرًا نسبيًا فى السيرة العملية لكل من روزفلت وكلينتون، ولكن خليفة كلينتون، جورج ووكر بوش، ابن نائب ريجان، كان مختلفًا. فهو، مثل ريجان وكان متحولاً، ولكنه بخلاف ريجان كان ابنًا للأرستقراطية الجمهورية. كان تحوله من الخطايا التى لا تحصى للجسد (ولا سيما الكحوليات) إلى نشوة كونه "ثابت الإيمان من جديد" (بنص كلامه) بيسوع المسيح. وقد شك البعض فى إخلاصه، ولكن لا دليل هناك على مثل هذا الاستخفاف بالدنيا. وجورج بوش مؤمن حقيقى، فى الواقع مثل معظم رفاقه الأمريكيين. فهو يقرأ الكتاب المقدس يوميا[٦٢].

* * *

منذ بداية هذا الكتاب كنت أعمل بما صار الآن افتراضًا تاريخيًا تقليديًا بأنه، خلال القرن العشرين. صار الغرب علمانيا بصورة متزايدة، على حين أنه فى العالم الإسلامى الشرقى بقيت العقيدة الدينية الأكثر قوة فى المجتمع وفى الشئون السياسية على السواء. وأنا لا أشير إلى المغالطات القديمة المتهالكة عن الشرق الذى لا يتغير والملتصق فى ماض لا يمكن تبديله، أو حسبما أوضح إدوارد سعيد بشكل مشهور "محدود فى الحالة الثابتة لشيء تجمد مرة وإلى الأبد فى رحاب الزمان". وأضاف "بفعل نظرة المفكرين الغربيين" ولكنى أظن أن هذا تبسيط يفوق الحد. فإن هناك آخرين من المحليين، الأقرب إلى الوطن، كانوا منغمسين أيضا فى العملية. ولكن عندما كنت أحملق فى الشرق فشلت فى أن ألاحظ ما كان يحدث للغرب وهو أمر أشد غرابة لأن موضوعى الأساسى هو رد الفعل المنعكس الذى أشار إليه باختين وطبيعة رد الفعل فى العلاقة بين الأعداء فى المرآة.

فى يوم تولية رئيس الولايات المتحدة جورج دبليو بوش الذى صار الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة، مسيحى مولود من جديد. وعلى العكس من مخاوف الكثيرين. بدا فى البداية أن لهذا تأثيرا قليلاً وهو ما أملته الفطنة السياسية. لقد أدار الرئيس بوش الثانى كارثة سبتمبر ٢٠٠١م إدارة تقليدية على الرغم من

وجود الكثير من المؤمنين الحماسيين في صفوف هذه الإدارة وكان ذلك ردًا خارج نطاق الردود السياسية العادية. والآن بفضل بوب وودورد **Bob Woodward**. وهو ليس معجبًا طبيعيًا بجورج بوش. صار لدينا بعد أشهر من الحدث. نظرة فاحصة في توجيه الأمور في المائة يوم التي أعقبت الكارثة التي وقعت في نيويورك والعاصمة واشنطن. ذلك أن وودورد في كتابه "**Bush at War**" يجعل من نفسه الراوي العليم بكل شيء، الذي يبني شخصياته المفضلة. ويبتهج من أجل أبطاله ويستهجن سلوك الأشرار. ولكن على الرغم من هذه الصياغة المتعبة شبه الروائية. فالحقيقة المهمة هي طبيعة الأدلة التي تقوم روايته على أساسها: فالمصادر قوية للغاية. وجميع الممثلين الرئيسيين في هذه الدراما تحدثوا إلى وودورد. حديثًا مطولاً. وغالبا ما كان ذلك الحديث على مدى عدة جلسات. وكان للرئيس نفسه لقاءان مطولان مع الصحفي. ووصف له كيف أنه سمع أخبار الهجوم على نيويورك. وما الذي حكم استجابته كما شوهدت على شاشة التليفزيون "إن ما شاهدته كان رد فعلي الخارج من أحشائي"[٦٣].

وبالتدريج. تعلم جورج ووكر بوش المزيد والمزيد الذي يجعله يثق في تلك الاستجابات من الأحشاء. وقد أعلمهم برغبته في أن الاجتماعات التي خططت "للحرب" يجب أن تبدأ بالصلاة، وقال مرارًا وتكرارًا إن تلك كانت اللحظة التي كانت ستولد فيها ولايات متحدة جديدة في عيون العالم. "إنني أعتقد فعلاً أن هناك صورة أمريكا في الخارج تصورنا ماديين للغاية. وأننا نكاد نكون من أتباع مذهب اللذة. وليست لدينا قيم، وأننا عندما ننال ضربة لا نرد الضربة" [٦٤].

كانت هناك أسباب صحيحة لاستخدام الرئيس كلمة "حملة صليبية" المحتفى بها. في أعقاب المذبحة. وإذ ووجه بموقف أخروي. مع النيران التي كانت ما تزال تحترق في نيويورك. والدخان المتصاعد من البنتاجون في قلب واشنطن العاصمة. لقد كان بوش مقتنعًا أن عليه أن يجد اللغة الصحيحة لأول خطبة عامة يلقيها بعد الكارثة. وكان موقنًا دون شك بفكرة الوجود الحاكم للشر الموجود في العالم. فقد كان قد استغرق علانية في التأمل في هذه المصطلحات في أثناء خطاب له في حملة

انتخابية في ألبوكيرك، في نيومكسيكو، في مايو سنة ٢٠٠٠م، "نحن متأكدون أن هناك رجالاً مجانين في هذا العالم، وأن هناك إرهابا، وأن هناك صواريخ، وأنا موقن من هذا"(٦٥) وفي أعقاب يوم الأحد ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م، في الحديقة الجنوبية من البيت الأبيض، تحدث إلى الصحافة وإلى العالم:

"نحن بحاجة إلى أن نكون منتبهين لحقيقة أن هؤلاء الأشرار ما يزالون موجودين، نحن لم نر هذا النوع من البربرية على مدى فترة طويلة من الزمان، ولم يكن أحد يتصور عن اقتناع بالانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم بالقنابل يختبئون في مجتمعنا ثم يبرزون جميعًا في اليوم نفسه ليطيروا بطائرتهم، طائرة الولايات المتحدة لتصطدم بمبانٍ مملوءة بالناس الأبرياء، ولا يظهرون أي شعور بالندم، هذا نوع جديد من– نوع جديد من الشر، ونحن نفهم، والشعب الأمريكي يبدأ في الفهم، هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب سوف تستغرق وقتًا"(٦٦) .

كان الرئيس متعبًا ومستنزفًا بفعل اضطراب الأحداث، ففي اليوم السابق كان قد هبط في الأرض صفر في نيويورك، والآن تحدث من القلب، بأسلوب مشتت وتكراري، كما قال في يوم الأحد، ولكنه أكد على أنه ألحق هزيمة نكراء بكلمات "الشر" أو "الأشرار" مرة بعد أخرى(٦٧)، وقد جاءت ملاحظته عن الحملة الصليبية في رد ارتجالي لسؤال من صحفي كان نص ما قاله بوش بالفعل: «هذه ... هذه .. هذه... حملة صليبية ... هذه (توقف) حرب على الإرهاب"(٦٨) وإذا استمع المرء إلى التسجيل ثانية فإنه سوف يذهل كيف أنه ناضل لكي يجد الكلمة الصحيحة، التي كانت بالنسبة له "الحملة الصليبية"(٦٩)، كانت هذه كلمة من أعماقه، رد فعل من الأحشاء، وكان ذلك يعني الكثير بالنسبة له، إنه يعني الصراع بين الخير والشر.

كان الرد الصحيح على ما كان، حسبما قال بوش، "نوع جديد من الشر"، وكان لابد لكل واحد أن يعرف ما كان يعنيه في أعماقه، وللسبب نفسه، استخدم مرة أخرى لغة "المذمة" في مناسبة أكثر رسمية وأفضل استعدادًا بكثير، كانت كلمات بوش يوم ١٦ سبتمبر، الشتائم المتكررة عن "الشر"، الأشرار"، والتوسل بالحملة الصليبية،

سياقا ارتجاليًا. ولكن فى خطابه التالى عن حالة الاتحاد يوم ٢٠ يناير سنة ٢٠٠٢م. ومرة أخرى أصر على التسجيل نفسه:

"إن دولاً مثل هذه (إيران، العراق، كوريا الشمالية) وحلفاءهم الإرهابيين، يشكلون محورًا للشر، يتسلحون لتهديد سلام العالم. وبالسعى إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل، تمثل هذه الأنظمة خطرًا جسيما متزايدًا. فإنهم سوف يقدمون هذه الأسلحة إلى الإرهابيين. ويعطونهم الوسيلة التى تتوافق مع كراهيتهم. لقد تمكنوا من مهاجمة حلفائنا أو محاولة ابتزاز الولايات المتحدة. وفى أى من هذه الحالات سيكون ثمن اللامبالاة كارثيا" [٧٠] .

فهل سيكون لـ "محور الكراهية" الأثر نفسه الذى كان "لمحور الشر" فى يناير سنة ٢٠٠٢م؟ ربما لا. وبعض الكلمات مشحونة بشكل غريب. "الشر" واحد من المعانى .وكذلك أيضا. كما رأينا. كلمة "الحملة الصليبية" وكلمة "الجهاد" . وبالنسبة لكثير من التاريخ الذى عرضت له فى هذا الكتاب. كانت كلمة "كافر" كلمة أخرى من هذا النوع. والآن اكتسبت كلمة "إرهاب" وكلمة "رعب". "إرهابى" صفات الخوف والرعب التى ارتبطت ذات مرة بالأتراك والتتار. وكان هناك كثير من مثل هذه التطورات النكوصية إلى عالم المذمة القديم فى المحادثات التى سجلها كتاب "بوش فى الحرب **Bush at War**". ولكن تطورًا واحدًا منها يبرز بشكل خاص:

"كان الرئيس قد وقع أمرًا جديدًا للمخابرات. لقد ألقى القفاز.

"لديكم مهمة واحدة". كانت هذه تعليمات بلاك (فقد كان كوفر بلاك **Cofer Blak** مدير مركز مكافحة الإرهاب فى وكالة المخابرات المركزية) ... هاتوا بن لادن. جدوه. أريد رأسه فى صندوق".

وسأل جارى (كان جارى **Gary** العميل الرئيسى على أرض أفغانستان). "هل أنت جاد؟"

وقال بلاك. "تمامًا". كانت السلطة الجديدة واضحة. نعم. فقد قال إنه يريد رأس بن لادن. أريد أن آخذها لكي أريها للرئيس". وأجاب جارى "حسنا ليس هناك ما هو أوضح من هذا".

... وفي أفغانستان بعد أيام قليلة طلب العميل من واشنطن أن يسافر ومعه عدة صناديق من الورق المقوى شديد الاحتمال وبعض الثلج. وإذا أمكن بعض الرماح"[٧١].

وربما كان هذا شيئا لا يصدق ولكن بوش كان قد تأثر تأثيرًا هائلًا بموقف بلاك الذى يسعى للقبض على بن لادن. وفي دائرة الرئيس الداخلية، كان رجل المخابرات المركزية معروفًا باسم "الرجل بالذباب على عينيه" انطلاقًا من تعليق قاله في وقت سابق "عندما ننتهى منهم (القاعدة)، سيكون هناك ذباب يمرح فوق عيونهم". وقد استنتج وودورد بعد مقابلاته المطولة مع بوش أن القائد العام كان "قد تعب من البلاغة". كان الرئيس يريد قتل شخص ما"[٧٢].

يبدو هذا الحوار مناسبًا للسلطان العثمانى وواحد من الباشوات شغوف بأن يسره رؤية رأس عدوه فى القرن السادس عشر أكثر من مناسبته للإدارة الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين. ويتساءل عقل القارئ: ما الذى كان جارى ينوى عمله بالرماح؟ هل كان ينوى قطع رأس بن لادن بمدية حكومية. ثم يعرضها على الرئيس، وما زال الدم يتقاطر منها، بين الصفوف التى يتعالى هتافها من جنود الولايات المتحدة الأمريكية، مثل صفوف جنود قائد الأسطول فى معركة ليبانتو؟ وما تشير إليه هذه الحكاية أنه ما إن تدخل عالم المذمة مرة، بأعدائه الملعونين، فإنه يكاد يكون مستحيلًا ألا تسقط من عالم حديث يحترم التقدم لتهوى فى ظلال مملكة الدين الفظة. ولكن تخيل فقط لو أن خطة بلاك قد تحققت، وحمل رأس بن لادن عدو أمريكا الشرير، فى ثلج جاف (ثانى أوكسيد الكربون المتجمد)، ليختال منتصرًا فى المكتب البيضاوى. ترى كيف كان الرئيس سيرد إزاء هذا التتويج لحملته الصليبية؟

إن ممارسة السياسات الواقعية يولد الكثير جدا من مثل هذه الأمثلة عن هذه الوحشية المؤقتة. ولكنها ممارسة ضرورية بحيث إن تصيد كلمات قليلة فى هذه الدقيقة ربما تبدو ممارسة مدرسية سخيفة مثل سؤال "كم عدد الملائكة الذين يمكنهم أن يرقصوا على رأس دبوس"؟. الذى كان يطرحه علماء العصور الوسطى فى أوربا). بيد أن مراقبة التاريخ وهو يصنع، دون ميزة الفهم بعد اكتمال الحدث ووجود سجل من الوثائق، يتطلب منا أن نضع فى اعتبارنا هذه العلامات المادية الضئيلة مثل تلك التى يستخدمها الأثريون لإعادة بناء صورة من عوالم مفقودة. وحجة هذا الكتاب أن الكلمات والصور مهمة، لأنه غالبًا ما تكمن الحقيقة غير الخاضعة للرقابة فى النتاج العفوى والعابر. ويمكن للرقابة أن تأخذ نمطًا من اثنين. فنحن جميعًا رقباء على أنفسنا، والتقديم الذى يقدم به الرئيس بوش نفسه بعد الاستعداد يختلف تمامًا عن صورة الرجل الذى يتحدث بصورة ارتجالية أو يتحدث تحت الضغط. ثم هناك الرقابة أو البلاغة المصطنعة التى ينتجها كاتب خطب محترف. وفى الأيام المائة التى تلت الهجوم المميت على نيويورك وواشنطن، كانت اللحظات العفوية هى التى قدمت الرؤى البصيرة والكاشفة.

* * *

ليست هناك مشكلة فى العودة إلى السجل المتعلق بسفر الرؤيا، أى "المذمة". إذا ما كنت على استعداد لتقبل العواقب. وقد عبرت الصحفية الأمريكية آريانا هوفينجتون Arianna Huffington عن الموضوع بإيجاز:

"كنت دائما أنزعج من إشارات الرئيس المتكررة إلى "الأشرار" و"الشرير" خمس مرات، حتى العهد الذى قطعه على نفسه حديثًا بأن "اعترضت ليس بسبب أن الإرهابيين ليسوا أشرارًا، ولكن لأنه، بقدر ما نحب أن يكون هذا حقًا، مثل هذا الفصل البسيط بين الخير والشر يذهب سدى أمام التاريخ والدين والطبيعة البشرية.

"إن السحر الخلاب لمثل هذا النوع من التفكير التبسيطى ليس جديدًا. وقد حذر ألكسندر سولزهينستين Alexander Solzhenitsyn . وهو نفسه ضحية لأشد الشرور هولاً فى القرن العشرين ضد هذا فى كتاب The Gulag Archipelago بقوله : "لو كان هناك فقط قوم أشرار فى مكان ما يمارسون الشر فى خبث، لكان من الضرورى أن نفصلهم عن بقيتنا وندمرهم. ولكن الخط القاسم بين الخير والشر يمر عبر كل كائن بشرى[٧٣]

ومن الصعوبة بمكان ضبط لغة المذمة، وإبقاؤها داخل حدود بعينها. إذ إنها تمس الكثير جدا من المشاعر العميقة والداخلية، كما تضخم الصراع بين العالم الكامل والعالم الناقص.

وإذا ما كان الأشرار يشكلون تهديدًا فى كل مكان، أو يمثلون تهديدًا مميتًا، فربما يكون البديل الوحيد أن نتعقبهم إلى أبعد نقطة. ولهذا فلنتأمل الحقائق الفاعلة حسبما كان من المحتمل أن يقول كوفر بلاك. وفى الحروب الشاملة ضد الشر فى العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة كانت وسائل الضبط الاجتماعى البدائية كافية نسبيًا. فما الذى يمكن تحقيقه أكثر من ذلك بالنظم الحديثة فى المعلومات والضبط الاجتماعى؟ يكون معنى هذا العودة إلى سياق استجواب العقل الذى وصفته فى صفحات سابقة من هذا الكتاب. هناك ثمن فادح بالمعنى الاجتماعى لإعادة اختراع الهرطقة. ولكن يجب أن يكون هناك أيضا الشكوك المزعجة حول جدوى ذلك. والأشرار الآن يبدو أنهم أقوى من ذى قبل، وهم مثل الأرواح النجسة التى تحدث عنها إنجيل مرقص إنهم "جمع"[٧٤]. وعلى أية حال، فإن وصف الأعداء الجدد مثل القاعدة بأنهم شياطين فى لغة صليبية يعنى أن تخطئ فهم قوتهم وممارستهم. ويتمثل الإغراء فى اعتبارهم بدائيين التصقوا فى سياق من معتقدات القرن السابع. وبحسب الفكر التقليدى الغربى، لن يكون لهؤلاء المتعصبين وسيلة توصلهم لاستخدام الصورة والتليفزيون والإنترنت. بيد أنهم ليسوا بدائيين بهذا المعنى. وأسامة بن لادن ليس مشغولاً بالتحريمات القديمة مثل عرض الصور علنا. لأن وجهه يظهر فى كل مكان[*].

(*) هذا الكتاب ظهر قبل مقتل أسامة بن لادن زعيم القاعدة بعدة سنوات. (المترجم)

وقد وصف أستاذ العلوم السياسية البارز بسام طيبى هذا الخليط من التقليد والحداثة بأنه "نصف حداثة"، وهى ما يسميها "اختيار انتقائى من الإسلام السنى ونصف حداثة فعالة"[٧٥]. ويضعها تشارلز كورزمان: Charles Kurzman فى سياق أكثر دقة .

"قلائل من الإحيائيين يرغبون حقًا فى عودة كاملة إلى عالم القرن السابع فى شبه جزيرة العرب. فقد كان الخومينى نفسه مدمنًا على الاستماع للراديو واستخدام التكنولوجيا الحديثة مثل التليفون، والكاسيت، والنسخ، والموجة القصيرة للإذاعة البريطانية لكى ينشر رسالته الإحيائية. وقد سمح الخومينى بظهور النساء على التليفزيون وحديثهن فى الإذاعة، وسمح بلعب الشطرنج، وأشكال معينة من الموسيقى. وعندما اعترض قادة دينيون آخرون رد عليهم بقوله: "إن الطريقة التى تفسرون بها التراث لا بد وأن تؤدى إلى تدمير الحضارة الحديثة ويعيش الناس فى قيود أو يعيشون فى الصحراء إلى الأبد[٧٦].

يصعب فهم هذا الهجين إذا كنت تعتقد أن الحضارة الإسلامية قد بقيت جامدة فى جوهرها فى القرن السابع. بل إنه حتى مراقب فى ذكاء فريد زكريا، المحرر فى جريدة. News Week International لجأ إلى أنماط ثقافية فجة لكى يدعم رؤيته القائلة بعدم التغيير. وأنا أقتبس كلماته كلما نطق بها بالضبط:

"إن الثقافات التى ترى نفسها أنها ثقافات عظيمة لتحويل الناس، مثل الإسلام. تجد أن من الصعب تمامًا أن تتواءم مع سيادة أحد آخر، أو تتواءم مع الحداثة.... وإذا ما نظرت إلى طريقة لبس الرجال فى العالم. وهى بالنسبة لى دائمًا مؤشر مثير جدا. إذ إن رئيس وزراء اليابان وكبار رجال الأعمال يرتدون البدلات الغريبة. ورئيس الوزراء الصينى ورجال الأعمال الآن يلبسون البدلات الغربية. أما فى العالم العربى فإنها من علامات العار أن تلبس بدلة غربية"[٧٧].

هذا خطأ بين وفاضح. ففى الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين ومعظم أنحاء العراق نجد الملابس الغربية(من القمصان أو البنطلونات أو البدلة) ملابس عادية

يرتديها أهل الحضر فى أعمالهم[٧٨]. وهذه الدول عربية تمامًا مثل دول شبه الجزيرة والخليج العربى، ومع هذا فإن موظفى الحكومة ورجال الأعمال فى أراضى الشمال العربية لا يرتدون عادة الثوب أو العباءة. ومثلما هو الحال فى الغرب، فإن الملابس التى يرتديها الرجل فى هذه البلاد تحكمها العادة المحلية والمكانة والثروة والسن والظروف الاجتماعية.

فما الذى يشير إليه زكريا؟ هل أولئك الذين يرتدون الملابس التقليدية هم العرب المكرمون؟ ومع هذا فإنه حتى اللباس التقليدى فى كثير من أجزاء الخليج عبارة عن "إعادة اختراع "، شأنه شأن الجونلة أو التنورة فى أسكتلندا أواخر القرن الثامن عشر[٧٩]. وكثير من أبناء شبه الجزيرة العربية التى يرتدون "الزى الوطنى" فى بلادهم غالبًا ما يلبسون بدلة عندما يكونون فى الغرب. وأنا أشك أنه يلمح إلى أن العرب مثبتون فى الماضى، واجتماعيا (وراثيًا تقريبا؟) غير قادرين على التوافق مع التغيير، أو أن "يصبحوا حديثين". ومثل هذه الملاحظة. ربما كان يمكن فهمها لو أنها صدرت عن جاهل قابع فى بيته، ولكنها غير مفهومة من باحث ضليع واسع الأسفار. فكيف إذن يخطئ فى الأدلة التى رآها بأم عينيه؟

هذه رواية قديمة لقصة قديمة جدًا[٨٠]. فبالنسبة لكثير من الزوار الغربيين الذين زاروا الشرق فى القرن التاسع عشر، كان الزى المحلى. الأثواب الفضفاضة والعمائم أو الكوفية. علامة على أنهم بدائيون شاذون. ومع هذا، فإن الملابس الحديثة عند العثمانيين لم تكن مؤشرا على أنهم كانوا قد حرروا أنفسهم، وصاروا حديثين (مودرن). وبدلًا من هذا كانت دليلًا على الرياء. فربما كانوا يتظاهرون بأنهم يرحبون بالحداثة الأوربية، ولكنهم كانوا يرتدون إلى طرقهم القاسية والرجعية. وفى أفضل

الأحوال ربما كانوا يزعمون أن لديهم "نصف حداثة"، فهم يأخذون المنتجات التكنولوجية ولكنهم لا يأخذون أبدا المضامين الفلسفية الكامنة للتنوير الغربى. هذه المخاوف الصامتة عن عدم جدارة الشرق بالثقة ما تزال تلازمنا(*).

وربما أكون غير منصف لزكريا، الذى يكتب دائمًا بحرص واحتراز[٨١]. وربما تكون هذه "زلة لسان" منه. مع أن هذا قيل علنًا وبالتعمد لدرجة أنه ربما كشف ما كان يفكر فيه ولكنه لن يكتبه. وما يزال هناك تناقض تجاه العالم الإسلامى تعاظم بسبب أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م، «والحرب على الإرهاب» التى تلتها. بيد أن تلك الأحداث ساعدت على سرعة ظهور الخوف الذى كانت له جذور أقدم وأكثر عمقًا.

* * *

تبلدت سياسة إعادة تشكيل العراق بعد غزو التحالف فى سنة ٢٠٠٣م بسبب التناقض والالتباس. فمن ناحية، هناك الرؤية المقنعة يمكن أن يأخذ بالديموقراطية الليبرالية وقد يأخذ بها وهذه هى نظرة زكريا: "العراق أمة بالفعل. وهو ليس حتى دولة فاشلة. إنه نظام سياسى فاشل يحتاج إلى نقلة. وبعمل هذا يمكن لأمريكا وغيرها فى المجتمع الدولى أن يساعدوا. ولكن فى نهاية المطاف فإن العراقيين هم الذين سوف يبنون العراق الجديد. والقوة الوحيدة الأكثر أهمية فى أى مجتمع تتمثل

(*) أتصور أن هذا لب مشكلة العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى بصفة خاصة، والعالم كله عمومًا. إذ إن الغرب (بسبب تراث طويل من العنصرية الأوربية) لا يقدر على الاعتراف بوجود "الآخر" وحقه فى الاختلاف. وقد كان الغربيون دائمًا يرون أن ثقافتهم هى الثقافة المرجعية التى يجب على الآخرين أن يترسموا خطاها. صحيح أن الغرب متقدم منذ القرن التاسع عشر. ولكنه لم يكن، ولن يكون صاحب الثقافة الوحيدة فى العالم. ولم يحدث فى تاريخ العلاقات بين الثقافات الإنسانية أن اتخذت ثقافة ما مثل هذا الموقف الذى تتخذه الثقافة الغربية الاستعلائية من الآخر ومحاولة فرض نموذجها عليه. وهو ما فطن إليه مؤلف الكتاب. (المترجم)

فى نخبة إصلاحية ملتزمة. وما سوف يدعم التغيير هو عدم نسيان أهوال الثلاثين عامًا الماضية. " ذلك أن المحاكمات الوطنية، والمذكرات، والحقيقة ومجالس المصالحة، والتواريخ الشفاهية. كلها سوف تساعد فى الحفاظ على تلك الذاكرة واستعادتها" [٨٢]. وهذا كله صحيح، ولكن حسبما أشار هذا الكتاب، فإن قوة الذاكرة الجماعية مشهورة بصعوبة توجيهها أو احتوائها. والشك الكامن فى واشنطن يبدو أنه سؤال يقول. هل ستكون للحداثة حقا جذور بجميع جوانبها.

وراء الكثير من المقاربات الغربية إلى عراق جديد يكمن خوف متنام ولكنه لا يصرح به من أن الفترة الطويلة التى قضاها حزب البعث فى الحكم ربما ترد ذكراها بصورة غريبة ليس بسبب الطغيان الذى وصمها وإنما، بسبب الحنين إلى الماضى، بوصفها فترة رفاهية "الخبز والسيرك"(*). إن حكومة العراق الشريرة السابقة. كانت تمارس القهر بوحشية، ولكنها أيضا كانت ملتزمة بالتحديث الفنى والإنفاق الضخم على المنافع الاجتماعية. ولم ينته الإنفاق على الإصلاح الاجتماعى والتطور الصناعى عندما بدأت تكلفة الحرب العراقية. الإيرانية تشكل عبئا فى سنة ١٩٨٢–١٩٨٣م [٨٣]. فهل ستكون الذكريات المستعادة عن الفظائع، حتى وإن ارتكزت على مؤسسات الديموقراطية الليبرالية، كافية للحيلولة دون العودة إلى نقطة البدائية؟ أم أن قادة القوى العظمى فى العالم يخشون سرًا أن يكون هناك "جين وراثى" فى الطبيعة الجسدية الكلية للعرب المسلمين تميل بهم نحو الطغيان العلمانى، أو الدولة الإسلامية التى لا تقل سوءا؟

(*) [يشير المؤلف هنا إلى ما كان يحدث فى الإمبراطورية الرومانية القديمة عندما كان الأباطرة يوزعون على مواطنى روما (دون سائر مدن الإمبراطورية(عطايا الخبز المجانى. ويقدمون لهم مباريات السيرك– سباق العربات. والمصارعة بين العبيد واستعراض المهارة فى القتال. مجانًا. وقد ورثت الإمبراطورية البيزنطية هذه التقاليد مع مواطنى القسطنطينية. ويريد المؤلف أن يقول إن ما كان حزب البعث يقدمه للعراقيين كان من قبل سياسة الإلهاء وإبعاد الشعب عن المشاركة السياسية. (المترجم)]

وربما كان صانعو السياسة الغربيون وهم يصوغون ردودهم وهم يتذكرون قواعد اللعبة القديمة، لعبة المقص والورق والحجر. وقواعد اللعبة بسيطة: "اثنان يواجه أحدهما الآخر وإحدى يديه خلف ظهره. وعند إشارة متفق عليها يسحب كل منهما سلاحه. أما الأسلحة فهي الحجارة (قبضة اليد المضمومة) والورق (اليد المفتوحة) والمقص (والسبابة والإصبع الثالث ممدودًا). وقواعد الاشتباك: الحجر يثلم المقص، والورق يلف الحجر، والمقص يقص الورق. ومن ثم فإن كل سلاح يضرب السلاحين الآخرين. ويخسر في مواجهة السلاح الثالث. فإذا ما تم سحب سلاحين متماثلين يعلن التعادل"[84].

وعلى المنوال نفسه حاول الغرب أن يلعب لعبة مشابهة جدًا في علاقاته مع الشرق الإسلامي، في محاولة لإيجاد الاستراتيجية الرابحة. بيد أنه كان يخطئ المرة تلو المرة في استخدام سلاحه (الأيديولوجي) [85].

فإذا ما تعامل مع "إسلامية" العرب تراوحت خياراته ما بين العصا والجزرة أو يكون هناك خيار بديل ثالث، مرض بغل تكساس Texas Mule Tamer الذي ينتهي به الأمر إلى قتل البغل لكي يلفت انتباهه [86]. ويأتي القصور والخطأ الجوهري عند صانعي السياسة الأمريكية من أنهم يسيئون فهم طبيعة خصومهم وقدراتهم. ذلك أن إدارة الولايات المتحدة لا ترى أمامها "عدوا في المرآة". وإنما ترى كائنًا غريبا، أدنى من البشر، خيال شبح قاتم، أدنى من البشر، تجسيدًا للشر. هذه الرؤية المشوشة تضمن الفشل السياسي بشكل أو بآخر.

في العالم الحقيقي، مثلما في اللعبة، ربما تكون هناك مقاربة أجدى نفعًا، إنها تنطوي على طرح افتراضات غير مستساغة، ولكنها ضرورية، مثل الاعتراف بأن هؤلاء الأشرار (بمصطلح جورج بوش) يمكن أن يتسموا بالمرونة وسعة الحيلة، والإبداع: فلنفترض أنهم قادرون على التوافق مع الظروف إلى ما لا نهاية في تحدياتهم التي لا تعرف الراحة. وأن نتقبل فكرة أنهم وهم يتابعون قضيتهم، ربما يمتلكون الذكاء ويتمتعون بالثقة التي تجعلهم أقوياء على حين يكون العالم الغربي

ضعيفا .وأخيرًا. أن نتأكد من أنهم سوف يستخدمون دونما تردد أدوات الحداثة حينما يختارون. لأنهم ينشرون نتاجهم الأيديولوجي بواسطة "التسويق الفيروسي" هذا التشابه الفيروسي له علاقة بانتشار الإرهاب. لأن الفيروسات المعدية لا يمكن السيطرة عليها بوسائل "المضادات الحيوية" التقليدية (٨٧) .

الإجراءات التي اتخذها الرئيس ومعظم مستشاريه الرئيسيين ضد "العدو الشرير" لم تهاجم سوى الأعراض ولم تصل إلى الحالة الكامنة. لقد كانت إدارة بوش مهيأة في أعماقها "للحرب على الشر". ولذلك لأنهم لم ينظروا سوى إلى تدمير الأجساد التي أصابتها العدوى. ولكن عميت أبصارهم عن الطبيعة الحقيقية لخصومهم. إذ إن اللغة القديمة والأيديولوجية القديمة عن الشر قد هيأت حكومة الولايات المتحدة لأن ترى عدوها فقط على أنه من بقايا العصور الوسطى، جامد. ووقح يمكن التخلص منه بالنار أو بالسيف. وفي عقولهم. تصوروه متوحشًا يضع عمامة. وقد ملأ أسامة بن لادن الصورة النمطية بشكل مناسب. مثلما فعل صدام حسين. بكل ملابسه المتنوعة. وقد حاول رجال الإدارة ولكنهم لم يستطيعوا الهرب من رد الفعل العفوي. لأن العمامة ترمز إلى كل تلك النبضات البدائية التي وصفتها من قبل في هذا الكتاب(٨٨) .

ومع هذا. كانت حكومة الولايات المتحدة دائمًا متشبثة بأنه لا شك في شن هجوم غربي مستلهم دينيا على العالم الإسلامي. ومن الواضح أن هذا صحيح. وليست هناك "حرب باسم الصليب". مع الرئيس جورج بوش يقوم بإجراءات تنظيمية ومقابلات وكأنه البابا أوربان الثاني في القرن الحادي والعشرين. ولكن القيام بحملة صليبية ليست مجرد تعريف فني بقدر ما هو موقف في العقل. ومن السهل أن نجد كثيرًا من الأمثلة على هذه الطريقة في التفكير في الأمم الغربية. إنني سوف أتناول الجنرال بويكين **Boykin** الصريح. والذي يعرف عقله. في الفصل التالي. ولكن من المرجح أنه ليس الموظف الوحيد في الولايات المتحدة الذي يفكر بالطريقة نفسها ومع هذا فهو يحافظ على القسم السياسي باعتباره ضرورة للاستراتيجية الوطنية. وإلى درجة أن

هذا النوع من الإيمان بفكرتين متناقضتين منتشر على نطاق واسع، وهو سوف يحول دون أية محاولة لإيجاد رد مناسب وفعال على عدو مراوغ .

وتواجه الولايات المتحدة خصمًا لا يعرف شفقة ولا رحمة. مثل "الفيروس" الذى يغير شكله بلا نهاية ويتبدل لمواجهة قوى أقوى أمة على الأرض كما يغير سجاياه. ولكن هل هناك بدائل لمهاجمته باللغة السياسية عن الشر؟ تشير التجربة إلى أن استراتيجيات التمركز السريع لن تزيح هذا العدو الداهية واسع الحيلة أبدًا. ومع هذا. فإن بوسع الغرب أن يرد بفعالية بتطوير عمل بطيء مضاد للفيروس. وهذا لابد أن يتطلب أولا تحولاً فى المواقف وفى اللغة على السواء. وربما نجد نقطة البداية فى توماس جيفرسون، الذى كتب مسودة ذلك الجزء من إعلان استقلال الولايات المتحدة الذى يتضمن العبارة التالية. "نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها واضحة بذاتها. أن الناس جميعا قد خلقوا متساويين. وأن خالقهم قد أسبغ عليهم حقوقًا لا يمكن نكرانها. وأن من بين هذه الحقوق حق الحياة والحرية والسعى إلى السعادة". وكانت مسودته الأصلية أكثر شمولاً، ولكن عبارة "السعى من أجل السعادة" نجت من التحرير وإعادة الصياغة وبقيت مثلما بقيت عبارة "محو الشر" التى نطق بها الرئيس بوش فى خطاب حالة الاتحاد سنة ٢٠٠٢م. لقد كانت لغة السعادة خطابًا سياسيًا شائعًا فى الوقت الذى تم فيه تجميع إعلان الاستقلال. وقد اعتبر شاملاً بحيث يتحدى أى تعريف دقيق [٨٩]. ولم تكن مثل هذه الأهداف فريدة فى بابها وقاصرة على الولايات المتحدة. ولكن ليست هناك أمة أخرى جعلت منها مبدأ مؤسسًا لوجود دولتها. وعلاوة على ذلك. كان من الواضح أن السعادة لم تكن هدفًا أخرويا يمكن تحقيقه فى الحياة الآخرة، ولكنها شيء يتصل بممارسة الحياة اليومية.

وفى أول خطاب تولية لرئيس الولايات المتحدة. ألقاه جيفرسون يوم. مارس عام ١٨٠١م. بعد سباق انتخابى شرس. انتهى بحصول منافسة آرون بور **Aaron Burr** على سبعة وثلاثين صوتًا من زملاء الدراسة. حذر جيفرسون من الخيال السياسى المعرقل والمقيد "فلنفكر فى أننا عندما نقضى فى بلادنا على عدم التسامح

الدينى الذى عانت منه البشرية ونزفت زمنًا طويلاً، فلن نكون قد كسبنا سوى القليل لو ارتضينا بعدم التسامح السياسى الذى هو استبدادى. وشرير وقادر. شأنه شأن الاضطهادات الدموية والمريرة". وفى رأيه أن نجاح الولايات المتحدة الشابة اعتمد على "مبدأ مقدس" :

"إن كل اختلاف فى الرأى ليس اختلافًا فى المبدأ ... إذا كان هناك بيننا من يرغب فى تفكيك عرى هذا الاتحاد أو يغير شكله الجمهورى. فليقفوا بثبات دليلاً على صحة التسامح مع الخطأ أو الرأى حيث يكون العقل حرًا فى مقارعة الخطأ"(٩٠) .

هل هذا مجرد كليشيه آخر من الكليشات المتكلفة التى غالبًا ما تظهر فى البلاغة العامة فى زمن التنوير؟ أظن لا. فهنا فكرة متفردة فى قوتها. وروحها القتالية. فالعقل، فى رأى جيفرسون، سلاح سوف يقوض أو يحيد. خطأ الرأى" إنه أكثر قدرة على المواءمة، وأكثر مرونة، وأكثر خطورة على "الخطأ" من اليقينيات فى العقيدة .ويبدو لى أن التربص بهذه الكلمات. هو بذرة "المضاد للفيروس". وهى استراتيجية قوية قادرة تمامًا على محاربة العدو. الفيروسى" الجديد. فالمذمة. "الحملة الصليبية ضد الأشرار" ردود متداعية وعتيقة على عدو ربما يبدو فى شكل قديم. ولكنه فى الحقيقة قادر على المواءمة والتعديل بلا نهاية. وهو ما بعد حداثى، أكثر من كونه حداثيًا. والبديل هو انتهاج اللغة والأيديولجية المتضمنة فى عبارات جيفرسون الرنانة .

هوامش الفصل الرابع عشر

1. David Crystal, *The Cambridge Encyclopædia of Language* (2nd edition), Cambridge: Cambridge University Press, 1997, p. 145.
2. Andrić, *Bosnian Chronicle*, pp. 20–21. In fact, hating and despising were deeply embedded into Western thought and speech. The Greek rhetorical device of *psogos* (blame), or in Latin *vituperatio*, was an important skill in the armoury of every classically trained orator. Charles Freeman has shown how this device was readily deployed by Early Christian writers against their enemies – the first polemical descriptions of Muslims were textbook examples of the technique; see Charles Freeman, *The Closing of the Western Mind: The Rise of Faith and the Fall of Reason*, New York, NY: Knopf, 2003. There is an extensive literature of *psogos*: see Christopher M. Leighton, 'Contending with a Polemical Tradition: The Rhetorical Art of Christian Self-Definition'. Leighton is Director of the Institute for Christian and Jewish Studies in Baltimore and his paper may be found at http://www.icjs.org/scholars/polemics.html#artvil. There is also useful material on *vituperatio (psogos)* by Robert Levine of the English Department, Boston College: '*Clio Satiricus: Satire and History in the Middle Ages*'; see the section on 'Praise and Blame', http://www.bu.edu/english/levine/Cliosat.htm
3. The act of speaking is described by linguists as possessing three phases. All speech is a dialogue, even if you are only listening to your own interior voice. The first 'speech act' is a locution: something is being said. The second is the intention that may be embedded in the utterance. This is described as the 'illocution'. The third is the consequence that the locution has on the hearer or 'perlocution'. So, a statement like 'Go to the Devil' has a clear illocutionary force: it is unlikely that the listener will oblige. The perlocutionary outcome might more likely be anger, contempt or amusement. The relationship between illocution and perlocution is uncertain and unstable. Moreover, even when the exact verbal content of the speech act is not understood the same process of communication applies.
4. The Russian critic Mikhail Bakhtin (writing with V. N. Volosinov) described 'spreading ripples of verbal responses and resonances around each and every

ideological sign'. See Morris (ed.), *Bakhtin Reader*, p. 52. There is an animated debate as to whether Bakhtin or Volosinov wrote this, or whether both were involved. For the sake of clarity, I have put Bakhtin's role first.

5. The italics are my addition, for clarity. See Michael Holquist's paraphrase of Bakhtin in *Dialogism: Bakhtin and His World*, London: Routledge, 1990, pp. 21–2. The fable is explained at greater length in Clark and Holquist, *Mikhail Bakhtin*, pp. 68–9.
6. Bakhtin, despite his preoccupation with Dostoyevsky and Rabelais, always regarded himself not as a literary critic but, following a line of thought in Kant, as a 'philosophical anthropologist'. This seems to me to express very well his preoccupation with the world-as-perceived, and not the remote fastnesses of theory. See Clark and Holquist, *Mikhail Bakhtin*, pp. 277–8. 'Enemies in the mirror' is the central theme of Ron Barkai's remarkable *Cristianos y musulmanes*.
7. This 'never-meeting' is also a central theme of both E. M. Forster's novel *A Passage to India* (1924) and of Paul Scott's novel sequence *The Raj Quartet* (1966–74). But both suggest that 'never-meeting', although replete with dangers of violence, does not inevitably lead to hatred.
8. Morris, *Bakhtin Reader*, pp. 86–9, quoting *Speech Genres and other Late Essays*, ed. V. W. McGee, trans. C. Emerson and M. Holquist, Austin, TX: University of Texas Press, 1986.
9. 'Language Used as Shield and Weapon' is the subtitle of a valuable study by Allan and Burridge, *Euphemism and Dysphemism*. I am grateful to Dr Judy Delin for drawing my attention to this approach.
10. These are terms used in the contemporary Middle East. In 1983 an Israeli General, Rafael Eitan, famously described the Palestinians as 'drugged cockroaches'. More recently another senior figure, Rabbi Ovadia Yosef, called Palestinians 'snakes'. More recently still (1997) a senior Palestinian, Mufti Ikrama Sabri, described Israeli settlers in the West Bank lands as 'sons of monkeys and pigs'. The Iraqi official Izzat Ibrahim used the same terminology in August 2001. For Eitan and Yosef, see American-Arab Anti-Discrimination Committee, News Update Message @ mvk12jkv1@nnrp1.deja.com 11 August 2001. For Sabri, see Jay Bushinsky, *Jerusalem Post*, 14 July 1997. For Ibrahim, see *Irish Times*, 2 April 2002. For pariah communalism, see Ernest Gellner, *Language and Solitude: Wittgenstein, Malinowski and the Habsburg Dilemma*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998, pp. 100–106.

ing of the twentieth century, post 1945. See Linda Malvern, *A People Betrayed: The Role of the West in Rwanda's Genocide*. London: Zed, 2000.

12. Speech, Reichstag, 5 December 1876.
13. The genesis of Lewis' book lay in three lectures given in Vienna in 1999, and other material dating from 1980, 1992, 1995, and 1998. This perhaps accounts for the slightly dated nature of much of the material. Of 116 references, fewer than five date from work published later than the mid-1990s, at a time when there has been intense and productive scholarly activity, illuminating many of the areas with which Lewis concerns himself. This is a short book – the text is no more than 157 pages – but its influence has been out of all proportion to its length. Its propositions are often bizarrely idiosyncratic. Lengthy examples of *what went wrong* include the Middle East's failure to adopt Western music, highly significant to Lewis because it requires combined and unified action by different performers. This produces a 'result that is greater than the sum of the parts'. From this much follows, he says: 'With a little imagination one may discern the same feature in other aspects of Western culture – in democratic politics, and in team games, both of which require the cooperation, in harmony if not in unison, of different performers playing different parts for a common purpose. In parliamentary politics and team games, there is a further cooperation in conflict – rival teams striving to defeat their opponents but nevertheless acting under an agreed set of rules, and in an agreed interval of time. One may also detect the same feature in two distinctly Western literary creations, the novel and the theatre.' The nub of the issue is that 'polyphony, in whatever form, requires exact synchronization. The ability to synchronize, to match times exactly, and for this purpose to measure times exactly, is an essential feature of modernity and therefore a requirement of modernization.' Unpunctuality has nullified many of the bright prospects in the East: see Lewis, *What Went Wrong*, pp. 128–9. There are examples of a Middle-Eastern 'faltering of cultural self-confidence in admitting Western innovations into the centrality of Islamic culture'. However, Lewis' fundamental premises keep shifting back and forth. Where on p. 136 the East has failed to adopt the novel and theatre, eleven pages on we learn that 'the European forms of literature – the novel, the short story, the play and the rest – are now completely adopted and absorbed. Great numbers of original writings of this type are being produced in all these countries and more than that, become the normal forms of self-expression.' But unexpectedly this is not evidence of Progress and modernization, but of a further 'faltering of cultural self-confidence': 'Some modern writing in Middle-Eastern languages . . . reads like a literal translation from English or French.' In sports, too, the Arab Middle East falters: 'It was the English who

invented football and its analogue – parliamentary politics.' There are, he tells us, remarkable resemblances between the two, and both stem from the same national genius (p. 150).

14. John Adamson, *Sunday Telegraph*, London, 25 May 2003. His review concluded: 'President Bush may let slip the C-word in his press conferences, but what is at stake in the current conflict is something far more pervasive in its implications than the religious feuds that fed the binary hatreds of old.'
15. One of the first books printed by Ibrahim Müteferrika in Constantinople was entitled *Rational Bases for the Politics of Nations* (1731). It described the various forms of government practised in Europe, and in particular the popular representation that underpinned the Dutch and English polities. Yet Müteferrika held the common view that the success of the Western nations lay in their military strength: it answered his question 'why do Christian nations, which were so weak in the past compared with Muslim nations, begin to dominate so many lands in modern times and even defeat the once victorious Ottoman armies'; cited in Niyazi Berkes, *The Development of Secularism in Turkey*, New York: Routledge, 1998, pp. 42–3. The Ottomans engaged in what Dankwart Rustow neatly terms 'defensive modernization': see Rustow in P. M. Holt, Ann K. S. Lambton and Bernard Lewis, *The Cambridge History of Islam Vol. 1*, Cambridge: CUP, 1970, pp. 676–86.

١٦- توجد هناك متوازيات واضحة في المجتمع الغربي. فالتحول الديني لأوربا الغربية في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر كان ما يزال يُرى بطريقتين متمايزتين بعد ثلاثة قرون، تعتمدان تماما على ما إذا كنت كاثوليكيا أو بروتستانتيا . فبالنسبة لأي بروتستانتي، فإن الفوز بتحرير الأرواح البشرية من البابوية المستبدة المخادعة كانت حربًا جديرة بأن يتم خوضها. أما بالنسبة للكاثوليكي ، فإن النتائج السلبية لهذا العالم المسيحي المنفصل تفوق كثيرا الأرباح. وقد استمرت هذه الفجوة التي لا يمكن بناء جسر فوقها طوال القرن التاسع عشر ، وحتى القرن العشرين . ولم تلبث الكنيسة الكاثوليكية أن طورت استجابتها الخاصة تجاه الحداثة والديموقراطية. وفي تكريس الفعل الكاثوليكي الشعبي (الديموقراطية المسيحية) تم إعلان مرسوم البابا ليو الثالث عشر عن الحقوق والواجبات في العمل ورأس المال وأعلن : «سيكون من السهل على الرجال المسيحيين العاملين أن يحلوا المشكلة على النحو السليم إذا ما كونوا الجمعيات ، واختاروا مرشدين حكماء، وساروا على نهج له الكثير من الميزات لهم وللعالم بأسره والذي طرقه من قبل آباؤهم». وفي التوائم مع الحداثة، استوعبت الكنيسة ما كانت بحاجة إليه، ثم تجاهلت الباقي.

17. Professor Carol B. Stapp first drew my attention to the long persistence of non-Darwinian science teaching in Tennessee. 'The Butler Act forbidding the teaching of evolution in Tennessee schools was not repealed until 1967 ... The issue was not long dormant however. In 1973 the state legislature passed an "equal time" law which legitimized the use of the bible as a scientific reference. The law was challenged in state and federal courts by civil liberties and teachers groups, and was overturned by the Federal Court of Appeals.' See 'The History of Evolution in Tennessee', http://fp.bio.utk.edu/darwin/essays/history.html. In the US Supreme Court the 1967 case of *Loving v. the State of Virginia* overturned the conviction of Richard and Mildred Loving under a 1922 Virginia statute that 'if any white person intermarry with a colored person or any colored person intermarry with a white person, he shall be guilty of a felony'. The Lovings were sentenced to a year in prison, suspended provided they left the state. Thirty states had passed similar laws, and sixteen were still in force at the time of the Supreme Court decision.
18. David Kelley suggests how this sometimes persists into the twenty-first century in the United States; see 'The Party of Modernity', Cato Policy Report XXV No. 3, May/June 2003.
19. Conversely, those who did not turned to social resistance. The rural minority adopted anarchism in Andalusia, vagabondage and armed resistance in southern Italy; see T. Kaplan, *Anarchists of Andalusia* 1868–1903, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977; Stuart Woolf, *A History of Italy 1700–1860: The Social Constraints of Political Change*, London: Methuen, 1979; John Dickie, *Darkest Italy: The Nation and Stereotypes of the Mezzogiorno 1860–1900*, Basingstoke: Palgrave, 1999.
20. Charles Kurzman depicts modernism as 'the imperialist expansion of Christian Europe, which threatened Islam in at least five registers. That is, militarily, economically, cognitively, politically, culturally'; see Charles Kurzman (ed.), *Modernist Islam 1840–1940: A Sourcebook*, Oxford: OUP, 2002, pp. 6–7. His introduction (pp. 3–27) to the collection of texts is an excellent, succinct statement of the issues.
21. The Islamic modernists used lectures, newspapers and the burgeoning periodical press to publicise their ideas, rather than the scholarly texts, replete with citations and authorities, of the traditional literature of argument and dispute; see ibid., pp. 14–16.
22. Hodgson, *Venture*, vol. 3, pp. 274–5. For another view, see Elie Kedourie's sardonic squib *Afghani and 'Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam*, London: Frank Cass, 1966, reissued 1997.

23. The most readable source remains Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798–1939*, Cambridge: CUP, 1970. Two valuable collections of material in translation by a wide range of thinkers are edited by Charles Kurzman, *Liberal Islam: A Sourcebook*, Oxford: OUP, 1998; and on an earlier period, *Modernist Islam* (see note 20).
24. For a brief statement of these ideas, see *Understanding the Evil of Innovation*, Bid'ah, Riyadh: International Islamic Publishing House, 1997.
25. This was much more akin to Christian traditions of disputation and argument, as in the Spanish debates over the *Moriscos* in the sixteenth century.
26. See Edward Mortimer, *Faith and Power: The Politics of Islam*, London: Faber, 1982, pp. 113–17.
27. See Shahin, *Through Muslim Eyes*.
28. See Hiro, *Holy Wars*, pp. 60–87.
29. Cited John L. Esposito, *Islamic Threat*, p. 135.
30. See Jansen, *Neglected*, p. 193.
31. Johannes J. G. Jansen, 'Tafsir, Ijma and Modern Muslim Extremism', *Orient* vol. 27, no. 4, 1986. See also Jansen, *Neglected Duty*.
32. Jansen stated in an interview, 'I don't know when it was written: probably in the spring preceding the murder of Sadat. Five hundred copies were printed. The group started to distribute and sell the book, but then realized that the Egyptian secret police would be able to locate the group by tracing these copies. So they burned 450 copies. Fifty copies survived, and photocopies of these are bound in libraries all over the world. After the murder of Sadat, the prosecutor added the document to the case file, so the lawyer of the accused also got a copy. He gave it away to an Egyptian newspaper, *Al Ahram*, which printed it. The article appeared in December 1981. It was sold out within hours and was never reprinted in that form. If people are sentenced to death, the Egyptian State Mufti has to condone the sentence. The Mufti gave a long *fatwa* explaining why the murderers of Sadat were wrong. But as a footnote to this *fatwa*, he added the full text of the document *The Neglected Duty*. That appeared in a series of thousands of pages, but the fascicule in which that document was reprinted sold out quicker than the rest of the volume. Then there was a third edition which was made probably in Jordan or Israel: it made use of the newspaper text, but left out a number of things that may have been sensitive in the context of an Islamic kingdom, as Jordan is'; *Religioscope* (Fribourg, Switzerland), 8 February 2002.
33. Osama bin Laden extended the doctrine still further in his pronouncement of February 1998: 'These crimes and sins committed by the Americans are a clear declaration of war on God, his messenger and Muslims. And *ulema*

[Muslim scholars] have throughout Islamic history unanimously agreed that the *jihad* [Holy War] is an individual duty if the enemy destroys the Muslim countries.

'On that basis, and in compliance with God's order, we issue the following fatwa to all Muslims:

> The ruling is that to kill the Americans and their allies is an individual duty for every Muslim who can do it, in order to liberate the Al-Aqsa Mosque [Jerusalem] and the Holy Mosque [Mecca] . . . This is in accordance with the words of Almighty God . . . We call on every Muslim who believes in God and wishes to be rewarded to comply with God's order to kill the Americans and plunder their money wherever and whenever they find it.'

Bin Laden's interpretation is false and misleading. The tradition of *jihad* is as a collective and not an individual duty, to be imposed only through proper authority. Even then it has to be carried out within limits so as to be lawful. His interpretation sets aside all constraints.

34. For a thoughtful (but controversial) view of 'Islamism', see Francis Fukuyama and Nadav Samin, 'Can Any Good Come of Radical Islam? A Modernizing Force?', *Wall Street Journal*, 12 September 2002.
35. 8 December 1986.
36. 'Satan' and *Shaitan* sound the same but their meaning is not identical. See the *Light of Islam*, 'The Infallibles', Chapter 4 @ http://home.swipnet.se/islam/imamsajjad.htm
37. Khomeini had always viewed his revolution as all-Islamic, transcending Sunni–Shi'i historical divergences and directed against the common enemy – namely, the twin forces of modernity and secularization and their nominally Muslim admirers, the 'Westoxicated' (*gharbzada* in Persian; *mustaghribun* in Arabic). Hopes for such a Pan-Islamic revolution were high in Tehran at the beginning of the 1980s. See Emmanuel Sivan, 'The Holy War Tradition in Islam', *Orbis* Spring 1998.
38. English, German, Hebrew, Italian, French, Spanish, Turkish and Russian.
39. See MEMRI Special Dispatch Series No. 486, 25 March 2003.
40. See MEMRI Special Report No. 10, 26 September 2002, 'Friday Sermons in Saudi Mosques: Review and Analysis'.
41. To say nothing of the vicious insults that, say, militant Protestants use about Catholics, or how mainstream Muslims attack Islam's schismatics.
42. Jefferson wrote to the Virginian George Wythe, who held the first chair in law in the United States, on 13 August 1786, 'Preach, my dear Sir, a crusade against ignorance; establish & improve the law for educating the common people.'

See Gordon C. Lee (ed.), *Crusade Against Ignorance: Thomas Jefferson on Education*, New York, NY: Columbia University Press, 1961.

43. Pastor Dino Andreadis, the Senior Pastor of Park Road Church, Brantford, Ontario. @ http://www.brokenhearted.org/india.html
44. He is based at the First Church of the Gospel Ministry, Wooster, Ohio.
45. The outreach of the Victory Network may be found at http://www.victorynetwork.org/
46. Le Roy Finto on Jerris Bullard's India. This site has moved and reconstituted. On 9 November 2003, it was to be found at http://www.manassaschurch.org/india 6.htm
47. I have deliberately chosen examples that related the modern idea of 'crusade' to both Hindu and Muslim communities.
48. *Wall Street Journal*, 'WSJ Opinion: Bernard Lewis, *Jihad* vs. Crusade: A Historian's Guide to the New War', Thursday, 27 September 2001. See http://www.opinionjournal.com/extra/?id=95001224

    Here, as he often does, Lewis begins with the combative statement, and then goes on in a more contemplative vein. However, the printed responses to his piece, which reflected a wide range of differing opinions, did not suggest any acceptance of his view that crusades were now only 'a vigorous campaign in a good cause'.
49. At Princeton University in April 1999, where Professor Lewis was once a luminary, the president of the university Christian group, Phil Belin, was widely quoted as saying, 'We know the negative connotations associated with crusades turns people away from associating with us and listening to the gospel message.' The context of Belin's observation was reported in the *Yale Daily News*, 8 April 1999: the Yale Chapter of the Campus Crusade for Christ had changed its name to Yale Students for Christ. The reason, as its president, Dave Mung, observed was, 'We wanted to have a name that more accurately reflected the nature of our group. Sometimes the CCC name connotes preconceived negative notions.' Belin was commenting on this change.
50. There is good reason for this. In Indonesia and elsewhere, civil strife between Muslims and Christians is often termed a *jihad* by Muslim groups, even if its causes are largely political and economic.
51. The term 'fundamentalism' is often used in a very broad sense, but I believe it should only be applied to those Christian communities and communicators which root their thinking in the literal truth of the Bible. It derives from the twelve short books, collectively entitled *The Fundamentals*, that were published between 1910 and 1915. Each had a print of 3 million copies, with a free copy sent to every pastor, every teacher of Christian religion, and every

theology student in the United States. Many more were sold to the general public. See Nancy T. Ammerman, 'North American Protestant Fundamentalism', in Martin E. Marty and R. Scott Appleby, *Fundamentalisms Observed: The Fundamentalism Project*, vol. 1, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1991.

52. In 1919, the World Christian Fundamentals Association was founded to advance the cause of a pure Biblical Christianity. One of its progenitors was A. C. Dixon, an editor of *The Fundamentals*. Like the new *jihadists*, the Christian 'fundamentalists' (a term which they applied to themselves after 1920) were linked by a chain of personal connections, discipleship, Bible colleges, Bible-study institutes, seminaries and 'crusades'. The name was coined by Curtis Lee Laws, editor of the *Baptist Watchman-Examiner*. Details of current crusades can be found @ http://www.christianitytoday.com/crusades
53. These details are drawn from the Faith Defenders website @ http://www.faithdefenders.com/
54. It still has a modern resonance. Recently the curse was turned into an art object. It was carved on a large stone and placed in the centre of Carlisle, the last city in England before the Scottish Border. In the Foot and Mouth outbreak of 2001, it was publicly suggested that the disease was a result of the ancient curse, and the current archbishop was asked to lift it. The whole curse extends to some 1,500 words. The powerful General Commination remains in the repertoire of the Church of England and is still occasionally pronounced. See http://www.cathtelecom.com/news/111/29-php. For the text, see http://www.geocities.com/~betapisces/academy/glasgow.htm
55. In 1989, Monsignor Philip Reilly set up his movement, Helpers Of God's Precious Infants, based on peaceful and prayerful public witness at the abortion sites – or 'Calvary' sites as he calls them. See http://www.iol.ie/~hlii/helpers_of_infants.html. Reilly's movement was non-violent, but for the wider range of activities by anti-abortion groups, violent and non-violent, see http://www.fyleserva.com/cgnews/ More recently, Reverend Alan Perkins' sermon is a typical example of a traditional Christian discourse: 'God is not at peace with your sin. He is at war with your sin. And if you choose to abandon the field of battle, if you refuse to engage the enemy of your soul in mortal combat, then the result will be destruction, and not salvation. Do you think that kind of imagery is exaggerated or overblown? Peter didn't. Listen: "Dear friends, I urge you, as aliens and strangers in the world, to abstain from sinful desires, which war against your soul." – 1 Peter 2:11, NIV. Sin is at war with your soul. That isn't just rhetoric; it's reality.' 'At war with sin', 9 February 2003, http://www.journeychurchonline.org/messages.htm

56. See, for example, townhall.com, which calls it the Evil Empire Speech, but the words were *not* used in the text. See http://www.townhall.com/hall_of_fame/reagan/speech/empire/html. For the address to the British Parliament, see University of Texas Presidential Archive Website, @ http://www.reagan.utexas.edu/resource/speeches/1982/60882a.htm
57. Reagan address to the National Association of Evangelicals @ http://www.reagan.utexas.edu/resource/speeches/1983/30883b.htm
58. Reagan did quote Schiller – 'The most pious man can't stay in peace if it doesn't please his evil neighbour.' – in his speech to the Bundestag on 9 June 1982. This appears in a footnote in *The Public Papers of the Presidents of the United States: Ronald Reagan 1981–1989*. Washington, DC: Government Printing Office, 1982–90. See also http://www.usembassy.de/usa/etexts/ga5-820609.htm
59. Many of his mis-speakings related to memory, which may well have been the early manifestations of Alzheimer's Disease. Thus he forgot Princess Diana's name and called her 'Princess David'. But when working from a script he gave reliable performances.
60. The term was first coined of Reagan.
61. He had some connections. In 1970, five members of the Full Gospel Business Men's Fellowship, prayed with then-California Governor Reagan at his home in Sacramento. One, a former Lear executive, was overcome with the Spirit and began to speak in the voice of God. He compared Reagan to a king, and prophesied that Reagan would 'reside at 1600 Pennsylvania Avenue' if he continued to walk in God's way. It was suggested that Reagan took the prophecy very seriously. See http://www.pir.org/gw/fgbmfi.txt. Clinton had his 'spiritual advisers' and was rooted in a Southern Baptist heritage. See http://www.llano.net/baptist/presidentsadvisers.htm During the Monica Lewinsky crisis he turned to the Revd Jesse Jackson for spiritual support.
62. See *Religion and Ethics Newsweekly: The Spirituality of President Bush* @ http://www.pbs.org/wnet/religionandethics/week421/news.html
63. Woodward, *Bush at War*, p. 16.
64. Ibid., p. 38.
65. *Washington Post*, 31 May 2000.
66. This text was subsequently massaged to change the text as delivered. At a commonly used website, Quoteworld, the word crusade does not appear in the transcript of the speech. See http://www.quoteworld.org/docs/gbrem926.php
67. 'This President regards words as unusually binding . . . The President likes a language of very clear moral meaning. He thought the word "evil" was the word he wanted to use'; Eddie Mair Interview with David Frum, a Bush speechwriter, BBC Radio 4, *Broadcasting House*, 23 June 2002.

68. *Presidential News and Speeches*, 16 September 2001, @ http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010916-2.a.ram. On 26 January 2003, at the World Economic Forum in Davos, the US Secretary of State again used 'crusade' to describe US activity, saying that 'as we generate wealth, as we create wealth, we recognize that ultimately the purpose of that wealth has to be to touch the lives of every one of God's children. Let that be our solemn obligation and let that be our charge today. And in that great crusade, the United States is aligned with each and every country and institution represented in this room.' Here Colin Powell used the word in its 'Jeffersonian' form, but the deliberate choice of 'crusade' in this context, rather than, say, 'struggle', is notable, given the new political context of the term after the president's controversial use of the word. For the text of the Secretary of State's speech, transcribed by the State Department, see http://www.startribune.com/stories/484/3615273.html
69. The linguistic technique of conversational analysis (CA) suggests that seeking the word in this way indicates that it is problematical. Nowhere else in the press conference does Bush use the same pattern of phrasing. On the practice and potential for CA, see Paul ten Have, *Doing Conversational Analysis*, London: Sage, 1999, pp. 28–34. I am grateful to Bethan Benwell for introducing me to this form of analysis and for helping me through its complexities.
70. See http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/01/20020129-11.html
71. Woodward, *Bush at War*, pp. 141–3.
72. Ibid., pp. 52–3.
73. 'The Evildoers and the Misled', 6 December 2001. See http://www.ariannaonline.com/columns/files/120601.html
74. Mark 5:9.
75. Bassam Tibi, *Islam Between Culture and Politics*, Basingstoke: Palgrave, 2001, p. 6.
76. Charles Kurzman (ed), *Liberal Islam: A Sourcebook*, Oxford: OUP, 1998, p.25.
77. Fareed Zakaria spoke in these terms on *Start the Week*, BBC Radio Four, presented by Andrew Marr, 16 May 2003.
78. And of course in Egypt, and some of the states of North Africa.
79. See Hugh Trevor-Roper, 'The Invention of Tradition: The Highland Tradition of Scotland' in Eric Hobsbawm and Terence Ranger (eds), *The Invention of Tradition*, Cambridge: CUP, 1992. Standardized official 'national' dress for Gulf Arab men has in fact evolved in its current form only in relatively recent times. See Andrew Wheatcroft, *Bahrain in Original Photographs 1880-1961*, London: Kegan Paul International, 1988, pp. 72–81. For the issue of dress, see Easa Saleh Al-Gurg, *The Wells of Memory: An Autobiography*, London: John Murray, 1998, p. 54.

80. For the nineteenth-century response to the Ottomans, see Reinhold Schiffer, *Oriental Panorama: British Travellers in Nineteenth-Century Turkey*, Amsterdam: Rodopi, 1999.
81. For example, his analysis of General William G. Boykin's 'dissembling' in *Newsweek*, 27 October 2003. He concludes, 'Perhaps the most troubling aspect of Boykin's remark is its utter ignorance.'
82. Fareed Zakaria, *Newsweek*, 21 April 2003, based on *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad*, New York, NY: W.W. Norton, 2003.
83. See Marion Farouk Sluglett and Peter Sluglett, *Iraq since 1958: From Revolution to Dictatorship* (rev. edn), London: I. B. Tauris, 2001, pp. 179–80.
84. For a full treatment of the game, see http://www.wikipedia.org/wiki/Stone, Paper, Scissors
85. The reasons for this pattern of misconception are not clear. It is not for lack of high-quality research and study. For example, an informed and carefully analytical approach to the issues in Iraq from a US perspective has been produced by the Center for Strategic and International Studies, 'A Wiser Peace: An Action Strategy for a Post-Conflict Iraq: A Report by Project Director Frederick Barton and Bathsheba Crocker'. 'A Wiser Peace' outlines ten key actions that the United States and the United Nations must take to prepare to rebuild Iraq's security, governance, justice and economic sectors. The study 'Postwar Iraq: Are We Ready?' may also be found at www.csis.org
86. I first heard this in the Texas Panhandle, but this version comes from a Methodist sermon: 'A Texas farmer had a new mule he needed to have trained; it would not do anything he wanted it to – not even go into its stall in the barn. In exasperation, he hired a mule-skinner to come out and break the mule in. The old mule tamer arrived out at the farm and had the owner explain what he wanted done. The old man looked at the mule then at the farmer, reached down and picked up a fence post that was lying on the ground, and, swinging the post as hard as he could, hit the mule right between the eyes. The mule shook its head, braced its two front legs just as stubbornly as before, and refused to move. The mule tamer swung the post and again hit the mule between the eyes, this time twice as hard as before. The blow knocked the mule to its knees. As it struggled back to its feet, the old man went around to the back of the mule and hit it on the rear with a third blow. He then dropped the post onto the ground, caught the mule by its halter, and calmly led it into the barn. By this time, the farmer was furious: he threw his hat down on the ground, cursed, and yelled at the old man, "What are you doing!? I hired you to come out here and tame my mule, not to kill him!" While he ranted and raved, the old man just stood there. He looked up at the sky, then down at the ground. Finally, he

just spat some tobacco juice to the side (he was chewing Red Man), and looked the farmer squarely in the eyes. "It appears to me that you're a mighty good farmer," said the skinner. "You got a good stand of cotton in the field out yonder, and your rice paddies look mighty good – but you don't know nothin' about taming mules!" "What do you mean?" asked the farmer. The old mule tamer continued, "You see, when I want to teach a mule something, the first thing I do is get his attention." http://www.cmpage.org/texasmule.html

87. But of course some viruses, like smallpox, can be prevented by inoculation or vaccination. For a coherent view of the recent evolution of terrorist methods, see Laden and Roya Boroumand, 'Terror, Islam and Democracy', *Journal of Democracy*, April 2002.

88. See United States Institute of Peace, *Special Report: Islamic Perspectives on Peace and Violence*, 24 January 2002: 'What is often viewed as a clash of civilizations is really a clash of symbols . . . The symbols on one side are headscarves, *turbans* [my italics] and other symbols of Islamic expression that Westerners often find repellent, just as fundamentalist Muslims view much of Western culture as anti-Islamic.' For an elaborate analysis of the clash of civilizations from a highly nuanced radical 'Islamic' perspective, see *The Inevitability of the Clash of Civilization*, London: Al-Khilafah Publications, 2002.

89. For the debate on the pursuit of happiness, see the convenient collection @ http://www.lexrex.com/enlightened/AmericanIdeal/yardstick/pr8_quotes.html – for example: 'Kings or parliaments could not give the rights essential to happiness . . . We claim them from a higher source – from the King of kings, and Lord of all the earth. They are not annexed to us by parchments and seals. They are created in us by the decrees of Providence . . . It would be an insult on the divine Majesty to say, that he has given or allowed any man or body of men a right to make me miserable. If no man or body of men has such a right, I have a right to be happy. If there can be no happiness without freedom, I have a right to be free. If I cannot enjoy freedom without security of property, I have a right to be thus secured'; John Dickinson (Reply to a Committee in Barbados, 1766).

90. See http://www/bartleby.com/124/pres16.html

الخاتمــة

الملائكة الأفضل فى طبيعتنا

هذا الكتاب ينتهى على مسافة أبعد كثيرا من بدايته. إذ إن المسار الذى بدأ فى العالم القديم- شرق المتوسط ينتهى الآن فى العالم الجديد. وهذه ليست خاتمة اعتباطية، لأن الولايات المتحدة صارت متورطة مع عالم الإسلام منذ السنوات الأولى لاستقلالها. فقد كانت هناك اتفاقيات تجارية موقعة مع باشوات شمال أفريقيا منذ تسعينيات القرن الثامن عشر، وحرب قصيرة سنة ١٨٠٥م. عندما رفع العلم الأمريكى على قلعة طرابلسية تم الاستيلاء عليها. وفيما بعد فى القرن التاسع عشر تطورت العلاقات الأمريكية مع الإمبراطورية العثمانية بشكل مختلف تمامًا عن علاقات الدولة الأوربية، وكان ذلك راجعًا بدرجة كبيرة إلى نجاح المبشرين الأمريكيين بين المسيحيين المحليين.

وقد صارت الهيئة الأمريكية للمبشرين فى البعثات الأجنبية، التى أسست فى سنة ١٨١٠م، فعالة فى تنصير البعض داخل الأراضى العثمانية، خاصة بين المسيحيين الأرمن المحليين[1]. وقد صبت الهيئة المال والموارد لساندة هذه الجماعات المسيحية، التى كانت غالبًا مثل عناقيد معزولة داخل جمهرة من السكان أكبر عددًا. وصار المبشرون عامل تأثير قويًا على سياسة الولايات المتحدة الخارجية. تقدم فيضًا مستمرًا من المعلومات عن الأحوال فى هذه «الميادين التبشيرية البعيدة». ومن الأمور الدالة أنهم ضمنوا تعيين قناصل الولايات المتحدة فى كثير من المناطق بالأراضى العثمانية، وقدم القناصل والمبعوثون سويًا صورة عن الاضطهادات والفظائع.

والكثير من هذه الأدلة تم تغييرها تمامًا بلا جهد إلى دعاية وحشية ضد العثمانيين (وضد المسلمين).

كان لقتل المسيحيين العثمانيين في تسعينيات القرن التاسع عشر والقتل الجماعي في سنة ١٩١٥م. وكلا الحادثين موثقان بصورة مفرطة ومفزعة. أثر مستمر على التصورات الأمريكية للشرق الأوسط. هذه الوحشية الحديثة عززت الذكريات الأقدم والأبعد زمنا التي ظهرت في الصفحات السابقة[٢]. فقد حفزت المذابح الأرمنية رد فعل مفاجئًا مثل الصدمة الكهرباثية. يشبه الاستجابة البريطانية إزاء المذابح البلغارية سنتي ١٨٧٥-١٨٧٦م، التي عرضنا لها في الفصل الحادي عشر. وقد أخبر هنري مورجنثاو Henry Morgenthau. سفير الولايات المتحدة في إستنبول من ١٩١٣ إلى ١٩١٦م، محمد طلعت باشا مهندس المذبحة بما نصه:

«أنت تنظر بازدراء إلى المبشرين ولكن لا تنس أن العنصر الأفضل في المجتمع الأمريكي يساند أعمالهم. خاصة مؤسساتهم التعليمية. إن الأمريكيين ليسوا مجرد قوم ماديين. يطاردون المال على الدوام- إنهم إنسانيون ومهتمون بنشر العدالة والحضارة في ربوع العالم على نطاق واسع... ولن ينسى شعبنا قط هذه المذابح. وسينظرون إليها على أنها ليست سوى اغتيال مقصود وسوف يدينون بجدية جميع الرجال المسئولين عنها ... إنكم تهدرون كل أفكار العدالة حسبما نفهم المصطلح في بلادنا»[٣].

لقد كانت المذابح الأرمينية إهانة للمبادئ المؤسسة للولايات المتحدة. وكان السفير مورجنثاو يصف تطلع أمته إلى أن تصبح «الجمهورية الفاضلة». التي خلقت منذ سبعينيات القرن الثامن عشر بالتطلع نحو إلهامات أسمى كثيرا من مجرد المادية الباحثة عن المال. ولكنه عرف أن هذا المثال كان موجودًا في الكيان السياسي شأنه شأن الجشع، وحب التملك والوحشية التي اشمأز منها. ومثل الإله الروماني يانوس Janus. كان لوطنه وجهان- أحدهما «نبيل أحيانا» والآخر «دائما خسيس». وكان الوجهان يقدمان للعالم.

لم تكن الولايات المتحدة الشابة مثل أية دولة أخرى وجدت على مدى تاريخ العالم. والمقارنات الحديثة مع إمبراطوريات أخرى، قديمة وحديثة، إنما هى مقارنات عبثية ومضللة على حد سواء[٤]. ولكن على الرغم من أنها غنية وناجحة اليوم. فإنه يجدر بنا أن نتذكر أن الولايات المتحدة قد ولدت من رحم العنف الثورى والدماء الغزيرة. والحقائق العابسة فى تلك الثورة عالقة فى الذاكرة بقدر أقل من ذكرى الكلمات اللطيفة عن الوطن والحرية التى ما تزال ترن أصداؤها. فقد كان چيفرسون يعرف. طبعا. الحقائق القاسية، ولكنه احتفظ بها لخطاباته الخاصة بدلاً من خطاباته العلنية. «إن شجرة الحرية يجب أن ترتوى من حين لآخر بدماء الوطنيين والطغاة. إنها المخصب الطبيعى لهذه الشجرة»[٥].

كانت هذه الأمة الجديدة سريعة فى صناعة أساطيرها وأبطالها. فعندما مات أول رئيس لها، جورج واشنطن. فى سنة ١٧٩٩م. بدأ رثاء الكونجرس على النحو التالى: «فى ذكرى الرجل، الأول فى الحرب. الأول فى السلام، والأول فى قلوب بنى وطنه». لقد عكس المشاعر الشعبية حقًا. وهى عاطفة تجسدت فى المطبوعة ذات الشعبية الهائلة لجون چيمس بارالت **John James Barralet** فى سنة ١٨٠٢م. وقد وفر هذا نوعًا من التأليه. لأن المواطن الأول كان قد حُمل إلى السماء بالزمن والخلود[٦]. وبعد ذلك. فى أعقاب الحرب الأهلية زين الرسام قسطنطينو بروميدى **Constantino Brumidi** البناء الدائرى ذا القبة فى العاصمة واشنطن بلوحة ضخمة من الجص الملون (الفريسكو) وهناك :

«يجلس أول رئيس فى جلال. وإلى جانبه الأيمن ربة الحرية وعلى جانبه الأيسر شكل مجنح للشهرة ينفخ فى نفير ويمسك بسعفة نخيل معلقة فى أعلى رمز النصر. وهناك ثلاثة عشر شكلا أنثويا يقفن فى نصف دائرة حول واشنطن يمثلن الولايات الثلاث عشرة الأصلية. وعلى الإطار الخارجى للقبة، ستة تجمعات رمزية تحيط به. تمثل الصور الكلاسيكية للزراعة، والفن والعلوم، والتجارة. **mhgpnf**. والآلات. والبحرية»[٧].

ومثل جميع التواريخ الوطنية، كان الماضى الأمريكى دائما موضع تشذيب وترتيب فنى لكى يفى بمتطلبات اللحظة. وهناك تحت هذا السطح الصافى الذى رسمه بروميدى ما قد تتوقعه من: رجال جهلاء فاشلين، والطمع، والبلاهة المطبقة، والمصلحة الذاتية السافرة مثلما هو الحال فى الأمم الأخرى. هذا هو الوجه الآخر للولايات المتحدة. ومع هذا، وهو أمر غير عادى بين الأمم، كانت هناك أيضا محاولة جادة للتفكير والتصرف بشكل أخلاقى، لتكريم أسطورة تأسيس الوطن. ومن بين قائمة طويلة من رؤساء الولايات المتحدة ورجال الدولة فيها، يمكن أن نجد عددًا قليلاً ممن جمعوا بين العقل والسياسة الواقعية بنجاح بحيث أظهروا كيف يمكن ممارسة السلطة دون تبكيت الضمير، وأيضا دون ضغينة. وبينما كانت الكراهية والمذمة متوطنة فى أعماق الأمة الجديدة، كان هناك أولئك الذين عارضوها. وكان هذا ما عناه إبراهام لنكولن، فى أول خطاب له بعد الولاية، عندما تحدث عن «الملائكة الأفضل فى طبيعتنا».

فلم تكن المعتقدات النبيلة يعتنقها القديسون والعلماء المعزولون عن حقائق الحياة، ولكن كان يعتنقها زعماء واجهوا الاختبار السياسى النهائى المتمثل فى الحرب وفى الصراعات الأقل منها. فمن السهل أن تكون أخلاقيًا فى التجريد، ولكن الولايات المتحدة كانت قد أنتجت فى الماضى رؤساء نجحوا دون اللجوء إلى اللغة الفاسدة عن الكراهية والشر. وكيف ولماذا فعلوا ذلك هو موضوع هذا الفصل الأخير. إن الثلاثة الذين اخترتهم- إبراهام لنكولن Albraham Lincoln، وتيودور روزفلت Theodore Roosevelt، وفرانكلين ديلانو روزفلت.

Franklin Delano Roosevelt، الذين كانوا مرتبطين ببعضهم عن قرب. فالشاب جون هاى John Hay، الذى كان سكرتير لنكولن والذى استمع إليه وهو يلقى خطابه فى جتيسبورج Gettysburg، خدم فيما بعد فى شيخوخته وزيرًا لخارجية تيودور روزفلت وكان محل ثقته وتبجيله. وقد تولى تيودور روزفلت رئاسة احتفال

زفاف ابنة أخيه إليانور، التى أعطاها موافقته على الزواج من قريبه البعيد فرانكلين ديلانو روزفلت، وكان فرانكلين معجبًا بقريبه الأكبر سنًا تيودور إلى حد التأليه. ولم يكن أى من هؤلاء الرجال ضعيفًا أو مترددًا ولم يتهيب أحد منهم فى اتخاذ أصعب القرارات، ومع هذا فإنهم نجحوا وهم «يتحدثون بنعومة» على حد تعبير تيودور روزفلت المفضل. بعد تعديل العبارة. وربما كانت هذه تبدو بديهية عكسية. لأن نغمة الديماجوجى الخشنة تبدو فعالة وقوية للغاية. ولكنهم كانوا يعرفون أكثر، وإنى آمل أن أشرح السبب فى هذا. أما كيف نجحوا. فأمر يرتبط مباشرة بالأمور السياسية فى القرن الحادى والعشرين.

* * *

فى يوم. مارس ١٨٦١م. وهى لحظة أزمة كبرى فى تاريخ الأمة، ألقى الرئيس المنتخب إبراهام لنكولن خطاب الولاية. واختتم خطابه بالحديث مباشرة إلى أولئك الذين كانوا قد عقدوا العزم على الانفصال عن الاتحاد: «نحن لسنا أعداء. ولكننا أصدقاء. ولا ينبغى أن نكون أعداء. وعلى الرغم من أن العاطفة ربما أجهدتنا. فلا يجب أن نقطع روابط المحبة التى تجمعنا. إن الأوتار الباطنية، التى تمتد من كل ميدان معركة وقبر وطنى إلى كل قلب حى وتنظف كل هذه الأرض العريضة سوف تضخم مع هذا صوت الاتحاد، عندما نمسها مرة أخرى، كما سوف تكون بالتأكيد بواسطة الملائكة الأحسن فى طبيعتنا».

لقد أوضحت السياسة الواقعية أن الحرب الأهلية كانت محتملة إن لم تكن حتمية، ولكن فى هذه المناسبة الأكثر عمومية أصر لينكولن على أن يتحدث فى مصطلحات العقل. فقد وجد «الملائكة الأحسن فى طبيعتنا» على كلا جانبى الانقسام بين الاتحاد والانشقاق. وقد أكد على، وتحدث عن إنسانية وطبيعة مشتركة. وهو لم يعلن علانية أن خصومه من الشياطين. على الرغم من أنه كان يستنكر أعمالهم. وبعد ذلك بما يزيد على سنتين. فى خطابه الذى ألقاه فى ميدان معركة جيتسبورج يوم ١٩ نوفمبر

١٨٦٣م. عاد مرة أخرى لكى يقارن بين عدوه الشرير ورجاله «الشجعان. الأحياء منهم والأموات، الذين ناضلوا هنا»[٨].

كانت النغمة النبيلة مسألة حكم حذر[٩]. فقد جسَّد لنكولن العدو كما لو كان فى مرآة. بشر مثله. يمكن أن يسقط وقادر على ارتكاب الخطأ. لقد استنكر الشتائم والإهانات. ولكن لأسباب سياسية. ولم تكن صفوف الانفصاليين أكثر اتساقًا أو توحدًا من أنصاره. فقد كان يعتقد أن المتشبثين بالكونفدرالية أقلية فى الجنوب، وأنه ما إن ينتصر فى الحرب، سيكون بوسعه أن يعيد بناء ولايات متحدة جديدة بمساندة الأغلبية. وفى خطاب الولاية الثانى، كان متصلبًا فى مواصلة الحرب «حتى يتم إغراق الثروة التى تم تراكمها عن طريق العمل الشاق لأقنان الأرض على مدى مائتين وخمسين سنة، وحتى يتم الدفع مقابل كل نقطة دم بنقطة دم أخرى يريقها السيف». ولكنه أصر أيضا على أن هذا كان «بعدم الإساءة لأحد والإحسان للجميع». كانت براعة لنكولن البلاغية. وكلامه السهل الواضح، هو الذى أرسى أكثر ضرورات الحرب عبوسًا مع صوت العقل المثابر. كان هذا المزيج. وفيه كل عنصر مرتبط بعروة وثقى بالعنصر الآخر، هو ما جعل رسالته قوية جدا. لقد كشف بالحوار جوانب القصور فى المذمة.

كانت نزعة لنكولن البرجماتية تضرب بجذورها فى حقائق السياسة الفظة وفى فهم ذكى للطبيعة البشرية. فقد كان يعرف أن ما كان يقال وكيف كان يقال يحد من (أو يوسع) الإمكانيات السياسية للمستقبل. وقد عرف الرئيسان التاليان البراجماتية نفسها. فعندما كتب فرانكلين ديلانو روزفلت تقريره عن الهجوم اليابانى على بيرل هاربور أدانه بازدراء بارد على أنه «هجوم دون استفزاز حدث بصورة دنيئة» وبأنه «خيانة» وتحدث عن أن «٧ ديسمبر ١٩٤١م- تاريخ سوف يعيش فى الخسة والعار»[١٠]. وبخلاف لنكولن. كان فرانكلين روزفلت أحيانًا يختار لغة أكثر خشونة. فى أبريل سنة ١٩٤٣م وصف إعدام اليابانيين للطيارين الأمريكيين قبل سنة بأنه عمل «بربرى»، وتحدث عن «الانحلال الخلقى» لدى اليابانيين وممارستهم «القتل بدم بارد». وأعلن أن اليابانيين «متوحشون»[١١].

وفي كل مناسبة كان يختار كلماته العلنية بأكبر قدر من الحذر. فالمسموع يحكم القلب. وبعيدا عن العين العامة، كانت المذمة تتماشى بدرجة أقرب كثيرا إلى مشاعر الرئيس الشخصية عن أعداء الأمة من تلك النبرة المحسوبة التي ميزت خطبه بشأن بيرل هاربور. وعلى انفراد أخبر وزير المالية لديه. والذي كان من قبل فلاحًا ومربي ماشية، هنري مورجنثاو جونيور، في كلمات تذكر بالتأملات الإسبانية عن «المشكلة الموريسكية»، قبل عدة قرون، أنه: «إما أنه يتعين عليك أن تخصي الشعب الألماني أو يتعين عليك أن تعاملهم بحيث لا يمكنهم أن ينجبوا الناس الذين يريدون الاستمرار بالطريقة التي كانوا يتبعونها في الماضي»[١٢] ولكن في خطبه المعدة سلفًا. مثل خطاب حالة الاتحاد، كان روزفلت يتحاشى اللغة الخشنة عن الفظائع والشر. وبدلاً من ذلك اختار العبارات العامة المتسمة بالعقل والمجادلة. أي فيها عبارات مناسبة للتوجيه الفعال للحب في مجتمع ديموقراطي .

أما قريبه تيودور روزفلت. فكان أصغر رئيس على الإطلاق. فقد تولى المنصب (نائبًا للرئيس) بعد اغتيال الرئيس وليم ماكينلي William G. Mckinley سنة ١٩٠١م. وروزفلت الأكبر من الصعب أن نتجنبه. فقد كان متعدد الجوانب: متحدثًا لبقًا. يستمتع بالحياة. وبطلا حربيًا. ولكن إذا أردنا تعبيرًا يتضمن كافة جوانب شخصيته فهو تعبير «صائغ كلمات». فقد كان مؤلفًا طيلة حياته: منذ شبابه. وصاحب مزرعة فاشلاً. وأعظم صياد أبيض؛ والسياسي الشاب في نيويورك؛ إلى «الراكب الخشن» الذي يشبه العجل في سن النضج الكولونيل روزفلت، الذي يقود فيلقه الخاص من المتطوعين. حتى وصل في النهاية إلى زعيم هذه الأمة[١٣]. ولم يتوقف روزفلت عن الكتابة أبدًا. وفيما بين سنة ١٨٨٢م وسنة ١٩١٨م. نشر أكثر من عشرين كتابًا، بالإضافة إلى الكثير من الكتب الأصغر، والمقالات، والكتيبات. والخطب والخطابات والأعمال الصحفية[١٤]. لقد كانت مملكته الطبيعية الكلمات .

ومع كل اندفاعه وتهوره. كان تيودور روزفلت يتمتع بنظام داخلي، ولم يكن هذا واضحًا في أي شيء أكثر من لغته. فكثير من الأشياء التي قالها أو كتبها تبدو الآن

مثيرة للغضب أو مستفزة وتحريضية. ولكنها في غالب الأحيان جاءت في محادثة أو خطاب خاص. كان استنكاره للغة البذيئة فيكتورى النزعة. ولكن هذا القيد الطبيعي كان أيضا صادرًا عن حكم جيد. ففي العلن كان يتحدث لكي يشغل قلوب سامعيه وعقولهم. ويكمن جزء من نجاحه السياسي في توسيع جاذبيته وزيادة مؤيديه. وقد تحقق هذا بما قاله بقدر ما تحقق بما فعله.

هؤلاء الرؤساء الثلاثة جميعًا- لنكولن والاثنان روزفلت. فهموا قوة الكلمة لضمان الدعم والولاء من جماهير الناخبين. وقد بدأت الرئاسة الحديثة المتوجهة إعلاميًا بتيودور روزفلت، الذي كان مدركًا للغاية الحاجة إلى صورة عامة فعّالة[١٥]. ولكن لنكولن أيضا عرف تمامًا قوة الصحافة، على حين كان فرانكلين روزفلت. باستخدامه الراديو قد دفع الاتصالات الرئاسية مع الشعب في بعد جديد. هذه الأمثلة الثلاثة عرفوا ما كانوا يريدون قوله، وقالوه.

* * *

والتناقض بين ذلك الزمان والآن قهرى لايقاوم. واليومان اللذان لطختهما الشناعة في تاريخ الولايات المتحدة. ٧ ديسمبر ١٩٤١م في بيرل هاربور و١١ سبتمبر ٢٠٠١م في نيوريوك وواشنطن العاصمة- كانا مأساتين على نفس المقدار. ففي بيرل هاربور مات ٢٣٩٠ وجرح ١١٧. على حين مات حوالي ثلاثة آلاف في الهجوم يوم ١١ سبتمبر. ومع هذا فإن الرئيسين- فرانكلين ديلانو روزفلت وچورج بوش- تحدثا بطريقة مختلفة تماما عن الحادثين. وقد تحدث روزفلت في البداية إلى اجتماع جلسة للكونجرس عقدت على عجل يوم. ديسمبر ١٩٤١م[١٦]. وفي اليوم التالي تحدث إلى الأمة عن طريق الراديو في برنامج «دردشة بجوار المدفأة». وقد استخدم فرانكلين روزفلت نبرة فيها تحكم مدروس. فلم يسخر من أعداء أميركا. ولم يقلل من شأنهم. وبدلاً من ذلك تكلم بحيادية باردة:

«ربما نعترف بأن الأعداء قد قاموا بعملية خداع باهرة، مضبوطة في توقيتها كما تم تنفيذها بمهارة عظيمة. لقد كان فعلاً غير شريف بالمرة، ولكننا يجب أن نواجه حقيقة أن الحرب الحديثة كما تدار بالطريقة النازية عمل قذر. ولا تعجبنا. ونحن لا نريدها– ولكننا فيها وسنحارب بكل ما لدينا»[١٧].

لقد وجد روزفلت الأسلوب الصحيح ليلم شمل شعبه. فقد كان منضبطًا، عنيدًا وقد عقد العزم تمامًا. ويجب علينا مقابلة هذا برد فعل الرئيس بوش على المأساة، في سنة ٢٠٠١م، عندما قال للشعب الأمريكي:

«تحدثت مع نائب الرئيس، وإلى حاكم نيويورك، وإلى مدير المباحث الفيدرالية وأمرت بأن تذهب جميع موارد الحكومة الفيدرالية لمساعدة الضحايا وعائلاتهم، والقيام بتحقيق كامل لإيجاد هؤلاء الذين ارتكبوا هذا الفعل»[١٨].

هذا الخليط المرتبك من النثر البيروقراطي الملتوي والكلام الملتبس تمامًا. وصف القتلة الكثيرين بأنهم «الناس». استمر في كل بيانات الرئيس التالية حتى اليوم. وجزئيًا مشكلته فنية: فالرئيس جورج دبليو بوش ليس خطيبا طبيعيًا. وعلى أية حال، عادة ما يمكن للتكنولوجيا الحديثة أن تساعد حتى أكثر الناس عجزًا عن توضيح كلامهم على تحسين أدائهم. وليست الصعوبة في مجرد التقديم، لأن رسائل الرئيس المختلطة لم تكن نابعة من حديثه غير المتماسك وإنما من السجلات المتضاربة.

ففي حوالي السنوات المائة والخمسين منذ انتخاب لنكولن رئيسًا، كانت رسائل الاتصال ونماذجها قد تحولت، لكن جوهر كسب الجمهور يبقى هو نفسه. فقد أتقن لنكولن والاثنان روزفلت جميعا فن الحديث بشكل منفرد وحميمي لكل شخص من المستمعين، واليوم، عندما نقرأ خطاب جتيسبورج، أو نستمع إلى تسجيلات تيودور روزفلت، وفرانكلين روزفلت، يستحيل ألا ننجذب إليها. لقد كانت تلك مهارتهم البلاغية، التي كانوا يحسون بها ويمارسونها كما لو كانوا يجهزون لمعركة. كانت الكلمات أسلحتهم، ومثل كثير من الفنون العسكرية جاء نجاحهم من التحكم المطلق. وعلى النقيض فإن الرئيس جورج بوش (وأبوه من قبله) يجسدان العكس. فلم يكن

أى منهما يبدو قط متحكما تمام التحكم فيما يقوله. ويبدو أحيانا أن لسانيهما يعيشان حياتهما على نحو خاص بهما[١٩].

فى ظل الظروف العادية، ربما لا يكون هذا عيبًا. فكثير من الناس يجدون أنه من الصعب الحديث علانية، كما أن سماع زعيم سياسى يتعثر أو يتلعثم أحيانا يجعلهم يبدون أكثر أمانة. وغير معصومين على نحو محبب. ولكن فى ظروف الأزمة يتلاشى هذا التسامح. وفجأة يصير الضعف المحبب ضعفًا مستهجنا. وبالنسبة للرئيس بوش الثانى، كانت حكاية «الحملة الصليبية» التى تحدثت عنها فى الفصل الأخير أول مثال مهم عن التخبط فى الكلام. ذلك التعليق الارتجالى ترددت أصداؤه حول العالم. على الرغم من أن تأثيره فى الوطن كان أقل وضوحًا. وثمة تعبير مرتجل ثان لم يلاحظ خارج الولايات المتحدة إلاّ قليلاً. ولكنه فى الداخل غيَّر البيئة السياسية، فقد نتجت عنه عاصفة من النقد وربما عواقب مدمرة.

فى صباح يوم. يوليو ٢٠٠٣، أخبر الرئيس مجموعة من الصحفيين الذين تجمعوا فى البيت الأبيض أنه سوف يأخذ سؤالين. وكان السؤال الأول سهلا: ما الذى تفعله الإدارة للحصول على المزيد من القوى الكبرى مثل فرنسا وألمانيا وروسيا. لكى تنضم إلى الاحتلال هنا. العراق؟» كان ذلك يتطلب إجابة ناعمة ولينة. إجابة تتماشى مع خطوط افتراض أن العالم بأسره يجب أن يساعد التحالف فى إعادة العراق واقفًا على قدميه مرة أخرى. ولكن لسبب ما، اتخذ الرئيس مسارًا مختلفًا :

«حسنا أولا وقبل كل شىء سوف نضع سويا بناء قوة تواجه التهديدات على الأرض. كما أن لدينا الكثير من القوات. وكما قلت بالأمس. فإن أى واحد يريد أن يؤذى القوات الأمريكية سوف نعثر عليه ونقدمه للعدالة. هناك البعض يشعرون أنهم إن هاجمونا فسوف نرحل بصفة دائمة. إنهم لا يفهمون ما الذى يتحدثون عنه. إذا ما كانت هذه هى الحال»[٢٠].

وافترض الصحفيون الذين قنعوا بهذه الإجابة أنه قد انتهى من حديثه وارتفعت الأيدى لطرح المزيد من الأسئلة. ولكن الرئيس كان لديه المزيد مما يريد قوله، فقد انحنى إلى الأمام ناحيتهم وقال:

«دعونى أنهى كلامى هناك البعض يشعرون كما لو أن الظروف مواتية لكى يهاجمونا هناك. وإجابتى هى، أحضروهم. فلدينا القوة اللازمة للتعامل مع الموقف الأمنى... لدينا الكثير من القوات شديدة البأس الآن لكى نضمن أن الموقف آمن»[٣١].

كان هذا چورج بوش. وهو يتقمص حالة تيودور روزفلت. يلوح بالعصا الكبيرة ويطبق القانون على أعداء الأمة. بيد أنها كانت غلطة كبرى، لأنه تجاهل عامدًا النصف الأول من قول روزفلت المأثور «تكلم بنعومة».

كانت ملاحظته السابقة عن «الحملة الصليبية» قد سببت هياجًا فى أوربا والشرق الأوسط، ولكنها سرعان ما نسيت فى أمريكا. وعلى العكس من ذلك. فإن عبارة «أحضروهم هنا» قد أطلقت سيلاً جارفًا من التعليقات السلبية فى جميع أنحاء الولايات المتحدة. ورأى الرسامون فى هذا فرصة لهم. ونشر دينيس دروتون Dennis Draughton كاريكاتير بين الرئيس على المنصة يقول. «أحضروهم هنا» إلى جمهور من الأكفان التى كان كل منها ملفوفًا بعلم الولايات المتحدة وتحته عبارة «ضحايا الولايات المتحدة فى العراق». وهناك رسم كاريكاتورى آخر يصور الناقلات الجوية وقد امتلأت بالأكفان بعد كلماته التى أساء اختيارها .

وأكثر رسم كاريكاتورى ترك رنة تاريخية هو الذى رسمه چون تريڤير John Trever فى جريدة Albuquerque Journal. فقد رسم چورج بوش على المنصة، معلنًا «أحضروهم هنا». وإلى جانبه العلم الأمريكى. ولكن خلفه على الحائط صورة بورتريه ضخمة لتيودور روزفلت وعليها لافتة «تحدث بنعومة واحمل عصا كبيرة» وهو يغطى عينيه بيده، ويكشر تيودور هرتزل، بنظرة من عدم التصديق والألم بسبب هذه الهفوة غير المقبولة ولا طائل وراءها .

ولكن لماذا يحتاج الرئيس الأمريكى، أقوى رجل فى العالم، إلى أن يتحدث بنعومة؟ وقبل ما يقرب من قرن من الزمان، كان تيودور قد شرح لحشد كبير فى مينيسوتا ما الذى يعنيه هذا القول المأثور الغامض.

«كثيرون منكم جدًا ربما يكونون على معرفة بالمثل القديم «تكلم بنعومة واحمل عصا كبيرة– وسوف تنجح كثيرًا». فإذا كان هناك رجل يصخب باستمرار، وإذا كان غير متحضر، فإن العصا الكبيرة لن تنقذه من المتاعب، ولكن لن يجدى الكلام بنعومة، إذا لم يكن ظهر النعومة مستندًا إلى القوة، والسلطة».

والقوى العظمى تحتاج إلى قوات عسكرية قوية، العصا الكبيرة، ولكن امتلاك هذه القوة يسمح لها بأمان أن تستخدم الكلمات الناعمة (الدبلوماسية والمناسبة). وفى أثناء رئاسته كان روزفلت قد حل المنازعات بالدبلوماسية الهادئة، والتهديد السرى والعلنى باستخدام القوة، ولكن لم يحدث أبدا بشن الحرب فى الخارج، وكان بوش على النقيض من روزفلت فى أولوياته، إذ يستخدم القوة عندما تكون الكلمات والتهديد كافية.

والفجوة بين الرجلين ليست مجرد مسألة زمن وأجيال مختلفة تمامًا، فقد كان تيودور روزفلت يستمتع بالكلمات، ويوفق بالضبط بين كلماته وتطلعاته وسياساته، وكان يعرف أن الزمان، والمكان، والمناسبة والجمهور كلها أمور تحدد الكيفية التى يجب أن يعبِّر بها عن رسالته، أما الرئيس بوش، الذى يحيط به المستشارون على الطريقة الحديثة، وكاتبو خطبه ومن يحركون السياسة، فهو لا يتحكم فيما يقوله .

* * *

الكلمات مهمة، ولها أجنحة، فقد كتب ميخائيل باختين، قبل موته سنة ١٩٧٥م بوقت قصير، فى الفقرة الأخيرة من آخر مقالاته أن هناك، «كتل ضخمة بلا حدود من المعانى السياقية المنسية» سوف «يتم تذكرها فى لحظة مستقبلية ما وسيتم تنشيطها

فى شكل مجدد- فى سياق جديد». كانت آخر كلمة له فى عمل حياته. «ليس هناك شيء ميت بصفة مطلقة: فكل معنى سوف يعود إلى مكانه»[٢٢] وفى كتابة هذا الكتاب، أذهلتنى الدقة التى اتسمت بها تنبؤاته: بأن الكلمات والأفكار يمكن أن تكون مخيفة وخطيرة مثل الأشباح العائدة بعد الموت غير المرغوبة. وبمصادفة غريبة. فى الأسبوع نفسه من سنة ٢٠٠٣م. كانت الكلمات التى نطق بها كل من رئيس وزراء ماليزيا الدكتور مهاتير بن محمد. والقائد الأعلى لقوات الولايات المتحدة وليم بويكين. ونائب المخابرات العسكرية، قد زادت من الخصومة بين العالم المسلم والعالم المسيحى الغربى. فما قالاه وليس ما فعلاه ترددت أصداؤه حول العالم، وهى العاقبة الحتمية للكلمات التى اختارا أن يستخدماها .

فما الذى قالاه. ففى خطاب مسهب وطويل إلى منظمة العالم الإسلامى. أدان مهاتير سلبية المسلمين:

«يريد لنا البعض أن نصدق أن ... حياتنا أفضل من حياة الذين يذموننا. ويعتقد البعض أن الفقر إسلامى، وأن المعاناة والخضوع للقهر إسلامى. أن هذه الدنيا ليست لنا. وما لنا هو ملذات السماوات وطيبات الحياة الآخرة. وكل ما علينا أن نقوم ببعض الطقوس. ونرتدى ملابس بعينها ونتخذ مظهرًا معينًا. أن ضعفنا، وتخلفنا وعجزنا عن مساعدة إخواننا وأخواتنا الذين يعانون القهر جزء من مشيئة الله، والمعاناة التى يجب علينا تحملها قبل أن ننعم بطيبات السماء فى الحياة الآخرة. وعلينا أن نتقبل هذا المصير المقدر علينا. ولا حاجة بنا لأن نفعل شيئًا. فنحن لا نستطيع أن نفعل شيئا أمام إرادة الله...».

ثم حدد الأعداء :

«هناك شعور باليأس وانعدام الرجاء بين البلاد الإسلامية وشعوبها. إنهم يشعرون أنه ليس بوسعهم عمل شيء صحيح. وهم يعتقدون أن الأمور يمكن فقط أن تسوء. فسوف يكون المسلمون مقهورين إلى الأبد ويحكمهم الأوربيون واليهود. وأنهم سيكونون فقراء أبد الدهر، ومتخلفين وضعفاء. ويعتقد البعض. كما قلت أن

هذه مشيئة الله، وأن الحالة المناسبة للمسلمين أن يكونوا فقراء ومستضعفين فى هذه الدنيا».

«ولكن هل صحيح أننا يجب أن نعمل ولا نستطيع أن نفعل شيئًا لأنفسنا. هل حقًا أن مليارًا وثلاثمائة مليون نسمة من المسلمين لا يمكنهم أن يحققوا أية قوة لإنقاذ أنفسهم من المهانة والقهر الذى يمارسه عليهم عدو أقل منهم كثيرا. فهل يمكنهم فقط أن يردوا الضربة فى حال من الهياج الأعمى؟ أليست هناك طريقة أخرى بدلاً من أن نسأل شبابنا أن يفجروا أنفسهم ويقتلوا الناس ويتسببوا فى المذابح للمزيد من شعبنا...؟

«لا يمكن ألا تكون هناك طريقة أخرى. لا يمكن هزيمة مليار وثلاثمائة مليون مسلم على أيدى ملايين قليلة من اليهود. لابد أن هناك طريقة. ويمكن أن نجد طريقة إذا ما توقفنا عن التفكير. لكى نقيم ضعفنا وقوتنا، لكى نخطط. ونضع الاستراتيجية. ثم نشن الهجوم المضاد».

بالنسبة لمهاتير. كان أعداء المسلمين جميعًا هم الغرب. «مؤامرة يهودية». أما وليم بوكين. وهو مقاتل نال الكثير من الأوسمة ورقى حديثا إلى منصب قيادى فى البنتاجون فكان مكشوف الوجه باعتباره من المتحمسين للصليبية الجديدة. وقد تم الكشف عن المزيد والمزيد من التفاصيل. ففى يونيو سنة ٢٠٠٣م كان قد كرر الكلمات التى كان قد تحدث بها إلى أسير مسلم من أمراء الحرب فى الصومال فى تسعينيات القرن العشرين: «أنا أعرف أن ربى أكبر من ربك. وأعلم أن ربى حقيقى وربك صنم». هذا الأداء اللافت فى كنيسة فى بورينج بأوريجان. صنع فيديو يشد الانتباه. وهناك شاهد عيان كتب فى وقت لاحق:

«فى ٢١ يونيو ٢٠٠٣م، كنا مدعوين من قبل صديق وجار لحضور احتفال «لتكريم أولئك الذين خدموا فى القوات المسلحة لبلادنا». فى كنيسة جمعية الراعى الصالح ... وقد وقف القسيس وقدم الماچور چنرال وليم بوكين (وله لكنة جنوبية بسيطة. ويتمتع بقدر من المرح. وهو ما يجعله خطيبًا مؤثرًا) .

وقد أطلعنا بويكين على شرائح فيلمية قليلة عن الحرب الحديثة فى أفغانستان وألقى نكتة حول إرسال أحد السجناء فى أجازة «بالبحر الكاريبى»، فى إشارة إلى السجن التابع للولايات المتحدة فى خليج جوانتانامو، بكوبا. وهو ما كان صفيقًا وربما كان عدوانيًا بالنسبة للبعض، ولكنه كان ما يزال أمرًا عاديًا .

ثم أظهر الچنرال بوكين صورة لأسامة بن لادن، وعلق قائلاً: «ليس عدونا» وشريحة أخرى مصورة لصدام حسين وقال مرة أخرى: !ليس هذا عدونا». ووصف كيم يونج إل أيضا بأنه «ليس عدونا». وفسَّر الجنرال بويكين هذا بأن «عدونا الحقيقى هو الشيطان»[٢٥].

كانت تلك حادثة من حوادث كثيرة مشابهة. وقد اعتذر الچنرال بويكين فيما بعد وزعم أن آراءه انتزعت من سياقها. لقد بدت مناسبة لتجمع من المؤمنين الإنجيليين المتشابهين عقليا مثل كلمات واحد من المتعصبين لعقيدتهم يوجهها إلى العالم الأوسع[٢٦]. ولكن بويكين لم يكن لديه أى أوهام فى أن مقابلاته سوف تبقى سرًا. لقد صار خطيبًا نجمًا فى الدوائر الإنجيلية. وغالبًا ما كان فى زيه الكامل، متحدثا فى كنيسة بعد أخرى، وفى كل مرة كان يضيف قليلاً إلى خطبته. وعندما وقف فى منصة الكنيسة المعمدانية الأولى فى بروكن آرو، بأوكلاهوما، عرض شريحة مصورة لعلامة سوداء غريبة على العاصمة الصومالية مقديشيو فى سنة ١٩٩٣م. وقال للجمهور «هذا هو عدوكم. إنها إمارات الظلام. إنه وجود شيطانى فى تلك المدينة التى كشفها الرب لى عدوة» وعندما قرأت هذا تذكرت Opicinus de Canistris المريض فى سنة ١٣٣٥م، الذى ظهر فى الفصل الثامن. فهو مثل الجنرال بويكين شاهد شكل الشيطان المعتم فوق الأرض، ولكنه، بطبيعة الحال، كان قسًا مشوش الذهن، ولم يكن قائدًا أعلى فى جيش الولايات المتحدة.

لقد رد مهاتير وبويكين بطريقتين مختلفتين على النقد الواسع لكلماتها. وقد زعم بعض الزعماء السياسيين فى العالم الإسلامى أنه تمت إساءة فهم رئيس الوزراء. حقًا إنه كان حتمًا أن تؤخذ الكلمات القليلة عن الغرب واليهود خارج سياقها فى

خطبة أطول كثيرًا، مما أفسح المجال لكثير من التفسيرات لرسالته برمتها. ولكن
الكثير من بنى وطنه يعتبرونه فردا مذمومًا. وطوال اثنتين وعشرين سنة من حكمه
الشمولى وتعصبه. تعرضت شخصيته الدكتاتورية المقودة لإدانة واسعة(*) كانت
هذه خطبة سياسى علمانى، تمت صياغتها بحرفية لتناسب جمهور المستمعين. لقد
كانت آخر خطبة له رئيسًا للوزراء. بيد أنها أيضا حدت من مزاعمه باعتباره من
الحكماء البارزين فى العالم الإسلامى. لقد كان مهاتير يعرف قوة الكلمة واستغلها
بلا رحمة[٢٧].

ولم يكن بويكين، على عكس ذلك، ليلقى بنفسه إلى التهلكة علنًا. فقد أمسكت
به أضواء الصحافة التى لا تبالى فى موقف مساومة واضح للغاية. فقد كان يبشر
وهو بالزى العسكرى عن الشيطان وعمل الشيطان. فقد مارس حقه فى الكلام بحرية
إلى جمهور له عقليته نفسها. ولكنه لو استخدم حقه فى الكلام بحرية فى تعزيز
العنصرية، لكان من يهبون لمساعدته نفر قليل من مؤيديه. وإلى هذه الدرجة هناك
حدود للكلام بحرية علنا لموظف عام فى حكومة الولايات المتحدة. وقد تخطى بويكين
فى حماقة هذه الحدود. وفى استجابته العلنية اعتذر لأولئك الذين «ربما أساءت لهم
أقواله» ولكن لم يكن ممكنا لكلماته أن تصبح بصورة سحرية كلمات لم تخرج من
فمه وأن يمسح أثرها من الذاكرة البشرية. وقد رأى آلن بريل **Allen Brill**، مؤسس
جماعة **Right Christians**، ما كان بويكين قد فعله بالضبط. وقد أخذ بريل نظرته من
شىء كان يفعله أسبوعيًا، أى تقديم موعظة. فقد عرف إغواء إحراز ضربة رخيصة
على شخص لا يحبه جمهوره. مثلاً لو أن هناك فصلا ممن يدرسون الكتاب المقدس
مكونًا من عدد مختلط من الأزواج والزوجات المستقيمين فإنهم سوف يكونون على
استعداد غير عادى للاستماع إلى خطاب قوى عن «الرذيلة» فى الشذوذ الجنسى. فقد
قال بريل:

(*) هذا رأى المؤلف الذى لايشاركه فيه كثيرون فى بلاده، وفى العالم بصفة عامة، خاصة وأن مهاتير قد نجح فى تنمية بلاده ووضع أسس الحكم الديمقراطى فيها. وعلى أية حال فالمؤلف مسئول عن رأيه (المترجم)

«يبدو أن الجنرال بويكين قد سقط في حبائل مثل هذا الإغراء. فهو يقول الآن إنه لم يقصد أبدا أن ربه المسيحي أكبر من رب أمير الحرب الصومالي المسلم ... بيد أن ذلك ليس ما قاله وقتها. ولكنه لم يصل إلى رتبة الجنرال بالفشل في ضبط نغمته على ما كان يريد قادته وغيرهم سماعه. هذه هي الطريقة التي تمضي بها الحياة. وكان يعرف جمهوره وهو يتحدث إلى صلوات الصوم وإلى مجموعات الكنيسة أيضا. لقد كان مدركًا لمشاعرهم تجاه المسلمين وتوجهاتهم السياسية. وقال لهم ما كانوا يريدون سماعه».

باختصار. كانت لقطة رخيصة. تمامًا مثل «سكر» مهاتر في معاداة السامية بالأسلوب القديم لكي يحلي مرارة رسالته إلى المؤتمر الإسلامي. فما الذي كان ينبغي عليهما أن يفعلاه. ليست هناك شكوك تساور بريل في هذا :

«كانت لدى الجنرال بويكين فرصة مدهشة لمساندة جهود أمتنا في الحرب ضد الإرهاب إذا كان قد ركز على مدى أهمية إظهار الاحترام للإسلام ومعتنقيه بالنسبة للمسيحيين. وكان رئيس الوزراء مهاتير سيبلي بلاءً حسنًا لو أنه تجاوز دعوته إلى مقاومة إسلامية إلى إدانة التأثيرات الشريرة لنزعة معاداة السامية ضد اليهود والمسلمين. وقد أخفق كل منهما في أن يكون زعيمًا نزيهًا بسبب سقوطه في فخاخ الإغراء بأن يقول لهم [جمهوره] ما يريدون سماعه»[٢٨].

وهو ما يعود بنا ثانية إلى لنكولن. و. الملائكة الأفضل في طبيعتنا»

* * *

إن بساطة أسلوب لنكولن الزائدة فرضت عليه عبئًا ثقيلاً في اختيار كلماته. وقد فكرت دائمًا في «الحبال السرية للذاكرة التي سوف تضخم صوت الاتحاد» وهي تربط كل عضو في جمهور غفير بالآخرين سويًا وهم ينهضون ليهدروا بكلمات كانوا يعرفونها جميعًا ويحفظونها عن ظهر قلب. ذلك التأكيد الهادر بالوطنية الذي

تخيلته كان هو بالضرورة جوقة المغنين التى أنشدت Hail Columbia (السلام عليك يا كولومبيا) نشيد أمريكا الوطنى الفعلى فى سنة ١٨٦١م:

اثبتوا ولكن متحدين،

نحتشد حول حريتنا

مثل عصبة من الإخوة متكاتفين

وسوف نجد السلام والسلامة

ولكن «حبال الذاكرة» يمكن أن تفهم أيضا على نحو أقل حرفية. وربما كان لنكولن يقول إن الذكريات العامة المشتركة فى أن تكون أمريكيًا هى فقط التى يمكن فى نهاية الأمر أن تربط الوطن سويًا مرة أخرى. لقد تحدث بتأكيد لا تشوبه شائبة. حتى وإن كانت الحرب الأهلية تفرق بينهم مؤقتا. فإن هذه الذكريات سوف تستعاد. وعلى النقيض فإن شطرًا كبيرا من هذا الكتاب يصف الروابط التى تجمع وتوحد بلا شك. ولكن ليس من أجل قضية خيِّرة. فقد كتب الشاعر الفرنسى بول ڤاليرى Paul Valéry. منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن مضت. أن «التاريخ ... يسكر الأمم بالنشوة. ويضع عليها سرجًا من الذكريات الزائفة» إن كلماته هى العبارة الاستشهادية فى بداية هذا الكتاب. فالذاكرة التاريخية، بالنسبة لكثير من الأقليات المقهورة، تحظى بالتكريم على اعتبار أنها فعل مقاومة وتحد. ولكن فى الوقت نفسه نحن نعرف الآن أيضا أن الذاكرة. سواء مكتوبة أو شفاهية، إنما هى فى أحسن الأحوال عبارة عن إعادة تجميع جزئية. فالذكريات الزائفة. مثلما حكى هذا الكتاب، هى غالبا الوسيلة التى بها تبقى الكراهية أو تتجدد قوتها[٢٩]. والكثير مما يصف الماضى حاليًا، لا سيما الأشكال الشعبية منه- على التليفزيون أو فى الأفلام- إنما هو شكل من أشكال الذاكرة - شفوى أكثر منه مكتوبًا- تسلسل من الانطباعات. وقليل من الروابط المتعلقة بالذاكرة التى وصفتها تمتد على مدى عدة قرون تتوافق

مع نموذج التاريخ الوثائقى العادى. هذه الفجوة بين التاريخ والذاكرة تتسع بسرعة، وهو ما يؤدى إلى تعريضنا للخطر(٣٠).

قبل كتابة هذا الصفحات النهائية بالضبط وصلني كتاب يحمل عنوانًا لا يمكن مقاومته **An End to Evil: How to Win the War on Terror** ومؤلفا الكتاب هما ديفيد فروم **David Frum** وريتشارد بيرل **Richard Perle**– هما شخصان فى الظل في إدارة بوش. والآن أنتجا «دليلا للنصر». وعند النظرة الأولى تبدو مجرد كراسة من الكراسات العديدة التى جمعت على عجل «بهذه المناسبة»(٣١). ولكن هذا الكتاب مثير للاهتمام أكثر من معظم أمثال هذه المطبوعات، لأنه كتب بنوع من الكلام الجديد الذى يمكن نسبته لأورويل **Orwellian** ففى روايته سنة ١٩٨٤م. حلل جورج أورويل **George Orwell** لغة مجتمعه الجديد. وهنا كانت الكلمات مقسمة فى ثلاث فئات: **A.B.C**. كانت كلمات المجموعة. هى تلك الكلمات «التى نحتاجها لأعمال الحياة اليومية– لأنشطة من قبيل الأكل. والشرب. والعمل وارتداء الملابس، صعود السلالم والهبوط عليها، قيادة المركبات. القيام بالعمل البستانى، الطهى. وما شابه ذلك» وكلمات المجموعة. مصطلحات علمية وتقنية. ولكن فروم وبيرل كتبا معظم كلامهما فى مجموعة كلمات. :

«إن مفردات المجموعة. تتكون من كلمات كانت قد بنيت عمدًا بقصد استخدامها فى الأغراض السياسية. الكلمات التى لا تتضمن فقط مغزى سياسيا فى كل حالة، وإنما كان القصد منها فرض موقف عقلى مرغوب على الشخص الذى يستخدمها... لقد كانت كلمات الفئة . نوعًا من الاختزال الشفاهى، غالبًا ما تحزم مجالاً كاملاً من الأفكار فى مترادفات قليلة، وفى الوقت نفسه أدق وأقوى من اللغة العادية»(٣٢).

وبالنسبة لفروم وبيرل. تقوم فرنسا بدور الشريرة إيستاسيا **Eastasia** الخسيسة فى رواية أورويل. على حين أن الأعداء السياسيين. وغيرهم ممن تورطوا فى «الجريمة الفكرية» ينكشفون فى كل صفحة. وهناك عبارة رنانة تفوح بالتفاخر يختتم بها الفصل الأول:

«بالنسبة لنا يبقى الإرهاب أعظم شرور زماننا، والحروب ضد هذا الشر، أعظم قضية لجيلنا. ونحن لا نعتقد أن الأمريكيين يحاربون هذا الشر لتقليله إلى الحد الأدنى أو للسيطرة عليه. نحن نعتقد أنهم يحاربون لكى ينتصروا- لكى ينهوا هذا الشر قبل أن يقتل مرة أخرى، وعلى مقياس الإبادة الجماعية. وليست هناك طريقه وسطى أمام الأمريكيين: إما النصر أو القتل والإبادة الجماعية»[٣٣].

إن استخدام كلمة «الهولوكوست». إنما هو من فئة. فى الكلام الجديد. ولا يمكن أن يكون أى من المؤلفين غير واع بما تعنيه كلمة «هولوكوست» بالنسبة للجمهور الحديث [٣٤].وفى هذا السياق يسقطان الرعب المؤقت الذى يسببه الإرهاب مع الرعب الدائم للاستئصال النازى. فهل البديلان «حقا» النصر أو الاستئصال الحذر المخطط، المنظم، الكفء الذى لايعرف الشفقة لثقافة كاملة؟ إذا كان ذلك حقًا ما عنياه فليس هناك دليل راسخ يشير إلى هذا فى الكتاب. ومع هذا فإذا كانت لغة الكتاب خيطًا من النيولوجية neologism (أى استحداث كلمات جديدة بسبب التطور الحضارى) فإن بناءه، ومقصده ومنهجه قديم جدًا فى واقع الأمر.

فى سنة ١٤٨٦م قام اثنان من الرهبان الدومينيكان. هما كرامر Kramer وسبرنجر Sprenger بكتابة كراسة ضد الشر الأخلاقى الكبير فى أيامهما، ضد ما رأيا فيه أخطر تهديد على المجتمع الإنسانى. وعلى حين يستهجن فروم وبيرل التهديد الحديث الذى يشكله «الإرهاب» أو «الإرهابيون». كان الراهبان من كولونى مهووسين بالتهديد الأقدم الذى يمثله «السحر» و«السحرة» وكراستهم الإرشادية التى أسمياها «مطرقة السحرة Hommer of Witches (Malleus Malleficarium. برهنت على أنها من أكثر الكتب مبيعا. وقد نشرت للمرة الأولى سنة ١٤٨٦م. لتظهر فى ثلاث عشرة طبعة فيما بين ١٤٨٧م وسنة ١٥٢٠م. وست عشرة طبعة فيما بين ١٥٧٤م وسنة ١٦٦٩م. وتبقى واحدة من أكثر النصوص بثًا للكراهية على الإطلاق، لأنها تقدم مساندة من القانون الكنسى والكتاب المقدس للفكرة عن السحر وتضع

الإجراءات للقضاء على السحرة أنفسهم. وبعد حركة الإصلاح الكنسي، استمر كتاب كرامر وسبرنجر يلقى حظوة لدى كل من البروتستانت والكاثوليك على قدم المساواة.

كتاب إرشادى ظهر فى القرن الخامس عشر ضد السحر وكتاب إرشادى ظهر فى القرن الحادى والعشرين ضد الإرهاب يختلفان إلى حد ما، بيد أن منهجهما واحد بطريقة مذهلة. فأولا. كلاهما جهز شروط الشر وأسبابه. وثانيا. فإنهما يفصلان كيف ينتشر الشر وكيف يمكن هزيمته؛ وثالثًا. يقدمان الضروريات اللازمة لشن الحرب على الشر. وهناك تشابهات أخرى. فإنهما ينبذان كل ما من شأنه أن يثير الشك أو يحبط عملهم العظيم «إن مهمتنا أن نساند العدالة بالقوة. إنها مهمة جعلت منا أعداء مرعبين» (فروم وبيرل)[٣٥] «إن فيهم [الأعداء] كمًا هائلاً من الجريمة. يتجاوز كل شيء آخر...» (كرامر وسبرنجر)[٣٦] وعلى أية حال، فإن التشابه النهائى. تدمير عدو شرير. وغرض الكاتبين الحديثين لا يختلف كثيرا عن نظيريهما السابقين؛ فهما مثل كرامر وسبرنجر. يرغبان فى بتر أولئك الذين يخشونهم من الجماعة الإنسانية. جذرًا وفرعًا. هذا الهجوم الحالى على «الشر» قد يكون مجرد تنويعة جديدة من جنون السحر[٣٧].

لقد جرى قتل السحرة فى مساره الدموى ولم يلبث أن توقف. فهل يمكننا أن نوقف فزعًا اجتماعيا حديثا مشابهًا فى مساراته. يقدم التاريخ اقتراحًا موازيًا. حتى فى عز قوتها. فى القرن السابع عشر. كان فكرة استيلاء الشر على جسد الساحر موضع تساؤل. وتم تفنيدها وتقويضها؛ وبالتدريج تلاشت حدة جنون السحر. وكما أوجزها شادويك هانسن Chadwick Hansen. «توقفت الحضارة الغربية عن إعدام السحرة عندما توقف الجزء المتعلم والمتوازن من أبنائها عن تصديق أنهم قادرون على الإيذاء»[٣٨]. وقد تولد التغير البطيء من خلال الجدل والمناظرة. بواسطة حرب الكلمات. حتى صار الاعتقاد فى السحرة مرادفًا لماض بربرى فى نهاية الأمر[٣٩]. ولكن هانسن استمر آنذاك. يقول متشائمًا. «ولكن أشخاصًا جددًا قد هبوا لكى

تحتل المكان الذى خلا من السحرة فى المخاوف الشعبية»[٤٠]. وأعتقد أن هذا ما نحن فيه الآن.

إن المذمة تكمن على صورة عدوى فى الكتب، والمجلات والصحف. وفى موجات الأثير أو على الإنترنت. ولا يمكن كبح جماحها بصورة فعالة، أو مراقبتها أو السيطرة عليها. بيد أن خبثها وخطورتها يمكن أن تتلاشى. حسبما يشير تشارلز مايير Charles Maier :

«إن للمذنبين تاريخًا شأنهم شأن الضحايا. ولكن بأى معنى يشاركون فى سردية ما. فى الحقيقة أن سردياتهم تتداخل فيما بينهما، مثلما يجب أن يحدث فى كل التواريخ المتخاصمة... هؤلاء الخصوم لن يكتبوا أبدًا السرد نفسه. ولكن المؤرخين يجب ... أن يقدموا لكليهما العدالة داخل قصة واحدة. ولا يعنى هذا الإصرار بشكل مبتذل على أن كلاً منهما له حق، أو «تقسيم الاختلاف» (وهى استراتيجية سياسية). إنه يعنى الاستماع إلى سردياتهم المتوالية والتفصيلية عن القصص الجزئية ثم اختبارها وإعلانها فى النهاية. وإذا ما لجأنا إلى مشابهة موسيقية. فإن التاريخ المكتوب يجب أن يكون قائمًا على الطباق الموسيقى وليس مبنيا على الانسجام الهارمونى. ويعنى هذا أنه يجب أن يسمح للتواريخ الخاصة للجماعات الوطنية بأن تدخل فى النسيج مع التواريخ الأخرى بجوار أحدهما الآخر بحيث يمكن للسامع الواعى أن يتابعها بشكل متمايز ولكن فى الوقت نفسه. أى يسمع الكل مع الأجزاء»[٤١].

هذا ما يحدث عادة على مر الزمان: إذ إن اليقينيات الأحادية تتجه إلى التلاشى، والاختفاء فى العتمة. والخفوت على مدى الأجيال. ما لم توضع ذكريات مريرة. أو يتم إحياؤها عمدًا مثلما أشار هذا الكتاب.

وفى النهاية فإن الأمل الحقيقى فى مستقبل أفضل هو، على حد تعبير مايير، هذه العملية التى تتمثل فى «الاستماع إلى الكل مع الأجزاء، سويًا». هذه القوة التى للكلمة ربما تبدو عند النظرة الأولى أقل من أن يعتمد عليها مقارنة بالاعتماد على القوة العسكرية المهيمنة. التى يؤكد لنا فروم وبيرل أنها أفضل آمالنا. وبطبيعة الحال، ربما

يكون صحيحًا على الدوام فى ميدان المعركة. ولكن حسبما تعلمت كل الإمبراطوريات، أنه على مدى السنين، وفى نهاية المطاف. على مر عشرات السنين. أن ممارسة هذا النوع من المجهود العسكرى على المدى الطويل. يحمل ثمنا لا يمكن تحمله بالمصطلحات الإنسانية والاقتصادية على السواء. إذ إن تمويل حرب طويلة يتطلب غالبًا إعادة إنتاج المذمة- وإرجاعها إلى لغة الحملة الصليبية والشر- والمواقف التى تنتمى لها- ولكن إحياء الماضى له ثمنه. فإن أيديولوجية قائمة على هذه الاستجابات الرجعية سوف تفشل، والأسوأ من هذا، ربما حتى تفكك فى بطء تطور الغرب على مدى القرنين الأخيرين على المستوى الاجتماعى، والثقافى الروحى.

هوامش على النص

ملاحظة : المصادر الإسبانية غير المنشورة يشار إليها على أنها وثائق ، لها رقم وموضوعة فى قائمة كاملة عند بداية قائمة المصادر والببليوجرافيا المختارة . أما بالنسبة للأعمال المنشورة التى وضعت هنا بشكل مختصر فقط، فتظهر التفاصيل الببليوجرافية الكاملة فى الببليوجرافيا المختارة . أما المصادر المنشورة الأخرى التى تظهر هنا ولا تظهر فى الببليوجرافيا .

المقدمة

١- وبطبيعة الحال ليست لدينا كلمات البابا أوربان التى قالها بالضبط ، ولكن لدينا فقط ذكرى هذه الكلمات من خلال عدد من الكتاب المختلفين.

Preface

1. And, of course, we do not have Urban's precise words, but only the memory of them through a number of different writers.
2. This is Ludwig Wittgenstein's statement in the Preface to *Tractatus Logico-Philosophicus* (London: Routledge and Kegan Paul, 1922) that 'What can be said at all can be said clearly; and whereof one cannot speak thereof one must be silent.' But this translation does not really capture the resonance of the original ('*Was sich überhaupt sagen lässt, lässt sich klar sagen; und wovon man nicht reden kann, darüber muss man schweigen*').
3. See Lance St John Butler, *Registering the Difference: Reading Literature through Register*, Manchester: Manchester University Press, 1999.
4. *Iliad*, bk 1, l. 201.
5. Douglas Adams, *The Hitchhiker's Guide to the Galaxy*, London: Pan Books, 1979, pp. 144–5.

مصادر ومراجع مختارة

With a topic ranging over many different geographical areas, and over such a long time span, the range of material is virtually endless. My notes and database record over 2,000 books that I have used in writing *Infidels*. I have selected those that I found most useful, or provoking. Others are fully referenced in the notes to each chapter but do not feature here.

Unpublished Manuscript Sources, Granada

DOCUMENTS

1. Archivo de la Real Cancilleria de Granada
   Auto del Real Concejo para que el Presidente y oidores de la Cancilleria de Granada no den a nadie para que llevar armas; S. 5, Legajo 12, Pieza 42, 23 de Marzo (1518).
2. Archivo de la Real Cancilleria de Granada
   El Alguacil del campo de la Ciudad de Malaga con Juan Gaitán, morisco, vecinos de la villa de Comares, sobre llevar armas contra las leyes; S. 3, Legajo 1198, Pieza 8 (1549).
3. Archivo del Alhambra
   Armas prohibidas, Legajo A-20, Pieza 14 (1558).
4. Archivo del Alhambra
   Causa contra Diego y Francisco Lopez, christianos nuevos, vecinos de Guadix, sobre llevar armas prohibidas; Legajo A-64, Pieza 90 (1560).
5. Archivo del Alhambra
   Armas prohibidas y heridas; Legajo A-34, Pieza 5 (1561).
6. Archivo del Alhambra
   Causa contra Antín de Cardenas, morisco, por llevar armas prohibidas; Legajo A-64, Pieza 38 (1561).
7. Archivo del Alhambra
   Copia de Cédula Real sobre los muertes que habían hecho los moriscos en la Cuesta de Cebada; Legajo A-119, Pieza 18 (1562).
8. Archivo del Alhambra
   Causa contra Gabriel de Baeza sobre llevar armas prohibidas; Legajo A-64, Pieza 52 (1563).

9. Archivo del Alhambra
Causa sobre armas contra Iñigo Antirafe, vecinos del Albaicin; Legajo A-118 (1564).
10. Archivo del Alhambra
Justificación contra monfies, moriscos de la tierra de habián asaltado las jabegas en la playa de Velez Malaga; Legajo A-65, Pieza 2 (1564).
11. Archivo del Alhambra
Privilegio de traer armas por ser christiano viejo y su padre haberse convertidos antes de la conversion general; Legajo A-118, Pieza 11 (1565).
12. Archivo del Alhambra
Auto sobe hacer cautivadao unos monfies varios cristianos; Legajo A-60, Pieza 4 (1566).
13. Archivo del Alhambra
Copia de Real Cédula por que Su Majestad le hizo merced a Hernando Manchel de poder de llevar armas; Legajo A-118, Pieza s.n. (1567).
14. Archivo del Alhambra
Privilegio de llevar armas y que se prive a los cristianos nuevos de llevarlas; Legajo A-118, Pieza 58 (1568).
15. Archivo del Alhambra
Sobre que no se permite a los cristianos nuevos de Casarabonela el llevarlas; Legajo A-118, Pieza 59 (1568).
16. Archivo del Alhambra
Visita que se hizo a las casas del Albaicin con nota de las que tenian armas; Legajo A-118, Pieza 64 (1569).
17. Archivo del Alhambra
Interrogatorio para el pleito de Andrés Jenin (Henil) sobre el privilegio de llevar armas, Legajo A-118, Pieza 65 (1569).
18. Archivo del Alhambra
Bando para que todos los moriscos que viven en Granada salgan de ella dentro de quatro días; Legajo A-4, Pieza 19 (1569).
19. Archivo del Alhambra
Causa contra Diego Hernandez sobre transfugia en Berberia; Legajo A-63, Pieza 6 (1569).
20. Archivo del Alhambra
Causa contra Miguel Zoli y consortes, vecinos de Nortaez que los fueron condenados a muerte y ejecutados en justicia en la Puerta de Elvira, sobre paso a Berberia; Legajo A-64, Pieza 44 (1562).
21. Archivo del Ayuntamiento de Granada
Real provisión mandada que en los bautismos y casamientos de los nuevamente convertidos sean padrinos cristianos viejos; Indiferentes, Legajo 2003 (1511).
22. Archivo del Ayuntamiento de Granada
Legajo 1861 (1513).
23. Archivo del Catedral de Granada
Apuntes sobre la manera de enseñar la doctrina a los moriscos; S.1, Legajo 36, Pieza 2.

24. Archivo del Catedral de Granada
    Libro 11.11 (1530).
25. Archivo del Catedral de Granada
    Libro 11.16 (1530).

Published Sources

'A British Resident of Twenty Years in the East' [J. H. Skene], *The Frontier Lands of the Christian and the Turk: Comprising the Travels in the Regions of the Lower Danube in 1850 and 1851*, London: Richard Bentley, 1853

'A Syrian', *Personal Collections of Turkish Misrule and Corruption in Syria* (with an introduction by the Rev. Wm Denton, MA), London: The Eastern Question Association, 1877

'Images of the Orient': Photography and Tourism 1860–1900, Rotterdam: Museum voor Volkerkunde, 1986

'The Turkish Atrocities of Bulgaria': Letter of the Special Commissioner of the 'Daily News' J. A. MacGahan Esq., with an Introduction and Mr. Schuyler's Preliminary Report, London: Bradbury, Agnew, 1876

'Veritatis Vindex': That Unconscionable Turk and What to Do with Him, London: Richard Bentley and Son, 1877

Abbott, George Frederick, *Under the Turk in Constantinople: A Record of Sir John Finch's Embassy 1674–1681*, London: Macmillan, 1920

Abou-El-Haj, Rifaat Ali, *Formation of the Modern State: The Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries*, Albany, NY: State University of New York Press, 1991

Abu-Lughod, Ibrahim, *The Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1963

Abu-Lughod, Lila, *Veiled Sentiments: Honour and Poetry in a Bedouin Society*, Berkeley, CA: University of California Press, 1986

Agnew, Hugh LeCaine, *Origins of the Czech National Renascence*, Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1993

Akarli, Engin, *The Long Peace: Ottoman Lebanon 1861–1920*, London: I. B. Tauris, 1993

Akbar, M. J., *The Shade of Swords: Jihad and the Conflict between Islam and Christianity*, London: Routledge, 2002

Al-Azmeh, Aziz, 'Barbarians in Arab Eyes', *Past and Present* 134 (February 1992), 3–18

Allan, Keith and Burridge, Kate, *Euphemism and Dysphemism: Language Used as Shield and Weapon*, Oxford: Oxford University Press, 1991

Allen, Beverley, *Rape Warfare: The Hidden Genocide in Bosnia Herzegovina*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1996

Alloua, Malek, *The Colonial Harem*, trans. Myrna Godzich and Wlad Godzich, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1986

Amades i Gelats, Joan, *Las Danzas de moros y cristianos*, Valencia: Instituto de Estudios Ibéricos y Etnologia Valenciana, 1966

Anderson, Benedict, *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Spread of Nationalism*, (rev. edn) London: Verso, 1991

Anderson, M. S., *The Eastern Question 1774–1923: A Study in International Relations*, London: Macmillan, 1966

Anderson, Patricia, *The Printed Image and the Transformation of Popular Culture 1790–1860*, Oxford: Clarendon Press, 1991

Anderson, Perry, *Lineages of the Absolutist State*, London: Verso, 1984

Anderson, Roger Charles, *Naval Wars in the Levant 1559–1853*, Liverpool: Liverpool University Press, 1952

——, *Oared Fighting Ships*, Kings Langley: Argus Books, 1976

Andrić, Ivo, *The Development of Spiritual Life in Bosnia Under the Influence of Turkish Rule*, trans. and ed. Želimir B. Juričić and John F. Loud, Durham, NC: Duke University Press, 1990

——, *The Bridge Over the Drina*, trans. Lovett F. Edwards, London: Harvill, 1995

——, *Bosnian Chronicle* or, *The Days of the Consuls*, trans. Celia Hawkesworth with Bogdan Rakić, London: Harvill, 1996

Anzulović, Branimir, *Heavenly Serbia: From Myth to Genocide*, London: Hurst and Company, 1999

Arat, Zehra F. (ed.), *Deconstructing Images of 'the Turkish Woman'*, New York, NY: St. Martin's Press, 1998

Armstrong, Karen, *The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam*, London: HarperCollins, 2000

Arnold, Thomas W., *Painting in Islam: A Study of the Place of Pictorial Art in Muslim Culture*, New York, NY: Dover Publications, 1928 (rep. 1965)

Athanassoglou-Kallmyer, Nina M., *French Images from the Greek War of Independence 1821–1830: Art and Politics under the Restoration*, New Haven, CT: Yale University Press, 1989

——, *Eugène Delacroix: Prints, Politics and Satire 1814–1822*, New Haven, CT: Yale University Press, 1991

Atiya, Aziz S., *The Crusade of Nicopolis*, London: Methuen, 1934

Atiyah, George N. (ed.), *The Book in the Islamic World: The Written Word and Communication in the Middle East*, Albany, NY: State University of New York Press, 1995

Augustinos, Olga, *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1994

Ayalon, Ami, *The Press in the Middle East: A History*, Oxford: Oxford University Press, 1995

Baker, James N., 'The Presence of the Name: Reading Scripture in an Indonesian Village' in Jonathan Boyarin (ed.), *The Ethnography of Reading*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992

Balagna, José, *L'Imprimerie arabe en Occident (XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles)*, Paris: Edition Maisonneuve, 1984

Banac, Ivo, *The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1974

Barber, Malcolm, *The New Knighthood: A History of the Order of the Temple*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Barbir, Karl K., *Ottoman Rule in Damascus 1708–1758*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1980
Barkai, Ron, *Cristianos y musulmanes en la España medieval: El enemigo en el espejo*, Madrid: Rialp, 1984
—— (ed.), *Chrétiens, musulmans et juifs dans l'Espagne medièvale de la convergence à l'expulsion*, Paris: Editions du Cerf, 1994
Barrios Aguilera, Manuel, *Moriscos y repoblación en las postrimerias de la Granada Islamica*, Granada: Diputación Provincial de Granada, 1993
Bartlett, Robert and MacKay, Angus (eds), *Medieval Frontier Societies*, Oxford: Clarendon Press, 1989
Beaugé, G. and Clément, J.-F. (eds), *L'Image dans le monde arabe*, Paris: CNRS Editions, 1995
Beckingham, C. F., *Between Islam and Christendom: Travellers, Facts and Legends in the Middle Ages and the Renaissance*, London: Variorum, 1983
Beeching, Jack, *The Galleys at Lepanto*, London: Hutchinson, 1982
Bell-Fialkoff, Andrew, *Ethnic Cleansing*, London: Macmillan, 1996
Benassar, Bartolomé, *The Spanish Character: Attitudes and Mentalities from the Sixteenth to the Nineteenth Century*, trans. Benjamin Keen, Berkeley, CA: University of California Press, 1979
Bennett, Clinton, *Victorian Images of Islam*, London: Grey Seal, 1992
Bernard, Yvelise, *L'Orient du XVIe siècle à travers les récits des voyageurs français: Regards portés sur la société musulmane*, Paris: Editions L'Harmattan, 1988
Binney, Edwin 3rd, *Turkish Miniature Paintings and Manuscripts from the Collection of Edwin Binney 3rd*, New York, NY: Metropolitan Museum of Art, 1973
Birnbaum, Henrik and Vryonis, Speros (eds), *Aspects of the Balkans: Continuity and Change*, The Hague: Mouton, 1972
Bitterli, Urs, *Cultures in Conflict: Encounters Between European and non-European Cultures, 1482–1800*, trans. Ritchie Robertson, Cambridge: Polity, 1989
Black-Michaud, Jacob, *Cohesive Force: Feud in the Mediterranean and the Middle East*, New York, NY: St. Martin's Press, 1975
Blanks, David (ed.), *Images of the Other: Europe and the Muslim World before 1700*, Cairo: American University Press, 1997
Blanks, David and Frassetto, Michael, *Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe: Perception of Other*, Basingstoke: Macmillan Press, 1999
Bloch, Maurice, *Ritual, History and Power: Selected Papers in Anthropology*, London: The Athlone Press, 1989
Bloom, Jonathan M., *Paper Before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World*, New Haven, CT: Yale University Press, 2001
Bohnstedt, John W., 'The Infidel Scourge of God: The Turkish Menace as Seen by German Pamphleteers of the Reformation Era', *Transactions of the American Philosophical Society* 58–59, Philadelphia, PA: The American Philosophical Society, 1968
Bolinger, Dwight, *Language – the Loaded Weapon: The Use and Abuse of Language Today*, London: Longman, 1980

Bond, George C. and Gilliam, Angela (eds), *Social Construction of the Past: Representation as Power*, London: Routledge, 1994
Bonner, Michael, *Aristocratic Violence and Holy War: Studies in the Jihad and the Arab-Byzantine Frontier*, New Haven, CT: American Oriental Society, 1996
Boronat y Barrachina, Pascual, *Los Moriscos Españoles y su expulsión: Estudio históricocrítico*, 2 vols, Valencia: Francisco Vives y Mora, 1901
Boswell, John, *The Royal Treasure: Muslim Communities under the Crown of Aragon in the Fourteenth Century*, New Haven, CT: Yale University Press, 1977
Bourdieu, Pierre, *Outline of a Theory of Practice* (Cambridge Studies in Social Anthropology 16), trans. Richard Nice, Cambridge: Cambridge University Press, 1977
——, 'The Field of Cultural Production' in Randal Johnson (ed.), *Essays on Art and Literature*, Cambridge: Polity Press, 1993
Bowman, Alan K. and Woolf, Gregg (eds), *Literacy and Power in the Ancient World*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Bracewell, Catherine Wendy, *The Uskoks of Senj: Piracy, Banditry and Holy War in the Sixteenth-century Adriatic*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1992
——, 'Rape in Kosovo: Masculinity and Serbian Nationalism', *Nations and Nationalism* 6 (4) 2000
Braude, Benjamin and Lewis, Bernard (eds), *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols, New York, NY: Holmes and Meier, 1982
Braudel, Fernand, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, trans. Sian Reynolds, 3 vols, London: The Folio Society, 2000
Brewer, John, *The Pleasures of the Imagination: English Culture in the Eighteenth Century*, London: HarperCollins, 1997
Bringa, Tone, *Being Muslim the Bosnian Way: Identity and Community in a Central Bosnian Village*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995
Brubaker, Leslie, *Vision and Meaning in Ninth-century Byzantium: Image as Exegesis in the Homilies of Gregory of Nazianus*, Cambridge: Cambridge University Press, 1999
Brummett, Palmira, *Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery*, Albany, NY: State University of New York Press, 1994
——, 'Dogs, Women, Cholera and Other Menaces in the Street: Cartoon Satire in the Ottoman Revolutionary Press, 1908–1911', *International Journal of Middle East Studies* 27 (1995)
——, *Image and Imperialism in the Ottoman Revolutionary Press 1908–1911*, Albany, NY: State University of New York Press, 2000
Brundage, James A., *Medieval Canon Law and the Crusader*, Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1969
Bryson, Norman, *Word and Image: French Painting of the Ancien Regime*, Cambridge: Cambridge University Press, 1981
Bunes Ibarra, Miguel Ángel de, *Los Moriscos en el pensamiento histórico: historiografía de un grupo marginado*, Madrid: Ediciones Catédra, 1983
——, *La Imagen de los musulmanes y del Norte de África en la España de los siglos XVI y XVII: Los caracteres de una hostilidad*, Madrid: CSIC, 1989
Burckhardt, Titus, *Moorish Culture in Spain*, trans. Alisa Jaffa, London: George Allen and Unwin, 1972

Burnett, Charles, *The Introduction of Arabic Learning into England: The Panizzi Lectures*, London: The British Library, 1996
Burns, R. I., *Islam under the Crusaders: Colonial Survival in the Thirteenth-century Kingdom of Valencia*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1973
Burshatin, Israel, 'The Moor in the Text: Metaphor, Emblem, and Silence' in Henry Louis Gates Jr (ed.), *Race, Writing and Difference*, Chicago: University of Chicago Press, 1985
Buxó, María Jesús, 'Bilingualismo y biculturalismo' in Antonio Carreira et al., *Homenaje a Julio Caro Baroja*, Madrid: Centro de Investigaciones Sociológicas, 1978
Cabenalas Rodriguez, Dario, *El Morisco granadino: Alonso del Castillo*, Granada: Patronato del Alhambra, 1965
Cahen, Claude, *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris: Aubier Montaigne, 1983
Campbell, Mary B., *The Witness and the Other World: Exotic European Travel Writing 400–1600*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1988
Campo, Juan Eduardo, *The Other Sides of Paradise: Explorations into the Religious Meanings of Domestic Space in Islam*, Columbia, SC: University of South Carolina Press, 1991
Cardaillac, Louis, *Moriscos y cristianos: Un enfrentamiento polémico, 1492–1640*, Madrid: Fondo de Cultura Económica, 1979
—— (ed.), *Tolède, XIIe–XIIIe: Musulmans, chrétiens et juifs – le savoir et la tolérance*, Paris: Editions Autrement, 1991
Carnoy, Dominique, *Représentations de l'Islam dans la France du XVIIe siècle: La ville de tentations*, Paris, L'Harmattan, 1998
Caro Baroja, Julio, *Los Moriscos del Reinado de Granada: Ensayo de historia social*, Madrid, n.p., 1957
——, *Las Formas complejas de la vida religiosa: Religión, sociedad y caracter en la España de los siglos XVI y XVII*, Madrid: Akal Editor, 1978
Carrier, James, *Occidentalism: Images of the West*, Oxford: Oxford University Press, 1995
Carruthers, Mary J., *The Book of Memory: A Study of Memory in Medieval Culture*, Cambridge: Cambridge University Press, 1990
Casas, Bartolomé de las, *Apologética historia sumaria*, ed. Edmundo O'Gorman, 2 vols, Mexico City: Universidad Nacional Autónoma de México, Instituto de Investigaciones Históricas, 1967
——, *History of the Indies*, trans. Andrée Collard, New York: Harper & Row, 1971
——, *Del único modo de atraer a todos los pueblos a la verdadera religión*, trans. Atenógenes Santamaría, Mexico City: Fondo de Cultura Económica, 1975
Cassels, Lavender, *The Struggle for the Ottoman Empire 1717–40*, London: John Murray, 1966
Castro, Américo, *The Structure of Spanish History*, trans. Edmund L. King, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1954
Cavallo, Guglielmo and Chartier, Roger, *A History of Reading in the West*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1999
Centlivres, Pierre and Centlivres-Demont, Micheline, *Imageries populaires en Islam*, Geneva: Editions GEORG, 1997

Certeau, Michel de, *The Writing of History*, trans. Tom Conley, New York, NY: Columbia University Press, 1988

Chadwick, Henry, *The Early Church*, rev. edn, Harmondsworth: Penguin, 1993

Chartier, Roger, *Cultural History: Between Practices and Representations*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1988

—— (ed.), *The Culture of Print: Power and the Use of Print in Early Modern Europe*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1989

——, *The Order of Books: Readers, Authors, and Libraries in Europe between the Fourteenth and Eighteenth Centuries*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1994

Chazan, Robert, *Medieval Stereotypes and Modern Antisemitism*, Berkeley, CA: University of California Press, 1997

Chebel, Malek, *L'Imaginaire arabo-musulman*, Paris: Presses Universitaires de France, 1993

Chejne, Anwar G., *The Arabic Language: Its Role in History*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969

——, *Muslim Spain: Its History and Culture*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1974

——, *Islam and the West: The Moriscos – A Cultural and Social History*, Albany, NY: State University of New York Press, 1983

Chelli, Moncef, *La Parole arabe: Une théorie de la rélativité des cultures*, Paris: Sindbad, 1980

Chew, Samuel C., *The Crescent and the Rose: Islam and England during the Renaissance*, Oxford: Oxford University Press, 1937

Chirot, Daniel (ed.), *The Origins of Backwardness in Eastern Europe: Economics and Politics from the Middle Ages until the Early Twentieth Century*, Berkeley, CA: University of California Press, 1989

Choueiri, Youssef, *Islamic Fundamentalism*, rev. edn, London: Pinter, 1997

Christades, V., 'Arabs as "Barbaroi" before the Rise of Islam', *Balkan Studies* 10 (1969)

Christiansen, E., *The Northern Crusade: The Baltic and the Catholic Frontier of Christendom 1100–1525*, London: Macmillan, 1980

Chu, Petra ten-Doesschate and Weisberg, Gabriel P. (eds), *The Popularization of Images: Visual Culture under the July Monarchy*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994

Çirakman, Asli, 'From the "Terror of the World" to the "Sick Man of Europe": European Images of Ottoman Empire and Society from the Sixteenth Century to the Nineteenth', unpublished PhD thesis, Queens University, Ontario, 1996

——, 'From Tyranny to Despotism: The Enlightenment's Unenlightened Image of the Turks', *International Journal of Middle East Studies* 33 (2001)

Clair, Colin, *A History of European Printing*, London: Academic Press, 1976

Clark, Colin, *A Chronology of Printing*, London: Cassell, 1969

Clark, Harry, 'The Publication of the Koran in Latin: A Reformation Dilemma', *The Sixteenth Century Journal* 15. 1 (Spring 1984) 3–12

Clark, Katerina and Holquist, Michael, *Mikhail Bakhtin*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984

Clogg, Richard (ed.), *The Movement for Greek Independence 1770–1821: A Collection of Documents*, London: Macmillan, 1976
—— (ed.), *Balkan Society in the Age of Greek Independence*, London: Macmillan, 1981
Coe, Penny, '"O God, the heathen have come into your inheritance" (Psalm 78.1): The Theme of Religious Pollution in Crusade Documents 1095–1188' in M. Shatzmiller, *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden: E. J. Brill, 1993
Cohen, Jeffrey Jerome, *Of Giants: Sex, Monsters and the Middle Ages*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1999
Cohen, Mark R., *Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994
Cohn, Norman, *The Pursuit of the Millennium: Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages*, rev. edn, London: Pimlico, 1993
Colbert, E. P., *The Martyrs of Cordoba 850–859*, Washington, DC: Catholic University of America Press, 1962
Collins, Roger, *Early Medieval Spain: Unity in Diversity 400–1000*, London: Macmillan, 1983
——, *The Arab Conquest of Spain 710–797*, Oxford: Basil Blackwell, 1989
Constantelos, D. J., 'The Moslem Conquests of the Near East as Revealed in the Greek Sources of the Seventh and Eighth Centuries', *Byzantion* 42 (1972)
Coope, Jessica A., *The Martyrs of Córdoba: Community and Family Conflict in an Age of Mass Conversion*, Lincoln, NE: University of Nebraska Press, 1995
Corbett, Margery and Lightbown, R. W., *The Comely Frontispiece: The Emblematic Title Page in England 1550–1660*, London: Routledge and Kegan Paul, 1979
Courbage, Youssef and Fargues, Philippe, *Christians and Jews under Islam*, trans. Judy Mabro, London: I. B. Tauris, 1998
Crampton, R. J., *Eastern Europe in the Twentieth Century*, London: Routledge, 1994
Creagh, James, *Over the Borders of Christendom and Eslamiah: A Journey through Hungary, Slavonia, Serbia, Bosnia, Herzegovina, Dalmatia, and Montenegro, to the North of Albania in the Summer of 1875*, 2 vols, London: Samuel Tinsley, 1876
Cruz, Anne and Perry, Mary Elizabeth (eds), *Culture and Control in Counter-Reformation Spain*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1992
Curtis, William Elroy, *The Turk and His Lost Provinces*, Chicago: Fleming H. Revell Co., 1903
Cutler, Allan Harris and Cutler, Helen Elmquist, *The Jew as the Ally of the Muslim: Mediaeval Roots of Anti-Semitism*, Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1986
Daftary, Farhad, *The Assassin Legends: Myths of the Ismailis*, London: I. B. Tauris, 1994
Dalton, Kathleen, *Theodore Roosevelt: A Strenuous Life*, New York, NY: Alfred J. Knopf, 2002.
Damiani, Anita, *Enlightened Observers: British Travellers to the Near East 1750–1850*, Beirut: American University of Beirut, 1979
Daniel, Norman, *The Arabs and Mediaeval Europe*, Beirut: Longman Librairie du Liban, 1975

———, *Islam and the West: The Making of an Image*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1980
———, *Heroes and Saracens: An Interpretation of the Chansons de Geste*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1984
Darnton, Robert and Roche, Daniel (eds), *Revolution in Print: The Press in France 1775–1800*, Berkeley, CA: University of California Press, 1989
Davies, Norman, *God's Playground: A History of Poland: The Origins to 1795*, Oxford: Clarendon Press, 1981
Davis, James C., *Pursuit of Power: Venetian Ambassadors' Reports on Turkey, France and Spain in the Age of Philip II*, New York, NY: Harper Torchbooks, 1970
Davison, Roderic H., 'Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the Nineteenth Century', *American Historical Review* 59:4 (1954), 844–64
De Hamel, Christopher, *The Book: A History of the Bible*, London: Phaidon, 2001
Delbruck, Hans, *Medieval Warfare*, trans. Walter J. Renfroe, Jr, Lincoln, NB: University of Nebraska Press, 1982
Deringil, Selim, *The Well Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire 1876–1909*, London: I. B. Tauris, 1998
Derrida, Jacques, *Dissemination*, trans. Barbara Johnson, London: The Athlone Press, 1993
Desmet-Grégoire, Hélène, *Le Divan Magique: L'Orient turc en France au XVIIIe siècle*, Paris: Le Sycomore, 1980
de Zayas, Rodrigo, *Les Morisques et le racisme d'état: Les voies du Sud*, Paris: Editorial La Différence, 1992
Diamandouros, Nikiforos P., Anton, John P., Petropulos, John A. and Topping, Peter (eds), *Hellenism and the First Greek War of Liberation (1821–1830): Continuity and Change*, Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, 1976
Djait, Hichem, *Europe and Islam*, trans. Peter Heinegg, Berkeley, CA: University of California Press, 1985
Dodds, Jerrilynn D., *Architecture and Ideology in Early Medieval Spain*, University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1990
Domínguez Ortiz, Antonio and Vincent, Bernard, *Historia de los Moriscos: Vida y tragedia de una minoría*, Madrid: Biblioteca de la Revista de Occidente, 1978
Douglas, Mary, *Purity and Danger: An Analysis of the Concepts of Pollution and Taboo*, London: Routledge and Kegan Paul, 1966
Douglas, Roy, 'Britain and the Armenian Question 1894–7', *The Historical Journal* 19:1 (1976)
Dozy, Reinhart, *Spanish Islam: A History of the Moslems in Spain* (1913), trans. Francis Griffin Stokes, London: Frank Cass, 1972
Drucker, Johanna, *The Alphabetic Labyrinth: The Letters in History and Imagination*, London: Thames and Hudson, 1995
Dubler, C. E., 'Sobre la crónica arábigo-bizantina de 741', *Al Andalus* 11 (1946), 298–322
Ducellier, Alain, *Chrétiens d'Orient et Islam au Moyen-Age, VIIe–XVe siècle*, Paris: Armand Colin, 1996
Dufrenoy, Marie-Louise, *L'Orient Romanesque en France 1704–1789: Etude d'histoire*

et de critique littéraires, 3 vols, vols 1 and 2, Montreal: Editions Beauchemin, 1946, vol. 3, Amsterdam: Rodopi, 1975
Dupront, Alphonse, *Le Mythe de croisade*, 4 vols, Paris: Editions Gallimard, 1997
Durham, M. Edith, *The Burden of the Balkans*, London: Thomas Nelson, 1905 (1912 reprint)
Earle, Peter, *The Corsairs of Malta and Barbary*, London: Sidgwick and Jackson, 1970
Echevarria, Ana, *The Fortress of Faith: The Attitude towards Muslims in Fifteenth-Century Spain*, Leiden: E. J. Brill, 1999
Eco, Umberto, *The Search for the Perfect Language*, trans. James Fentress, London, Fontana Press, 1997
——, *Serendipities: Language and Lunacy*, trans. William Weaver, New York, NY: Columbia University Press, 1998
Edwards, Holly, *Noble Dreams Wicked Pleasures: Orientalism in America 1870–1930*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000
Edwards, John, *Christian Córdoba: The City and Its Region in the Late Middle Ages*, Cambridge: Cambridge University Press, 1982
——, *Religion and Society in Spain* c. *1492*, Aldershot: Variorum, 1996
——, *The Spain of the Catholic Monarchs 1474–1520*, Oxford: Basil Blackwell, 2000
Eickelman, Dale F. and Piscatori, James (eds), *Muslim Travellers: Pilgrimage, Migration and the Religious Imagination*, Berkeley, CA: University of California Press, 1990
Eisenstein, Elizabeth L., *The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early Modern Europe*, 2 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1976
——, *The Printing Revolution in Early Modern Europe*, Cambridge: Cambridge University Press, 1983
Elkins, James, *On Pictures and the Words That Fail Them*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998
Emmerson, Richard Kenneth, *Antichrist in the Middle Ages: A Study of Medieval Apocalypticism, Art and Literature*, Seattle, WA: University of Washington Press, 1981
Emmert, Thomas A., *Serbian Golgotha: Kosovo 1389*, New York, NY: Eastern European Monographs, 1990
Epalza, Mikel de, *Los Moriscos antes y despues de la expulsion*, Madrid: Editorial Mapfre, 1992
Erbstosser, Martin, *The Crusades*, trans. C. S. V. Sal, Newton Abbot: David & Charles, 1978
Erdmann, Carl, *The Origin of the Idea of Crusade*, trans. Marshall W. Baldwin and Walter Goffart, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977
Esposito, John L., *The Islamic Threat: Myth or Reality?*, Oxford: Oxford University Press, 1995
Fabian, Johannes, *Time and the Other: How Anthropology Makes Its Object*, New York, NY: Columbia University Press, 1983
Fabre-Vassas, Claudine, *The Singular Beast: Jews, Christians and the Pig*, trans. Carol Volk, New York, NY: Columbia University Press, 1997
Faroqhi, Suraiya, *Subjects of the Sultan: Culture and Daily Life in the Ottoman Empire*, London: I. B. Tauris, 2000

Fentress, James and Wickham, Chris, *Social Memory: New Perspectives on the Past*, Oxford: Blackwell, 1992
Ferguson, Niall (ed.), *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, London: Picador, 1997
Findley, Carter Vaughn, 'Ebu Bekir Ratib's Vienna Embassy Narrative: Discovering Austria or Propagandising for Reform in Istanbul', *Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes* LXXXV (1995)
——, 'A Quixotic Author and his Great Taxonomy: Mouradgea d'Ohsson and his *Tableau général de l'empire othoman*', paper presented at the 19th International Congress of Historical Sciences Conference, Oslo 2000
Fine, John V. A., *The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest*, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1987
Fischer-Galati, Stephen, *Ottoman Imperialism and German Protestantism 1521–1555*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1959
Fleming, K. E., *The Muslim Bonaparte: Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999
Fletcher, R. [Richard] A., 'Reconquest and Crusade in Spain *c.* 1050–1150', *Transactions of the Royal Historical Society*, 5th series 37 (1987)
Fletcher, Richard, *The Quest for El Cid*, New York, NY: Oxford University Press, 1990
France, John, *Victory in the East: A Military History of the First Crusade*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Franolic, Branko, *A Short History of Literary Croatian*, Paris: Nouvelles Editions Latines, 1980
Frazee, C. A., *Catholics and Sultans: The Church and the Ottoman Empire, 1453–1923*, Cambridge: Cambridge University Press, 1983
Freedberg, David, *The Power of Images: Studies in the History and Theory of Response*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1989
Freedman, Paul, *Images of the Medieval Peasant*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1999
Friedman, Francine, *The Bosnian Muslims: Denial of a Nation*, Boulder, CO: Westview Press, 1996
Friedman, J. B., *The Monstrous Races in Medieval Art and Thought*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981
Friedman, Jerome, 'Jewish conversion, the Spanish Pure Blood Laws and Reformation: A Revisionist View of Racial and Religious Anti-Semitism', *The Sixteenth Century Journal* 18 1 (Spring 1987)
Fuchs, Barbara, *Mimesis and Empire: The New World, Islam and European Identities*, Cambridge: Cambridge University Press, 2001
Gabrieli, Francisco, *Arab Historians of the Crusade*, trans. E. J. Costello, London: Routledge and Kegan Paul, 1969
——, 'Islam in the Mediterranean World' in J. Schacht and C. E. Bosworth (eds), *The Legacy of Islam*, 2nd edn, Oxford: Oxford University Press, 1974
Gaignard, Catherine, *Maures et Chrétiens à Grenade 1492–1570*, Paris: L'Harmattan, 1997

Galán Sánchez, Angel, *Una visión de la 'decadencia española': La historiografía anglosajona sobre mudéjares y moriscos (siglos xviii–xx)*, Malaga: Servicio de Publicaciones, Diputación Provincial de Malaga, 1991
Gallego y Burin, Antonio and Gámir Sandoval, Alfonso, *Los Moriscos del reino de Granada según el Sínodo de Guadix de 1554*, Granada: Universidad de Granada, 1996
Gandelman, Claude, *Reading Pictures, Viewing Texts*, Bloomington, IN: Indiana University Press, 1990
García Arenal, Mercedes (ed.), *Los Moriscos*, Madrid: Editorial Nacional, 1975
García Cárcel, R., 'La Historiografía sobre los moriscos españoles: approximación a un estado de la cuestión', *Estudis* VI (1977), 73–4
Garrad, K., 'The Causes of the Second Rebellion of the Alpujarras 1568–71', unpublished Cambridge PhD thesis, 1955
Garrido Aranda, Antonio, *Moriscos e Indios: Precedentes hispanicos de la evangelización en Mexico*, Mexico City: Universidad Nacional Autonoma de Mexico, 1980
Garrido Atienza, M., *Las Capitulaciones para la entrega de Granada*, n.p., 1910
Gaskell, Philip, *A New Introduction to Bibliography*, Oxford: Oxford University Press, 1972
Gdoura, Wahid, *Le Début de l'imprimerie arabe à Istanbul et en Syrie: Evolution de l'environnement culturel (1706–1787)*, Tunis: Institut Supérieur de Documentation, 1985
Geertz, Clifford, *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia*, New Haven, CT: Yale University Press, 1982
——, *Local Knowledge*, New York, NY: Basic Books, 1983
——, *The Interpretation of Cultures*, London: Fontana Press, 1993
Geertz, Clifford, Geertz, Hildred and Rosen, Lawrence, *Meaning and Order in Moroccan Society: Three Essays in Cultural Analysis*, Cambridge: Cambridge University Press, 1979
Gellner, Ernest, 'A Pendulum Swing Theory of Islam', *The Philosophical Forum* 2:2 (Winter 1970–71)
Genette, Gérard, *Paratexts: Thresholds of Interpretation*, trans. Jane E. Lewin, Cambridge: Cambridge University Press, 1997
Gerulaitis, Leonardas Vytautas, *Printing and Publishing in Fifteenth-century Venice*, London: Mansell Information Publishers, 1976
Gibb, H. A. R. and Bowen, H., *Islamic Society and the West*, 2 vols, Oxford: Oxford University Press, 1950–57
Gibbon, Edward, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, 7 vols, London: Methuen, 1911
Gingrich, Andre, 'Frontier Myths of Orientalism: The Muslim World in Public and Popular Cultures of Central Europe', *MESS (Mediterranean Ethnological Summer School 1996)*, vol. 2, Ljubljana, 1998, 99–127
Gil, Moshe, *A History of Palestine 634–1099*, trans. Ethel Broido, Cambridge: Cambridge University Press, 1997
Gilbert, Suzanne, *Reading Images: Narrative Discourse and Reception in the Thirteenth-century Illuminated Apocalypse*, Cambridge: Cambridge University Press, 1995

Gilmont, Jean-François (ed.), *The Reformation and the Book*, trans. Karin Maag, Aldershot: Ashgate, 1998
Gilsenan, Michael, *Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Middle East*, London: I. B. Tauris, 1990
Gladstone, W. E., *The Bulgarian Horrors and the Question of the East*, London: John Murray, 1876
Glick, T. F., 'The Ethnic Systems of Pre-Modern Spain', *Comparative Studies in Society and Sociology*, I (1977)
Glick, Thomas F., *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages: Comparative Perspectives on Social and Cultural Formation*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979
Glubb, Sir John Bagot, *The Empire of the Arabs*, London: Hodder and Stoughton, 1963
——, *The Great Arab Conquests*, London: Hodder and Stoughton, 1963
Goffman, Daniel, *The Ottoman Empire and Early Modern Europe*, Cambridge: Cambridge University Press, 2002
Goitein, S. D., *Jews and Arabs: Their Contacts through the Ages*, New York: Schocken Books, 1964
——, *Studies in Islamic History and Institutions*, Leiden: E. J. Brill, 1966
——, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed by the Documents of the Cairo Geniza*, 5 vols, index vol., Berkeley, CA: University of California Press, 1967–99
Goldsworthy, Vesna, *Inventing Ruritania: The Imperialism of the Imagination*, New Haven, CT: Yale University Press, 1998
Göllner, Carl, *Turcica: Die europäischen Türkendrucke des XVI Jahrhunderts*, 3 vols, Bucharest: Academiei Republicii Socialiste România, 1961–78
Goodwin, Geoffrey, *The Janissaries*, London: Saqi Books, 1994
Goody, Jack, *The Logic of Writing and the Organisation of Society*, Cambridge: Cambridge University Press, 1986
——, *The East in the West*, Cambridge: Cambridge University Press, 1996
——, *The Power of the Written Tradition*, Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 2000
Gordon, Thomas, *History of the Greek Revolution*, 2 vols, Edinburgh: William Blackwood, 1832
Grabar, Oleg, *The Formation of Islamic Art*, 2nd edn, New Haven, CT: Yale University Press, 1983
Graham, William A., *Beyond the Written Word: Oral Aspects of Scripture in the History of Religion*, Cambridge: Cambridge University Press, 1987
Greene, Molly, *A Shared World: Christians and Muslims in the Early Modern Mediterranean*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000
Grothaus, Maximilian, 'Die "Erbfeindt christlichen Nahmens": Studien zum Turken-Feindbild in der Kultur der Habsburgermonarchie zwischen 16 und 18 Jahrhunderts', University of Graz, unpublished PhD thesis, 1986
Gayangos, Pascal de, *A History of the Mohammedan Dynasties of Spain*, London: Oriental Translation Fund of Great Britain and Ireland, 1840–43
Guichard, Pierre, *Al-Andalus 711–1492*, Paris: Hachette, 2000

Guilmartin, John Francis Jr., *Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century*, Cambridge: Cambridge University Press, 1974

Gunny, Ahmad, *Images of Islam in Eighteenth-Century Writings*, London: Grey Seal, 1996

Gutmann, Joseph, *The Image and the Word: Confrontations in Judaism, Christianity and Islam*, Missoula, MO: Scholars Press for the American Academy of Religion, 1977

Göçek, Fatma Müge, *East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*, Oxford: Oxford University Press, 1987

——, *Rise of the Bourgeoisie, Demise of Empire: Ottoman Westernisation and Social Change*, Oxford: Oxford University Press, 1996

Haddad, Yvonne Yazback and Haddad, Wadi Zaidan, *Christian-Muslim Encounters*, Gainesville, FL: University Press of Florida, 1995

Haliczer, Stephen, *The Inquisition and Society in the Kingdom of Valencia 1478–1834*, Berkeley, CA: University of California Press, 1990

Hall, Kim F., *Things of Darkness: Economies of Race and Gender in Early Modern England*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996

Hanebutt-Benz, Eva, Glass, Dagmar and Roper, Geoffrey, *Middle Eastern Languages and the Print Revolution: A Cross-Cultural Encounter*, Westhofen: WVA-Verlag Skulima, 2002

Hardin, Russell, *One for All: The Logic of Group Conflict*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995

Harris, Marvin, *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture*, London: Routledge and Kegan Paul, 1969

Harris, Max, *Aztecs, Moors and Christians: Festivals of Reconquest in Mexico and Spain*, Austin, TX: University of Texas Press, 2000

Harvey, L. P., *Islamic Spain 1250–1500*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1990

Haskell, Francis, *History and Its Images: Art and the Interpretation of the Past*, New Haven, CT: Yale University Press, 1993

Haywood, John A., *Arabic Lexicography: Its History and Its Place in the General History of Lexicography*, Leiden: E. J. Brill, 1960

Healey, John F., *The Early Alphabet*, London: British Museum Press, 1990

Henderson, Frank Stewart, *Honor*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1994

Hendricks, Margo and Barker, Patricia (eds), *Women, 'Race' and Writing in the Early Modern Period*, London: Routledge, 1994

Hentsch, Thierry, *Imagining the Middle East*, trans. Fred A. Reed, Montreal: Black Rose Books, 1992

Hernández Juberías, J., *La Península imaginaria: mitos y leyendas sobre al-Andalus*, Madrid: CSIC, 1996

Hartog, François, *The Representation of the Other in the Writing of History*, trans. Janet Lloyd, Berkeley, CA: University of California Press, 1988

Hess, Andrew, 'The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth-century Spain', *American Historical Review* LXXIV (Oct. 1968)

——, 'The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries 1453–1525', *American Historical Review* LXXV (Dec. 1970)

——, 'The Battle of Lepanto and Its Place in Mediterranean History', *Past and Present* 57 (Nov. 1972)
——, *The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth-century Ibero-African Frontier*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1978
Hillenbrand, Carole, *The Crusades: Islamic Perspectives*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1997
Hillgarth, J. N., *The Spanish Kingdoms 1250–1516*, 2 vols, Oxford: Clarendon Press, 1976–8
——, *The Mirror of Spain 1500–1700: The Formation of a Myth*, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2000
Hindman, Sandra (ed.), *Printing and the Written Word: A Social History of Books c. 1450–1520*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991
Hiro, Dilip, *Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism*, London: Routledge, 1989
Hirsch, Rudolf, *Printing, Selling and Reading 1450–1550*, Wiesbaden: Otto Harassowitz, 1967
Hiskett, Mervyn, *The Course of Islam in Africa*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1994
Hitchins, Keith, *The Romanians 1774–1866*, Oxford: Clarendon Press, 1996
Hitzel, Frédéric (ed.), *Livres et lecture dans le monde ottoman*, Aix-en-Provence: Edisud/Revue des Mondes Musulmans, 1999
Hodcraft, F. W., et al. (eds), *Mediaeval and Renaissance Studies on Spain and Portugal in Honour of P. E. Russell*, Oxford: The Society for the Study of Mediaeval Languages and Literature, 1981
Hodge, Robert and Kress, Gunther, *Language as Ideology*, 2nd edn, London: Routledge, 1993
Hodgen, Margaret T., *Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1964
Hodgson, Marshall G. S., *The Venture of Islam, Vol. 1: The Classical Age of Islam*, Chicago, IL: Chicago University Press, 1974
Hourani, Albert, *Arabic Thought in the Liberal Age: 1798–1939*, Cambridge: Cambridge University Press, 1970
——, *Europe and the Middle East*, London: Macmillan, 1980
——, *The Emergence of the Modern Middle East*, Berkeley, CA: University of California Press, 1981
——, *A History of the Arab Peoples*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991
——, *Islam in European Thought*, Cambridge: Cambridge University Press, 1991
Housley, Norman, *The Later Crusades: From Lyons to Alcazar 1274–1580*, Oxford: Oxford University Press, 1992
Houston, R. A., *Literacy in Early Modern Europe: Culture and Education 1500–1800*, Harlow: Longman, 2002
Howard, Deborah, *Venice and the East*, New Haven, CT: Yale University Press, 2000
Hoyland, Robert G., *Seeing Islam as Others Saw it: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam*, Princeton, NJ: Darwin Press, 1997

Hyatt Major, A., *People and Prints: A Social History of Printed Pictures*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1971
Ibn Khaldun, *The Muqaddimah. An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958
Irving, Washington, *Chronicle of the Conquest of Granada from the mss. of Fray Antonio Agapida*, (author's rev. edn), Philadelphia, PA: David McKay, 1894
Isaevych, Iaroslav, 'The Book Trade in Eastern Europe in the Seventeenth and Early Eighteenth Centuries' in John Brewer and Roy Porter, *Consumption and the World of Goods*, vol. 1, London: Routledge, 1993
Itzkovitz, Norman, 'Eighteenth Century: The Ottoman Realities', *Studia Islamica* XVI (1962)
——, *The Ottoman Empire and Islamic Tradition*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1980
Ivanoff, J., *Les Bulgares devant le Congrès de la Paix: Documents historiques, ethnographiques et diplomatiques*, 2nd edn, Berne: Paul Haupt, 1919
Ivic, Pavle and Pesikan, Mitar, *'Serbian Printing' in the History of Serbian Culture*, Edgware: Porthill Publishers, 1999
Ivins, W. M. Jr., *Prints and Visual Communication*, London: Routledge and Kegan Paul, 1953
Jackson, Gabriel, *The Making of Medieval Spain*, London: Thames and Hudson, 1972
Jandara, J. W., 'Developments in Islamic Warfare: The Early Islamic Conquests', *Studia Islamica* 64 (1986)
Jankowski, James and Gershoni, Israel (eds), *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East*, New York, NY: Columbia University Press, 1997
Jansen, Johannes, *The Neglected Duty: The Creed of Sadat's Assassins and Islamic Resurgence in the Middle East*, New York, NY: Macmillan, 1986
Jardine, Lisa, *Worldly Goods: A New History of the Renaissance*, London: Macmillan, 1996
Jelavich, Barbara, *History of the Balkans: Eighteenth and Nineteenth Centuries*, 2 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1983
Jephson, R. Mountjoy, *With the Colours* or *The Piping Times of Peace*, London: George Routledge and Sons, 1880
Johns, Adrian, *The Nature of the Book: Print and Knowledge in the Making*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1998
Johnson, J. T., *The Holy War Idea in Western and Islamic Traditions*, University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1997
Johnson, J. T. and Kelsay, John (eds), *Cross, Crescent and Sword: The Justification and Limitations of War in Western and Islamic Tradition*, New York, NY: Greenwood, 1990
——, *Just War and Jihad: Historical and Theoretical Perspectives on War and Peace in Western and Islamic Traditions*, New York NY: Greenwood, 1991
Jones, W. R., 'The Image of the Barbarian in Medieval Europe', *Comparative Studies in Society and History* 13 (1971)
Joseph, John E. and Taylor, Talbot J. (eds), *Ideologies of Language*, London: Routledge, 1990
Justice, David, *The Semantics of Form in Arabic, in the Mirror of European Languages*, Amsterdam and Philadelphia, PA: John Benjamins Publishing Company, 1987

Kabbani, Rana, *Europe's Myths of Orient: Devise and Rule*, Basingstoke: Macmillan, 1986
Kaegi, Walter E., *Byzantium and the Early Islamic Conquests*, Cambridge: Cambridge University Press, 1992
Kafadar, Cemal, *Between Two Worlds: The Construction of the Ottoman State*, Berkeley, CA: University of California Press, 1995
Kahf, Mohja, *Western Representations of the Muslim Woman: From Termagant to Odalisque*, Austin, TX: University of Texas Press, 1999
Karpat, K. H. (ed.), *The Turks of Bulgaria: The History, Culture and Political Fate of Minority*, Istanbul: Isis Press, 1990
Kedar, Benjamin Z., *Crusade and Mission: European Approaches towards the Muslims*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984
Kedar, B. Z., Mayer, H. E. and Smail, R. C., *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem*, Jerusalem: Yad Izhak, 1982
Keen, M. H., *The Laws of War in the Late Middle Ages*, London: Routledge and Kegan Paul, 1965
Kelsay, John, *Islam and War: A Study in Comparative Ethics*, Louisville, KY: John Knox Press, 1993
Kennedy, Hugh, *Muslim Spain and Portugal: A Political History*, Harlow: Longman, 1996
Kepel, Gilles, *The Revenge of God: The Resurgence of Islam, Christianity and Judaism in the Modern World*, trans. Alan Braley, Cambridge: Polity Press, 1994
Khalidi, Tarif, *Arabic Historical Thought in the Classical Period*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Khan, Gabriel Mandel, *Arabic Script: Styles, Variants and Calligraphic Adaptations*, trans. Rosanna M. Giammanco Frongia, New York, NY: Abbeville Press, 2001
Khoury, Adel-Théodore, *Polémique byzantine contre l'Islam: VIIIe–XIIIe siècles*, Leiden: E. J. Brill, 1972
Kiernan, V. G., *The Lords of Human Kind: European Attitudes to the Outside World in the Imperial Age*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1969
Kiraly, Bela K. and Stokes, Gale (eds), *Insurrections, Wars and the Eastern European Crisis in the 1870s*, Boulder, CO: Social Science Monographs, 1985
Kleinlogel, Cornelia, *Exotik-Erotik: Zur Geschichte des Türkenbildes in der deutschen Literatur der frühen Neuzeit (1453–1800)*, Frankfurt am Main: Peter Lang, 1989
Kortepeter, C. M., *Ottoman Imperialism during the Reformation: Europe and the Caucasus*, New York, NY: New York University Press, 1972
Kress, Gunther and van Leeuwen, Theo, *Reading Images: The Grammar of Visual Design*, London: Routledge, 1996
Kritzeck, James, *Peter the Venerable and Islam*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1964
Kunt, Metin and Woodhead, Christine (eds), *Suleyman the Magnificent and His Age: The Ottoman Empire and the Early Modern World*, London: Longman, 1995
Lacan, Jacques, *Ecrits*, trans. Alan Sheridan, London: Routledge, 2001
Ladero Quesada, Miguel Angel, *Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel I*, Valladolid: Instituto 'Isabel la Católica' de Historia Eclesiástica, 1969

——, *Granada: Historia de un país islámico (1232–1571)*, 2nd edn, Madrid: Editorial Gredos, 1979
——, *Los Reyes Católicos: La corona y la unidad de España*, Madrid: Asociación Francisco López de Gomara, 1989
——, 'El Islam, realidad e imaginación en la Baja edad Media castellana' in *Las Utopias*, Madrid: Casa de Velásquez, 1990
Lambert, Malcolm, *Mediaeval Heresy: Popular Movements from the Gregorian Reform to the Reformation*, Oxford: Blackwell, 1992
Lambton, A. K. S., 'A Nineteenth Century View of Jihad', *Studia Islamica* xxxii (1970)
Lampe, John R., *Yugoslavia as History: Twice there was a Country*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000
Landau, Jacob M., *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organisation*, Oxford: Clarendon Press, 1994
Lane Poole, Stanley, *The Moors in Spain*, New York, NY: G. P. Putnam's Sons, 1911
Lapeyre, Henri, *Géographie de l'Espagne morisque*, Paris: SEVPEN, 1959
Lapidus, Ira M., *A History of Islamic Societies*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988
Lapiedra Gutiérrez, Eva, *Como los musulmanes llamaban a los cristianos hispanicos*, Alicante: Instituto de Cultura 'Juan Gil-Albert', 1997
Laufer, Roger, 'L'Espace visuel du livre ancien', *Revue Française du Livre* 16 (1977)
Laursen, John Christian and Nederman, Cary J., *Beyond the Persecuting Society: Religious Toleration before the Enlightenment*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1998
Lea, Henry Charles, *The Moriscos of Spain. Their Conversion and Expulsion*, London: Bernard Quaritch, 1901
Lehrstuhl für Türkische Sprache, Geschichte und Kultur (ed.), *The Beginnings of Printing in the Near and Middle East: Jews, Christians, and Muslims*, Wiesbaden: Harassowitz Verlag, 2001
Lévi-Provencal, E., *La Civilizacion Arabe en España*, 4th edn, Madrid: Espasa Calpe, 1977
Lewis, A. R., *Nomads and Crusaders 1000–1368*, Bloomington, IN: Indiana University Press, 1988
Lewis, Bernard, 'Ottoman Observers of Ottoman Decline', *Islamic Studies* 1 (March 1962)
——, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1963
——, *The Muslim Discovery of Europe*, New York, NY: W. W. Norton, 1982
——, *The Political Language of Islam*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1988
——, *Islam in History: Ideas, People and Events in the Middle East*, Chicago, IL: Open Court, 1993
——, *The Multiple Identities of the Middle East*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1998
——, *What Went Wrong: Western Impact and Middle Eastern Response*, New York, NY: OUP, 2001
Liss, Peggy K., *Isabel the Queen*, Oxford: Oxford University Press, 1992
Lobrichon, Guy, *1099: Jérusalem conquise*, Paris: Editions du Seuil, 1998

Lomax, Derek W., *The Reconquest of Spain*, London: Longman, 1978
Lourie, Elena, *Crusade and Colonisation: Muslims, Christians and Jews in Medieval Aragon*, Aldershot: Variorum, 1990
Lovell, Mary S., *Rebel Heart: The Scandalous Life of Jane Digby*, New York, NY: W. W. Norton, 1995
Lowe, Lisa, *Critical Terrains: French and British Orientalisms*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991
Lynch, John, *Spain 1516–1598: From Nation State to World Empire*, Oxford: Blackwell, 1991
Lyons, Malcolm C., 'The Crusading Stratum in the Arabic Hero Cycles' in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden: E. J. Brill, 1993
——, 'The Land of War: Europe in the Arab Hero Cycles' in Angeliki E. Laiou and Roy Parviz Mottahedeh (eds), *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, Washington, DC: Dumbarton Oaks, 2001
Mabro, Judy, *Veiled Half-Truths: Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women*, London: I. B. Tauris, 1991
Macarthy, Justin, *Death and Exile: The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims 1821–1922*, Princeton, NJ: Darwin Press, 1995
MacKay, Angus, *Spain in the Middle Ages: From Frontier to Empire 1000-1500*, London: Macmillan, 1977
Mackenzie, G. Muir and Irby, A. P., *Travels in the Slavonic Provinces of Turkey in Europe with a Preface by the Right Honourable W. E. Gladstone, MP*, 2 vols, 2nd edn rev., London: Daldy Isbister and Co., 1877
Madigan, Daniel A., *The Qur'an's Self-Image: Writing and Authority in Islam's Scripture*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001
Magris, Claudio, *Danube: A Sentimental Journey from the Source to the Black Sea*, trans. Patrick Creagh, London: HarperCollins, 1990
Maier, Christopher T., *Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000
Makdisi, Saree, *Romantic Imperialism: Universal Empire and the Culture of Modernity*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998
Makdisi, Ussama, *The Culture of Sectarianism: Community, History and Violence in Nineteenth-Century Lebanon*, Berkeley, CA: University of California Press, 2000
Malcolm, Noel, *Bosnia: A Short History*, London: Macmillan, 1994
——, *Kosovo: A Short History*, London: Macmillan, 1998
Manguel, Alberto, *A History of Reading*, London: HarperCollins, 1996
Mann, Vivian B. and Glick, Thomas F., *Convivencia: Jews, Muslims and Christians in Medieval Spain*, New York: George Braziller in association with The Jewish Museum, New York, 1992
Manning, John, *The Emblem*, London: Reaktion Books, 2002
Marcus, George E. and Fischer, Michael M. J., *Anthropology as Cultural Critique: An Experimental Moment in the Human Sciences*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986
Marker, Gary, *Publishing, Printing and the Origins of Intellectual Life in Russia 1700–1800*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985

Marshall, Christopher, *Warfare in the Latin East 1192–1291*, Cambridge: Cambridge University Press, 1992
Martin, Henri-Jean, *The French Book: Religion, Absolutism and Readership 1585–1715*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1996
Martinez-Gros, Gabriel, *Identité Andalouse*, Paris: Sindbad, 1997
Marx, Robert F., *The Battle of Lepanto 1571*, Cleveland, OH: World Publishing Company, 1966
Mas, Albert, *Les Turcs dans la littérature espagnole du Siècle d'Or*, 2 vols, Paris: Centre de recherches hispaniques, Institut d'études hispaniques, 1967
Masters, Bruce, *Christians and Jews in the Ottoman Arab World: The Roots of Sectarianism*, Cambridge: Cambridge University Press, 2001
Matar, Nabil, *Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery*, New York, NY: Columbia University Press, 1999
Matvejevic, Predrag, *Mediterranean: A Cultural Landscape*, trans. Michael Henry Heim, Berkeley, CA: University of California Press, 1999
Mazower, Mark, *The Balkans*, London: Weidenfeld and Nicolson, 2000
McGarry, J. and O'Leary, B. (eds), *The Politics of Ethnic Conflict Regulation*, London: Routledge, 1993
Mellinkoff, Ruth, *The Mark of Cain*, Berkeley, CA: University of California Press, 1981
——, *Outcasts: Signs of Otherness in Northern European Art of the Late Middle Ages*, 2 vols, Berkeley, CA: University of California Press, 1994
Mertus, Julie A., *Kosovo: How Myths and Truths Started a War*, Berkeley, CA: University of California Press, 1999
Meserve, Margaret, 'The Origin of the Turks: A Problem in Renaissance Historiography', The Warburg Institute, University of London, unpublished PhD dissertation, 2001
Messick, Brinkley, *The Calligraphic State: Textual Domination and History in a Muslim Society*, Berkeley, CA: University of California Press, 1993
Metlitzki, Dorothee, *The Matter of Araby in Medieval England*, New Haven, CT: Yale University Press, 1977
Meyerson, Mark D., *The Muslims of Valencia in the Age of Fernando and Isabel: Between Co-existence and Crusade*, Berkeley, CA: University of California Press, 1991
Michel, Christian, 'Une Entreprise de gravure à la veille de la révolution: Le Tableau général de l'empire Othoman', *Nouvelles de l'Estampe*, 84 (1985)
——, *Charles-Nicolas Cochin et le livre illustré au XVIIIe siècle, avec un catalogue raisonné des livres illustrés par Cochin 1735–1790*, Geneva: Librairie Droz, 1987
Miller, Susan Gilson (ed. and trans.), *Disorienting Encounters: Travels of a Moroccan scholar in France in 1845–1846, The Voyage of Muhammad As-Saffar*, Berkeley, CA: University of California Press, 1992
Miller, William Lee, *Lincoln's Virtues: An Ethical Biography*, New York, NY: Vintage Random House, 2003
Miquel, André, *Du Monde et de l'étranger: Orient, an 1000*, Paris: Sindbad, 2001
Mishew, Dimitur, *The Bulgarians in the Past: Pages from Bulgarian Cultural History*, Lausanne: Librairie Centrale des Nationalités, 1919
Mitchell, Timothy, *Colonising Egypt*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988

Mitchell, W. J. T., *Iconology: Image, Text, Ideology*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986
——, *Picture Theory*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1994
—— (ed.), *The Language of Images*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1980
Monroe, James T., *Islam and the Arabs in Spanish Scholarship*, Leiden: E. J. Brill, 1979
Moore, R. I., *The Formation of a Persecuting Society: Power and Deviance in Western Europe 950–1250*, Oxford: Basil Blackwell, 1987
Morris, Edmund, *The Rise of Theodore Roosevelt*, New York, NY: Modern Library, 2001
——, *Theodore Rex*, New York, NY: Modern Library, 2003
Morris, Pam (ed.), *The Bakhtin Reader: Selected Writings of Bakhtin, Medvedev, Voloshinov*, London: Arnold, 1994
Moser, Stephanie, *Ancestral Images: The Iconography of Human Origins*, Stroud: Sutton Publishing, 1998
Mraz, Gerda and Mraz, Gottfried, *Maria Theresia: Ihr Leben und ihre Zeit in Bilden und Dokumenten*, Munich: Süddeutsche Verlag, 1979
Muldoon, J., *Popes, Lawyers and Infidels: The Church and the Non-Christian World 1250–1550*, Liverpool: Liverpool University Press, 1979
Musée de la Corse, *Moresca: Images et mémoires du Maure*, Ajaccio: Musée de la Corse, 1998
Musper, Heinrich T., 'Xylographic Books' in Hendrik D. L. Vervliet (ed.), *The Book Through Five Thousand Years*, London: Phaidon, 1972
Nancy, Jean-Luc and Lacoue-Labarthe, Philippe, *The Title of the Letter: A Reading of Lacan*, Albany, NY: State University of New York Press, 1992
Naphy, William G. and Roberts, Penny, *Fear in Early Modern Society*, Manchester: Manchester University Press, 1997
Necipoglu, G., *Architecture, Ceremonial and Power: The Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, Boston, MA: MIT Press, 1991
Neill, Michael, '"Mullattos", "Blacks" and "Indian Moors": Othello and Early Modern Constructions of Human Difference', *Shakespeare Quarterly* 49 (Winter 1998)
Nirenberg, David, *Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996
Norris, David A., *In the Wake of the Balkan Myth: Questions of Identity and Modernity*, Basingstoke: Macmillan, 1999
Norris, H. T., *Islam in the Balkans: Religion and Society between Europe and the Arab World*, London: Hurst and Company, 1993
Norwich, John Julius, *A History of Venice*, Harmondsworth: Penguin, 1983
——, *A Short History of Byzantium*, Harmondsworth: Penguin, 1998
O'Callaghan, Joseph F., *A History of Medieval Spain*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1975
Olson, David R., *The World on Paper: The Conceptual and Cognitive Implications of Writing and Reading*, Cambridge: Cambridge University Press, 1996
Ong, Walter J., *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word*, London: Routledge, 1982

Parker, Geoffrey, *The Military Revolution: Military Innovation and the Rise of the West 1500–1800*, 2nd edn, Cambridge: Cambridge University Press, 1996
Patton, Mark, *Islands in Time: Island Sociogeography and Mediterranean Prehistory*, London: Routledge, 1996
Pedersen, Johanes, *The Arabic Book*, trans. Geoffrey French, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984
Peirce, Leslie P., *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, New York, NY: Oxford University Press, 1993
Peristiany, J. G. (ed.), *Honour and Shame*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1965
Peters, Edward (ed.), *Christian Society and the Crusades 1198–1229*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1971
Peters, Rudolph, *Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History*, The Hague: Mouton, 1979
Petkov, Kiril, *Infidels, Turks and Women: The South Slavs in the German Mind c. 1400–1600*, Frankfurt am Main: Peter Lang, 1997
——, 'The Rotten Apple and the Good Apples: Orthodox, Catholics, and Turks in Philippe de Mézières' Crusading Propaganda', *Journal of Medieval History* 23, 3 (1997) 255–70
Petrovich, Michael Boro, *A History of Modern Serbia 1804–1918*, 2 vols, New York, NY: Harcourt Brace Jovanovich, 1976
Philips, John, *The Reformation of Images: Destruction of Art in England 1535–1660*, Berkeley, CA: University of California Press, 1973
Philips, Jonathan (ed.), *The First Crusade*, Manchester: Manchester University Press, 1997
Pi-Sunyer, Orio, 'The Historiography of Américo Castro: An Anthropological Explanation', *Bulletin of Hispanic Studies* 49 (1972)
Pinson, Mark (ed.), *The Muslims of Bosnia Herzegovina: Their Historic Development from the Middle Ages to the Dissolution of Yugoslavia*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996
Planhol, Xavier de, *Minorités en Islam: Géographie politique et société*, Paris: Flammarion, 1997
Porch, Douglas, *The Conquest of Morocco*, New York, NY: Knopf, 1983
——, *The Conquest of the Sahara*, London: Jonathan Cape, 1985
Porterfield, Todd, *The Allure of Empire: Art in the Service of French Imperialism*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998
Powell, J. M. (ed.), *Muslims under Latin Rule 1100–1300*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990
Power, Daniel and Standen, Naomi (eds), *Frontiers in Question: Eurasian Borderlands 700–1700*, Basingstoke: Macmillan Press, 1999
Prawer, Joshua, *The Crusaders' Kingdom: European Colonialism in the Middle Ages*, New York, NY: Praeger, 1972
——, *The World of the Crusaders*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1972
Prescott, William H., *The History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic*, London: Swan Sonnenschein, Le Bas and Lowrey, 1886
Preston, Cathy Lynn and Preston, Michael J., *The Other Print Tradition: Essays on*

Chapbooks, Broadsides and Related Ephemera, New York, NY: Garland Publishing, 1995

Quataert, Donald, 'Clothing, Laws, State, and Society in the Ottoman Empire', *International Journal of Middle East Studies* 29:3 (1997)

——, *The Ottoman Empire 1700–1922*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000

Rabbah, Saddek, *L'Islam dans l'imaginaire occidental: Aux sources des discours*, Beirut: Les Editions Al-Bouraq, 1998

Ralston, David B., *Importing the European Army: The Introduction of European Military Techniques and Institutions into the Extra-European World 1600–1914*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1996

Read, Jan, *The Moors in Spain and Portugal*, London: Faber, 1974

Reglá, Juan, *Estudios sobre los moriscos*, Valencia: Univesidad de Valencia, 1971

Reilly, Bernard F., *The Contest of Christian and Muslim Spain 1031–1157*, Oxford: Basil Blackwell, 1995

Renard, John, *Islam and the Heroic Image: Themes in Literature and the Visual Arts*, Columbia, SC: University of South Carolina Press, 1993

Rhodes, Neil and Sawday, Jonathan (eds), *The Renaissance Computer*, London: Routledge, 2000

Riches, David (ed.), *The Anthropology of Violence*, Oxford: Basil Blackwell, 1986

Riley-Smith, Jonathan, *The Crusades: A Short History*, New Haven, CT: Yale University Press, 1987

——, *What were the Crusades?* 2nd edn, Basingstoke: Macmillan, 1992

——, *The First Crusade and the Idea of Crusading*, London: Athlone Press, 1993

——, *The First Crusaders 1095–1131*, Cambridge: Cambridge University Press, 1997

—— (ed.), *The Crusades: Idea and Reality 1095–1274*, London: Edward Arnold, 1981

Rodgers, William L., *Naval Warfare under Oars, 4th to 16th Centuries: A Study of Strategy, Tactics and Ship Design*, Annapolis, MD: United States Naval Institute, 1939

Rodinson, Maxime, 'The Western Image and Western Studies of Islam' in J. Schacht and C. E. Bosworth (eds), *The Legacy of Islam*, 2nd edn, Oxford: Oxford University Press, 1974

——, *Europe and the Mystique of Islam*, trans. Roger Veinus, Seattle, WA: University of Washington Press, 1987

Roland, A., 'Secrecy, Technology and War: Greek Fire and the Defense of Byzantium 678–1204', *Technology and Culture* 33 (1992)

Rosell, Cayetano, *Historia de combate naval de Lepanto y juicio de la importancia y consecuencias de aquel suceso* (1853), rep. Madrid: Editora Nacional, 1971

Rosen, Lawrence, *The Culture of Islam: Changing Aspects in Contemporary Muslim Life*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 2002

Rotter, Ekkehart, *Abendland und Sarazenen: Das okzidentale Araberbild und seine Entstehung im Frühmittelalter*, Berlin: Walter de Gruyter, 1986

Rouillard, Clarence Dana, *The Turk in French History, Thought and Literature 1520–1660*, Paris: Boivin, 1941

Rubia Barcia, José (ed.), *Américo Castro and the Meaning of Spanish Civilization*, Berkeley, CA: University of California Press, 1976

Rubin, Uri and Wasserstein, David S. (eds), *Dhimmis and Others: Jews and Christians and the World of Classical Islam*, Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 1997

Runciman, Steven, *A History of the Crusades*, 2 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1951

——, *Byzantine Civilization*, (1933) London: Methuen, 1961

Russell, F. H., *The Just War in the Middle Ages*, Cambridge: Cambridge University Press, 1975

Safran, Janina, 'Identity and Differentiation in Ninth-Century Al-Andalus', *Speculum* 76 (2001), 573–98

Sahas, Daniel J., *John of Damascus on Islam: 'The Heresy of the Ishmaelites'*, Leiden: E. J. Brill, 1972

Said, Edward W., *Orientalism*, London: Routledge and Kegan Paul, 1978

——, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine how We See the Rest of the World*, London: Routledge and Kegan Paul, 1981

Sanchez-Albornóz, Claudio, *El Islam de España y el Occidente*, Madrid: Espasa Calpe, 1974

——, *Spain: A Historical Enigma*, trans. Colette Joly Dees and David Sven Reher, 2 vols, Madrid: Fundación Universitaria Española, 1975

Saunders, J. J., *A History of Medieval Islam*, London: Routledge, 1965

——, *Aspects of the Crusades*, Christchurch, NZ: Whitcombe and Tombs, 1968

Schama, Simon, *Dead Certainties: Unwarranted Speculations*, London: Granta, 1991

Schein, Sylvia, *Fideles Crucis: The Papacy, the West, and the Recovery of the Holy Land 1274–1314*, Oxford: Clarendon Press, 1991

Schimmel, Annemarie, *Calligraphy and Islamic Culture*, New York, NY: New York University Press, 1984

——, *Islamic Names*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1989

Schwartz, Stuart B. (ed.), *Implicit Understandings: Observing, Reporting and Reflecting on the Encounters between Europeans and Other Peoples in the Early Modern Era*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994

Scribner, R. W., *For the Sake of the Simple Folk: Popular Propaganda for the German Reformation*, Cambridge: Cambridge University Press, 1981

Sells, Michael A., *The Bridge Betrayed: Religion and Genocide in Bosnia*, Berkeley, CA: University of California Press, 1998

Semaan, Khalil I. (ed.), *Islam and the Medieval West: Aspects of Intercultural Relations*, Albany, NY: State University of New York Press, 1980

Sénac, Philippe, *L'Occident médiéval face à l'Islam: L'Image de l'autre* (2nd edn), Paris: Flammarion, 2000

Setton, Kenneth M., 'Lutheranism and the Turkish Peril', *Balkan Studies* 3 (1962)

——, *Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century*, Philadelphia, PA: American Philosophical Society, 1991

——, *Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom*, Philadelphia, PA: American Philosophical Society, 1992

—— (ed.), *A History of the Crusades* (vol. 1, *The First Hundred Years*, ed. M. W. Baldwin, 1955; vol. 2, *The Later Crusades*, ed. R. L. Wolff, 1962; vol. 3, *The*

Fourteenth and Fifteenth Centuries, ed. H. W. Hazard, 1975; vol. 4, *The Art and Architecture of the Crusader States*, ed. H. W. Hazard, 1977), 2nd edn, Madison, WI: University of Wisconsin Press 1969–89

Shaheen, Jack G., *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People*, Northampton, MA: Interlink, 2001

Shahin, Emad Eldin, *Through Muslim Eyes: M. Rashid Rida and the West*, Herndon, VA: International Institute of Islamic Thought, 1993

Shannon, Richard, *Gladstone and the Bulgarian Agitation 1876*, London: Thomas Nelson, 1963

Sharafuddin, Mohammed, *Islam and Romantic Orientalism: Literary Encounters with the Orient*, London: I. B. Tauris, 1996

Sherrard, Philip, *Constantinople: Iconography of a Sacred City*, Oxford: Oxford University Press, 1965

Sherwin-White, A. N., *Racial Prejudice in the Roman Empire*, Cambridge: Cambridge University Press, 1967

Shlain, Leonard, *The Alphabet and the Goddess – Male Words and Female Images: The Conflict Between Word and Image*, London: Allen Lane, 1998

Shouby, E., 'The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs', *Middle East Journal* 5 (1951)

Siberry, Elizabeth, *Criticism of Crusading: 1095–1274*, Oxford: Clarendon Press, 1985

Sicroff, Albert A., *Les Controverses des statuts de 'Pureté de Sang' en Espagne du XVe au XVIIe siècle*, Paris: Didier, 1960

Sievernich, Gereon and Budde, Hendrik (eds), *Europa und der Orient 800–1900*, Berlin: Bertelsmann, 1989

Sivan, Emmanuel, *Islam et la croisade: Idéologie et la croisade dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, 1968

Small, R. C., *Crusading Warfare 1097–1193*, Cambridge: Cambridge University Press, 1956

Smith, Colin (and Melville, C. H.), *Christians and Moors in Spain*, 3 vols, Warminster: Aris and Phillips, 1988

Smyth, Warington W. MA, *A Year with The Turks: Or Sketches of Travel in the European and Asiatic Dominions of the Sultan*, New York, NY: Redfield, 1854

Southern, Richard, *Western Views of Islam in the Middle Ages*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1962

Stavrianos, L. S., *The Balkans since 1453*, New York: Holt Rhinehart and Winston, 1958

St Clair, S. G. B. and Brophy, Charles A., *Twelve Years' Study of the Eastern Question in Bulgaria, Being a Revised Edition of 'A Residence in Bulgaria'*, London: Chapman and Hall, 1877

St Clair, William, *That Greece Might Still be Free: The Philhellenes in the War of Independence*, London: Oxford University Press, 1972

Stephanove, Constantine, *Bulgarians and Anglo-Saxondom*, Berne: Paul Haupt, 1919

Stirling-Maxwell, William, *Don John of Austria, or Passages from the History of the Sixteenth Century 1547–1578*, 2 vols, London: Longmans and Co., 1883

Stocchi, Sergio, *L'Islam nelle stampe*, Milan: BE-MA Editore, 1988

Stoianovich, Traian, *Balkan Worlds: The First and Last Europe*, Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1994

Stoye, John, *Marsigli's Europe 1680–1730: The Life and Times of Luigi Ferdinando Marsigli, Soldier and Virtuoso*, New Haven, CT: Yale University Press, 1994

——, *The Siege of Vienna* (rev. edn). Edinburgh: Birlinn, 2000

Strickland, Debra Higgs, *Saracens, Demons, and Jews: Making Monsters in Medieval Art*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003

Sugar, Peter F., *Industrialization of Bosnia Hercegovina 1878–1918*, Seattle, WA: University of Washington Press, 1963

——, *South Eastern Europe under Ottoman Rule 1354–1804*, Seattle, WA: University of Washington Press, 1977

Suleiman, Yasir, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003

Tanner, Marcus, *Croatia: A Nation Forged in War*, New Haven, CT: Yale University Press, 1997

Temimi, Abdeljelil (ed.), *Las Prácticas musulmanas de los moriscos Andaluces 1492–1609*, Zaghouan: Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information, 1989

Tenenti, Alberto, *Piracy and the Decline of Venice 1580–1615*, trans. Janet Pullan and Brian Pullan, Berkeley, CA: University of California Press, 1967

Thompson, James Westfall (ed.), *The Frankfort Book Fair: The Francofordiense Emporium of Henri Estienne* (1911), New York, NY: Burt Franklin, 1968

Thomson, H. C., *The Outgoing Turk: Impressions of a Journey through the Western Balkans*, London: William Heinemann, 1897

Throop, Palmer A., *Criticism of the Crusade: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda*, Philadelphia, PA: Porcupine Press, 1975

Todorov, Tzvetan, *Mikhail Bakhtin: The Dialogical Principle*, trans. Wlad Godzich, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1984

——, *The Conquest of America: The Question of the Other*, trans. Richard Howard, New York: HarperPerennial, 1987

——, *The Morals of History*, trans. Alyson Waters, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1995

Todorova, Maria, *Imagining the Balkans*, Oxford: Oxford University Press, 1997

Toomer, G. J., *Eastern Wisdom and Learning: The Study of Arabic in Seventeenth-century England*, Oxford: Clarendon Press, 1996

Twyman, Michael, *The British Library Guide to Printing. History and Techniques*, London: The British Library, 1998

Unamuno, Miguel de, *En torno al casticismo*, Madrid: Biblioteca Nueva, 1996

Usamah ibn-Munqidh, *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades. Memoirs of Usamah ibn-Munqidh (Kitab al-i'tibar)*, trans. Philip K. Hitti, New York, NY: Columbia University Press, 2000

van Gelder, Geert Jan and de Moor, Ed, 'The Middle East and Europe: Encounters and Exchanges', *Orientations* 1, Amsterdam, Rodopi, 1992

Van Sertima, Ivan (ed.), *The Golden Age of the Moor*, New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1992

Vaughan, Dorothy, *Europe and the Turk: A Pattern of Alliances 1350–1700*, Liverpool: Liverpool University Press, 1954
Versteegh, Kees, *The Arabic Language*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1998
Vervliet, Hendrik D. L., *Post Incunabula and their Publishers in the Low Countries*, The Hague: Martinus Nijhoff, 1978
Vespertino Rodriguez, Antonio (ed.), *Leyendas aljamiadas y moriscos sobre personajes bíblicos*, Madrid: Gredos, 1983
Veyne, Paul, *Writing History*, trans. Mina Moore-Rinvolucri, Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1984
Voet, Leon, *The Golden Compasses: A History and Evaluation of the Printing and Publishing Activities of the Officina Plantina at Antwerp*, 2 vols, London: Routledge and Kegan Paul, 1972
Volney, C. F., *Travels in Syria and Egypt during the Years 1783, 1784, and 1785*, 2 vols, Perth: 1801
Vryonis, Speros Jr, *Byzantium: Its Internal History and Relations with the Muslim World*, London: Variorum, 1971
—— (ed.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Wiesbaden: Otto Harassowitz, 1975
Wachtel, Andrew Baruch, *Making a Nation, Breaking a Nation: Cultural Politics in Yugoslavia*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1998
Wagner, Peter, *Reading Iconotexts: From Swift to the French Revolution*, London: Reaktion, 1995
Wagner, Roy, *Symbols that Stand for Themselves*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986
Walsh, Robert, *Narrative of a Journey from Constantinople to England*, London: F. Westley and A. H. Davis, 1828
Wandel, Lee Palmer, *Voracious Idols and Violent Hands: Iconoclasm in Reformation Zurich, Strasbourg and Basel*, Cambridge: Cambridge University Press, 1995
Watt, Tessa, *Cheap Print and Popular Piety 1550–1640*, Cambridge: Cambridge University Press, 1991
Watt, W. M., *The Influence of Islam on Medieval Europe*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1972
——, *Muslim–Christian Encounters: Perceptions and Misperceptions*, London: Routledge, 1991
Watts, Sarah, *Rough Rider in the White House: Theodore Roosevelt and the Politics of Desire*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 2003
Weine, Stevan M., *When History is a Nightmare: Lives and Memories of Ethnic Cleansing in Bosnia Herzegovina*, New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1999
Wheatcroft, Andrew, *The Ottomans: Dissolving Images*, London: Penguin, 1995
Whittow, Mark, *The Making of Orthodox Byzantium 600–1025*, Basingstoke: Macmillan Press, 1996
Wilken, Robert L., *The Land called Holy: Palestine in Christian History and Thought*, New Haven, CT: Yale University Press, 1992
Wills, Gary, *Lincoln at Gettysburg: The Words that Remade America*, New York, NY: Simon and Schuster, 1992

Wolf, Eric R., *Europe and the People Without History*, Berkeley, CA: University of California Press, 1990

Wolf, Kenneth Baxter, *Christian Martyrs in Muslim Spain*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988

——, (ed. and trans.), *Conquerors and Chroniclers of Early Mediaeval Spain*, Liverpool: Liverpool University Press, 1990

Wolff, Larry, *Inventing Eastern Europe: The Map of Civilisation on the Mind of the Enlightenment*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1994

——, *Venice and the Slavs: The Discovery of Dalmatia in the Age of Enlightenment*, Stanford, CA: Stanford University Press, 2001

Wolff, Philippe, *Western Languages AD 100–1500*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1971

Woodward, Bob, *Bush at War*, New York, NY: Simon and Schuster, 2002

Wortman, Richard S., *Scenarios of Power: Myth and Ceremony in Russian Monarchy*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995

Yapp, M. E., 'Europe in the Turkish Mirror', *Past and Present*, 137 (Nov. 1992)

Yared, Nazik Saba, *Arab Travellers and Western Civilization*, trans. Sumayya Damluji Shahbandar, rev. and ed. Tony P. Naufal and Jana Gough, London: Saqi Books, 1996

Yates, Timothy, *Christian Mission in the Twentieth Century*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994

Yeazell, Ruth Bernard, *Harems of the Mind: Passages of Western Art and Literature*, New Haven, CT: Yale University Press, 2000

Ye'or, Bat, *The Dhimmi: Jews and Christians under Islam*, trans. David Maisel, Paul Fenton and David Littmann, Madison, NJ: Fairleigh Dickinson University Press, 1985

——, *The Decline of Eastern Christianity under Islam. From Jihad to Dhimmitude, Seventh–Twentieth Century*, London: Associated University Presses, 1996

Yerushalmi, Yosef Hayim, *Assimilation and Racial Anti-Semitism: The Iberian and German Models*, New York, NY: Leo Baeck Institute, 1982

Young, Robert, *White Mythologies: Writing History and the West*, London: Routledge, 1990

Zernov, Nicolas, *Eastern Christendom: A Study of the Origin and Development of the Eastern Orthodox Church*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1961

Zygulski, Zdzislaw Jr, *Ottoman Art in the Service of the Empire*, New York, NY: New York University Press, 1992

المؤلف فى سطور :

أندرو هويت كروفت

تلقى تعليمه فى مدرسة سان چون بليثرثيد. وفي كريست كوليج. بكامبردج. وجامعة مدريد. وهو مؤلف العديد من الكتب فى التاريخ الحديث الباكر وفى التاريخ، منها العثمانيون (بنجوين ١٩٩٥م) والهابسبورج بنجوين (١٩٩٦). وقد عمل فى كتاب الكفار لمدة تزيد على عشر سنوات وقد أخذه بحثه إلى جميع أنحاء أوربا. وشمال أفريقيا والشرق الأوسط والولايات المتحدة الأمريكية. وقد تُرجمت كتبه السابقة إلى العربية واليونانية والإيطالية والبولندية والبرتغالية. والرومانية والإسبانية والتركية.

وأندرو هويتكروفت يقيم فى أسكتلندا وهو مدير مركز دراسات النشر بجامعة ستيرلينج. حيث يدرس أيضا بقسم الدراسات الإنجليزية .

المترجم فى سطور :

الدكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ متفرغ بجامعة الزقازيق فى تاريخ العصور الوسطى له عدة مؤلفات فى تاريخ الحركة الصليبية. وعصر سلاطين المماليك، والفكر التاريخى، والعلاقات بين المسلمين وأوروبا .

ترجم عددًا كبيرًا من الكتب فى هذه المجالات أيضا. حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٨٣م. وجائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠م، وجائزة الدولة التقديرية سنة ٢٠٠٨م.

التصحيح اللغوى : علا طعمة
الإشـــــراف الفنى : حسن كامل